ول وايريل ديورانت

قصة الحضارة

الشرق الأقصى
اليابان
حياة اليونان



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الشرق الأقصى
اليابان

ترجمة

الدكتور زكي نجيب محمود

الجزء الخامس من المجلد الأول



تونس

(٥)



بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب - بيروت - لبنان

فهرست

صفحة

صفحة

اليابان

إن « ياماتو العظمى » (أى اليابان) قطر مقدس ؛ إن بلادنا وحدها دون سائر البلدان هى التى كان « السلف الأقدس » أول من وضع أساسها ؛ إنها وحدها هى التى تعاورتها بعد إلهة الشمس سلسلة طويلة من سلالتها ؛ إنك لن تجد من هــذا القبيل شيئاً فى الأقطار الأجنبية ؛ ومن ثم سميت بالأرض المقدسة .

تشيكافوزا كيتاباتاكا ، ١٣٣٤ ، فى مردخ
تاريخ اليابان ، الجزء الأول ، ص ٧١٥

الترتيب التاريخى للمدنية اليابانية (*)

١ – بطاقة تاريخية

١ – اليابان البدائية

قبل الميلاد

حوالى ٦٦٠ دخول المغول
حوالى ٦٦٠ – ٥٨٥ جيمو ، الإمبراطور
٤١٢ – ٥٣ م إنيكو الإمبراطور
٥٢٢ م البوذية تدخل اليابان
٥٩٢–٦٢١ شوتوكوتايشى ، وصى على العرش
٥٩٣–٦٢٨ سويكو الإمبراطورة
٦٤٥ الإصلاح العظيم

٤ – اليابان الجديدة

٢ – اليابان الإمبراطورية

٦٦٨–٧١ تنشى تينو الامبراطور
٦٩٠–٧٠٢ جيتو الإمبراطور
٦٩٧–٧٠٧ مومو الإمبراطور
٧٠٢ تشريع تايهو
٧١٠–٩٤ عصر هيجو ، ناراهى العاصمة
٧٢٤–٥٦ شومو الإمبراطور
٧٤٩–٥٩ ، ٧٦٥ – ٧٠ ، كوكن الإمبراطور
٧٩٤–١١٩٢ عصر هيا ، كيوتو هى العاصمة
٨٧٧–٩٤٩ يوزى الإمبراطور
٨٩٨–٩٣٠ دايجو الإمبراطور

قبل الميلاد

٩٠١ – ٢٢ عصر إنجى

٣ – اليابان فى العصر الإقطاعى

١١٨٦–٩٩ يوريتومو
١٢٠٣–١٩ ميناموتو سانيتومو
١٢٠٠–١٣٣٣ باكوفوفى كاما كورا
١١٩٩–١٣٣٣ وصاية هوجو
١٢٢٢–٨٢ نشيرن مؤسس مذهب اللوتس
١٢٩١ قبلاى خان يغزو اليابان
١٣١٨–٣٩ جودايجو الإمبراطور
١٣٣٥–١٥٧٣ سيادة أشيكاجا
١٣٨٧–٩٥ يوشيمتسوا
١٤٣٦–٨٠ يوشيماسا
١٥٧٣–٨٢ نوبوناجا
١٥٨١–٩٨ هيديوشى
١٥٩٢ هيديوشى يفشل فى غزو كوريا
١٥٩٧ هيديوشى يطرد الكهنة
١٦٠٠ موقعة سكيجاهارا
١٦٠٣–١٨٦٧ سيادة توكوجاوا
١٦٠٣–١٦ أيياسو
١٦٠٥ حصار أوساكا
١٦١٤ مرسوم أيياسو المناهض للمسيحية
١٦٠٥–٢٣ هيديتادا
١٦٢٣–٥١ أيميتسو

(*) تواريخ الملوك تحدد مولدهم وموتهم ، فكثير منهم تنازل عن العرش أو قتل أو طرد من العرش .

بعد الميلاد

١٦٥٧ حريق طوكيو الكبير
١٦٨٠–١٧٠٩ تسونا يوشي
١٦٨٨–١٧٠٣ عصر جنروكو
١٧٠٩–١٢ أيينوبو
١٧١٦–٤٥ يوشيمونى
١٧٢١ يوشيموانى يشرع القانون الياباني
١٧٨٧–١٨٣٦ أيينارى
١٨٥٣–٨ أييسادا
١٨٥٨–٦٦ أييموش
١٨٦٦–٨ كيكى

٢ ـ الأدب

٨٤٥ –٩٠٣ سوجادارا ميشيزانى، التقديس الراعى للآداب .

١ ـ الشعر

٦٦٥ –٧٣١ ناهيتو
٧٣٧ (تاريخ موته) هيتومارو
٧٢٤ –٥٦ أكاهيتو
٧٥٠ المانيوشو
٨٨٣ –٩٤٦ تسورايايكى
٩٠٥ الكوكنشو
١١١٨–٩٠ سايجيوهوشى
١٢٣٤ الهياكو – نن – إشو
١٦٤٣–٩٤ ماتسوراباشو
١٧٠٣–٧٥ السيدة كاجانو – شيو

٢ ـ المسرحية

١٣٥٠–١٦٥٠ المسرحيات الغنائية
١٦٥٣–١٧٢٤ شيكاماتسومنزايمن

بعد الميلاد

٣ ـ القصة

٩٨٧–١٠٣١ السيدة موراساكى نو – شيكيبوا
١٠٠١–٤ قصة جنجى مونو جاتارى
١٧٦١–١٨١٦ سانتوكيودن
١٧٦٧–١٨٤٨ كيوكوى باكن
١٨٣١ (موته) جيبنشا إيكو

٤ ـ التاريخ والبحث العلمى

٧١٢ الكوجيكى
٧٢٠ النيهونجى
١٣٣٤ جنتو شوتوكى تأليف كتياباتاكى
١٦٢٢–١٧٠٤ متسوكونى
١٦٣٠ هياشى رازان يؤسس جامعة طوكيو
١٦٥٧–١٧٢٥ أراى هاكوسيكى
١٦٩٧–١٧٦٩ مابوشى
١٧٣٠–١٨٠١ موتو – أورى نوريناجا

٥ ـ المقالة

حوالى ١٠٠٠ السيدة سى شوناجون
١١٥٤–١٢١٦ كامونو – شوى

٦ ـ الفلسفة

١٥٦٠–١٦١٩ فوجيوارا سيجوا
١٥٨٣–١٦٥٧ هياشى رازان
١٦٠٨–٤٨ ناكاى توجو
١٦٣٠–١٧١٤ كايبارا إكن
١٦١٩–٩١ كومازاوا بانزان

بعد الميلاد

١٦٢٧-١٧٠٥ إيتوجنساي

١٦٦٦-١٧٢٨ أوجيوسوراي

١٦٧٠-١٧٣٦ إيتوتوجاي

٣ – الفن

١ – فن العمارة

حوالى ٦١٦ معابد هوريوجي

حوالى ١٤٠٠ قصور يوشيمتسو

١٥٤٣-٩٠ كانوييتوكو

حوالى ١٦٣٠ مدفن أيبياسو

٢ – النحت

٧٤٧ النارا دايبوتسو

٧٧٤-٨٣٥ كوبو دايشي

١١٨٠-١٢٢٠ أونكي

١٢٥٢ اكاماكورا دايبوتسو

١٥٩٤-١٦٣٤ هيداري جنجاري

٣ – الخزف

حوالى ١٢٢٩ شيروزيمون

حوالى ١٦٥٠ كاكيمون

حوالى ١٦٥٥ ننسى

١٦٦٣-١٧٤٣ كنزان

حوالى ١٦٦٤ جوتوساجيرو

١٨٥٥ (موته) زنجوروهوزن

٤ – التصوير

حوالى ٩٥٠ كوزي نو – كانادكا

حوالى ١٠١٠ ناكايوشي

حوالى ١٠١٧ ييشين سوزو

١٠٥٣-١١٤٠ توباسوجو

١١٤٦-١٢٠٥ فوجيواراتاكانوبو

حوالى ١٢٥٠ كيون (؟)

حوالى ١٢٥٠ توزاجن – نو – كوى

بعد الميلاد

١٣٥١-١٤٢٧ شودنسو

بعد الميلاد

حوالى ١٤٠٠ شوبون

١٤٢٠-١٥٠٦ شيشوشيو

١٤٩٠ (موته) كانوماسا نوبو

١٤٧٦-١٥٥٩ كانوموتونوبو

حوالى ١٦٠٠ كويتسو

١٥٧٨-١٦٥٠ إداساماتابي

١٦٠٢-٧٤ نوتانيوكا

١٦١٨-٩٤ هيشيكاوا مورونوبو

١٦٦١-١٧١٦ كورين

١٧١٨-٧٠ هارونوبو

١٧٣٣-٩٥ مارويامى أوكيو

١٧٤٢-١٨١٤ كيوناجا

١٧٤٧-١٨٢١ مورى كوزن

١٧٥٣-١٨٠٦ أوتامارو

حوالى ١٧٩٠ شاراكو

١٧٦٠-١٨٤٩ هوكوساى

١٧٩٧-١٨٥٨ هيروشيجى

٤ – اليابان الجديدة

١٨٥٣ الأميرال بري يدخل خليج أوراجا

١٨٥٤ الزيارة الثانية للأميرال بري

١٨٥٤ معاهدة كاناجاوا

١٨٦٢ مسألة رتشارد سن

١٨٦٢ ضرب كاجوشيما

١٨٦٣ «إيتو» و «إينوي» يزوران أوروبا

١٨٦٨ عودة القوة الإمبراطورية

١٨٦٨-١٩١٢ ميجى الإمبراطور

١٨٧٠ طوكيو تصبح العاصمة الإمبراطورية

١٨٧١ زوال العهد الإقطاعي

بعد الميلاد	
١٨٧٢	أول خط حديدى فى اليابان
١٨٧٧	ثورة ساتسوما
١٨٨٩	الدستور الجديد
١٨٩٤	الحرب مع الصين
١٨٩٥	ضم فرموزا
١٩٠٢–٢٢	التحالف الإنجليزى اليابانى
١٩٠٤	الحرب مع الروسيا
١٩١٠	ضم كوريا
١٩١٢	نهاية عصر ميجى
١٩١٢–٢٥	تايشو الإمبراطور

بعد الميلاد	
١٩١٤	القبض على تسنجاتو
١٩١٥	الأوامر الواحدة والعشرون
١٩١٧	اتفاق لا لسنج – إشيى
١٩٢٢	مؤتمر وشنطن
١٩٢٤	تحديد هجرة اليابانيين إلى أمريكا
١٩٢٥	هيروهيتو الإمبراطور
١٩٣١	فتح منشوريا
١٩٣٢	الهجوم فى شنغهاى
١٩٣٥	الإنذار بإلغاء اتفاق وشنطن سنة ١٩٣٦

الباب الثامن والعشرون

بناة اليابان

تاريخ اليابان مسرحية لم تكمل بعد ، قد تم منها ثلاثة فصول ، أما فصلها الأول — بغض النظر عن القرون البدائية الأسطورية — فهو اليابان البوذية الكلاسيكية (٥٢٢ — ١٦٠٣ ميلادية) التي دخلتها المدنية فجأة على أيدي الصين وكوريا ، والتي هذبها الدين وصقلها ، فخلقت آيات الأدب اليابانى والفن اليابانى فى العصر الذى يدونه التاريخ ؛ أما الفصل الثانى من المسرحية فهو اليابان الإقطاعية الآمنة التى تنسب إلى توكوجادا شوجوناتى (١٦٠٣—١٨٦٨) والتى اعتزلت العالم وحصرت نفسها فى نفسها ، لا تريد لنفسها شيئاً من اتساع الرقعة ولا تنشد تبادلا تجارياً مع الخارج ، قانعة بالزراعة منصرفة إلى الفن والفلسفة ؛ والفصل الثالث واليابان الحديثة ، التى كشف عنها الستار أسطول أمريكى سنة ١٨٥٣ ، والتى اضطرتها العوامل الداخلية والخارجية اضطراراً أن تضرب بسهم فى التجارة والصناعة ، وأن تبحث عن خامات من الخارج وأسواق فى الخارج ، وتقاتل قتالا مستميتا فى سبيل التوسع ، محاكية فى ذلك بلاد الغرب فى نزعتها الاستعمارية وطرائقها فى هذا السبيل ، مهددة بذلك سيادة الجنس الأبيض وسلام العالم ؛ وإن سوابق التاريخ كلها لتدل على أن الفصل التالى من المسرحية سيكون قتالا(*) .

لقد درس اليابانيون مدنيتنا دراسة فاحصة لكى يتشربوا معاييرها ثم يفوقوها ، فقد يكون من الحكمة أن تدرس مدنيتهم فى صبر يشبه صبرهم فى دراسة مدنيتنا ، حتى إذا ما تأزم الأمر على نحو يضطرنا إما إلى حرب أو تفاهم معهم ، كان فى مقدورنا أن نصل معهم إلى تفاهم .

(*) صدر هذا الكتاب قبل الحرب الأخيرة ، وقد جاءت الحرب مصداقاً لما تنبأ به المؤلف (المعرب)

الفصل الأول

أبناء الآلهة

كيف خلقت اليابان – أثر الزلازل

فى البداية كانت الآلهة ، هكذا يقول أقدم ما دون عن اليابان من تاريخ(١)، وكانت الآلهة تولد ذكراً وأنثى ، ثم تموت ، حتى صدر الأمر فى النهاية من شيوخ الآلهة إلى اثنين منها ، هما « إيزاناجى» و« إيزانامى» . وهما أخ وأخت من الآلهة ، أن يخلقا اليابان ، فوقفا على جسر السماء العائم ، وقذفا فى المحيط برمح مرصع بالجوهر ، ثم رفعاه إلى السماء فتقطرت من الرمح قطرات أصبحت هى « الجزر المقدسة » ؛ وشهدت الآلهة ما تصنعه الضفادع فى الماء ، فتعلمت منها سر اتصال الذكر بالأنثى ، ومن ثم التقى « ايزاناجى » و « إيزانامى » التقاء الزوجين وأنسلا الجنس اليابانى ، وولدت « أماتيراسو » — الإلهة الشمس — من عين « إيزاناجى » اليسرى وكذلك من حفيدها « نينيجى » نشأت سلسلة متصلة مقدسة حلقاتها هم كل أباطرة «دى نيبون» (أى اليابان العظمى) فمنذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا ، لم تشهد اليابان إلا هذه الأسرة الحاكمة الإمبراطورية(*)

كان الرمح المرصع بالجوهر قد قطر أربعة آلاف ومائتين وثلاثاً وعشرين قطرة ، لأن هذا هو عدد الجزائر التى يتألف منها أرخبيل الجزر الذى هو. اليابان(**): من هذه الجزر ستمائة مأهولة ، لكن ليس بينها إلا خمس لها حجم

(*) إذا اعترض معترض على هذه القصة بقوله إنها مستحيلة الحدوث ، فقد يرد على اعتراضه بما قاله « موتو – أورى » منذ زمن طويل ، وهو أعمق النقاد اليابانيين أثراً ، إذ قال إن تناقض القصة نفسه هو دليل صدق روايتها إذ من ذا تسوغ له نفسه أن يلغى عقله إلغاء يتيح له أن ينتحل قصة قد بلغت كل هذا الحد الظاهر من تفاهة واستحالة على التصديق ؟ » (٢) .

(**) كلمة اليابان قد تكون تحريفاً لفظة تستعمل فى الملايو ومعناها جزر وهى —

جدير بالاعتبار ؛ أما أكبرها فهى « هوندو » أو « هونشو » ويبلغ طولها ١١٣٠ ميلا ومتوسط عرضها هو ٧٣ ميلا ، ومساحتها واحد وثمانون ألف ميل مربع ، وهى تعادل نصف مساحة الجزر كلها ، ويشبه موقعها — كما يشبه تاريخها الحديث — موقع انجلترا وتاريخها : فقد حمتها البحار المحيطة بها من الغزوات ، وحملتها سواحلها الطويلة التى يبلغ مداها ثلاثة عشر ألف ميل على أن تكون أمة بحرية ، فكأنما قضى عليها المؤثر الجغرافى والضرورة التجارية أن تبسط لنفسها سيادة واسعة على البحار ؛ وتلتقى الرياح والتيارات البحرية الدافئة الآتية من الجنوب ، بالهواء البارد الهابط من قمم الجبال ، فينتج عن ذلك فى اليابان مناخ إنجليزى تملؤه الأمطار ، وتكثر فيه الأيام الغائمة بالسحب(٤) ، ومن ثم تمتلىء أنهارها القصيرة السريعة الانحدار ، ويزدهر فيها النبات وتزدان المناظر ، فهاهنا — إذا ما بعدت عن المدن والمساكن العتيقة القذرة — ترى نصف البلاد جنة عدن فى ازدهارها ، وليست جبالها أكداساً مركومة من الصخر والقذر ، بل هى ذوات أشكال فنية ، تكاد تبلغ فى تخطيطها حد الكمال ، كما هى الحال فى فيوجى(*) .

ولا شك أن هذه الجزر قد ولدتها الزلازل لا القطرات التى انتثرت من الرياح(٦) ؛ فليس على الأرض مكان — وربما جاز أن نستثنى أمريكا الجنوبية — قد عانى كل ما عانته اليابان من اضطراب أرضها ، فحدث سنة ٥٩٩ أن اهتزت

— « ياباج » أو « يابون » ؛ وهذه اللفظة الأخيرة هى ما تقابل فى اليابانية كلمة « نيبون » ثم هذه بدورها هى تحريف الكلمة الصينية التى معناها « المكان الذى تشرق منه الشمس » وهى « جب — پن » ؛ وينعت اليابانيون كلمة « نيبون » عادة بكلمة « داى » ومعناها العظمى(٣) .

(*) « فيوجى سان » (أو قد يسمى حديثاً فيوجى ياما) هو معبود الفنانين والكهنة ، ويكاد يكون فى شكله مخروطاً مندرج السفوح تدرجاً سهلا ، وترتفع قمته ١٢٣٦٥ قدماً ، يصعدها ألوف من الحجاج كل عام ؛ وكانت آخر مرة ثار فيها بركان فيوجى فى سنة ١٧٠٧(٥) .

الأرض وابتلعت قرى بأكملها فى فمها الضاحك ، وهوت الشهب ولمعت المذنّبات وابيضت الشوارع بالثلج فى منتصف يوليو ، وأعقب ذلك قحط ومجاعة ، وقضى من اليابانيين ألف الألوف ، وكذلك حدث سنة ١٧٠٣ أن قضى زلزال على اثنين وثلاثين ألفاً فى طوكيو وحدها ، وعادت العاصمة سنة ١٨٨٥ فتقوض بنيانها من جديد ، وانفرجت الأرض عن فجوات واسعة ابتلعت فى جوفها ألوفاً ، وجعلوا يحملون جثث الموتى فى عربات النقل ليقذفوا بها بعيداً جماعات جماعات ؛ وفى زلزال ١٩٢٣ أتت موجة المد وألسنة النار على مائة ألف نفس فى طوكيو ، وسبعة وثلاثين ألف نفس فى يوكاهاما وما يجاورها ، وأما كاما كورا — التى طالما أحسنت ابوذا — فكادت تندك من أساسها[٧] ، مع أن التمثال النحيل الذى كان قائماً هناك للقديس الهندى (يقصد بوذا) قد لبث وسط هذا الخراب الشامل قائماً كما هو ، لم يصبه سوى ارتجاج ، كأنما أراد بقيامه ذاك سليماً من الأذى أن يضرب مثلا يوضح للناس أهم درس يلقيه التاريخ — وهو أن الآلهة يمكن لها أن تصمت فى مختلف اللغات ؛ ولبث الناس فى حيرة تملكتهم حيناً ، كيف ينزل هذا الخراب كله بأرض خلقتها الآلهة وتحكمها الآلهة ؛ وأخيراً فسروا هذا الاضطراب بأن سمكة ضخمة تحت الأرض انزعجت فى نعاسها فاهتزت[٨] ويظهر أن لم يطرأ ببال أحد إذ ذاك أن يغادر تلك المدينة التى تعرض ساكنيها لأكبر الخطر ؛ ففى اليوم التالى لاهتزاز الأرض بزلزالها العظيم الأخير ، استخدم صبية المدارس قطعاً من مادة الطلاء المتناثرة أقلاماً ، والأحجار الارتوازية المنثورة من بيوتهم المحطمة ألواحاً[٩] واحتملت الأمة صابرة هذه الضربات من يد القدر وخرجت من هذا الدمار المتكرر نشيطة نشاطاً لا سبيل إلى الحد منه ومقدامة على نحو ما يكون المتفائل إقداما .

الفصل الثاني

اليابان البدائية

مقوماتها الجنسية — مدنيتها الباكرة — الدين « شنتو » — البوذية — بدايات الفن — « الإصلاح العظيم »

لقد ضاعت الأصول اليابانية — كما ضاع غيرها من أصول الامم — في خليط عام من النظريات ، فيظهر أن الجنس الياباني مزيج من عناصر ثلاثة : عنصر بدائي أبيض جاء عن طريق « الأينوين » الذين وفدوا إلى اليابان من منطقة نهر أمور في العصر الحجري الأخير ؛ وعنصر أصفر مغولي جاء من كوريا أو عبر خلالها في نحو القرن السابع قبل المسيح ؛ وعنصر قاتم من الملايو وأندونسيا تسرب إلى البلاد من جزر الجنوب : ففي اليابان — كما في أي بلد آخر — شهدت البلاد خليطاً من عناصر مختلفة قبل أن تشهد — بمئات السنين — قيام نمط جنسي جديد يتكلم بلغة جديدة وينشىء مدنية جديدة ، وكون عملية المزج بين هذه الأجناس لم تبلغ تمامها بعد ، تراه ظاهراً في الفوارق التي بين الارستقراطي الطويل النحيل طويل الرأس ، وبين الرجال من الشعب في قصره وبدانته ورأسه العريض .

وتصف الروايات التاريخية الصينية التي ترجع إلى القرن الرابع ، تصف اليابانيين بأنهم «أقزام» ، ثم تضيف إلى ذلك أنهم «لايعرفون الثيرة ولاالوحوش الكاسرة ؛ وهم يشيمون وجوههم بزخارف تختلف شكلا باختلاف المنزلة الاجتماعية ، ويلبسون رداء مصنوعاً من قطعة واحدة ، ولديهم حراب وقِسِيٌّ ورماح في أطرافها حجر أو حديد ، وهم لا يلبسون أحذية ، ومن خصائصهم طاعة القانون وتعدد الزوجات ويدمنون الشراب وهم طوال الأعمار .

ونساءهم يطلين أجسامهن بالأحمر والقرمزى »[١١] . وتروى هذه المدوّنات عنهم « أن ليس يقع بينهم سرقة ، وقلما يشكو أحد منهم أحداً إلى القضاء »[١٢] ، ولم تكد المدنية تبدأ عندهم ، وقد صور « لافكاديوهيرن » — مدفوعاً بصدق نظره وبحبه لذلك العصر القديم — صوره فردوساً لا يشوبها استغلال أو فقر ؛ ووصف « فنلوزا » طبقة الفلاحين إذ ذاك بأنها مكونة من سادة عسكريين مستقل بعضهم عن البعض[١٣] ؛ وجاءت الصناعات اليدوية إلى اليابان من كوريا فى القرن الثالث الميلادى ، وسرعان ما انتظمتها نقابات[١٤] ، ودون هؤلاء الصناع اليدويين ، كانت تقع طبقة كبيرة من العبيد ، جُمع أفرادها من المسجونين وأسرى الحروب[١٥] ، وكان النظام الاجتماعى إقطاعياً إلى حد ما وقبلياً إلى حد ما ، فكان بعض الفلاحين يزرعون الأرض عبيداً للسادة أصحاب الأرض ، ولكل قبيلة رئيس يكاد يكون ملكاً عليها[١٦] ، وكانت الحكومة بدائية فى تفككها وضعفها .

كانت العاطفة الدينية عند اليابانيين الأولين تجد ما يشبعها فى العقيدة بأن لكل كائن روحاً ، وفى الطوطمية ، وفى عبادة الأسلاف وعبادة العلاقة الجنسية[١٧] ؛ فعندهم أن الأرواح سارية فى كل شىء — فى كواكب السماء ونجومها ، فى نباتات الحقل وحشراته ، والأشجار والحيوان والإنسان[١٨] ، ويعتقدون أن عدداً لا يحصى من الآلهة يحوم فوق الدار وساكنيها ويرقص مع ضوء المصباح ووهجه إذا رقص[١٩] ، والاتصال بالآلهة يكون عندهم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة ، وبفحص العلامات والخطوط التى تحدثها النار ، فحصاً تستمد فيه المعونة من الخبراء ؛ وتذكر لنا المدونات القديمة الصينية أنه بهذه الطريقة « كان اليابانيون يستوثقون من طيب الحظوظ وخبيثها ، ومن ملاءمة الظروف لقيامهم برحلات برية وبحرية أو عدم ملاءمتها »[٢٠] . كانوا يخافون الموتى ويعبدونهم ، لأن غضبهم قد ينزل بالعالم شراً مستطيراً ؛ فلكى يسترضوا هؤلاء الموتى ، كان لزاماً عليهم أن يضعوا لهم النفائس فى

قبورهم — كأن يضعوا سيفاً إذا كان الميت رجلا ، ومرآة إذا كانت امرأة ، وكانوا يؤدون الصلاة ويقدمون فاخر الطعام أمام صور أسلافهم فى كل يوم[٢١] وكانوا يلجأون إلى التضحية البشرية آناً بعد آن توسلا لإيقاف مطر غزير ، أو ضماناً لثبات بناء أو جدار ، وكان يحدث أحياناً أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذى مات ليدافعوا عنه فى أولى مراحل حياته الآخرة[٢٢] .

ومن عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة قائمة فى اليابان ، وهى « شنتو » أى « طريق الآلهة » ولها صور ثلاث : العقيدة المنزلية التى تتجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة ، وعقيدة الدولة التى تتجه بالعبادة إلى الحاكمين الأسلاف وهم الآلهة الذين أسسوا للدولة بناءها ؛ فكانوا يخاطبون السلف المقدس الأول الذى عنه جاءت سلسلة الأباطرة ، ضارعين سبع مرات كل عام ، فيتوجه إليه الإمبراطور نفسه بالدعاء ، أو من ينوب عن الإمبراطور ؛ ثم كانوا يؤدون له صلاة خاصة إذا ما همت الأمة بالاضطلاع بمشروع تراه استثنائياً فى قداسته ، مثل الاستيلاء على شانتونج (سنة ١٩١٤)[٢٣] ؛ ولم تكن ديانة « شنتو » بحاجة إلى تفصيل مذهبى أو طقوس معقدة أو تشريع خلقى ، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها ، كلا ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء فى نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس ؛ فكان كل ما تطالب به معتنقيها أن يحجوا آناً بعد آن لأسلافهم وأن يقدموا لهم ضراعة الخاشعين ، ويفعلوا كذلك لإمبراطورهم ولماضى أمتهم ؛ وقد حلت لهم عقيدة أخرى محل هذه العقيدة حيناً ، لأنها مسرفة التواضع فى جزائها التى تعد به ، وفى أوامرها التى تلزم بها الناس .

وفى سنة ٥٢٢ جاءت البوذية — وكانت قد دخلت الصين قبل ذلك بخمسمائة عام — إلى اليابان خلال القارة الآسيوية ، فأخذت تغزو أرجاءها غزواً

سريعاً ؛ وقد تآمر عاملان فكتبا لها النصر ، وهما : الحاجات الدينية عند الشعب ، والحاجات السياسية عند الدولة ، لأنه لم تكن بوذية بوذا هي التي جاءت إلى اليابان ، بما عرفت به تلك البوذية من لا أدرية وتشاؤم وتزمت وشوق إلى النعيم الناشئ عن انمحاء الفرد في الكل ، بل جاءتها بوذية « ماهايانا » بآلهتها الوديعة من أمثال « أميدا » « وكوانون » ، وباحتفالاتها الدينية البهيجة ، واعترافها ببوذيين منتظرين يخاصون البشر ، وبخلود الروح الإنسانية ، ثم ما هو خير من ذلك ، جاءت هذه البوذية تبث في النفوس بأسلوب لا يقاوم لفرط رقته ، كل فضائل الورع والسلام والطاعة التي يمكن أن تصوغ الناس صياغة تجعلهم أكثر انصياعاً للحكومة ؛ وراحت تفسح للمظلومين من الأمل والعزاء ما يجعلهم راضين قانعين بشظف عيشهم ؛ وتخفف من وطأة الحياة الكادحة وما فيها من برود يشبه برود النثر وفتور العمل المكرور المعاد ، بما تبثه في تلك الحياة من شعر متمثلة في الأساطير والصلاة ، ومن مسرحية تتمثل في الاحتفالات البهيجة ، وهيأت للناس سبيل الوحدة في الشعور والعقيدة ، وهما شيئان طالما رحب بهما الساسة ، لأنهما أصل النظام الاجتماعي ، ودعامة القوة القومية .

ولسنا ندري أكانت هي السياسة أم الورع ، هو الذي كتب النصر للبوذية في اليابان ، فلما مات الإمبراطور « يومى » سنة ٥٨٦ ميلادية ؛ تنازعت وراثة العرش من بعده أسرتان متنافستان ، تنازعاً استخدمت فيه السلاح ، واعتنقت كلتاهما العقيدة الدينية الجديدة اعتناقاً سياسياً ، واستطاع الأمير « شوتوكوتايشي » — الذي يقال عنه إنه ولد وفي يده تميمة مقدسة — أن ينتهي بالحزب البوذي إلى النصر ، ثم أقام على العرش « الإمبراطورة سويكو » . ولبث تسعة وعشرين عاماً (٥٩٢ — ٦٢١) يحكم الجزر المقدسة أميراً امبراطورياً ووصياً على العرش وراح يغدق العطاء لمعابد البوذيين ، ويشجع رجال الدين البوذي ويعينهم ،

ويدخل الأخلاق البوذية فى صلب القوانين القومية ، حتى لقد أصبح بوجه عام للبوذية اليابانية ما كان « أشوكا » لها فى الهند » وامتدت رعايته إلى الفنون والعلوم ، واستقدم الفنانين ومهرة الصناع من كوريا والصين ، وكتب التاريخ ، ورسم التصاوير . وأشرف على بناء معبد « هوريوجى » ، وهو أقدم آية بقيت لنا فى تاريخ الفن اليابانى .

لكن على الرغم مما تركه هذا الرجل الناشر لأسباب الحضارة من مختلف الآثار ، وعلى الرغم من كافة الفضائل التى راحت البوذية تبثها فى النفوس أو تبشر بها ، فقد طغت على اليابان أزمة أخرى عنيفة ، ولم يكن قد مضى على موت « شوتوكو » جيل واحد ؛ ذلك أن ارستقراطياً طموحاً ، هو « كاماتارى » قد دبر مع « الأمير تاكا » ثورة فى القصر ، كانت بداية واضحة لتغير مجرى التاريخ السياسى فى « نيبون » (اليابان) حتى ليشير إليها المؤرخون من أبناء البلاد فى حماسة وطنية فيصفونها بقولهم « الإصلاح العظيم » (سنة ٦٤٥) ؛ فقد قتل ولى العهد ، وأجلس على العرش ملك كهل لم يكن إلا صورة ، وكان الأمر فى يد « كاماتارى » باعتباره رئيساً للوزراء ، فطفق بمعونة « الأمير تاكا » — حين كان لم يزل ولياً للعهد ، ثم حين أصبح هو الإمبراطور تنشى » — يعيد بناء الحكومة اليابانية بحيث جعلها سلطة إمبراطورية أوتوقراطية ؛ وارتفع الحاكم من مجرد كونه زعيما لكبرى القبائل ، إلى سلطة شاملة تسيطر على كل موظف فى اليابان ، فهو الذى يعين كل الحكام ، وتدفع له الضرائب كلها مباشرة ، وأعلن أن البلاد كلها ملك يمينه ؛ وبهذا سارت اليابان بخطوات سريعة من ارتباط بين القبائل مخلخل العرى ورؤساء قبائل يشبهون أطراف الإقطاع ، إلى دولة ملكية وثيقة العرى فيما يربط بين أجزائها .

الفصل الثالث

العصر الإمبراطورى

الأباطرة — الأرستقراطية ، تأثير الصين . عصر كيوتو الذهبى — التدهور

منذ ذلك الوقت فصاعدا ، جعل الإمبراطور يتمتع بألقاب ضخمة ، فكان يسمى أحياناً « تنشى » أو « شمس السماء » على أن اسمه كان غالباً « تنو » أى « الملك السماوى » ونادراً ما كان يطلق عليه « ميكادو » أى « الباب المجيد » ؛ وكان من امتيازه أن يطلق عليه اسم جديد بعد موته ، يعرف فى التاريخ باسم خاص يختلف كل الاختلاف عن الاسم الذى أطلق إبان الحياة ؛ ولكى يضمن اتصال النسل الإمبراطورى ، كان للإمبراطور الحق فى أى عدد شاء من الزوجات أو الرفيقات ؛ ولم يكن حتما أن يهبط الملك إلى أكبر الأبناء ، بل تؤول ولاية العرش من بعده إلى من كان فى رأيه هو ، أو فى رأى أبطال العصر أقرب أبنائه إلى أن يكون أقواهم ، أو أضعفهم على العرش [فيختار أقواهم إن كان الذى يختار هو الملك ، ويختار أضعفهم إن كان الذى يختارهم أعلام العصر ذوو المصالح الشخصية] وكان الأباطرة فى بواكير العصر الكيوتى يميلون إلى الورع ، حتى لقد تنازل بعضهم عن العرش ليجعلوا من أنفسهم رهباناً بوذيين ، وحرَّم أحدهم السِّماكة على أنها إساءة إلى بوذا(٥) ؛ لكننك نجد بينهم « يوزى » يشذ عن هذا المجرى ، ويتعب الناس بنشاطه ، فجاء مثلا يوضح كيف تكون الأخطار التى يستهدف لها الملك إذا نشط ؛ فكان يأمر الناس أن يصعدوا الأشجار ثم يرميهم بقوسه ونشابه ، ويمسك بالعذارى فى الطرقات ، ويوثق قيدهن بأوتار قيثارة ويقذف بهن فى البرك ، وكان مما يمتع جلالته أن يركب جائساً خلال العاصمة فيلهب الناس بسوطه ليدفعهم إلى العمل ، لكن رعيته خلعته عن العرش آخر الأمر بثورة أعلنت فيها

العصيان السياسى الذى هو بمثابة الخروج على حدود التقوى وهو شىء نادر الوقوع فى تاريخ اليابان[٢٦] ؛ وحدث سنة ٧٩٤ أن انتقلت مراكز الحكومة من « نارا » إلى « ناجاوكا » ثم لم تلبث بعدئذ أن انتقلت إلى كيوتو (أى عاصمة السلام) فظلت هى العاصمة خلال أربعة القرون (٧٩٤ — ١١٩٢) التى يجمع معظم المؤرخين على أنها كانت فى اليابان عصرها الذهبى ، فلما أن كانت سنة ١١٩٠ بلغ سكان كيوتو نصف المليون ، وهو ما لم تبلغه أية مدينة أوروبية فى العصر ما عدا القسطنطينية وقرطبة[٢٧] ، وقد خصص جزء من المدينة لأكواخ الناس وحظائر لماشيتهم ، والظاهر أن قد نعم هؤلاء الناس بعيشهم رغم فقرهم المدقـــع ؛ ثم خصص آخر — جعلوه معزولا بما تقتضيه الحكمة لحدائق العلية والأسرة الإمبراطورية وقصورهم ؛ وكان يطلق على حاشية الإمبراطور بحق « سكان ما فوق السحب »[٢٨] لأن تقدم الحضارة وارتفاع الأساليب الفنية كان من نتائجها فى اليابان — كما هى الحال فى غيرها — ازدياد الفوارق الاجتماعية ؛ وبهذا زالت المساواة التقريبية التى كانت تسود الناس فى باكورة الأيام ، وحل محلها تفاوت لا مندوحة عن وقوعه إذا ما قُسِّمت الثروة المتزايدة بين الناس على قدراتهم المختلفــة وشخصياتهم وامتيازاتهم المتباينـــة ؛ ونشأت أسرات كبيرة ، مثل الـ « فوجيوارا » والـ « تايْرا » والـ « ميناموتو » والـ « سوجا وارا » ، وهى أسرات كانت تقيم الأباطرة وتخلعهم ، ويحارب بعضها بعضاً على النحو العنيف الذى شهدته أيام النهضة الإيطالية ؛ ولقد قرَّب « سوجاوارا متشيزانى » نفسه من قلوب اليابانيين لرعايته للأدب ، وهو الآن معبود لديهم بوصفه إلهاً للآداب ، وتعطل المدارس تكريماً له فى الخامس والعشرين من كل شهر ؛ وكذلك امتاز الشاب « ميناموتو سانيتومو » بإنشائه فى الصباح السابق لاغتياله هذه المقطوعة الشعرية الساذجة ، التى تمثل الأسلوب اليابانى فى أنصع صوره :

إذا لم أعد إليك ثانياً
يا شجرة البرقوق التي تجاور داري
فلا تنسي أنت موعد الربيع
وازدهري ما وسعك الازدهار

ولبثت اليابان في عهد « دايجو » المتنوّر (٨٩٨ — ٩٣٠) وهو أعظم الأباطرة الذين أقامتهم على الحكم قبيلة فوجيوارا ، لبثت في عهده تتشرب — بل بدأت تنافس — ثقافة الصين وأسباب ترفها ، التي كانت عندئذ في أعلى ذرى ازدهارها في عهد « تانج » ؛ ولما كانت اليابان قد استمدت عقيدتها الدينية من « المملكة الوسطى » فقد طفقت تستمد من المعين نفسه لباسها وألعابها وطهيها وكتابتها وشعرها وأساليب حكومتها وموسيقاها وفنونها وبساتينها وعمارتها ، بل خُطِّطت عاصمتاها الجميلتان « نارا » و « كيوتو » على غرار « شانجان » ؛ فقد استوردت اليابان ثقافة الصين منذ ألف عام ، كما تستورد ثقافة أوربا وأمريكا في عصرنا هـــذا ، وهي في هذا تتعجل أولاً ثم تتمهل لتنتقي وتختار ثانياً ؛ لكنها تحتفظ بروحها الخاصة وشخصـــيتها الخاصة غيرة عليهما ، ولا تدخر في وسعها جهداً في سبيل مداومة الأساليب الجديدة إلى الأغراض القومية القديمة .

ودخلت اليابان في عهدها « الأنجي » (٩٠١ — ٩٢٢) الذي يعتبر ذروة العصر الذهبي(*) مدفوعة إلى ذلك الصعود بحافز من جارتها العظيمة ، وبوقاية

(*) يقول فنولوزا المتحمس : « هذا العهد الذي يسمى بالعهد « الأنجي » هو بغير شك أعلى ذروة بلغتها الحضارة اليابانية ، كما كان عهد « منج هوانج » ذروة الحضارة في الصين ، فلن تبلغ الصين أو اليابان بعد الآن ما كانتا بلغتاه إذ ذاك ثراء وفخامة وخصوبة في ذرى العبقرية الحرة ... فمن حيث الثقافة السامة وترف الحياة الذي تناول العقل والروح معاً ، لم يشهد العالم بمثيله لتلك الفخامة ، لا نقول في اليابان وحدها ، بل في الدنيا بأسرها »(٣١)

حكومة منظمة مستتبة ، فتراكمت الثروة واتجه إنفاقها نحو أسباب حياة مترفة رقيقة تشيع فيها الثقافة بحيث لا يكاد يضارعها فى ذلك مثيل حتى جاءت عصور أسرة مديتشى و « صالونات » « التنوير الفرنسى [*] .

وأصبحت « كيوتو » هى بمثابة باريس وفرساى فى فرنسا ، رقيقة فى شعرها وثيابها ، رشيقة فى أخلاقها وفنونها ، تضع للأمة كلها معايير المعرفة والذوق ، وانفتحت « الشهية » عند الناس على اختلاف صورها وإلى آخر حدودها وآمادها ، فابتكر الطهاة صنوفاً جديدة من شهىّ الطعام ، وكدسوا الآكال تكديساً ليشبعوا أصحاب النهم وأرباب الذوق فى الطعام على حد سواء ، وغُض الطرف عن جرائم الزنا على أساس أنها من أتفه خطايا الإنسان[٣٢] ، وتزمّل كل سيد أو سيدة بالحرير ونفيس الثياب ، وكنت ترى مختلف الألوان متناسقة على كل كمّ تلبسها ذراع ، وازدانت حياة المعابد والقصور بالموسيقى والرقص كما أشاع الرقص والموسيقى وروح الرشاقة فى بيوت العِلْية التى كانت تحاط بروائع المناظر الطبيعية من الخارج ، وتزدان صقلا من الداخل بما فيه من آيات البرونز واللؤلؤ والعاج والذهب والخشب الذى حفر حفراً بلغ الغاية القصوى من دقة الحفر[٣٣] ؛ لقــد ازدهر الأدب إذ ذاك وانحلّت الأخلاق .

أمثال هذه العصور التى تتلألأ بجوانب الرقة ، يغلب ألا تدوم طويلا ، لأنها ترتكز ارتكازاً مقلقلا على ثروة متراكمة يمكن فى أية لحظة أن تذروها عوامل تذبذب التجارة ، وقلق الطبقات المستغَلّة وتقلبات الحروب ؛ وقد أدى إسراف القصر آخر الأمر إلى إفلاس الدولة وارتفعت الثقافة بحيث رجحت كفتها بالقياس إلى القدرة العلمية ، فانتهى ذلك إلى ملء المناصب الإدارية بمتشاعرين عاجزين ، وأخذ الفساد يتكاثر تحت أنوفهم المعطّرة دون أن يستوقف انتباههم ، ثم أصبحت المناصب آخر الأمر تباع لمن يدفع فى شرائها أغلى ثمن[٣٤] وازدادت الجرائم بين الفقراء بقدر ما ازدادت أسباب

(*) عهد التنوير فى فرنسا هو القرن الثامن عشر . (المعرب)

الترف بين الأغنياء ، وانبث وباء اللصوص والقراصنة فى الطرقات والبحار ، فكانوا ينقضُّون على كل فريسة تقع فى أيديهم ، لا فرق عندهم بين الإمبراطور والشعب ، ويسطون على جباة الضرائب فيسلبونهم ما كانوا يحملونه إلى القصر من أموال ، ونظمت عصابات من اللصوص فى الأقاليم ، بل وفى العاصمة نفسها ، وكان يتاح لأخطر مجرم فى اليابان — كما هى الحال عندنا — أن يعيش فى رفاهية علنية ؛ لأنه كان من القوة بحيث يتعذر على أولى الأمر أن يقبضوا عليه أو يسيئوا إليه (٣٥) ، وأهمل الناس عاداتهم وفضائلهم الحربية ، وتراخوا فى نظامهم العسكرى والأهبة للدفاع ، بحيث باتت الحكومة مفتوحة الصدر لكل ضربة يسددها إليها من شاء من القراصنة القساة ؛ وراحت الأسر الكبيرة تجيِّش لنفسها جيوشها ، فبدأت بذلك عهداً من حروب أهلية ، ولبثت تناضل بعضها بعضاً نضالا تسوده الفوضى ، كل منها يحاول أن يظفر لنفسه بحق تعيين الإمبراطور ، وأما الإمبراطور نفسه فكان يزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، فى الوقت الذى كان رؤساء القبائل فيه يوشكون أن يعودوا إلى سابق عهدهم من حيث استقلال كل منهم بسلطته ؛ وهكذا أخذ التاريخ مرة أخرى يتذبذب على نحو ما كان يتذبذب قديماً ؛ بين حكومة قوية مركزية من ناحية ، ونظام إقطاعى لا مركزى من ناحية أخرى .

الفصل الرابع

الطغـــاة

« الشواجنة » — سلطان عسكرى فى كاماكورا — وصاية هوچو على العرش — غزوة قبلاى خان — سيادة أشيكاجا — القزاصنة الثلاثة

كان من شأن هذه الظروف القائمة أن سنحت الفرصة لظهور فئة من الطعاة العسكريين الذين قبضوا بأيديهم على زمام الأمور كلها ، فى كثير من أجزاء الجزر اليابانية ؛ ولم يعترفوا بالإمبراطور إلا على أنه ظاهرة مقدسة فى اليابان يحتفظ بها بأقل ما يمكن من النفقات ، وجعل الفلاحون الذين لم تعد تحميهم من عصابات اللصوص جيوش الإمبراطور ولا رجال شرطته ، يدفعون الضرائب لهؤلاء « الشواجنة » أى القادة بدل دفعها للإمبراطور ، لأن «الشواجنة» وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون حمايتهم من اعتداء اللصوص(٣٦) . وهكذا ساد النظام الإقطاعى فى اليابان لنفس الأسباب التى كان قد ساد بسببها فى أوربا ، وأعنى أن مصادر السلطان فى الإقطاعات ازدادت نفوذاً بمقدار ما فشلت الحكومة المركزية النائبة فى حفظ الأمن والنظام .

وحدث فى سنة ١١٩٢ أن جمع « يوريتومو » — وهو أحد رجال قبيلة ميناموتو — حوله جيشاً من الجند والعبيد ، وأقام لنفسه سلطة مستقلة ، اتخذت لنفسها اسما هو اسم المكان الذى قامت فيه ، وهو «باكوفوكاماكورد» وكلمة « باكوفو » معناها منصب عسكرى ، وإذن فهى تدل صراحة على نوع الحكومة الجديدة ؛ ومات « يوريتومو » العظيم فجأة فى عام ١١٩٨(*)

(*) يروى أعداء « يوريتومو » قصة موته فيقولون إنه كان يركب جواداً إذ رأى شبح أخيه الذى كان قد قتله ، اضطرب الجواد وراكبه معاً لرؤية الشبح ، وتعثر الجواد وسقط راكبه ، ومات « يوريتومو » بعد ذلك ببضعة أشهر ، وسنه ثلاثة وخمسون عاماً(٣٧) .

وأعقبه فى الحكم أبناؤه الضعفاء ، وذلك — كما يقول المثل اليابانى — لأن « الرجل العظيم لا ذرية له »[٢٨] فأقامت أسرة منافسة وصاية لنفسها على العرش عام ١١٩٩ ويسمى العهد باسم « وصاية هوچو » ، ولبثت تلك الأسرة مدى مائة وأربعة وثلاثين عاماً تحكم « الشواجنة » الذين كانوا بدورهم يحكمون الأباطرة ؛ فكانت هذه الحكومة الثلاثية فرصة سانحة لقبلاى خان يحاول فيها غزو اليابان ؛ فقد وصفها له الكوريون الدُّهاة الذين كانوا يخشون بأسها ، فقالوا إنها من الثراء بحيث تستحق المجهود ؛ فأمر قبلاى بناة سفنه أن يشيدوا له أسطولا بلغ من الضخامة حداً جعل شعراء الصين يصورون التلال باكية ترثى ما سُلِبَ من غاباتها[٢٩] ؛ ويقول اليابانيون حين يروون حوداث الماضى رواية الفخور ببطولته — إن السفن بلغت سبعين ألفاً ، لكن المؤرخين الذين لا يتأججون بمثل هذه الحاسة الوطنية يكفيهم من العدد ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة ومائة ألف محارب ؛ وتبدّى هذا الأسطول الجبار على مبعدة من شواطئ اليابان فى أواخر سنة ١٢٩١ فخرج سكان الجزر الأبطال ليلاقوه فى أسطول لهم بنوه على عجل ، وهو أسطول ضئيل بالقياس إلى الأسطول المهاجم ؛ لكن حدث لهذه الأرمادا ، ما حدث للأرمادا التى كانت أصغر منها ، وإن تكن أشهر(*) ، وهو أن هبت « ريح عظيمة » لا تزال مذكورة لما أسدته للناس من جميل ، هبت فحطمت سفائن « الخان » الجبار ، إذ رطمتها على جوانب الصخور ، وأغرقت من محاربته سبعين ألفاً ، وأبقت على بقيتهم ليعيشوا حياة الرقيق فى بلاد اليابان .

ودارت الدوائر على أسرة « هوچو » عام ١٣٣٣ ، إذا أصابتهم السيطرة هم أيضاً بسمومها ، وانتهى الأمر إلى انتقال الحكم الوراثى من أيدى الأبالسة والعباقرة إلى أيدى الجبناء والحمقى ؛ وكان آخر هذه السلالة رجل يدعى « تاكا

(*) نقصد الأرماد الأسبانية سنة ١٥٨٨ التى كانت تتألف حين وصلت إلى بحر المانش ، من مائة وعشرين سفينة فيها أربعة وعشرون ألف محارب[٣٨] .

توكى » يحب الكلاب حباً شديداً ، فيقبلها بدل الضرائب ، حتى لقد جمع منها عدداً يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف ، وأعد لها حظائر زينها بالذهب والفضة وأطعمها بالسمك والطيور ، وهيأ لها العربات المزخرفة تحملها للتنزه ؛ فوجد الإمبراطور القائم على العرش إذ ذاك ، وهو « جو دايجو » أن انحلال حماته فرصة سانحة يستعيد فيها سلطانه الإمبراطورى ، وأيدته قبيلتا « ميناموتو » و « أشيكاجا » وقادتا له جيوشه حتى ظفرتا له بالنصر على « أسرة الوصاية » بعد سلسلة من هزائم ، ومن ثم أوى « تاكا توكى » ومعه ثمانمائة وسبعون من عبيده وقادته ، إلى معبد ، وجرع كأساً أخيرة من « الساقى » ثم أنزل بنفسه « الهاراكيرى » (أى أنه انتحر) ؛ ولقد أخرج أحد الحاضرين أمعاء المنتحر بيديه قائلا : « إن هذه لتضفى على الخمر طعماً لذيذاً »[٤٠] .

وانقلب « أشيكاجاتاكاوچى » على الإمبراطور بعد أن كان هو الذى أعانه على استعادة سلطته ؛ وقاتل الجيوش التى جاءت لإخضاعه قتالا موفقاً من حيث خطته العسكرية ومؤامرات الخيانة ؛ وأزال « جودايجو » عن العرش ليضع مكانه إمبراطوراً صورياً هو « كوجون » ، وأقام فى كيوتو تلك الحكومة العسكرية المعروفة باسمه « أشيكاجا » والتى ظلت تحكم اليابان مدى مائتين وخمسين عاماً سادتها الفوضى والحرب الأهلية التى لم تنقطع ؛ ولا بد لنا أن نعترف هنا بأن جزءاً من تلك الفوضى كان يرجع إلى الجانب السامى من طغاة « أشيكاجا » — وهو حبهم للفن ورعايتهم له ؛ فهاهو ذا « يوشيمتسو » قد مل الكفاح فأدار يديه نحو التصوير ، حتى أصبح يعد من مصورى عصره الأفذاذ ، وارتبط « يوشيمازا » بصلات الود مع كثير من المصورين ، وأعان بالمال كثيراً من الفنون ، وأصبح فى عالم الفن ذواقة دقيقاً ، حتى ليعد هواة الآثار الفنية اليوم القطع التى كان قد اختارها هو وأتباعه خير ما يستحق الاقتناء[٤١] لكن مهام الحكم الإدارى قد أهملت إذ ذاك ، ولم يعد حفظ

الأمن والسلام فى مقدور القادة العسكريين (أى الشواجنة) الأغنياء ولا فى مقدور الأباطرة الذين حل بهم الإفلاس .

فكان من شأن هذه الفوضى نفسها وما أصاب الحياة من انحلال ، ومطالبة الأمة بقادة يهيئون لها النظام ، أن ظهر القراصنة الثلاثة المعروفون فى التاريخ اليابانى ؛ وتقول الرواية إن هؤلاء الثلاثة — وهم « نوبوناجا » و « هيديوشى » و « أيياسو » — اعتزموا أن يتعاونوا معاً فى شبابهم على إعادة الوحدة لوطنهم ، وحلف كل منهم يميناً على أن يطيع طاعة الأتباع مَنْ يفوز من زميليه الآخرين بموافقة الإمبراطور على توليه حكومة اليابان(٤٢) ؛ وحاول « نوبوناجا » بادئ ذى بدء ، لكنه مُنى بالفشل ، وحاول بعده « هيديوشى » لكنه مات حين أوشك على النجاح ؛ وكان « أيياسو » يراقب فرصته ، فجاءته آخر الأمر وحاول بعد زميليه ، وأسس الحكومة العسكرية المعروفة باسم « توكوجاوا » . وبهذا افتتح عهداً هو من أطول عهود السلام ، وعصراً هو من أخصب عصور الفن ، فى تاريخ الإنسانية كلها .

الفصل الخامس

« وجه القردة » العظيم

ظهور هيديوشى – الهجوم على كوريا – الاشتباك مع المسيحية

كانت الملكة اليصابات و « أكبر » (فى الهند) معاصرين لـ « هيديوشى » العظيم – هكذا قد يحلو لليابانيين أن يذكروا هذه الحقيقة على سبيل التنويه بفضل عظيمهم – كان « هيديوشى » ابن فلاح ، يعرفه أصدقاؤه ، وتعرفه رعيته حين أصبح فيما بعد حاكماً ، باسم « سارو من كانچا » – ومعناها « وجه القردة » لأنه لم يكن ينافسه فى دمامة الوجه أحد حتى ولا كونفوشيوس؛ وكان والداه قد عجزا عن إخضاعه للنظام فبعثا به إلى مدرسة فى دير؛ لكن «هيديوشى» سخر من كهنة البوذية سخرية شديدة ، وأثار فى الدير ضجة وثورة ؛ بحيث انتهى أمره إلى الطرد من مدرسته ، فألحق صبياً فى كثير من الحرف ، وطرد من عمله سبعاً وثلاثين مرة[٤٣] ؛ وجعل من نفسه قاطعاً للطريق ، لكنه عاد فرأى أنه يستطيع أن يسلب وهو مع القانون أكثر مما يسلبه وهو خارج على القانون ؛ ثم التحق بخدمة « الساموراى » (أى حملة السيف) وأنقذ حياة مولاه ، وسمح له بعدئذ أن يحمل سيفاً ؛ وانضم إلى أتباع « نوبوناجا » وعاونه بتفكيره وببسالته ، حتى إذا ما مات « نوبوناجا » تولى هو قيادة الثائرين الخوارج على القانون ، الذين شنوا حملتهم ليغزوا أرض وطنهم ؛ فما انقضت ثلاثة أعوام حتى كان « هيديوشى » قد أصبح حاكماً على نصف الإمبراطورية وظفر بإعجاب الإمبراطور العاجز ، وأحس فى نفسه من القوة ما يتيح له أن يهضم فى جوفه كوريا والصين ؛ وفى ذلك قال متواضعاً يخاطب

« ابن السماء » : « لقد اعتزمت أن أطوى الصين كلها تحت سلطانى ، بمعونة الجنود الكوريين وبتأييد من نفوذك الساطع ؛ فإذا ما تم لى ذلك ، ستصبح الأقطار الثلاثة (الصين وكوريا واليابان) قطراً واحداً ؛ وسيتم لى ذلك فى يسر كأنما أطوى حصيرة لأحملها تحت ذراعى »(٤٤) لكنه حاول جهده بغير جدوى ، لأن رجلا شيطانياً من الكوريين اخترع قارباً حربياً من المعدن — ولولا سبقه فى الزمن لقلنا إنه سرق منا الـ « مونيتور » والـ « ميرماك » — وبهذا القارب راح يحطم سفن « هيديوشى » المثقلة بجنوده ؛ سفينة بعد سفينة ، وكان « هيديوشى » قد أنفذها بجنده إلى كوريا (١٥٩٢) ، لقد أغرقت فى يوم واحد اثنان وسبعون مركباً ، وانقلب البحر بحراً من دماء ، ورست أربع وثمانون سفينة أخرى على الشاطئ حيث فر منها اليابانيون وخلفوها وراءهم ، فأحرقها الظافرون حتى لم يذروا منها شيئاً ؛ وبعد أن تبادل الفريقان نصراً وهزيمة دون أن يكون فيها ما يفصل بالنصر ، أرجأ الفاتحون فتح كوريا والصين حتى القرن العشرين ؛ وقال ملك كوريا عن « هيديوشى » إنه حاول « أن يعبر المحيط فى صدَفة من أصداف المحار »(٤٥) .

وإلى أن يحين ذلك الحين ، استقر « هيديوشى » ليستمتع بهذه « الوصاية التى أسسها لنفسه ، وليدير فيها عجلة الحكم ، وجمع لمتعته ثلاثمائة غانية ، لكنه وهب مبلغاً كبيراً من المال لزوجته الريفية التى كان قد طلقها منذ زمن طويل وبحث عن أحد سادته القدماء ، وأعاد له المال الذى كان قد سرقه منه أيام أن كان يعمل معه صبياً ، وأضاف إلى المال قيمة الربح طوال هذه المدة ؛ ولم يجرؤ أن يطلب من الإمبراطور أن يوافق له على تلقيب نفسه بلقب « شوجن » (أى حاكم عسكرى) لكن معاصريه عوضوه عن ذلك بلقب آخر أطلقوه عليه ، وهو « تايكو » أى « الحاكم العظيم » ، وهى كلمة غامرت فى رحلة من تلك الرحلات « الأوذيسيَّة » التى تتعقب آثارها فى علم اللغات ، حتى

دخلت فى ختام رحلتها إلى لغتنا نحن وأصبحت كلمة من كلماتنا ، وهى كلمة Tycoon : ووصف مبشر دينى « هيديوشى » ، فقال : « إنه ماكر ماهر إلى درجة تجاوز كل معقول ، فقد نزع عن الشعب سلاحه بحيلة لطيفة ، وهى أنه أمر الناس أن يجمعوا كل ما عندهم من أسلحة معدنية ليصنع من مادتها تمثالا ضخماً — وهو تمثال « دايبوتسو » أى « بوذا العظيم » الذى يقوم فى كيوتو — والظاهر أنه لم يكن يعتنق عقيدة دينية ، لكنه لم يكن أسمى من أن يستغل الدين من أجل غاياته فى طموحه أو سياسته » .

ودخلت المسيحية اليابان سنة ١٥٤٩ متمثلة فى شخص رجل هو فى طليعة طائفة الجزويت ومن خيرتهم ، وأعنى به « القديس فرانسس اكسافير » ولم يكد يكون جمعية صغيرة حتى أخذت تزداد ازدياداً سريعاً ، بحيث لم يمض جيل واحد بعد قدومه إلا وقد بلغ عدد أعضاء الجزويت سبعين ، وعدد من تحولوا إلى المسيحية فى الإمبراطورية اليابانية مائة وخمسين ألفاً[٤٧] ؛ وكانوا من الكثرة فى ناجازاكى بحيث جعلوا ذلك الميناء التجارى مدينة مسيحية ، وحملوا حاكمها المحلى « أومورلم » على اتخاذ التدابير المباشرة فى نشر العقيدة الجديدة[٤٨] ؛ يقول « لافكاديو هيرن » : « إن البوذية فى إقليم ناجازاكى قد طمست طمساً تاماً فكهنتها أصابهم الاضطهاد والتشريد »[٤٩] ؛ ففزع « هيديوشى » لهذا الفتح الروحانى للبلاد ، وارتاب فى أن تكون وراءه أهداف سياسية ، فأرسل رسولا إلى نائب رئيس الجزويت فى اليابان ، مزوداً بخمسة أسئلة عاجلة :

١ — لماذا وبأى حق أرغم هو (نائب رئيس الجزويت) وأعضاء طائفته الدينية رعية « هيديوشى » على اعتناق المسيحية ؟

٢ — لماذا حرضوا أتباعهم وأشياعهم على هدم المعابد ؟

٣ — لماذا اضطهدوا كهنة البوذية ؟

٤ — لماذا أكلوا هم وبعض البرتغاليين حيوانات نافعة للإنسان مثل العجول والأبقار ؟

٥ — لماذا سمح لتجار من بنى جلدته أن يشتروا أفراداً من اليابانيين يتخذونهم عبيداً فى جزر الهند الشرقية ؟ (٥٠)

ولما لم يقنع « هيديوشى » بالإجابات ، أصدر سنة ١٥٨٧ الأمر الآتى :

بما أننا قد علمنا من مستشارينا الأمناء أن طائفة دينية أجنبية قد جاءت إلى مملكتنا ، حيث جعلت تبشر بقانون يتنافى وقانون اليابان ، بل ذهبت بها الجرأة إلى تحطيم المعابد التى شيدت باسم (آلهتنا القومية) « كامى » و « هوتوكى » . وعلى الرغم من أن هذه الفتنة تستحق أقسى ألوان العقاب ، فإننا مع ذلك راغبون فى مقابلة أعضائها بالرحمة ، لذلك نأمرهم بمغادرة اليابان خلال عشرين يوماً ، وعلى من يعصى تقع عقوبة الموت ؛ ولن يصيب أحداً منهم أثناء هذه المهلة ضرر أو أذى ، أما إذا بلغ ذلك الأمر ختامه فإننا نأمر بأن يقبض على من يوجد منهم فى بلادنا وأن يعاقب على أنه من أخطر المجرمين (٥١) .

وفى وسط هذه المفازع كلها وجد القرصان الأكبر من وقته فراغاً ينفقه فى تشجيع رجال الفن ، وأن يُسْهم فى مسرحيات « لا » وفى تأييد « ركيو » فى جعل الاحتفال بالشاى حافزاً على تشجيع صناعة الخزف اليابانى ، وحِلْية هامة تزدان بها الحياة فى اليابان ؛ ومات سنة ١٥٩٨ بعد أن استوغد « أيياسو » وعداً ببناء عاصمة جديدة فى « ييدو » ، (وهى الآن طوكيو) ، وفى الاعتراف بابن هيديوشى — وهو هيديورى — وارثاً له على وصاية العرش فى اليابان .

الفصل السادس

الشوجن (أى الحاكم العسكرى) العظيم

أيياسو فى منصب السلطان – فلسفته – أيياسو والمسيحية – موت أيياسو – طائفة الحكام العسكريين من توكوجاوا

مات « هيديوشى » فأعلن « أيياسو » أنه حين حلف اليمين له ، لم يشهد على يمينه قطرات من دمه يستقطرها من أصابعه أو من فه ، كما يقضى بذلك تشريع « ساموراى » أى حملة السيف بل استقطر دمه ساعة حلف اليمين من خدش وراء أذنه ومن ثم كان يمينه غير ملزم بالوفاء(٥٢) ، والتقى بجماعة من قادته كانوا ينافسونه السلطان ، التقى بهم عند سكيجاهارا ، فعصف بهم عصفاً فى موقعة انتثر على أرضها أربعون ألفاً من القتلى ، وأبقى على «هيديورى» حتى بلغ سن الرشد فأصبح بذلك خطراً عليه ، وعندئذ أوحى له بالتسليم صيانة لحياته ؛ ولما قرّعوه على موقفه ذاك ، حاصر قلعة أوساكا الجبارة حيث كان هيديورى محصناً ، واستولى عليها فى الوقت الذى كان الفتى فيه يزهق روح نفسه ، ومكّن لنفسه من السلطان كاملا بأن قتل أبناء «هيديورى» جميعاً الشرعيين منهم وغير الشرعيين ، وبعدئذ نظم « أيياسو » الأمن فى مهارة وقسوة كما نظم القتال ، وحكم اليابان حكماً بلغ من صلاحيته أن رضيت اليابان بأن تحكم بأبنائه وعلى مبادئه مدى ثمانية أجيال .

كان رجلا له أفكاره الخاصة ، وكان يتخذ لنفسه من قواعد الأخلاق ما تقتضيه ظروف الساعة ؛ فلما جاءته سيدة من أكرم السيدات تشكو إليه أن أحد رجاله قد قتل زوجها لكى يظفر بها ، أمر « أيياسو » ذلك الرجل أن يخرج أمعاء نفسه بيده ، وبعدئذ اتخذ من السيدة خليلة له(٥٣) وهو شبيه بسقراط

فى جعل الحكمة الفضيلة التى لا فضيلة سواها ، ورسم الطرق المؤدية إليها فى ذلك الكتاب العجيب الذى أسماه « التراث » أو العهد العقلى الذى خلفه لأسرته عند موته :

« الحياة شبيهة برحلة طويلة يحمل فيها الراحل حملا ثقيلا ، فاجعل خطاك وئيدة ثابتة ، حتى لا تتعثر ، واقنع نفسك بأن النقص والتعب هما نسيج الحياة الطبيعى عند من تفنى حياته ، ولن يكون فى حياتك ما يمد لك فى سبيل السخط أو اليأس فإذا ما نزَتْ فى قلبك نزوات الطموح ، فتذكر أيام الشقاء البالغ حده الأقصى ، التى اجتزتها فى ماضى حياتك ؛ فالصبر هو أس السكينة والطمأنينة إلى الأبد ؛ أنظر إلى السخط نظرتك إلى عدوك ؛ فإذا اقتصر علمك على كيف تَهزِم ، ولم تعلم كيف تنهزم ، فالويل لك ، ويا سوء سبيلك فى الحياة الدنيا ؛ فاكشف عن الخطأ فى نفسك قبل أن تكشف عنه فى سواك »[٥٤] .

أما وقد ظفر لنفسه بالسلطان بقوة السلاح ، فقد قرر أن اليابان لم تعد بها حاجة إلى مواصلة الحروب ، وكرّس نفسه للنهوض بما يقيم السلام من وسائل وفضائل ، ولكى يباعد بين « الساموراى » (أى حملة السيف) وبين عاداتهم العسكرية ، شجعهم على دراسة الأدب والفلسفة والخلق الفنى ، وهكذا ازدهرت الثقافة فى اليابان فى ظل حكمه الذى نشره فى ربوع البلاد ؛ وتدهورت الروح العسكرية ، وقد كتب يقول : « إن الشعب هو أساس الإمبراطورية »[٥٥]. واستثار فى قلوب خلفه الرحمة والرأفة « بالأرمل والأرملة واليتيم ومن لا أنيس له » لكنه لم يتصف بالميول الديموقراطية ، حتى لقد ذهب إلى أن أفدح الجرائم جميعاً هو العصيان ، « فالزميل » الذى يخرج على صفوف الزملاء من طبقته ، لا بد من الفتك به فور ساعته ، ولا مندوحة من قتل أسرة الثائر بأسرها[٥٦] ، ومن رأيه أن النظام الإقطاعى هو أفضل

نظام يمكن وضعه لبني الإنسان كما هم في حقيقة طبائعهم ، لأنه يهيئ اتزاناً معقولا بين السلطة المركزية والسلطة المحلية ، كما يقيم نظاماً طبيعياً وراثياً تتسق به الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، وهو كذلك يضمن استمرار المجتمع دون أن يتعرض لسلطان الحاكم المستبد ، ولا بد لنا من الإعتراف هنا بأن « أيياسو » قد نظم في بلاده أكمل صورة عرفها الإنسان لحكومة تقوم على نظام الإقطاع (٥٧) .

وهو – ككل سياسي آخر – قد فكر في الدين على أنه أداة للنظام الاجتماعي قبل أن يكون أي شيء آخر ، وأحزنه أن يرى أن اختلاف الناس في عقائدهم الدينية قد قضى على نصف هذا الخير الاجتماعي بما أحدثته العقائد المتعادية من فوضى ؛ وقد كانت العقيدة التقليدية للشعب الياباني – وهي خليط مضطرب من الشنتوية والبوذية – كانت هذه العقيدة التقليدية من وجهة نظره السياسية الخالصة ، رباطاً بالغ القيمة يربط الجنس الياباني في وحدة زوجية ونظام خلقي وولاء وطني ، وهو على الرغم من أنه نظر إلى المسيحية بادئ ذي بدء بعين التسامح وبأفق عقلي فسيح كاللذين عرفا عن « أكبر » في (الهند) وأبى أن يفرض عليها ما كان يفرضه عليها « هيديوتشي » من أوامر يعلن بها غضبه منها ، إلا أنه عاد فضاق بها صدراً لتعصبها ، ولاتهامها القاسي للديانة القومية بأنها وثنية ، وما أحدثته بتعصبها الجامح من شحناء لم تقتصر على أن تكون بين المعتنقين المسيحية وبقية أفراد الأمة ، بل امتدت فدبت بين معتنقي الديانة الجديدة أنفسهم (*) ؛ ثم ثار في صدره السخط آخر الأمر

(*) حدث سنة ١٥٩٦ أن أرغمت التوارب اليابانية سفينة أسبانية على الرسو في ميناء يابانية ، وساقتها عمداً إلى موضع صخرى فانحطمت نصفين ، ثم استولى الحاكم المحلى على ما بها على أساس أن القانون الياباني يبيح لأولى الأمر أن يضعوا أيديهم على كل السفن التي تلجأ مضطرة إلى شواطئ اليابان ، فثارت ثائرة الربان « لا نديكوا » واحتج عند وزير « هيديوشي » وهو « ماسودا » – وكان وزيراً للأشغال – فسأله « ماسودا » كيف أمكن للكنيسة المسيحية أن تظفر بكل ما ظفرت به من أقطار فتخضعها لرجل واحد ، ولما كان « لانديكو » بحاراً قبل أن يكون سياسياً ، أجاب : « إن ملوكنا إذا ما أرادوا فتح قطر من الأقطار بدأوا بإرسال المبشرين الدينيين يدعون الناس إلى الدخول في ديانتنا ، حتى إذا ما وفقوا إلى شيء من النجاح ، أرسلت الجنود لتنضم إلى من اعتنقوا المسيحية من أهل البلاد ، وبعدئذ لا يجد ملوكنا كبير عناء في إتمام ما بقى » (٥٩) .

لما عرف أن المبشرين بالمسيحية كانوا أحياناً يُستخدمون طلائع للفاتحين وأنهم كانوا فى أجزاء متناثرة من أرض الوطن يتآمرون على الدولة اليابانية[٥٨] ؛ فأمر سنة ١٦١٤ بتحريم العبادة المسيحية أو التبشير بتعاليمها فى اليابان ، وطالب المعتنقين لهذه الديانة من الأهالى إما أن يغادروا البلاد وإما أن يرتدوا عن عقيدتهم الجديدة ، واستطاع قساوسة كثيرون أن ينجوا بأنفسهم من طائلة هذا القانون ، وألقى القبض على طائفة منهم ، ولكن لم يُعدم أحد منهم فى حياة « أيياسو » ، فلما قضى نحبه ، صبَّ سادة الحكومة غضبهم على المسيحيين ، وأعقب ذلك موجةٌ وحشية من الاضطهاد الدينى ، كان من آثرها أن امحت المسيحية من بلاد اليابان محواً تاماً تقريباً ، ولما كان عام ١٦٣٨ تجمعت البقية الباقية من المسيحيين ، وبلغ عددها سبعة وثلاثين ألفاً ، فى شبه جزيرة « شيمابارا » وحصنتها ووقفت وقفة أخيرة دفاعاً عن حرية العبادة ؛ فأرسل لها « أييمتسو » — حفيد أيياسو — قوة كبيرة مسلحة لإخضاعها ، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر سقطت الحامية فى أيدى اليابانيين ، وذبح المعتصمون بها ذبحاً فى الشوارع ، لم يبق منهم على قيد الحياة إلا مائة وخمسة أشخاص .

مات « أيياسو » فى نفس العام الذى مات فيه شيكسبير ؛ وخلَّف هذا الحاكم العسكرى القوى سلطانه إلى ابنه « هيديناما » مصحوباً بنصح بسيط وهو : « ارْعَ أبناء الشعب ، وحاول أن تكون فاضلا ، ولا تهمل أبداً فى حماية البلاد » ؛ وكذلك قدم النصح إلى الأشراف الذين وقفوا إلى جانب سريره ساعة احتضاره ، فكان نصحاً على أحسن ما تجرى به التقاليد كما عُرفت عند « كونفوشيوس » و « منشيوس إذ قال قال لهم : « لقد بلغ ابنى الآن سن الرشد ، ولست أشعر بأى قلق على مستقبل الدولة ولكن إذا ما اقترف خلفى خطأً فادحاً فى إدارة حكومته ، فتولوا أنتم زمام الأمور بأيديكم ، فليست البلاد ملكاً

لرجل واحد ، لكنها وطن للأمة بأسرها ، وإذا ما أضاع حفدتى سلطانهم بسبب أخطائهم ، فلن آسف على ضياعه منهم »(٦٠) .

لكن حفدته ملكوا زمام أنفسهم على نحو أحسن جدا مما كان ينتظر أ عادة من ملوك عصرهم أن يفعلوا خلال أمد طويل من الزمن ؛ أما « هيديتادا » فقد كان رجلا متوسط القدرة لا يصدر عنه الأذى ؛ ثم جاء « أييمتسو » مثلا لصورة أقوى من صور أفراد هذه الأسرة ، فاستطاع بشدته أن يحبط حركة نهضت لإعادة النفوذ الحقيقى إلى الأباطرة الذين كانوا لم يزالوا يملكون ولكنهم لم يكونوا يحكمون ؛ وأغدق « تسونايوشى » إغداقاً فى رعايته لرجال الأدب ، ورعايته للمدرستين المتنافستين العظيمتين فى عالم التصوير . وهما « كانو » و « توسا » اللتان زيّنتا عصر « جنروكو » (١٦٨٨ — ١٧٠٣) ؛ وجاء « يوشيمونى » فجنّد نفسه للغاية التى ما انفكت الإنسانية تهدف لها حيناً بعد حين ، وهى محو الفقر ، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى كانت ميزانية حكومته تعانى فيه عجزاً جاوز المألوف ؛ فاستقرض من طبقة التجار قرضاً طائلا ، وهاجم إسراف الأغنياء ، وخفض نفقات حكومته خفضاً نزع به نحو جانب الزهد الرواقى ، الذى ذهب به إلى حد إخراجه سيدات القصر الخمسين اللائى كن أجمل السيدات ، واكتفى فى ثيابه بلبس القطن ، وفى نومه بحصير مما يرقد عليه الفلاحون وفى طعامه بأبسط ألوان الطعام ؛ ووضع صندوقاً أمام قصر المحكمة العليا ليضع فيه الشاكون شكاواهم ، ودعا الناس إلى نقد السياسة الحكومية أو موظفى الحكومة على أى نحو شاءوا ؛ فلما قدم رجل يدعى « ياماشيتا » عريضة اتهام لاذع يهاجم بها الحكومة من أساسها ، أمر « يوشيمونى » بالاتهام فقرئ على مسمع من الملأ ، وكافأ كاتبها على صراحته بأجزل العطاء(٦١) .

ولقد قرظ « لافكاديو هيرن » حكمه فى ذلك العهد فقال : « إن عصر « تركوجاوا » كان أسعد العصور التى شهدتها الأمة فى حياتها الطويلة »(٦٢)

ويميل التاريخ إلى الأخذ بهذا الرأى نفسه ولو على سبيل الترجيح ، لأن التاريخ لن يبلغ فى علمه بالماضى مبلغ اليقين ؛ فكيف يستطيع الإنسان إذا نظر إلى اليابان اليوم ، أن يتصور أن هذه الجزر التى تضطرب أعصابها اليوم اضطراباً كانت منذ قرن واحد مضى يسكنها شعب فقير لكنه قانع ، ويتمتع بعصر طويل من السلام فى ظل حكومة تقوم عليها طبقة عسكرية ، ويتجه بمجهوده — فى عزلته الهادئة — نحو أسمى غايات الأدب والفن ؟!

الباب التاسع والعشرون

الأسس السياسية والخلقية

محاولات لدراسة الموضوع

إذا أقدمنا الآن على تصوير اليابان التى أسدل عليها الستار عام ١٨٥٣ ، فلنذكر أنه من العسير علينا أن نفهم — كما قد يكون كذلك من العسير أن نحارب — شعباً يبعد عنا خمسة آلاف ميل ، ويختلف عنا لوناً ولغة وحكومة وديانة وخلقاً وعادات وشخصية واهدافا وأدباً وفناً ، ولقد كان « هيرن » أوثق صلة باليابان من أى كاتب غربى آخر فى عصره ، ومع ذلك فقد ذكر « الصعوبة الشديدة فى إدراك وفهم ما يكمن تحت السطح الظاهر من الحياة اليابانيـــة »[١] ، وكتب أديب يابانى بارع مقالة يذكر فيها الغرب بأن : « ما تعلمه عنا قائم على ما جاءك من ترجمة هزيلة لأدبنا ، إن لم يكن قائماً على الحكايات المشكوك فى صحتها مما يرويه لك عنا الرحالة العابرون ... فما أكثر ما يروعنا نحن الأسيويين هذا النسيج العجيب الذى يمزج الحقائق بالأوهام حين تتحدثون عنا أيها الغربيون ؟ فنراكم تصوروننا كأنما نعيش فى عالم كله عطر من زهرة اللوتس ، أو نعيش على طعام من الفئران والصراصير »[٢] فلن تجد فيما يلى — إذن — أكثر من محاولات — قائمة على معرفة مباشرة موجزة أشد إيجاز — لدراسة الحضارة اليابانية ، والخلق اليابانى : وينبغى لكل باحث أن يصحح هذه المحاولات بما يقع له من خبرة شخصية طويلة ، فالدرس الأول الذى تلقيه علينا الفلسفة هو أننا قد نكون جميعاً مخطئين .

الفصل الأول

طبقة الساموراى (أى حملة السيف)

الإمبراطور الذى لا حول له — سلطة « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) — سيف « الساموراى » — قانون « الساموراى » « هاراكيرى » — « الرونانات » السبعة والأربعون — حكم قضى بتخفيفه

يقوم على رأس الأمة — من الوجهة النظرية — الإمبراطور المقدس ، وكان البيت الحاكم حقيقة — وأعنى به الحكم العسكرى الوراثى — يسمح للإمبراطور وحاشيته بمبلغ يعادل خمسة وعشرين ألف ريال كل عام ، مقابل الاحتفاظ بالأسطورة النافعة التى تؤثر فى النفوس أثراً عميقاً ، أسطورة اطراد الحكم فى بيت واحد(*) ؛ وكان كثيرون من رجال الحاشية يزاولون حرفاً يدوية منزلية ليكسبوا نفقات عيشهم : فبعضهم يضع المظلات ، وبعضهم يصنع الملاعق الخشبية أو لاقطات الفضلات من بين الأسنان أو ورق اللعب ؛ وجعل الحكام العسكريون من أسرة « توجوواكا » من مبادئهم ألا يتركوا للإمبراطور ذرة من السلطان ، وأن يعزلوه عن الشعب ، وأن يحيطوه بالنساء ويفتّوا من عضده بالتخنث والتعطل ، ونزلت الأسرة الإمبراطورية عن سلطانها فى كفاح ، وقنعت بأن ترسم للعلية ألوان البدع فى الثياب (٣) .

أما « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) فقد كان حينئذ ينعم بثروة اليابان التى أخذت تتزايد ، واصطنع لنفسه امتيازات هى عادة من حق الإمبراطور فإذا سار فى الطريق محمولا فى عربته التى يجرها ثور ، ومحمولا فى محفته ، أمرت الشرطة كل المنازل على طول الطريق أن تقفل أبوابها والمصاريع الخشبية فى نوافذها العليا ، وأن تطفأ كل النيران وأن تحبس الكلاب

(*) ربما كان هذا المبلغ مساوياً لربع مليون ريال بقيمة العملة الامريكية الجارية .

والقطط كلها داخل الدور ، وأن يسجد الناس على جانبي الطريق ، رءوسهم على أيديهم وأيديهم على الأرض[٤] ؛ وكان « للشوجن » حاشية كبيرة ، منها أربعة مضحكين وثماني سيدات مثقفات واجبهن أن يسلينه في غير التزام لقواعد الاحتشام[٥]، وكان إلى جانبه مجلس وزراء استشاري قوامه اثنا عشر عضوا : كبير الوزراء ، وخمسة وزراء ، ثم ستة من الشيوخ يكونون مجلساً أصغر ؛ وكان هناك — كما كان في الصين — مجلس للرقابة مهمته أن يشرف على المناصب الإدارية كلها ، وأن يراقب أمراء الإقطاع ؛ مع أن هؤلاء الأمراء — (أو « الدايميو » كما يسمونهم ومعناها « أصحاب الأسماء العظمى ») لم يكونوا يعترفون من الوجهة الصورية إلا بالإمبراطور ، هو الذي يولونه ولاءهم ، بل استطاع بعضهم — مثل أسرة شيمادزو التي كانت تحكم إقليم ساتسوما — أن ينجحوا في الحد من سلطة الشوجن ، حتى انتهى بهم الأمر إلى طرده من الحكم

وكان يتلو أمراء الإقطاع طبقة السادة (بارونات) ثم يتلو هؤلاء طبقة المشرفين على الأراضي ؛ وكذلك كان يحيط بالأمراء ألوف من فئة « الساموراي » — والساموراي هم حراس يحملون السيف ؛ فالقاعدة الرئيسية في المجتمع الإقطاعي الياباني هي أن كل رجل من السادة هو جندي ، والعكس صحيح ، أي أن كل جندي هو كذلك من السادة[٦] فهاهنا يقع أكبر اختلاف بين اليابان وبين الصين المسالمة التي ظنت آن شرط الرجل من السادة هو أن يكون عالماً لا أن يكون محارباً ؛ وعلى الرغم من أن حملة السيف هؤلاء كانوا يحبون قراءة القصص التي تغذي فيهم انتفاخ الأوداج ، مثل القصة الصينية التي عنوانها « قصة المماليك الثلاثة » ، بل كانوا إلى حد ما يصوغون حياتهم على نموذج تلك القصص ، إلا أنهم كانوا يزدردون العلم للعلم ، وكانوا يسمون ، العالم الأديب بالسكران الذي يفوح برائحة الكتب[٧] ، وكان لهم امتيازات كثيرة ، فهم معفَون من الضرائب ، ولهم الحق في مقدار من الأرز يعطيهم

إياه السيد الذى يخدمونه ، ولم يكن يطلب إليهم أن يعملوا شيئاً إلا أن يموتوا فى سبيل وطنهم إذا ما دعت إلى ذلك الظروف ؛ وكانوا يحتقرون الحب ويعدونه لعبة رشيقة ، ويؤثرون علاقة الصداقة على نمط إغريقى : والميسر والعربدة كانا جزءاً متمما لعيشهم ولكى يحافظوا على مران سيوفهم ، كانوا يدفعون المال للجلاد فى مقابل أن يسمح لهم بجز رقاب المحكوم عليهم بالإعدام[٨] فسيف رجل من فئة « الساموراى » هو بمثابة روحه - على حد تعبير « أيياسو » وكثيراً جداً ما كان يجد الفرصة التى تدعوه إلى استعمال سيفه ، على الرغم من المدة الطويلة التى نعمت فيها اليابان بالسلام ؛ فله الحق — إذا أخذنا بما يقوله « أيياسو »[٩] — أن يقضى فوراً على أى إنسان من الطبقات الدنيا إذا ما أساء إليه ؛ وإذا كان سيفه جديداً وأراد أن يجربه ، فيجوز أن يجربه فى سائل كما يجوز أن يجربه فى كلب[١٠] وفى ذلك يقول « لُنجفورد » : « إن سيافاً مشهوراً قد اقتنى سيفاً جديداً ، فوقف إلى جانب « ينهون باشى » (وهذا اسم جسر فى وسط مدينة ييدو) ينتظر فرصة لاختبار مضاء سيفه ، فجاء فلاح بدين ساعياً فى الطريق ، مرحاً بفعل الخمر ، فقابله السياف بضربة يسمونها « ناشى وارى » (ومعناها شق الكمثرى) وأصابت الضربة مرادها إذ شقت الرجل نصفين ، من قمة رأسه إلى مفرق فخذيه ، فمضى الفلاح فى طريقه غير عالم بما نزل به ، حتى اصطدم بحمال فسـقط نصفين مشطورين على أدق صورة »[١١] فما أتفه الفرق بين « الواحد » و « الكثير » هذا الموضوع الذى دوخ الفلاسفة فى فهمه .

لكن هؤلاء السيافين كانت لهم لطائف أخرى غير هذه المهمة المرحة التى كانوا يحولون بها الفناء خلود ؛ فقد التزموا أوضاعاً صارمة اشترطوها للرجل الشريف — ويطلق على مجموعة هذه الأوضاع اسم « بوشيدو »(*) —

(*) صاغ هذه الكلمة إنازو نيتوبى .

ومعناها « طرائق الفروسية » وجوهر فكرتها فيه تعريف لما ترمى إليه من فضيلة : « هى القدرة على اختبار سلوكك فى الحياة وفق ما يمليه العقل دون تردد ، وأن تموت حين يجب عليك أن تموت ، وأن تضرب حيث ينبغى لك أن تضرب »[١٢] وكانوا يحاكمون بمقتضى تشريعهم هذا ، وهو أقسى من القانون السائد بين عامة الناس[١٣] وكانوا يزدرون كل الأعمال والمكاسب المادية ، ويأبون أن يقرضوا المال أو يقترضوه أو يحسبوه ، وقلما أخلفوا وعودهم ، وكانوا لا يترددون فى المخاطرة بحياتهم عوناً لكل من استنجدهم المعونة ؛ وأخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة خشنة مقترة فلا يأكلون فى اليوم إلا وجبة واحدة ، وكانوا يروضون أنفسهم على أكل ما صادفهم من طعام كائناً ما كان ؛ وكانوا يحتملون الآلام على اختلافها صامتين ، ويكبحون فى أنفسهم كل ما قد يدل على انفعالاتهم الداخلية ، وعلموا نساءهم كيف يتهللن بشراً إذا ما نمى إليهن أن أزواجهن قد قضوا نحبهم فى ساحات القتال[١٤] ولم يكونوا يلتزمون طاعة إلا طاعة الولاء لرؤسائهم ، فطاعة الرؤساء جزء من تشريعهم الذى وضع تلك الطاعة فوق حب الآباء لأبنائهم أو الأبناء لآبائهم ، ومن مألوف الأمور عند « الساموراى » (أى هؤلاء السيافين) أن يخرج الرجل منهم أمعاء نفسه إذا ما مات سيده لكى يخدمه ويحميه فى الحياة الآخرة ؛ فلما كان « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) الذى يدعى « أيمتسو » يحتضر سنة ١٦٥١ ، ذكر كبير وزرائه « هتو » بواجبه فى أداء الـ « جِنْشى » (أى اللحاق بسيد بعد موته فقتل « هتو » نفسه دون أن ينبس ببنت شفة ، ونسج على منواله كثير من الأتباع[١٥] ولما صعد « الإمبراطور ميسو هيتو » إلى أسلافه سنة ١٩١٢ انتحر الجنرال « نوجى » وزوجته ولاء منهما للإمبراطور[١٦] فلست ترى من التقاليد عند سائر الشعوب بما فى ذلك تقاليد روما التى كانت تخرج جنوداً من الطراز الأول ، ما بث شجاعة أبسل ، أو زهداً أصرم ،

أو ضبطاً للنفس أقوى مما كانت تقتضيه تقاليد هؤلاء « السيافين » من أعضاء تلك الفئة التي تعرف عندهم باسم « ساموراى » ؟

وآخر القوانين فى تشريع « بوشيدو » (أى تشريع طائفة السيافين) هو قانون « هاراكيرى » — ومعناها الانتحار بإخراج الأمعاء ؛ ولا تكاد الظروف التى تقتضى من السياف أن ينتحر على هذا الوجه تقع تحت حصر فقد كان الأمر من كثرة الوقوع بحيث لا يكاد يستوقف النظر ؛ فإذا حكم بالموت على رجل من ذوى المكانة الاجتماعية ، سمح له — إذا أراد الإمبراطور أن يدل على تقديره له — بأن يبقر بطنه بنفسه من اليسار إلى اليمين ، ثم يشقها إلى أسفل ، مستخدماً فى ذلك سيفه الصغير الذى كان الواحد منهم لا ينفك مصطحباً له من أجل هذه الغاية ؛ وإذا هزم أحدهم فى القتال ، أو اضطر إلى الاستسلام لعدوه ، كان الاحتمال بأن يبقر بطنه بيده معادلا تماماً لاحتمال أن يأبى على نفسه ذلك (فكلمة « هاراكيرى » معناها شق البطن ، وهى كلمة سوقية قلما ينطق بها اليابانى ، إذ هم يفضلون كلمة « سپپوكو ») فقد حدث أن خضعت اليابان سنة ١٨٩٥ لضغط الدول الأوروبية فى إخلاء «لياوتنج» فارتكب أربعون رجلا من العسكريين « هاراكيرى » احتجاجاً ؛ كذلك حدث فى حرب سنة ١٩٠٥ أن أزهق عدد كبير من الضباط والجنود اليابانيين نفوسهم على هذا النحو ، فذلك عندهم خير من الوقوع فى أسر الروس ، وإذا لقى الرجل من « الساموراى » (السيافين) إساءة من سيده ، فإنه — إن كان سيافاً أصيلا — يهلك حياة نفسه عند باب ذلك السيد ؛ وكان فن « السپپوكو » (أى بقر البطن انتحاراً) — وهو ذو أوضاع دقيقة بمثابة الطقوس الدينية . فى طليعة ما يلقن للشاب من فئة « الساموراى » ، وآخر علامات المودة التى يبديها الصديق لصديقه أن يقف إلى جانبه ليجز له رأسه فيفصلها عن جسده ، بعد أن يكون ذلك الصديق قد بقر بطن نفسه بيده[١٧] ؛ من هذا التدريب وما أحاط به من

تقاليد نشأ ما يتصف به الجندى اليابانى من عدم الخوف من الموت(*) .

كذلك كان يسمح بالاغتيال — كما كان يسمح بالانتحار — فى ظروف معينة أن يحل محل القانون ؛ فاليابان فى نظامها الإقطاعى كانت تقرّ فى الإنفاق على رجال الشرطة ، بوسائل كثيرة منها أن تجيز لابن القتيل أو أخيه أن يثأر لنفسه بدل الالتجاء إلى القانون ؛ ولقد أدى هذا الاعتراف بحق الثأر — إلى جانب إيحائه بنصف القصص والمسرحيات فى الأدب اليابانى — إلى الحيلولة دون كثير من الجرائم ؛ ومع ذلك فالرجل من فئة « الساموراى » (أى السيافين) كان يحس عادة أن واجبه يقتضيه ارتكاب (الهاراكيرى) بعد استخدامه لحقه فى الثأر بنفسه من عدوه ؛ مثال ذلك ما فعله « الرونانات » الأربعون المشهورون وهم فئة من السيافين لم يكونوا أعضاء رسميين فى تلك الطائفة (حين تأثروا من « كوتسوكى » لما ارتكبه من قتل اغتيالى ، فعلوا ذلك وهم يصطنعون له غاية الرقة ويقدمون له المعاذير ، ثم انسحبوا فى وقار إلى ضيعات عينها لهم « الحاكم العسكرى » وقتلوا أنفسهم قتلا التزموا فيه غاية الثبات (كان ذلك سنة ١٧٠٣) ، وأعاد الكهنة رأس « كوتسوكى » إلى رئيس حاشيته ، فأخذ منهم الرأس وأعطاهم هذا الإيصال البسيط :

مذكرة :

١ رأس واحد .

(*) كانت الـ « هاراكيرى » محرمة على النساء والسوقة ، لكن كان يسمح للنساء أن يرتكبن ما يسمى « چيجاكى » — ومعناها أن يؤذن لهن — احتجاجاً على ما يصيبهن من إساءة — أن يخترمن من رقابهن بالخناجر ، وأن يقطعن الشرايين بضربة واحدة ؛ فكانت كل امرأة لها مكانة اجتماعية تلقى تدريباً فى عملية جز الرقبة ، ويعلمونها كيف تربط ساقيها قبل قتلها لنفسها ، خشية أن تقع الأبصار على جثتها وهى فى وضع لا يتفق مع ما تقتضيه العفة(١٨) .

٢ — حزمة ورقية واحدة .
تسلمت الشيئين المذكورين أعلاه .

(توقيع) سايارا موجوباى
سايتو كوناى

ولعل هذه الحادثة أن تكون أشهر حادثة فى تاريخ اليابان كله وأصدقها تمثيلا لليابانيين ، وهى من أدل الحادثات تصويراً للخلق اليابانى إذا أردت أن تفهمه ؛ والذين اقترفوا ذلك الفعل ، ما يزالون — فى أعين الشعب — أبطالا وقديسين ؛ وإلى يومنا هذا ما يزال الأتقياء يزخرفون قبور أولئك النفر ، ولا ينقطع البخور عن مثواهم(١٩) .

ولما دنا عهد وصاية « أيياسو » على العرش من ختامه ، نهض شقيقان ، هما « ساكون » و « نايكى » ، وعمر الأول منهما إذ ذاك أربعة وعشرون ، وعمر الثانى سبعة عشر ، وحاولا أن يقتلاه لما أنزله بأبيهما من مظالم — فى رأيهما — فوقعا فى قبضة الحراس ساعة دخولهما فى المعسكر ، وحكم عليهما بالموت ؛ لكن « أيياسو » تأثر بما أبدياه من شجاعة ، وخفف عنهما حكم الإعدام بحيث أصبح أن يتركا ليقتلا نفسيهما على الطريقة المألوفة فى إخراج المرء لأمعاء نفسه ؛ ثم قضى كذلك — مراعاة لعادات عصره — أن يشمل هذا القرار الرحيم أخاهما الأصغر « هاشيارو » وقد كان فى الثامنة من عمره ؛ وقد خلف الطبيب الذى كلف بملاحظة هؤلاء الصبية فى قتل أنفسهم ، وصفاً لما رأى ، فيما يلى :

لما أجلسوا جميعاً فى صف ليرحلوا عن هذا العالم رحلة لا أوبة بعدها ، التفت « ساكون » إلى الأخ الأصغر قائلا : « اذهب أنت أولا ، لأنى أود أن أستيقن من أنك تؤدى الأمر على وضعه الصحيح » فلما أجاب الصغير بأنه لم يشهد قط عملية الـ « سپُولكو » من قبل فإنه يجب أن يرى أخويه وهما يؤديانها ، حتى يستطيع بعدئذ أن يحذو حذوهما ، فابتسم أخواه الأكبران

وعيناهما تلمعان ، وقالا : « لقد أصبت أيها الأخ الصغير ، ويحق لك الآن أن تفخر بأنك ابن أبيك » ؛ ولما وضعاه بينهما ، طعن « ساكون » خنجره فى الجانب الأيسر من بطنه وقال : « انظر ، أخى ، أتفهم الآن ؟ والذى ينبغى أن تراعيه هو ألا تضرب الخنجر عميقاً حتى لا يطرحك على الأرض ، بل كن أميل بجسدك إلى الأمام ، واجعل ركبتيك فى وضع ثابت » . وفعل « نايكى » ما فعله « ساكون » وقال للصبى : « افتح عينيك خشية أن تبدو كالمرأة وهى تحتضر ، وإذا أحسست أن شيئاً فى جوفك يعوق إخراج خنجرك ، وأن قواك تخور ، فاجمع شجاعتك وضاعف جهدك فى شد خنجرك جانباً لتقطع به البطن قطعاً أفقياً » فنظر الصبى إلى أخيه عن يمينه وإلى أخيه عن يساره ، حتى إذا ما رآهما قد أسلما الروح ، خلع ثيابه هادئاً عن نصف جسده ، واحتذى حذو ما يراه عن يمينه وعن يساره »[٢٠] .

الفصل الثانى

القانون

التشريع الأول — المسئولية الجمعية — العقاب

كان التشريع القانونى فى اليابان مكملا عنيفاً لما كان يتم بالاغتيال وبالثأر وقد استمد ذلك التشريع بعض أصوله من تقاليد الشعب القديمة ، كما استمد بعضها الآخر من التشريعات الصينية فى القرن السابع ، ذلك أن القانون قد صحب الدين فى هجرة الثقافة من الصين إلى اليابان[٢١] ، وبدأ « تنشى تينو » صياغة مجموعة من القوانين ، كملت وأذيعت فى عهد الإمبراطور اليافع « مومو » عام ٧٠٢ ، لكن هذا التشريع وغيره من تشريعات العصر الإمبراطورى ، أهملت فى العصر الإقطاعى ، إذ جعل كل حاكم إقطاعى يسن لنفسه ما شاء من تشريع مستقلا عن سائر المقاطعات . ولم يعترف الرجل من طبقة « السيافين » بقانون إلا ما يريده وما يأمر به مولاه[٢٢] .

وكانت العادة فى اليابان حتى سنة ١٧٢١ أن تكون الأسرة كلها مسئولة عن كل فرد من أفرادها ، فتضمن حسن سلوكه ؛ وكذلك كانت الأسرة الواحدة — فى معظم الأقاليم — توضع فى مجموعة من خمس أسرات ، تكون كل منها مسئولة عن سائر أفراد المجموعة ، فالرجل إذا حكم عليه بالصلب أو بالحرق ، قضى كذلك بالموت على أبنائه الكبار ، وبالنفى على أبنائه الصغار عندما يبلغون الرشد[٢٣] ، وكان نظام المحنة متبعاً فى التحقيق على نحو ما كان متبعاً فى العصور الوسطى ، ولبث التعذيب شائعاً — فى صوره الخفيفة — حتى هذا العصر الحديث واصطنع اليابانيون من وسائل التعذيب إزاء المسيحيين ؛ ناسجين على منوال محاكم التفتيش نسجاً فيه انتقام لما أنزله المسيحيون أنفسهم

بأنفسهم فى تلك المحاكم ، لكنهم كثيراً ما كانوا أدق فى وسائلهم التعذيبية . فيربطون الرجل بحبال فى وضع وثيق . يزيد المربوط ألماً كلما مرت به لحظات الزمن لحظة بعد لحظة[٢٤] ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الضرب بالسياط لأتفه الأخطاء ، وكان الإعدام لديهم عقوبة على كثير جداً من أنواع الجرائم ، وجاء الإمبراطور شومو (٧٢٤ — ٥٦) فألغى عقوبة الإعدام وجعل الرحمة أساس حكمه ، لكن الإجرام زادت نسبته بعد موته ، حتى لم يقتصر الإمبراطور « كوشين » (٧٧٠ — ٨١) على إرجاع عقوبة الإعدام بل أضاف إلى ذلك أنه أمر بأن يضرب اللصوص بالسياط علناً حتى يلفظوا الروح[٢٥] ، وكانوا ينفذون الإعدام بالخنق وجز الرأس والصلب وقطع الجسد أربعة أرباع والحرق أو الغلى فى الزيت[٢٦] ، وكان « أيياسو » قد ألغى العادة التى تقضى بأن يمزق المتهم نصفين بشده بين ثورين ، كما ألغى العادة التى تقضى بأن يربط المتهم فى عمود وسط الملأ ، ثم يطلب من كل مار أن يأخذ نصيبه فى تقطيع جسده بمنشار ينشره من كتفه فأسفل[٢٧] ، وكان من رأى « أيياسو » أن كثرة الالتجاء إلى العقوبات الصارمة لا تدل على إجرام الشعب بمقدار ما تدل على فساد الموظفين وعجزهم[٢٨] ، وكم ساء « يوشيمونى » أن يجد سجون عصره بغير استعدادات صحية ، وأن بين المسجونين فئة بدأت محاكماتها منذ ست عشرة سنة ولم تنته بعد ، حتى لقد نسيت الاتهامات الموجهة إليهم ، ومات الشهود[٢٩] ، وأخذ هذا الحاكم العسكرى الذى كان أكثر هذه الطائفة استنارة فى إصلاح السجون ، وعمل على السرعة فى الإجراءات القضائية ، وألغى المسئولية الأسرية ، وواصل العمل المضنى بغية أن يصوغ أول تشريع موحد للقانون الإقطاعى فى اليابان (١٧٢٩) .

الفصل الثالث

العمـــال

نظام الطبقات – تجربة فى تأميم الأراضى – تحديد الدولة الأجور – مجاعة – الصناعات اليدوية – الصناع والنقابات

انقسمت الجماعة فى العصر الإمبراطورى ثمانى طبقات ، ثم زالت بعض الفوارق فى العهد الإقطاعى بحيث أصبحت تلك الطبقات أربعاً : الساموراى (أى السيافون) والصناع والفلاحون والتجار — والطبقة الأخيرة هى كذلك أخيرة فى الترتيب الاجتماعى ، ويأتى تحت هذه الطبقات جمع غفير من العبيد فتبلغ نسبتهم ما يقرب من خمسة فى كل مائة من السكان ، وقوامهم المجرمون وأسرى الحرب والأطفال المخطوفون الذين باعهم خاطفوهم ، وكذلك الأطفال الذين باعهم آباؤهم عبيداً فى الأسواق(*)[٣٠] ويأتى دون هؤلاء العبيد أنفسهم فى المنزلة الاجتماعية ، طبقة من المنبوذين يسمونهم « إيتا » ، يعدهم بوذيو اليابان منبوذين نجسين لأنهم يشتغلون بالجزارة أو بالدباغة أو بحمل القمامة[٣٢] .

والأكثرية العظمى من السكان (الذين بلغ عددهم فى أيام يوشيمونى عدداً يقرب من ثلاثين مليوناً) كانت تتألف من صغار ملاك الأراضى الذين يزرعون أرضهم زراعة مركزة ، وهى مساحة تبلغ ثمن التربة اليابانية الجبلية التى تسمح للمحراث أن يشق جوفها(**) ، وحدث فى عصر « نارا » أن أممت الدولة الأراضى الزراعية ، وأجرتها للفلاحين مدى ست سنوات ، أو مدى حياة الفلاح على أكثر تقدير ؛ لكن الحكومة سرعان ما تبينت أن الناس

(*) حرم هذا على الآباء سنة ١٦٩٩[٣١]

(**) الأجزاء القليلة الصالحة للزراعة كانت — ولا تزال — تسمد بالفضلات البشرية .

لم يعنهم أن يصلحوا الأرض أو أن يحرصوا عليها حرصاً حقيقياً ما دام من الحائز أن تؤول إلى سواهم بعد حين قصير ، وانتهت التجربة بالعودة إلى الملكية الخاصة ، مع مد الحكومة الفلاحين بالمال فى فصل الربيع ليتمكن الفلاحون من سد نفقات البذر والحصاد[٣٣]، ومع هذه المعونة المالية لم تكن حياة الفلاح على درجة من اليسر تخلل قواه ، فلا تزيد مزرعته على شريحة ضئيلة من الأرض ، لأن الميل المربع — حتى فى ذلك العهد الإقطاعى — كان مورد رزق لألفى رجل[٣٤] وكان على الفلاح أن يسخر فى عمل للدولة مدى ثلاثين يوماً كل عام ، كان من الحائز خلالها أن يلاقى حتفه بطعنة رمح عقاباً له على لحظة واحدة تراخى فيها عن العمل[*][٣٥] وكانت تقتضيه الحكومة ستة فى المائة من محصوله ضريبة وغيرها من القروض ، كان ذلك فى القرن السابع ، أما فى القرن الثانى عشر ، فكانت تقتضيه سبعة فى المائة ، وأربعين فى المائة فى القرن التاسع عشر[٣٧] ، وكانت آلاته الزراعية غاية فى بساطتها ، وثيابه هلاهيل خفيفة فى الشتاء ، وهو فى العادة لا يلبس شيئاً قط فى الصيف ، وكل أساسه فى المنزل قدر للأرز وقليل من الأقداح وبضعة ملاعق خشبية ، وداره من الضآلة بحيث يكفى نصف أسبوع لبنائها[٣٨] ذلك لأن الزلازل تحطم له كوخه حيناً بعد حين ، أو تقضى عليه المجاعة ، وإذا عمل أجيراً عند رجل آخر ، حددت له الحكومة — فى عهد توكوجاوا — ما يستحق من أجر[٣٩] لكن تحديد الحكومة للأجور لم يمنع هبوطها هبوطاً فظيعاً ؛ وتجد فى كتاب لـ « هوكوكى » وهو من أشهر كتب الأدب اليابانى — وصفاً لطائفة من الكوارث

(*) كان يسمح لهم خلال شهرى يوليو وأغسطس أن يقيلوا فى الظهيرة من منتصف النهار إلى الساعة الرابعة ؛ وكانت الدولة تقوم على إطعام العمال المرضى ، وعليها كذلك أن تعد الأكفان لمن يموت إبان السخرة[٣٦] .

اجتمعت كلها فى الثمانية الأعوام — ما بين ١١٧٧ و ١١٨٥ — فزلزال ومجاعة وحريق كاد يأتى على كيوتو كلها(*) ووصفه لما شاهده بعينه من مجاعة سنة ١١٨١ يعد مثلا من أجمل ما فى النثر اليابانى :

« حدث فى أرجاء البلاد جميعاً أن غادر الناس أراضيهم بحثاً عن سواها ، أو نسوا ديارهم وذهبوا إلى التلال يتخذون فى شعابها مسكناً ؛ ولهجت الألسنة بكل ضروب الدعاء ، وأدى الناس كل ألوان الشعائر الدينية التى لم تكن مالوفة فى الأيام العادية ، إذ أعادوها من جديد ، كل ذلك فعلوه بغير ما جدوى ... وأبدى سكان العاصمة استعدادهم لتضحية كل ما يملكون من نفائس من شتى الضروب ، نفيساً فى إثر نفيس (من أجل القوت) لكن لم يأبه لتلك النفائس أحد عندئذ . . . واحتشد السائلون الإحسان جماعات على جوانب الطريق ، وامتلأت آذاننا بأصوات أنينهم الباكى . . . كان الناس جميعاً يموتون من جوع ، وكلما تقدمت بنا الأيام ازددنا يأساً حتى لقد أشبهنا ما تروى عنه القصة من سمك البركة ؛ وانتهى الأمر حتى بأولئك الذين توحى سيماهم بالاحترام ، والذين يرتدون القبعات ويغطون الأقدام ، انتهى الأمر حتى بأولئك الناس إلى الإلحاف فى سؤال الإحسان من باب إلى باب ، وكان يحدث أحياناً أن يأخذك العجب كيف يستطيع هؤلاء الذين بلغت بهم تعاسة الحال كل هذا الحد أن يمشوا على أقدامهم ، وإذ بك تراهم يسقطون أمام عنيك إعياء ، فمات عدد لا يحصى من المجاعة ، وكانوا يلفظون أرواحهم بجوار أسوار الحدائق أو إلى جوانب الطرقات ؛ ولما كانت أجسادهم لا تجد من يزيلها من أماكنها ، فقد امتلأ الهواء بالرائحة النتنة ؛ حتى إذا ما أخذ التغير يطرأ

(*) ابشع ما شهدته اليابان فى تاريخها من حرائق — وهى فى تاريخها كثيرة — هى تلك التى محت ييدو (طوكيو) محواً تاماً سنة ١٦٥٧ ، وقضت على مائة ألف نفس بشرية .

يطرأ على أجسادهم ، نشأت مشاهد لا تستطيع العين أن تراها .... ومن لم يكن له كسب يشترى به القوت ، هدم داره ليبيع أجزاءها فى السوق ؛ وقيل إن الحمل يحمله الرجل بكل طاقته ، لم يكن ثمنه ليكفى سد رمقه يوماً واحداً ، والعجب أنك كنت ترى فى هذا الحطام من أخشاب المنازل ، الذى كانوا يبيعونه وقوداً للنار ، قطعاً مزدانة فى بعض أجزائها بالألوان أو بالفضة أو بطلاء الذهب .. وشىء آخر يستثير فى النفس أشد أحزانها ، وهو أنه إذا كان ثمة رجل وامرأة يربط بينهما رباط الحب الشديد ، فالذى كان منهما أقوى حباً من الآخر ، وأعمق ولاء ، يموت قبل زميله ؛ وعلة ذلك أن الواحد منهما يؤثر غيره على نفسه ، فالذى يشتد حبه يقدم لمحبوبه — رجلا كان أو امرأة — أى شىء يطلبه منه ، فكان الوالدون بطبيعة الحال يموتون قبل أبنائهم ؛ كذلك كنت ترى الرضع أحياناً عالقين بأثداء أمهاتهم ، لا يعرفون أن هؤلاء الأمهات قد فاضت أرواحهن ... وبلغ عدد الموتى فى كيوتو الوسطى خلال الشهرين الرابع والخامس وحدهما ٤٢٫٣٠٠ من الأنفس البشرية »(٤٠) .

قارن هذه الفترة الفظيعة التى تخللت مجرى الزراعة ، بالصورة التى يقدمها لنا « كيمفر » ساطعة عن الصناعات اليدوية فى اليابان كما رآها فى كيوتو سنة ١٦٩١ .

« كيوتو هى المستودع العظيم الذى تخزن فيه كل المنسوجات والسلع اليابانية ، وهى المركز التجارى الرئيسى فى الإمبراطورية ؛ فتكاد لا تجد فى هذه العاصمة الكبرى منزلا واحداً لا يصنع فيه شىء أو يباع شىء ؛ فالناس هاهنا يصفّون النحاس ويسكون النقود ويطبعون الكتب ويطرزون افخر المنسوجات بزهور الذهب والفضة ؛ وهاهنا كذلك تصنع أحسن صنوف الصبغة وأندرها ، وأروع النقوش فناً ، وكل ضروب الآلات الموسيقية والصور والخزانات اليابانية ، وشتى الأشياء التى تصاغ من الذهب وغيره من المعادن ، وخصوصاً

الصلب ؛ مثال ذلك السيوف ذوات النصل القوى وغيرها من الأسلحة ؛ كل ذلك يصنع هاهنا صناعة بلغت غاية الكمال ، كما تصنع أفخر الأردية على خير طراز ، وكل صنوف اللعب ونماذج الحيوان التى تحرك رؤوسها من تلقاء نفسها وأشياء أخرى أكثر عدداً من أن يحصرها العدد فى هذا المكان ؛ واختصاراً لست تستطيع أن تفكر فى شىء مما لا تراه يصنع فى كيوتو — وليس هنالك شىء مما يستورد من خارج البلاد — مهما بلغت دقة صناعته — مما لا تجد بين صناع العاصمة من يأخذ على نفسه أن يحاكيه ... إنه ليس فى المنازل التى تقع فى الشوارع الرئيسية إلا قلة لا تعرض شيئاً للبيع ؛ ولم يسعنى إلا العجب أنى لهؤلاء الناس الزبائن لشراء هذه المقادير الهائلة من البضائع؟ »(٤١) .

لقد استوردت اليابان قبل ذلك بزمن طويل كل فنون الصين وصناعاتها؛ وكما ترى اليابان اليوم قد بدأت تفوق معلميها من أهل الغرب فى الاقتصاد والمقدرة على الإنتاج الآلى(٤٢) ، فكذلك حدث فى أثناء حكومة توكوجاوا العسكرية ، إذ أخذ صناعها ينافسون ، بل وأحياناً يفوقون زملاءهم من أهل الصين وكورية الذين علموهم الصناعة ؛ وكانت معظم الصناعة تقوم بها الأسرة فى الدار — كما كانت الحال فى أوربا فى عصرها الوسيط — وكانت الأسرة تورث صناعتها ومهارتها من الوالد إلى ولده ، وكثيرا ما أطلق على الأسرة اسم الصناعة التى كانت تقوم بها ؛ وكذلك — كما كانت الحالة أيضاً فى أوربا فى عصرها الوسيط — تألفت نقابات كبرى ، لم يكن قوامها الصفوف الدنيا من الصناع بقدر ما كان قوامها السادة الذين كانوا يستغلون الصناع استغلالا لا يعرف الرحمة ، وحددوا حق الالتحاق بهذه النقابات للأعضاء الجدد بقيود أسرفوا فى ضيقها(٤٣) ؛ وكانت نقابة الصيارفة من أقوى النقابات ، الصيارفة الذين كانوا يقبلون الودائع والتحويلات المالية « والكمبيالات » ويقرضون القائمين على التجارة والصناعة والحكومة ؛ وما جاءت سنة ١٦٣٦

حتى كانوا يؤدون كل العمليات المالية الكبرى [٤٤] وأصبح التجار الأغنياء والممولون من أعلام أهل المدن ، وأخذوا ينظرون بعين الحسد إلى السلطة السياسية التى كانت مقصورة على السادة الإقطاعيين الذين أثاروا فى صدورهم الشحناء باحتقارهم السعى وراء الذهب ؛ وأخذت الثروة التجارية تزداد شيئاً فشيئاً خلال عصر « توكوجاوا » حتى استطاعت آخر الأمر أن تتآزر مع المواهب الأمريكية والمدافع الأوروبية على تحطيم القشرة المتحجرة فوق اليابان القديمة .

الفصل الرابع

الشعب

قوام أجسادهم — عجائن الزينة — الثياب — الطعام — آداب المعاملة —
« سبك » — احتفال الشاى — احتفال الزهور — حب الطبيعة —
الحدائق — المنازل

إن الشعب الذى يحتل أعلى مكانة فى العالم السياسى المعاصر يتألف من أفراد قصار القامة ، إذ يبلغ متوسط قامة الرجل منهم خمسة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، ويبلغ متوسط قامة المرأة أربعة أقدام وعشر بوصات ونصف البوصة ؛ وقد جاءنا وصف لرجل هو من أعظم جنودهم ، أعنى « تامورامارو » ، بأنه « رجل جميل القوام إلى حد بعيد ... طوله خمس أقدام وخمس بوصات »(٤٥) ويذهب بعض علماء التغذية إلى أن هذا القصر فى القامة يرجع إلى قلة الجير فى الغذاء اليابانى ، وهذه القلة بدورها راجعة إلى قلة اللبن ؛ وقلة اللبن سببها ارتفاع أثمان أراضى الرعى فى مثل هذه البلاد الغاصة بأهلها(٤٦) ، لكننا لا ينبغى أن نعد هذه النظرية أكثر من فرض بعيد الاحتمال — شأنها فى ذلك شأن كل ما يقال فى العلم الذى يحلل غذاء الإنسان ؛ ويبدو على النساء هناك ضعف وهزال ، فالظاهر أن ما لهن من نشاط — وهن فى ذلك كالرجال فى نشاطهم هناك — يرجع إلى قوة الجهاز العصبى أكثر مما يرجع إلى القوة البدنية ؛ ولست ترى علائم النشاط بادية إلا إذا دعت إليه ضرورات الحياة ؛ ولهن جمال هو جمال التعبير الذى تنطق به وجوههن ، وجمال المشية ، وجمال القسمات ؛ فهذه الرشاقة اللطيفة التى تراها فيهن مثل جميل لما قد أدى إليه الفن فى بلادهن .

ومعاجين الزينة شائعة فى اليابان وقديمة العهد فيها ؛ كما هى الحال فى

سائر الأقطار . فترى الرجل منهم — حتى فى العصر القديم الذى بسط فيه «كيوتو» زعامته على البلاد — ترى الرجل منهم إذا ماكان ذا منزلة اجتماعية ، يُحَمِّرُ وجنتيه ، ويضع المساحيق على وجهه ، ويعطر ثيابه ، ويحمل معه مرآة من ذهب(٤٧) ، وكذلك لبث نساؤهم قروناً طوالا لا ترى وجوههن إلا مغطاة بالمساحيق ، وفى ذلك تقول «السيدة سى شرناجون» فى كتابها : «صور على الوسادة» (حوالى ٩٩٤ ميلادية) مصطنعة الحشمة فى قولها : «حَنَيْتُ رأسى فأخفيت وجهى بكمى ، مخاطرة فى ذلك بما قد يحدثه الكم من إزالة المسحوق عن وجهى فيبدو مُبَقَّعاً»(٤٨) فقد كان سيدات البدْع يحَمِّرْن خدودهن ويطلين أظفارهن . ويُذَهِّبْنَ أحياناً سيقانهن السفلى ، فزينة المرأة فى القرن السابع عشر لم تكمل بأقل من ستة عشر صنفا ، وهى فى القرن الثامن عشر قد بلغت العشرين صنفاً ؛ وعرّف النساء خمسة عشر طرازاً لتصفيف الشعر الأمامى ، واثنى عشر طرازاً للشعر الخلفى ، وكن يحلقن حواجبهن ، ويرسمن مكانها أهلّة أو غيرها من الرسوم ؛ أوكن يضعن بدل الحواجب نقطتين سوداوين صغيرتين فى أعلى الجبهة ، لكى يحدثن بهما تناسقاً مع الأسنان التى كن يُسَوِّدْنها صناعة ، وكان تصفيف الشعر للمرأة عملا يستغرق ساعتين إلى ست ساعات إن كان القائم بالتصفيف خبيراً بفنه ؛ وكان معظم الرجال فى عصر «هايى» يحلقون مقدمات رءوسهم ، ويجمعون ما تبقى من الشعر ضفيرة يمدونها وسط ذلك الجزء الأمامى الحليق ، ليقسموه بها نصفين ، وكانت اللحى ضرورة للرجال ، رغم قلة شعراتها ؛ ومن لم يكن لهم لحى بطبيعتهم ، كانوا يضعون على وجوههم لحى صناعية ، وكان يقدم للضيف فى بيوت العليْة ملقط يسوّى به لحيته(٤٩)

كانت الثياب اليابانية فى عصر «نارا» تقتفى أثر الثياب الصينية فصدار وسراويل يغطيها ثوب محبوك على الجسم ، فلما جاء عصر «كيوتو» وسع اليابانيون من ذلك الثوب بعض الشىء وزادوا من أجزائه ، فالرجال والنساء

كانوا يلبسون أثواباً بعضها فوق بعض يتراوح عددها من ثوبين إلى عشرين . وتختلف ألوان تلك الثياب باختلاف مكانة اللابس ، وكانت تبدو أطرافها عند الكم متعددة الألوان كأنها الطيف فى تداخل ألوانه ؛ وجاء عهد كانت أكمام السيدة تتدلى إلى ما دون ركبتيها ، وفى طرفها جرس يُتَنْتِنُ وهى تسير ، وإذا كانت الطرقات مبتلة بالمطر أو بالثلج ، كن يمشين على قباقيب من الخشب محمولة على كعوب خشبية يرتفع حول بوصة عن الأرض ، وفى عصر « توكوجاورا » بلغ الإسراف فى الثياب حداً جعل « السيافين » لا يعبأون بتقاليد الناس ، ويحاولون الحد من هذا الإسراف بقوانين صارمة ، فحرقت السراويل المبطنة بالحرير والموشاة كما حرقت الجوارب التى كانت تزخرف على ذلك النحو ، وحرمت اللحى ، وصنوف معينة من تصفيف الشعر ، جاءت أيام كان رجال الشرطة فيها يؤمرون بالقبض على كل من يرونه فى الطريق مرتدياً ثوباً فاخراً ، وكان الناس يطيعون هذه القوانين أحياناً ، لكنهم فى معظم الأحيان كانوا يحتالون على التخلص منها بما عرف عن الإنسان من حماقة فطرية(٥٠) .

لكن هذا الشغف الشديد بتعدد الأردية قد خفت حدته على مر الزمن ، وأصبح اليابانيون من أكثر شعوب الأرض بساطة واحتشاماً وحسن ذوق .

ولم يكن اليابانيون ليأخذوا عن سواهم من الشعوب شيئاً فيما يخص عادات النظافة ، فالثياب تغير ثلاث مرات فى اليوم الواحد عند من يستطيع إلى ذلك سبيلا ، والناس جميعاً فقيرهم وغنيهم يستحمون كل يوم(٥١)(*) .

وأما فى القرى ، فكان الناس يستحمون فى طسوت خارج منازلهم فى

(*) كان فى طوكيو سنة ١٩٠٥ ألف ومائة حمام شعبى ، يستحم فيها كل يوم نصف مليون رجل ، لقاء أجر قيمته سنت وربع سنت(٥٣) .

الصيف ، ويثرثر الجار مع جاره إذ هما يستحمان ثرثرة لا تنقطع[٥٢] ، وكانوا يستحمون فى الشتاء بماء ساخن مبلغ حرارته مائة وعشر درجات ، فيكون لهم ذلك وسيلة تدفئة من البرد ، وكان غذاؤهم بسيطاً وصحياً قبل أن تطغى عليهم موجة الترف ؛ ووصف الصينيون اليابانيين فى الزمن القديم فقالوا عنهم إنهم « شعب طويل العمر ، حتى ليكثر فيه الأفراد الذين يبلغون فى أعمارهم مائة عام » .

وكان الطعام الرئيسى عند الشعب هو الأرز ، يضيفون إليه السمك والخضر ونبات البحر والفاكهة واللحم ، كل بنسبة ثرائه ، وكان اللحم لونا من الطعام نادراً إلا بين الطبقة العالية وطبقة الجنود ، وكان العامل اليابانى يفضل هذا الطعام الذى يتألف من أرز وسمك ولا لحم ، يتمتع برئتين سليمتين وعضلات قوية ، فيستطيع الجرى من خمسين ميلا إلى ثمانين فى أربع وعشرين ساعة دون أن يشكو إعياء . فإذا ما أضاف اللحم إلى غذائه ، فقد قدرته هذه على الجرى السريع(*) وحاول الأباطرة فى عصر كيوتو محاولة دينية قصدوا بها أن يؤيدوا قوانين التغذية كما تأخذ بها البوذية ، فحرموا ذبح الحيوان وأكله ، ولكن لما رأى الناس أن الكهنة أنفسهم كانوا يخرجون على تلك القوانين خفية ، أخذوا يدخلون اللحم لوناً شهياً من الطعام ، ويسرفون فى أكله كلما مكنتهم من ذلك قدرتهم المالية[٥٧] .

فاليابانيون — كالصينيين والفرنسيين — يعدون إجادة الطهى علامة جوهرية للحضارة ، حتى اتخذ الطهاة — كأنهم فى ذلك فنانون أو فلاسفة — ينقسمون مدارس يناهض بعضها بعضاً بما تبدع كل منها من « وصفات » ؛

(*) لكنا نلاحظ من جهة أخرى أن اليابانيين الذين لم يكونوا يعملون بأجسادهم ، وكانوا يعيشون على كميات كبيرة من الأرز ، كانوا يتعرضون لاضطرابات فى الهضم[٥٦] .

وأصبحت آداب المائدة عندهم من الأهمية بحيث عادلت أهمية الدين على أقل تقدير ، إذ كان لهم قواعد دقيقة تنظم ترتيب القضمات ومقاديرها ، كما تنظم وضع الجسم فى كل مرحلة من مراحل الوجبة ، ولم يكن يجوز للسيدات أن تحدثن صوتاً فى الطعام أو الشراب ، أما الرجال فقد كانت تقتضيهم الأوضاع أن يدلوا على تقديرهم لكرم المضيف بجشئات عدة يظهرون بها عرفانهم بالجميل(٥٨) ، وكان الآكلون يجلسون على عقب واحد أو على العقبين فوق حصير ، إزاء مائدة لا تعلو عن الأرض أكثر من بضع بوصات ، أو قد يوضع الطعام على الحصير بغير حاجة إلى مائدة على الإطلاق ، والعادة أن تبدأ الوجبة بشراب ساخن من عصير الأرز ، ألم يعلن الشاعر « تاهيتو » فى زمن بالغ فى القدم مبلغ القرن السابع ، بأن شراب « الساكى » هو الحل الوحيد الذى تفض به مشكلات الحياة جميعاً ؟

إن ماكان ينشده السبعة الحكماء
اولئك الرجال الذين قدم بهم الزمان
هو — بغير شك — شراب « الساكى »
فبدل أن تجلس ساكتاً
مفكراً ، جاداً ، صبناً
فخير ألف مرة أن تشرب « الساكى »
وأن تسكر به حتى تصيح صياحاً عالياً
فما دام الواقع الحق،
هو أن الموت لاحق بنا جميعاً
فلنمرح
ما دمنا على قيد الحياة
إن اللؤلؤة التى تتألق ببريقها فى الليل

أقل قيمة للإنسان من نشوة قلبه
التى تأتيه إذا ما شرب « الساكى »(٥٩)

لكن الشاى كان أكثر قدسية عند العلية من « الساكى » . فهذا النبات العجيب الذى نتغلب به على ما يفقده الماء من طعمه بعد الغلى ، جاء إلى اليابان قادماً من الصين سنة ٨٠٥ ، لكنه إذ ذاك لم يصب نجاحاً ، ثم جاءها مرة أخرى سنة ١١٩١ حيث استقر بها وأقام ، فقد اجتنبه الناس أول الأمر باعتباره سما لا ينبغى أن يقربوه ؛ ولكن لما تبين للرجل من طائفة « السيافين » أن قليلا من أقداح الشاى سرعان ما يرد إلى رأسه اتزانه بعد ما أصابه من دوار بسبب الإفراط فى شراب « الساكى » ليلة البارحة ، أخذ أهل اليابان يتبينون فائدة الشاى ، ولقد أضاف ارتفاع ثمنه إلى سحره سحراً جديداً ، فكان الناس يتهادون به ثمين الهدايا ، بأن يتبادلوا الآنية الخزفية المليئة به ؛ حتى لقد كان يُقَدَّمُ للمقاتلين جزاء ما أبلوا فى أفعالهم الحربية الباسلة ، فكان الذى يجود من هؤلاء بحيث يظفر بمنحة من الشاى ، يجمع حوله الأصدقاء ليشاركوه هذا الشراب الملكى ، ولقد جعل اليابانيون من شرب الشاى احتفالا رشيقاً معقد الأوضاع ، إذ وضع « ركيو » لذلك ست قواعد لا يجوز الخروج عليها ، فارتفع شرب الشاى بفضل هذه القواعد الست إلى منزلة الطقوس الدينية ، فمن قواعد « ركيو » هذا أن الدعوة التى توجه إلى الأضياف ليدخلوا قاعة الشاى ، يجب أن تكون بالتصفيق بخشبتين معينتين كما يجب أن يظل إناء الوضوء مليئاً بالماء الصافى ، وإذا ما أحس ضيف من الأضياف بخطأ أو بنقص فى أثاث المكان ، وجب عليه أن يغادر من فوره دون أن يحدث بذلك ضجة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا يجوز أن يخوض الحاضرون فى حديث تافه ، بل يجب عليهم ألا يطرقوا بالحديث إلا أموراً عالية جادة ، ولا يجوز لأحد أن يفوه بكلمة واحدة مما يدل على غرور أو رياء ، ثم لا يصح أن يستغرق الأمر أكثر من أربع ساعات ،

ولم يكن يستعمل إبريق الشاى فى مثل هذه المحافل التى يطلق عليها « شا— نو— يو » (ومعناها ماء ساخن للشاى) ؛ بل كان يوضع مسحوق الشاى فى فنجان ممتاز فى نوعه ، ثم يصب فيه الماء الساخن ، ثم يدور الفنجان بين الأضياف واحداً بعد واحد ، كل منهم يمسح حافته مسحاً رقيقاً بمنشفة صغيرة ، حتى إذا ما شرب آخر الشاربين آخر جرعة من الفنجان ، أدير الفنجان بين الحاضرين من جديد ليفحصوه من الوجهة الفنية(٦٠) ، وعلى هذا النحو كان احتفال الشاى حافزاً للخزافين على إنتاج أقداح وآنية بالغة الجمال ، كما كان هذا الاحتفال عاملا على صياغة آداب اليابانيين فى صورتها الهادئة الفاتنة التى يراعى فيها تبادل الاحترام(*) .

كذلك أصبحت الزهور موضع قدسية فى اليابان ؛ فكانت موضع تقدير من « ركيو » هذا الذى صاغ طقوس محافل الشاى ، فكانت الزهور عنده تلقى من العناية ما تلقاه أقداح الشاى ، ولما سمع أن « هيديوشى » آت لزيارته ليرى مجموعته المشهورة من زهور الأقحوان ، أتى « ركيو » على كل الزهور فى بستانه إلا واحدة ، لعل هذه الواحدة تسطع فى عينى هذا « السياف » المخيف سطوعاً يدرك منه أنها فذة فى عالم الزهور(**)(٦٢) ؛ وأخذ فن تنسيق الزهور يتقدم خطوة بعد خطوة مع « شرعة الشاى » فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حتى إذا ما جاء القرن السابع عشر ، أصبح موضعاً للاهتمام فى حد ذاته ، ونشأت طائفة « أساتذة الزهور » تعلم الرجال والنساء

(*) محصول الشاى هو الآن بالطبع أحد منتجات اليابان الهامة . ويظهر أن الشركة الهولندية الشرقية هى التى جاءت إلى أوربا بأول ما عرفته من الشاى سنة ١٦١٠ ، وقد باعته حينئذ بواقع أربعمائة ريال تقريباً للرطل الواحد ، وقد قال « جوناس هانواى » سنة ١٧٥٦ إن الرجال فى أوربا يفقدون من طول قامتهم والنساء فيها يفقدون من جمالهن ، بفعل شرب الشاى ، وكان دعاة الإصلاح يحاربون هذه العادة بوصفهم إياها بالهمجية القذرة(٦١) .

(**) هذا « الحاكم العظيم » وهذا « العلم فى عالم الشاى » قد تحابا كما يتحاب الرجلان العبقريان ، وقد اتهم أولهما الثانى بتهمة الخيانة ، لكنه بدوره اتهم بإفساد ابنة الثانى (ركيو) وأخيراً انتحر « ركيو » على طريقة هاراكيرى(٦٣) .

كيف ينبتون الزهور فى البستان وكيف ينسقونها فى دورهم ، فكان هؤلاء الأساتذة يقولون إنه لا يكفى أن تعجب بالزهور نفسها ، بل يجب أن تدرب نفسك على رؤية الجمال فى ورقة الزهور وفى غصنها وفى عودها كما ترى الجمال فى الزهرة نفسها ، وأن تدرب نفسك على رؤية الجمال فى زهرة واحدة كما تراه فى ألف زهرة ، وأن ترص الزهر رصاً لا يقوم على أساس اللون وحده ، بل كذلك مع أساس طريقة ضمها فى طاقات وصفها(٦٤) ؛ وهكذا أصبح الشاى والزهور والشعر والرقص من لوازم الأنوثة بين بنات العلية فى اليابان .

الزهور عند اليابانيين بمثابة الدين ، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين ، ويلتقى فيها أفراد الشعب جميعاً ؛ وهم يرقبون فى كل فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور ؛ فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى أسبوع أو أسبوعين فى أوائل شهر إبريل ، يخيل إليك أن أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحدجوا فيها بأبصارهم ؛ بل إنهم ليحجون إلى الأماكن التى تزخر بهذه المعجزة ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر(*) ؛ فهم لا يزرعون شجرة الكريز لثمارها ، بل لأزهارها — وزهرتها رمز للمحارب المخلص الذى يستعد للموت فى سبيل وطنه فى اللحظة التى تصل فيها حياته أوج شبابها(٦٥) ؛ وقد يحدث أن يطلب المجرمون المساقون إلى الإعدام زهرة من زهرات الكريز وهم فى طريقهم إلى الموت(٦٦) ، وتروى لنا « السيدة تشيو » فى قصيدة لها مشهورة ، أن فتاة قصدت بئراً تستخرج منه الماء ، فلما وجدت الدلو والحبل ملتفاً عليهما أغصان النبات اللبلابى ، قصدت مكاناً آخر تحصل منه على الماء ، مؤثرة ذلك على قطع أسلاك النبات(٦٧) ، ويقول « تسورايوكى » « إنه ليستحيل عليك أن تفهم قلب الإنسان ، لكن الزهور فى قريتى ما تزال كسابق عهدها تنفث عبقها(٦٨) ، هذه العبارة الساذجة هى من أعظم الشعر

(*) هم كذلك يحجون إلى حيث يشاهدون أوراق الأسفندان تتحول إلى السقوط .

اليابانى ، لأنها تعبر عن خصيصة عميقة بجنس بشرى بأسره : تعبر عنها تعبيراً كاملا يتعذر أن تحذف منه شيئاً ، كما تعبر عن نتيجة صادقة من نتائج الفلسفة ، إنك لن تجد بين أمم العالم أمة أحبت الطبيعة بمثل ما أحبها اليابانيون ولن تجد الناس فى أى جزء من أجزاء الأرض غير اليابان يتقبلون راضين تقلبات الطبيعة كما تتبدى فى الأرض والسماء والبحر ، ولن تجد بلداً آخر غير اليابان عنى فيه الناس بزراعة البساتين ، أو بتغذية النبات إبان نموه ، أو خصوه برعايتهم فى دورهم ، إن اليابان لم تنتظر حتى يجيئها « روسو » أو « وردزورث » لينبئها أن الجبال شوامخ أو أن البحيرات قد يكون لها روعة الجمال ، فتكاد لا تجد فى اليابان منزلا بغير أصيص للزهور ، كما توشك ألا تجد قصيدة واحدة فى الأدب اليابانى تخلو من وصف مشاهد الطبيعة فى ثنايا سطورها ؛ فكما أن « أوسكار وايلد » كان من رأيه أن انجلترا لا ينبغى لها أن تحارب فرنسا لأن الفرنسيين يكتبون نثراً بلغ فى فنه حد الكمال ، فكذلك نقول أن أمريكا يجب أن تنشد السلام إلى آخر جهدها مع أمة تتعطش للجمال فى عاطفة جارفة تكاد تبلغ فى حدتها قوة نهمها إزاء السلطان .

إن فن غرس الحدائق قد جاءها من الصين جنباً إلى جنب مع البوذية والشاى ؛ لكن هاهنا ترى اليابانيين مرة أخرى يحولون بقوة إبداعهم ما قد تشربوه من غيرهم عن طريق المحاكاة ، فتراهم يستملحون جمال الشىء إذا خلا من الاتساق . ويستجملون الأشكال المبتكرة التى لم يقتلها التكرار ، فتجىء للرائى بمثابة المفاجأة ، وهم يقصرون الأشجار والشجيرات بأن يحصروا جذورها فى أُصُص ، وتدفعهم فى ذلك فكاهة شيطانية وصبٌّ عارم إلى أن يروضوا تلك الأشجار بحيث يصوغونها فى أشكال يجوز لنا ، إذا ما رأيناها تكوّن سور البستان — أن نقول عنها إنها تمثل أشجار اليابان التى عصفت بها عواصف تلك البلاد فلوت أفنانها ، وتراهم يبحثون فى فوهات براكينهم وفى أوعر شطئانهم لعلهم واجدون صخوراً امتزجت بالمعادن بفعل

النيران الداخلية ، أو صاغها حجّارون صابرون فى أشكال غريبة ملتوية الأجزاء ، وهم يحتفرون البحيرات الصغيرة ، ويشقون النهيرات الفوارة بمائها ، ويصلون ضفافها بجسور تبدو للرائى كأنما جاءت نمواً طبيعياً فى أشجار الغابات ، وهم يدقون خلال هـــذه التكوينات المختلفة كلها مماش ينقشونها نقشاً دقيقاً ، فتؤدى بك تارة إلى جديد يفجؤك ، وطوراً إلى ركن هادئ بليل الهواء .

وحيث تسعفهم فسحة الأرض وكثرة المال تراهم أميل إلى أن يجعلوا بيوتهم جزءاً من حدائقهم ، منهم إلى أن يجعلوا حدائقهم جزءاً من بيوتهم ، ومنازلهم هزيلة البنيان لكنها جميلة ؛ فلئن جعلت الزلازل الأبنية العالية خطراً داهماً ، فقد عرف النجار وقاطع الخشب كيف يربط ألواح الخشب وشرائحه وعمده فيجعل منها مسكناً تبلغ بساطته حد التقشف . لكن يبلغ جماله حد الكمال بحيث تراه فى فن عمارته نسيج وحده ، إنك لا ترى فى مثل هذا المسكن ستائر أو أرائك أو أسرة أو مناضد أو مقاعد ، ولا ترى دلائل بارزة تدل على ثروة الساكن ورفاهيته ، لا ترى متحفاً للصور ولا التماثيل ولا التحف ؛ لكنك ترى فى ركن من الحديقة غصناً مزهراً ، وعلى الحائط صورة من الحرير أو الورق ، أو ترى قطعة من الخط الزخرفى ، وتجد على الأرض المغطاة بالحصير وسادة وضع أمامها كرسى مما تسند عليه الكتب للقراءة ، وعلى أحد جانبيها خزانة كتب وعلى جانبها الآخر مسندة ، وهم يخفون الحشايا والأغطية فى حزانة خشبية ، ليخرجوها وينشروها على الأرض إذا حان وقت النوم ، فنى مثل هذه الأحياء المتواضعة ، أو فى كوخ الفلاح الهزيل كانت تسكن الأسرة اليابانية ، وتبقى على الحياة وعلى المدنية فى « الجزر المقدسة » خلال ما تعاور البلاد من زعازع الحروب والثورات ومن فساد سياسى وكفاح فى سبيل الدين ؟

الفصل الخامس

الأسرة

الأب المستبد — منزلة المرأة — الأبناء —
الأخلاق الجنسية — ال « جيشا » — الحب

الأسرة هى المصدر الحقيقى للنظام الاجتماعى ، ولئن كان هذا صحيحاً بالنسبة للغرب ، فهو أصح بالنسبة للشرق ، وجمع السلطة كلها فى يد الأب فى اليابان — كما هى الحال فى سائر أنحاء الشرق — لا يدل على انحطاط فى درجة الرقى الاجتماعى ، بل يدل على إيثارهم للحكومة الأسرية على الحكومة السياسة ، فليس للفرد من الأهمية فى الشرق بمقدار ما له من الأهمية فى الغرب ، وذلك لأن الدولة فى الشرق كانت أضعف منها فى الغرب ؛ ولذا تطلبت الدولة أن يكون إلى جانبها أسرة قوية النظام شديدة الطاعة لتقوم مقام السلطة المركزية التى تشمل بسلطاتها شتى نواحى الحياة كبيرها وصغيرها على السواء ؛ وقد فهمت الحرية فى الشرق بالنسبة للأسرة لا بالنسبة للفرد ، ذلك لأنه لما كانت الأسرة هى وحدة الإنتاج فى عالم الاقتصاد كما كانت وحدة النظام الاجتماعى ، كان النجاح أو الفشل ، بل الحياة أو الموت ، لا يخص الفرد الواحد بل يصيب الأسرة كلها ؛ فكانت سلطة الوالد استبدادية ، لكنها رغم استبدادها كانت تشوبها الرأفة التى لا يعقبها شىء من الضرر ؛ وذلك بكونها تبدت للناس أمراً طبيعياً وضرورياً وإنسانياً ؛ فقد كان من حقه أن يطرد من الأسرة زوج ابنته أو زوجة ابنه بينما يحتفظ بحفدته فى صحبته ؛ بل كان من حقه أن يقتل ابنه أو ابنته إذا اتهم أحدهما بالدعارة أو غيرها من الجرائم الخطيرة ، وأن يبيع أبناءه أو بناته فى سوق النخاسة

أو سوق الدعارة(*) وفى مستطاعه أن يطلق زوجته بكلمة واحدة[٧٠] فإذا ماكان الرجل من عامة الشعب ، كان الأغاب أن يقتصر على زوجة واحدة ، أما إذا كان من أبناء الطبقة العليا فقد كان من حقه أن يحيط نفسه بالخليلات ؛ ولم يكن أحد ليهتم بما يقترفه من خيانة زوجية آناً بعد آن[٧١] ؛ ولما دخلت المسيحية بلاد اليابان ، شكا الكتاب من أهل البلاد مما أحدثته من اضطراب فى هدوء الحياة العائلية ، بتعاليمها التى تجعل اتخاذ الخليلات واقتراف الزنا من الخطايا[٧٢] .

وكانت منزلة المرأة فى اليابان — كما هى الحال فى الصين — أعلى فى مراحل المدنية الأولى منها فى المراحل المتأخرة ، ، فترى ست نساء بين حكام البلاد إبان العهد الإمبراطورى ، ولعبت المرأة فى كيوتو دوراً هاماً ، بل لعبت الدور الأول فى حياة الأمة الاجتماعية والأدبية ؛ وفى ذلك العهد الذهبى للثقافة اليابانية — لو جاز لنا أن نجازف بالرأى فى مثل هذه النواحى الغامضة — سبق الزوجات أزواجهن فى عالم الزنا ، بحيث كن يعن العفة بقول جميل يقال[٧٣] وتصف لنا « السيدة سى شوناجون » شاباً على وشك أن يرسل رسالة غرامية لخليلته ، فقطعها ليغازل فتاة عابرة ؛ ثم تضيف تلك الكاتبة المحبوبة البارعة فى أدب المقالة ، قولها : « ولست أدرى إن كان الرسول الذى حمل رسالة هذا المحب معطرة بقطرات الندى انتثرت من الزهور العبقة ، قد تردد فى تقديمها إلى الحبيبة ، إذ وجدها هى بدورها تستضيف عشيقاً »[٧٤] ؛ ثم انتشرت نظرية أهل الصين فى إخضاع المرأة للرجل ، حين انتشر النظام الإقطاعى الحربى ، وحين تناوب البلاد تهاون وشدة جعلا يتعاقبان على نحو طبيعى يسجله التاريخ ؛ فأصبح المجتمع يسوده الذكور ، وأذعن النساء « للطاعات الثلاث » — الولد والزوج والابن ؛ — وأوشك الناس ألا يضيعوا جهدهم فى تعليم النساء ، اللهم إلا تعليمهن آداب الأوضاع الاجتماعية ؛ وطولب النساء بالأمانة الزوجية يتهددهن فى ذلك عقاب الإعدام ؛ فإذا وجد

(*) لم يكن يقع هذا إلا فى أحط الطبقات وعند الضرورة القصوى (٦٩)

الزوج زوجته متلبسة بجريمة الزنا ، كان من حقه ان يقتلها مع عشيقها فوراً ؛ وقد أضاف « ايياسو » بدقته إلى هذا الحق شرطاً ، فقال إن الزوج إذا قتل المرأة فى مثل هذه الحال وأخلى سبيل الرجل ، حق عليه هو نفسه عقاب الموت(٧٦) ؛ وقد نصح الفيلسوف « إكن » للزوج أن يطلق زوجته إذا ما أسرفت فى حديثها من حيث ارتفاع الصوت ، أو طول الكلام ؛ أما إذا حدث أن كان الزوج منحل الخلق وحشى الطبع ، فينبغى للزوجة — فى رأى « إكن » — أن تضاعف له الرحمة والدعة ؛ وفى ظل هذا التدريب الشديد المتصل ، أصبحت المرأة اليابانية أنشط الزوجات وأخلصهن وأكثرهن طاعة ؛ وإن الرحالة الذين أخذهم العجب لهذا النظام الذى أنتج مثل هذه النتائج الحميدة ، ليتساءلون إن كان من الحكمة أن ندخله فى بلاد الغرب (٧٧) .

ولم تكن كثرة النسل تجد تشجيعاً فى اليابان « السامورية »(*) على خلاف ما نراه فى أقدم عادات المجتمع الشرقى وأكثرها قدسية ؛ وذلك لأنه لما تكاثر السكان أحست الجزر الصغيرة أنها قد ازدحمت بأهلها ، وأصبح من عوامل السمعة الحسنة للرجل من طائفة « السيافين » ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، وألا ينجب من الأطفال أكثر من اثنين(٧٨) ؛ ومع ذلك فقد كان ينتظر من كل رجل أن يتزوج وأن ينسل الأبناء ، فإذا تبين العقم فى زوجته ، كان من حقه طلاقها ؛ وإن نسلت له بنات ولا أبناء ، نصحوه بأن يتبنى ولداً حتى لا يضيع اسمه وتتبدد أملاكه ، لأن البنات ليس من حقهن أن يرثن شيئاً(٧٩) وكان الأطفال يربون على أساس الفضائل الصينية ، وفى جو من الأدب الذى يبث إخلاص البنوة ، لأن انتظام الدولة وأمنها كانا يعتمدان على هذه الطاعة التى تبعث فى الأبناء والتى تكون معيناً للنظام فى الأسرة ، وقد أمرت

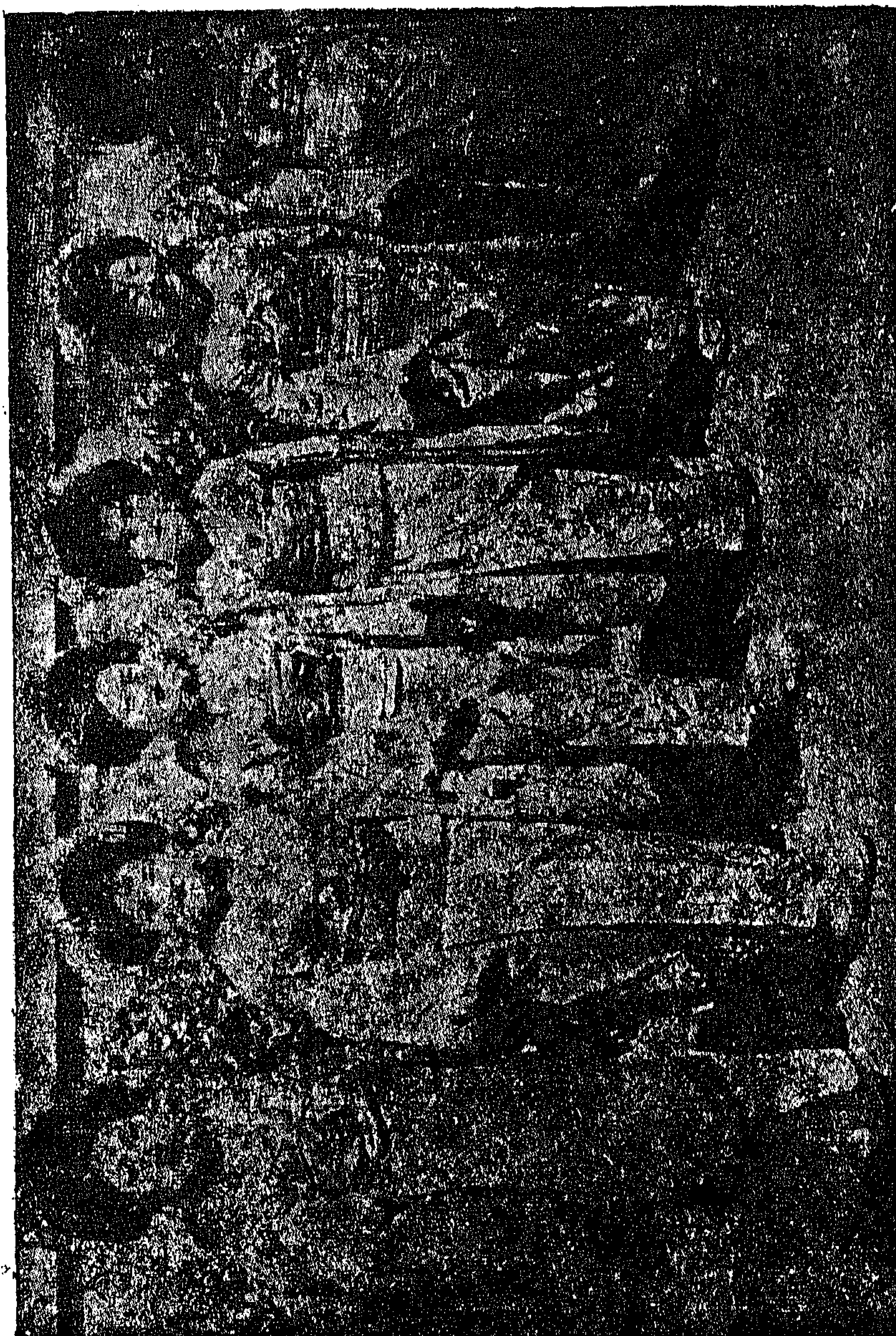
(*) الساموار « السياف » ، واليابان السامورية ، هى اليابان فى العهد الذى ساد فيه السيافون . (المعرب)

الإمبراطورة «كوكن» — فى القرن الثامن — كل أسرة يابانية أن تحصل لنفسها على نسخة من متن الطاعة المفروضة على الأبناء للآباء» ؛ وكان يطلب إلى كل تلميذ فى مدارس الأقاليم أو فى الجامعات أن يتقن دراسة هذا الكتاب إتقانا تاماً ؛ ولو استثنيت طائفة السيافين الذين كانت واجبات الطاعة عندهم مفروضة أولا لسادتهم ؛ إذا استثنيت هؤلاء ، وجدت طاعة الأبناء لآبائهم هى الفضيلة الأساسية العليا عند اليابانيين ؛ بل إن علاقة اليابانى بالإمبراطور ، كانت علاقة الحب والطاعة من ولد إلى والده ؛ ولبثت هذه هى الفضيلة الرئيسية فى التشريع الخلقى كله تقريباً عند عامة الناس فى اليابان ، حتى جاءهم الغرب بأفكاره الثورية التى تنادى بحرية الأفراد ؛ وكان يستحيل على الجزر اليابانية أن تتحول إلى المسيحية ، بسبب ما ورد فى الإنجيل من أمر للرجل بأن يترك أباه وأمه ليلصق بزوجته(٨٠).

لم تكن الفضائل الأخرى — فيما عدا الطاعة والولاء — لتحتل بينهم مثل المكانة التى تحتلها فى أوربا المعاصرة ؛ فالعفة كانت فضيلة مرغوباً فيها ، حتى لقد قتل بعض نساء الطبقة العليا أنفسهن حين تعرضت بكارتهن للخطر(٨١)، لكن كبوة واحدة لم يكن معناها عندهم القضاء على المرأة قضاء كاملا ؛ وأشهر القصص اليابانية ، وهى قصة «جنجى مونوجانارى» هى عبارة عن ملحمة تروى قصة غواية فى الطبقة العليا ؛ وأشهر مقالات فى الأدب اليابانى وهى المجموعة فى كتاب «صور على الوسادة» لكاتبته «السيدة سى‌شوناجون» تراها فى بعض المواضع كأنما أريد بها أن تكون رسالة فى الأوضاع الصحيحة التى ينبغى مراعاتها عند اقتراف الخطيئة(٨٢)، فقد نظر القوم إلى شهوات الجسد نظرتهم إلى أمر طبيعى كما ينظرون إلى الجوع والظمأ ؛ فترى آلاف الرجال — وكثير منهم أزواج محترمون — يحتشدون ليلا فى «يوشى وارا» ، (أى حى الزهر) فى طوكيو ؛ ففى ذلك الحى منازل خرجت على النظام ، يسكنها خمسة عشر ألف امرأة زانية رخص لهن بالزنا ومهرن فيه ، تراهن فى الليل

جالسات وراء « شيش » نوافذهن ، فاخرات الثياب بيضاوات بما وضعنه على أجسادهن من مساحيق ، مستعدات للغناء والرقص والدعارة لمن ليس له امرأة عشيرة من الرجال ، أو لمن ساءت عشيرته منهم (٨٣) .

وأعلى هؤلاء الزانيات ثقافة هن فتيات « الجيشـــا » الذى يدل اسمهن هذا على أنهن بارعات فى فنهن (فكلمة جيشا مكونة من مقطعين : « جى » ومعناها بارع فى الأداء الفنى ، و « شا » ومعناها شخص) وهن شبيهات بطائفة « الغوانى » فى اليونان ، فى أنهن قد أثرن فى الأدب كما أثرن فى عالم الحب ، ومزجن فوضاهن الخلقية بالشـــعر ، لكن حدث أن أمر الحاكم العسكرى « أينارى » (١٧٨٧ — ١٨٣٦) عام ١٧٩١ بتحريم الاستحمام الذى يخلط الجنسين معاً ، لأنه أحياناً يؤدى إلى الخروج على قواعد الأخلاق(٨٤) ، ثم أصدر أمراً شديداً سنة ١٨٢٢ يقاوم به فتيات « الجيشا » وقد وصف الواحدة منهن بأنها « مغنية تلبس فاخر الثياب ، وتعرض نفسها مأجورة لتسلية رواد المطاعم ، بالرقص والغناء فى ظاهر الأمر ، لكنها فى الحقيقة تمارس شيئاً يختلف عن هذين كل الاختلاف »(٨٥) ؛ ومنذ ذلك التاريخ عُدّ هؤلاء النساء بين « الزانيات اللاتى لا يقعن تحت الحصر » بحيث كن فى عهد « كيمفر » يملأن حوانيت الشاى فى القرى ، كما يملأن الفنادق أينما وجدتها على طول الطريق(٨٦) ومع ذلك فقد لبثت الحفلات والعائلات تدعو فتيات « الجيشا » ليقمن بالتسلية فى الاجتماعات ؛ وفتحت مدارس تتلقى فيها فتيات « الجيشا » الناشئات على أيدى « الجيشا » القديمات مختلف أوضاع الفن ؛ وكان يحدث أحياناً أن يجتمع المعلمات والمتعلمات معاً فى حفلات الشاى ، ليقمن بعرض الجانب المحتشم من ألوان ما يعرفنه من فنون ؛ والآباء الذين يتعـــذر عليهم أحياناً أن يعولوا بناتهم ، كانوا يوافقون بمحض اختيارهم على تدريب بناتهم فى فنون « الجيشا » لعل ذلك يكون مورد كسب لهن ؛ وما أكثر القصص اليابانية التى تروى عن بنات أسلمن أنفسهن لهذه الحرفة إنقاذاً لأسراتهن من أنياب الجوع (٨٧) .



فتيات جيشا

إن هذه العادات — مهما بلغت من غرابة تفزع لها فزعاً — لا تختلف فى جوهرها عن عادات الغرب ونظمه الاجتماعية ، اللهم إلا فى الصراحة والتهذيب ولطف الأداء ؛ وإنه ليقال لنا على سبيل التأكيد أن الأغلبية الكبرى من فتيان اليابان ، لم تزل عفيفة كعذراوات الغرب سواء بسواء[٨٨] ؛ فعلى الرغم من هذه النظم الصريحة ، ترى اليابانيين يحيون حياة لا بأس بها من حيث النظام والاحتشام ؛ وعلى الرغم من أنهم كثيراً ما كانوا يأبون الجرى مع دوافع الحب فى عقد الزواج الدائم مدى الحياة ، فقد كان فى وسعهم أن يظهروا أرق العواطف إلى نحو ما يميلون إليه من أشياء ، فما أكثر الأمثلة التى نصادفها فى حوادث التاريخ ، وفى الوقائع الخيالية التى وردت فى الأدب اليابانى ، التى تدل على أن الشبان والشابات قد قتلوا أنفسهم آملين أن يتمتعوا فى الآخرة الأبدية بالاتصال الذى حرمه عليهم آباؤهم على هذه الأرض[٨٩] ؛ وليس الحب هو الموضوع الرئيسى فى الشعر اليابانى ؛ لكنك مع ذلك تسمع نغماته هنا وهناك بسيطة مخلصة عميقة على نحو لا يضارعها فيه أدب آخر :

آه ، تحولت الأمواج البيض على مدى البصر ،
مما أراه طافياً على بحر « أيسى »
زهرات
أجمعها طاقةً
أقدمها هدية لحبيبتى[٩٠]

ثم اسمع « تسورايوكى » العظيم يحكى قصة حبه المرفوض فى أربعة أسطر ، مزج فيها الطبيعة بشعوره مزجاً يميز الأدب اليابانى :

أتقول ألا شىء وشيك الزوال
مثلُ زهرة الكريز ؟ ... لكنى أذكر لحظة
ذبلت فيها زهرة الحياة بكلمة واحدة
ولم تعد تتحرك من الريح هبّةٌ[٩١]

الفصل السادس

القديسون

الدين فى اليابان — تحول البوذية — الكهنة — الشكاك

إن شعور الولاء الذى يعلن عن نفسه فى الوطنية وفى الحب وفى حب الوالدين وحب الأبناء وحب الخليل وحب الوطن ، هو نفسه الشعور الذى لا بد أن يلتمس فى الكون باعتباره كلا واحداً ، قوة رئيسية يتوجه إليها بالولاء ، ويستمد منها شيئاً من القيمة والمعنى اللذين يكونان أوسع نطاقاً من حدود الشخص الواحد ، وأدوم بقاء من حدود عمر واحد ؛ ولئن كان اليابانيون على درجة من الاعتدال فى تدينهم — فهم ليسوا كالهندوس فى عمق إيمانهم الدينى وشدة انغماسهم فى ذلك الدين ، كلا ولا هم يشبهون قديسى الكاثوليكية فى العصور الوسطى فى حدة عاطفتهم الدينية وتهوسهم فى عقيدتهم حتى بلغوا فى ذلك حد تعذيب أنفسهم ، وقل ذلك عن رجال الإصلاح الدينى المتنازعين ، لم يكن اليابانيون مثل هؤلاء ولا هؤلاء ، ومع ذلك فقد أخلصوا إخلاصاً ظاهراً للتقوى وللصلاة وللفلسفة التى تنتهى بهم إلى التفاؤل ، حتى لقد تميزوا بذلك من بنى عمومتهم المتشككين الذين كان يفصلهم عنهم البحر الأصفر .

لقد جاءت البوذية من لدن مؤسسها سحابة قائمة من التشاؤم ، تدعو الناس إلى الموت ، لكنها لم تلبث تحت سماء اليابان أن تحولت إلى عقيدة قوامها آلهة وافية ، وإلى محافل دينيّة تبعث الغبطة فى النفوس ، وأعياد مرحة وحجيج إلى روائع الطبيعة على غرار ماكان يتمناه روسو ، وجنة موعودة تسرى عن الصدور كروبها ؛ نعم إن البوذية آمنت بالجحيم كما آمنت بالجنة — بل آمنت

بوجود عدد من الجحيمات يبلغ مائة وثمانية وعشرين ، أعدت لشتى الغابات ومختلف الأعداء وآمنت بعالم للشياطين ، كما آمنت بعالم للقديسين ، كذلك آمنت بوجود شيطان مشخص (يسمونه أونى) له قرون وأنف أنطس ومخالب وأنياب ، ويسكن فى مكان مظلم يقع فى الشمال الشرق ، وأنه آناً بعد آن يغرى النساء بالذهاب إليه هناك ليمتعنه ، كما يغرى الرجال ليستمد منهم فى غذائه مادة البروتين[٩٢] ؛ ولكن إلى جانب هذا كله كانت عقيدة البوذية اليابانية أن هناك « بوذين » كثيرين على استعداد أن يخلعوا على بنى الإنسان جزءاً من الرحمة التى جمعوها مقداراً على مقدار بسبب عودتهم إلى الحياة مرة بعد مرة ، وفى كل مرة يقضون حياتهم فى فضيلة ، وكانت هنالك كذلك عقيدة فى آلهة رحيمة ؛ مثل « مولاتنا كوانون » ومثل « جيزو » الذى يشبه المسيح ؛ وفى أمثال هؤلاء تجد الرحمة الإلهية بأدق معانيها ؛ وكانت العبادة يؤدِّى بعضها صلاةً عند مذابح المنازل أو عند أضرحة المعابد ، على أن معظم عبادتهم كان يتخذ صورة المواكب المرحة ؛ كانت الديانة فيها تحتل المكان الأول لمظاهر الغبطة والفرح ، وكانت التقوى تتبدى علائمها فى لبس النساء للأثواب الجميلة ، وفى انغماس الرجال فى ألوان المتع ؛ ويستطيع العابد الجادّ فى عبادته أن يطهر روحه بالصلاة مدى ربع ساعة تحت شلال دافق فى قلب الشتاء ؛ أو بالأخذ فى رحلات ينتقل فيها من ضريح إلى ضريح من أضرحة مذهبة ليشبع روحه أثناء هذه الرحلات بجمال أرض الوطن ؛ ذلك لأن اليابانى يستطيع أن يختار لنفسه مذهباً من عدة مذاهب فى البوذية : فله أن يحقق وجود نفسه وأن يلتمس سعادة نفسه عن طريق شعائر « زِنْ » (أى التأمل) الهادئة ؛ وله أن يتبع « نيشيرين » المتأجج فيأخذ عنه مذهب اللوتس ويظل فى صيام وصلاة حتى يظهر له بوذا بشخصه ؛ وله أن يختار لطمأنينة نفسه مذهب الأرض الطاهرة ؛ بحيث لا يجد الخلاص إلا فى الإيمان ؛ وله أن يختار لنفسه سبيلها فى حج صبور إلى حيث دير « كوياسان » وهناك يبلغ الجنة بأن

يدفن فى أرض تقدست بفضل ما فيها من عظام «كوبودايشى» — ذلك العظيم فى علمه وفى تدينه وفى فنه، وهو الذى أسس فى القرن التاسع مذهب «شنجون» أى مذهب «الكلمة الصادقة».

وعلى وجه الجملة فالبوذية اليابانية هى من أمتع ما اعتقدت فيه الإنسانية من أساطير، ولقد غزت اليابان مُسالمةً، ولم يتعذر عليها وأن تخلى من نفسها مكاناً فى لاهوتها وفى عداد آلهتها، لمذاهب «شنتو» وآلهتها فاندمج بوذا عندهم بـ«أماتيراسو» وخصص مكان متواضع فى المعابد البوذية لضريح «شنتو» وكان الكهنة البوذية الذين ظهروا فى القرون الأولى رجالا فيهم الولاء وفيهم العلم وفيهم الرحمة، وكان لهم أثر عميق فى تقدم الآداب والفنون فى اليابان، حتى لقد كان منهم رسامين أو نحاتين من الطراز الأول، كما كان بعضهم علماء، أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذى والصينى، فكانت ترجماتهم تلك حافزاً قوياً على التقدم الثقافى فى اليابان على أن هذا النجاح كان سبباً فى إفساد الكهنة فى العصور المتأخرة، إذ أصبح منهم كثيرون أميل إلى الكسل والجشع (لاحظ فى هذا الصدد الصور الرمزية التى كثيراً ما يصورهم بها اليابانيون الذين يحترفون مهنة النقش على العاج أو الخشب)، وبعُدَ بعض أولئك الكهنة عن بوذا بعداً فسيحاً بحيث راحوا ينظمون لأنفسهم جيوشاً ينشئون بها سلطة سياسية أو يحافظون بها على مثل هذه السلطة السياسية إن كانت قائمة(٩٣)؛ ولما كان الكهنة يهيئون للناس ضرورة هى أولى ضرورات الحياة — وأعنى بها تهيئة الأمل الذى يسرِّى عن النفوس. فقد ازدهرت صناعتهم حتى فى الوقت الذى تدهورت فيه صناعات الآخرين؛ وأخذت ثروتهم تزداد قرناً بعد قرن، بينما لبث الشعب فقيراً على حاله(٩٤)؛ وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأن الرجل فى سن الأربعين يمكنه أن يشترى عقداً آخر من السنين يضيفه إلى حياته إذا هو دفع رسوماً لأربعين معبداً تدعو له بذلك، ويمكن للرجل فى سن الخمسين أن يشترى عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين

معبداً تدعو له ، وفى سن الستين يستأجر ستين معبداً — وهكذا حتى يموت بسبب ما قد يكون فى تقواه من نقص[٩٥](*) ، وكان الرهبان فى عهد « توكوجاوا » يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ويحيطون أنفسهم بالغانيات صراحة ، ويمارسون اللواط(**) ، ويبيعون أحسن مناصب الدين إلى من يدفع فيها أغلى الأثمان[٩٦] .

ويظهر أن البوذية قد فقدت سلطانها على الأمة خلال القرن الثامن عشر ؛ واتجه الحكام العسكريون نحو الكونفوشية ، ونهض «مايوشى» و « موتو أورى » فتزعما حركة تدعو إلى إحياء عقيدة « شنتو » ؛ وحاول علماء من أمثال « إشيكاوا » و « أراى هاكوسيكى » أن ينقدوا الدين نقداً عقلياً ؛ فقال « إشيكاوا » فى جرأة بأن الأصول الدينية التى تتناقلها الأجيال عن طريق الرواية الشفوية يستحيل أن تبلغ من اليقين مبلغ المدوّنات المكتوبة ؛ وأن الكتابة لم تدخل اليابان إلا بعد ألف عام تقريباً من الأصل المزعوم للجزر اليابانية وأهلها من أن هذه الجزر، وهؤلاء الأهلين قد نشأوا من قطرات الرمح التى أمسك بها الآلهة ، أو من أصلاب هؤلاء الآلهة ؛ وأن ادعاء الأسرة الإمبراطورية بأنها من أصل إلهى ، إن هو إلا حيلة سياسية ، وأنه إذا لم يكن أسلاف البشر بشراً مثلهم فالأرجح أن يكونوا حيواناً ، فذلك أقرب إلى التصديق من أن يكونوا آلهة[٩٩] ؛ وهكذا بدأت المدنية فى اليابان القديمة — كما بدأت فى بلاد كثيرة غيرها — بالدين ، وها هى ذى تدنو من ختامها بالفلسفة .

(*) يقول مردوخ : « كان الرهبان فى دير كيوتو » و « نارا » العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادى فى الأوقات التى كان يتضور الشعب فيها جوعاً ، أو يموت بعشرات الآلاف من الوباء ، لأن المؤمنين بالدين يسخون فى هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء فى أمثال هذه الأوقات »[٩٦].

(**) فى سنة ١٤٥٤ ... كان الصبية يباعون غالباً للكهنة ، فكان هؤلاء الكهنة يحلقون لهم حواجبهم ويزينون وجوههم بالمساحيق ويلبسونهم أردية النساء ، ويستعملونهم أسفل ضروب الاستعمال ، لأنه منذ عهد « يوشيمتسو » الذى ضرب مثلا سيئاً فى هذا الصدد وفى كثير غيره من الأمور ، واللواط يزداد شيوعاً ، خصوصاً فى الأديرة ، ولو أنه لم يكن قاصراً على الأديرة وحدها »[٩٧] .

الفصل السابع

المفكرون

كونفوشيوس يصل اليابان — ناقد الدين — ديانة العلماء — كايبارا إكن — فى التربية — فى ألوان المتعة — المدارس المتنافسة — سبينوزا يابانى — إيتوجنساى — إيتوتوجاى — أوجيو سوارى — حرب العلماء — مايوشى — موتو أورى

جاءت الفلسفة — كما جاء الدين — إلى اليابان قادمة من الصين ؛ وكما أن البوذية قد انتهت إلى « نيبون » بعد دخولها فى « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة » بستمائة عام ؛ فكذلك بلغت الفلسفة مرحلتها الواعية فى اليابان — متخذة صورة المذهب الكنفوشيوسى — بما يقرب من أربعمائة عام بعد أن أفاضت الصين على الكونفوشيوسية حياة جديدة ؛ فى نحو منتصف القرن السادس عشر ، ظهر رجل من سلالة الأسرة اليابانية المشهورة ، وهو : « فيوچيواراسيجوا » ولم يُرْضه العلم الذى حصله باعتباره راهباً ؛ وكان قد سمع بحكماء عظماء فى الصين ، فقرر أن يرتحل إلى هناك طالباً للعلم ؛ ولما كان الاتصال بالصين محرماً فى سنة ١٥٥٢ ، فقد دبر الكاهن الشاب خطة يعبر بها مياه البحر فى سفينة كانت تشتغل بالتهريب ؛ وحدث أن كان يرقب هذه السفينة فى نُزُل فى الميناء ، فسمع إذذاك طالباً يقرأ بصوت عال باللغة اليابانية كتاباً صينياً عن كونفوشيوس ؛ فكم كانت غبطة « سِجوا » حين علم أن الكتاب من تأليف « شوهسى » تعليقاً على « العلم الواسع » ؛ فهمس لنفسه قائلا : « هذا هو ما كنت أسعى إليه منذ طويل » ؛ ولبث يبحث بحثاً لا يفتر حتى حصل على نسخة من هذا الكتاب كما حصل على نسخ من سائر ما أنتجته الفلسفة الكونفوشيوسية ، وانغمس فى تتبع ما فى هذه الكتب من مجادلات ،

حتى نسى رحلته إلى الصين ؛ ولم تمض بضعة أعوام حتى جمع حوله طائفة من طلبة العلم الناشئين ، الذين نظروا إلى فلاسفة الصين نظرتهم إلى وحى أوحى به إليهم عن عالم جديد طريف يسوده الفكر الدنيوى ؛ وسمع « أيياسو » بما قد انتهت إليه تلك الدراسات ، فطلب من « سِجوا » أن يأتيه ليعرض عليه مضمون هذه المؤلفات الخالدة التى تنسب إلى كونفوشيوس ؛ لكن الكاهن المعتد بنفسه آثر البقاء فى مكانه الهادئ الذى يدرس فيه ، وأرسل بدلا عنه أحد تلاميذه النابهين ؛ ورغم عكوفه هذا ، أخذ الشباب المْمتاز فى عصره بفاعلية العقل ، يحج إليه ويطرق بابه ، واستوقفت محاضراته الأسماع إلى حد جعل الرهبان البوذيين فى كيوتو يرفعون عقائرهم بالشكوى ، قائلين إنها لثورة أن يقوم كاهن أصيل لم يزل فى سلك الكهنوت ، فيلقى محاضرات عامة أو يعلم الشعب(١٠٠) ، غير أن الأمر حُلَّتْ عقدته بموت « سجوا » موتاً مفاجئاً (سنة ١٦١٩) .

وسرعان ما كسب تلميذه الذى أرسله إلى « أيياسو » شهرة فاقت شهرته ، وأصبح له من التأثير ما بزَّ به تأثير أستاذه ؛ وكان تلميذه هذا هو « هاياشى رازان » الذى مال إليه الحكام العسكريون الأولون من أسرة « توكوجاوا » ، فجعلوه مستشارهم وطلبوا إليه أن يصوغ لهم الكلمات التى يتوجهون بها إلى الشعب ؛ وضرب « أيمتسو » مثلا لطائفة النبلاء ، إذ جعل يختلف إلى محاضرات « هاياشى » فى سنة ١٦٣٠ ؛ وسرعان ما ملأ هذا الشاب الكونفوشيوسى صدور سامعيه حماسة للفلسفة الصينية ، حتى لم يعد عسيراً عليه أن يجتذبهم من البوذية والمسيحية على السواء ، ويضمهم إلى العقيدة الخلقية البسيطة التى أشاعها حكيم « شانتونج » فى أرجاء الشرق الأقصى ؛ فقد أنبأهم أن اللاهوت المسيحى خليط من أوهام خلقها الخيال ولا تعقلها العقول ، كما أنبأهم أن البوذية مذهب يفت فى عضد الأمة اليابانية ويتهدد نسيجها بالوهن وروحها المعنوية بالضعف ؛ يقول لهم « رازان » . « إن كهنتكم يذهبون إلى أن

هذه الحياة الدنيا فانية زائلة ؛ ثم تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعية ، وبهذا تقتلون فى الناس روح الواجب والفعل الصواب ؛ ثم تقولون إن طريق الإنسان محفوف بالخطايا ؛ فاهجر أباك وأمك وأبناءك ومولاك ، وابحث عن الخلاص ، وهأنذا أقول لكم إنى قد تعمقت الدراسة ، فلم أجد قط للإنسان طريقاً سوى ولائه لمولاه وطاعة الإبن لآبائه »[١٠١] ؛ وكان « هاياشى » ينعم فى شيخوخته بشهرة هادئة ، حين شبت النار الكبرى فى طوكيو سنة ١٦٥٧ ، فشملته بين من قضت عليهم من أنفس بلغت مائة ألف ؛ وكان تلاميذه قد أسرعوا إليه ينذرونه بالخطر الداهم ، لكنه لم يفعل سوى أن هز رأسه وعاد بنظره إلى الكتاب ؛ فلما دنت منه ألسنة اللهب ، أمر بمحفة يحمل فيها ، وحملوه وهو لم يزل يقرأ فى كتابه ؛ وقضى ليلته تلك — كما قضاها غيره ممن لا يحصيهم العدد — قضاها فى العراء تحت نجوم السماء ؛ ومات بعد ذلك بثلاثة أيام متأثراً بالبرد الذى أصابه أثناء الحريق .

عوضت الطبيعة اليابان عن موته ، بأن هيأت لها فى العام الثانى لموته رجلا من أشد أنصار الكونفوشيوسية حماسة ؛ وذلك هو « موروكيوسو » الذى اختار لنفسه « إله العلم » إلهاً يرعاه ؛ فى صدر شبابه قضى ليلة بأسرها أمام ضريح « متشيزان » يؤدى الصلاة ؛ ثم وهب نفسه للعلم بعزم الشباب ، وكانت عزيمته شديدة الشبه بعزيمة معاصره سبينوزا(*) .

> سأنهض من نومى كل صباح فى الساعة السادسة ، وآوى إلى مخدعى كل
> مساء فى الساعة الثانية عشرة
>
> ولن أجلس بغير عمل إلا إذا حال دون ذلك أضياف أو مرض أو غير
> ذلك من ظروف قاهرة ...
>
> لن أنطق بباطل

(*) راجع فاتحة كتاب سبينوزا « فى الإصلاح العقلى » .

سأجتنب الألفاظ التى لا تغنى شيئاً ، حتى إن كنت أوجه الحديث
إلى من هم دونى

سأكون معتدلا فى طعامى وشرابى

وإذا اشتعلت فىَّ الشهوات ، سأقضى عليها فوراً ، دون أن أعينها قط
على التزايد

ن تشتت الفكر يفسد قيمة القراءة ، فسأقاوم جهدى كل ما يصرفنى
عن حصر انتباهى ، وسأقاوم فى نفسى العجلة الزائدة .

سأسعى إلى تثقيف نفسى بنفسى ، ولن أسمح للرغبة فى الشهرة أو فى
الكسب أن تحدث فى عقلى اضطراباً .

إنى سأنقش هذه القواعد فى صفحة قلبى ، وسأحاول أن أتبعها .

وإنى لأشهد الآلهة على ما أقول(١٠٢)

ومع ذلك فلم يكن « كيوسو » ليدعو الناس إلى عزلة العلماء التى نعهدها فى رجال العصور الوسطى ، بل كان له من رحابة الأفق ما كان « لجيته » ؛ فوجَّه نفسه وجهة تساير العالم فى مجراه :

إن اعتزال الناس أحد الطرق ، وإنه لطريقة جميلة ، لكن الرجل الأعلى يسره أن يزور الأصدقاء ؛ إن الرجل ليصقل نفسه صقلا باتصاله بالناس ؛ وإن من أراد تحصيل العلم ، لا مندوحة له عن الصقل عن هذا الطريق ؛ أما إن اعتزل كل شىء وكل إنسان ، فإنما هو بذلك يجاوز جادة الصواب ... إن طريق الحكماء ليس منفصلا عن طريق الحياة اليومية . فعلى الرغم من أن البوذيين يسحبون أنفسهم من العلاقات الإنسانية ، فيبترون الرابطة بين المتبوع وتابعه ، وبين الوالد وولده ، فهم عاجزون عن بتر علاقة الحب من أنفسهم . . . . إنها أنانية أن تسعى وراء السعادة فى العالم الآخر . لا تظنوا أن الله بعيد عنكم . بل ابحثوا عنه فى قلوبكم ، لأن القلب هو مقر الإله(١٠٣).

وأروع من يستوقف النظر من هؤلاء الكونفوشيوسيين اليابانيين القدامى رجل لا يسلكونه عادة فى عداد الفلاسفة ، لأن مثل « جيته » ومثل « إمرسن » كانت له القدرة على صياغة حكمته فى عبارة رشيقة ، فأحس الأدب غيرة عليه ، وطالب به عضواً فى جماعة الأدباء ، وذلك هو « كايبارا إكِنْ » الذى كان ابن طبيب مثل أرسطو ، ثم خرج عن دائرة الطب إلى فلسفة تجريبية تتصف بالدقة والحذر ، فعلى الرغم من مشاركته فى الحياة العامة بسيرة مليئة بالعمل ، بما فى ذلك كثير من المناصب شغلها ، فقد وجد من وقته فراغاً يستعين به على أن يكون أعظم علماء عصره ؛ وبلغت كتبه عدداً يربى على المائة ، فكتبت له الشهرة فى أرجاء اليابان جميعاً ؛ وذلك لأنه لم يكتب كتبه تلك باللغة الصينية (كما كانت عادة زملائه الفلاسفة) بل كتبها باليابانية السهلة التى يستطيع كل من عرف القراءة أن يفهمها ؛ وعلى الرغم من علمه وشهرته ، فقد كان له — إلى جانب الغرور الذى تراه عند كل كاتب — تواضعٌ كالذى تراه عند كل حكيم ، ويروى الرواة أن مسافراً على سفينة كانت تشق طريقها بحذاء الساحل اليابانى ، تعهد لزملائه فى السفر أن يحاضرهم فى الأخلاق الكونفوشيوسية ؛ فأنصت له الجميع بادئ ذى بدء بما عرف عن اليابانيين من حب استطلاع وشغف بالزيادة من العلم ؛ ولكن ما كاد يمضى المتكلم فى حديثه قليلا ، حتى وجد السامعون أن كلامه يبعث الملل إذ لم يكن للرجل أنف حساسٌ يهديه إلى التمييز بين الحقيقة الحية والحقيقة الميتة ، فانصرفوا عنه بعد وقت وجيز ، ولم يبق منهم إلا سامع واحد ، راح هذا السامع الواحد يتتبع البحث بتركيز عجيب فى انتباهه ، حتى سأله المحاضر حين فرغ من محاضرته ، ما اسمه ، فأجابه بصوت هادئ إن اسمه « كايبارا إكن » ؛ فخجل الخطيب إذ علم أنه لبث ساعة أو يزيد ، يحاول أن يلقن الكونفوشيوسية لرجل هو ألمع أعلام المذهب الكونفوشيوسى فى عصره (١٠٤) .

كانت فلسفة « إكن » خالية من اللاهوت خلو فلسفة « لك أونج » منه إذ

حصر نفسه فى حدود هذه الدنيا ما دام لا سبيل إلى معرفة سواها ؛ « إن حمق الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك فى وجودها ، طلباً لسعادة أنفسهم فى الوقت الذى تراهم فيه يقترفون الموبقات[١٠٥] » ؛ وحاول أن تكون فلسفته عاملا على توحيد خبرة الحياة وحكمة العقل ، وتوحيد الشهوات والخلق المستقيم ، فقد كان من رأيه أن الأمر الأهم الذى يدعو قبل غيره إلى التفكير ؛ هو كيف نجعل من الشخصية الإنسانية وحدة متكاملة ، فذلك أجدى علينا من التفكير فى كيفية توحيد المعرفة ، وتراه يتحدث بلسان يدهشك أن تلمح فيه نغمة الزمن الذى نعيش فيه الآن .

« ليس الغرض من التعلم هو مجرد التوسع فى المعرفة ، بل الغرض هو تكوين الشخصية ؛ غاية التعلم أن نخلق من أنفسنا رجالا صادقين قبل أن نكون رجالا عالمين ... إن دراسة الأخلاق التى كانت تُعَدُّ عماد التعليم فى مدارس العهد القديم تكاد لا تجد مكاناً فى مدارسنا اليوم ، لكثرة ما يطلب إلى التلاميذ دراسته من مواد ؛ لم يعد الناس يرون فى صالحهم أن ينفقوا مجهودهم فى الإصغاء إلى تعاليم الأعلين من رجال الحكمة القدماء ونتج عن ذلك أن ضحينا على المذبح الذى يسمونه « حق الفرد » بعلاقات الود بين السيد وخادمه ، والرئيس ومرءوسيه ، والكبير والصغير . السبب الحقيقى الذى حدا بالناس ألا يقدروا تعاليم الحكماء هو أن العلماء يحاولون أن يتظاهروا بعلمهم فذلك عندهم أولى من أن يعيشوا على غرار ما جاء فى تعاليم الحكماء »[١٠٦] .

ويظهر أن شباب عصره قد توجه إليه باللوم على جموده ، لأننا نراه يلقى فى وجوههم درساً لا بد لكل جيل قوى من الناس أن يعود إلى دراسته :

« قد تظنون يا أبنائى أن كلمات رجل كهل تدعو إلى السأم ومع ذلك فإذا ما لقنكم أبوكم درساً ، فلا تزوروا عنه ، بل اصغوا إلى ما يقول ؛ قد

تظنون أن تقاليد أسرتكم آمر سخيف ، ومع ذلك فلا تحطموها ، لأنها تجسيد لحكمة آبائكم »(٧٠١) .

ولعله كان يستحق اللوم على أهم كتبه وعنوانه « أونا ديكاكو » ومعناه « الحكمة العظمى للنساء » لأن هذا الكتاب كان له تأثير رجعى قوى على مركز المرأة فى اليابان ، لكنه لم يكن واعظاً متجهماً يحاول أن يتلمس الخطيئة فى كل ما يجلب المتعة ، فقد أدرك أن من مهام المربى أن يعلمنا كيف نستمتع بالبيئة التى نعيش فيها ، كما يعلمنا أن نفهم تلك البيئة وأن نتحكم فيها (إذا استطعنا) :

« لا تدعوا يوماً واحداً يفر من أيديكم بغير متعة . . . لا تسمحوا لحماقة الآخرين أن تنال من أنفسكم تعذيباً . . تذكروا أن الدنيا لم تخل من الحمق منذ أول خلقها . . . فلا ينبغى إذن أن نغم أنفسنا ، أو أن نضيع أسباب متعتنا ، حتى إن حدث لأبنائنا وأشقائنا وأقربائنا أن يكونوا أثرين فيتجاهلوا خير مجهوداتنا فى سبيل إسعادهم . . . إن « ساكى » (نوع من الخمر) هو هبة السماء الرائعة ، فهى توسع القلب إذا ما شربناها بمقادير قليلة ، وهى كذلك تنعش الروح إذا ما ناله الهم ، وتفرق الهموم وتصلح الصحة ، وبذلك تعين الإنسان وأصدقاءه أيضاً على التمتع بأسباب اللذة ، غير أن من يسرف فى شرابها يفقد احترامه ، وينزلق لسانه بالثرثرة ، وينطق بكلمات مسيئة كأنه مجنون . . . اشربوا « الساكى » بالمقدار الكافى لإنعاش نفوسكم ثم لا زيادة ، وبذلك يمكنكم أن تتمتعوا برؤية الزهر وهو يتفتح من أكمامه ، إن من الحمق أن تسرف فى الشراب فتفسد على نفسك هذه الهبة العظيمة التى وهبتها لك السماء »(٧٠٨) .

ولقد وجد — كما وجد غيره من سائر الفلاسفة — أن الطبيعة هى آخر موئل يلوذ به ليلتمس سعادته :

« لو أننا جعلنا قلوبنا معين النعيم ، وأعيننا وآذاننا أبوابه ، ثم اجتنبنا سافل الشهوات إذن لتكاثر نعيمنا ، لأننا عندئذ نصبح سادة الجبال والماء والقمر

والزهور ؛ ولا يكون بنا حاجة إلى سؤال أحد يهبنا هذه الأشياء ؛ كلا ولا بنا أن ندفع سناً (مليا) واحداً لنظفر بها ، لأن هذه الأشياء لا يملكها إنسان بعينه إن أولئك الذين يستطيعون أن يستمتعوا بجمال السماء من فوقهم ، وجمال الأرض من تحتهم ، ليس بهم حاجة إلى أن يغبطوا الأغنياء على رفاهية عيشتهم ، لأنهم عندئذ يكونون أغنى من أغنى الناس ؛ إن مشاهد الطبيعة فى تغير دائم ، فلست تجد صباحين أو مساءين على أتم تشابه ... فنى لحظة ما قد يحس الإنسان كأن جمال الدنيا بأسره قد انمحى ؛ لكن ما هو إلا أن يأخذ الثلج فى السقوط ، وينهض الإنسان من نومه فى الصباح التالى ، ليجد القرية والجبال قد تحولت إلى فضة ، وتدب الحياة فى الأشجار التى كانت عارية ، إذ يعود إليها بأزهارها ... إن الشتاء يشبه نعاس الليل ، الذى يجدد لنا القوة والنشاط .

إننى أحب الزهر ، فأنهض من نومى مبكراً
وأحب القمر ، فآوى إلى مخدعى متأخراً ...
إن الناس يجيئون ويروحون كأنهم مجارى الماء العابرة
أما القمر فباق على طول العصر[١٠٩]

لقد كان تأثير الكونفوشيوسية على التفكير الفلسفى فى اليابان أشد منه فى الصين نفسها ، لأنه قضى هناك على كل مقاومة من فريق الثائرين من جهة ، كما قضى على المثاليين المتصوفين من جهة أخرى ؛ إن مدرسة « شوشى » التى كان من رجالها « سيجوا » و « رازان » و « إكن » ، التى سميت بهذا الاسم نسبة إلى « شوهسى » لأنها اتبعت طريقته فى تفسير الكتب الصينية التى تحتوى على المتون ، تفسيراً توخى فيه التزام الأصل وعدم الحرية فى التصرف ، ولقد نهضت مدرسة أخرى ظلت تقاومها حيناً ، هى مدرسة « أويومى » التى كان على رأسها « وانج يانج منج »(*) الذى عرفه « نيبون » باسم « أويومى »

(*) راجع ما جاء عنه فى هذا الجزء الخاص بالمدينة فى الصين من هذه السلسلة .

ففلاسفة اليابان الذين كانوا ينتمون إلى مدرسة « أويومى » اقتفوا أثر « وانج » فى استدلال الصواب والخطأ الأخلاقيين من ضمير الفرد ، أكثر مما عملوا فى ذلك إلى تقاليد المجتمع وتعاليم الحكماء الأقدمين ، يقول « ناكاى توچو » (١٦٠٨ — ٤٨) : « لقد لبثت أعواماً طوالا أومن إيماناً قوياً فى « شوشى » حتى شاءت رحمة الله أن ترد إلى اليابان لأول مرة مؤلفات « أيومى » ، ولولا ما استقيته من تعاليمها ، لظلت حياتى فارغة جدباء »[١١٠] ، وعلى ذلك أخذ « ناكاى » على نفسه أن يبشر بوحدانية مثالية ، تذهب إلى أن العالم وحدة من « كى » و « رى » — أى وحدة من الأشياء الجزئية (أو الأعراض) والعقل أو القانون ؛ والله ، وهذه الوحدة شىء واحد ؛ فعالم الأشياء جسده والقانون الكونى روحه[١١١] ، فقد جرى « ناكاى » مجرى « سبينوزا » و « وانج يانج منج » والفلاسفة المدرسين فى أوربا » فى قبوله لهذا القانون الكونى بشىء من الحب العقلى ، واعتبر الخير والشر لفظتين بشريتين ، ووجهة نظر ذاتية لا تعبر عن حقائق موضوعية ، وهو كذلك يشبه « سبينوزا » شبهاً عجيباً فى أنه رأى معنى من معانى الخلود فى الوحدة التأملية التى تدمج روح الفرد فى قانون العالم أى عقل العالم الذى لا يخضع لقيود الزمان :

« إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذى يخضع فى سيره لمنطق العقل ، لكن هناك عقلا آخر يسمى بالضمير ، وهذا هو الجانب الذى لا ينتمى إلى عالم الأشياء بل هو لا نهائى وأبدى ، لأنه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهى أو الكونى ، كان بغير بداية أو نهاية ، فإذا ما سلكنا فى أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل ، أى بالضمير كنا بمثابة التجسيد اللانهائى والأبدى ، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد »[١١٢] .

كان « ناكاى » رجلا له إخلاص القديسين ، لكن فلسفته لم تصادف هوى لا عند الشعب ولا عند الحكومة ، فقد ارتعدت حكومة الحكام

العسكريين للفكرة القائلة بأن كل إنسان له حق الحكم بنفسه فيما يعتبر صواباً وما يعتبر خطأ ، فلما نهض رجل آخر ، هو « كومازاوا بانزان » يبشر بمذهب « أويومى » ثم تجاوز حدود الميتافيزيقا وأوغل فى السياسة ، بحيث انتقد جهل « السيافين » وخواء حياتهم ، صدر أمر بالقبض عليه ، وكان « كومازاوا » يدرك أهمية العقبين فى الإنسان ، باعتبارهما عضوين ينفعان الفلاسفة بصفة خاصة فى الفرار ، فهرب إلى الجبال ، حيث قضى معظم ما بقى له من سنين فى غمرة الغابات(١١٣) ، وفى سنة ١٧٩٥ صدر مرسوم يحرم المضى فى تعليم فلسفة « أويومى » ، وكان العقل اليابانى من الاستسلام بحيث توارت تعاليم « أويومى » منذ ذلك الحين ، فاندست فى عبارات كونفوشيوسية ، أو دخلت عنصراً متواضعاً فى القانون العسكرى ، مما يدل على ما قد يبديه مجرى التاريخ من متناقضات ، إذا حولت العقيدة البوذية المسالمة إلى تعاليم توحى للمقاتلين المتحمسين للوطن بالقتال .

ولما تقدم البحث العلمى فى اليابان ، بحيث صار فى مقدور العلماء أن يتصلوا بكونفوشيوس فى أصوله إلا فى شروح الشارحين استطاع رجال من أمثال « إيتوچنسى » و « أوجيوسوراى » أن يؤسسوا المدرسة الكلاسيكية للفكر اليابانى ، التى أصرت على أن تتخطى الشارحين جميعاً ، فتصل بـ « ك أونج » العظيم اتصالا مباشراً ، ولم تكن أسرة « إيتوچنسى » لتتفق معه فى تقديره لكونفوشيوس ووصمته بأنه يسبح من دراساته فى عالم نظرى مجرد ، وتنبأت له بأنه سيموت فقيراً وأنبأته : « بأن البحث العلمى من خصائص أهل الصين ، أما فى اليابان فليس البحث العلمى بذى غناء ، لأنك حتى إن برعت فيه ، فلن تجد من تبيع له بضاعتك ، وخير لك ألف مرة أن تكون طبيباً وتكسب المال » لكن الطالب الناشئ أصغى إلى قول أسرته دون أن يستمع له ، ونسى منزلة أسرته وثراءها ، واطرح كل طموح مادى جانباً ، وتنازل عن بيته وأملاكه إلى أخيه الأصغر ، والتمس مكاناً معزولا يعيش فيه ليتابع

دراساته بغير اضطراب وكان ولاسيما حتى لقد ظنه الناس أحياناً أميراً ، لكنه ارتدى ثوب فلاح وتوارى عن أعين الناس ، يقول مؤرخ يابانى :

إن « چنسى » كان فقيراً معدماً ، بلغ من الفقر حداً أعجزه فى نهاية العام أن يصنع كعك الأرز الذى يصنعه الناس فى بداية العام الجديد ؛ لكنه كان ثابت الجنان إزاء فقره هذا ؛ ولقد جاءته زوجته وجثت على ركبتها أمامه وقالت : « سأؤدى واجبات الدار مهما تكن الظروف لكن ثمت شيئاً لا يحتمل ، ذلك أن ولدنا » چنسو » لايفهم معنى ما نحن فيه من فقر ، وهو يغبط أبناء الجار على ما يأكلونه من كعك الأرز ، وإننى أؤنبه على ذلك ، لكن قلبي ينفطر له حتى ليكاد ينشق نصفين « لكن چنسى مضى منكباً على كتبه دون أن يجيبها بكلمة ، ثم خلع خاتمه العقيق وناولها إياه ، كأنما يقول لها : بيعى هذا واشترى بضعة كعكات من الأرز »[١٠٤] .

أنشأ « چنسى » فى كيوتو مدرسة خاصة ، وأخذ يحاضر هناك مدى أربعين عاماً ، وأهم ما قام به أنه درب عدداً يقرب من ثلاثة آلاف طالب فى الفلسفة وكان يتحدث آناً بعد آن فى الميتافيزيقا ، ويصف الكون بأنه كائن عضوى حى ، تتغلب فيه الحياة على الموت دائماً ، لكنه كان مثل كونفوشيوس يتحيز تحيزاً شديداً لما هو نافع على هذه الأرض .

« إن ما لاينفع فى حكم الدولة ، أو فى تيسير العلاقات بين أفراد الإنسان ، لاغناء فيه ... لا بد للتعلم أن يكون مصحوباً بالفاعلية والحياة ؛ ولا ينبغى أن يقتصر على مجرد النظريات الميتة أو التأمل ... إن من يعرف الطريق يلتمسها فى حياته اليومية ... إنك إذا حاولت أن تلتمس الطريق بعيداً عن العلاقات الإنسانية ، فأنت بمثابة من يحاول أن يمسك الريح ... إن الطريق المألوفة ممتازة بحسنها ، ولن نجد فى العالم ما يفوقها حسناً »[١١٥] .

وبعد موت « چنسی » مضی ولده « إيتو توجای » فی مواصلة مدرسته وعمله ؛ وكان « توجای » يهزأ بالشهرة ويقول « هل يسعك أن تسمى من ينسى اسمه بمجرد موته إلا بأحـد اسمين ، فإما حيوان وإما رماد ؟ ولكن ألا يخطئ الإنسان إذا ما اشتدت رغبته فی تأليف الكتب وإنشاء العبارات لكی يلقی اسمه إعجاباً ولا ينساه الناس ؟ »(١١٦) وهو نفسه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً ، ومع ذلك عاش حياة متواضعة تملؤها الحكمة ؛ ويشكو النقاد من أن هذه الكتب كانت كلها قوية فيما أسماه « موليير » بالفضائل التی تجلب النعاس ولكن تلاميذ « توجای » يقولون إنه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً دون أن يقول كلمة واحدة عن أی فيلسوف آخر ، ولما مات وضعوا على قبره هذا « الشاهد » الذی نغطبه عليه :

إنه لم يتحدث فی أخطاء الآخرين ...
ولم يهتم بشیء إلا بالكتب
وكانت حياته خلواً من الحوادث(١١٧)

على أن أعظم رجل من أتباع كونفوشيوس المتأخرين، هو « أوجيوسورای » فعلى حد قوله هو « منذ عهد جمو — أول أباطرة اليابان — لم يظهر من يوازينی إلا نفر قليل » وهو على نقيض « توجای » فی أنه كان يحب النقاش ، وكان يعبر عن رأيه بقوة عن الفلاسفة الأحياء منهم والأموات ؛ فلما سأله سائل شاب : « ماذا تحب غير القراءة ؟ » أجاب « ليس أحبّ إلیّ من أكل الفول المحروق ونقد عظماء اليابان » ويقول « ناميكاوا تنچين » : « إن سورای رجل جد عظيم ، لكنه يظن أنه يعلم كل ما يمكن علمه : وهذه عادة سيئة »(١١٨) ، وكان فی مستطاع « أوجيو » أن يكون متواضعاً إذا ما أراد ذلك ، ومن رأيه أن اليابانيين جميعاً — ويذكر نفسه بينهم صراحة — قوم همج ، وليس يعرف المدنية غير أهل الصين ، وأنه « إذا كان هناك شیء لا بد من قوله ، فقد قاله

بالفعل الملوك القدامى أو كونفوشيوس»(١١٩)، وثارت فى وجهه فئة «السيافين» وفئة العلماء، لكن الحاكم العسكرى المصلح «يوشيمونى» أعجبته فيه شجاعته ودافع عنه ضد السوقة العقلية، وقد أقام «سوراى» منبره فى «يدو» وراح يضحك ويسخر من «چنسى» الذى كان قد أعلن أن الإنسان خير بطبعه، فما أشبهه فى ذلك بـ «هسون تسى» حين عارض النزعة العاطفية فى «موتى» أو بـ «هُبز» حين فند «روسو» قبل أن يأتى «روسو» إلى عالم الوجود، وقال: «سوراى» إن الإنسان — على نقيض ما ظنه «چنسى» — شرير بطبعه، يختطف كل ما تقع عليه يداه، ولا يجعل منه مواطناً مقبولا إلا الأخلاق والقوانين الموضوعتين، والتربية التى لا تلين فى معاملته:

«تثور فى الإنسان شهواته بمجرد ولادته، فإذا عجزنا عن تحقيق تلك الشهوات فى أنفسنا — وهى شهوات لا حد لها — ينشأ النزاع، فإذا ما نشأ نزاع أعقبته الفوضى، ولما كان الملوك القدامى يكرهون الفوضى، فقد وضعوا أسس اللياقة والاستقامة فى السلوك، واستطاعوا بهما أن يلجموا شهوات الناس ... فليست الأخلاق سوى الوسائل الضرورية لضبط رعايا الإمبراطورية فهى لم تنشأ مع الفطرة ولا مع نزوات القلب الإنسانى لكنها من تدبير طائفة معينة من الحكماء امتـــازت بذكائها، ثم خلعت عليها الدولة مسحة السلطان(١٢٠).

وكأنما أرادت الأيام أن تثبت تشاؤم «سوراى»، فهبط الفكر اليابانى فى القرن الذى تلاه، هبط حتى عن الحد المتواضع الذى كان قد ارتفع إليه بفضل محاكاته لكونفوشيوس، وضاع أباديد فى حرب أراقت المداد بين وثنيى الصين ومؤمنى اليابان، وفى هذه الحرب التى شنها الأقدمون على المحدثين، كتب النصر للمحدثين، لأنهم جعلوا الأسلاف موضع إعجابهم، فتفوقوا فى ذلك على أعدائهم وكانت الطائفة التى تناصر الصين من العلماء «واسمها كانجا كوشا» تسمى بلادهم اليابان — وهى وطنها — قطراً همجياً،

واحتجت بأن الحكمة كل الحكمة مقرها فى الصين ، وقنعت بترجمة الأدب والفلسفة الصينيين والتعليق عليهما ، أما العلماء الذين يناصرون اليابان (واسم جماعتهم واجا كوشا) فقد هاجموا هذا الموقف من معارضيهم لأنه موقف يؤدى إلى إشاعة الجهل ونبذ الروح الوطنية ، ودعوا أمتهم أن تستدبر الصين ، وأن تجدد قواها بالأخذ عن تراثها هى من شعر وتاريخ ، وهاجم «مايوشى» أهل الصين قائلا إنهم قوم أشرار بفطرتهم ، ومجد اليابانيين لأنهم خيرون بطبعهم ، وعزا فقر اليابان القديمة فى الأدب والفلسفة إلى أن اليابانيين لم يكونوا بحاجة إلى إرشاد فى الفضيلة ولا فى العقل(*) .

وحدث لطبيب شاب اسمه « موتو أورى نوريناجا » أن زار « مايوشى » فتأثر به إلى حد جعله ينفق أربعة وثلاثين عاماً فى كتابة أربعة وأربعين مجلداً ، بشرح فيها الـ « جوچيكى » ومعناها « مدونات الحوادث القديمة » — وهى المستودع الأصيل لأساطير اليابان ، وخصوصاً أساطير « شنتو » ، فجاء هذا الشرح وعنوانه « كوچيكى دن » ، هجمة عنيفة على كل ما هو صينى فى اليابان أو خارج اليابان ، واستمسك استمساكاً شديداً بالصحة الحرفية لما ترويه القصص البدائية عن الأصل الإلهى الذى نشأت عنه الجزر اليابانية ، والأباطرة والشعب ، وشجع هذا الكتاب طبقة المثقفين فى اليابان — رغم أنف الأوصياء على العرش عندئذ من أفراد أسرة توكوجاوا — شجعهم على الرجوع إلى لغة بلادهم وطرائق العيش فيها وتقاليدها ، ومعنى ذلك كله أن يعيدوا عقيدة « شنتو » بدلا من البوذية ، وأن يردوا للأباطرة سيادتهم على طبقة

(*) العبارة الآتية مقتبسة من تعاليم « مايوشى » كما بسطها « سير أ . ساتو » : « لما كانت ميول الناس فى العصور الخالية مستقيمة . لم يكن من الضرورى أن يتخذوا تشريعاً خلقياً معقداً ... لم يكن من الضرورى فى تلك الأيام أن يكون للناس مذهب فى الصواب والخطأ ، أما أهل الصين فلأنهم أشرار بفطرتهم ... كانوا خيرين فى الظاهر وحده وكانت أفعالهم الشريرة من الفداحة بحيث وقعت الجماعة فى حالة من الفوضى ؛ ولأن اليابانيين كانوا على استقامة فى الخلق ، فقد استغنوا عن التعلم(١٢١) .

الحكام العسكريين ، فقد كتب « موتو أورى » يقول : « كانت اليابان هى التى ولدت إلهة الشمس « آماتيراسو » ، وتدل هذه الحقيقة على سيادتها على سائر الأقطار جميعاً »[١٢٢] ، واستأنف تلميذه « هيراتا » — بعد موت موتو أورى — سبيل المحاجة فى الموضوع فقال :

« إنه لمما يدعو إلى الأسف الشديد ، أن يسود كل هذا الجهل بالشواهد التى تدل على المذهبين الأساسيين ، وهما أن اليابان بلد الآلهة ، وأهلها سلالة الآلهة فبين الشعب اليابانى وبين الصينيين والهنود والروس والهولنديين والساميين والكمبوديين وسائر أمم العالم ، خلاف فى النوع ، ولا يقتصر الأمر على اختلاف فى الدرجة ، فلم يكن مجرد الغرور بالنفس هو الذى جعل أهل هذه البلاد يسمونها أرض الآلهة ؛ فالآلهة الذين خلقوا كل بلاد الدنيا ينتمون جميعاً بغير استثناء إلى العصر الإلهى ، وجميعهم ولدوا فى اليابان ، فاليابان هى موطنهم الأول ، والعالم كله يعترف بصدق هـذا النبأ ، فالكوريون هم أول من أتيح له أن يعرف هذه الحقيقة ثم انتشرت منهم تدريجاً حتى عمّت المعمورة بأسرها ، وآمن بها الناس أجمعون ... فلئن كانت البلاد الأخرى قد نشأت طبعاً بفعل قوة الآلهة الخالقة ، إلا أنها لم تكن وليدة « إيزاناجى » و « إيزانامى » ، ولا كانت المنشأ الذى ولدت فيه إلهة الشمس ، وهذا هو علة انحطاطهم عنا »[١٢٣] .

هؤلاء هم الناس ، وتلك هى الآراء ، التى كونت حركة « سونوچواِى » ومرماها أن « تسمو بالإمبراطور ، وأن تطرد الأجانب الهمج » ؛ فكنت هذه الحركة إبان القرن التاسع عشر للشعر اليابانى أن يطيح بسلطة الحكام العسكريين ؛ وأن يعيد السلطان والسيادة « للبيت الإلهى » ، ثم أخذت هذه الحركة تلعب دوراً نشيطاً فى القرن العشرين ، إذ أخذت تغذى تلك الوطنية المستقلة التى لن تطمئن وترضى إلا إذا بسط « ابن السماء » سلطانه على ملايين الناس فى بلاد الشرق التى تعود ، إلى بعثها ، متكاثرة بخصوبة نسلها .

الباب الثلاثون

الفكر والفن فى اليابان القديمة

الفصل الأول

اللغة والتعليم

اللغة – الكتابة – التعليم

كان اليابانيون قد استعاروا طرائق الكتابة وأساليب التعليم من أولئك الصينيين الذين جعلوا يتهمونهم بالهمجية كما رأيت ؛ لكن اللغة كانت يابانية خالصة ، وأرجح الظن أنها كانت لغة منغولية قريبة الشبه باللغة الكورية ، لكنها لم تكن مشتقة من اللغة الكورية أو غيرها مما نعرف من لغات ، اشتقاقاً يقوم على صحته البرهان القاطع واللغة اليابانية تختلف عن اللغة الصينية بنوع خاص فى كثرة مقاطعها واتصال أجزائها رغم بساطتها ؛ فليس فيها أحرف حلقية ولا أحرف تخرج مع هواء التنفس ولا سواكن فى أواخر الكلمات (ما عدا حرف ن) وتكاد كل حروف المد فيها أن تكون منغّمة طويلة ، ونحوها كذلك طبيعى وسهل ؛ فقد استغنت فى الأسماء عن التمييز العددى بين المفرد والجمع ، كما استغنت عن التمييز الجنسى بين المذكر والمؤنث ؛ كذلك استغنت فى الصفات عن درجات التفضيل ، وفى الأمثال استغنت عن التصاريف التى تدل على ضمير من قام بالفعل ؛ وضمائر المتكلم والمخاطب والغائب فيها قليلة العدد ، وليس فيها أسماء للوصل على الإطلاق ؛ لكنها من جهة أخرى تحتوى على تصاريف تتغير بها الصفات والأفعال تبعاً للنفى ولصيغة

الفعل فى حالة الأمر مثلا أو غيره ، وهم يستعملون بدل أحرف الجر التى تسبق الكلمات المجرورة ، أحرفاً تأتى بعد الكلمات لتحدد المقطع الأخير من الكلمة ، وفى ذلك ما فيه من مشقة وعناء ، وحلت عندهم عبارات تكريمية معقدة ، مثل « خادمك المطيع » و « سعادتكم » محل ضمائر المتكلم والمخاطب.

وقد استغنت اللغة — فيما يظهر — حتى عن الكتابة ، إلى أن جاءها الكوريون والصينيون بهذا الفن فى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح ، ومنذ ذلك الحين ، اكتفى اليابانيون مدى مئات من السنين بطريقة الكتابة التى شاعت فى « المملكة الوسطى » ليبعدوا بها عن كلامهم الذى يشبه فى جماله لغة الإيطاليين ؛ ولما كان حتما عليهم أن يستخدموا حرفاً كاملا من حروف الخط الصينى ليدل على كل مقطع من كل كلمة يابانية ، فقد أصبحت الكتابة اليابانية فى عصر « نارا » أعسر ضروب الكتابة التى عرفها الإنسان تقريباً ؛ ثم حدث فى القرن التاسع أن سن قانون يعمل على الاقتصاد فى هذا الاتجاه ، بأن يحدد كثيراً من الإشكالات اللغوية ، فأراح هذا القانون أهل اليابان بما قدمه إليهم من صور الكتابة المبسطة ، إذ قدم إليهم صورتين كل منهما يستعمل حرفاً صينياً — بعد اختصاره فى صورة خطية منحنية — ليمثل مقطعاً من المقاطع السبعة والأربعين التى منها يتألف الكلام المنطوق عند اليابانيين ؛ وهذه الأشكال التى تمثل السبعة والأربعين مقطعاً ، حلت عندهم محل أحرف الهجاء(*) ولما كان شطر كبير من الأدب اليابانى مكتوباً بالصينية ، ومعظم بقيته ليس مكتوباً بالكتابة المقطعية الشائعة ، بل هو مزيج من الأحرف الصينية وأحرف الهجاء اليابانية ، كان من المتعذر إلا على القليلين من العلماء العربيين أن يتمكنوا من الأدب اليابانى فى أصوله ؛ فنتج عن ذلك أن أصبح علمنا بالأدب اليابانى

(*) بسط الخط الكاتاكانى هذه الرموز المقطعية فجعلها خطوطاً مستقيمة كالتى تراها فى بعض حروف الطباعة وفى كتابة الإعلانات ، وفى اللافتات المضاءة فى اليابان الحديثة(٢) .

لا يتجاوز قطعاً متناثرة من هنا وهناك ، ولذا فهو علم يخدعنا عن الأصل ، ويستحيل أن يكون حكمنا على ذلك الأدب ذا قيمة كبيرة ، ولما وجد اليسوعيون أن حوائل اللغة تقف فى وجوههم سدوداً منيعة ، قرروا أن لغة تلك الجزر قد صاغها الشيطان ليمنع نشر تعاليم الكتاب المقدس (الإنجيل) فى بلاد اليابان(*) (٢) .

لبثت الكتابة أمداً طويلا بمثابة الترف يستمتع به أبناء الطبقات الرفيعة ، ولم يبذل أى مجهود إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى سبيل نشرها بين طبقات الشعب ؛ ففى عصر « كيوتو » أقام الأغنياء مدارس لأبنائهم ، كما أنشأ الإمبراطوران « تنشى » و « مومو » فى بداية القرن الثامن فى كيوتو ، أول جامعة يابانية ؛ ثم نشأت مجموعة من المدارس الإقليمية شيئاً فشيئاً ، تحت رقابة الحكومة ، كان من حق متخرجيها أن يلتحقوا بالجامعة ، ثم كان من حق من يخرج فى الجامعة بعد اجتياز الامتحان المطلوب ، أن يشغل مناصب الدولة ؛ لكن جاءت الحرب الأهلية فى الشطر الأول من العهد الإقطاعى ، فأوقفت هذا التقدم فى ميدان التعليم ؛ وأهملت اليابان فنون العقل حتى أسعفتها الحكومة العسكرية التى قامت عليها أسرة « توكوجاوا » بأن أعادت السلام وشجعت العلم والأدب ، وقد عدها « أيياسو » سبة فظيعة أن يجد تسعين فى كل مائة من طائفة « السيافين » لا يعرفون القراءة أو الكتابة(٥) وفى سنة ١٦٣٠ ، أنشأ

(*) جاءت الطباعة — كما جاءت الكتابة — من الصين ، باعتبارها جزءاً من التراث البوذى ؛ وأقدم ما بقى لنا من أمثلة الطباعة فى العالم ، طلاسم بوذية طبعت بأحرف ثابتة بأمر الإمبراطورة « شوتوكوا » فى سنة ٧٧ ميلادية(٣) ثم جاءت الأحرف الممكن تحريكها من كوريا حول عام ١٥٩٦ ، لكن كثرة النفقات التى يقتضيها طبع لغة لم تزل مؤلفة من آلاف الأحرف ، حال دون انتشار استعمال تلك الأحرف المتحركة ، حتى كانت النهضة (سنة ١٨٥٨) التى فتحت الأبواب للنفوذ الأوروبى وإلى يومنا هذا ، ترى الجريدة اليابانية تتطلب مجموعة من بضعة آلاف من الأحرف(٤) ورغم هذه الصعاب ، فإن الطباعة اليابانية من أجمل ضروب الطباعة فى عصرنا هذا .

« هياشى رازان » فى « ييدو » مدرسة تخرج المعلمين فى إداردة البلاد وفى الفلسفة الكونفوشيوسية ، ولقد تطورت هذه المدرسة فيما بعد.وأصبحت هى جامعة طوكيو ؛ وكذلك أسس «كومازاوا » سنة ١٦٦٦ فى « شيزوتانى» أول كلية فى الأقاليم ، وأجازت الحكومة للمعلمين أن يلبسوا السيوف ، فينافسوا طائفة « السيافين » فى منزلتهم الاجتماعية ، وبهذا شجعت طلاب العلم والباحثين والكهنة أن يقيموا مدارس خاصة فى المنازل والمعابد لتعلم الناس تعليما أوليآً ؛ وبلغ هذا الضرب من المدارس ثمانمائة سنة ١٧٥٠ ، يتعلم فيها ما يقرب من أربعين ألفاً من الطلاب ، وكانت كل هذه المعاهد من أجل أبناء « السيافين » أما التجار والفلاحون ، فكان لا بد لهم أن يقنعوا بمحاضرات عامة ، ولم يكن يتعلم عن النساء على نحو منظم إلا الفتيات ؛ ولم يتسع التعليم بحيث يشمل الجميع إلا حين مست الضرورة ودعت الحاجة بتأثير الحياة الصناعية (٦) وهى فى ذلك شبيهة بأوربا .

الفصل الثانى

الشـعر

الـ « مانيوشو » — الـ « كوكنشو » — مميزات الشعر اليابانى — أمثلة — لعبة الشعر — مقامرو الـ « هوكا »

أقدم ما وصل إلينا من الأدب اليابانى هو الشعر ، وأقدم الشعر اليابانى هو خير شعر اليابان إطلاقاً فى رأى أصحاب العلم من أهل اليابان أنفسهم ؛ ومن أقدم وأشهر الكتب اليابانية ، كتاب الـ « مانيوشيو » ومعناها « كتاب العشرة الآلاف ورقة » وهو عشرون مجلداً ، جمع فيها ناشران الكتاب أربعة آلاف وخمسمائة قصيدة ، نظمها الشعراء خلال الأربعة القرون السالفة ، وفيها تجد على الأخص شعر « هيتومارو » وشعر « أكاهيتو » وهما الشاعران الرئيسيان اللذان ازدهر فيها الشعر فى عصر « نارا » ومن شعر « هيتومارو » هذه الأسطر الموجزة التالية التى كتبها يرثى بها حبيبته حين ماتت وتصاعد الدخان من جثمانها المحترق إلى شعاب التلال :

أواه ؟ أهذه السحابة هى حبيبتى ؟
هذه السحابة التى تجوب فى الوهد العميق
الذى يتخلل جبل هاتسوزو المنعزل ؟

ولقد حاول الإمبراطور « دايجو » محاولة أخرى ليحفظ الشعر اليابانى ن أيدى الفناء ، فجمع ألفاً ومائة قصيدة نُظمت خلال القرن والنصف قرن الماضيين ؛ فجمعها فى ديوان مشترك أطلق عليه اسم « كوكنشو » ومعناها « قصائد قديمة وحديثة وكان مساعده الأيمن فى هذا العمل « تسورايوكى » الشاعر الظالم الذى كتب مقدمة للديوان ، هى لنا أمتع من المقطوعات التى جاء

لنا بها من ربة الشعر عندهم ، التى توجز القول إيجازاً — قال فى تلك المقدمة :

« الشعر فى اليابان كالبذرة ، تنبت من قلب الإنسان فتورق من اللغة أوراقاً لا حصر لعددها . . . ففى هذا العالم الملىء بالأشياء ، ترى الإنسان مجاهداً فى سبيل ألفاظ يعبر بها عن الانطباع الذى تركته المرئيات والمسموعات فى قلبه ... وهكذا حدث لقلب الإنسان أن يجد التعبير المنشود فى ألفاظ تمتعه وجدها فى جمال الزهر ، وفى إعجابه بتغريد الطير ، وفى حسن استقباله للضباب الذى يغسل بنداه سهول الأرض ، كما وجدها فى حزنه الذى شاطر به العطف على ندى الصباح السريع الزوال ... لقد اهتز الشعراء إلى قرض الشعر كلما رأوا البطاح بيضاء برذاذ الثلج الذى يتناثر من زهرات الكريز الساقطة فى أصباح الربيع ، أو سمعوا فى أمسيات الخريف حفيف الأوراق وهى تتساقط أو كلما رأوا مشاهد الأيام المؤلمة البشعة تنعكس أمام أعينهم على مرآة الحوادث عاماً بعد عام ... أو كلما أخذتهم الرعدة حينما رأوا قطرة الندى الزائلة ترتعش على الكلأ المزدان بلآلئه »(٨) .

لقد أجاد « تسوزايوكى » التعبير عن الموضوع الذى لم يفتأ الشعر اليابانى يتناوله — وهو ما تبديه الطبيعة من أوجه وحالات ، ومن ازدهار وذبول ، الطبيعةُ فى تلك الجزر التى جعلتها البراكين مشهداً للروائع ، وجعلها المطر الغزير دائمة الإيناع ، وإن الشعراء فى اليابان يمرحون فيما لم تلكه الألسن من جوانب الحقول والغابات والبحر — فصغار السمك تنثر الرذاذ وهى تتقلب فى مجارى الجبال ، والضفادع تقفز فجأة من البرك الساكنة ، الشطئان تخلو من المد والجزر والتلال تقطعها كِسَف الضباب الذى سكن بلا حراك ، وقطرة المطر تأوى كأنها الجواهر المكنونة فى ثنية نجم من أنجم الكلأ ، وكثيراً ما يمزج شعراء اليابان فى شعرهم بين أغانى الحب وأشعار عبادتهم للطبيعة النامية ، أو تراهم يرثون رثاء مراً لما يرونه فى الازدهار والحب والحياة من قصر الأمد ، والعجيب أن هذه الأمة التى تموج بالمقاتلين ، قلما تتغنى فى شعرها بالقتال ، بل تراهم لا يبثون الحماسة فى القلوب إلا بترانيم يترنمون بها

حيناً بعد حين ، وكانت الكثرة الغالبة من القصائد قصيرة بعد عهد « نارا » فهذه مجموعة « كوكنشو » التي تحتوى ألفاً ومائة قصيدة ، لا تجد إلا خمساً منها فقط صيغت في صورة الـ « تانكا » — وهي صورة تكون فيها القصيدة مؤلفة من خمسة أبيات ، أولها من خمسة مقاطع وثانيها من سبع ، وثالثها من خمس ، ورابعها من سبع ، وخامسها من سبع كذلك وليس في هذه القصائد قافية ، ذلك لأن ألفاظ اللغة اليابانية كلها تقريباً تنتهي بحرف مد ، فلا تترك مجال الاختيار أمام الشاعر من الاتساع بحيث ينتقي مختلف القوافي ، وكذلك ليس في شعرهم تفعيلات ولا نغم ولا مقدار معين من الكلمات في البيت الواحد ، لكنك تجد فيه كثيراً من ألاعيب اللغة ، فتراهم مثلا يضيفون مقاطع في أوائل الكلمات لا يكون لها معنى سوى ما تضيفه إلى الكلام من تنغيم ، ويستهلون قصائدهم بأبيات تعمل على تكملة الصورة أكثر مما تؤدى إلى تمام الفكرة ، ويربطون العبارات بألفاظ تحمل معنيين على نحو يثير في القارئ الدهشة والانتباه ، ولقد خلع الزمن ثوباً من الجلال على أمثال هذه الألاعيب اللفظية عند اليابانيين ، كما هي الحال في توافق اللفظ والمعنى وفي القافية عند الإنجليز ، وأشعارهم محببة لدى طبقات الشعب ، ومع ذلك فلا يؤدى ذلك بالشاعر إلى السوقية في شعره ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إذ تميل هذه القصائد الكلاسيكية إلى الارستقراطية في فكرها ولفظها ، فلأنها ولدت في جو تشيع فيه أبهة القصور ، تراها مصوغة صياغة روعى فيها الإحكام على نحو يكاد يجعل منها تعبيراً عن الأنفة والكبرياء ، وهذه القصائد تنشد كمال اللفظ والصياغة أكثر مما تبحث عن جدة المعنى ، وهي تكسب العاطفة أكثر مما تعبر عنها ، وهي في كبريائها أرفع من أن تطنب القول وتطيل ، فلن تجد أرباب القلم في أي بلد من بلاد الأرض سوى اليابان ، لهم ما لأدباء اليابان من تحفظ في القول يعترفون به اعترافاً صريحاً ، فكأنما أراد شعراء اليابان أن يكفروا بتواضعهم في القول عما زل فيه مؤرخوها من تهويل في الفخر بأنفسهم ؛

فيقول اليابانيون إنك ذا كتبت ثلاث صفحات عن الرياح الغربية ، زللت فى ثرثرة السوقة ، فالفنان الأصيل لا ينبغى له أن يفكر القارئ ، بل واجبه أن يغريه حتى يستثير فيه نشاط التفكير لنفسه ، فلابد للفنان أن يبحث وأن يجد صورة حسية جديدة تثير فى القارئ كل الأفكار وكل المشاعر التى يصر الشعر الغربى على بسطها فى تفصيلاتها ، فكل قصيدة عند اليابانى لا بد أن تكون سجلا هادئاً لوحى اللحظة التى كتبت فيها .

وعلى ذلك فإننا نضل سواء السبيل لو أننا بحثنا فى هذه الدواوين أو فى مجموعة المختارات التى تسمى « هيا كونن إشو » ومعناها « أشعار متفرقة لمائة شاعر » والتى هى شبيهة بالديوان الذى يجمع مختارات من الشعر الإنجليزى ويطلق عليه « الكنز الذهبى » — أقول إننا نضل سواء السبيل لو أننا بحثنا فى هذه المجموعات عن قصيدة فيها حماسة أو عن ملحمة فيها حروب ، أو عن مطولات غنائية ، فهؤلاء الشعراء إنما أرادوا أن يخلدوا أنفسهم بسطر واحد يقول الواحد منهم ، فهاهو ذا « سايجيوهوشى » قد فقد أعز أصدقائه ، وانقلب راهباً ووجد فى أضرحة « إيسى » ما كانت تنشده نفسه المتصوفة من عزاء ، فراح يقرض الشعر فى عزيزه الفقيد ، لكنه لم يكتب قصيدة مثل « أدونيس » أو حتى « ليسيداس » (وهما قصيدتان من الشعر الإنجليزى) بل اكتفى بهذه الأسطر البسيطة :

ما هذا الذى
يسكن هاهنا
لست أدرى
لكن قلبى ملىء بنشوة الرضى
والدموع تنهمر من عينى (٩)

ولما فقدت « السيدة كاجا نوشيو » زوجها لم تكتب فيه سوى هذه السطور :

إن كل ما يبدو من أشياء
ليست سوى
حلم يطوف بحالم
إنى لأنام ... وإنى لأستيقظ ...
فما أفسح السرير بغير زوج فى جوارى[١٠]

وبعدئذ فقدت ابنها ، فأضافت إلى القصيدة بيتين آخرين :

كم طاف اليوم
هذا الباسل الذى يقتنص اليعاسيب[١١]

وبات نظم المقطوعات الشعرية (ويسمونها تانكات) لعبة أرستقراطية شاعت فى الدوائر الإمبراطورية فى « نارا » و « كيوتو » حتى ليستطيع الناظم أن يشترى عفة المرأة بواحد وثلاثين مقطعاً من الشعر يجيد صياغتها ، كما كانت عفة المرأة تباع فى الهند القديمة بفيل[١٢] ، وكان من المألوف أن يحيى الإمبراطور ضيوفه بكلمات يعطيها لهم مما يصلح لصياغة الشعر[١٣] ، ونرى فى أدب ذلك العصر إشارات ترد هنا وهناك ، تدل على أن جماعة من الناس يتطارحون الشعر أو ينشدونه وهم سائرون فى الطريق[١٤] وكان الإمبراطور — فى أوج العصر الهيوى — ينظم مباريات فى الشعر يشترك فيها ما يقرب من ألف وخمسمائة شاعر يتنافسون أمام محكمين من العلماء ، ليحكموا أيهم أفحل فى صياغة الموجزات الشعرية ، بل أنشئ فى سنة ٩٥١ مكتب خاص للشعر ، يشرف على تنظيم هذه المباريات ، والقصائد الرابحة فى كل مباراة تحفظ فى دار المحفوظات .

وجاء القرن السادس عشر ، فأحس الشعر اليابانى عندئذ أنه يسرف فى طول القصائد ، وصمم على تقصير « التانكات » — وكانت « التانكا »

فى الأصل تكملة يضيفها شخص إلى قصيدة بدأها شخص آخر — فأصبحت بعد التقصير ما يسمونه « هوكو » أى « العبارة الواحدة » تتألف من ثلاثة أسطر تتكون أولها من خمسة مقاطع ، وثانيها من سبعة ، وثالثها من خمسة ، أى أن مجموعة المقاطع تكون سبعة عشر مقطعاً ، وكان نظم القصائد من نوع « الهوكو » هو البدْع الشائع فى عصر « جنروكو » (١٦٨٨ — ١٧٠٤) ، ثم بات البدع عندهم شغفاً بلغ حد الهوس ، ذلك لأن الشعب اليابانى شبيه بالشعب الأمريكى فى شدة حساسيته العاطفية العقلية التى تسبب سرعة التقلب فى الأنماط الفكرية ، وكنت ترى الرجال والنساء ، والتجار والجند ، والصناع والفلاحين ، يهملون شئون الحياة اليومية ليشتغلوا بصياغة شعرية موجزة من نوع « الهوكو » يصوغونها فى لحظة حين يُطلب إليهم ذلك ، ولما كان اليابانيون مولعين بالمقامرة فقد راحوا يراهنون بمبالغ جسيمة من المال فى مباريات تقام لنظم قصائد « الهوكو » حتى لقد خَصَّصَ بعض المغامرين فى ميدان الأعمال أنفسهم لإقامة أمثال هذه المباريات يجعلونها مرتزقاً لهم ، فكانوا يحشدون كل يوم آلاف الناس المعجبين بهذا الضرب من التنافس ، ولذلك اضطرت الحكومة آخر الأمر أن تقاوم هذه الحلبات الشعرية ، وأن تمنع هذا الفن المأجور الجديد[١٥] ، وأنبغُ من أجاد الشعر من نوع الهوكو هو « ماتسوراباشو » (١٦٤٣ — ٩٤) الذى كان مولده — فى رأى يونى نوجشى — « أعظم حادثة فى تاريخ اليابان »[١٦] ، وكان « باشو » هـذا سيافاً ناشئاً ، مات مولاه وأستاذه ، فكان لموته أعمق الأثر فى نفسه بحيث اعتزل حياة القصر ، وزهد فى لذائذ الجسد جميعاً ، وراح يضرب فى فجاج الأرض على غير هدى ، متفكراً ، معلماً ، وعبر عن فلسفته الهادئة فى نتف من شعر الطبيعة الذى ينزل من ذوّاقة الأدب فى اليابان منزلة رفيعة لأنه يضرب أروع الأمثلة للكلام كيف يوحى بالمعانى رغم إيجازه الشديد ، ومن قوله :

البركة القديمة
وصوت الضفدعة وهى تثب فى الماء

ومن قوله أيضاً :

ساق من حشيش حطّ عليه
اليعسوب محاولاً أن يضيئه[١٧] ؟

الفصل الثالث

النـــثر

(١) القصص

السيدة موراساكى — قصة جنچى — امتيازها — القصص اليابانى فى
العصر المتأخر — كاتب فكه

لقد كانت القصائد اليابانية أشد إيجازاً من أن تصادف إعجاباً عند العقل الغربى ، فلنا أن نعزى أنفسنا بالقصة اليابانية ، إذ قد تبلغ روائع القصص عندهم عشرين جزءاً ، بل قد تبلغ أحياناً ثلاثين[١٨] ، وأرفع هذه القصص مكانة هى قصة « جنچى مونوجاتارى » (ومعناها الحرفى والصحيح هو ثرثرة تدور حول جنچى ») فهذه القصة فى إحدى طبعاتها تملأ أربعة آلاف ومائتين وأربعاً وثلاثين صفحة[١٩] ، وألفت هذه القصة الممتعة حوالى سنة ١٠٠١ ميلادية ، ألفتها « السيدة موراساكى نوشيكيبو » وهى من قبيلة فوچيوارا العريقة ، وقد تزوجت من رجل من هذه القبيلة عينها ، لكنه مات عنها فخلفها أرملة بعد الزواج بأربعة أعوام ، فجعلت تُسَرِّى عن نفسها بتأليف قصة تاريخية فى أربعة وخمسين جزءاً ، وبعد أن استنفدت كل ما كان لديها من ورق ، سرقت أوراق « السُّتْرات » البوذية المقدسة من معابدها ، واستخدمتها ورقاً لمخطوط قصتها[٢٠] ، فحتى الورق كان يوماً ضرباً من الترف .

وبطل القصة ابن لإمبراطور أنجبه من أقرب محظياته إلى نفسه ، وهى « اكبريتسوبو » ، وهى من روعة الجمال بحيث أثارت الغيرة فى صدور سائر المحظيات جميعاً ، وجعل هؤلاء يغظنها حتى قضين على حياتها غيظاً ، فاقرأ كيف تصف الكاتبة « موراساكى » الإمبراطور بأنه لا يجد فى موتها ما يعزيه ،

ولعل الكاتبة فى هذا قد أسرفت فى تقديرها لمدى استطاعة الرجل أن يخلص فى حبه ، قالت :

« وكرت الأعوام ، لكن الإمبراطور لم ينس فقيدته ، وعلى الرغم من كثرة النساء اللائى جىء بهن له فى القصر لعلهن يثرن اهتمامه ، فقد أغضى عنهن جميعاً ، مؤمناً بأن العالم كله ليس فيه امرأة واحدة تشبه فقيدته ... ولم ينفك يشكو من القدر الذى لم يسمح لهما معاً بأن يفيا بالعهد الذى كانا يكررانه كلما أصبح صباح أو أمسى مساء ، وهو أن تكون حياتهما كحياة الطائرين التوأمين اللذين يشتركان فى جناح واحد ، أو كحياة الشجرتين التوأمتين اللتين تشتركان فى غصن واحد »(٢١) .

وكبر « جنچى » وأصبح أميراً فاتناً ، له من وسامة الشكل أكثر مما له من استقامة الأخلاق ، فجعل يتنقل من غانية إلى غانية تنقل « توم چونز » إلا أنه قد بذ فى تنقله ذلك البطل المعروف فى أنه لم يفرق بين ذكر وأنثى ، فهو يمثل فكرة المرأة عن الرجل — كله عاطفة وكله إغراء ، دائم التفكير ودائم الحب لهذه المرأة أو لتلك ؛ وكان « جنچى » أحياناً « إذا ما ألمت به الملمات ، يعود إلى بيت زوجته »(٢٢) ؛

وترى الكاتبة « السيدة موراساكى » تقص لنا مغامرته بالتفصيل على نحو تحس فيه بفرحها برواية قصته ، ملتمسة له ولنفسها العذر التماساً رقيقاً :

« إن الأمير الشاب كان يعدُّ مهملا لواجبه إهمالا لا شك فيه ، إذا لم يكن قد أسرف فى « فلتاته » الكثيرة ، وإن كل إنسان لا يسعه إلا أن يعد سلوكه هذا طبيعياً لا غبار عليه ، حتى لو كان سلوكاً يعاب على عامة الناس ... إننى فى الحقيقة لأكره أن أقص بالتفصيل أموراً قد تحوط هو نفسه كل الاحتياط فى إخفائها ، لكنى سأقص هذه التفصيلات ، لأننى أعلم أنك لو وجدتنى قد حذفت شيئاً ، فستقول : لماذا ؟ ألأن المفروض فيه أنه ابن إمبراطور ،

اضطرت إلى ستر سلوكه بستار جميل ، وذلك بحذف كل نقائصه ، وستقول إن ما أكتبه ليس تاريخاً ، والقصة ملفقة أريد بها التأثير على الأجيال التالية تأثيراً يخدعهم عن الحقيقة ، والقصة كما هى ستجعلنى فى أعين الناس ناقلة لأنباء الدعارة ، لكنى لا حيلة فى ذلك » (٢٣) .

ويمرض « جنچى » خلال مغامراته الغرامية ، فيندم على مغامراته تلك ، ويزور ديراً ليرتد إلى حظيرة التقوى على يدى كاهن ، لكنه فى الدير يلتقى بأميرة جميلة (يأبى تواضع الكاتبة إلا أن تسميها باسمها هى ، موراساكى) فتشغله تلك الأميرة حتى ليتعذر عليه أن يتابع الكاهن وهو ينحو إليه باللوم على خطاياه :

« بدأ الكاهن يقص القصص عن زوال هذه الحياة الدنيا وعن الجزاء فى الحياة الآخرة ، ولقد ارتاع جنچى حين تمثل له فداحة خطاياه التى اقترفها ، إنه لعذاب أليم أن يعلم أن هذه الخطايا ستظل واخزة لضميره ما بقى حيا فى هذه الدنيا ، فما بالك بحياة أخرى ستتلو هذه ، فياله من عقاب شديد ذلك الذى ينتظره فى مستقبله ! وكلما قال الكاهن شيئاً من هذا ، أخذ جنچى يفكر فى تعاسته ، ألا ما أجملها فكرة أن يرتد راهباً وأن يقيم فى مكان كهذا ! ... لكن سرعان ما استدارت أفكاره ناحية الوجه الجميل الذى كان قد رآه ذلك الأصيل واشتاق أن يعرف عن تلك المرأة شيئاً فسأل الكاهن : من ذا يسكن معك ها هنا(٢٤) ؟ » .

وتعاون الكاتبة المؤلفة بطلها جنچى على موت زوجته فى الولادة ، بحيث أتيح له أن يخلى مكان الصدارة فى بيته لأميرته الجديدة « موراساكى »(*) .

(*) إن كانت هذه السطور ليأسف أن يحول قصر الحياة بينه وبين المضى فى قراءة هذه القصة لكنه إضطر أن يكتفى بالجزء الأول من الأجزاء الأربعة التى نقل فيها « أرثر ويلى » قصة موراساكى نقلا دقيقاً .

وربما كان جمال الترجمة لهذا الكتاب هو الذى أضفى عليه هذه الروعة التى يمتاز بها من سائر الآيات الأدبية اليابانية التى ترجمت إلى الإنجليزية ، ويجوز أن يكون مترجمه — وهو مستر ويلى — قد فاق الأصلَ بترجمته كما هى الحال مع فتزوجرولد (فى ترجمته لرباعيات الخيام) ، فإذا ما تناسينا تشريعنا الخلقَ برهة — أثناء قراءة هذا الكتاب — وسايرنا حوادث هذه القصة التى تجعل الرجال والنساء « يتلاقحون كما يتلاقح الذباب فى الهواء » — على حد تعبير وردزورث فى ولهلم مايستر — لوجدنا فى « قصة جنچى » أروع لمحة فى مستطاعنا اليوم ، مما يتيح لنا رؤية ألوان الجمال المخبوء فى الأدب اليابانى ، فإن كاتبته « موراساكى قد كتبته بأسلوب طبيعى سلس ، سرعان ما يجعل موضوعها مادة حديثه مع أصدقائه ، فالرجال والنساء والأطفال بصفة خاصة ، الذين يحيون على صفحات قصتها الطويلة ينبضون جميعاً بالحياة الصحيحة ، والعالم الذى تصفه مصطبغ بصبغة الحياة الحقيقية التى نعيشها ونراها(*) ، على الرغم من أنها كادت تحصر نفسها فى القصور الإمبراطورية والدور الفخمة ، إن الحياة التى تصفها هى حياة العلية التى لا تهتم كثيراً بما تتكلفه الحياة وما يتكلفه الحب من نفقات ، لكنها فى حدود تلك الحياة ، تراها تؤدى الوصف أداء طبيعياً دون أن تضطر

(*) إن السيدة الكاتبة لتدخل بقصتها حتى فى البيوت العادية دخول الفاهمة لدقائقها ، وهى تجعل « أوكانو كامى » — وذلك حوالى سنة ١٠٠٠ — تعبر عن الرأى الحديث الذى يطالب للمرأة بحق التعليم : « وهناك كذلك الزوجة النشيطة التى — على الرغم من مظهرها — تلف شعرها وراء أذنها ، وتكرس نفسها تكريساً تاما لدقائق حياتنا المنزلية ، والزوج فى غدواته وروحاته حول العالم ، لا بد أن يرى وأن يسمع أشياء كثيرة لا يستطيع أن يتحدث فيها لمن لا يعرفهم ، لكنه يغتبط إذ يتحدث فيها إلى زوجته الحبيبة التى يمكنها أن تصغى إلى ما يقوله لها إصغاء المشاطرة لشعوره الفاهمة لعقله ، والتى يمكنها أن تضحك معه إذا ضحك ، وتبكى إذا بكى ، وكذلك كثيراً ما يحدث من أحداث السياسة ما يغمه غماً أو يمتعه متعة كبرى وعندئذ تراه ينفرد فى جلسته مشتاقاً أن يتحدث فى الأمر إلى صديق ، فلا تزيد زوجته على قولها له : « ماذا بك » ثم لا تأبه له ، فيكون انصرافها هذا عنه أكبر ما يسىء إليه »(٢٥) .

إلى الاستعانة فى قصتها بشواذ الشخصيات والحوادث لتثير بها اهتمام القارئ فالأمر هو كما جاء فى العبارة التالية على لسان « أومانو كامى » عن بعض الرسامين الواقعيين ، معبرة عن رأى الكاتبة « السيدة موراساكى » :

« إن التلال والأنهار كما هى فى صورها المألوفة التى تراها الأعين ، والمنازل كما تقع عليها أينما سرت ، بكل ما لهذه وتلك من جمال حقيقى فى التناسق والشكل — لو أنك رسمت مناظر كهذه رسما هادئاً ، أو بينت ما يكمن وراء حاجز حبيب إلى قلبك ، معزول عن العالم مستتر عن الأبصار ، أو رسمت أشجاراً كثيفة على تل وطىء لا يشمخ بأنفه ، أقول لو رسمت هذا كله بالعناية اللازمة من حيث سلامة التكوين والتناسب والحياة — لكانت أمثال هذه الرسوم مما يتطلب أدق الحذق من أنبغ الأعلام ، وهى هى التى توقع الفنان العادى فى ألوف الأخطاء »[٣٦] .

ولا أحسب الأدب اليابانى بعدئذ قد أنتج فى القصة ما يوازى فى روعته قصة « جنجى » أو ما يساوى هذه القصة فى مبلغ تأثيرها على تطور اللغة تطوراً أدبياً[٣٧] ؛ نعم إن القرن الثامن عشر قد بلغ فى أدب القصة أوجاً ثانياً ، ووفق كثيرون من أدباء القصة فى التفوق على « السيدة موراساكى » لكنهم تفوقوا عليها فى طول ما رووا من حكايات أو فى مدى ما أباحوه لأنفسهم من تصوير للدعارة[٣٨] ، من ذلك مثلا كتاب « القصص التهذيبى » الذى نشره « سانتو كيودن » سنة ١٧٩١ ، لكنه كان بعيداً عن الغاية التى زعمها لنفسه — غاية التهذيب — بعداً حدا بأولى الأمر أن ينفذوا القانون الذى يحرم الفحش ، فيحكموا على الكاتب بأن تغل يداه خمسين يوماً وهو فى داره ، وكان « سانتو » هذا يتاجر فى أكياس الطباق والأدوية « البلدية » وتزوج من عاهرة ، وكسب الشهرة أول ما كسبها بكتاب أخرجه عن بيوت الدعارة فى لوكيو ، وبعدئذ أخذ يهذب من أخلاق قلمه شيئاً فشيئاً ، لكنه لم يقتلع بهذا التهذيب

من جمهور القراء ما تعودوه من إقبال على شراء كتبه إقبالا عظيما ، ولما وجد كل هذا التشجيع ، خرج على كل السوابق المعروفة في تاريخ القصص اليابانى فطالب الناشرين بدفع شيء من المال ثمناً لكتبه ، إذ يظهر أن سابقيه من المؤلفين كانوا يكتفون من الأجر بدعوة يدعونها على عشاء ، وقد كان معظم كتاب القصة من الداعرين الفقراء ، الذين أنزلهم المجتمع مع الممثلين منزلة هى أدنى ما تكون المنزلة امتهانا(٢٩) ، وظهر قصصى آخر هو «كيوكوتى باكين» (١٧٦٧ — ١٨٤٨) كان أقدر فناً فى قصصه من «كيودن» لكنه أقل استثارة لاهتمام قرائه ، وهو يماثل «سكُتْ» وديماس » فى صبه للتاريخ فى قالب قصصى يفيض بالحياة ، ولقد بلغ إعجاب قرائه به فى نهاية الأمر مبلغاً جعله يمط إحدى قصصه فى مائة جزء ، وكان « هوكوساى » يوضح قصص « باكين » بالرسوم ، ولبثا فى العمل زميلين حتى نشب بينهما الخلاف — وما داما من أبناء عبقر فلا بد من خلاف — ثم افترقا .

وأمرح هؤلاء القصاصين جميعاً هو « چيپنشا إيكو » (مات سنة ١٨٣١) وهو فى اليابان يعادل « لىساج » و « دكنز » ؛ « بدأ « إيكو » حياته الراشدة بثلاث زيجات ، فشل منها اثنتان بسبب أن حَمَوَيْه فى كلتا الحالين لم يفهما شذوذ مسلكه الناشئ عن اشتغاله بالأدب ؛ فقد رضى بالفقر متفكهاً ، لم يكن فى بيته أثاث . فعلق على جدرانه العارية صوراً للأثاث الذى كان يشتريه لو استطاع ، وفى أيام المواسم الدينية كان يضحى للآلهة بصور فيها رسوم لخير ما يمكن تقديمه من قرابين وقدم له الناس حوضاً للاستحمام — رغبة منهم فى التخلص من قذارته — فحمله على رأسه مقلوباً ، وراح يوقع به من اعترض طريقه من المارة معلقاً بالنكات فى بداهة سريعة على كل من وقع ؛ ولما جاءه الناشر فى زيارة إلى داره ، دعاه أن يستحم ؛ وقبل الناشر الدعوة ، فلبس صاحبنا ثياب الناشر أثناء استحمامه وزار كل من أراد زيارته فى ذلك اليوم

— وكان رأس السنة الجديدة — وهو فى تلك الثياب الفاخرة ، وآيته الأدبية هى قصة « هيزاكورياج » التى نشرها فى اثنى عشر جزءاً فى الفترة التى تمتد من ١٨٠٢ إلى ١٨٢٢ ، وهى تحكى قصة تهز قارئها هزا بالضحك ، على نحو ما تراه فى قصة « مجموعة مذكرات نادى بِكْوِك » (للكاتب الإنجليزى دكنز) ؛ ويقول « آستن » عن هذه القصة إنها أفكه وأمتع كتاب فى اللغة اليابانية كلها[٣٠] ، ولما كان « إيكو » فى فراش موته ، التمس من تلاميذه أن يضعوا على جثمانه قبل حرقه — وكان إحراق الموتى مألوفاً فى اليابان عندئذ — بضعة لفائف أعطاها إياهم فى وقار وجد ، ولما كان يوم جنازته ، وفرغ المصلون من تلاوة الدعوات ، وأشعل الحطب الذى أعد لإحراق جثمانه ، تبين أن تلك اللفائف كانت تحتوى على مفرقعات نارية أخذت تطقطق أثناء حرق الجثة طقطقة كلها مرح ونشوة ؛ وهكذا وفى « إيكو » بالعهد الذى قطعه على نفسه وهو شاب ، بأن يجعل حياته كلها مفاجآت حتى بعد موته .

(٢) التاريخ

المؤرخون — آرى هاكوسيكى

لن تجد فى كتابة التاريخ عند اليابانيين ما يمتعك بمثل ما يمتعك فى أدبهم القصصى ، على الرغم من أنه يتعذر عليك أن تفرق عندهم بين التاريخ والقصة ، وأقدم كتاب باق فى الأدب اليابانى هو « كوجيكى » ومعناها « ثبت بالآثار القديمة » وهو مكتوب بالأحرف الصينية بقلم « باسومارو » سنة ٧١٢ ، وفى هذا الكتاب كثيراً ما تحل الأساطير محل الحقائق ، حتى ليحتاج القارئ أن يمعن فى إخلاصه للعقيدة الشنتوية لكى يقبل هذه الأساطير على أنها تاريخ[٣١] ثم رأت الحكومة بعد « الإصلاح العظيم » فى سنة ٦٤٥ أن الحكمة تقتضى أن تروى قصة الماضى رواية جديدة ، فظهر تاريخ جديد حول سنة ٧٢٠

عنوانه « نِهونجي » ومعناها « نيبون » وهو مكتوب باللغة الصينية ، ويزدان بفقرات سرقها الكاتب سرقة جريئة من الأدب الصيني ، وأحياناً أجراها على ألسنة أشخاص من اليابانيين القدماء ، دون أن يأبه مطلقاً للترتيب الزمني للحوادث ؛ ومع ذلك فقد جاء الكتاب محاولة أكثر جداً في روايته للحقائق من كتاب « كوچيكي » وكان هو بمثابة الأساس للكثرة الغالبة مما كتب بعدئذ من كتب في التاريخ الياباني القديم ، فمنذ ذلك الحين كتبت عدة كتب في تاريخ اليابان كل منها يبزّ سابقه في روحه الوطنية ، وقد كتب « كيتاباتاكي » كتاباً أسماه « چنتوشوتوكي » — ومعناها تاريخ التسلسل الحقيقي للملوك الإلهيين — وضعه على أساس هذه العقيدة المتواضعة الآتية ، التي أصبحت اليوم أمراً مألوفاً .

« إن ياماتو العظمى (أي اليابان) بلد إلهي ، فالسلف الإلهي لم يضع أساساً لبلد من بلاد الأرض سوى بلدنا ، وهو دون سائر البلاد قد لقي الرعاية من آلهة الشمس بحيث ولّت على أموره سلسلة طويلة من أبنائها ، ولن تجد لمثل هذا شبيهاً في البلاد الأخرى ، ومن ثم سميت اليابان بالأرض الإلهية »[٣٢] .

وطبع هذا الكتاب أول ما طبع سنة ١٦٤٩ ، فكان بداية للحركة التي قصدت إلى استعادة الإيمان القديم والدولة القديمة ، وهما الجانبان اللذان بلغا أقصى حدودهما في المناقشات الحامية التي أقامها « موتو — موري » وشاءت الأيام أن يكون « متسو — كوني » — وهو حفيد « أيياسو » نفسه — هو الذي يتصدى لكتابة كتابه الذي أسماه « داي نيهونشي (ومعناها « التاريخ الأكبر لليابان » ١٨٥١) فأخرج به صورة من مائتين وأربعين جزءاً صور بها الماضي الذي ساد فيه الأباطرة وساد النظام الإقطاعي ، فكان هذا الكتاب بعدئذ من العوامل التي هيأت اليابانيين لخلع حكومة توكوجاوا العسكرية من مراكز السلطان .

وقد يكون « آراى هاكوسيكى » أعلم المؤرخين اليابانيين وأبعدهم عن الميل إلى الهوى ، فعلمه هو الذى ساد الحياة العقلية فى « بيدو » فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وقد سخر « آراى » من اللاهوت الذى كان يأخذ به مبشرو المسيحية الأرثوذكسية ووصفه بأنه « ممعن فى صبيانيته »[٣٣] ، لكن جرأته قد حدت به كذلك أن يهزأ ببعض الأساطير التى ظنها أهل وطنه تاريخاً[٣٤] ، وكتابه العظيم « هانكامپو » — وهو تاريخ « لدايمو » يتألف من ثلاثين جزءاً — يعد من أعاجيب الروائع الأدبية ، لأنه — فيما يظهر — قد تم تأليفه فى أشهر قلائل ، على الرغم مما لا بد أن يكون قد اقتضاه من كثرة البحث[٣٥] ، وقد استمد آرى بعض علمه وطائفة من أحكامه من دراسته للفلاسفة الصينيين ، ويقال إنه لما جعل يحاضر فى الآداب الكونفوشيوسية ، كان الحاكم العسكرى « أينوبو » يستمع إليه فى إقبال وإجلال حتى لم يكن ليذب البعوض عن رأسه فى الصيف ، وكان فى الشتاء ينحو بوجهه جانباً إذا أراد أن يمسح الرشح عن أنفه احتراماً للمحاضر[٣٦] ، وكتب « آراى » ترجمة لحياته فصور أباه تصويراً جليلا رسم به المواطن اليابانى فى خير صورة له وأبسطها .

« إننى أعود بذاكرتى إلى أول لحظة بدأت عندها أتعمق الأمور إلى صميمها ، فأجد حياته الرتيبة اليومية لم تكن تختلف فى يوم عنها فى يوم آخر ، فما كان يفوته قط أن يستيقظ قبل شروق الشمس بساعة ، ثم يستحم بماء بارد ، ويصفف شعره بنفسه ، وإذا اشتد بردالشتاء تعرض عليه امرأته — وهى أمى — أن تعد له ماء ساخناً ، لكنه لم يكن يرضى بذلك ، لأنه لم يكن يريد أن يتعب الخدم ، فلما زاد عمره على السبعين ، وتقدمت أمى كذلك فى سنها ؛ وكان البرد يشتد إلى درجة لا يحتملانها ، كانا يستحضران فى غرفتهما موقداً وينامان وأقدامهما ممددة تجاهه ، وكان يوضع إبريق من الماء الساخن إلى جانب

المدفأة ، فيشرب منه أبي عند استيقاظه ، وكلاهما كان يقدس بوذا ، فكان أبي لا يفوته قط — بعد أن يصفف شعره ويسوى ثيابه — أن يبدى علائم خشوعه لبوذا . . . وبعد أن يرتدى رداءه ، كان يجلس هادئاً فى انتظار تباشير الصباح ، وعندئذ يخرج إلى عمله الرسمى . . . إن أحداً لم يره قط وعلامات الغضب على وجهه ، ولست أذكر أبداً أنى رأيته يوماً — حتى إن ضحك — يستسلم للمرح الصاخب ، وأقل من ذلك حدوثاً أن تراه يسفل إلى الألفاظ الجارحة إذا ما شاءت له الظروف أن يؤنب أحداً ، وكان فى سمره لا يتكلم ما أمكنه السكوت ، كان رصيناً فى سلوكه ، فما رأيته قط جازعاً أو مضطرباً أو قلقاً . . . يحافظ على نظافة الغرفة التى كان يشغلها عادة ، ويعلق على الجدار صورة قديمة ، ويضع فى أصيص بعض زهرات من زهور الموسم ، وقد ينفق يومه ناظراً إليها ، كان قليل الرسم للصور يرسمها باللون الأسود على ورق أبيض ، لأنه لم يكن محباً للألوان الزاهية ، وإذا جادت صحته لم يطلب إلى الخادم أن يعينه فى شىء قط ، لأنه كان يعد كل شىء لنفسه بنفسه[٣٧] » .

(٣) المقالة

« السيدة سى شوناجون » — « كامونو — شومى »

كان « آرامى » كاتباً للمقالة كما كان مؤرخاً ، وله نتاج عظيم فى هذا اللون من الأدب (أدب المقالة) الذى ربما كان أمتع ضروب الأدب اليابانى جميعاً ، على أن الزعامة فى أدب المقالة — كما هى الحال فى القصة — كانت لامرأة ، فكتاب « صُوَر على الوسادة » (ماكورازوشى) الذى كتبته « السيدة سى شوناجون » يوضع عادة فى أعلى مراتب هذا الأدب ، كما أنه أول ما كتب فيه ، والسيدة الكاتبة قد نشأت فى نفس البلاط ونفس الجيل اللذين نشأت فيهما « السيدة

موراساكى » واختارت لقلمها الحياة المترفة الداعرة من حولها ، فراحت تصف تلك الحياة فى صور عابرة ، يستحيل علينا أن نلم بروعتها فى لغتها الأصلية إلا على سبيل التخمين ، مهتدين بما نراه باقياً فى الترجمة الإنجليزية لتلك الصور من آثار جمالها الفاتن ؛ والكاتبة من طائفة « فيوجيورا » وصعدت حتى أصبحت وصيفة الإمبراطورة ؛ فلما قضت الإمبراطورة نحبها ، توارت « السيدة سى » : فمن قائل إنها أوت إلى دير ، ومن قائل إنها انطوت فى ثنايا الفقر ؛ لكن كتابها ليس فيه ما يدل على صدق هذا القول أو ذاك ، وهى تنظر إلى الإباحية الخلقية فى عصرها ، بالعين المتساهلة التى عرف بها ذلك العصر ، ثم هى لا تنزل رجال الدين الماديين منزلة عالية من نفسها :

« إن الواعظ الدينى لا بد أن يكون وسيم المحيا ، إذ يسهل عليك عندئذ أن تحدج بعينيك فى وجهه ، وبغير ذلك يستحيل الانتفاع بحديثه ، لأن عينيك ستحومان هنا وهناك ، ويفوتك أن تصغى إلى قوله ؛ وإذن فالواعظون الدميمون تقع عليهم تبعة كبرى ... ولو كان رجال الوعظ يحيون فى عصر أنسب لهم من عصرنا ، لسرنى أن أحكم عليهم حكماً أقرب إلى صالحهم من حكمى عليهم الآن ؛ لكن الأمر كما أراه فى الواقع ، يدعونى إلى القول بأن خطاياهم أشنع فحشاً من أن تحتمل منا مجرد التفكير »(٣٨) .

ثم تضيف الكاتبة إلى ذلك قوائم صغيرة بما تحب وما تكره :

فالأشياء التى تبعث فى نفسها النشوة :

أن أعود إلى البيت من رحلة وقد امتلأت العربات حتى فاضت ؛

أن يكون حول العربة عدد كبير من المشاة الذين يخفرون الثيرة والعربات تسرع فى السير ؛

زورق نهرى يسبح على الماء .

الأسنان زينت بالسواد على نحو جميل ...
والأشياء التى تثير فى نفسها الكراهية :
غرفة مات فيها طفل
مدفأة انطفأت نارها
جوزى يكرهه ثور عربته
ولادة سلسلة متصلة من البنات فى بيت عالم ...

ومن الأشياء الممقوتة :

الناس الذين إذا قصصت عليهم قصة قاطعوك بقولهم : إننا نعرفها ثم يقولون القصة على صورة تختلف كل الاختلاف عما كنت تنوى أن تقوله ...

والرجل الذى تصادفه امرأة ، ويكون بينهما ود ، فيثنى على امرأة أخرى يعرفها ...

والضيف الذى يقص عليك قصة طويلة وأنت عجلان ...
شخير رجل تحب أن تخفيه ، والرجل ينام فى مكان لا شأن له به .. البراغيث(٣٩) .

وليس ينافس هذه السيدة فى مكان الصدارة من أدب المقالة فى اليابان ، إلا « كامو نو – شومى » ؛ الذى حُرِمَ خلافة أبيه فى حراسة الضريح الشنتوى « لكامو » فى مدينة كيوتو ، فاعتنق البوذية حتى أصبح راهباً من رهبانها ؛ ولما بلغ من عمره عامه الخمسين ، اعتكف فى حديقة فى الجبل ، حيث انصرف إلى حياة التأمل ، وهناك كتب كتاباً يودع به الحياة الصاخبة ، وأسمى كتابه « هوچوكى » (١٢١٢) ومعناها « مدوَّن الأقدام العشر المربعة » فبعد أن بيّن الصعاب والمضايقات التى يلاقيها الإنسان فى حياة المدنية ، ووصف

مجاعة سنة ١١٨١(*) أخذ يروى لنا كيف أقام لنفسه كوخاً مساحته عشرة أقدام مربعة وارتفاعه سبع أقدام ، واستقر فيه راضي النفس بفلسفة لا يعكر هدوءها شيء وزمالة هادئة لما يحيط به من كائنات الطبيعة ؛ ولا يسع الأمريكي الذي يقرؤه إلا أن يسمع فيه صوتاً شبيهاً بصوت « ثورو » وإن يكن صادراً من اليابان في القرن الثالث عشر ؛ فالظاهر أن كل جيل لابد له من كاتب يدعو إلى معاشرة الطبيعة بمثل كتاب « بيركة وولدن » ..

(*) أسلفنا وصفها في الفصل الثالث من الباب الثاني .

الفصل الرابع

المسرحية

المسرحيات « الغنائية » — خصائصها — المسرح الشعبي — شيكسبير اليابان — خلاصة الرأي

وآخر ألوان الأدب ، وأعسرها فهماً علينا ، هي المسرحية اليابانية ؛ فما دمنا قد نشأنا في جو من تقاليد المسرح الإنجليزي الذي يبدأ من رواية هنري الرابع وينتهي برواية « مارية اسكتلندة » فكيف يمكن أن نعد آذاننا إعداداً يتقبل المسرحيات الغنائية اليابانية بما فيها من إطناب وحركات صامتة بالنسبة إلينا ؟ إنه لا بدلنا من نسيان شيكسبير والعودة إلى « إفريمان » بل والعودة إلى ما هو أبعد من ذلك في الماضي ، إلى الأصول الدينية للمسرحية اليونانية والمسرحية الأوروبية الحديثة ؛ عندئذ نجد ما يعيننا على متابعة تطور التمثيل الصامت الشنتوي القديم ، والرقص الكهنوتي المسمى «كاجورا» ، حتى أصبح هذه الصورة التمثيلية الناطقة بالحوار ، التي تتألف منها المسرحية الغنائية عند اليابانيين ؛ ففي نحو القرن الرابع عشر أضاف الكهنة البوذيون أناشيد جوقية إلى التمثيل الطقوسي الصامت ، ثم أضافوا إلى ذلك شخصيات فردية ، ودبروا حبكه للمسرحية بحيث تفسح المجال أمام هذه الشخصيات فتفعل الأفعال كما تقول الكلام ، ومن ثم ولدت المسرحية(٤٠) :

كانت هذه المسرحيات — مثل المسرحيات اليونانية — تُؤدَّى في ثُلاثيات وكانوا يمثلون في الفترات التي بين الفصول أحياناً ، ما يطلقون عليه «كيوجن» أي المهازل (أو التهريج) قاصدين بذلك أن يخففوا ويلطفوا من حدة العاطفة والفكر ؛ أما الجزء الأول الثلاثي المسرحي فقد كانوا يخصصونه لاسترضاء

الآلهة ، فكاد لا يزيد على تمثيل دينى صامت ؛ وأما الجزء الثانى فكان يؤدى بعدة مسرحية كاملة ، ويبتغون به طرد الأرواح الشريرة بتخويفها ؛ وأما الجزء الثالث فكان ألطف جواً ، يراد به تصوير جانب رائع من جوانب الطبيعة ، أو وجه ممتع من وجوه الحياة اليابانية(٤١) ؛ وكانت أسطر المسرحية تصاغ عادة فى صورة الشعر المرسل ، بحيث يتألف البيت الواحد من اثنى عشر مقطعاً ؛ وكان الممثلون ذوى منزلة اجتماعية حتى بين العلية ؛ فلا تزال بين أيدينا وثيقة تثبت أن « نوبونجا » و « هيديوشى » و « أيياسو » قد اشتركوا جميعاً كممثلين فى إحدى المسرحيات الغنائية حول سنة ١٨٥٠ (٤٢) ، وكان كل ممثل يلبس قناعاً منحوتاً من الخشب نحتاً فنياً دقيقاً يجعل هذه الأقنعة تحفة عند هواة الآثار الفنية فى عصرنا هذا ، وكانت مناظر المسرح قليلة ، إذ كانوا يعتمدون على الخيال القوى عند النظارة فى خلق البطانة التى يتم الفعل المسرحى فى جوها ؛ وأما الحكايات التى تمثل فمن أبسط الحكايات تأليفاً ، ولم يكن مجرى الرواية هو نقطة الاهتمام ؛ ومن أشيع تلك الروايات رواية تحكى عن « سياف » أصابه الفقر ، طرق بابه راهب جوال أراد الدفء ، فقطع له السياف أعز نباتاته ليوقد له بها ناراً ؛ وعندئذ تبين أن الراهب لم يكن إلا الوصى على العرش ، فأجزل العطاء للفارس ، وكما أننا فى الغرب لا نفتأ نختلف إلى المسرح مرة بعد مرة لنسمع مسرحية غنائية ، روايتها قديمة ، وربما كانت رواية سخيفة أيضاً ، فكذلك ترى أهل اليابان ، — حتى يومنا هذا — يبكون كلما شهدوا هذه الرواية التى يتكرر تمثيلها بغير انقطاع(٤٣) ، ذلك لأن براعة التمثيل تعيد لهذه الرواية فى كل مرة قوتها ومغزاها ؛ ولو قصد إلى المسرح متفرج متعجل عملى المقاييس ، فإنه قد يجد فى أمثال هذه الأغانى التى صبت فى قالب تمثيلى ، تسلية أكثر مما يجد فيها عظمة تأخذ عليه نفسه ، لكن اسمع ما يقوله فيها شاعر يابانى : « كم فى المسرحية الغنائية من عناصر

المأساة وعناصر الجمال ، ولطالما طاف برأسى خاطر ، هو أننا نؤدى خدمة جليلة لا شك فيها ، إذا نحن أحسنّا تقديم مسرحيتنا الغنائية فى الغرب ، ولو فعلنا لنتج عن ذلك احتجاج شديد ضد المسرح الغربى ، إن ذلك لو تم كان بمثابة الإيحاء باتجاه جديد »(٤٤) — ومع ذلك فاليابان نفسها لم تنتج من هذا الضرب المسرحى شيئاً منذ القرن السابع عشر على الرغم من أنها تقوم بتمثيلها اليوم وتقبل عليها إقبالا شديداً .

إن تاريخ المسرحية فى معظم البلاد عبارة عن تحول تدريجى من سيادة الجوقة إلى سيادة دور يقوم به فرد من الأفراد — وعند هذه النقطة تنتهى مراحل التطور فى الكثرة الغالبة من الحالات التى يتم فيها هذا الانتقال ، ولما تقدم الفن المسرحى فى اليابان من حيث تقاليده وروعته ، خلق شخصيات محببة إلى الناس صارت هى القوة السائدة فى المسرحية ، وأخيراً قل شأن التمثيل الصامت والموضوعات الدينية ، وباتت المسرحية حرباً بين أفراد تملؤهم قوة الحياة وقوة الخيال ، وهكذا ظهر المسرح الشعبى فى اليابان الذى يطلق عليه « كابوكى شيباى » وأول مسرح من هذا القبيل الشعبى ظهر حول عام ١٦٠٠ أنشأته راهبة ملت جدران الدير ، فأقامت مسرحاً فى أوساكا وجعلت ترتزق بالرقص على ذلك المسرح(٤٥) ، وكان ظهور المرأة على المسرح — كما هى الحال فى انجلترا وفرنسا بمثابة الثورة واقتراف إثم محرم ، ولما كانت الطبقات العليا قد اجتنبت هذه المحرمات (اللهم إلا فى خفاء يؤمنها من الخطر) فقد أوشك الممثلون أن يصبحوا طبقة منبوذة ، ليس لهم حافز اجتماعى يدفعهم إلى صيانة مهنتهم من الدعارة والفساد ؛ واضطر الرجال أن يقوموا بأدوار النساء ، وذهبوا فى إتقان تقليد النساء إلى حد لم يستطيعوا عنده أن يخدعوا النظارة فحسب ، بل خدعوا أنفسهم كذلك حتى لقد ظل كثير من هؤلاء الرجال الذين كانوا يمثلون أدوار النساء ، ظلوا نساء خارج المسرح(٤٦) وكان من عادة الممثلين أن يصبغوا وجوههم بألوان زاهية ، وربما يرجع ذلك

إلى خفوت الأضواء على المسرح ؛ كذلك كانوا يلبسون أردية ذات رسوم فاخرة لكى يدلوا بها على عظمة أدوارهم ، ثم لكى يرفعوا من قدر تلك الأدوار ؛ وغالباً ما كان يجلس خلف المسرح أو حوله أفراد أو جوقات ، تلقى الكلام المراد إلقاؤه ، وكان هؤلاء أحياناً هم الذين ينطقون بالكلام بينما يقصر الممثلون أنفسهم على الحركات المناسبة صامتين ؛ وأما النظارة فقد كانت تجلس على الأرضية المفروشة بالبُسُط ، أو فى مقصورات على الجانبين(٤٧) .

وأشهر الأسماء التى تصادفك فى المسرحية الشعبية فى اليابان هو « شيكاماتسو مُنْزايمون » (١٦٥٣ — ١٧٢٤) الذى يقرنه مواطنوه بشيكسبير وأما النقاد الإنجليز ، فتراهم يمقتون هذه المقارنة ، فيتهمون « شيكاماتسو » بالعنف والإسراف والمبالغة فى قوة اللفظ وبعد حبكاته عن الواقع ، إلا أنهم يعترفون له « بشىء من القوة والفخامة البدائيتين(٤٨) » ، والظاهر أن التشابه تام ، فتلك المسرحيات الأجنبية بالنسبة لنا ، تبدو لنا مجرد مسرحيات غنائية لأنه إما أن يكون معناها أو تكون دقائقها اللغوية خافية علينا ، وقد يكون هذا نفسه هو وقع شيكسبير على رجل لا يستطيع أن يقدر جمال لغته أو يتابعه فى أفكاره ، وربما كان « شيكاماتسو » قد غالى فى جعل العشاق فى مسرحياته ينتحرون على المسرح اليكون انتحارهم بمثابة الذروة التى تعلو إليها حوادث القصة على نحو ما نرى فى رواية « روميو وچوليت » لكن قد يكون له فى ذلك هذا العذر ، وهو أن الانتحار فى الحياة اليابانية أوشك أن يكون من الشيوع بمثل ما كان على المسرح .

إن المؤرخ الأجنبى عن البلاد ، لا يسعه فى هذه الأمور إلا أن يسجل ، لا أن يصدر حكمه ، فالتمثيل اليابانى فى عينى مشاهد عابر يبدو أقل فى درجة الرقى والنضوج من التمثيل الأوربى ، ولكنه أكثر منه قوة ورفعاً لأفئدة

المشاهدين ؛ إن المسرحيات اليابانية قد تكون أكثر تمشياً فى سذاجتها مع سواد الشعب ، لكنها أقل تعرضاً لعوامل الضعف التى تنشأ عن الصبغة العقلية السطحية ، من زميلاتها فى فرنسا وانجلترا وأمريكا اليوم ؛ والعكس صحيح ، وهو أن الشعر اليابانى يبدو لنا خفيفاً ميتاً ، مبالغاً فى رقته الأرستقراطية نحن الذين تعودت أذواقنا المقطوعات الغنائية التى تكاد تبلغ فى طولها طول الملاحم (مثل قصيدة Maud) كما تعودت أذواقنا الملاحم التى يبلغ الملل من قراءتها حداً لا أشك معه فى أن هومر نفسه إذا اضطر أن يقرأ الإلياذة مجتمعة لترنح رأسه من نعاس ؛ وأما القصة اليابانية فالظاهر أنها عاطفية تثير حب التطلع فى نفس القارئ ، ومع ذلك فيخيل إلينا أن آيتين من آيات القصة الإنجليزية — هما قصة « توم چونز » وقصة « أوراق پكوك » — يقابلان تمام التقابل قصتى « جنچى مونوجانارى » و « هيزا كوريج » فى الأدب اليابانى ؛ ويجوز أن تكون « السيدة موراساكى » أنبغ من « فيلدنج » العظيم نفسه فى دقتها ورشاقتها وسعة فهمها ؛ إن كل ما هو بعيد عن أنفسنا غامض علينا ، يكون مملولا سخيفاً بالنسبة لنا ، وستظل الأشياء فى اليابان غامضة علينا حتى نستطيع أن ننسى نسياناً تاماً تراثنا الغربى ، لنتشرب تراث اليابان تشرباً كاملا .

الفصل الخامس

فن الدقائق الصغيرة

تقليد مبدع — الموسيقى والرقص — « إنرو » و « نتسوكى » —
هيدارى چنجارو — لاكيه

جاءت القوالب الخارجية للفن اليابانى من الصين ، مثلها فى ذلك مثل كل ظاهرة بادية من ظواهر الحياة اليابانية ؛ أما القوة والروح الداخليان ، فمثلهما مثل كل ما هو حيوى من أمور اليابان ، فى صدورهما عن الشعب نفسه ؛ نعم إن الموجة الفكرية والهجرة اللتين جاءتا إلى اليابان بالبوذية فى القرن السابع ، قد جاءتاها كذلك من الصين وكوريا بصور الفن وبالدوافع النفسية المرتبطة بتلك العقيدة ، التى ليست آصل فى الصين وكوريا منها فى اليابان ، بل إنه لمن الحق أيضاً أن العناصر الثقافية لم تدخل إلى اليابان من الصين والهند وحدهما ، بل جاءتها كذلك من أشور واليونان — فالملامح التى تراها فى بوذا كاما كورا مثلا أقرب إلى الملامح « اليونانية البكتيرية » منها إلى الملامح اليابانية ؛ لكن هذه الحوافز وإن تكن قد جاءت إلى اليابان من الخارج ، إلا أنها استـُخدمت هناك فى إبداع ما هو جديد ؛ فسرعان ما تعلم شعب اليابان أن يفرق بين الجمال والقبح ؛ وكثيراً ما كان أغنياء تلك البلاد يؤثرون تحف الفن على الأرض أو الذهب(*) ، وكان رجال الفن فيها يعملون بإخلاص لفنهم أنساهم نفوسهم ، وهؤلاء الفنانون ، على الرغم من أنهم كانوا يجتازون

(*) قام قواد الجيش أيام « هيديوشى » بحملات حربية مظفرة ، والظاهر أنهم اكتفوا فى مكافآتهم على ذلك الظفر — أحياناً — لا بالضياع ولا بالمال ، بل بالتحف النادرة من الفخار والخزف(٤٩) .

دوراً طويلا عنيفاً من التدريب الفنى ، قلَّ أن تقاضوا على فنهم أجراً أكثر مما كان يتقاضاه الصناع من أجور ؛ وإن شاءت لهم الأيام مرة أن يجيئهم شىء من ثراء ، راحوا يبددونه فى إسراف مستهتر ، ثم لم يلبثوا بعدئذ أن يعودوا إلى فقرهم الطبيعى الذى ترتاح إليه نفوسهم(٥٠) ، أما من حيث النشاط والذوق والمهارة ، فلم يكن يدانيهم إلا أرباب الفن من أهل مصر القديمة واليونان والصين فى عصورها الوسطى .

إن حياة الشعب نفسها كانت تتخللها علائم الفن — تراها فى نظافة بيوتهم وجمال ملابسهم ، وظرف حليهم ، وإقبالهم إقبالا فطرياً على الغناء والرقص ؛ ذلك لأن الموسيقى — كالحياة — جاءت إلى اليابان من الآلهة نفسها ؛ ألم تُغنِّ « إيزانامى » فى جوقات جمعية عند خلق الأرض ؟ ونقرأ عنهم أن الإمبراطور « إنكيو » عزف على آلة موسيقية بعد ذلك بألف عام ، وقامت الإمبراطورة ترقص لعزفه ، وكان ذلك فى مأدبه إمبراطورية سنة ٤١٩ ، أقيمت احتفالا بافتتاح قصر جديد ؛ ولما مات « إنيكو » أرسل أحد ملوك كوريا ثمانين موسيقاراً ليعزفوا فى جنازته ، فعلم هؤلاء العازفون أهلَ اليابان آلات موسيقية جديدة وأنغاماً جديدة — بعضها من كوريا ، وبعضها من الصين ، وبعض ثالث من الهند — ولما نُصب الـ«دايبوتسو» فى معبد «تودايجى» فى نارا (٧٥٢) عزفت موسيقى الأساتذة من الصين فى احتفال التنصيب ؛ ولا يزال « بيت المال » الإمبراطورى فى نارا يعرض علينا الآلات التى استخدمت فى تلك الأيام السوالف ، وكان الغناء والإلقاء ، وموسيقى القصر وموسيقى الرقص فى الأديرة ، هى الضروب الرفيعة الموقرة من الموسيقى ، أما الأنغام الشعبية فكانوا يعزفونها على آلة يسمونها « بيوا » «أى قيثارة » أو على آلة يطلقون عليها « سامىزانه » و (وهى آلة ذات ثلاثة أوتار)(٥١) ، ولم يكن لليابانيين نوابغ فى التأليف الموسيقى ، ولا كان لهم كتب فى الموسيقى ، وتآليفهم الموسيقية الساذجة

التى كانوا يعزفونها فى خمسة أنغام على السلم الهارمونى الصغير ، لم يكن فيها اتساق فى النغم ، ولا كان عندهم تمييز بين ما هو صغير وما هو كبير من مفاتيح الموسيقى ، ومع ذلك فكل يابانى تقريباً كان يستطيع العزف على آلة من الآلات العشرين التى جاءتهم من القارة الأسيوية ؛ ويقول اليابانيون إن أية واحدة من هذه الآلات لو أتقن العزف عليها ، استطاعت أن ترقص الغبار العالق بسقف المكان(٥٢) والرقص نفسه شاع بينهم « شيوعاً لا نظير له فى أى بلد آخر »(٥٣) — ولم يكونوا يرقصون على سبيل إتمام مقتضيات الغرام بين عشيقين ، بمقدار ما كانوا يرقصون تنسكا فى العبادة أو فى الحفلات الجمعية ؛ فكان يحدث أحياناً أن يخرج أهل قرية بأسرهم ، فى أبهى حللهم ، ليحتفلوا بإحدى المناسبات السعيدة احتفالا راقصاً يشترك فيه الناس جميعاً ؛ وكانت الراقصات المحترفات يجتذبن حشوداً من الجماهير بمهارتهن فى الرقص ؛ وكنت تجد الرجال والنساء على السواء — حتى فى أرفع الطبقات — ينفقون من وقتهم زمناً طويلا فى هذا الفن ؛ فتقول « السيدة موراساكى » فى قصتها عن « جنجى » إنه حين رقص رقصة « موجات البحر الأزرق » مع صديقته « تونو — شوچو » تحركت العواطف فى صدور المشاهدين جميعاً ؟ « فلم يشهد أولئك المشاهدون قط فى حياتهم أقداماً تطأ الأرض بهذه الرشاقة كلها ، ولا شاهدوا رؤوساً قامت على أعناقها بهذا الجلال كله ... كانت هذه الرقصة من عمق التأثير فى النفوس ومن جمـــال الحركات ، بحيث اغرورقت عينا الإمبراطور فى ختامها ، وأجهش الأمراء والسادة كلهم بالبكاء »(٥٤) وقد كان كل من تسعفه ظروفه المالية ، يزين نفسه زينة ، لا يكتفى فيها بالوشى الجميل والدمقس المصور بالرسوم ، بل يضيف إلى ذلك تحفاً رقيقة هى من الخصائص المميزة لليابان القديمة ، بل توشك أن تكون تعريفاً يحدد معناها ؛ فكان النساء ينكمشن ليغازلن الرجال من وراء مرواح فتانة الجمال ، بينما الرجال يسيرون فى خيلاء بما حملوا من سيوف نقشت نقشاً نفيساً ، وما علقوا فى

مناطقهم من صناديق (يسمون الواحد منها « إنْرُو ») تدلت من أوساطهم بخيط سميك ، وكان الصندوق منها يتألف عادة من عيون نقشت فى العاج أو الخشب نقشاً دقيقاً ، يضعون فيها التبغ والنقود وأدوات الكتابة وغير ذلك مما يلزم استعماله أحياناً ، ولكى يمتنع سقوط الخيط منزلقاً تحت المنطقة ، كانوا يربطونه فى الجانب الآخر من المنطقة بوصلة صغيرة يسمونها « نتسوكا » (وهى كلمة مكونة من جزئين : « نى » ومعناها طرف ، و « تسوكا » ومعناها يربط) وكانت تلك الوصلة تعهد إلى فنان يرسم على سطحها المتغضن رسما مسرفاً فى الرقة والنفاسة ، رسما لآلهة أو شياطين أو فلاسفة أو حور أو طيور أو زواحف أو سمك أو حشر أو زهر أو أوراق شجر أو مناظر من حياة الناس ، وها هنا وجدت روح الفكاهة الشيطانية التى يتفوق فيها الفن اليابانى على سائر الفنون تفوقاً فسيحاً ، وجدت متنفساً طليقاً ، وإن يكن متواضعاً ، فلن يتكشف لك ما فى هذه التحف الفنية من لطف بالغ ودلالة كبرى ، إلا بعد فحص دقيق لها ، غير أن لمحة سريعة تنظر بها إلى صورة مصغرة لامرأة بدينة أو كاهن سمين أو قرد خفيف الحركات أو حشرات لطيفة ، مما كانوا ينقشونه على مساحة لا تبلغ بوصة واحدة مكعبة من العاج أو الخشب ، لتكفيك للتأكد مما كان للشعب اليابانى من خصال فنية فذة تنبض بحرارة العاطفة(*) .

وكان أشهر من حفر الخشب من اليابانيين هو « هيدارى چنجارو » (هيدارى معناها مبتور اليد اليسرى) ، فتنبئنا الأساطير كيف فقد ذراعا وكسب اسما ، وذلك أن ظافراً فى القتال طالب مولى « چنجارو » بحياة ابنته ، فنحت « جنجاروا » رأساً مبتوراً يمثل رأس مولاه تمثيلا بلغ من الصدق حداً جعل ذلك الظافر يأمر ببتر الذراع اليسرى لهذا الفنان عقاباً له على قتل

(*) مؤلف هذا الكتاب مدين لتستر « أدولف كروش » فى شيكاغو بالإذن له بفحص مجموعته الجميلة من هذه التحف : « النتسوكا » و « الإنرو » .

ابنة مولاه (٥٥) ؛ « چنجارو » هو الذى نحت بإزميله الفينة والقطة النائمة التى تراها فى ضريح « أبياسو » فى نِيكُو » ، وهو الذى نحت كذلك « باب السفير الإمبراطورى » فى معبد « نيشى — هنجوان » فى كيوتو ؛ وقد قص الفنان على الجانب الداخلى من ذلك الباب قصة الحكم الصينى الذى طهر أذنه مما أصابها من دنس باستماعها لاقتراح عُرض عليه بقبول عرش بلاده ، وكيف تجمع قطيع الماشية فى تجهم ، يقاتل ذلك الحكيم لأنه أصاب ماء النهر بالنجاسة حين أراد تطهير أذنه الدنسة(٥٦) ؛ على أن « چنجارو » لم يكسب شهرته هذه إلا أنه أبرز فنان فى وضوح شخصيته ، من بين طائفة الفنانين الذى ذهب الزمان بأسمائهم ، والذين زينوا ألوف المبانى بالخشب المنقوش أو المدهون نقشاً أو دهناً جميلا ؛ ولقد لقيت شجرة « اللاكيه » فى جزر اليابان منزلة تتناسب مع شغف أولئك الناس بالفنون ، فكانوا يروونها فى عناية عظيمة ؛ وكان رجال الفن أحياناً يكسون نقوشهم التى نحتوها فى الخشب بطبقات من « اللاكيه » وأحياناً أخرى يسرفون فى فرض العناء على أنفسهم بأن يصبوا تمثالا من الطين ، ثم يجعلونه أجوف ، ثم يضعون فى جوفه عدة طبقات من « اللاكيه » كل طبقة تكون أسمك من سابقتها(٥٧) وهكذا رفع الفنان اليابانى مادة الخشب إلى منزلة المرمر ، وملأ الأضرحة والمقابر والقصور بأجمل ما تعرفه فى القارة الأسيوية من الزخارف الخشبية .

الفصل السادس

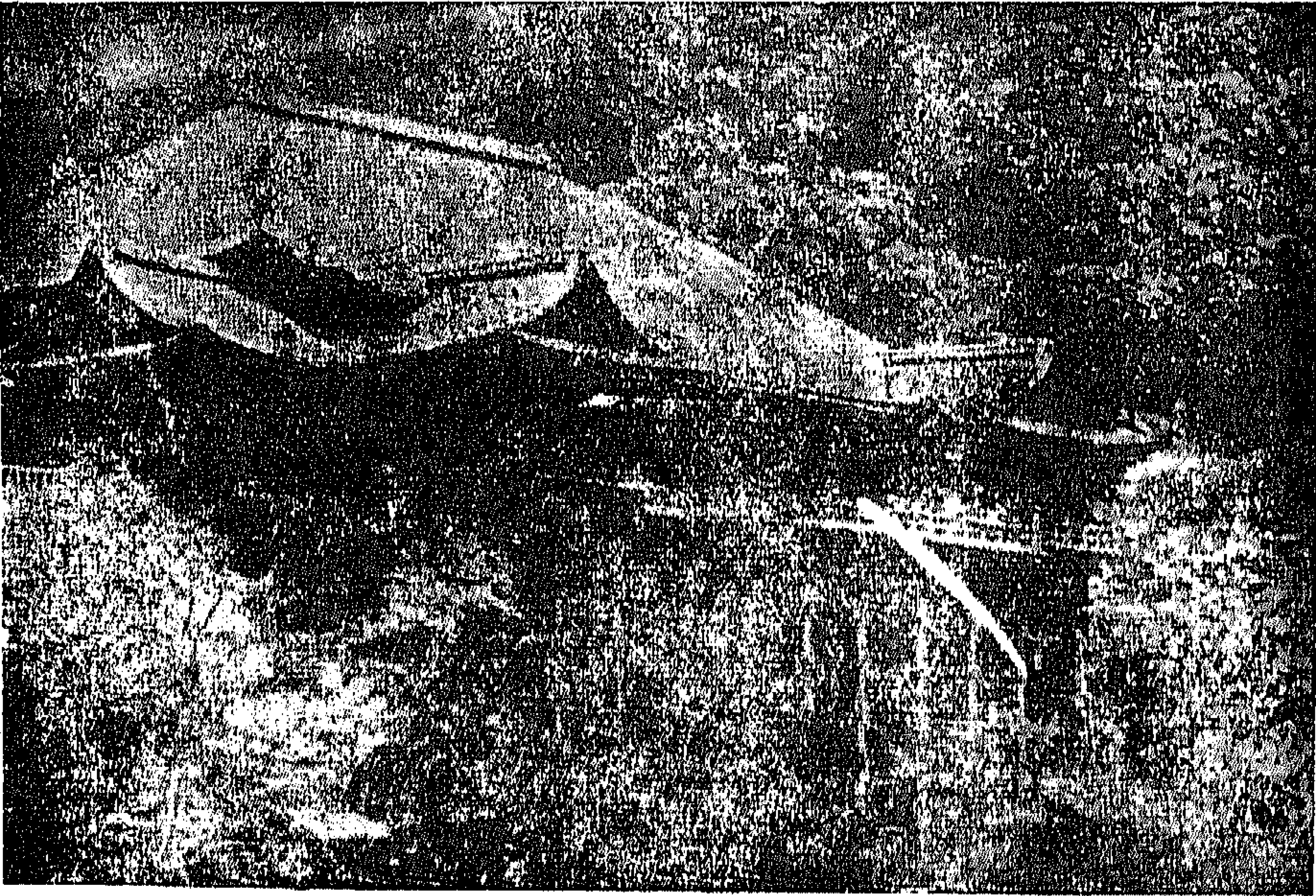
فن العمارة

المعابد – القصور – ضريح – أبياسو – المنازل

وفى عام ٥٩٤ أمرت الإمبراطورة « سويكو » أن تقام المعابد البوذية فى طول البلاد وعرضها ، إما اعتقاداً منها بما فى الدعوة البوذية من حق ، أو التماساً لما عسى أن يترتب عليها من نفع ؛ وعهد بتنفيذ هذا الأمر إلى الأمير « شوتوكو » فاستدعى من كوريا كهنة ومعماريين وناحتى الخشب وصائغى البرونز وصانعى النماذج من الطين وبنائين ومُذَهِّبين وصانعى القرميد ونساجين وغير هؤلاء من مهرة الصناع(٥٨) وقد كان فى استدعاء هذه الحملة الثقافية بداية تقريبية للفن فى اليابان ؛ ذلك لأن « شنتو » لم يكن يرضى عن زخرفة البناء ، ولم يكن يسمح بتشويه صور الآلهة فى تماثيل منحوتة ؛ أما مذ جاءت تلك البعثة الثقافية ، فقد امتلأت أرجاء البلاد بالأضرحة والتماثيل البوذية ؛ وكانت المعابد فى جوهرها شبيهة بمعابد الصين . غير أنها كانت أغنى من معابدالصين زخرفاً وأرق نحتاً ؛ وترى فى معابد اليابان ماتراه فى معابد الصين ، من بوابات فخمة على طول المرتقى أو المدخل الذى يؤدى إلى الحرم المقدس ؛ وتزدان الجدران الخشبية بناصع الألوان ، وترتكز السقوف القرميدية — التى تسطع فى ضوء الشمس — على عمد ضخمة ، ويفصل الضريح الأوسط من الأشجار المحيطة به أبنية صغرى كسلسلة من الأبراج مثلا أو معبد من الطراز المعروف باسم « باجودا » وأعظم ما أبدعه أولئك الفنانون الأجانب هو مجموعة المعابد التى فى « هوريوجى » والتى أشرف على بنائها الأمير « شوتوكو » ، وهى قائمة على مقربة من « نارا » وتم بناؤها عام ٦١٦ ؛

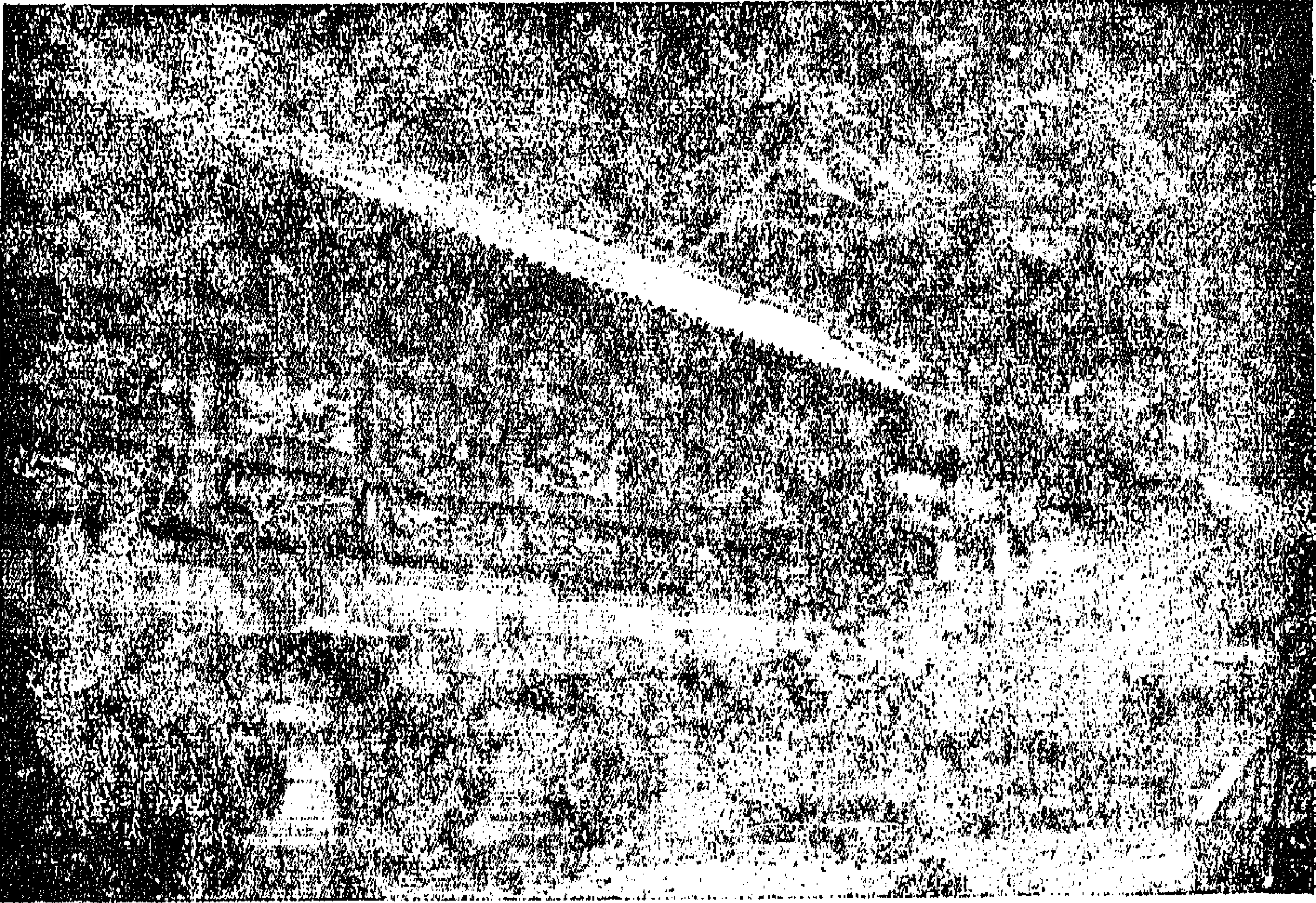
وإنه لما يذكر حسنة من حسنات الخشب باعتباره أدوم مواد البناء بقاء ، أن أحد هذه الأبنية الخشبية قد ظل قائماً رغم ما تعاوره من زلازل لا تحصى عدداً فكان أطول عمراً من مائة ألف معبد من المعابد التى شيدت بالحجر ، وكذلك مما يذكر على سبيل الفخر للبنائين الذين أقاموا تلك المعابد أن اليابان لم تشهد فيما بعد بناء واحداً يفوق هذا الضريح العريق فى القدم من حيث جلال البساطة ، وربما كانت المعابد المقامة فى « نارا » نفسها موازية فى جمالها لهذا الضريح ، وهى أحدث منه بقليل ، وخصوصاً « القاعة الذهبية » التى فى معبد « توديجى » والتى بلغ التناسب فى أجزائها حد الكمال . . ويقول « رالف آدمز كرام » إن « نارا » تحتوى على أنفس آيات الفن المعمارى فى آسيا »(٥٩) .

وبلغت العمارة فى اليابان أوجها الثانى فى عهد حكومة « أشيكاجا » العسكرية ، فقد صمم « يوشيمتسو » أن يجعل من كيوتو أجمل عاصمة على وجه



معبد كيوميزو

الأرض ، فشيد للآلهة معبداً من طراز « يا جودا » بلغ ارتفاعه ٣٦٠ قدماً ، وشيد لأمه « قصر التاكاكورا » الذى بلغت تكاليف باب واحد من أبوابه عشرين ألف قطعة من الذهب (ما يساوى مائة وخمسين ألف ريال) ثم شيد لنفسه « قصر الزهرة » الذى بلغت تكاليفه ما يساوى خمسة ملايين من الريالات ، وكذلك أقام لمجد الشعب كله « البهو الذهبى » فى « كنكا كوجى »(٦٠) ، وأراد « هيديوشى » أيضاً أن ينافس « قبلاخان » فبنى فى « مرمويااما » قصر النعيم ولم يكد يمضى على بنائه بضع سنين ، حتى شاءت أهواؤه المتقلبة أن يهدمه ، ونستطيع أن نحكم بما كان لذلك القصر من فخامة ، من « بوابة اليوم كله » التى أخذت منه ليزينوا بها معبد « نيشى بنجوا » وإنما أطلق على البوابة هذا الاسم لأن المعجبين بها يقولون إنك قد تظل يوماً كاملا تدقق النظر فى نقشها دون أن تأتى على كل ما فيها من روعة ، وكان « كانوپيتوكو»



بوابة « يو — مى — مون »

لـ « هيديوشى » بمثابة « استينوس » أو « فيدياس » ، لكنه زخرف له مبانيه بما هو أقرب إلى فخامة البندقية منه إلى الاعتدال اليونانى ، فما شهدت اليابان قط ، بل ما شهدت آسيا قط قبل ذاك مثل هذا الزخرف الفاخر ، وكذلك حدث فى عهد « هيديوشى » أن بدئ فى « حصن أوساكا » المتجهم ، حتى تشكلت صورة البناء ، وأريد بذلك الحصن أن يشرف على موقع هو فى اليابان بمثابة « بتسبرج » ، وأن يكون مقبرة لولده .

وأما أيياسو ، فقد كان أميل إلى الفلسفة والأدب منه إلى الفنون ، لكن حفيده « أيبمتسو » — الذى اكتفى بكوخ من الخشب يتخذ منه قصراً لنفســه — راح ينفق بسخاء من ثروة اليابان وفنها ، ليبنى حول رفات « أيياسو » فى « نكو » أجمل بناء تذكارى شيد من أجل فرد واحد فى أرجاء الشرق الأقصى ، فى هذه البقعة التى تبعد عن طوكيو تسعين ميلا ، وعلى قمة تل هادئ تبلغها بطريق مظلل مزدان بالقباب الفخمة ، فى هذه البقعة بنى مهندسو العمارة الذين استخدمهم الحاكم العسكرى ، سلسلة من المداخل الفسيحة المدرجة ، بنوا تلك المداخل بادئ ذى بدء ، ثم عقبوا عليها ببوابة مزخرفة لكنها رائعة ، وهى المعروفة باسم « يو — مى — مون » ، ثم أقاموا على مجرى مائى جسراً مقدساً حرام لمسه ، ثم سلسلة من المقابر والمعابد أقاموها بالخشب المبطن « باللاكيه » وهى تمتاز بجمال الأنوثة وضعفها ، فالنقوش فاخرة إلى حد الإسراف والبناء نفسه ضعيف ، وترى لون الطلاء الأحمر فاقعاً حولك حيثما أدرت البصر ، كأنه مسحوق الزينة الأحمر على شفاه امرأة بالغت فيه ، تراه فاقعاً وسط أخضر الأشجار الباهتة ، ومع ذلك فلنا أن نقول إن بلداً يزدهر بالازهار كل ربيع ، قد يكون أحوج إلى ألوان ساطعة للتعبير عن مشاعره ، من بلد أقل اضطراماً فى عاطفته يقنعه ويرضيه ما هو أقل من ذلك سطوعاً .

وليس فى وسعنا أن نقول إن هذه العمارة جبارة ، لأن شيطان الزلازل قد



قردة « نكوكو »

شاء لليابان أن تبنى على نطاق متواضع وألا تركم الحجارة بعضها فوق بعض حتى تعلو إلى السماء ، بحيث تتقوض حطاماً حين تعبس الإرض عبوساً يغضن جلدها ؛ ومن ثم تراهم يبنون بيوتهم من الخشب ، وندر أن يرتفع البيت عن طابق واحد أو طابقين ؛ ولم يجعل أهل المدن سقوفهم من القرميد — إذا استطاعوا إلى نفقاته سبيلا — إلا بعد أن عانوا من الحرائق المتكررة ، وبعد أن أمرت الحكومة بذلك أمراً جعلت تتشدد فى تنفيذه ، عندئذ فقط اضطر أهل المدن أن يغطوا بالقرميد أكواخهم أو قصورهم الخشبية

ولما تعذر على أبناء العلية أن يشمخوا بقصورهم إلى السحاب ، راحوا ينشرونها على أرض فسيحة ، على الرغم من الأمر الإمبراطورى الذى يحدد مساحة الدار الواحدة بمائتين وأربعين ياردة مربعة ؛ ويندر أن يكون القصر بناء واحداً ، بل كان القصر فى العادة يتألف من بناء رئيسى متصل بوساطة مماش مسقوفة بأبنية فرعية تعد لمختلف فروع الأسرة ؛ ولم يكن من عاداتهم أن يخصصوا غرفة للطعام وغرفة للجلوس وغرفة للنوم ، فالغرفة الواحدة تستخدم لكل الأغراض ؛ فإذا شاءوا طعاماً فما هى إلا لحظة واحدة حتى ترى المائدة قد مدت على أرضية الغرفة المغطاة بالحصير ، وإن أرادوا نوماً ، فما عليهم إلا أن يمدوا فراش النوم المطوية ، فيخرجوها من مخبئها وينشروها على الأرض مدة الليل ؛ والجدران قوامها أجزاء تتداخل ، أو تزال من مواضعها ، وبذلك يمكنهم فصل الحجرات بعضها عن بعض أو فتحها بعضها على بعض ، بل إن الحائط الخارجى نفسه — بما فيه من شبابيك ونوافذ ، يمكن طيه بسهولة ليمكنوا الأشعة الشمس من الدخول كاملة ، ولنسيم المساء البارد من التغلغل فى ديارها ؛ وهم يضمون فى منازلهم أستاراً جميلة من فلقات الخيرزان ، فتكسبهم تلك الأستار ظلا وستراً فى آن معاً ؛ والنوافذ هناك من علامات الترف ، إذ ترى بيوت الفقراء ذات فتحات كثيرة تُترك على حالها فى الصيف ليدخل الضوء ، حتى إذا ما جاء الشتاء سدوها بصنف من الورق

المشمع ليتقوا برد الشتاء ، إن نظرة إلى فن العمارة فى اليابان تدلك على أن تلك العمارة ولدت فى بلاد حارة ، ثم نقلت فى غير حذر إلى جزائر تمتد بأعناقها شمالا حتى تصل إلى كامشتكا التى ترتعش من شدة البرد وهــذه المنازل البسيطة الرقيقة إذا ما شهدتها فى المدن الجنوبية ألفيت لها أسلوباً معمارياً . وجمالا خاصاً يميزها ، وهى هناك مساكن ملائمة لشعب كان يوماً من أبناء الشمس الذين تملؤهم نشوة المرح .

الفصل السابع

المعادن والتماثيل

السيوف — المرايا — ثالوث هوريوجى — التماثيل الكبيرة — الدين والنحت

كان سيف الرجل من طائفة « السيافين » أصلب عوداً من مسكنه ؛ لأن صناع المعادن فى اليابان بذلوا جهدهم كله فى صناعة أسياف تفوق أسياف دمشق وطليطلة(٦١) فقد كانوا يصنعونها من المضاء بحيث تكفى ضربة واحدة منها لشق الرجل من كتفه إلى فخذه ؛ وكذلك كانوا يزخرفونها بالمقابض والمدلّيات التى يسرفون فى تزيينها ، أو فى ترصيعها بالجواهر ، إسرافاً لم يجعلها دائماً صالحة للنقل ؛ ومن صناع المعادن من كانوا يختصون بصناعة المرايا من



الهالة البرونزية فى « أميدا » بمدينة « هوريوجى »

البرونز ، يصقلونها صقلا أثار خيال أصحاب الأساطير بحيث راحوا يروون أساطيرهم إعجاباً بما بلغته تلك المرايا من كمال ؛ من ذلك مثلا أن فلاحاً اشترى مرآة لأول مرة ، ونظر إليها فظن أنه يرى فيها وجه أبيه الميت ، فأخفاها على أنها كنز ثمين ؛ لكنه كان يتسلل إليها فارتابت زوجته فى أمره ، وأخرجت المرآة يوماً من مكمنها ، فما كان أشد فزعها حين رأت امرأة فى مثل سنها ، ورجحت أن تكون تلك المرأة خليلة زوجها(٦٢) ، ومن هؤلاء الصناع من افتنَّ فى صناعة الأجراس الضخمة ، مثل ذلك الجرس العظيم فى نارا (٧٣٢ ميلادية) الذى تبلغ زنته تسعة وأربعين طناً ، وكانوا يستخرجون من تلك الأجراس أنغامها الحلوة — أحلى من الأصوات التى تنبعث من مصفقاتنا المعدنية فى الغرب — بطرقها بلسان من خارجها ، يهزونه بوساطة عمود خشبى متأرجح .



« تمثال أميدا — بوذا » فى هوريوجى

وكان النحاتون أميل إلى استخدام الخشب أو المعدن منهم إلى استخدام الحجر ، لفقر بلادهم فى الجرانيت والمرمر ؛ ومع ذلك ، فعلى الرغم من صعوبات المادة كلها ؛ استطاعوا أن يفوقوا معلميهم من أهل الصين وكوريا ، فى هذا الفن الذى هو أوضح فن فى تحديد معالمه — فسائر الفنون كلها تحاول فى خفاء أن تحاكى ما يفعله النحات صابراً حين يزيل ما لا يجوز بقاؤه من مادته ، وأقدم آية فى فن النحت اليابانى تقريباً وربما كانت كذلك أعظم آيات اليابان فى ذلك الفن — هى « ثالوث هوريوجى » البرونزى —

وقوامه بوذا جالساً على برعم من براعم اللوتس بين بوذيْن منتظرَيْن ، أمام ستار وهالة من البرونز ، لا يفوقهما جمالا إلا الوشى الحجرى الذى نراه على ستار « أورنجزيب » فى « تاج محل » ؛ ولسنا ندرى من ذا أبدعت يداه هذه المعابد فأقامها ، وتلك التماثيل فنحتها ؛ ولنا أن نقول إنها من إرشاد معلمين كوريين ، أو أنها اقتفت نماذج من الصين ؛ أو أنها تعزى إلى حوافز من الهند ، بل لنا أن نقول إنها متأثرة بمؤثرات يونانية جاءتها من أيونيا البعيدة عبر ألف من السنين ؛ لكن الذى لا نشك فيه هو أن هذا الثالوث آية من أبدع آيات الفن فى تاريخه كله(*) .

ويجوز أن يكون قصر قامة اليابانيين ، بحيث توشك أجسامهم أن تنوء بحمل مطامحهم وقدراتهم الروحية ، هو الذى جعلهم يلتمسون المتعة فى إقامة التماثيل الضخمة ؛ وقد وفقوا فى هذا الفن المحفوف بمواضع الزلل ، أكثر مما وفق المصريون أنفسهم ؛ فلما فشا الجدرى فى اليابان سنة ٧٤٧ ، كلف الإمبراطور « شومو » « كيمیارو » أن يصوغ تمثالا ضخماً لبوذا استرضاء للآلهة ؛ فاستخدم « كيمیارو » لهذه الغاية أربعمائة وسبعة وثلاثين طناً من البرونز ، ومائتين وثمانية وثمانين رطلا من الذهب ، ومائة وخمسة وستين رطلا من الزئبق ، وسبعة أطنان من الشمع النباتى ، وعدة أطنان من الفحم ؛ وقد تطلب هذا العمل عامين ، واقتضى سبع محاولات ؛ فصب الرأس فى قالب واحد ، أما البدن فكان مؤلفاً من رقائق معدنية كثيرة لصق بعضها ببعض ،

(*) قد يكون لـ « شوتوكا تايشى » العظيم ، الذى كان من رجال السياسة والفن على السواء ، صلة بهذا الأثر الفنى الجليل . لأننا نعلم أنه أمسك بالأزميل ونحت تماثيل كثيرة من الخشب(٦٣) ؛ كذلك كان « كوبو دايشى » (حوالى ٨٢٦) نحاتاً ومصوراً معاً ، وعالماً وقديساً فى آن واحد ؛ ولقد صوره لنا « هوكوساى » ممسكا بخمس فراجين دفعة واحدة ، اثنين بيديه واثنين بقدميه وخاصة بفمه (٦٤) لكى يدلنا بذلك على تنوع براعته ؛ ورسم « أونكى » (١١٨٠ — ١٢٢٠) تماثيل نصفية دقيقة التعبير عن شخصياتها ، رسمها لنفسه ولكثير من الكهنة ، ونحت أشكالا جميلة مفزعة ليوم الحساب فى الجحيم ، ولهؤلاء الآلهة الغضاب الذين كان عليهم أن يطردوا بوجوههم القبيحة كل الأرواح الشريرة ، ولقد تعاون معه أبوه « كوكى » وابنه « جوكى » وتلميذه « چوكاكو » لإعلاء اليابان فى فن النحت فى الخشب .



تمثال لبوذا فى اليابان

ثم غطيت بغشاء سميك من الذهب ؛ وإن الأجنبي عن اليابان ليعجب لتمثال بوذا « وايبوستو » القائم فى « كاماكورا » ، أكثر مما يعجب لذلك التمثال الكئيب العابس فى « نارا » وتمثال « وايبوستو » هذا مصبوب من البرونز تم صنعه سنة ١٢٥٢ على يدى « أونو جريئمون » ولعل ما يجعل حجم هذا التمثال مناسباً للغاية منه ، كونه جالساً على مرتفع فى الفضاء المكشوف ، محوطاً بمنظر جميل من الشجر ، فضلا عن أن الفنان هنا قد عبر ببساطة تدعو إلى العجب ، عن روح بوذا فى تأمله وسكينته ؛ وكان هذا التمثال بادئ الأمر قائماً فى معبد — كما هى الحال اليوم فى التمثال القائم فى « نارا » — لكن حدث فى سنة ١٤٩٥ أن اجتاحت المكان موجة من البحر ، فاكتسحت المعبد والمدينة جميعاً ، تاركة فيلسوفنا البرونزى هادئاً وسط هذا الخراب الشامل ، وما ملأ الأرض حوله من عـــذاب وموت ، كذلك شيد « هيديوشى » تمثالا ضخماً فى كيوتو ، ولبث خمسون ألف رجل يعملون مدى خمسة أعوام فى إقامة هذا التمثال لبوذا ؛ بل كان الحاكم العظيم نفسه يتلفع أحياناً بثوب عامل بسيط ، ويعاون العاملين فى إقامة التمثال معاونة كبرى ؛ لكنه لم يكد يتم بناؤه ، حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ فألقت به على الأرض هشيما ، ونثرت حطام جزئه الداخلى الذى كان مفروضاً أن يكون حرماً وموئلا ، نثرتها حول رأسه ؛ ويروى فى اليابان أن « هيديوشى » رمى الصنم المحطم بسهم قائلا فى ازدراء : « لقد أقمتك هاهنا بباهظ النفقات ، فلم تستطع حتى حماية معبدك »[٦٥] .

فى هذا المدى الذى يتفاوت فيه الحجم : من أمثال هذه التماثيل الضخمة إلى المدليات (النتسوكا) الصغيرة ، تناول النحت اليابانى كل ضروب الأشكال فى شتى ضروب الأحجام : فأحياناً ترى سادة هذا الفن — مثل « تاكامور » فى يومنا هذا — ينفقون أعواماً من العمل المتصل فى صناعة تماثيل لا تكاد

تبلغ قدماً واحدة فى طولها ؛ وكان يمتعهم أن يصوروا بماثيلهم تلك كهولا فى الثمانين التوت أبدانهم ؛ أو شرهين يمرحون فى الشره ، أو كهنة متفلسفين ؛



تمثال بوذا العظيم فى كاما كورا

وإنه لمن الخير أن يرى روح الفكاهة فى عملهم قد شجعتهم على المضى فى فنهم ، لأن معظم الكسب الذى كانت تدره صناعتهم ، كان يستولى عليه مستخدموهم الدهاة ؛ وكانوا فى تماثيلهم الكبيرة مقيدين بتقاليد خاصة بموضوع التمثال ،

أو بطريقة أدائه ، مما يفرضه عليهم الكهنة ؛ فالكهنة إنما أرادوا من هؤلاء النحاتين أن يصوروا لهم آلهة لا نساء فاجرات ، أرادوا أن يوحوا إلى الناس بالتقوى ، أو أن يحيطوا فضائلهم بعوامل الخوف لا أن يستثيروا فى الناس إحساسهم بالغبطة والجمال ، ولما كان النحاتون مرتبطين يداً وروحاً بالدين فقد تدهور فن النحت حين بردت حرارة الإيمان وذهبت قوته ؛ وكما حدث فى مصر من قبل ، رأينا أنه لما غاض معين التقوى ، بقيت صلابة التقاليد فى الفن دليلا على برودة الموت .

الفصل الثامن

الخزف

الدافع من الصين . خزافو هيزن - الخزف والشاى - كيف استحضر « جوتو سايجيرو » فن الخزف الرقيق من هيزن إلى كاجا - القرن التاسع عشر

إنه ليس من العدل التام بالنسبة إلى اليابان ، أن نتحدث عن استجلابها لمدنيتها من كوريا والصين ، إلا بالمعنى الذى نقصده من مثل هذا الكلام حين نقول عن شمالى غربى أوربا إنه أخذ مدنيته عن اليونان وروما ؛ هذا إلى أنه يجوز لنا أن نعد شعوب الشرق الأقصى كلها وحدة بشرية وثقافية ، وكل جزء من أجزاء هذه الوحدة - شأنها فى ذلك شأن أقاليم القطر الواحد - قد أنتج فنه وثقافته فى مكانه الخاص وزمانه الخاص ، بحيث جاءت تلك الثقافة وذلك الفن يشبهان ويعتمدان على ما أنتجته بقية الأجزاء من ثقافة وفن ؛ وعلى هذا نرى الخزف اليابانى جزءاً من الفن الخزفى فى الشرق الأقصى ، ووجهاً من وجوهه ؛ وهو فى أساسه شبيه بالخزف الصينى ، إلا أنه مطبوع بطابع يميزه من الرقة والرشاقة اللتين تميزان الفن اليابانى كله ؛ وقد كان الخزف اليابانى - حتى قدوم الصناع الكوريين فى القرن السابع - مجرد صناعة خالية من لمسة الفن ، أعنى أنه كان لا يعدو أن تصب المادة صباً على نحو غليظ لتكون آنية للاستعمال اليومى ؛ والأرجح أنه لم يكن فى الشرق الأقصى قبل القرن الثامن خزف مصقول ، وأكثر من هذا ترجيحاً أنه لم يكن به نوع الخزف المسمى « بورسلان »(٦٦) ثم أصبحت الصناعة فناً ، وكان أكبر العوامل على هذا التطور دخول الشاى فى القرن الثالث عشر ؛ فقد صحب الشاى عند دخوله البلاد أقداح صينية لشربه من طراز « صنج » فأثارت الإعجاب عند أهل اليابان ؛ حتى غامر خزاف يابانى سنة ١٢٢٣ ، وهو « كاتوشيروزيمون »

د افر إلى الصين ، ودرس هناك فن الخزف مدى ستة أعوام ، وعاد بعدها ليقيم مصنعاً له فى سيتو ، وتفوق بضاعته على كل ما سبقه فى بلاده من هذه الصناعة ، حتى أصبحت « منتجات سيتو » علماً على كل صناعة خزفية فى اليابان كلها ، وذلك شبيه بما حدث فى اللغة الإنجليزية فى القرن السابع عشر ، حين أطلقت كلمة « منتجات صينية » على الخزف البورسلانى ، وقد كتب الحاكم العسكرى « بوريتومو » الثراء لذلك الخزاف « شيروزيمون » حين ابتدع بدعاً جديداً ، وهو أن يكافئ الخدمات الصغرى بهدايا من أباريق الشاى التى « صنعها شيروزيمون » هذا بعد أن يملأها بهذه الأعجوبة الجديدة ، وهى مسحوق الشاى ، وما بقى لنا اليوم من آثار هذه المنتجات — ويطلق عليها اسم « توشيرو — ياكى »(*) — يكاد يغلو عن أى ثمن مهما علا ، وترى تلك الآثار باقية ملفوفة فى الحرير الموشى الثمين ، ومصونة فى صناديق من خشب « اللاكيه » الجميل ، وإذا حدثك محدث عن أصحابها ، حدثك عنهم بأنفاس متقطعة على أنهم سادة خبراء الفن(٦٧) .

وبعد ذلك بثلاثمائة عام ، أغرت الصين يابانياً آخر بالرحلة إليها ، وهو « شونزوِى » ليدرس مخازفها المشهورة ، ولما عاد إلى بلاده ، أنشأ مصنعاً فى « أريتا » فى إقليم « هيزن » ، وكان مما قام فى وجهه من صعاب ، أنه لم يجد فى تربة بلاده المواد المعدنية التى تعين على صناعة الخزف الرقيق ، كالتى توجد فى تربة الصين ؛ وقد قيل عن منتجاته إن عنصراً من أهم عناصرها مستمد من عظام صُنّاعه ، ومهما يكن من أمر ، فمنتجات « شونزوِى » ذات اللون الأزرق الإسلامى (كذا ؟) قد بلغت من الروعة حداً أغرى خزافى الصين فى القرن الثامن عشر أن يبذلوا وسعهم فى تقليدها وتصديرها مُزَوَّدة باسمه ، والعينات الباقية من صناعته ، تقدر اليوم بما يقدر به أندر الصور

(*) « توشيرو » اسم آخر كان يطلق على « شيرزيمون » و « ياكى » معناها منتجات .

الفنية التى رسمتها ريشة الصفوة من أعلام الفن فى اليابان(٦٨) ، وحدث حوالى سنة ١٩٠٥ ، أن كشف رجل من كوريا — هو « ريزامپى » — فى « إزومى — ياما » الواقعة فى إقليم « أريتا » عن رواسب غريزة من حجر البورسلان ، فأصبحت « هيزن » منذ ذلك الحين مركزاً لصناعة الخزف فى اليابان ، وكذلك كان « كاكيمون » المشهورة ممن قاموا بهذه الصناعة فى « أريتا » إذ تعلم فن الطلاء بالميناء من ربان سفينة صينية ، وبعدئذ احترف هذه الصناعة حتى كاد اسمه يصبح كلمة معناها البورسلان الذى طلى بالميناء طلاء رقيق الزخارف ، وراح التجار الهولنديون يرسلون إلى أوربا مقادير هائلة من مصنوعات هيزن ، كانوا يعبئونها فى السفن من ميناء « أريتا » عند « عمارى » ، فأرسلوا من ذلك ٩٤٣ر٤٤ قطعة إلى هولندا وحدها عام ١٦٦٤ ، فأثارت « المنتجات العمارية » الباهرة هزة فى أوروبا ، وأوحت إلى « إيبرجت دى قيصر » أن يفتتح عهداً ذهبياً من صناعة الخزف الهولندية بمصانعه فى « دلفت » .

هذا إلى أن ظهور الاحتفال بشرب الشاى ، قد حفز على تطور جديد فى اليابان ، وذلك أنه فى عام ١٥٧٨ كلّف « نوبوجانا » — بإشارة من « ركيُو » سيد الشاى — أسرة كورية من المشتغلين بصناعة الخزف فى كيوتو ، أن تصنع له مقداراً كبيراً من أقداح الشاى وغيرها من الأدوات المستعملة فى عمله وشربه ، ومضت أعوام قلائل بعد ذلك ، ثم أهدى « هيديوشى » تلك الأسرة خاتماً ذهبياً وجعل مصنوعاتها وتعرف باسم « راكو — ياكى » شرطاً يكاد يكون لازماً لتمام الاحتفال بشرب الشاى ، وعاد قادة جيش هيديوشى من حملتهم الفاشلة على كوريا ، عادوا ومعهم عدد كبير من الأسرى ، كان بينهم كثير من رجال الفن ، اختيروا قصداً ، وهو اختيار لا نألفه فى رجال الحروب ، وفى سنة ١٥٩٦ أحضر « شيمازويو شيهيرو » إلى « ساتسوما » مائة من مهرة الكوريين ، بينهم سبعة عشر خزّافاً ، فكان لهؤلاء الرجال وأخلافهم الفضلُ

فى نشر سمعة « ساتسوما » فى أرجاء العالم كله مقرونة بتلك المصنوعات الخزفية المصقولة الزاهرة الألوان ، والتى نطلق عليها اليوم اسم مدينة إيطالية ، إذ نسميها « فاينس » وكان علم أعلام هذا الفرع من فن الخزف هو خزف كيوتو ، واسمه « نينسى » ، ولم يكتف هذا الرجل بابتكاره لطلى خزف « فاينس » بالميناء ، بل أضاف إلى ذلك رشاقة فى مصنوعاته واعتدالا سليم الذوق يعلو بقيمتها ، مما جعلها نفيسة فى أعين هواة هذا الفن منذ ذلك اليوم ، حتى إن اسمه ليزور أكثر مما يزور أى اسم آخر من رجال الفن فى اليابان(٦٩) ، وقد كان من أثر صناعته ، أن أقبل الناس على خزف « فاينس » المزخرف ، إقبالا بلغ فى العاصمة حد الجنون ، وفى بعض الأحياء فى كيوتو كنت ترى منزلا من كل منزلين قد انقلب تحفة خزفية(٧٠) وهناك خزاف آخر ، لا يفوقه شهرة إلا « نينسى » ، وهو « كينزان » الذى كان شقيقاً أكبر للمصور « كورين » :

وهنالك قصة تروى عن كيفية إحضار « جوتوسايچيرو » لفن البورسلان من « هيزن » إلى « كاجا » ، ومن تلك القصة تتبين طرفاً من أعاجيب الخيال التى كثيراً ما نراها كامنة وراء فن الخزف فى نشأته وتطوره ، وذلك أن طبقة من رواسب الحجر الخزفى الجميل قد استكشفت قريباً من قرية « كوتانى » ، فصمم الحاكم الإقطاعى فى ذلك الإقليم على إنشاء صناعة البورسلان فى إقليمه ، وأرسل جوتو إلى هيزن لدراسة طرائق صناعته فى الأفران وزخرفته بالرسوم ، لكن جوتو لم يجد طريقه ميسراً إذ وجد القائمين على صناعة الخزف يكتمون أسرار صناعتهم كتماناً شديداً ، وأخيراً تنكر خادماً ، وقبل عملا وضيعاً فى منزل خزاف وبعد أن قضى فى خدمته ثلاثة أعوام ، أذن له سيده بالدخول فى مصنع الخزف ، وهناك لبث جوتو يعمل أربعة أعوام أخرى ؛ وبعدئذ هجر الزوجة التى كان تزوج بها فى هيزن والأطفال الذين أنجبتهم له تلك الزوجة ، وفر إلى كاجا ، حيث أحاط مولاه علماً كاملا بالطرائق التى تعلمها ، ومنذ ذلك الحين (١٦٦٤) أصبح خزافو « كوتانى » أعلاماً فى هذا

الفن ، وباتت «كوتانى» — ياكا » (أى مصنوعات كوتانى) تنافس خيرة منتجات اليابان فى هذا الباب[٧١] .

واحتفظت مصانع « هيزن » لمنتجات الخزف بزعامتها إبان القرن الثامن عشر كله ؛ وكان ذلك يرجع إلى حد كبير إلى العناية الكريمة التى أولاها الحاكم الإقطاعى « هيرادو » عمال مصانعه ، ولبثت مصنوعات الخزف الأزرق المسماة « منشاواكى » والتى كانت تنتمى لـ « هيرادو » ، لبثت قرناً كاملا (١٧٥٠ — ١٨٤٣) فى طليعة البورسلان اليابانى ، ثم نقل « زنجورو هوزن » الزعامة فى القرن التاسع عشر إلى كيوتو ، بتقليد بارع لمصنوعات « منشاواكى » ، كثيراً ما بز فيه النموذج المحتذى ، بحيث كان يستحيل أحياناً أن تفرق بين الأصل والتقليد ، وفى الربع الأخير من ذلك القرن ، هذبت اليابان من صناعة الطلى بالميناء ، فطورتها من الحالة البدائية التى كانت عليها منذ قدومها من الصين وتزعمت العالم كله فى هذا الميدان من ميادين الصناعة الخزفية[٧٢] وتدهورت فروع أخرى من تلك الصناعة فى الفترة عينها ، لأن ازدياد الطلب فى أوروبا للخزف اليابانى ، أدى إلى نمط فيه إسراف فى الزخرف ، لا يسيغه الذوق اليابانى فكان من أثر هذا الطلب للخزف اليابانى من خارج البلاد ، أثر فى تعويد العمال عادات جديدة فى صناعتهم تأثرت بها مهارتهم ، وضعفت تقاليد ذلك الفن ، وجاءت الصناعة الآلية فكانت هاهنا — كما كانت فى كل مكان آخر — وبالا ؛ فحل الإنتاج الكبير محل الجودة ، كما حل الاستهلاك الكبير محل الذوق الذى يميز الطيب من الخبيث ، ومن يدرى ؟ فلعله بعد أن يفرغ الاختراع الآلى فى الصناعة من شوطه الخصيب ، وبعد أن تنتشر فى الناس نعمة الفراغ وطريقة استعماله استعمالا فيه خلق وإبداع ، بفضل ما يطرأ على المجتمع من تنظيم وخبرة ، ستتحول هذه النقمه إلى نعمة ، بحيث تنشر الصناعة فى أكثرية الناس ألوان الترف ، فقد يعود العامل فيصبح فناناً كما كان — بعد أن يستكمل ساعات عمله القليلة أمام الآلة — وقد يحول الإنتاج الآلى إلى عمل يعبر فيه عن شخصيته وفنه إذا ما أحبه حباً صادراً من صميم نفسه وفرديته .

الفصل التاسع

التصوير

مشكلات الموضوع . الطريقة والمادة – القوالب الفنية والمثل العليا – الأصول الكورية والوحى البوذى – مدرسة توسا . العودة إلى الصين – سشيو – مدرسة كانو – كوينسو – وكورين – المدرسة الواقعية

لئن كانت سائر الموضوعات التى مسسناها بالحديث على هذه الصفحات مما لا ينبغى فيه الحديث لغير المتخصصين ، فذلك أصدق بالنسبة للتصوير اليابانى ؛ وإذا نحن اشتملناه هاهنا بكلامنا جنباً إلى جنب مع غيره من الموضوعات التى تمس خبايا النفس ، حيث تخشى الملائكة أن تدوس بأقدامها فى غير احتفال ، فإنما نشتمله بالكلام آملين أن يستطيع القارئ خلال هذه الغلالة التى نقدمها له من نسيج الأخطاء ، أن يلمح قبساً يهديه إلى لب الحضارة اليابانية فى تمام خصائصها وجودة عنصرها ، فآيات التصوير اليابانى نتاج فترة من الزمن طولها ألف ومائتا عام ، تتقسمها كثرة متشابكة الخيوط من مختلف المدارس ؛ وقد طرأ على تلك الآيات الفساد أو الضياع على مر الزمن وتكاد كلها تكون خبيئة بين المجموعات الخاصة فى اليابان(*) .

وأما الآيات القليلة المعروضة لأعين الباحثين من الأجانب ، فمختلفة فى قالبها وطريقتها وأسلوبها ومادتها ، عن الصور الغربية اختلافاً يستحيل معه إصدار حكم سليم عليها من عقل غربى .

فالصور اليابانية – قبل كل شىء تشبه نماذجها فى الصـين من حيث

(*) أظن أن خير مجموعات « مدرسة كانو » – وهى مجموعة مستر بيبو فى طوكيو ، قد أصابها زلزال سنة ١٩٢٣ بما يقرب من التلف الكامل . (١٠ ج – ٥ – مجلد ١)

إنها رُسمت أول ما رسمت بنفس الفرجون الذى كان يستخدم للكتابة ؛ والكلمة التى معناها كتابة ، والأخرى التى معناها تصوير ، هما فى الأصل كلمة واحدة — كما هى الحال أيضاً عند اليونان ، فالتصوير كان عبارة عن فن خطى ؛ وهذه الحقيقة الأساسية قد تفرع عنها نصف خصائص التصوير فى الشرق الأقصى ، بادئاً من المادة المستعملة فى التصوير ، ومنتهياً إلى إخضاع اللون للتخطيط ، فالمواد المستعملة بسيطة : مداد أو ألوان مائية ، وفرجون وورق نشاف أو حرير نشاف ، وأما العمل نفسه فعسير : فالفنان لا يعمل وهو واقف ، بل يعمل جاثيا على ركبتيه ، منحنياً على قطعة الحرير أو قطعة الورق المنشورة على الأرض ؛ ولا بد له من ضبط يده فى التخطيط بالفرجون ، حتى يستطيع أن يخط إحدى وسبعين درجة أو أسلوباً من درجات التخطيط أو أساليبه (٧٣) ؛ وكانت الرسوم ترسم على الجدران فى القرون الأولى، أيام أن كانت البوذية مسيطرة على الفن فى اليابان ، على نحو ما كانت ترسم الصور الجدارية فى « أجانتا » أو « تركستان » ؛ غير أن كل ما بقى لدينا تقريباً من أعمال فنية واسعة الشهرة إما أن تكون من نوع الـ « ماكيمونو » (أى اللفائف) أو نوع الـ « كاكيمونو » (أى التعاليق) أو من نوع الستائر ولم تكن هذه الصورة ترسم لتعرض فى متاحف الفن عرضاً يخلو من استساغة المشاهدين لفنها — إذ ليس فى اليابان متاحف للفن — إنما كانت ترسم لتكون متعة لناظرى مقتنيها وأنظار أصدقائه ؛ أو كانت تُرسم لتكون جزءاً من زينة زخرفية فى معبد أو قصر أو منزل ؛ وكان من النادر جداً أن تصور تلك الرسوم أشخاصاً معينين ، إذ كان معظمها يصور لمحات من الطبيعة ، أو مشاهد من النشاط العسكرى ، أو قبسات فكهة أو تهكمية تصور ما يشاهده الفنان من طرائق العيش عند الحيوان أو بنى الإنسان نساء ورجالا .

كانت صورهم أقرب إلى أن تكون قصائد تعبر عن وجدان الفنان ، منها إلى أن تكون رسما لأشياء ؛ كما كانت أدنى شبهاً بالفلسفة منها بالتصوير

الفوتوغرافى ؛ فلم يحاول الفنان اليابانى أن يلتزم الواقع فى تصويره ، وقلما أراد أن يقلد برسمه الصورة الخارجية للشىء المرسوم ، فقد نفض يديه ، فى ازدراء من ظلال الأشياء ، على اعتبار أنها لا تتصل بجواهر الأشياء ، مؤثراً لنفسه أن يصور « فى الهواء الطلق » بمعنى أنه لا يتقيد بتجسيم الشىء بوساطة تأثير النور والظل ، وهو يبتسم ساخراً بالغربيين فى إصرارهم على أن يخضعوا الأشياء البعيدة لقواعد النظر فى رؤيته للأشياء على أبعاد ، بحيث تصغر تبعاً لذلك أو تكبر ، يقول « هوكاساى » — فى تسامح فلسفى — « إن التصوير اليابانى يمثل القالب واللون بغض النظر عن التجسيم . أما طرائق الأوربيين فتهدف إلى التجسيم والإيهام »[٧٤] أراد الفنان اليابانى أن ينقل شعوراً أكثر مما ينقل شيئاً ، أراد أن يوحى أكثر مما يعرض الشىء بأكمله كما هو ، ففى رأيه لا يلزم أن تبين من عناصر المنظر المرسوم أكثر من عدد قليل ، فالأمر هنا فى التصوير كالأمر فى الشعر اليابانى الذى لا يسمح بالزيادة فى القول عن مجرد القدر الذى يكفى لإثارة وجدان التقدير الفنى فى السامع بحيث يعمل خياله إعمالا يكمل به النتيجة الجمالية المراد بلوغها ، وكان المصور شاعراً ، يقدر إيقاع التخطيط ، ويقدر موسيقى القوالب ، أكثر جداً مما يقدر أشكال الأشياء وطرائق بنائها التى تختار اختياراً كما اتفق ، وهو كالشاعر يعتقد أنه لو أخلص لمشاعره ، فحسبه هذا القدر من الواقعية :

ويحتمل أن تكون كوريا هى التى جاءت بفن التصوير للإمبراطورية القلقة التى تم لها عندئذ غزوها ، وأغلب الظن أن بعض رجال الفن من كوريا هم الذين رسموا الصور الجدارية ذات الانسياب فى خطوطها والازدهار فى ألوانها التى تراها فى « معبد هوريوجى » ، لأنك لا تجد شيئاً فى تاريخ اليابان فيما قبل القرن السابع ، تفسر به مثل هذا الإنتاج القوى المفاجئ الذى بلغ فيه كمال الفن روعة لا يعيبها خطأ ، ثم جاءها الحافز الثانى من الصين

مباشرة ، حين ذهب إليها الكاهنان اليابانيان « كوبودايشى » و « دنجيودايشى » ليدرس فيها فن التصوير ، فلما عاد « كوبودايشى » (سنة ٨٠٦) إلى اليابان ، كرس نفسه للتصوير وللنحت وللأدب والعبادة فى آن معاً ، وبعض الآيات التى تعد من أقدم الآيات الفنية ، هى من نتاج فرجونه المتعدد المواهب ، وكانت البوذية أيضاً مصدر وحى للفنان فى اليابان كما كانت مصدر وحى له فى الصين ، فممارسة الحالة التأملية البوذية المعروفة باسم «زن» قد اتجهت ناحية الإبداع فى ناحيتى اللون والشكل ، بقوة تكاد تقرب من القوة التى اتجهت بها نحو الفلسفة والشعر ، وكثرت مناظر « اميدا بوذا » فى الفن اليابانى كثرة مناظر البشرى بمولد المسيح ومناظر صَلْبه على الجدران اللوحات التى ترجع إلى عهد النهضة الأوروبية ، والكاهن « ييشين سوزو » (مات سنة ١٠١٧) هو لليابان بمثابة « فرا انجليكو » و « إلى جريكو » لذلك العصر ، فتصويره لصعود « أميدا » وهبوطه جعله أعظم مصور دينى فى تاريخ اليابان ، وكان عندئذ « كوسى نو — كا نوكا » (حوالى ٩٥٠) قد بدأ فى جعل التصوير اليابانى علمانىّ الصبغة ، وهاهنا بدأت الطيور والزهور والحيوان تنافس الآلهة والأولياء على لوحات التصوير .

غير أن فرجون « كوسى » كان ما يزال يتحرك على أساس القواعد الصينية ويفكر بعقول أهل الفن فى الصين ، ولم تبدأ اليابان فى قرونها الخمسة التى اعتزلت بنفسها فيها وأخذت خلالها تصور مناظرها هى ، وموضوعاتها هى ، بطريقتها الخاصة ، إلا حين وقفت علاقات الاتصال بين اليابان والصين فى القرن التاسع ، ونشأت مدرسة قومية لفن التصوير حوالى سنة ١١٥٠ ، تحت رعاية الدوائر الإمبراطورية والأرستقراطية فى كيوتو ، وأعلنت تلك المدرسة سخطها على ما يرد إلى البلاد من الخارج ، من حوافز وأساليب فى عالم الفن ، وأخذت على نفسها أن تزخرف منازل العاصمة الفاخرة ، برسوم زهور اليابان ومناظرها الطبيعية ، وكان لهذه المدرسة عدة أسماء ، كما كان لها عدة أعلام بارزين ، فيطلق عليها « ياماتو — ريو » أو الأسلوب

الياباني و « واجا — زيو » ومعناها كذلك الأسلوب الياباني ، و « كاسوجا » باسم مؤسسها المشهور ، وأخيراً يطلق عليها « مدرسة توسا » باسم أهم ممثل لها في القرن الثالث عشر ، وهو « توسا جون — نو — كومى » ، ومنذ ذلك الحين ، ظل اسم « توسا » يطلق على كل رجال الفن الذين ينتمون إلى تلك المدرسة ، وهى مدرسة جديدة بوصفها بالصفة القومية لأنك لا تجد في الفن الصينى ما يقابل مما أنتجته فراجين أتباع هذه المدرسة من حيث القوة والثبات والتنوع والفكاهة ، مما تراه في اللوحات التي تقص قصصاً عن الحب والحرب ؛ فحوالى سنة ١٠١٠ رسم « تاكايوشى » بالألوان رسوماً فخمة تصور حكاية « جنچى » وما فيها من غواية ، وسرّى « توبا سوچو » عن نفسه برسم صور تهكمية نابضة بالحياة ، يسخر فيها من أوغاد عصره وكهنته ، تحت ستار من القردة والضفادع ، ولما وجد « فوچيوارا تاكانوبو » قرب نهاية القرن الثانى عشر ، أن حَسَبَه الشريف لا يغنيه شيئاً مذكوراً في إشباع حاجته من الطعام والشراب ، استدار للفرجون يكسب به عيشه ، ورسم صوراً عظيمة لـ « يورنيومو » وغيره ، لا تشبه في شيء قط ما أنتجته الصين حتى ذلك الحين ، وصور ابنه « فوچيوارا نوبوزانى » ستاً وثلاثين صورة للشعراء ، محتملا ما في ذلك العمل من صبر ، وفي القرن الثالث عشر ، رسم ابن « كاسوجا » وهو « كيون » — أو غيره . تلك اللوحات الحية التي تعد من أروع ما أنتجه العالم كله في فن التصوير .

لكن هذه المصادر القومية التي كانت تبعث الوحى ، راحت تجف شيئاً فشيئاً ، بحيث تتحول إلى أوضاع تقليدية في الأشكال والأساليب ، وعاد الفن اليابانى من جديد فالتمس غذاءه عند المدارس الجديدة التي كانت ناهضة في الصين أيام « نهضة صنج » ، ولبث اليابانيون حيناً مدفوعين إلى تقليد الصين بغير ضابط ، واتفق الفنانون اليابانيون الذين لم يشهدوا « المملكة الوسطى »

قط ، أنفقوا أعمارهم فى رسم أشخاص ومناظر من الصين ، فرسم « شو دنو » ست عشرة صورة لأولياء بوذيين ، هى الآن بين الكنوز المعروضة فى « متحف فرير » للفن فى وشنطن ، وأما « شوبون » فقد شاءت له ظروفه أن يولد وأن ينشأ فى الصين ، فلما جاء ليقضى حياته فى اليابان ، استطاع أن يصور مناظر طبيعية صينية مستعيناً فى ذلك بذاكرته وبخياله معاً .

وكانت هذه الفترة الثانية من فترات التصوير اليابانى ، هى الفترة التى أنجبت أعظم شخصية ظهرت فى تاريخ التصوير كله ، وهو « سشيو » الذى كان كاهناً من طائفة « زن » فى « سوكوكوجى » وهى مدرسة من المدارس الفنية الكثيرة التى أقامها « يوسيمتسوا » الحاكم العسكرى من أسرة « أشيكاجا » ؛ فقد استطاع « سشيو » هذا وهو لم يزل فى يفاعته أن يدهش بنى بلده برسومه ، وتروى عنه أسطورة لم تدر كيف تعبّر عن إجلالها لفنه ، تروى أنه ربط ذات يوم إلى عمود لسوء سلوكه ، فرسم بأصابع قدميه جرذاناً بلغ شبهها بالجرذان الحية حداً جعل الحياة تدب فيها فتأتى لتقرض الوثاق الذى شد به[٧٥] ، ولما اشتد به الشوق إلى الاتصال بسادة الفن فى الصين حينئذ اتصالا مباشراً ، حصل على أوراق اعتماد رسمية من رؤسائه الدينيين ومن الحاكم العسكرى ، ثم عبر البحر ، لكن رجاءه خاب حين وجد التصوير الصينى فى طريقه إلى التدهور ، ثم عزى نفسه بما وجده فى تلك المملكة العظيمة من تنوع فى الحياة والثقافة ، وعاد إلى وطنه مملوءاً بآلاف الأفكار الجديدة التى توحى إليه بما ينبغى أن يفعله ، وتروى الرواية أن رجال الفن ورجال الطبقة العليا من أهل الصين ، صحبوه إلى السفينة التى أعادته إلى بلاده ، وأمطروه بورقات بيض ملتمسين منه أن يرسم فيها رسوماً تخطيطية بسطية — إن لم يجُدْ عليهم بأكثر من ذلك — ثم يرسلها إليهم ، ومن ثم — هكذا تقول هذه الرواية — سمى باسمه الرمزى « سشيو » الذى معناه « سفينة الثلج »[٧٦] لأن الورقات البيض

تساقطت عليه كما يتساقط الثلج) والظاهر أنه لما بلغ اليابان استقبله الناس هناك استقبالهم لأمير ، ومنحه الحاكم العسكرى « يوشيماسا » منحاً كثيرة ، لكنه رفض هذه المنح كلها — لو أخذنا بما نقرؤه عن الأمر — وعاد فأوى إلى أبراشيته الريفية فى « شوشو » وهناك راح ينثر الفن نثراً ، واحدة فى إثر واحدة ، كأنما ينتج فى كل لحظة نتاجاً تافهاً عابراً أوحت به ظروف اللحظة الراهنة ، حتى كاد يخلّد بصوره كل جوانب الصين فى مناظرها وحياتها ؛ فقلما رأت الصين مثل هذا التنوع كله فى موضوعات التصوير عند الفنان الواحد — ولم تر اليابان مثل ذلك قط فى تاريخها — كلا ولا رأت مثل هذه القوة فى التصور والتصوير معاً ، وفى ثبات الخطوط ، ولما بلغ الشيخوخة ، دقّ رجال الفن فى اليابان طريقاً إلى بابه وكرموه فجعلوه — حتى قبل موته — فناناً فى طليعة الركب ؛ وإن الصورة بريشة « سشيو » لتقدر اليوم عند هواة الصور من اليابانيين ، بمثل مايقدر به هواة الأوروبيين صورة بريشة ليوناردو ؛ وتروى أسطورة من تلك الأساطير التى تحول الأفكار الغريبة إلى حكايات لطيفة ، أن رجلا كان يملك صورة من رسم « سشيو » ثم اشتعلت النار بمنزله بحيث كان يستحيل عليه النجاة ، فبقر بطنه بقراً بسيفه ودسّ فى معدته قماشة الصورة النفيسة — ووجدت الصورة بعدئذ سليمة من التلف داخل جثمانه الذى كانت النار قد أكلته إلى نصفه(٧٧) .

واستمر ازدياد التأثير الصينى فى كثير من رجال الفن الذين كانوا فى كنف أمراء الإقطاع من الأسرتين العسكريتين : «أشيكاجا» و«توكوجاوا» ؛ وكان لكل أمير فى حاشيته مصوره الرسمى الذى نيط به أن يدرب مئات الفنانين الناشئين الذين قد تدعو الحاجة المباغتة إلى استخدامهم فى زخرفة أحد القصور ؛ إذ كانت المعابد عندئذ تُنسى ، لأن الفن كان فى طريق التحول إلى المجال الدنيوى كلما ازدادت البلاد ثراء ؛ ولما دنا القرن الخامس عشر من ختامه ، أنشأ « كانوماسانوبو » فى كيوتو تحت رعاية « أشيكاجا » مدرسة

للفنانين العلمانيين ، أطلق عليها الجزء الأول من اسمه ، وجعلها تتجه بجهدها كله نحو الاحتفاظ بكل شدة بالتقاليد الكلاسيكية الصينية فى الفن اليابانى ؛ وبلغ ابنه « كانو موتونوبو » فى هذا الاتجاه مبلغاً جعله علماً لا يمتاز عليه إلا « سشيو » وحده ؛ وإن قصة لتروى عنه فتبين بياناً واضحاً كيف أن تركيز الانتباه والثبات على غاية واحدة هما اللذان يكونان العبقرية ؛ تقول عنه القصة إنه قد طُلِب إليه أن يصور عدداً من طيور الكركى ، فشوهد مساء بعد مساء يمشى مشية الكركى ؛ واتضح أنه كان فى كل ليلة يقلد الكركى الذى كان مصمماً على تصويره فى اليوم التالى ؛ فيظهر أن الإنسان لا بد له من الذهاب إلى مخدعه والغاية المنشودة نصب عينيه ، حتى يستيقظ فى الصباح مشهوراً ، وظهر حفيد لـ « موتونوبو » — هو « كانو ييتوكو » فطوَّر على يديه تحت رعاية هيديوشى ، نمطاً فنياً أبعد ما يكون عن الكلاسيكية المتزمتة التى اصطنعها أسلافه ، على الرغم من أنه كان فرعاً من أسرة « كانو » ، وجاء « تانيو » فنقل مركز المدرسة من كيوتو إلى ييدو ، وعمل فى كنف أفراد أسرة « توكوجاوا » وعاون فى زخرفة مقبرة « أيياسو » فى « نكو » وبالرغم من كل هذه المحاولات نحو مواءمة الفن لظروف العصر ، فقد استنفدت أسرة « كانو » دوافعها إلى الفن على مر الزمن ، وأدارت اليابان وجهها نحو أعلام آخرين يبدءون لها فى تاريخ فنها شوطاً جديداً .

وهكذا ظهرت طائفة أخرى من رجال التصوير سنة ١٦٦٠ ، وأطلق عليها اسم علَمَيْها الزعيمين ، إذ سميت « مدرسة كويتسو — كورين » ، وكان من طبيعة التذبذب الذى يطرأ على الفلسفات وأنماط الفن ، أن تنظر هذه المدرسة الجديدة إلى الأوضاع والموضوعات الصينية التى عنى بها « سشيو » و « كانو » نظرتها إلى الشيء الرجعى الذى أبلاه الزمان ؛ وتلفت الفنانون الجدد يبحثون عن مناظر فى بلادهم نفسها ، واستوحوا بلادهم الإلهام الفنى والموضوعات التى يديرون فيها فنهم ذاك ؛ وكان « كويتسو » رجلا بلغ به



قردة وطيور رسمها سشيو في القرن الخامس عشر

تنوع المواهب حداً يذكّرنا بما قاله « كارلايل » غيرةً من سواه من العظماء ، إذ قال إنه لا يعرف عظيما واحداً لم يكن ليستطيع أن يكون عظيما فى أى مجال شاء ؛ ذلك أن « كويتسو » هذا كان ممتازاً فى الخط وممتازاً فى التصوير ، وممتازاً فى الرسم على المعادن و« اللاكيه » والخشب ؛ وهو شبيه بـ « وليم مورس » فى قيامه بحركة إحيائية فى سبيل الطباعة الجميلة ، وأشرف على قرية قام فيها صُنَّاعُه بمختلف ألوان الفن تحت إرشاده(٧٨) ولم ينافسه الزعامة فى التصوير فى عهد « توكوجاوا » إلا « كورين » ذلك المصور البارع للأشجار والأزهار ، الذى يحدثنا عنه معاصروه فيقولون إنه كان يستطيع بجرة واحدة من فرجونه أن يطبع ورقة من أوراق السوسن على قماشة الحرير فتحيا(٧٩) ولست تجد مصوراً سواه تمثلت فيه الروح اليابانية الخالصة كاملة كما تمثلت فيه ؛ أو أظهر الروح اليابانية كما أظهرها هو إظهاراً جعله بمثابة النمط لليابان كلها فى سلامة ذوقه ودقة فنه(*) .

وآخر مدارس التصوير اليابانية التى يسجلها التاريخ ، بمعنى كلمة التصوير الدقيق ، مدرسة أسسها « ماروياما أوكيو » فى كيوتو فى القرن الثامن عشر ؛ وكان « أوكيو » هذا رجلا من الشعب ، حركت نوازع الفن فى نفسه معرفته اليسيرة بالتصوير الأوروبى ، فصمم أن يهجر الأساوب القديم بما فيه من نزعة مثالية ونزعة تأثرية قد نفدت منهما عصارة الحياة ، وأن يحاول وصفاً واقعياً لمشاهدة بسيطة يختارها من الحياة اليومية الجارية ؛ وأغرم غراماً خاصاً برسم الحيوان ، واحتفظ بصنوف كثيرة من أنواع الحيوان تعيش حوله ليتخذ منها موضوعات لفنه ؛ وقد حدث مرة أن رسم خنزيراً متوحشاً وأطلع الصيادين

(*) ظفر متحف الفن المعروف باسم متروبولتان فى نيويورك ، بصورة من صور « كورين » يقول عنها « ليدو » إنها : « من أعظم آيات نوعها التى سمح لها بالخروج من اليابان(٨٠) » .

على صورته فخاب رجاؤه حين ظن هؤلاء الصيادون أن الخنزير المرسوم يصور خنزيراً ميتاً ، فلبث يحاول ثم يحاول ، حتى رسم صورة لخنزير قال عنها الصيادون إن الخنزير الذى تصوره ليس ميتاً ، ولكنه نعسان(٨١) ، ولما



ستار متموج ، رسم كورين

كانت الطبقة العالية فى كيوتو مفلسة ، اضطر « أوكيو » أن يبيع صوره لأبناء الطبقة الوسطى ، ولعل هذه الضرورة الاقتصادية هى التى ألزمته إلى حد كبير أن يختار لفنه موضوعات شعبية ، لدرجة أنه جعل يصور بعض غانيات

كيوتو ، وصعق لذلك فنانو الجيل السابق لجيله ، ولكنه مضى فى طريقه خارجاً على التقاليد ؛ وجاء « مورى سوزان » فتقبل زعامة « أوكيو » فى التزام الطبيعة فى الفن ، وقصد إلى حيث تسكن الحيوانات فعاش بينها لكى يتاح له الإخلاص فى تصويرها ، حتى أصبح أعظم مصور يابانى فى رسم القردة والغزلان ؛ فلما مات « أوكيو » (١٧٩٥) كان الواقعيون قد كسبوا السيادة التامة على فن التصوير ، واستطاعت مدرسة شعبية خالصة أن تستوقف الأنظار ، لا فى اليابان وحدها ، بل فى أرجاء العالم كله .

الفصل العاشر

الصور المحفورة

مدرسة « يوكييو » – موسسوها – أعلامها – هوكوسا – هيروشيجا

إنها لأضحوكة أخرى من أضاحيك التاريخ أن يكون الفن اليابانى أقربه إلى الغرب علماً وأعمق فيه تأثيراً ، عن طريق جانب من جوانبه ، هو أقل تلك الجوانب منزلة فى اليابان نفسها ؛ فقد تحول فيما يقرب من منتصف القرن الثامن عشر ، فن الحفر الذى كان قد وفد على اليابان فى ثنايا التعاليم البوذية وملحقاتها قبل ذاك بخمسمائة عام ، تحول فأصبح أداة لتوضيح الكتب وحياة الناس بالرسوم ، ذاك أن الموضوعات القديمة والطرائق القديمة كانت قد فقدت رونق الجدة ففقدت بذلك اهتمام الناس بها ، إذ أترع هؤلاء الناس بصور القديسين البوذيين والفلاسفة الصينيين ، والحيوانات التى استغرقت فى التأمل ، والزهور التى ترمز للطهر والبراءة ؛ ونهضت طبقات جديدة من الناس فاحتلت مكان الصدارة ، وافتقدت فى الفن تصويراً لشئون حياتهم ، وراحت تخلق من رجال الفن من يُقبل راضياً على إشباع تلك الرغبات ؛ فلما كان التصوير يتطلب فراغاً ونفقات ، ولا ينتج إلا صورة واحدة فى المرة الواحدة ، عمل الفنانون الجدد على اصطناع فن الحفر لتحقيق غاياتهم ، فحفروا الصور فى الخشب ، وبذلك تمكنوا من إصدار عدد رخيص من الصورة الواحدة بمقدار ما يطالب سوادُ الشارين فى السوق ، وكانت هذه الرسوم المحفورة تلوَّن باليد أول الأمر حتى إذا جاء عام ١٧٤٠ صنعت ثلاثة « كليشيهات » للصورة الواحدة : واحدة لا لون فيها ، وثانية لوِّن جانب منها باللون الأحمر الوردى ، وثالثة لونت فى بعض أجزائها باللون الأخضر ، ثم كانت الأوراق المراد طبعها توضع على « الكليشيهات » بالتناوب ، وأخيراً فى

سنة ١٧٦٤ صنع « هارونوبو » أول كليشيهات متعددة الألوان ، فمهد بذلك الطريق إلى تلك الرسوم الناصعة التي رسمها « هوكوساى » و « هيروشيجى » : والتي جاءت للأوروبيين الذين ملوا الثقافة القائمة وتحرقوا ظمأ لكل ما هو جديد . جاءت تلك الرسوم للأوروبيين حافزاً وموحياً ، وهكذا ولدت مدرسة « يوكيويى » التي جعلت موضوعها « صور الحياة العابرة » :



ثعالب ، رسم هيروشيجى

ولم يكن مصوروها أول من جعل الإنسان العارى من الألقاب موضوعاً للفن ، فقد سبق لـ « إواسا ماتابى » فى أوائل القرن السابع عشر أن أدهش فئة « السيافين » بتصويره على ستار سداسىّ الجوانب رجالا ونساء وأطفالا فى

أوضاع الحياة اليومية بغير تحفظ ؛ وقد وقع اختيار الحكومة اليابانية سنة ١٩٠٠ على هذا الستار « واسمه هيكونى بيوبو » لعرضه فى باريس ، وأمّنت على سلامته أثناء الرحلة بثلاثين ألف ين(وهو ما يعادل خمسة عشر ألف ريال)(٨٢) وفى سنة ١٦٦٠ صنع « هيشيكاوا موررونوبو » مصور الزخارف على الأقمشة فى مدينة كيوتو ، أول رسوم بالكليشيهات ، صنعها أول الأمر لتطبع فى الكتب توضيحاً لمادتها ، ثم صنعها ليستخدمها فى طبع رسوم وبيعها للشعب كما تباع البطاقات المصورة عندنا اليوم ؛ وحوالى سنة ١٦٨٧ ، انتقل « توروكوچوموتو» مصور المناظر فى مسارح«أوساكا» انتقل إلى « ييدو» وعلّم مدرسة « يوكيوبى » (التى كانت محصورة فى العاصمة وحدها) كيف يمكنها أن تستفيد من الوجهة المالية ، إذا هى اتجهت نحو تصوير الرسوم المحفورة لمشاهير الممثلين فى ذلك العصر ، وبعدئذ انتقل الفنانون الجدد من المسرح إلى مواخير الدعارة فى « يوشيوارا » فخلعوا بفنهم مسحة من الخلود على على كثيرات من ربات الجمال الزائل وهكذا دخلت الأثداء العارية والأطراف المتلألئة — بعد أن خلعت عذارها — حرم فن التصوير اليابانى الذى كان لا يدخله من قبل إلا موضوعات الدين والفلسفة .

وظهر أعلام هذا الفن الذى تقدم وتطور ، حول منتصف القرن الثامن عشر ؛ فقد صنع «هارونو بو » رسوماً تحتوى على اثنى عشر لوناً، بل خمسة عشر لوناً ، مستخدماً فى ذلك كليشيهات بعدد الألوان ، ولما أحس لذعة الضمير لرداءة ما صوره فى سابق عهده للمسرح ، راح يعوض عن ذلك برسوم تتجلى فيها الرقة اليابانية ، يعرض فيها ألوان الشباب المرح فى عالمه الشيق وبلغ « كيوناجا » أوج الفن فى هذه المدرسة وجعل يستخدم اللون والخطوط متداخلا بعضه فى بعض ، فى رسمه لسيدات من الطبقة العالية مستقيمات القامة، دون أن تؤثر تلك الاستقامة فى مرونة البدن ؛ وأما « شاراكو» فالظاهر أنه لم

ينفق أكثر من عامين فى حياته لتصميم الرسوم المحفورة ، لكنه فى هذا الأمد القصير استطاع أن يرقى إلى طليعة العاملين فى هذا الفن ، بفضل صوره عن « الأولياء (الرونين) الأربعة والسبعين » ، ورسومه التى أفحشت فى سخريتها بـ «نجوم» المسرح الهاويات من سمائها ؛ وصور «أوتامارو » الذى عرف بالخصوبة فى نبوغه وتنوع قدرته ، كل ضروب الأحياء من الحشرات إلى الفاجرات ، فقد قضى نصف حياته العاملة فى الـ « يوشيوارا » وأرهق نفسه متعةً وعملا ، وزج فى السجن عاماً (١٨٠٤) لرسمه « هيديوشى » محاطاً بأربع غانيات من خليلاته(٨٣) ؛ وكأنما مل « أوتامارو » تصويره لغمار الناس فى أوضاع الحياة العادية ، فأخذ يصور سيداته الرقيقات المهذبات فى رشاقة تكاد تقول عنها إنها رشاقة روحانية ، صورهن برءوس مائلة قليلا ، وعيون مستطيلة منحرفة ، ووجوه طويلة ، وقدود عجيبة لفتّها ثياب مناسبه كثيرة الطبقات ؛ ثم فسد فى الذوق فأفسد هذا النمط الفنى بحيث جعله متكلفاً ممقوتاً ، فانحدرت مدرسة « يوكيوبى » إلى ما يدنو من الفساد والتدهور ، لولا أن قام بها زعيماها المشهوران فمدا من حياتها نصف قرن آخر

أما أحدهما فهو « هوكوساى » الذى نعت نفسه « بالرجل الكهل الذى جُنّ بالتصوير » ، وقد امتد به العمر إلى ما يقرب من تسعين عاماً ، ومع ذلك كتب يرثى لبطء سيره نحو الكمال وقصر أمد الحياة ، فقال :

« لقد تولانى جنون عجيب منذ السادسة من عمرى برسم كل ما يصادفنى من الأشياء كائناً ما كان ، فلما بلغت الخمسين كنت قد نشرت عدداً من آثارى مختلفة أنواعها ، لكن لم أطمئن إلى أى منها اطمئناناً تاماً ، ولم يبدأ عملى الحق إلا حين بلغت السبعين ، وهأنذا الآن فى الخامسة والسبعين ، وقد استيقظ فى نفسى حب الطبيعة بمعناها الصحيح ، ولذا ترانى آمل أن أظفر عند الثمانين بقوة من إدراك البصيرة يظل ينمو معى حتى أبلغ التسعين ، فإذا ما بلغت

المائة كان لى – فى أغلب الظن – أن أقرر تقرير الواثق بأن إدراك بصيرتى قد أصبح إدراكاً فنياً خالصاً ؛ ولو وهبنى الله أن أعيش حتى العاشرة بعد المائة كان رجائى عندئذ أن يشعّ من كل خط أسطره بل من كل نقطة أخطها فهمٌ جوهرى صحيح بالطبيعة .:. وإنى لأطلب من أولئك الذين سيمتد بهم العمر



مساقط يورو ، رسم هوكوساى

ما يمتد بى أن يروا إن كنت ممن يفون بما يعدون أو لم أكن ، لقد كتبت هذا وأنا فى سن الخامسة والسبعين ، أنا الذى كان اسمه « هوكوساى » وأصبح الآن يدعى « الرجل الكهل الذى جُنّ بالتصوير »(٨٤).

وكان شأنه شأن سائر رجال الفن من مدرسة « يوكيو يى » من حيث إنه

نشأ من طبقة العمال ، فهو ابنٌ لصانع كان يصنع المرايا ، وألحقوه بفنان يدعى « شنسو » ليأخذ عنه الفن ، لكنه لم يلبث أن طرد لإصالته وعاد إلى أسرته ليعيش فقيراً شقياً مدى حياته الطويلة ، ولم يستطع أن يعيش بتصويره ، فراح يجول فى المدينة بائعاً للطعام وكراسات التقويم ، وحدث أن احترقت داره ، فلم يزد على إنشائه هذه العبارة من الشعر :

لقد احترقت الدار .

فما كان أجل الزهور وهى تهوى(٨٥) ! .

وجاءه الموت وهو فى التاسعة والثمانين ، واستسلم له كارهاً وهو يقول : « لو وهبتنى الآلهة عشرة أعوام أخرى فقط لأمكننى أن أكون فناناً عظيما بحق(٨٦) .

وخلف وراءه خمسمائة مجلد تحتوى على ثلاثين ألف صورة كلها مخمور بروح الفن اللاشعورى حين يتناول الطبيعة فى شتى صورها ؛ فقد رسم — محباً لما رسم مكرراً له فى أوضاع مختلفة — رسم الجبال والصخور والأنهار والجسور ومساقط الماء والبحر ، وحدث بعد أن فرغ من نشره لكتاب « ست وثلاثين صورة من مناظر فيوچى » أن قفل راجعاً ليجلس عند سفح الجبل المقدس من جديد ، : كما فعل الكاهن البوذى المفتون الذى تروى عنه الأساطير(*) ، وهناك رسم « مائة منظر من فيوچى » ، ونشر سلسلة أسماها « أخيلة الشعراء » عاد فيها إلى الموضوعات الرفيعة التى كان يتناولها الفن اليابانى من قبل ، وكان من بين هذه المجموعة منظر يصور « لى پو » العظيم بجانب الوادى الصخرى ومسقط الماء يطلق عليهما « لو » .

وفى سنة ١٨١٢ نشر الجزء الأول من مجموعة قوامها خمسة عشر جزءاً ،

(*) الكاهن الذى يروى عنه أنه أبعد من اليابان نفياً ، فجعل يعبر البحر بمركبه كل يوم لينظر إلى « الجبل المقدس » .

أسماها « مانجو » – وهى سلسلة من صور واقعية تشتمل على الأخص تفصيلات الحياة اليومية الجارية تلذع بما فيها من فكاهة ، وتفحش بما تحتوى عليه من تشهير مُقنَّع ، وقد كان ينثر هذه الصور نثراً دون عناية أو مجهود ، فيخرج منها اثنتى عشرة كل يوم حتى صور بها كل ركن من أركان الحياة الشعبية فى اليابان ، ولم تكن الأمة قد شهدت قط من قبل مثل هذه الخصوبة ولا مثل هذا التصور العقلى السريع النافذ ، ولا القدرة على التنفيذ بكل هذه الحيوية الجامحة ، وكما أن رجال النقد فى أمريكا قد قللوا فى حسابهم من شأن « وِتْمان » فكذلك قلل رجال النقد ودوائر الفن فى اليابان من شأن « هوكوساى » فلم يروا إلا فورة فرجونه وسوقية عقله التى تتبدى آناً بعد آن ، لكن جيرانه لما مات – جيرانه الذين لم يكونوا يعلمون أن « وِسْلرْ » قد أخذه التواضع لحظة فوضعه فى أعلى منزلة من منال الفن التى لم يحتلها أحد سواه منذ « ڤلاسكويز » – أقول إنه لما مات دهش جيرانه حين رأوا كل تلك الجنازة الطويلة تنبعث من ذلك المنزل المتواضع .

وآخر شخصية برزت من مدرسة « يوكيوبى » هو « هيروشيجى » (١٧٩٦ – ١٨٥٨) الذى يقل شهرة عن « هوكوساى » فى البلاد الغربية ، لكنه أكثر منه احتراماً فى الشرق ، وتنسب إليه مائة ألف صورة حفرية متميزة الخصائص ، وكلها يصور المناظر الطبيعية فى بلاده تصويراً فيه من الإخلاص ما ليس فى رسوم « هوكوساى » ، وفيه فنٌّ أنزل « هيروشيجى » منزلة قد تجعله أعظم من صوَّر المناظر الطبيعية من أهل اليابان ؛ فقد كان « هوكوساى » إذا وقف إزاء الطبيعة لا يرسم المنظر كما يبدو ، بل يرسم خيالاً شاطحاً يوحى إليه بالمنظر الذى يراه ، أما « هيروشيجى » فقد أحب الطبيعة نفسها بشتى صورها ، ورسمها بدرجة من الإخلاص تمكن الرحالة الذى يمرّ بالأجزاء التى رسمها أن يتبين الأشياء والسفوح التى أوحت إليه بصوره تلك ،

وفى وقت يقع حوالى سنة ١٨٣٠ أخذ طريقه فى السكة الرئيسية التى تمتد من طوكيو إلى كيوتو ، فكان فى رحلته شاعراً بأدق معنى الشاعرية حين لم يقصد توا إلى غايته المقصودة ، بل سمح لنفسه أن تنشغل بالمناظر التى استثارتها وهو فى الطريق ؛ فلما فرغت رحلته جمع انطباعاته بتلك المناظر فى مجموعة له مشهورة اسمها « المحطات الثلاثة والخمسون على الطريق العام » (١٨٣٤) ، وقد أحب رسم المطر والليل فى كل صورهما المشبعة بروح الغموض ، ولم يفقه فى ذلك إلا « وسلر » الذى جرى على غراره فى رسمه لمناظر المساء[٨٨] ، وكذلك أحب « هيروشيجى » « فيوچى » كما أحبها « هوكوساى » ورسم لجبالها « المناظر الستة والثلاثين » غير أنه أحب معها مسقط رأسه « طوكيو » ، ورسم « مائة منظر من مناظر ييدو » قبيل موته ، ولئن لم يعمر ما عمره « هوكوساى » إلا أنه أسلم شعلة الفن وهو مطمئن لما صنع :

إنى أترك فرجونى فى « أزوما »

وأتابع رحلتى « إلى الغرب المقدس »

لكى أشاهد المناظر المشهورة هناك (*)[٨٩]

(*) يوجد فى متحف بوسطن مجموعة رائعة من الرسوم الحفرية التى « رسمها هيروشيجى »

الفصل الحادى عشر

فن اليابان وحضارتها

مراجعة — موازنات — تقدير — خاتمة اليابان القديمة

كانت الرسوم الحفرية فى اليابان آخر مرحلة تقريباً من مراحل تلك المدنية اللطيفة الرقيقة التى اندك بناؤها تحت ضغط الصناعة الغربية ، كما أن تشاؤم العقل الغربى ومرارة نظرته إلى العالم اليوم ، قد يكونان آخر مظهر من مظاهر مدنية أراد لها القضاء أن تموت تحت وطأة الصناعة الشرقية ؛ ولما كانت اليابان فى عصورها الوسطى التى امتدت حتى عام ١٨٥٣ غير ذات أذى لنا ، كان فى مستطاعنا أن نقدر جمالها تقديراً فيه العطف والرعاية ؛ وإنه لمن العسير علينا أن نرى فى اليابان بعد أن أقامت المصانع التى تنافس مصانعنا ، وأقيمت بها المدافع التى تتهدد سلامنا ، من العسير علينا أن نرى فى مثل هذه اليابان ذلك السحر الذى يفتننا حين ننظر إلى مختارات ماضيها الجميلة ؛ وقد ننظر أحياناً نظرة عقلية هادئة ، فندرك أن تلك اليابان القديمة شهدت كثيراً من العسف ، وأن الفلاحين كانوا يعيشون فى فقر ، والعمال يقيمون على ضيم ، وأن النساء كن إماء يُبَعْنَ وقت الشدة لمتعة من شاء أن يستمتع ، وأن الحياة كانت رخيصة وأنه فى النهاية لم يكن ثمت قانون يحمى الرجل من سواد الشعب إلا سيف « السياف » ؛ لكن الأمر فى أوربا كان على هذه الحال نفسها : كان الرجال يصطنعون القسوة وكانت المرأة خاضعة للرجل ، وكان الفلاحون يعيشون فى فقر ، والعمال يقيمون على ضيم ، وكانت الحياة عسيرة والفكر الحر مجلباً للخطر ، ولم يكن فى النهاية من قانون سوى إرادة سيد الإقطاع أو الملك .

وكما أننا قد نشعر بالحب لأوربا القديمة التى شهدت كل هذا ، لأنها وسط

ما غمرها من فقر واستغلال وتعصب ، استطاع أهلها أن يبنوا الكنائس بناء يعنون فيه بنحت كل حجر من أحجاره نحتاً جميلا ؛ وراحوا يضحون بأنفسهم ليكسبوا لخلفهم حق التفكير ؛ أوكانوا يقاتلون في سبيل العدالة حتى خلقوا بقتلهم تلك الحريات المدنية التي هي أنفس جزء من تراثنا وأكثره تعرضاً للزوال ؛ فكذلك كان وراء صليل سيوف السيافين (في اليابان) ما يستحق التمجيد من شجاعة لا تزال تبث في اليابان قوة فوق ما يتناسب مع عدد أهلها أو كمية تراثها ، وكذلك نستطيع أن نتبين وراء الرهبان الكسالى شاعرية البوذية ، وقدرتها التي لا تنفد على الإيحاء بالشعر والفن ؛ ونستطيع كذلك أن نستشف وراء الصفعة القوية التي تنم عن القسوة ، والوقاحة الظاهرة التي يعامل بها القوىّ الضعيف ؛ نستطيع أن نستشف وراء هذا كله أرق ضروب الأخلاق ، وأبهج ألوان المحافل ، وإخلاصاً لجمال الطبيعة في كل صورها لا يدانيه إخلاص ؛ ثم نستطيع أن نرى وراء استعباد المرأة ، جمالها ورقتها ورشاقتها التي لا تنافسها فيها امرأة أخرى ؛ ووسط مظاهر الاستبداد الذي يظلل الأسرة ، ترن في آذاننا أصوات السعادة تنبعث من الأطفال وهم يلعبون في جنة الشرق .

إن شعر اليابان الذي يضبط فيه الشاعر نفسه ضبطاً يؤديه إلى الاقتضاب ، والذي تستحيل ترجمته ، لا يحرك اليوم مشاعرنا تحريكاً قويا ؛ ومع ذلك فهذا الشعر نفسه — فضلا عن الشعر الصيني — هو الذي أوحى لنا « بالشعر المرسل » و« التصوير الشعرى » اللذين نعهدهما في شعرنا اليوم ؛ ولم تعرف اليابان إلا قليلا من الفلاسفة ، وكذلك يندر جداً في مؤرخيها أن تجد روح الحياد الرفيع الذي يصادفك عند قوم لا يكتبون الكتب لتكون ملحقاً لقوتهم العسكرية أو السياسية ؛ لكن هذه أشياء تعدّ من الصغائر في حياة اليابان ، لأنها أنفقت جهدها كله في اتجاه حكيم ، وهو أن تخلق صور الجمال أكثر مما تتعقب الحق ، وكانت الأرض التي عاش عليها اليابانيون أشد غدراً من أن تقوم عليها عمارة

شامخة ، ومع ذلك فالدُّور التى كانت تبنيها تلك البلاد هى « أجمل ما خططه العالم من دُور إذا نظرنا إليها من وجهة نظر جمالية »[٩٠] ولم ينافسها فى العصور الحديثة بلد آخر فى رشاقة تحفها الصغيرة وجمالها — كثياب النساء والمراوح والشمسيات ، والفناجين ولعب الأطفال ، والمدليّات والعُقَد الحريرية المزخرفة ؛ وروعة الطلاء « باللاكيه » والنحت الرائع فى الخشب ، ولم يبلغ أى شعب حديث ما بلغه الشعب اليابانى من ضبط الزخارف ورقتها ، أو من شيوع الذوق المرهف الأصيل ، نعم إن الخزف (البورسلان) اليابانى لاينزل فى التقدير — حتى فى نظر اليابانيين أنفسهم — منزلة الخزف الذى كان يصنع فى « صنج » و « منج » (فى الصين) لكنه إن كانت الصين وحدها قد بزّتها فى تلك الصناعة ، فإن عمل الخزاف اليابانى ما يزال يعلو على مثيله من نتاج الأوربيين المحدثين ؛ ولئن كان التصوير اليابانى تعوزه قوة التصوير الصينى وعمقه ، ثم لئن كانت الرسوم الحفرية اليابانية قد تسوء حتى تبلغ أن تكون مجرد رسوم للإعلان ، وهى فى أجود حالاتها لا تزيد على كونها إثباتاً سريعاً لتوافه كانت قمينة أن تزول وشيكاً ، فأضيف إليها شىء مما يميز الفن اليابانى من تمام الرشاقة وكمال التخطيط ، فإن التصوير اليابانى — لا التصوير الصينى — وإن الرسوم الحفرية اليابانية لا ألوانها المائية ، هى التى أحدثت الثورة فى فن التصوير إبان القرن التاسع عشر ، وهى التى كانت حافزاً لإجراء مئات التجارب الفنية البديعة الطريفة ؛ ولما أعيد التبادل التجارىُ بعد سنة ١٨٦٠ بين أوروبا واليابان كانت تلك الرسوم الحفرية التى تدفقت إلى أوروبا فى ذيل التجارة ، هى التى أثرت أعمق الأثر فى « مونيه » و « مانيه » و « ديجا » و « وِسْلَرْ » فهؤلاء قد أقاموا إلى الأبد عن « الصلصة البنية اللون » التى لازمت التصوير الأوروبى كله تقريباً من « ليوناردو » إلى « مِلِيتْ » وملأوا رقعات التصوير فى أوروبا بصور الشمس ، واستحثوا المصور الفنان أن يكون أقرب إلى الشاعر منه إلى الفوتوغرافى ؛ يقول « وِسْلَرْ » فى اعتداد جعل

الناس جميعاً إلا معاصريه يكبرونه « لقد تمت بالفعل قصة الجمال ، لأنه تبدى منحوتاً فى المرمر الذى تراه فى البارثنون ، ولأنه مُوَشَّى على هيئة الطير فى المروحات التى رسمها « هوكوساى » على سفح فيوچى ياما »(١٩) .

وإنا لنرجو ألا يكون هذا القول صواباً ، لكنه كان هو الصواب فى رأى اليابان القديمة وإن لم تصرح به ؛ وماتت اليابان القديمة بعد « هوكوساى » بأربعة أعوام ، ذلك لأنها عاشت حياة وادعة رخية فى عزلتها البعيدة ، فنسيت أن الأمة لا بد أن تساير العالم إذا أرادت ألا يستعبدها المستعبدون ، فبينما كانت اليابان فى شغل من نحتها للمدليات وزخرفتها للمروحات بالزهر ، كانت أوروبا تنشىء علما لم يكد يعلم الشرق عنه شيئاً ، وأخيراً تمكن ذلك العلم الذى قام بناؤه على مر الأعوام فى المعامل التى يبدو فى ظاهرها أنها فى عزلة بعيدة عن مصطخب الحياة الجارية ، تمكن آخر الأمر من تزويد أوروبا بالصناعات الآلية التى أتاحت لها أن تصنع لوازم العيش بثمن أرخص مما تصنعها به آسيا على أيدى مهرة صناعها الذين كانوا يصنعونها بأيديهم ، وإن تكن تلك المصنوعات الآلية أقل جمالا من زميلاتها اليدوية ، فقد كان لا بد لتلك السلع الرخيصة — عاجلا أو آجلا — أن تكتسح أسواق آسيا ، فتنزل الخراب الاقتصادى وتغير من الحياة السياسية ، فى بلاد كانت تمرح مطمئنة فى مرحلة الصناعة اليدوية ، وأسوأ من ذلك شراً أن العلم قد صنع المفرقعات والمدمرات والمدافع ، التى تستطيع أن تكون أشد فتكاً من سيف أشجع « السيافين » فماذا تجدى شجاعة الفارس أمام فزع القنبلة التى لا يُعرف اسم راميها ؟

ولن تجد فى التاريخ الحديث أروع ولا أعجب من الطريقة التى استيقظت بها اليابان من نعاسها استيقاظاً جازعاً على صوت مدفع الغرب ، فوثبت تتعلم الدرس ، وأصلحت صنع ما تعلمت صنعه ، وأفسحت صدرها للعلم والصناعة والحرب ، ثم هزمت كل منافسيها فى ميدان الحرب وميدان التجارة معاً وباتت خلال جيلين أكثر أمم العالم المعاصر تحفزاً للعدوان .

الباب الحادى والثلاثون

اليابان الجديدة

الفصل الأول

الثورة السياسية

تدهور الحكم العسكرى – أمريكا تطرق الباب – عودة السلطة الإمبراطورية
تغريب اليابان – التجديد السياسى – الدستور الجديد – القانون – الجيش
الحرب مع الروسيا – نتائجها السياسية

يندر أن يأتى الموت إلى مدينة من خارجها ، بل لا بد للانحلال الداخلى أن يفت فى نسيج المجتمع أولا قبل أن يتاح للمؤثرات أو الهجمات الخارجية أن تغير جوهر بنائها ، أو أن تقضى عليها قضاء أخيراً ؛ فقلما يكون للأسرة الحاكمة تلك الحيوية الدءوب والمرونة السريعة التشكل، اللتان يتطلبهما استمرار السيادة ، فمؤسس الأسرة المالكة يستنفد نصف القوة الكامنة فى أصلاب أسرته ثم يترك لغير الممتازين من خلفه عبئاً لا يستطيع حمله إلا العباقرة ؛ فأسرة « توكوجاوا » بعد « أيياسو » حكمت البلاد حكماً لا بأس به ، لكننا لو استثنينا منها « يوشيمونى » لما وجدنا بين أفرادها شخصيات بارزة تستوقف النظر ؛ فما انقضت بعد موت « أيياسو » ثمانية أجيال حتى راح أمراء الإقطاع يزعزعون قوائم تلك الأسر العسكرية بثوراتهم التى ما فتئت تنهض حيناً بعد حين ؛ فكانوا يسوفون فى دفع الضرائب أو يمتنعون عن دفعها ؛ وعجزت خزانة « ييدو » — بالرغم من التدابير الاقتصادية العنيفة التى اتخذت — عن تمويل الدفاع القومى أو صيانة الأمن فى البلاد[1] . وقد مر على البلاد أكثر من

قرنين حيث ساد السلام فتطرّت خشونة « السيافين » وضعف احتمال الشعب لمكاره الحروب وتضحياتها ؛ وحلّت فى الناس نزعات أبيقورية (ترمى إلى التمتع) محل البساطة الرواقية التى كانت سائدة فى عهد هيديوشى ؛ فلما أن دعيت البلاد فجأة لحماية سيادتها ، وجدت نفسها منزوعة السلاح بمعناه المادى والخلقى جميعاً ؛ وانحل العقل اليابانى بفعل اعتزالها الاتصال بالأجانب ، وأخذ الناس يسمعون بتطلع قلق عن ازدياد الثروة وتغير المدنية فى أوربا وأمريكا ؛ وراح هؤلاء الناس يدرسون ما جاء بكتابى « مابوشى » و « موتو — أورى » وشاع بينهم فى الخفاء أن الحكام العسكريين مغتصبون للحكم ، وقد فككوا باغتصابهم ذلك استمرار سيادة الإمبراطورية ، ولم يستطع الشعب أن يوفق بين الأصل الإلهى للإمبراطور ، وبين فقره المدقع الذى فرضته عليه أسرة « توكوجاوا » ؛ وجعل الدعاة إلى قلب نظام الحكم العسكرى القائم ، يخرجون من مكامنهم فى « يوشيوارا » وغيرها ويغمرون البلاد بنشراتهم التى تحرض الناس على ذلك الانقلاب ، وإرجاع الإمبراطور للحكم .

ونزلت النازلة على رأس هذه الحكومة المرتبكة الفقيرة ، حين شاع النبأ سنة ١٨٥٣ بأن أسطولا أمريكياً قد تجاهل الأوامر اليابانية التى تحرم دخول خليج أوراجا ، ودخل ذلك الخليج ، وأن قائده يلح فى مقابلة صاحب السلطة العليا فى اليابان ، والحقيقة أن « الكومودور پرى » كان يقود أربع سفن حربية فيها خمسمائة وستون رجلا ، وبدل أن يعرض هذه القوة المتواضعة عرضاً فيه معنى التهديد ، أرسل مذكرة ودية إلى الحاكم العسكرى « أبيوشى » يؤكد له أن الحكومة الأمريكية لا تطلب أكثر من فتح بضعة موان يابانية فى وجه التجارة الأمريكية ، واتخاذ بعض الإجراءات لحماية البحارة الأمريكيين الذين قد تتحطم بهم سفائنهم على الشواطئ اليابانية ، ولم يلبث (پرى) أن اضطر إلى العودة إلى قاعدته فى المياه الصينية بسبب (ثورة تاى — ينج) ؛ لكنه عاد إلى اليابان من جديد سنة ١٨٥٤ مسلحاً بقوة بحرية أكبر ، ومزوداً

بمختلف الهدايا المغرية — عطور وساعات ومدافئ وشراب الوسكى . . . يقدمها للإمبراطور والإمبراطورات وأمراء البيت المالك ؛ غير أن الحاكم لعسكرى الجديد « أيسادا » تعمد ألا يرسل هذه الهدايا إلى أفراد الأسرة المالكة ، ووافق على توقيعه لمعاهدة « كاناجاوا » التى اعترفت بكل ما طلبه الأمريكان ؛ وهنا أثنى « برى » على حسن لقاء أهل الجزر اليابانية ، وأعلن مدفوعاً بقصر نظره أنه « لو جاء اليابانيون إلى الولايات المتحدة ، وجدوا المياه الصالحة للملاحة فى البلاد مفتوحة أمامهم ، وأنه ستفتح لهم أبواب مناجم الذهب نفسها فى كليفورنيا »[٢] وهكذا فتحت الموانى اليابانية الكبرى للتجارة الخارجية بمقتضى هذه المعاهدة وما تلاها من معاهدات ؛ وحددت الضرائب الجمركية وفصلت مقاديرها وأنواعها ؛ ووافق اليابانيون على أن يحاكم المتهمون من الأوربيين والأمريكيين فى اليابان أمام محاكمهم القنصلية ؛ واشترطت شروط اتفق فيها على أن يوقف اضطهاد المسيحية فى الإمبراطورية اليابانية ، ووافقت الولايات المتحدة فى الوقت نفسه أن تبيع لليابان كل ما تحتاج إليه من أسلحة وسفن حربية ، وأن تعيرها الضباط والصناع لعل هذه الأمة المسالمة مسالمة صبيانية أن تتعلم على أيديهم فنون القتال[٣] .

وعانى الشعب اليابانى أقسى عناء مما فرضته هذه المعاهدات عليه من فروض الذل ، ولو أنه عاد فنظر إليها على أنها أدوات محايدة جاءته لتعمل على تطوره ، وتقرير مصيره ؛ وود بعض اليابانيين أن يقاتل الأجانب مهما تكلف فى سبيل ذلك ، وأن يطردهم ويعيد للبلاد نظامها الزراعى الإقطاعى الذى يكفيها مؤونة الاعتماد على غيرها ؛ لكن بعضهم الآخر كان من رأيه أن تقليد الغرب أجدى من طرده من بلادهم ؛ فالوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها اليابان أن تتجنب الهزائم المتكررة والخضوع الاقتصادى الذى يشبه ما كانت أوربا تفرضه عندئذ على الصين ؛ هى أن تتعلم اليابان بأسرع طريقة ممكنة أساليب الصناعة الغربية ، وفن الحرب الحديثة ؛ وهنا نهض الزعماء

الداعون إلى تغريب البلاد، واستعملوا اللباقة البالغة فى استخدام سادة الإقطاع أعواناً لهم فى قلب الحكم العسكرى، وإعادة الإمبراطور، وبعدئذ استخدموا السلطة الإمبراطورية فى قلب نظام الإقطاع وإدخال الصناعة الغربية فى البلاد، وهكذا حدث سنة ١٨٦٧ أن حمل أمراء الإقطاع «كيكى» — آخر الحكام العسكريين — على النزول عن سلطته، وقد قال «كيكى»: «إن معظم أعمال الإدارة الحكومية معيبة، وإنى لأعترف خجلا بأن الأمور فى وضعها الراهن يرجع نقصها إلى ما أتصف به أنا من نقص وعجز، وهاهو ذا اتصالنا بالأجانب يزداد يوماً بعد يوم؛ فما لم تتول إدارة البلاد سلطة مركزية موحدة، انهار بناء الدولة انهياراً من أساسه»[٤]؛ وعلى هذا القول أجاب الإمبراطور «ميجى» فى اقتضاب قائلا: «قد قبلنا ما عرضه توكوجاوا كيكى من إعادة السلطة الإدارية إلى البلاط الإمبراطورى، وفى اليوم الأول من يناير سنة ١٨٦٨ بدأ العهد الجديد «عهد ميجى» بداية رسمية.

وروجعت الديانة الشنتوية القديمة، وقام أولو الأمر بدعاية قوية فى الشعب حتى أقنعوه بأن الإمبراطور العائد إلى عرشه إلهىّ النسب والحكمة، وأن ما يصدره من مراسيم يجب طاعته كما تجب طاعة أوامر الآلهة.

فلما أن توفرت هذه القوة الجديدة لأنصار التغريب تمت على أيديهم معجزة أو ما يوشك أن يكون معجزة فى تحول البلاد تحولا سريعاً؛ فقد شق «إتوا» و «إنوى» طريقهما إلى أوربا رغم كل ما صادفهما من صعاب وعقبات، ودرسا أنظمتها وصناعاتها، ودهشا لطرقها الحديدية وسفنها البخارية، وأسلاكها البرقية وسفنها الحربية، ثم عادا إلى بلادهما تشتعل فى صدريهما الحماسة الوطنية نحو تحويل اليابان إلى صورة أوربية، فدُعِى رجال من الإنجليز للإشراف على بناء السكك الحديدية وإقامة الأسلاك البرقية وتكوين الأسطول، كذلك دعى رجال من الفرنسيين ليعيدوا صياغة القوانين ويدربوا

الجيش ، وكلف رجال من الألمان بتنظيم شئون الطب والصحة العامة ، واستخدم الأمريكان فى وضع نظام للتعليم العام ، ولكى يتم لهم الأمر من جميع نواحيه جاءوا برجال من إيطاليا ليعلموا اليابانيين النحت والتصوير(٥) ، وقد كان يحدث بعض الحركات الرجعية أحياناً ، وكانت تصل هذه الحركات إلى حد إراقة الدماء ، بل كانت الروح اليابانية كلها تثور آناً بعد آن على هذا التحول المصطنع الذى رج أوضاع الحياة كلها ، لكن الآلة شقت طريقها آخر الأمر ، ودخلت اليابان بلداً جديداً فى نطاق الانقلاب الصناعى .

ورفعت هذه الثورة بالطبع (وهى الثورة الوحيدة الحقيقية فى التاريخ الحديث) ، طبقة جديدة من الرجال إلى منازل الثروة والقوة الاقتصادية ، — منهم الصناع والتجار والممولون — وقد كان هؤلاء فى اليابان القديمة يوضعون فى أسفل درجات السلّم الاجتماعى ؛ وجعلت هذه الطبقة (البرجوازية) الصاعدة تستخدم فى هدوء ما أتيح لها من مال وقوة نفوذ فى تحطيم النظام الإقطاعى أولا ، ثم عقبت على ذلك بالحد من سلطة العرش العائدة بحيث جعلت منها سلطة وهمية ؛ ففى عام ١٨٧١ حملت الحكومة أشراف الإقطاع على النزول عن امتيازاتهم القديمة ، وعوضتهم عن أراضيهم بسندات أصدرتها الحكومة(*) .

ولما كانت الطبقة الأرستقراطية القديمة قد ارتبطت هكذا بروابط المصلحة المادية مع المجتمع الجديد ، فقد بذلت خدماتها للحكومة عن ولاء ورضى ، ومكنتها من تحويل البلاد من عصرها الوسيط إلى عصرها الحديث دون أن تسفك الدماء فى هذا السبيل ، وكان « إيتو هيرو بومى » قد عاد لتوه من زيارته الثانية لأوربا ؛ فجرى فى بلاده على غرار ما رآه فى ألمانيا ، إذ أنشأ بها طبقة عالية جديدة مؤلفة من خمس درجات :

(*) كان هذا الإجراء يقابل فى جوهره إلغاء النظام الإقطاعى وما يتبعه من عبودية فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وفى روسيا سنة ١٨٦٢ ، وفى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٣ .

أمير ؛ فماركيز ، فكونت ، ففيكونت ، فبارون .

لكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا هم الأعداء الإقطاعيين للنظام الصناعى الجديد بل كانوا لهذا النظام أعوانه المأجورين .

جاهد « إيتو » فى تواضعه جهاداً لم يعرف الكلل ، ليحقق لبلاده ضرباً من الحكومة لا تعيبه العيوب التى بدت فى عينيه عيوباً ناشئة من الإفراط فى الديموقراطية ، على ألا يحد ذلك من تجنيد أصحاب النبوغ وتشجيعهم مهما تكن طبقتهم الاجتماعية لكى يحققوا للبلاد رقياً اقتصادياً سريعاً ؛ وتمكنت اليابان فى ظل زعامته أن تعلن أول دستور لها سنة ١٨٨٩ ؛ فكان الإمبراطور فى قمة البناء التشريعى ، إذ كان من الوجهة الدستورية رأس الحكومة الأعلى ، ومالكاً للأرض كلها ، وقائداً للجيش والأسطول المسئولين أمامه وحده ، وهو الذى يُكسب الإمبراطورية وحدتها واستمرارها وقوتها وسمعتها المستمدة من سمعة مليكها ، وقد شاءت إرادته الكريمة أن يفوض لقوته التشريعية إنشاء مجلسين نيابيين يظلان قائمين ما شاء هو لهما أن يقوما — مجلس الأشراف ، ومجلس النواب ، غير أنه هو الذى يعين وزراء الدولة ، الذين يسألون أمامه وحده لا أمام مجلس البرلمان ، وكان تحت هؤلاء طبقة من الناخبين عددها يقرب من أربعمائة وستين ألفاً حصروا فى هذه الدائرة الضيقة باشتراط مؤهلات كثيرة فى الناخب من حيث مقدار ما يملكه ؛ ثم ارتفع عدد الناخبين بفعل حركات تحريرية متعاقبة حتى بلغ ثلاثة عشر مليوناً فى سنة ١٩٢٨ ، ولكن فساد الحكومة كان يساير التوسع فى الديمقراطية خطوة خطوة(٦) .

وساير هذا التقدم السياسىّ نظام تشريعى جديد (١٨٨١) قائم إلى حد كبير على تشريع نابليون ، وهو يحقق خطوة تقدمية جريئة بالنسبة لتشريع العصور الوسطى التى ساد فيها نظام الإقطاع ؛ فمنحت للناس حقوقهم المدنية منحاً سخياً — إذ منحت لهم حرية الكلام وحرية الصحافة وحرية الاجتماع

وحرية العبادة وعدم انتهاك الرسائل والبيوت ، والحصانة من القبض والعقاب إلا بإجراء قانوني(*) ، وحرم التعذيب والمحنة وفكت عن جماعة الـ « إيتا » قيودهم الطبقية ، وسُوِّى بين الطبقات كلها أمام القانون من الوجهة النظرية ، وأصلحت السجون ، ودفعت الأجور للمسجونين على عملهم ، حتى إذا ما أطلق سراح المسجون أعطى مبلغاً من المال متواضعاً يبدأ به حياة جديدة فى زراعة أو تجارة ؛ وعلى رغم ما أتاحه هذا التشريع للناس من حرية ، فقد ظلت الجرائم قليلة الحدوث(١) .

ولو اعتبرنا رضى الناس بالقانون عن طواعية علامة على مدنيتهم ، عددنا اليابان فى طليعة الأمم الحديثة حضارة (إذا استثنينا عدداً قليلا من حوادث الاغتيال) .

ولعل أهم ما يميز الدستور الجديد هو إعفاء الجيش والأسطول من كل رئاسة إلا رئاسة الإمبراطور ، فإن اليابان لم تنس قط ما وقع لها من ذل فى عام ١٨٥٣ ، ولذا صممت على إنشاء قوة عسكرية تمكنها من السيطرة على تقرير مصيرها بنفسها ، وتجعلها فى النهاية سيدة الشرق كله ، فلم يكفها أن تعمم التجنيد ، بل جعلت من كل مدرسة فى البلاد معسكراً للتدريب الحربى ، وثدياً يُرضع النشء بلبان الحماسة الوطنية ، وكان لهؤلاء الناس استعداد عجيب للنظام والطاعة ، سرعان ما انتهى بقوتهم العسكرية إلى درجة أتاحت لليابان أن تخاطب « الأجانب الهمج » مخاطبة الند للند ، كما أتاحت لها احتمال ابتلاعها للصين جزءاً جزءاً ، وهو أمل طاف برأس أوربا ، لكنه لم يتحقق لها ، وحدث عام ١٨٩٤ أن أرسلت الصين حملة عسكرية لإخماد ثورة فى كوريا ، وأن لبثت تعيد وتكرر القول بأن كوريا دولة تابعة لسلطة الصين ، فلم يعجب اليابان هذا كله ، وأعلنت الحرب على معلمتها القديمة ، وأدهشت العالم بسرعة

(*) أدت حمى الحرب التى اقتضتها مغامرة منشوريا إلى التضييق من هذه الحقوق تضييقاً شديداً .

نتصارها إذ أرغمت الصين إرغاماً على الاعتراف باستقلال كوريا ، وعلى لتنازل لها عن « فرموزا » و « بورت آرثر » (على رأس شبه جزيرة لياوتنج) وعلى دفع تعويض مالى قدره مائتا مليون من التيلات ، وقد أيدت ألمانيا وفرنسا الروسيا فى « نصحها » لليابان بالانسحاب من « بورت آرثر » مقابل زيادة فى تعويضها المالى قدرها ثلاثون مليوناً من التيلات (والزيادة تدفعها الصين) وخضعت اليابان لما طلب إليها ، لكنها احتفظت بذكرى هذه المعاكسة على مضض ، وراحت ترقب فرصة الانتقام .

ومنذ تلك الساعة أخذت اليابان تعد نفسها إعداداً جادا لا يعرف اللهو ، تعد نفسها للصراع مع الروسيا صراعاً كان لا بد من وقوعه نتيجة اتساع الإمبراطوريتين فى آمالها الاستعمارية ، ونجحت اليابان فى إثارة مخاوف إنجلترا من احتمال التوغل الروسى فى الهند فأبرمت مع سيدة البحار تحالفاً (١٩٠٢ — ١٩٢٢) ، تعهدت به كل من الدولتين أن تساعد الأخرى إذا ما اشتبكت فى قتال مع دولة ثالثة ودخلت دولة أخرى فى القتال ، وقلما وقع السلسة الإنجليز على ما يقيد حريتهم كل هذا التقييد الذى فرضته عليهم تلك المعاهدة ، فلما بدأت الحرب مع الروسيا سنة ١٩٠٤ أقرض الممولون الإنجليز والأمريكان أموالا طائلة لليابان ، لتعينها على كسب النصر من القيصر(٨) ، واستولى « نوجى » على « بورت آرثر » وزحف بجيشه نحو الشمال قبل فوات الفرصة لإخماد مذبحة « مكدن » — وهى أفظع ما شهد التاريخ من مواقع دامية ، قبل أن يشهد حربنا العالمية (الأولى) التى لا يضارعها مضارع ، والظاهر أن ألمانيا وفرنسا فكرتا فى مساعدة الروسيا بالسياسة أو بالسلاح ، لكن الرئيس روزفلت صرح عندئذ بأنه إذا حدث شيء كهذا ، فلن يتردد فى الوقوف إلى جانب اليابان(٩) ، وفى ذلك الوقت ، أقلع أسطول روسى قوامه تسع وعشرون سفينة ، وشق طريقه جريئاً حول رأس الرجاء الصالح ، مرتحلا

بذلك رحلة لم يسبق لأسطول حديث أن ارتحل مثلها طولا ، وذلك لكى يقابل اليابان فى مياهها وجهاً لوجه ، غير أن الأميرال « توجو » استعان لأول مرة فى تاريخ الأساطيل البحرية باللاسلكى ، وظل على علم متصل بسير الأسطول الروسى ، ثم وثب عليه وثبة قوية فى مضيق تسوشيما فى السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٥ وأبرق « توجو » لقادته جميعاً رسالة تصور نفسية اليابان كلها . إذ قال : « إن نهوض الإمبراطورية أو سقوطها يتوقف على هذه المعركة »(١٠) فقتل من اليابانيين فيها ١١٦ ، وجرح منهم ٥٣٨ ، وأما الروس فقتل منهم أربعة آلاف ، وأسر سبعة آلاف ، وأغرقت أو أسرت كل سفنهم إلا ثلاثاً .

كانت « موقعة بحر اليابان » نقطة تحول فى مجرى التاريخ الحديث ، فهى لم تقتصر على إيقاف التوسع الروسى فى الأراضى الصينية ، بل أوقفت كذلك سيطرة أوربا على الشرق ، وبدأت ذلك البعث الذى اشتمل آسيا ، والذى يبشر بأن يكون محور الحركات السياسية كلها فى هذا القرن الحاضر ، ذلك أن آسيا كلها قد دبت فيها الحماسة حين رأت الإمبراطورية الجزرية الصغيرة تهزم أكثر دول أوربا عمراناً بأهلها ، فدبرت الصين خطة لثورتها ، وبدأت تحلم بحريتها ، أما اليابان ، فلم يَطُف ببالها أن توسع من نطاق الحرية ، بل فكرت فى الزيادة من سلطانها ، فانتزعت من الروسيا اعترافاً بأن لليابان المكانة العليا فى كوريا ، ثم ما جاءت سنة ١٩١٠ حتى أعلنت اليابان نهائياً ضم كوريا إليها رسمياً ، وهى تلك المملكة القديمة التى بلغت من المدنية يوماً شأوا عظيما ، فلما مات الإمبراطور « ميجى » عام ١٩١٢ ، بعد حياة طويلة طيبة أنفقها حاكما وفناناً وشاعراً استطاع أن يحمل معه إلى الآلهة الذين أنسلوا اليابان رسالة بأن الأمة التى خلقوها ، والتى كانت فى بداية حكمه لعبة فى يد الغرب الفاجر ، قد باتت اليوم رفيعة المكانة فى الشرق ، وقطعت شوطاً بعيداً فى طريقها نحو أن تكون محوراً للتاريخ كله .

الفصل الثاني

الانقلاب الصناعى

حركة التصنيع — المصانع — الأجور — الإضرابات —
الفقر — وجهة نظر اليابان

لم تلبث اليابان نصف قرن إلا وقد غيرت كل وجه من أوجه حياتها ، فتحرر الفلاح رغم فقره ، وأصبح فى مستطاعه أن يملك جزءا متواضعاً من الأرض يدفعه ضريبة سنوية أو أجراً سنوياً للدولة ، ولم يكن من حق أحد من سادة الإقطاع أن يقف فى سبيله لو أراد أن يترك الزراعة ليلتمس وسيلة رزقه فى المدن ، ذلك لأن مدناً عظمى قامت عندئذ على طول الساحل ، منها « طوكيو » (التى معناها العاصمة الشرقية) بقصورها الملكية والارستقراطية وحدائقها الفسيحة وحماماتها المزدحمة وعدد سكانها الذى لم يفقها فيه إلا لندن ونيويورك ، ومنها « أوساكا » التى كانت فى سابق عهدها قرية للسماكة وحصناً ، فأصبحت اليوم جباً مظلماً من الأكواخ الحقيرة والمصانع وناطحات السحاب ، وهى مركز الصناعات فى اليابان ، ومنها « يوكوهاما » و « كوبى » اللتين ترسلان من مرفأيهما الهائلين المعدين بكل ضروب الآلات الحديثة ، تلك الصناعات إلى مئات الموانى ، محملة على ثانى أسطول تجارى فى العالم(*) .

واستعانت البلاد فى وثبتها من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالى باستخدامها لكل وسيلة ممكنة استخداماً لم يسبق له نظير ، فاستدعت الخبراء الأجانب اللذين وجدوا من مساعديهم اليابانيين طاعة المتحرق لمعرفة إرشاداتهم ؛ ولم

(*) يدل الإحصاء الرسمى الأخير على أن سكان يوكوهاما ستمائة وعشرون ألفاً ، وسكان كوبى سبعمائة وسبعة وثمانون ألفاً ، وأوساكا ٢،١١٤،٨٠٤ ، وطوكيو العظمى ٥،٣١١،٠٠٠ .

تمض خمسة عشر عاماً ، حتى تقدم المتعلمون الأذكياء فيما تعلموه تقدماً أتاح لليابان أن تدفع للإخصائيين الأجانب آخر أجورهم وأن ترسلهم إلى أوطانهم بكل إجلال ، واقتفت اليابان أثر ألمانيا ، فاستولت الحكومة على البريد والسكك الحديدية والتلغراف والتليفون ؛ لكنها في الوقت نفسه عرضت قروضاً سخية لمن يريد أن ينهض لنفسه بصناعة ما ، وجعلت تحمى تلك الصناعات الخاصة بالضرائب الجمركية العالية ، من منافسة المصانع الأجنبية في سائر الأقطار ؛ واستعانت البلاد بالتعويض المالي الذى أخذته من الصين بعد حرب سنة ١٨٩٤ على تمويل حركة التصنيع في اليابان وتشجيع الصناعات على نحو ما استعانت ألمانيا بالتعويض الفرنسي سنة ١٨٧١ على استحثاث حركة التصنيع في أرضها ؛ وشبهت اليابان ألمانيا قبل ذلك بجيل واحد ، في قدرتها على البدء بآلات حديثة مقرونة بطاعة من العمال كالتي سادت في عصور الإقطاع ، على حين كانت الدول الأخرى المنافسة لها ، تعاني من آلات قديمة وعمال ثائرين ، وكانت مصادر القوة في اليابان رخيصة والأجور قليلة ، كما كان العمال يخضعون لرؤسائهم خضوع الولاء ؛ لهذا تأخرت عندهم قوانين تنظيم المصانع ، وفرضت على العمال فرضاً لا عنف فيه[١٢] وفي سنة ١٩٣٣ كنت ترى مغازل « أوساكا » الجديدة لا تحتاج إلى أكثر من فتاة واحدة لكل خمس وعشرين آلة ، بينما كانت مغازل لانكشير القديمة تتطلب رجلا لكل ست آلات[١٣] .

وتضاعف عدد المصانع ما بين ١٩٠٨ و ١٩١٨ ؛ ثم تضاعف مرة أخرى بين ١٩١٨ و ١٩٢٤ ، حتى إذا ما كانت ١٩٣١ زادت المصانع نصف عددها[١٤] بينما كانت الصناعة في الغرب عندئذ تخوض أغوار أزمة عميقة ؛ وفي سنة ١٩٣٢ كانت لليابان الصدارة الأولى في تصدير المنسوجات بحيث أرسلت بليوني ياردة من الخمسة بلايين ونصف البليون من ياردات المنسوجات القطنية التي استهلكها العالم في ذلك العام[١٥] ؛ وفي سنة ١٩٢١

تنازلت عن معيار الذهب ، وسمحت لعملتها الـ « ين » أن تهبط إلى أربعين فى المائة من قيمتها السابقة فى التجارة الدولية ، وبذلك استطاعت أن ترفع مبيعاتها فى الخارج خمسين فى المائة عما كانت بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣[١٦] ؛ وازدهرت التجارة الداخلية كما ازدهرت التجارة الخارجية ، واتيح لأسرات تجارية كبرى ، مثل أسرتى « متسوى » و « متسوبيشى » أن تكدسا ثروة طائلة جعلت رجال الجيش يتحالفون مع طبقات العمال فى حركة ترمى إلى جعل الحكومة تتولى بنفسها ، أو تفرض رقابتها على الصناعة والتجارة[*] .

وبينما كان التقدم التجارى يخلق طبقة وسطى جديدة من الأغنياء ، كان العمال الذين ينتجون بأيديهم يتحملون عبء الأثمان المنخفضة التى جعلتها اليابان أداة تهزم بها منافساتها فى الأسواق العالمية ؛ فكان متوسط أجر العامل سنة ١٩٣١—١٧ر١ من الريال كل يوم ، ومتوسط أجر العاملة ٤٨ سنتاً فى اليوم وكان واحد وخمسون فى كل مائة من العمال نساء ، كما كان اثنتا عشر فى كل مائة ممن تقل سنهم عن ستة عشر عاما[١٩][**] وكانت الإضرابات كثيرة الوقوع

(*) لم ترق حركة النقل على اليابس بمثل ما ارتقت الحركة البحرية لأن السلسلة الفقرية الجبلية التى تمتد على طول البلاد ، جعلت التجارة تؤثر البحر ؛ لهذا ظلت الطرق رديئة بالقياس إلى الطرق فى الغرب ، ولم تبدأ السيارات تتهدد اليابان إلا منذ أمد قريب ؛ ومن الملاحظ الآن أن العربات التى يجرها الإنسان ، والتى جرى العرف على إرجاع تاريخها إلى ابتكار مبشر أمريكى فى أوائل العقد الثامن من القرن الماضى[١٧] قد أخذت فى الزوال اليوم أمام السيارات الأمريكية واليابانية ، ورصفت طرق طولها مائتا ألف ميل ؛ وفى طوكيو طريق مشقوق تحت الأرض يمكن مقارنته بنظائره فى أوربا وأمريكا مقارنة ترجح كفته على تلك النظراء ؛ ومدت أول سكة حديدية فى اليابان سنة ١٨٧٢ على مسافة بلغ طولها ثمانية عشر ميلا ، فلما كان عام ١٩٣٢ بلغت السكة الحدية فى تلك الجزر الضيقة ١٣٧٣٤ من الأميال ؛ ويقطع القطار السريع الجديد المسافة بين مدينة « دايرين » (بالقرب من بورت آرثر ، وبين « هسنكنج » (وكانت تسمى شانجشون) عاصمة منشوريا ، وهى مسافة تبلغ سبعمائة كيلو متر ، وبواقع مائة وعشرين كيلو مترا فى الساعة (أى نحو خمسة وسبعين ميلا[١٨] .

(**) يرجع انخفاض أجور النساء إلى عوامل ، من بينها القلقلة ذات التكاليف الباهظة التى تسببها العاملات اللائى جرين على ترك الصناعة إذا ما توفر لديهن مهر الزواج .

والشيوعية تزداد اتساعاً ، حتى هبت على البلاد روح الحرب سنة ١٩٣١ ؛ فنفخت فى الناس وطنية دعتهم إلى التعاون والتماسك ؛ وحرم القانون « الآراء الخطيرة » وفرضت قيود شديدة على نقابات العمال التى لم تبلغ قط مبلغ القوة فى اليابان[٢٠] واتسعت رقعة المساكن الفقيرة فى أوساكاوكوبى وطوكيو ، فقد كانت الأسرة ذات الخمسة الأعضاء فى طوكيو تسكن من تلك المنازل الفقيرة غرفة تبلغ فى المتوسط من ثمانى أقدام إلى عشرة أقدام مربعة — وهى مساحة لا تزيد إلا قليلا عن المساحة التى يشغلها سرير لشخصين ؛ وكان يسكن فى أمثال هذه المساكن فى مدينة كوبى عشرون ألفاً من المتسولين والمجرمين والشاذين والبغايا ؛ كانوا يسكنون فى قذارة بلغت حداً جعل الوباء يتفشى فيهم مرة كل عام ؛ وزادت نسبة الوفيات فى الأطفال أربعة أمثال ما كانت عليه فى بقية اليابان[٢١] ونهض شيوعيون مثل « كاتاياما » واشتراكيون مسيحيون مثل « كاجاوا » يقاومون بالعنف أو باللين تلك الحالة السيئة حتى استيقظت الحكومة آخر الأمر ، وقامت بحركة تطهيرية لتلك المساكن الفقيرة ، لم يشهد التاريخ أعظم منها .

وقد كتب « لافكاديو هيرن » منذ جيل ، يعبر عن رأيه الناقم على النظام الحديث فى اليابان ، فقال :

« إن التاريخ لم يشهد قط فيما مضى أمثال هذه الألوان من البؤس التى تجد مجالها فى ظل النظام الجديد ؛ وتستطيع أن تكوّن لنفسك صورة تقريبية عن هذا البؤس ، إذا عرفت أن عدد الفقراء فى طوكيو الذين يعجزون عن دفع ضريبة المسكن ، يربو على خمسين ألفاً ، ومع ذلك فهذه الضريبة لا تزيد قيمتها على عشرين « سنتاً » وهو ما يقابل عشرين « سنتاً » بالعملة الأمريكية ولم يكن فى أى جزء من أجزاء اليابان مثل هذا العوز قبل أن تتراكم الثروة فى أيدى نفر قليل — إلا إذا استثنينا بالطبع الأعقاب المؤقتة التى تلحق عهود الحرب[٢٢] .

ولا شك أن « تراكم الثروة فى أيدى نفر قليل » عامّ فى العالم كله ، والظاهر

أنه عامل مصاحب للمدنية لا يتخلف ؛ ويقول المموّلون اليابانيون ، إن أجور العمال هناك ليست أقل مما ينبغى إذا روعى عدم كفايتهم فى العمل نسبياً ، وإذا روعى إلى جانب ذلك رخص العيش فى اليابان[٢٣] ، والرأى فى اليابان هو أن الأجور المنخفضة شرط لازم لانخفاض الأسعار ، وانخفاض الأسعار شرط لازم للسيطرة على الأسواق الخارجية ، والأسواق الخارجية شرط لازم لصناعة تعتمد على حديد وفحم يستوردان من الخارج ؛ والصناعة شرط لازم لسد حاجات شعب يتزايد عـــدده فى جزء لا تصلح الزراعة إلا فى اثنى عشر فى كل مائة جزء من أجزاء أرضها ، وهى كذلك ضرورية لاكتساب الثروة وإعداد السلاح اللذين بغيرهما لا تستطيع اليابان أن تحمى نفسها ضد عدوان الغرب .

الفصل الثالث

الانقلاب الثقافى

التغيير فى الشباب — وفى آداب السلوك — الخلق اليابانى — الأخلاق والزواج فى مرحلة انتقال — الدين — العلم — الطب فى اليابان — الفن والذوق — اللغة والتعليم — القصص الطبيعى — صورة جديدة من الشعر

إنا لنسأل هل تغير الشعب نفسه نتيجة للانقلاب الصناعى ؟ إن العين لتلمح بعض ألوان التجديد ؛ فالبدلة الأوروبية المقبضة ذات الشعبتين ، قد سيطرت على معظم سكان المدن ولَفَّتْ أبدانهم ، غير أن النساء مازلن يرتدين ثياباً فضفاضة زاهية الألوان ، يربطها عند الوسط شريط مزخرف يلتئم طرفاه بعقدة عريضة عند الظهر(*) وكلما أصلحت الطرق حلت الأحذية محل القباقيب الخشبية ؛ غير أن نسبة كبيرة من الجنسين ما تزال تمشى بأقدام حافية سليمة من التشويه ؛ وإذا نظرت خلال المدن الكبرى ألفيت كل ضروب التشكيلات والتركيبات التى تجمع بين الثياب الوطنية والثياب الغربية ، كأنما أرادوا بذلك أن يرمزوا إلى تحول استُعْجِلَت خطواته فابتُسر ابتساراً .

ولا تزال آداب المعاملة عندهم نموذجاً « للتشريفات » الدبلوماسية ، ولو أن الرجال ما برحوا عند عادتهم القديمة فى تقدمهم على النساء إذا مادخلوا غرفة أو خرجوا منها ، أو مشوا فى الطريق ، واللغة عندهم نسيج وحدها فى احتشامها فقلَّ أن يداخلها فحش فى اللفظ ، وتراهم يكسون بغطاء ظاهرى من التواضع احتراماً للنفس يبلغ حد التوحش ، وآداب السلوك قد تبلغ من رقتها حداً يلطف من حدة العداوة مهما بلغت من استيلائها على النفوس ؛

(*) النساء المشتغلات بالتعليم أو الصناعة يرتدين ثياباً مفصلة على الطراز الغربى ؛ على أن الرجال والنساء معاً يتجبجون بعد ساعات العمل فى ثيابهم التقليدية .

والخلق اليابانى — شأنه شأن الخلق الإنسانى فى كل بقاع الأرض — مؤلف من أشتات متناقصة لأن الحياة تضعنا فى ظروف مختلفة كل حين ، وتتطلب ، منا أن نأخذها بالشدة حيناً والرقة حيناً ، وباليسر حيناً وبالصرامة حيناً ، وبالصبر حيناً والشجاعة حيناً ، وبالتواضع حيناً والكبرياء حيناً ، لهـذا لا ينبغى لنا أن نأخذ على أهل اليابان جمعهم بين العاطفية والواقعية ، وبين رقة الإحساس وصرامة الجد فى الحياة ، وبين طلاقة التعبير والكتمان ، وبين سرعة التأثر وكبح الجماح ؛ إنهم يغلب عليهم المرح والفكاهة وحب المتعة ، ويميلون إلى الانتحار الذى يروع المتفرج بمنظره ، وهم رقاق القلب — نحو الحيوان غالباً ونحو المرأة أحياناً — لكنهم قساة فى بعض الأحيان على الحيوان والرجال(*) ، وإن اليابانى الصادق فى يابانيته ليتصف بكل صفات الجندى المحارب — الاعتداء والشجاعة والاستعداد لملاقاة الموت استعداداً لا يضارعه فيه مضارع ؛ ومع ذلك كله تراه فى كثير من الأحيان يحمل بين جنبيه روح الفنان — فهو مرهف الحس سهل التأثر رقيق نشيط محب للاطلاع والبحث ذو ولاء وصبر ، وله قابلية شديدة لاستيعاب التفصيلات ، وهو ذو دهاء وحيلة ككل ذى جسد ضئيل ، وذكاؤه وقاد ، تراه لا يبرع فى الخلق الفكرى ، لكنه قادر على الفهم السريع والاقتباس والمهارة العلمية ؛ ولقد اجتمعت فى اليابانى روح الرجل الفرنسى وغروره وشجاعة البريطانى وضيق أفقه ، وحرارة الإيطالى واستعداده للفنون ، ونشاط الأمريكى وميله للتجارة ، وحساسية اليهودى ودهاؤه :

ثم جاء اتصالهم بالغرب وصراعهم معه ، فغيروا حياة اليابان الاخلاقية

(*) حدث فى الاضطراب الذى أعقب زلزال سنة ١٩٢٣ ، ان سكان يوكاهاما من اليابانيين — بينما كانت تمدهم سفن النجدة الأمريكية بالقوت — استغلوا الشعب وذبحوا مئات (وقيل آلافاً) من دعاة التغيير ومن الكوريين العزل فى الطرقات(٤٢) والظاهر أن وطنياً متحمساً قد أثار اليابانيين باعلانه أن الكوريين (الذين كانوا عدداً ضئيلا) يدبرون قلب الحكومة وقتل الإمبراطور .

وطرائق السلوك فيها ، غير أن أمانتهم التقليدية(*) لاتزال قائمة بينهم إلى حد كبير ، وإن يكن التوسع فى حقوق الانتخاب وحدّة التنافس التى تلازم التجارة الحديثة ، قد أدخلا فى اليابان نصيبها النسبى من الرشوة التى هى من خصائص الحكم الديمقراطى ، والقسوة التى تتصف بها الحياة الصناعية ، وخفة اليد فى عالم المال ؛ نعم إن «خُلُق الفرسان» (ويسمونه بوشيدو) لا يزال باقياً هنا وهناك بين طبقات الجنود العليا ، ولذا فهو بمثابة الضابط الارستقراطى الخفيف للجموح الشيطانى الذى استولى على عالمى التجارة والسياسة ؛ والاغتيال كثير الوقوع على الرغم مما تتصف به عامة الناس من طاعة القانون والصبر على أحكامه — والاغتيال هناك لايقع خلاصاً من استبدادية رجعية ، بل يقع عادة لتشجيع روح الوطنية التى لاتبالى الاعتداء ؛ من ذلك أن «جمعية الأفعوان الأسود» التى يرأسها «تویاما» الذى يبدو فى مظهر المنبوذ ، قد كرست نفسها أكثر من أربعين عاماً لبث سياسة غزو كوريا ومنشوريا بين أصحاب المناصب الحكومية فى اليابان(**) وقد اتخذت الاغتيال أداة للوصول إلى هذا الغرض ، ومنها اكتسب الاغتيال مهمة شعبية ظل يقوم بها فى تحريك العالم السياسى فى اليابان(٢٦) .

لقد شارك الشرق الأقصى بلاد الغرب فى الاضطراب الخلقى الذى يصحب كل تغير عميق يتناول الأساس الاقتصادى للحياة ؛ وازدادت الحرب التى ما فتئت قائمة بين الأجيال المتعاقبة ، بين الشباب الطافح بحماسته ، وبين الشيوخ

(*) يقول لافكاديو هيرن : (لقد عشت فى أقاليم لم تعرف السرقة مدى مئات من السنين — حيث ظلت السجون التى ابتناها «ميجى» حديثاً ، خالية لا نفع فيها »(٢٥) .

(**) «الأفعوان الأسود» هو الاسم الذى تطلقه الصين على نهر أمور الذى يفصل منشوريا عن سيبريا ، واليابانيون ينظرون إلى الاغتيال نظرتهم إلى نوع من العقاب الشريف الذى يحل عندهم محل النفى .

المفرطين فى حرصهم ، ازدادت تلك الحرب حدة نتيجة لنمو الصناعة التى تعمل على إبراز شخصية الفرد ، ونتيجة لإضعاف الإيمان الدينى ؛ فالانتقال من الريف إلى المدينة ، وإحلال الفرد محل الأسرة باعتباره الوحدة القضائية المسئولة ، للمجتمع الاقتصادى والسياسى ، قد قوض أركان السلطة الأبوية ، وأخضع عادات القرون الطويلة وأخلاقها للحكم المتسرع الذى يحكم به المراهق على أمثال هذه الأمور ؛ وكنت ترى الشباب فى المدن الكبرى يثورون على نظام الزواج تحت إشراف الأبوين ، وترى العروسين لا يجريان على مألوف العادات من حيث السكنى فى بيت والد العريس ، بل هما أميل إلى إنشاء بيت مستقل أو « شقة » مستقلة ؛ هذا إلى أن سرعة تصنيع النساء قد حتم انحلال الروابط التى كانت تربطهن بالدار واعتمادهن فى العيش على الرجال ؛ والطلاق فى اليابان قد كثر حتى شابه الحال فى أمريكا ، بل هو هناك أخف عاقبة منه فى أمريكا ، لأن الرجل قد يستطيع الطلاق بمجرد توقيعه على دفتر للتسجيل ، ودفعه رسوماً تبلغ ما يساوى عشر « سنتات »[٢٧] ولئن حرم القانون نظام الخليلات ، إلا أنه لا يزال قائماً فعلا يتمتع به كل من تمكنه حالته المالية من تجاهل القانون[٢٨] .

والآلة هى عدو رجل الدين فى اليابان كما هى فى سائر أنحاء العالم ، ولما استوردت اليابان من انجلترا أوضاعها الصناعية الفنية ، استوردت معها « سبنسر » و « ستيورت مِلْ » ، وبهذا أسدل الستار فجأة على سيادة المذهب الكنفوشيوسى فى الفلسفة اليابانية ، ولقد قال تشمبرلين سنة ١٩٠٥ : « إن الجيل الموجود الآن فى المدارس يتشكل على صورة فولتيرية واضحة المعالم »[٢٩] ومن نتيجة هذا الاتجاه نفسه أن ازدهر العلم بارتباطه الحديث بالآلة ، واكتسب فى اليابان قلوب أعظم الباحثين فى عصرنا هذا ، بحيث انصرفوا إليه مخلصين

على نحو ما نعهده فى اليابانيين من الولاء فيما يخلصون له(*) ؛ فالطب فى اليابان — على الرغم من اعتماده فى معظم مراحله على الصين وكوريا — قد تقدم تقدماً سريعاً حين احتذى مثـــل الأوروبيين واندفع بحافزهم ، وخصوصاً الألمان ؛ وإذا أردت أن تعلم مدى السرعة التى انتقلت بها اليابان من مرحلة التلمذ إلى مرحلة الأستاذية التى أخذت تعلم فيها العالم أجمع ، فانظر إلى ما عمله « تاكامين » فى استكشافه للأدرنالين وفى دراسته للفيتامينات ؛ وما أداه « كيتاساتو » فى مرض التتنوس وفقر الدم ، وفى تقدم التلقيح ضد الدفتريا ثم ما عمله ألمعهم جميعاً وأشهرهم جميعاً ، وهو « نجوشى » فى مرض الزهرى ومرض الحمى الصفراء .

ولد « هيديو نجوشى » سنة ١٨٧٦ فى إحدى الجزر الصغرى ، من أسرة بلغ بها الفقر حداً جعل أباه يترك أسرته حين علم أن طفلا ثانياً فى طريقه إلى الحياة ؛ وأهمل الوليد هذا إهمالا جعله يسقط فى مدفأة فاحترقت يده اليسرى حتى شاهت ، وأوذيت يده اليمنى إيذاء كاد يفقد نفعها فكان أن اجتنبه التلاميذ فى المدرسة لما فى جسده من وصمات وتشويه ، وراح الناشئ يفكر فى الانتحار ، لكن جراحاً قدم إلى القرية حينئذ ، وعالج له يده اليمنى علاجاً ناجحاً ، واعترف «نجوشى» للجراح بالجميل اعترافاً جعله يقرر لتوه أن يكرس نفسه للطب ؛ ومن أقواله عن نفسه « سأكون نابليون ينقذ البشرية لا نابليون يفتك بها » « إننى أستطيع الآن أن أعيش معتمداً على نعاس أربع ساعات فى الليل »(٣٠) وكان « نجوشى » مفلساً . فاشتغل فى صيدلية حتى حمل صاحبها

(*) كان التعلم فى اليابان قبل ١٨٥٣ مستورداً معظمه من نتاج الوطن الأصلى نفسه فالتقويم اليابانى الذى كان فيما سبق معتمداً على أوجه القمر ، قد أعيد حسابه بحيث يساير السنة الشمسية ، على يدى كاهن كورى حوالى سنة ٦٠٤ ميلادية ، ثم أدخلت تعديلات من الصين سنة ٦٠٨ ميلادية ؛ واصطنعت اليابان — ولا تزال — طريقة أهل الصين فى حساب الحوادث بردها إلى اسم الإمبراطور الذى وقعت فى أيامه ، وسنة توليه الحكم ؛ وفى سنة ١٨٧٣ أخذت اليابان بالتقويم الجريجورى .

على رصد مبلغ من المال يتعلم به الطب ؛ وبعد أن تخرج فى الطب من الجامعة . ذهب إلى الولايات المتحدة وعرض خدماته على الهيئة الطبية فى الجيش فى وشنطن مقابل نفقاته ؛ وهيأت له مؤسسة روكفلر للأبحاث الطبية معملا ، وشرع « نجوشى » يعمل وحده لا يشاركه أحد على الإطلاق فى إجراء التجارب والقيام بالبحث العلمى مما انتهى إلى أطيب الثمرات ؛ فهو الذى أنتج أول عينة خالصة من جراثيم الزهرى ، وكشف عن أثر الزهرى فى الشلل العام وفى الشلل البطىء الذى يصيب حركة العضلات ، وأخيراً استطاع فى سنة ١٩١٨ أن يعزل طفيلىّ الحمى الصفراء ؛ فلما كسب الشهرة والثروة المؤقته ، عاد إلى اليابان ، وكرّم أمه العجوز ، وجثا على ركبتيه أمام الصيدلى الذى أنفق على دراسته الطبيعية اعترافاً له بالجميل ، ثم ذهب إلى أفريقيا ليدرس الحمى الصفراء التى كانت تفتك بساحل الذهب من أوله إلى آخره ، فأصابته هذه الحمى ومات سنة ١٩٢٨ ، ومما يزيدنا حسرة على موته أنه لم يكن قد بلغ من العمر أكثر من اثنين وخمسين عاماً .

كان التقدم العلمى فى اليابان — كما كان كذلك فى الغرب — مصحوباً بانحلال فى الفنون التقليدية ؛ فتقويض الطبقة الأرستقراطية القديمة قد قوض عشاً كان يترعرع فيه حسن الذوق ، وراحت الأجيال بعدئذ تتخذ لنفسها ما شاء لها هواها من معايير الجمال ، بحيث يستقل كل جيل فى معياره الذوق عما سلفه ؛ وتدفقت الأموال من البلاد الخارجية سعياً وراء المنتجات الوطنية ، فأدى ذلك إلى الإنتاج السريع الذى يعنى بالكم وحده ، وانحطت مستويات الرسوم اليابانية تبعاً لذلك ، فلما عاد الشارون إلى طلب المصنوعات القديمة ، انقلب الصناع جماعة من المزورين ، وأصبحت صناعة الآثار القديمة فى اليابان — كما هى الحال فى الصين — أروج الصناعات فى الفنون الحديثة ؛ ولعل جانب الصناعة الخزفية المعروف باسم cloisouné أن يكون الفرع الوحيد من فروع تلك الصناعة ، الذى تقدم فى اليابان منذ قدوم الغرب إلى

البلاد ؛ فالانتقال المضطرب من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية ، وهجمة الأذواق والأساليب الأجنبية على أهل البلاد متسترة برداء من الظفر والثروة ، قد ادى إلى زعزعة الحس الجمالى عند اليابانيين وإضعاف ذوقهم بحيث لم يعد على ما كان عليه من ثبات ؛ وهاهى ذى اليابان قد اختارت السيف اتجاهاً ، فاطلها قد كُتب لها أن تعيد تاريخ الرومان — بأن تقلد فى الفن ، وتسود فى الإدارة والحرب(*) .

لقد لبثت الحياة العقلية فى الإمبراطورية الحديثة جيلا اتجهت خلاله نحو محاكاة الأساليب الغربية ، فتكاثرت الكلمات الأوروبية فى لغة القوم ، ونظمت الصحف على الطريقة ، وأنشئت مجموعة من المدارس العامة على غرار المدارس النموذجية الأمريكية ؛ إذ صممت اليابان تصميم الأبطال على أن تجعل من نفسها أمة تكون أسبق أمم الأرض جميعاً فى إزالة الأمية ، وقد نجحت فيما أرادت ، فى سنة ١٩٢٥ كان يختلف إلى المدارس من أبناء البلاد ٩٩٫٤ فى المائة(٣١) وفى سنة ١٩٢٧ كان فى مستطاع ٩٣ فى كل مائة من أهل البلاد جميعاً أن يقرأوا(٣٢) ؛ فقد أقبل الطلاب على الحركة العرفانية العلمانية الجديدة إقبالا فيه حرارة الإيمان الدينى ، حتى لقد أفسد مئات منهم صحة أبدانهم بسبب حماستهم فى كسب المعرفة(٣٣) واضطرت الحكومة اضطراراً أن تتخذ الوسائل الفعالة لتشجيع الرياضة البدنية والألعاب بكافة صنوفها ، القومى منها والمستعار من البلاد الخارجية ؛ وخرج التعليم من كنفه الدينى واصطبغ بصبغة علمانية أكثر مما اصطبغ به التعليم فى معظم الأقطار الأوربية ؛ وأعينت خمس جامعات إمبراطورية ، وقامت إحدى وأربعون جامعة أخرى — قد تقل فى نزعتها الإمبراطورية عن تلك الخمس — وضمت بين جدرانها آلاف الطلاب المتحمسين ؛ وفى سنة ١٩٣١ كانت الجامعة الإمبراطورية فى طوكيو تشتمل على ٨٠٦٤ طالباً ، وجامعة كيوتو تشتمل على ٥٥٥٢ طالباً (٣٤) .

(*) أخذت اليابان اليوم حمى الوطنية ؛ فأدت بها إلى إحياء الحوافز والأساليب القومية .

وأما الأدب اليابانى فى الربع الأخير من القرن (التاسع عشر) فقد أفنى نفسه فى سلسلة من ألوان المحاكاة ؛ وتوالت على الطبقة المثقفة موجات الحرية الإنجليزية والواقعية الروسية والفردية النيتشية والبراجماسية الأمريكية ، فاكتسحتها واحدة بعد واحدة ، حتى عادت روح الوطنية فأكدت نفسها ، وبدأ الكتاب اليابانيون يكشفون عن مادتهم القومية فيعبرون عنها بأساليبهم القومية ؛ وقد ظهرت فتاة شابة تدعى « إيثى يو » فافتتحت حركة فى كتابة القصة تنحو منحى المذهب الطبيعى قبل موتها سنة ١٨٩٦ وهى فى عامها الرابع والعشرين ، وذلك بتقديمها صورة ناصعة عن تعاسة النساء وذلهن فى اليابان(٣٥) ، وفى سنة ١٩٠٦ دفع الشاعر « توسون » هذه الحركة إلى أوجها بقصة طويلة عنوانها « هاكاى » أى عدم الوفاء بالعهد ، قصّ فيها بنثر شعرى قصة معلم وعد أباه ألا يفضح عن نفسه حقيقتها وهى أنه من طبقة « إتيا » أى الطبقة التى انحدرت من أسلاف عبيد ، وبهذا أتيح له بما كان له من قدرة وما ظفر به من تعليم أن يحتل مكانة عالية ، فأحب فتاة مهذبة من ذوات المكانة الاجتماعية ؛ وبعدئذ فار فورة صدق اعترف فيها بأصله ، وتنازل عن حبيبته ومكانته ، وغادر اليابان لغير عودة ، فكانت هذه القصة عاملا قوياً فى تحريك النفوس تحريكاً انتهى آخر الأمر بإسدال الستار على العوائق التى لبثت طوال التاريخ مفروضة على طبقة « إيتا » .

وكانت صورتا الشعر الموجز المعروفتان باسم « تانكا » و « بوكا » آخر صور الثقافة اليابانية استسلاماً للمؤثرات الغربية ، إذ لبثتا أربعين عاماً بعد عودة الإمبراطور إلى عرشه الفعلى ، هما الصورتين المنشودتين لقرض الشعر اليابانى ، وفنى الروح الشعرى فى آيات معجزات من البراعة والصناعة ، حتى كان عام ١٨٩٧ ؛ ظهر معلم شاب ، هو « توسون » فى « سنداى » وباع لأحد الناشرين ديواناً من الشعر بخمسة عشرة ريالا ، فجاء هذا الديوان بقصائده الطويلة ثورة تكاد تبلغ فى عنفها مبلغ أية ثورة أخرى مما زعزع نسيج الدولة ؛ وكان الشعب قد ملّ الأقوال القصيرة الرشيقة ، فأقبل على هذا

الديوان (ذى القصائد الطويلة) إقبال الشاكر ، وسبّب بإقباله هـذا ثراء للناشر ؛ وسار بعض الشعراء الآخرين فى إثر توسون ، وانتهى الأمر بصورتى الشعر الموجز الـ « تانكا » والـ « بوكا » أن أسلمتا زمام السيطرة بعد أن ظلتا ممسكتين به ألف عام(٣٦) .

وعلى الرغم من ظهور هذه الصور الشعرية الجديدة ، فقد ظلت « المباراة الإمبراطورية فى قرض الشعر » قائمة كما كانت ؛ فالإمبراطور يعلن فى كل عام موضوعاً ، ثم يسوق مثالا بنشـيد يمليه فى ذلك الموضوع ؛ وتقتفى الإمبراطورة أثره ، وبعدئذ يرسل خمسة وعشرون ألف شاعر يابانى من كافة الأشكال والطبقات ، يرسل هؤلاء قصائدهم إلى « مكتب الشعر) فى القصر الإمبراطورى ؛ وتشكل لها هيئة تحكيم من أعلى أعلام البلاد ؛ حتى إذا ما انتهى التحكيم إلى القصائد العشر الأولى ، قرئت على الإمبراطور والإمبراطورة ، وطبعت فى الصحف اليابانية فى العدد الذى يصدر فى اليوم الأول من العام(٣٧) ، فياله من تقليد بديع خليق أن يدير النفس لحظة عن دنيا التجارة والحروب ، وهو يدل على أن الأدب اليابانى ما زال جزءاً حيوياً فى حياة أمة هى أكثر الأمم حيوية فى العالم المعاصر .

الفصل الرابع

الإمبراطورية الجديدة

الأسس المزعزعة للمدنية الجديدة – أسباب النزعة الاستعمارية اليابانية – الطلبات الواحدة والعشرون – مؤتمر وشنطن – قانون الهجرة الصادر سنة ١٩٢٤ – غزو منشوريا – المملكة الجديدة – اليابان والروسيا اليابان وأوربا – هل لا بد لأمريكا من محاربة اليابان ؟

لقد أقامت اليابان الجديدة بناءها على أسس مزعزعة على الرغم من نموها السريع فى الثراء والقوة ؛ فقد عدد سكانها من ثلاثة ملايين أيام (شوتوكو تايشى) حتى بلغ سبعة عشر مليوناً فى حكم (هيديوشى) ثم بلغ ثلاثين مليوناً فى عهد (يوشيمونى) وزاد على خمسة وخمسين مليوناً فى آخر عهد (ميجى) (١٩١٢)(*) .

وإذن فقد تضاعف السكان فى مدى قرن واحد ، وضاقت الجزر التى تكتنفها الجبال ، والتى تقل فيها الأراضى الصالحة للزراعة ، بملايينها المتزايدة ؛ فسكان تلك الجزر الذين يبلغون نصف سكان الولايات المتحدة ، لا يجدون مما يقيم حياتهم أكثر من جزء من عشرين جزءاً بالنسبة لثروة الولايات المتحدة(٣٨) وإذن فلا سبيل أمامها سوى المصانع ، ومع ذلك تراها فقيرة فقراً يبعث على الأسى ، فى مواد الوقود وفى المعادن التى لا غنى للصناعة عنها ، نعم إن القوة

(*) بلغ عدد سكان الإمبراطورية اليابانية سنة ١٩٣٤ ثمانين مليوناً (والإمبراطورية اليابانية تعنى اليابان وكوريا وفورموزا وبعض الممتلكات الصغيرة الأخرى) ولو نجحت اليابان فى استمالة سكان منشوريا إلى الحكم اليابانى فستتحكم فى دنيا الصناعة والحرب فى مائة وعشرة من الملايين ؛ ولما كان سكان اليابان وحدها يزيدون بنسبة مليون كل عام ، ثم لما كان سكان الولايات المتحدة يقربون مسرعين من حد الجمود لا زيادة بعده ، فربما جاء اليوم قريباً حيث تصطدم الدولتان بعدد من السكان قريب من التعادل .

الكهربائية المتولدة عن تدفق الماء كانت كافية فى المجارى التى تسيل من الجبال إلى البحر ، لكن استغلال هذا المصدر أكمل استغلال لا يضيف إلى القوة المستعملة بالفعل إلا مقدار ثلثها(٣٩) ولا يمكن الاعتماد عليها لسد حاجات المستقبل المتزايدة ؛ ووجدت طبقات من الفحم هنا وهناك ممتدة فى عروق تكاد تعز على متناول الإنسان ، وجدت فى جزر « كيوشو » و « هوكاديو » ، كما أمكن الحصول على البترول من « سخالين » ، أما الحديد — وهو من الصناعة لبها وصميمها — فيكاد لا يكون له أثر فى التربة اليابانية(٤٠) ؛ وبعد هذا كله ، فإن مستوى المعيشة المنخفض الذى فرض على سواد الناس فرضاً بحكم صعوبة الحصول على المواد والوقود وارتفاع تكاليفها ، جعل الاستهلاك يزداد تأخراً بالنسبة إلى تقدم الإنتاج ؛ فالمصانع التى كانت آلاتها تزداد حُسناً كل عام . راحت تصب فيضاً من السلع يزيد على حاجة أهل البلاد ولا يمكن شراؤه فيها ، ويصرخ صرخات عالية مطالباً لنفسه بأسواق فى الخارج .

من مثل هذه الظروف تنشأ الرغبة فى الاستعمار ، وأعنى بكلمة الاستعمار ذلك المجهود الذى يبذله النظام الاقتصادى فى بلد من البلاد — مستعيناً فى ذلك بالحكومة التى هى أداته فى تحقيق أغراضه — يبذله نحو بسط سيادته على مناطق أجنبية يعتقد أنها تمده بما تحتاج إليه من وقود وأسواق ومواد خامة وأرباح ؛ فأين عسى أن تجد اليابان هذه الفرصة وتلك المواد ؟ إنها لا تستطيع أن تتجه بأبصارها نحو الهند الصينية أو الهند أو استراليا أو الفلبين ، لأن هذه البلاد قد سبقت الدول الغربية إلى الاستيلاء عليها ، وفرضت فيها من الحواجز الجمركية ما يناصر سادتها البيض على أهل اليابان ؛ وواضح أن الصين قد وضعها الله على أبواب اليابان مقدراً لها أن تكون سوقاً للسلع اليابانية ، كما أن منشوريا — منشوريا الغنية بفحمها وحديدها ، والغنية بقمحها الذى لا تستطيع الجزر اليابانية أن تستنبته فى بلادها على نحو يفنيدها ، والغنية برجالها الذين

يصلحون للصناعة والضريبة والحرب — منشوريا هذه قد كتب عليها كذلك أن تكون تابعة لليابان ؛ وبأى حق ؟ بنفس الحق الذى استولت به انجلترا على الهند واستراليا ، واستولت فرنسا به على الهند الصينية ، واستولت به ألمانيا على شانتونج ، والروسيا على بورت آرثر ، وأمريكا على الفلبين — وهو حق الحاجة التى يشعر بها القوى ؛ وعلى كل حال فليس للناس حاجة فى نهاية الأمر إلى التماس المعاذير ، وإنما كل ما يتطلبونه هو القوة والفرصة السانحة اللتان تمكنانك من فعل ما تريد ؛ فالنجاح فى رأى أتباع المذهب الداروينى ، يبرر كل الوسائل التى تحققه

وجاءت الفرصة تفتح لليابان صدرها رحيباً — جاءت أولا فى الحرب العالمية الأولى ، ثم جاءت بعد ذلك فى انهيار الحياة الاقتصادية فى أوربا وأمريكا ؛ فلم يقتصر أثر الحرب على مجرد الزيادة من إنتاج اليابان (كما حدث فى أمريكا) زيادة تطلبتها سوق عظمى خارجية ناشئة بسبب قيام الحرب — وأعنى بتلك السوق قارة أوربا التى كانت مشتبكة فى القتال ؛ بل إن تلك الحرب قد أدت كذلك إلى إضعاف أوربا واستنفاد قواها ، وتركت اليابان وشكة أن تكون بغير شريك فى العالم الشرقى ؛ فبسبب هذا كله غزت شانتونج سنة ١٩١٤ ، وبعد ذلك بعام واحد تقدمت إلى الصين « بالمطالب الواحدة والعشرين » التى لو تمكنت من فرضها على الصين ، لأصبحت الصين مستعمرة هائلة تابعة لليابان الضئيلة .

فالمجموعة الأولى من المطالب أرادت من الصين أن تعترف بسيادة اليابان على شانتونج ؛ وطالبت اليابان بالمجموعة الثانية منها بامتيازات صناعية معينة ، وبالاعتراف بحقوق خاصة تتمتع بها اليابان فى منشوريا ومنغوليا الشرقية ؛ وعرضت المجموعة الثالثة من تلك المطالب أن تكون أكبر شركات التعدين فى أرض الصين شركة مشتركة بين الصين واليابان ؛ وطالبت المجموعة الرابعة

(وهى موجهة ضد رجاء أمريكا فى أن تكون لها محطة للفحم بالقرب من فوشو) « بألا تتنازل الصين عن أية جزيرة أو ميناء أو مرسى على طول الساحل لدولة ثالثة » ، واقترحت المجموعة الخامسة اقتراحاً متواضعاً وهو أن تستخدم الصين منذ ذلك الحين فصاعدا مستشارين يابانيين فى شئونها السياسية والاقتصادية والحربية ، وأن تكون إدارة الشرطة فى المدن الصينية الكبرى فى يد مشتركة بين الصينيين واليابانيين ، وأن تشترى الصين نصف ذخائرها على الأقل من اليابان ، وأن يكون لليابان كل الحرية فى مد السكك الحديدية وحفر المناجم وبناء الموانى فى منطقة فوكين(٤١) .

واحتجت الولايات المتحدة بأن بعض هذه « المطالب » فيه اعتداء على سلامة الأراضى الصينية ، وعلى مبدأ « الباب المفتوح » فألغت اليابان المجموعة الخامسة من تلك المطالب ، وعدلت بقيتها ، ثم قدمتها للصين مقرونة بإنذار نهائى فى اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩١٥ ، فقبلتها الصين فى اليوم التالى لتقديمها ، وتبع ذلك مقاطعة من الصين للبضائع اليابانية ، لكن اليابان مضت فى طريقها قدماً ، على زعم يؤيد التاريخ صحته ، وهو أن المقاطعة التجارية لا بد منتهية عاجلا أو آجلا إلى فشل ، لأن التجارة تميل بطبيعتها إلى أن تتبع أقل التكاليف ؛ وفى سنة ١٩١٧ بسط « الفيكونت إشياى » فى لباقة ، موقف اليابان للشعب الأمريكى ، حتى حمل الوزير « لانسنج » على توقيع اتفاق يعترف بأن « لليابان مصالح خاصة فى الصين ، خصوصاً فى الأجزاء المتاخمة لممتلكاتها » ؛ وفى مؤتمر وشنطن سنة ١٩٢٢ أرغم الوزير « هيوز » اليابانيين على الاعتراف بمبدأ « الباب المفتوح » فى الصين ، وبأن تقتنع اليابان بأسطول يبلغ ستين فى المائة من حجم الأسطول الإنجليزى أو الأمريكى(*) ووافقت

(*) وضعت نسبة الأساطيل الإنجليزية والأمريكية واليابانية على أساس ٥ ، ٥ ، ٣ وباعتبار امتداد السواحل أو الممتلكات التى تتطلب من انجلترا أو من أمريكا دفاعاً ، إذا قيست إلى صغر حجم اليابان وحماية أرضها حماية طبيعية .

اليابان فى نهاية المؤتمر على أن تعيد إلى الصين ذلك الجزء من شانتونج (تسنجتاو) الذى كانت أخذته من ألمانيا إبان الحرب ، ثم مات الحلف الإنجليزى اليابانى موتاً هادئاً ، وراحت أمريكا تحلم فى فراشها الدافئ بسلام لا تزعجه الحروب أبد الآبدين .

لكن السياسة الأمريكية اصطدمت بفشل من أبشع ما شهدته فى تاريخها ، بسبب تلك الثقة الصبيانية فى مستقبل ناعم ، ذلك أن الرئيس « تيودور روزفلت » لما رأى سكان الساحل الممتـــد على المحيط الهادى قد أزعجتهم هجرات اليابانيين المتواصلة إلى كاليفورنيا ، أخذ فى سنة ١٩٠٧ يفاوض الحكومة اليابانية مستعيناً بسلامة إدراكه التى كانت تكمن فى ثنايا حياته الصاخبة التى قربته إلى قلوب الشعب ، واتفق معها « اتفاق السيد الكريم مع السيد الكريم » بحيث وعدت اليابان أن تمنع هجرة عمالها إلى الولايات المتحدة ، لكن ارتفاع نسبة المواليد بين أولئك اليابانيين الذين كانوا قد سمح لهم فعلا بالدخول ، لم تزل تزعج الولايات الغربية من أمريكا ، حتى إن كثيراً من تلك الولايات أصدر القوانين التى تحرم على الأجانب امتلاك الأراضى ، ولما قرر « الكونجرس الأمريكى » سنة ١٩٢٤ أن يحدد الهجرة إلى البلاد ، أبى أن يطبق على الأجناس الأسيوية مبدأ النسبة المخفضة التى سمح بها للشعوب الأوروبية(*) بل حرم هجرة الأسيويين تحريماً قاطعاً ، وقد كان من المستطاع أن نصل إلى نفس النتيجة تقريباً لو طبقنا النسبة الجديدة على كل الأجناس بغير تمييز ولا تعيين ، واحتج الوزير « هيوز » قائلا : « إن هذا التشريع لا فائدة منه إطلاقاً حتى بالنسبة للغاية التى سُنّ من أجل تحقيقها »(٣)، لكن المتحمسين فسروا الإنذار الذى وجهه السفير اليابانى بشأن « النتائج الخطيرة التى قد تترتب على هذا القانون » فسروه بأنه تهديد ، واستولت عليهم حمى البغضاء فأصدروا « قانون الهجرة » .

(*) يقرر ذلك المبدأ أن يكون عدد المهاجرين من أى قطر مساوياً فى نسبته إلى مجموع العدد المسموح بهجرته طول العام ، لنفس النسبة التى بين عدد سكان الولايات المتحدة من أبناء ذلك القطر سنة ١٨٩٠ وبين مجموع عدد سكان الولايات المتحدة فى تلك السنة .

واشتعلت النار اشـــتعالا فى اليابان كلها لهذا الذى بدا فى عينها إهانة مقصودة ؛ وعقدت الاجتماعات وألقيت الخطب ، وانتحر وطنى متحمس على طريقة (هاراكيرى) أمام دار (الفيكونت إنوبى) ليعبر بانتحاره ذلك عن شعور القوم جميعاً بالعار ؛ أما زعماء اليابان ، فكانوا يعلمون أن بلادهم قد أضعفها زلزال سنة ١٩٢٣ ، فصمتوا وتربصوا ينتظرون الفرصة السانحة ، فلو سارت الأمور سيراً طبيعياً ، فسيفتُّ الضعف كذلك بأمريكا وأوربا ، وعندئذ ستنتهز اليابان فرصتها ، وتثأر لنفسها ولو بعد حين .

فلما أعقبت أعظم الحروب جميعاً أزمةٌ اقتصاديةٌ هى أعظم الأزمات جميعاً ، وجدت اليابان فرصتها التى طال انتظارها لها ، لكى تثبت أركان سيادتها فى الشرق الأقصى ؛ إذ أعلنت أن السلطات الصينية قد أساءت إلى تجار اليابان فى منشوريا ، هذا إلى شعور خفى عندها بأن سككها الحديدية وسائر مُستَغَلاتها الاقتصادية هناك تهددها المنافسة الصينية ، فأمرت جيشها فى سبتمبر سنة ١٩٤١ أن يتقدم فى منشوريا ، بادئة فى ذلك بالعدوان ، أما الصين فكانت فى حالة من الفوضى بسبب الثورة وبسبب حركة انفصالية بين أقاليمها وبسبب ارتشاء ساستها ، فلم تستطع أن تجمع كلمتها فى مناهضة اليابان إلا على صورة واحدة ، وهى أن تعود من جديد إلى مقاطعة البضائع اليابانية ، فلما تذرعت اليابان بحجة الدعاية الصينية لمقاطعة التجارة اليابانية ، وغزت شنغهاى (١٩٣٢) لم ينهض من الصينيين لمقاومة هذا الغزو إلا قلة ضئيلة ؛ ووجهت الولايات المتحدة اعتراضات فى هذا الصدد ، ووافقتها عليها الدول الأوربية (من حيث المبدأ) موافقة باعثها الحذر ، لكنها كانت فى شغل من مصالحها التجارية الفردية بحيث لم تستطع أن تجمع كلمتها جميعاً على إجراء حاسم إزاء هذه الإزالة السريعة لسيادة الرجل الأبيض على الشرق الأقصى ، تلك السيادة التى لم تدم إلا قليلا ؛ وعينت عصبة الأمم لجنة برئاسة) إيرل ليتُن) فقامت ببحث يظهر

فيه الإحكام والحياد ، ثم قدمت تقريرها ؛ غير أن اليابان انسحبت من العصبة على نفس الأساس الذى دعا الولايات المتحدة سنة ١٩٣٥ إلى رفضها الاشتراك فى (هيئة العدل الدولية) — وهو أنها لا تريد أن تحاكم أمام هيئة قضاتها هم أعداؤها ؛ وكانت مقاطعة البضائع اليابانية فى الصين قد خفضت واردات اليابان إلى الصين بنسبة أربعة وسبعين فى المائة بين شهر أغسطس سنة ١٩٣٢ وشهر مايو سنة ١٩٣٣ ؛ لكن التجارة اليابانية فى الوقت نفسه كانت تطرد التجارة الصينية من الفلبين وولايات الملايو والبحار الجنوبية ؛ ولم تحل سنة ١٩٣٤ حتى استطاع ساسة اليابان — بمعونة ساسة الصين — أن يحملوا الصين على إقرار تعريفة جمركية فى صالح المنتجات اليابانية ضد منتجات الدول الغربية [٤٣] .

وفى مارس سنة ١٩٣٢ عينت السلطات اليابانية (هنرى پوبى) وارث عرش مانشو فى الصين ، رئيساً لحكومة دولة منشوكو الجديدة ، ثم نصبته بعد عامين ملكاً باسم (كانج ته) وكان ذوو المناصب فى تلك الحكومة إما من اليابانيين أو من أهل الصين الموالين لليابان ، وقد كان خلف كل موظف صينى مستشار يابانى[٤٤] ؛ فبينما كانت خطة (الباب المفتوح) معترفاً بها من الوجهة الفنية ، التمست اليابان سبلها نحو وضع التجارة والموارد المنشوكية تحت سلطانها[٤٥] ؛ ولئن تعذر على اليابانيين أن يمضوا فى هجرتهم من بلادهم إلى تلك الدولة ، فقد تدفقت رءوس الأموال اليابانية إليها تدفقاً غزيراً ، ومدت الخطوط الحديدية لأغراض تجارية وعسكرية ، وأصلحت الطرق بخطوات سريعة ، وبدأت المفاوضات لشراء (السكة الحديدية الشرقية الصينية) من السوفييت ، ولم يكتف الجيش اليابانى الظافر القادر بتنظيم الدولة الجديدة ، بل جعل يملى سياسة حكومتها فى طوكيو ، وغزا إقليم (جهول) بالنيابة عن الملك (پوبى) ، ثم تقدم حتى كاد يبلغ (پيپنج) ، لكنه تقهقر تقهقراً مشرفاً ، لينتظر الفرصة السانحة .

وإلى أن تحين تلك الفرصة المرتقبة ، راح ممثلو اليابان فى تانكنج يبذلون جهدهم المالى كله ليكسبوا من الحكومة الصينية رضاها عن زعامة اليابان فى كل جانب من جوانب حياة الصين الاقتصادية والسياسية ؛ فإذا ما كسبت الصين بالغزو أو بالقروض المالية ، باتت اليابان على استعداد لمواجهة عدوتها القديمة : التى كانت فيما مضى إمبراطورية الروس أجمعين ، وأصبحت اليوم تعرف باسم « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » ؛ وإن الجيش اليابانى ليستطيع أن يضرب ضربته فى أى موضع على طول طريق القوافل فى منغوليا فيخترق « كالجان » و « أورجا » ؛ أو عبر الحدود المنشوكية فيتوغل فى « شيتا » أو فى أى موضع آخر من مئات المواضع الضعيفة التى يتثنى عندها الخط الحديدى حول الدولة الجديدة ؛ ذلك الخط الذى يخترق سيبريا ، والذى لا يزال فى معظم أجزائه فى الشرق الأقصى خطاً مفرداً ، أقول إن الجيش اليابانى يستطيع أن يضرب ضربته فى أى موضع من تلك المواضع فيقطع الرباط الحيوى الذى يربط الصين وڤلاديڤستك وما وراء بيكال ، بعاصمة الروس ؛ فأخذت الروسيا تعد نفسها لهذا الصراع المحتوم إعداداً فيه روح البطولة وحرارة التحمس ؛ فبذلت مجهوداً فى استغلال مناجم الفحم وإقامة مصانع الصلب فى مدينتى « كوزنتسك » و « ماجنيتو جورسك » ، بحيث يمكن تحويل تلك المناجم والمصانع إلى معامل هائلة للذخيرة ، وأعدت فى الوقت نفسه طائفة كبيرة من الغواصات فى « ڤلاديڤستك » ليلاقى الأسطول اليابانى ، كما أعدت مئات من قاذفات القنابل التى جعلت أعينها مفتوحة ترقب مراكز الإنتاج والمواصلات فى اليابان ، وتلحظ مدنها المنشأة من خشب دماره ميسور .

ووقفت الدول الغربية خلف هذه الطليعة المنذرة بالشر ، وقفت واجلة خائبة الرجاء : فأمريكا يأكلها الغضب لفقدانها أسواق الصين ؛ وفرنسا تتساءل : ترى كم يتاح لها أن تظل مسيطرة على الهند الصينية ، وانجلترا قلقة

على استراليا والهند ، ومضطربة بسبب منافسة اليابان لها ، لا فى الصين وحدها بل فى كل أرجاء ملكها فى الشرق ؛ ومع ذلك ففرنسا آثرت أن تعين اليابان معونة مالية على مُناصبتها العدوان ، وبريطانيا الحذرة رأت أن تنتظر فى صبر لم يسبق له مثيل ، راجية أن يفتك كل من منافستيها العظيمتين فى التجارة الأسيوية بالأخرى ، فتتركا العالم لانجلترا وحدها من جديد ؛ وأخذ تضارب المصالح يشتد خدة يوماً بعد يوم ، ويدنو رويداً رويداً من الصراع المكشوف ؛ وأصرت اليابان على أن تحتفظ الشركات الأجنبية التى تبيع لها البترل ، بمخزون من البترول على أرض يابانية يكفى حاجة الجزر نصف عام فى حالة الطوارئ ؛ وأغلقت مانشوكو أبوابها فى وجه البترول اليابانى ، واستطاعت اليابان — رغم احتجاجات الأمريكيين ورغم معارضة رئيس جمهورية أورجواى — استطاعت أن تأخذ تصريحاً من الهيئة التشريعية فى أوراجواى ، بأن تقيم على نهر پلات ميناء حرة ، تدخلها السلع اليابانية بغير ضريبة جمركية ، أو تصنع فيها البضائع اليابانية ؛ ومن هذا المركز الحربى ، ستنفذ اليابان إلى قلب أمريكا اللاتينية من حيث التجارة والمال ، ستنفذ بخطوات لم يسبق لها مثيل فى السرعة منذ عَمِلَ الغزو الألمانى السريع لأمريكا الجنوبية على نشوب الحرب العظمى ، وعلى اشتراك أمريكا فيها ؛ ولئن أخذت ذكريات تلك الحرب فى الزوال ، فإن العدة لتتخذ من جديد لحرب جديدة(*) .

أليس لأمريكا بد من محاربة اليابان ؟ إن نظامنا الاقتصادى يسخو فى العطاء لأصحاب رءوس الأموال ، فيعطيهم قسطاً كبيراً من الثروة التى يتعاون على خلقها العلم والإدارة والأيدى العاملة ، فلا يبقى إلا قدراً أقل مما ينبغى أن يبقيه لسواد المنتجين ، حتى يتاح لهم أن يشتروا السلع التى أنتجوها ؛ وبهذا يفيض قدرٌ زائد من السلع ، يصرخ مطالباً بغزو الأسواق الخارجية ،

(*) وقعت تلك الحرب الجديدة فعلا سنة ١٩٣٩ (المعرب) .

وإلا اضطرب مجرى الإنتاج فى داخل البـــلاد (أو اضطر أصحاب تلك السلع أن يزيدوا من القدرة الاستهلاكية بين أفراد الشعب) ، ولئن كان هذا القول صحيحاً بالنسبة لنظامنا الاقتصادى (يقصد النظام الأمريكى) فهو أصح بالنسبة لليابان ، فهى مضطرة كذلك إلى غزو أسواق خارجية ، لا لكى تحتفظ بثروتها فحسب ، بل لتضمن كذلك الوقود والمواد الخامة التى لا غنى عنها لقيام صناعتها ، ويشاء التاريخ الساخر أن تكون هذه اليابان التى أيقظتها أمريكا من حياتها الزراعية الساكنة سنة ١٨٥٣ ودفعتها فى حياة الصناعة والتجارة ، هى نفسها التى تواجه اليوم كل قوتها وكل دهائها لكسب الأسواق الأسيوية بانخفاض أسعار السلع الأمريكية ولفرض رقابتها على تلك الأسواق بالغزو الحربى وبالأساليب الدبلوماسية ، تلك الأسواق التى كانت هى بعينها ما علقت أمريكا رجاءها عليها لأنها أوسع مخرج يمكن تهيئته لفيض البضائع الأمريكية ، وقد عهدنا فى التاريخ أنه إذا تنافست دولتان على أسواق بعينها ، فإن الدولة الخاسرة فى مجال المنافسة الاقتصادية — إذا ما كانت أقوى من زميلتها ثروة وعدة حربية — هى التى تعلن الحرب على الأخرى .

ولا شك أن حرباً كهذه لو نشبت بين أمريكا واليابان ، كانت خاتمة مُرة لما أسدته أمريكا من يد فى فتح أعين اليابان ، لكن شئون الدول ينتابها مَدٌّ لو أفلت زمامه من أيدى القابضين على الأمور ، قبل أن يستجمع قوته ، فإنه لا بد مكتسح الأمة التى يطفو بأرضها ، إلى مأزق من الظروف لا يدع أمامها مجالا للاختيار إلا بين طريقين فإما الذل وإما القتال ، ويميل مَنْ قد تجاوزوا سن الجندية ، إلى إيثار الحرب على الخشوع ، وليس يقلل من خطر نشوب قتال بيننا وبين اليابان ، الاحتمالُ القوى بأن تنشب حرب بينها وبين روسيا ، لأنه لو عادت هاتان الأمتان إلى تحدى إحداهما الأخرى ، فقد لا نجد بدا من التدخل فى الأمر على أساس المبدأ القديم ، ذلك المبدأ الذى نهضت لتأييده

أمثلة كثيرة فى عصرنا بحيث نستخلص منها الحكمة السديدة ، وهى أنه خير لنا أن نعاون على الفتك بمنافس تعرض فعلا لهجمة من غدوه ، من أن ننتظر حتى يكسب نصراً يزيد فى قوته زيادة خطرة ؛ أما إذا أردنا ألا ننساق فى هذا الطريق ، فكل ما نتطلبه هو أن نتذكر أنه مهما بلغت شدة الحاجة باليابان إلى أسواق الشرق ؛ فهذه الأسواق أبعد جداً من أن تكون شرطاً لازماً لازدهار تجارتنا ؛ وأننا إذا كسبنا تلك الأسواق إما بحرب باهظة النفقات فى بحا بعيدة ، أو بتنافس يدعونا إلى الهبوط بمستوى حياة شعبنا ، فذلك كسب أجوف ؛ وقد يكون نعمة لبلادنا أن يضطر تجارنا إلى البحث عن أسواق لسلعهم داخل حدود بلادنا ؛ وعندئذ فقد يتبين لنا أن سعادتنا لا تعتمد على غزونا لأسواق وراء البحار ، بل إن سعادتنا فى نشر ثمرات الاختراع والصناعة ومنتجاتها نشراً يتيح لأهل بلادنا — وإنهم لكثيرون — أن يكونوا سوقاً تكفى لبيع مصنوعاتنا — حتى إذا بلغت المصنوعات أعلى درجات الإنتاج ؛ لأن مساحة قدرها ٣٫٧٣٨٫٠٠٠ ميلا مربعاً تكفى لاستنفاد ذلك الإنتاج .

أما وقد علّمنا اليابان أساليب الصناعة والحرب ، فلا بد لنا أن نصبر على القضاء الذى جعلها مؤقتاً سيدة الشرق اقتصادياً وحربياً ، فليس بنا حاجة إلى الحقد على « أبناء الشمس » إذا ما حانت ساعة قوتهم ومجدهم ، ولا إلى حسدهم على إمبراطوريتهم المتهافتة أو ثروتهم التى قد تتعرض للزوال ؛ إن العالم فيه من سعة الرحب ما يكفينا ويكفيهم معاً ؛ ولو شئنا ، لوجدنا فى البحار آفاقا لا تزال بعيدة بيننا وبينهم ؛ بحيث تهيئ لنا السلام(*) .

(*) لم يتحقق أمل الكاتب وقامت الحرب بين الدولتين على ما هو معروف. (المعرب)

خاتمة

تراثنا الشرقى

لقد مررنا مسرعين ، على نحو لم نكن نودُّه ، خلال أربع آلاف عام من أعوام التاريخ ، فمررنا بذلك على أغنى الحضارات التى شهدتها أكبر القارات ؛ ويستحيل أن نكون قد فهمنا هذه الحضارات أو أن نكون قد وفيناها حقها العادل ؛ إذ كيف يسطيع عقل واحد فى حياة واحدة أن يستوعب أو يقدر تراث جنس بأسره ؟ إن النظم الاجتماعية والعادات والفنون والأخلاق عند شعب من الشعوب تصور عملية الانتخاب الطبيعى الذى تقوم به تجارب لا حصر لعددها ، يظل فيها ذلك الشعب يخطئ لكى يهتدى بالخطأ إلى الصواب كما تصور حكمة الأجيال التى تعاقبت فى ذلك الشعب فتكدست تراثاً غزيراً حتى بات من العسير صياغتها فى عبارات تضم أطرافها ؛ فلا الفيلسوف بذكائه ولا الطالب الصغير بعقله يستطيع أن يحيط بمثل ذلك التراث إحاطة الفاهم لأسرازه ؛ دع عنك أن يحكم عليه حكماً عادلا ؛ إن أوربا وأمريكا هما طفل مدلل وحفيد أنجبتاهما آسيا ، ولم يُقَدَّر لها قط أن يتبينا غزارة الثروة التى جاءتهما قبل بداية تاريخهما القديم ، لكننا إذا عمدنا الآن إلى تلخيص تلك الفنون وأساليب العيش التى استمدها الغرب من الشرق ، أو التى ظهرت لأول مرة فى الشرق — حسب ما يدلنا علمنا المحدود المتداول — فسنجد أننا نرسم بذلك التلخيص — عن غير قصد منا — رسما تخطيطاً لسير المدنية .

إن أول عوامل المدنية هو العمل — الزراعة والصناعة والنقل والتجارة ؛

ونحن نصادف فى مصر وآسـيا أقدم ما نعلمه من حضارة زراعية(*) إذ نصادف أقدم نظم الرى ؛ كما نصادف أول(†) إنتاج لتلك المشروبات المنبهة التى لانظن أن الحضارة الحديثة كان يمكن أن تقوم بغيرها — وهى الجعة والنبيذ والشاى ؛ لقد تقدمت الصناعات اليدوية والأعمال الهندسية فى مصر قبل عهد موسى ، تقدمها فى أوربا قبل ڤولتير ؛ والبناء بالقراميد يرجع تاريخه إلى عهد سرجون الأول على أقل تقدير ؛ وأول ظهور عجلة الخزّاف وعجلة العربة كان فى « عيلام » ، وأول ظهور التيل والزجاج كان فى مصر ، وأول ظهور الحرير والبارود كان فى الصين ؛ وخرج الحصان من آسيا الوسطى إلى ما بين النهرين ومصر وأوروبا ؛ وأبحرت السفن الفينيقية حول أفريقيا قبل عصر بركليز ، وجاءت « البوصلة » من الصين فأحدثت فى أوروبا ثورة تجارية ، وكانت سومر أول من ترك لنا عقوداً تجارية ؛ وأول نظام للقروض وأول استعمال للذهب والفضة معيارين للقيمة ؛ والصين هى أول من قام بمعجزة قبول الورق مكان الفضة والذهب .

وثانى عناصر المدنية هو الحكومة — أعنى تنظيم الحياة والمجتمع ووقايتهما بفضل القبيلة والأسرة والقانون والدولة ؛ ففى الهند تظهر الجماعة القروية ، كما تظهر « دولة المدينة » فى سومر وأشور ؛ ومصر قد أحصت سكانها وفرضت ضريبة على الدخل وحافظت على الأمن الداخلى مدى قرون طويلة دون أن تستخدم من وسائل العنف إلا حدها الأدنى ؛ وها هما « أور — إنجور » « وحمورابى » قد سنّا تشريعين عظيمين من تشريعات القانون ؛ و « دارا »

(*) يجوز أن تكون الزراعة وإخضاع الحيوان لخدمة الإنسان قديمين فى أوربا ، فيرجعان فيها إلى العصر الحجرى الجديد كما يرجعان إلى مثل هذا العصر فى آسيا . لكن الأرجح أن ثقافة أوربا فى العصر الحجرى الجديد فى أوربا كانت أحدث عهداً من ثقافتى ذلك العصر نفسه فى أفريقيا وآسيا (راجع الجزء الأول من سلسلة أجزاء هذا الكتاب ، الخاص بنشأة الحضارة) .

(†) فى هذه العبارات وما يتلوها من عبارات ، قد حذفنا كلمة « فيما نعلم » على أن تكون مفهومة القارئ .

قد نظم بجيشه الإمبراطورى ورُسُله إمبراطورية من خير ما شهد تاريخ الحكومات فى حسن الإدارة .

وثالث عناصر المدنية هو الأخلاق — العادات وآداب السلوك ، والضمير والإحسان ؛ فالأخلاق قانون ينشأ فى باطن النفس ، ويولِّد فيها آخر الأمر تمييزاً بين الصواب والخطأ ، وينظم ما يجيش فى الإنسان من شهوات فيخضعها للطريق السوى ؛ وبغير ذلك القانون تنحل الجماعة أفراداً وتسقط فريسة لدولة أخرى يكون فيها التماسك الاجتماعى ؛ ومن القصور الملكية القديمة فى مصر وما بين النهرين وفارس ، عرف العالم آداب المعاملة الرقيقة ؛ بل إن الشرق الأقصى يمكنه اليوم أن يعلم آداب المعاملة وكرامة النفس للغرب الغليظ القلق ، وظهر فى مصر نظام الزواج بزوجة واحدة للزوج الواحد ، وهناك أخذ ذلك النظام يكافح ليثبت أقدامه ويديم بقاءه إزاء المنافسة التى لاقاها من نظام تعدد الزوجات للزوج أو الأزواج للزوجة الذى ظهر فى آسيا ، وهو نظام ظالم لكنه عامل على تحسين النوع البشرى ، وكذلك كانت مصر أول دولة بعثت صرختها مطالبة بإقامة العدل الاجتماعى ، كما كانت الدولة اليهودية أول من دعا الناس إلى الإخاء البشرى ، وأول من صاغ للإنسانية قانون الأخلاق الذى يشعر الإنسان بنسبته لأسرة البشرية جمعاء .

ورابع عناصر المدنية هو الدين — أى الانتفاع بعقائد الإنسان فى القوى الخارقة للطبيعة للتخفيف من الآلام والسمو بالشخصية الإنسانية وتقوية الغرائز الاجتماعية والنظام الاجتماعى ، فقد استمدت أوروبا أعز أساطيرها وتقاليدها من سومر وبابل والدولة اليهودية ، وفى تربة الشرق نبتت قصص الخلق والطوفان وسقوط الإنسان وخلاصه ، ومن آلهات أمهات كثيرات جاءتنا فى النهاية « أجمل زهرة من زهرات الشعر » وأعنى بها مارية أم الله — كما وصفها هينى — ومن فلسطين برزت الوحدانية وانبعثت أرق أغانى الحب والثناء فى الأدب ، كما خرج منها أقوى وأعزل وأفقر شخصية شهدها التاريخ .

وخامس عناصر المدنية هو العلم — وهو النظر الصافى والتسجيل الصادق والاختبار المحايد وجمع المعرفة شيئاً فشيئاً ، بحيث تكون من الصدق الموضوعى بما يمكننا من التنبؤ بمجرى الطبيعة فى المستقبل وضبطه ، فنرى مصر قد طوّرت الحساب والهندسة وأنشأت التقويم ، كما نرى الكهنة المصريين قد مارسوا الطب وكشفوا عن الأمراض وقاموا بشتى صنوف العمليات الجراحية وسبقوا أبقراط فى إخلاصه لفنه ، ودرست بابل النجوم ورسمت مواضع البروج وقسمت لنا الشهر أربعة أسابيع وآلة قياس الزمن اثنتى عشرة ساعة والساعة ستين دقيقة والدقيقة ستين ثانية ، وعلمتنا الهند بواسطة العرب أعدادها البسيطة وكسورها العشرية السحرية كما علّمت أوربا دقائق التنويم المغناطيسى وفن التطعيم .

وسادس عناصر المدنية هو الفلسفة = وهى محاولة الإنسان أن يفهم شيئاً عن الوجود فى مجموعه ، ولو أن الإنسان حين يأخذه التواضع حيناً بعد حين يتبين الحقيقة وهى أن فهم الوجود فى مجموعه مستحيل إلا على اللانهاية ، هى بحث جرىء يائس عن العلل الأولى للأشياء ومغزاها النهائى ، وعن معنى الحق والجمال والفضيلة والعدالة والإنسان الأمثل والدولة المثلى ، وهذا كله يظهر فى الشرق قبل ظهوره فى أوربا بقليل : فنرى المصريين والبابليين يتأملون طبيعة الإنسان وقضائه المرسوم ، واليهود يكتبون تعليقات خالدة عن الحياة والموت ، بينما كانت أوربا تتخبط فى طور الهمجية ، كذلك نرى الهنود يتناولون المنطق ونظرية المعرفة فى نفس الوقت الذى عاش فيه بارمنيدس وزينون الأيلى على أقل تقدير ، وكتب الـ « يوپانشاد تخوض فى الميتافيزيقا ، وبوذا يذيع علم نفس يشبه ما جاء به علم النفس الحديث القريب العهد ، مع أنه عاش قبل أن يولد سقراط ببضعة قرون ، وإذا كانت الهند قد أغرقت الفلسفة فى الدين ، ولم توفق إلى استخلاص التفكير السليم من أوهام الأمل ، فإن الصين قد صممت جادة أن تجعل تفكيرها دنيوياً ، وأنجبت — قبل أن

يولد سقراط أي - مفكراً كانت له حكمة رزينة لا تكاد تغير منها شيئاً إذا أردت أن تجعلها هادياً للناس فى عصرنا هذا ، ومصدر وحى لأولئك الذين يودون مخلصين أن يسوسوا الدول سياسة شريفة .

وسابع عناصر المدنية هو الأدب — وهو نقل اللغة على تتابع الأجيال ، وتربية النشء وترقية الكتابة وإبداع الشعر والمسرحية والحافز على القصة وتدوين ذكريات الماضى ؛ وأقدم ما نعرف من مدارس هو ما كان منها فى مصر وبلاد النهرين ، بل إن أقدم المدارس الحكومية كانت مصرية كذلك ، والأرجح أن تكون الكتابة قد جاءتنا من آسيا ، كما جاءت أحرف الهجاء والورق والمداد من مصر ، ثم جاءت الطباعة فى الصين ، ويظهر أن البابليين قد جمعوا أقدم مجموعة من قواعد النحو وقواميس الألفاظ وأول ما جمع من مكتبات ، والاحتمال قوى فى أن تكون جامعات الهند قد سبقت أكاديمية أفلاطون ، وصقل الآشوريون أنباء الأساطير فجعلوا منها تاريخاً ، ثم نفخ المصريون فى التاريخ فجعلوه ملحمة ، وقدم الشرق الأقصى إلى العالم تلك الصور الرقيقة من الشعر التى تركز كل روعتها فى نظرات صادقة لطيفة يصوغونها فى صور خيالية ترتسم فى أذهانهم ناصعتها ، وكان « نابونيدوس » و « أشوربانيبال » من رجال البحث الأثرى — وهما اللذان استكشف الباحثون الأثريون آثارهما ، وترجع طائفة من الحكايات القديمة الخرافية التى تمتع أطفالنا إلى الهند القديمة .

وثامن عناصر المدنية هو الفن — وهو تجميل الحياة بالألوان والأنغام والصور التى تشرح الصدور ، والفن فى أبسط ظواهره يكون فى تجميل البدن ، فترى ثياباً رشيقة ومجوهرات فاخرة ودهوناً للزينة الداعرة ، نجد كل ذلك فى العصور الأولى من حضارة المصريين والسومريين والهنود ، وإن المقابر المصرية لتملؤها قطع الأثاث الجميلة والخزف الرشيق والنحت الرائع فى العاج والخشب ، ولا شك فى أن اليونان قد تعلموا شيئاً من مهارتهم فى النحت والعمارة والتصوير والنقش البارز ، لا من آسيا وإقريطش فحسب ،

بل كذلك من الآيات الروائع التى كانت لم تزل فى أيامهم تسطع على مرآة النيل ، فمن مصر وبلاد النهرين أخذت اليونان نماذج عمدها الدورية والأيونية ؛ ومن تلك البلاد نفسها جاءنا إلى جانب العمد « البواكى » والدهاليز والقباب ؛ وساهمت أبراجُ الشرق الأدنى القديم بنصيب فى تشكيل العمارة الأمريكية اليوم ، وكان للتصوير الصينى والرسوم الحفرية اليابانية أثرهما فى تغيير بعض قواعد الفن فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، وكذلك وضع « البورسلان » الصينى أمام أعين الأوربيين نموذجاً جديداً للكمال تحتذيه ، والجلال الحزين الذى تسمعه فى الأغنية الجريجورية ، يرجع عصراً بعد عصر حتى يبلغ أصله الأول فى الأغانى الباكية التى كان ينشدها اليهود المشردون إذ هم يجتمعون خاشعين فى معابدهم المتناثرة هنا وهناك .

تلك هى بعض عناصر المدنية ، وجزء من التراث الذى خلفه الشرق للغرب .

ومع ذلك كله فقد وجد العالم القديم (من التاريخ الأوربى) مجال الإضافة إلى هذا التراث الفنى فسيحاً ، فستبنى إقريطش حضارة تكاد تبلغ فى قدمها مبلغ الحضارة المصرية وستكون حلقة اتصال تربط بين ثقافات آسيا وإفريقيا واليونان ، وسترقى اليونان بالفن بحيث لا تنشد الحجم بل الكمال ، وستزاوج بين رقة الأنوثة التى تتمثل فى الصورة النهائية والصقل الختامى للقطعة الفنية وبين قوة الذكورة التى تتمثل فى عمارة مصر وتماثيلها ، فتمهد السبيل بذلك إلى جو يظهر فيه أعظم عصر شهده تاريخ الفن ، وستُدخل فى نواحى الأدب كلها تلك الخصوبة المبدعة التى يتصف بها العقل الحر ، فتضيف ملاحم ملتوية الشعاب ومآسى عميقة الأغوار ، وملاهىَ ضاحكة وتواريخ تأخذ بالخيال ، ستضيف كل ذلك إلى ذخيرة الآداب الأوروبية ، وستنظم الجامعات وتقيم حرية الفكر الدنيوى فترة ناصعة تتخلل فترات يضطهد فيها الفكر المستقل ، وستفوق كل سوابقها فى الرقى بالرياضة والفلك وعلم الطبيعة التى خلفتها لها مصر والشرق ، وستبتكر علوم الحياة ابتكاراً ، وتنشئ نظر الإنسان إلى الكون نظرة طبيعية ، وستأخذ بيد الفلسفة حتى تصل بها إلى مرحلة الوعى

والنظام وستبحث بحثاً عقلياً خالصاً فى كل مشكلات حياتنا ؛ ستحرر الطبقات المتعلمة من سلطان رجال الدين ومن الخرافة ، وتحاول إقامة الأخلاق على أساس لا يعتمد فى شىء على معونة ما فوق الطبيعة ؛ وستنظر إلى الإنسان باعتباره مواطناً لا باعتباره « رعية » وتهبه حريته السياسية وحقوقه المدنية ، وتطلق له من الحرية العقلية والخلقية ما لم يسبق له نظير ، ستخلق الديمقراطية خلقاً وتنشئ الفرد إنشاء . وستستأنف روما السير فى هذه الثقافة فتنشرها فى أرجاء الدول القائمة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وتحميها مدى خمسمائة عام من هجمات البرابرة ، ثم تنقلها خلال الأدب الرومانى واللغات اللاتينية إلى أوربا الحديثة ؛ وسترفع المرأة إلى مراكز القوة والمجد والتحرير العقلى ، التى ربما لم تكن قد ظفرت بها من قبل ؛ وتقدم إلى أوروبا تقويماً جديداً وتعلمها مبادئ النظام السياسى والأمن الاجتماعى ، وتقيم حقوق الفرد على أساس ثابت من القوانين التى عملت على تماسك القارة الأوروبية خلال قرون من الفقر والفوضى والخرافة .

وفى الوقت نفسه سيعود الشرق الأدنى ومصر إلى الازدهار مرة أخرى بحافز من التجارة والفكر اليونانيين والرومانيين ، وستحيي قرطاجنة كل ما كان لصيدا وصور من ثروة ورفاهية ؛ وسيجتمع « التلمود » فى أيدى يهود مشتتين لكنهم ذوو ولاء ؛ وستزدهر العلم والفلسفة فى الإسكندرية ، وسيتولد من امتزاج الثقافتين الأوروبية والشرقية دين أريد به أن يمحو الحضارة اليونانية والرومانية إلى حد ما ، وأن يُبْقِى عليها ويضيف إليها إلى حد ما ؛ إن كل العوامل كانت مهيأة لتنتج الفترات التى كانت بمثابة الذُّرى للعصور القديمة (الأوروبية) ، وهى أثينا فى عهد بركليز ، وروما فى عهد أوغسطس ، وأورشليم فى عصر « هيرود » ؛ وكان المسرح معدّاً لمسرحية مثلثة الجوانب ، قوامها أفلاطون وقيصر والمسيح .

كلمة عن المؤلف

ولد «ول ديورَنْت» فى «نورث آدمز» من أعمال «ماساشوست» سنة ١٨٨٥ ؛ وتلقى تعليمه فى مدارس « نورث آدمز » هذه ومدارس «كيرنى » من أعمال « نيوچيرسى » ، وهى مدارس تتبع الكنيسة الكاثوليكية فى ذينك الإقليمين ؛ وتلقاه كذلك فى كلية القديس بطرس (اليسوعية) فى مدينة جيرسى وفى جامعة كولمبيا بنيويورك ؛ ولبث صيفاً يشتغل مراسلا ناشئاً « لجريدة نيويورك » وكان ذلك عام ١٩٠٧ ؛ لكنه وجد هذا العمل شديد الوطأة على نفسه فلم يحتمل المضى فيه ، فاكتفى بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية وغيرها من المواد فى كلية « سيتن هول » فى سوث أورانج من أعمال نيوچيرسى (١٩٠٧ — ١١) ، وهناك التحق بإحدى حلقات الدرس سنة ١٩٠٩ لكنه عاد فتركها سنة ١٩١١ لأسباب ذكرها فى كتابه « مرحلة التحول » وانتقل من تلك الحلقة الدراسية إلى الدوائر المتطرفة فى نيويورك ، وهناك اشتغل بالتدريس فى « مدرسة فرر » (١٩١١ — ١٣) فكانت تلك الفترة بمثابة تجربة فى التربية الحرة ؛ وفى سنة ١٩١٢ طاف بأرجاء أوروبا على نفقة « أولدن فريمان » الذى صادقه وتعهد أن يوسع من آفاقه ؛ وفى سنة ١٩١٣ ركز اهتمامه فى الدراسة ليحصل على الدرجة الجامعية من جامعة كولمبيا ، فتخصص فى علم الحياة متتلمذاً على « مررجَنْ » و « كالْكِنْز » ؛ وفى الفلسفة متتلمذاً على « وودبردچ » و « ديوى » ؛ ونال درجة الدكتوراه من تلك الجامعة سنة ١٩١٧ ، وأخذ يعلم الفلسفة فى جامعة كولمبيا عاماً واحداً ؛ ثم بدأ فى سنة ١٩١٤ — فى الكنيسة المسيحية الكائنة فى شارع أربعة عشر وفى طريق الثانى بنيويورك — بدأ يلقى هناك تلك المحاضرات فى الفلسفة والأدب التى أعدته لإخراج كتابيه « قصة الفلسفة » و « قصة الحضارة » ؛ فقد كان

معظم المستمعين إليه فى تلك المحاضرات من العمال والعاملات الذين كانوا يتطلبون وضوحاً تاماً وعلاقة تربط ما يقال بالحوادث الجارية ، كانوا يتطلبون ذلك فى كل المواد التاريخية التى تعتبر جديدة بالدرس ، وفى سنة ١٩٢١ نظم « مدرسة لبيبرتمبل » التى أصبحت تجربة من أنجح التجارب التى أجريت فى تربية الكبار فى العصر الحديث ، ثم تركها سنة ١٩٢٧ ليكرس نفسه لكتاب « قصة الحضارة » وطاف بأوروبا مرة أخرى سنة ١٩٢٧ ، وطوف بالعالم سنة ١٩٣٠ ليدرس مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان ، وعاد فطوف بالعالم من جديد سنة ١٩٣٢ ليزور اليابان ومنشوريا وسيبريا والروسيا ، وهو يرجو لنفسه فى الخمسة الأعوام المقبلة (التى تلت إخراج هذا الجزء من قصة الحضارة) أن ينفق عاماً فى اليونان وإيطاليا ليأخذ أهبته للجزء الثانى من « قصة الحضارة » .

المراجع

الباب الثامن والعشرون

1. The *Kojiki* (681-711), in Murdoch, i, 59f, and Gowen, H.H., *Outline History of Japan*, 37f.
2. Murdoch, iii, 483.
3. Gowen, *Japan*, 13: Chamberlain, B.H., *Things Japanese*, 249.
4. Gowen, 25, reports three days of rain or snow in the average week.
5. Gowen, 17, 12; Chamberlain, B. H., 195; Redesdale, Lord, *Tales of Old Japan*, 2.
6. Chamberlain, B. H., 127.
7. Gowen, 99; Murdoch, iii, 211, 895-7; Chamberlain, 130.
8. Ibid, 128.
9. Hearn, Lafcadio, Japan : *An interpretation*, 455.
11. Gowen, 61; Murdoch, i, 38.
12. Ibid.
13. Hearn, 443; Fenollosa, ii, 159.
14. Fenollosa, i, 64; Murdoch, i, 98-9.
15. Gowen, 64.
16. Murdoch, i. 49, 97.
17. Armstrong, 5, 18.
18. Ibid., 2.
19, Hearn, 53.
20. Murdoch, i, 39.
21. Brinkley, Capt. F., *Japan : Its History, Arts and Literature* v, 118 Hearn, 45, 51.
22. Gowen, 67.
23. Ibid., 65.
25. Ibid., 118.
26. Murdoch, i, 240-1.
27. Ibid, i, 377-8; Gowen, 116.
28. Murasaki, Lady, *Tale of Genji*, 27.
29. Tetjens, 156; tr. Curtis Hidden Page, Some authors attribute the poem to Michizane (Gowen, 119).
30. Close, Upton, *Challenge: Behind the Face of Japan*, 28; Gowen, 105; Latourette, i, 226.
31. Fenollosa, i, 149.
32. Brinkley *Japan* iv, 148.
33. Fenollosa, 153.
34. Murdoch, i, 279.
35. Brinkley, i, 230.
36. Murdoch, i, 228 30.
37. Gowen, 147.
38. Murdoch, ii, 711.
38a. Close, *Challenge*, 54.
39. Gowen, 156.
40. Ibid., 161-2; Murdoch, i, 545; Brinkley, ii, 190.
41. Ibid, ii, 108; vii, 17.
42. Close, 33.
43. Ibid., 34.
44. Murdoch, ii, 305.
45. Ibid., ii, 311.

(†) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده فى هذه القائمة ثم نكتفى بعد ذلك بذكره مختصرا

46. Froez in Murdoch, ii, 369.
47. Gowen, 191.
48. Murdoch, ii, 89, 90, 238; Hearn, 365; Gowen, 191.
49. Hearn, 365.
50. Murdoch, ii, 241.
51. Ibid., 243.
52. Close, 44.
53. Brinkely, ii, 219.
54. Armstrong, 85.
55. Close, 56.
56. Ibid., 57-8.
57. Aston, 218-9; Bryan, 117.
58. Murdoch, ii, 402f.
59. Ibid., ii, 205.
60. Brinkley, ii, 205.
61. Murdoch, iii, 815-30.
62. Hearn, 390

الباب التاسع والعشرون

1. Hearn, 3.
2. Okakura, 10, 8.
3. Brinkley, iv, 6-7, 184; Murdoch iii, 171.
4. Brinkley, ii, 115; iv, 172.
5. Ibid., iv, 86.
6. Chamberlain, B. H., 416.
7. Nitobe, Inazo, *Bushido, the Soul of Japan*, 18.
8. Brinkley, iv, 147, 217; Redesdale, 40.
9. Secretion45 of Iyeyasu's "Legacy" in Hearn, 193; Murdoch, iii, 40.
10. Ibid.,
11. J. H. Longford, in Murdoch, iii, 40n. Longford adds, *Se non èveroè bentravato*.
12. Nitobe, 23.
13. Brinkley, iv, 56.
14. Ibid., 142, 109.
15. Hearn, 318; Gowen, 251.
16. Ibid., 364.
17. Murdoch, iii, 221; Aston. 231; Chamberlain, *Things Japanese*, 220-1; Hearn, 318.
18. Close, 59; Nitobe, 141.
19. Redesdale, 13, 16-7, 272; Aston, 230; Murdoch, iii, 235,
20. Nitobe, 121.
21. Murdoch, i, 188-9.
22. Brinkley, *Japan*, iv, 53; Hearn 328.
23. Brinkley, iv, 55, 92; Close, 58.
24. Brinkley, iv, 61.
25. Ibid., 63.
26. Hearn, 195.
27. Close, 58.
28. Hearn, 378.
29. Murdoch, iii. 386; Brinkley, iv, 67.
30. Hearn, 260, 255; Murdoch, i, 172; Brinkley, i, 238, 241; iv 111.
31. Gowen, 97.
32. Chamberlain, 150; Redesdale, 16; Armstrong, 19.
33. Brinkley, i, 133.
34. Murdoch, i, 17.
35. Brinkley, v. 195; ii, 118.
36. Gowen, 98.
37. Brinkley, ii, 118; v, 1; Murdoch, i, 603.
39. Close, 341.
40. In Aston, 149-50.
41. *History, of Japan*, iii, 21, in Mordoch, iii, 171.
42. Cf. Close, 369.
43. Murdoch, iii, 445-50.

44. *Encyc, Brit.*, viii, 910.
45. Gowen, 115.
46. Sansum. W. D., M D., *Normal Diet*, 76.
47. Brinkley, i, 209, 213.
48. Shonagon, LadySei, *Sketch Book*, 29.
49. Brinkley, iv, 176-81 ; ii, 92, 104 ; Hearn, 257 ; Holland, Clive, *Things Seen in Japan*, 172.
50. Brinkley, i, 189, 209-10 : iv, 160, 175, 186.
51. Brinkley, ix, 176.
52. Chamberlain, 60.
53. Ibid.
54. Murdoch, i, 40.
55. Brinkley, iv, 164.
56. Ibid.
57. Ibid., i, 146 ; ii, 106.
58. Ibid., ii, 111-2.
59. Gasteby, E. V., *Cloud Men of Yamato*, 35-6.
60. Brinkley, ii, 258-66.
61. Okakura, 15.
62. Gowen, 213.
63. Ibid.
64. Okakura, 139 ; Brinkley, iii, 9.
65. Walsh, Clara, *Master-Singers of Japan*, 108.
66. Gowen, 23.
67. Binyon, 30.
68. Gatenby, 25.
69. Hearn, 85.
70. Ibid., 75, 80-1, 89 ; Murdoch, iii, 75.
71. Aston, 282 : Hearn, 78 : Redesdale, 92 :Brinkley, i, 149.
72. Armstrong, 55.
73. Brinkley i, 188.
74. Shonagon, 50.
76. Brinkley, iv, 142 ; Close, 62 ; Chamberlain, 504.
77. Ibid, 501 ; Keyserling, *Travel, Diary*, ii, 171.
78. Close' 61.
79. Hearn, 68, 83.
80. Genesis, ii, 24 ; Chamberlain, 166.
81. Nitobe, 141.
82. Cf., e.g., the passage quoted in Bryan, 88.
83. Redesdale, 37 ; Ficke, A. D., *Chats on Japanese Prints*, 210 ; Chamberlain, 625 ; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 200.
84. Brinkley, iv, 116.
85. Ibid , 120.
86. Murdoch, iii, 216.
87. Brinkley, ii, 49.
88. Redesdale, 84,
89. Brinkley, v, 257.
90. By Prince Aki, 740 A.D., in Gatenby, 33.
91. Tr. by Curtis Hidden Page, in Tietjens, 144.
92. Brinkley, v, 207 ; Murdoch, iii, 112.
93. Ibid., ii, 18-9.
94. Ibid., ii, 18 ; Brinkley, i, 181.
95. Ibid , i, 182.
96. Murdoch, i, 489.
97. Ibid., 603.
98. Ibid., 605 ; Armstrong, 171.
99. Brinkley, v, 254.
100. Murdoch, iii, 101, 113.
101. Ibid., 115-9.
102. Armstrong, 56f.
103. Ibid., 76 78, Aston, 263-4.
104. Ekken, Kaibara, *Way of Contentment*, tr. by K. Hoshino, 71.
105. Ibid., 90.
106. 24, 17.
107. 24.
108. 33, 39, 43.

109. 85, 44, 59, 61, 49, 54. I have ventured to print the last two lines as poetry, though the text gives then as prose.
110. Murdoch, iii, 127.
111. Armstrong, 133.
112. Ibid.
113. Murdoch, iii, 129f.
114. In Armstrong, 222.
115. Ibid., 236f 226.
116. 263-4.
117. 261.
118. 241f.
119. 255 ; Murdoch, iii, 481.
120. Ibid., iii, 343-4.
121. Ibid., 474.
122. Ibid , 476f, 485 ; Aston, 319-32.
123. Murdoch, iii, 491-2.

الباب الثلاثون

1. Close, 28.
2. Bryan, 13-15 : Aston, 56-7; Gowen, 125.
3. Carter, 35.
4. Ibid , 178.
5. Close, 77.
6. Brinkley, i, 229 ; iv, 136.
7. Gatenby, 27.
8. Bryan, 54, 74.
9. Aston, 268.
10. Tr. by Curtis Hidden Page, in Tietjens, 162.
11. Tietjens, 168.
12. Murdoch, ii. 515.
13. Murasaki, Lady, 289.
14. Ibid., 149, 235 ! Shonagon, 51.
15. Murdoch, iii, 826,
16. Noguchi, Yone. *Spirit of Japanese, Poetry*, 11.
17. Gatenby, 97-102 ; Tietjens, 159.
18. Holland, 157.
19. Murdoch, iii, 470.
20. Gowen, 128.
21. Murasaki, 33, 29.
22. Ibid., 75.
23. 98, 134.
24. 144.
25. 46.
26. 50.,
27. Bryan, 65 ; Gowen, 128.
28. Holland, 137 ; Aston, 56.
29. Ibid., 846-8. 391.
30 Ibid., 269-71.
31. Ibid., 892.
32. Murdoch, i, 571.
33. Aston, 255.
34. Brinkley, v, 112.
35. Aston, 249.
36. Gowen, 268.
37. Murdoch, iii, 240.
38. Aston, 116.
39. Ibid., 114f. I have changed the the order of the last five items.
40. Aston, 197-9 ; Bryan. 100.
41. Redesdale, 84.
42. Close, 65.
43. Okakura, 132.
44. Noguchi, 11.
45. Bryan, 136.
46. Brinkley, iv, 110.
47. ibid., vi, 113 5.
48. Aston, 279.
49. Okakura, 112 ; Brinkley, viii, 79.
50. Brinkley, vii, 319.
51. *Encyc, Arit.*, vii, 960.
52. Brinkley, i, 219 ; iv, 156 ; Chamberlain, 340-3.
53. Brinkley, iv, 78.

54. Muraski, 212.
55. Chamberlain, 84.
56. Brinkley, vii, 157.
57. Ibid., vii, 84.
58. Fenollosa, i, 56.
59. Gowen 105.
60. Murdoch, i, 503.
61, Ledoux, L.V., *Art of Japan*, 62.
62. Armstrong, 9.
63. Brinkley, vii, 77.
64. Gowen, 124.
65. Ibid., 218.,
66. Brinkley, viii, 11.
67. Ibid., 265.
68. 25.
69. 180.
70. 185.
71. 236.
72. Brinkley, vii, 839.
73. Ibid., 9.
74. Brinyon 53.
75. Ibid , 20.
76. Fenollusa, ii, 81.
77. Okakura, 113.
77. *Encyc, Brit.*, vii, 964.
79. Ledoux, 26.
80. Ibid., 28.
81. Gowen, 284.
82. Fenollosa, ii, 183. It should be added that in the opinion of some critics Matabei is a mythical personage.
83. Ficke, 282-94.
84. Gowen, 285 ; Ficke, 363.
85. Noguchi, 27.
86. Ficke, 368.
87. Gowen, 284.
88. Fenollosa, ii, 204.
89. Gowen, 286.
90. Dickinson, G. Lewes, 65.
91. *Ten O'clock, Sub fine.*

الباب الحادي والثلاثون

1. Mordoch, iii, 456 ; Gowen, 287.
2. Ibid., 298-9.
3. 300.
4. 312.
5. Brinkley, iv, 217.
6. Ibid., 81, 256,
7. Close, 325.
8. Ibid., 165.
9. Gowen, 349.
10. Close, 149.
12. Gowen, 376.
13. Close, 372.
14. *Word Almanac*, 1935, p. 667.
15. Close, 395.
16. *Almanac*, 668 ; Close, 391 N.Y. *Times*, April 15, 1934.
17. Gowen, 341.
18. Close, 289.
19. Eddy, 119. Park, 250; Holland, 148-52 ; Barnes, Jos., ed., *Empire in the East*, 70.
20. Eddy, 124f.
21. Ibid., 118., 136.
22. Hearn, 488.
23. Barnes, 69 ; Close, 378. The Maurette Report, of June 1, 1934, to the InternationalLabor Office, accepts this explanation of the low wage-level in Japan.
24. Close, 344.
25. Hearn 17.
26. Close, 134-42.
27. Chamberlain, 314 ; Close, 302.
28. Ibid., 198.

29. Chamberlain, 447.
30. Close, 177f.
31. Eddy, 127.
32. *Almanac*, 669.
33. Brinkley, v, 83.
34. *Almanac*, 669.
35. Tsurumi, Y., *Present-day Japan*, 68.
36. Walsh, 116; Bryan 40, 194.
37. Tsurumi, 59.
38. Gowen, 416.
39. Barnes, 51.
40. Ibid., 48-50. 197.
41. Gowen, 369-70.
42. Ibid., 402.
43. Barnes, 75; Close, 377.
44. *Almanac*, 974.
45. Barnes, 62.

فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(و)

قصة الحضارة

وِل وايريل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الأول من المجلد الثاني

(٦)



تونس



بيروت



(شكل ١٠ هيجيا إلهة الصحة)
(متحف أثينة)

فهرس الجزء الأول من المجلد الثانى

الكتاب الثانى — نهضة بلاد اليونان

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

فهرس الأشكال والصور

مقـــدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على توفيقك ونصلى ونسلم على نبيك الكريم وعلى جميع أنبيائك ورسلك . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثانى من مجلدات قصة الحضارة التى يصدرها الكاتب الأمريكى ول ديورانت . وهذا المجلد الثانى هو المعروف « بحياة اليونان » ، وقد تمت ترجمته بعون الله ، وسيصدر تباعاً فى ثلاثة أجزاء . وقد تمت كذلك ترجمة المجلد الثالث الخاص بحضارة الرومان ، والذى سماه المؤلف « قيصر والمسيح » ، وسيصدر إن شاء الله بعد الفراغ من نشر المجلد الثانى . ولقد بدأنا منذ بضعة شهور ترجمة المجلد الرابع من هذه السلسلة العظيمة ، وهو الذى سماه المؤلف « عصر الإيمان » ، والذى يصل بالقصة إلى العصور الوسطى . ونرجو أن نفرغ من هذه الترجمة قبل أن ينشر المؤلف المجلد الخامس الخاص بعصر النهضة ، والذى يقول إنه سيصدر فى عام ١٩٥٥ . فإذا ما مد الله فى حياتنا ورزقنا صحة الجسم وراحة البال ، بدأنا ترجمة هذا المجلد عقب صدوره ، فلا يبقى بعد هذا لكى تتم القصـــة إلا المجلد السادس « عصر العقل » الذى سيصدر بالإنجليزية فى عام ١٩٦٠ . فإذا ما ترجمناه هو الآخر فاعتقادنا أننا نكون قد دينا لهذا الوطن العزيز واللغة العربية حقهما علينا ونكون قد آن لنا وللمؤلف كما يقول عن نفسه أن نستريح .

هذا والفضل كل الفضل فيما صدر من قبل من هذا الكتاب الجليل الشأن وما سيصدر بعد من مجلداته الستة إلى الإدارة الثقافية فى جامعـــة

الدول العربية فبمعونتها وثقتها ترجمنا ما ترجمناه منها ، ثم إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر التى تولت أعمال الطبع والنشر وتحملت نفقاتهما ، ثم إلى القراء فى مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على أجزاء المجلد الأول الخمسة إقبالا كان له أكبر الأثر فى تشجيعنا على بذل ما يتطلبه هذا العمل الضخم من جهد ، وتحمل ما يسببه من عناء .

ولقد كانت طريقتنا فى الترجمة هى بعينها الطريقة التى اتبعناها فى كل ما ترجمناه من قبل ، وهى التقيد التام بالأصل المترجم لم نشذ عنه فى شىء ، فلم ننقص منه ولم نزد عليه ، اللهم إلا شروحاً وتعليقات قليلة فى هوامش الصفحات .

أما تعريب الأعلام فقد اتبعنا فيه نطقها الذى ثبته المؤلف فى آخر الكتاب ، عدا أسماء قليلة نطق بها العرب على غير ما ينطق بها الأوربيون ، كأفلاطون وأرسطو ، وسقراط ، وأسماء أخرى ورد ذكرها فى كتب العرب الأقدمين ؛ وإذا كان قد فاتنا شىء منها فى هذا الجزء فرجاؤنا ألا يفوتنا فى الجزأين التالين ؛ وزيادة فى الدقة قد رأينا أن نثبت أسماء الأشخاص والأماكن حين يرد ذكرها أول مرة بالحروف الإنجليزية حتى يسهل النطق بها على الوجه الصحيح ، وإنا لنرحب بكل تنبيه لما عساه أن يكون قد خفى علينا من هذه الأسماء ، ونعد بالاستفادة منه فى الأجزاء التالية مع خالص الشكر لأصحابه ، ونرجو ألا يطول انتظار القراء لهذه الأجزاء .

فى شهر مارس من عام ١٩٥٣ — محمد بدران

مقدمة المؤلف

إن الغرض الذى أبتغيه من تأليف هذا الكتاب هو أن أجيل الفكر فى أصل الحضارة اليونانية ونشأتها وترعرعها واضمحلالها من أقدم العهود التى تدل عليها آثار كريت وطروادة إلى أن فتحت رومة تلك البلاد ، وأن أدون ما أهتدى إليه من بحوث فى هذا الميدان . وإنى لشديد الرغبة فى أن أرى هذه الحضارة المعقدة وأن أحس بها ، على ألا يكون إحساسى بها وروايتها مقصورين على البحث فى نهضتها وسقوطها بحثاً نظرياً مجرداً ، بل أريد به بحثاً يتغلغل فيما تشتمل عليه من عناصر حية كثيرة التباين ، متعددة الأنواع ، منها طريقة أهلها فى انتزاع الرزق من الأرض ، وفى تنظيم التجارة والصناعة ، وما قاموا به من تجارب فى الحكم الملكى المطلق ؛ والأرستقراطى والدمقراطى والدكتاتورى ، ومن ثورات على حكامهم ونظمهم ؛ ومنها عاداتهم وأخلاقهم وطقوسهم الدينية ومعتقداتهم ؛ وتربية أبنائهم وشئون أسرهم وتنظيم علاقاتهم الجنسية ؛ وبيوتهم ومعابدهم وأسواقهم ومسارحهم وميادين ألعابهم ؛ وأشعارهم ومسرحياتهم وتصويرهم ونحتهم وعمارتهم وموسيقاهم ؛ وعلومهم ومخترعاتهم وخرافاتهم وفلسفاتهم : أريد أن أرى هذه العناصر وأن أحس بها لا فى عزلتها النظرية العلمية ، بل فى تفاعلها الحى وأثر كل عنصر منها فى سائر العناصر ، وأن أبحثها من حيث هى حركة عامة شاملة يقوم بها كائن حى ثقافى عظيم ، له مائة عضو ومائة ألف ألف خلية ، ولكن له جسماً واحداً وروحاً واحداً .

ولم هذا العناء كله ؟ لأننا لا نكاد نجد شيئاً فى ثقافتنا الدنيوية — اللهم إلا آلاتنا — لسنا مدينين به لليونان ، فالألفاظ الإنجليزية الدالة على المدارس والملاعب ، والحساب والهندسة ، والتاريخ ، والبلاغة ، وعلوم الطبيعة

والأحياء والتشريح والصحة والأقراباذين ، وفن التجميل والشعر والموسيقى ، والمآسى والمسالى ، والفلسفة ، والدين ، واللاأدرية ، والتشكك ، والرواقية ، والأبيقورية ، وعلم الأخلاق ، والسياسة ، والمثالية ، وحب الإنسانية ، والكلبية ، والاستبداد ، والبلوتوقراطية والدمقراطية ، كل هذه ألفاظ يونانية لصور من الثقافة لم ننشئها نحن إنشاء بل إنها قد نضجت وترعرعت — خيراً كان ذلك أو شراً — بفضل نشاط اليونان العظيم . والمشاكل التى تقض مضاجعنا فى هذه الأيام — كتقطيع الغابات واستئصال أشجارها وما ينشأ عن ذلك من تعرية الأرض وإزالة تربتها ؛ وتحرير المرأة ، وتحديد عدد أفراد الأسرة ، والمحافظة على القديم المستعز ، وإجراء التجارب على الجديد فى الأخلاق والموسيقى ونظم الحكم ، وفساد السياسة والاعوجاج الخلقى ، والنزاع بين الدين والعلم ، وضعف المعنوية التى تستمدها الأخلاق من خوارق الطبيعة ، وحروب الطبقات والأمم والغارات ، وثورات الفقراء على الأغنياء الأقوياء من الناحية الاقتصادية ، وثورات الأغنياء على الفقراء الأقوياء من الناحية السياسية . والنزاع بين الدمقراطية والدكتاتورية ، وبين الفردية والشيوعية ، وبين الشرق والغرب ، كل هذه الأمور قد اضطربت بها حياة بلاد اليونان الباهرة المتألقة ، وكأنها قد اضطربت بها لنتعلم منها نحن ونفيد منها فى حياتنا . وقصارى القول أنه ليس فى الحضارة اليونانية شىء لا ينير لنا سبل حياتنا .

وسنحاول فى هذا الكتاب أن ندرس حياة بلاد اليونان من حيث تفاعل عناصرها الثقافية ومن حيث هى مسرحية كبرى ذات فصول خمسة تبدأ بنهضتها وتختم بسقوطها . سنبدأ بكريت وحضارتها التى أنيط عنها اللثام من وقت قريب لأن من كريت ، كما يبدو لنا ، ومن بلاد آسية جاءت ثقافة ميسينى Mycenae وتيرنز Tiryns التى نشأت فيها قبل الأزمنة التاريخية ، فحولت على مهل المهاجرين الآخيين Achaeans والغزاة

الدوريين Dor ans إلى متحضرين ؛ وسنخصص بعض الوقت للدراسة عالم المحاربين والمحبين ، والقراصنة والمغنين ، الذى انتقل إلينا فى أشعار هومر القوية الخارقة ؛ وسنرقب نشأة اسپارطة وأثينة فى عهد ليكورج Lycurgus وصولون Solon ونتتبع انتشار الاستعمار اليونانى فى جميع جزائر بحر إيجه ، وشواطئ آسية الغربية ، والبحر الأسود ، وأفريقية وإيطاليا وصقلية ، وفرنسا وأسبانيا ؛ وسنرى الدمقراطية تدافع عن حياتها فى مراثون Marathon ، ثم تبعث فيها نشوة الظفر قوة على قوتها ، فتنظم نفسها فى عهد بركليز Pericles ، وتزدهر وتثمر أغنى حضارة عرفها التاريخ وسنطيل النظر مسرورين مغتبطين إلى العقل البشرى وهو يتحرر من الخرافات والأوهام ، فينشئ علوماً جديدة ، وينزل الطب على حكم العقل ، وينزل بالتاريخ من خوارق الطبيعة ومن الأجرام السماوية إلى العالم الأرضى ، ويبلغ الغاية التى لم يصل إليها عقل شعب آخر من قبل فى الشعر ، والتمثيل ، والفلسفة ، والخطابة والتاريخ ، والفن ؛ وسوف نسجل فى هذا الكتاب ونحن آسفون محزونون ، ما اختتم به العصر الذهبى فى الحروب البلوبونيزية من خاتمة قضت فيها المدن اليونانية بعضها على بعض . وسنشاهد ذلك المجهود الجبار المنطوى على البسالة والشهامة والذى بذلته أثينة المضطربة المختلة النظام لتستعيد قوتها بعد هزيمتها ؛ وسنراها عظيمة حتى فى اضمحلالها تنجب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبليز Apelles وبركستليز Praxiteles ، وفيليب ودمستين وديچين ، والإسكندر ؛ وسنرى فى أعقاب قواد الإسكندر الحضارة اليونانية ، أعظم وأقوى من أن تحتويها شبه الجزيرة ، فتخترق حدودها الضيقة وتفيض من جديد على آسية ، وأفريقية ، وإيطاليا ؛ وتعلم الشرق المستغرق فى تصوفه وباطنيته جلال الجسم والعقل ، وتعيد مجد مصر فى إسكندرية البطالمة ، وتغنى رودس بالتجارة والفن وتنهض بالهندسة على يد إقليدس فى الإسكندرية وأرخميدس فى سرقوسة ، وتضع على أيدى زينون وأبيقور أبقى الفلسفات فى التاريخ ؛

وتنحت تماثيـــل أفرديتى Aphrodite فى ميلوس Melos واللاوكوئون Laocoon وانتصار سمثريس Samothracac ومذبح برجاموم Pergamum ، وتحاول عبثاً أن تعيد تنظيم سياستها وتبث فيها روح الشرف والوحـــدة والسلم ، ثم تهوى إلى أعماق الفوضى بسبب الحروب الداخلية وحروب الطبقات ، وتنضب مواردها ، ويقل عامرها ، وتفقد روحها المعنوية ؛ وتستسلم للأتوقراطية والخمول وتصوف الشرق ، وتكاد فى آخر الأمر أن ترحب بالرومان الفاتحين ، فتورث بلاد اليونان الميتة على أيديهم أوربا علومها ، وفلسفاتها ، وآدابها وفنونها فتكون هى الأساس الثقافى الحى لعالمنا الحديث ؛

الكتاب الأول

تمهيد

في حضارة بحر إيجه

من ٣٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق. م.

أهم الحوادث فى الكتاب الأول

مرتبـة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ المذكورة هنا تقريبية ، وتـ اريخ الأفراد هى تواريخ السنين التى بلغ ا فيها نضجهم العقلى ، وقد افترضنا أن هذه السنين هى التى تكون بعد أربعين عاماً من مولدهم ، أما تواريخ مولدهم ووفاتهم فسنذكرها إن استطعنا فى فهرس الأعلام . وتواريخ الحكام هى تواريخ حكمهم ، وإذا وضعنا علامة الاستفهام أمام اسم واحد منهم فمعنى هذا أن التاريخ لا تذكره إلا الرواية اليونانية وحدها .

ق . م .

— ٩٠٠٠		العصر الحجرى الحديث فى كريت .
٣٤٠٠ — ٣٠٠٠		الطور الأول من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية المبكرة .
٣٤٠٠ — ٢١٠٠		العصر الحجرى الحديث فى تساليا .
٣٤٠٠ — ١٢٠٠		العصر البرنزى فى كريت .
٣٠٠٠ — ٢٦٠٠		الطور الثانى من الحضارة المنوية الميلادية ، والسيكلادية المبكرة .
— ٣٠٠٠		استخراج النحاس من قبرص .
— ٢٨٧٠		أول استقرار معروف فى طراودة .
٢٦٠٠ — ٢٣٥٠		الطور الثالث من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية المبكرة .
٢٣٥٠ — ٢١٠٠		الطور الأول من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية الوسطى .
٢٢٠٠ — ١٢٠٠		العصر البرنزى فى قبرص .
٢١٠٠ — ١٩٥٠		الطور الثانى من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية الوسطى . المجموعة الأولى من القصور الكريتية :
٢١٠٠ — ١٦٠٠		العصر النحاسى — الحجرى فى تساليا .
١٩٥٠ — ١٦٠٠		الطور الثالث من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية الوسطى ،
— ١٩٠٠		تدمير المجموعة الأولى من القصور الكريتية .
١٦٠٠ — ١٥٠٠		الطور الأول من الحضارة المينوية الميلادية ، والسيكلادية المتأخرة (الميسينية) ، المجموعة الثانية من القصور الكريتية .
١٦٠٠ — ١٢٠٠		عصر البرنز فى تساليا .
— ١٥٨٢		تأسيس أثينة على يد سكريس .
١٥٠٠ — ١٤٠٠		الطور الثانى من الحضارة المينوية الميلادية الميسينية والسيكلادية المتأخرة .
١٤٥٠ — ١٤٠٠		تدمير المجموعة الثانية من القصور الكريتية .
— ١٤٣٣		دوكليون والطوفان .

١٤٠٠ — ١٢٠٠ الطور الثالث من الحضارة المينية الميلادية (الميسينية) السيكلادية المتأخرة ، قصور تيرنز وميسينية .

— ١٣١٣ تأسيس طيبة على يد كادموس .

١٣٠٠ — ١١٠٠ عصر سيطرة الآخيين على اليونان .

— ١٢٨٣ ىء بلوپس إلى أليس .

١٢٦١ — ١٢٠٩ هرقل

— ١٢٣٠ ثيثوس فى أثينة ، وأوديب فى طيبة ، ومينوس وديدالوس فى نوسس .

١٢٥٠ — ١١٨٣ « المدينة السادسة » فى طروادة ؛ عصر أبطال هومر .

— ١٢٢٥ رحلة أجمنن .

— ١٢١٣ حرب السبعة على طيبة .

— ١٢٠٠ ارتقاء أجمنن العرش .

١١٩٢ — ١١٨٣ حصار طروادة .

— ١١٧٦ ارتقاء أورستيز .

— ١١٠٤ غزو الدوريين لبلاد اليونان .

الباب الاول

كريت

الفصل الأول

البحر المتوسط

إذا ما دخلنا أجمل البحار كلها وتركنا من خلفنا المحيط الأطلنطى ومضيق جبل طارق ، انتقلنا من فورنا إلى حلبة التاريخ اليونانى . ويقول أفلاطون عن بنى وطنه الذين استقروا فى هذا الميدان : « لقد نزلنا فى شواطئ هذا البحر كما تنزل الضفادع حول بركة الماء »[1] . على هذه الشواطئ النائية ، أنشأ اليونان قبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة ، مستعمرات مزعزعة غير وطيدة الأساس يحيط بها البرابرة من جميع الجهات : فى همرسكوبيوم Hemeroscopium وأمپورياس Ampurias فى أسپانيا ، ومرسيليا وتيس فى فرنسا ، وفى كل مكان تقريباً بإيطاليا وصقلية . وأنشأ المستعمرون اليونان مدناً زاهرة فى قورينى Cyrene بشمال أفريقية وفى نقراطس بدال النيل ؛ وبعثت مغامراتهم النشيطة الحركة والحياة فى جزائر بحر إيجة وشواطئ آسية الصغرى فى ذلك الوقت البعيد ، كما تبعثهما فيها هذه الأيام ؛ وشادوا مدناً كبيرة وصغيرة لتكون محاط لتجارتهم الواسعة على شواطئ الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود ، ولم تكن أرض اليونان الأصيلة إلا جزءاً صغيراً من العالم اليونانى القديم .

ترى لماذا نشأت مجموعة الحضارات الثانية على شواطئ البحر المتوسط كما نشأت المجموعة الأولى قبل ذلك على ضفاف الأنهار فى مصر وأرض الجزيرة

والهند ، وكما ازدهرت الثالثة بعدها على شواطئ المحيط الأطلنطى ، وكما يحتمل أن تنشأ الرابعة على شواطئ المحيط الهادي ؟ هل كان السبب فى نشأتها هو اعتدال مناخ البلاد المطلة على هذا البحر ؟ لقد كانت الأمطار السنوية تروى الأرض وتخصبها فى الزمن القديم كما ترويها وتخصبها فى هذه الأيام(٢) ، وكان البرد المعتدل يبعث فى أهل البلاد النشاط ؛ وكان فى وسع الأهلين يعيشوا فى الهواء الطلق طوال العام تقريباً ، تدفئهم الشمس ولكنها لا توهن أجسامهم . ومع هذا فإن سطح الأرض حول هذا البحر وفى جزائره لا يبلغ من الخصب فى مكان ما مبلغ أرض الأودية الغرينيـة فى أحواض الكنج أو السند أو دجلة أو الفرات أو النيل . وقد يبدأ جفاف الصيف مبكراً عن عادته ، أو قد يطول أكثر مما يستحب ، وتجد فى كل مكان فيه الأرض الجدبة لا تبعد إلا قليلا من القشرة الغرينية المتربة الرقيقة . وتقع إلى شمال هذه الأراضى التاريخية بلاد معتدلة المناخ وإلى جنوبها أرض مدارية ؛ وكلها أخصب منها تربة . ولما أضنى الجهد الفلاحين سكان شواطئ البحر المتوسط وجزائره ، ووجدوا أن التربة لا تجود عليهم بما يعوض عنهم جهودهم ، أخذوا يتخلون عن فلحها شيئاً فشيئاً ؛ ويستبدلون بذلك زراعة الزيتون والكرم . وكانت تلك البلاد تتعرض من حين إلى حين إلى أخطار الزلازل ، فتنشق الأرض تحت أقدام السكان على طول بعض العيوب الأرضية التى تعد بالمئين ، فترهبهم وتدفعهم إلى نوبات من التقى والإيمان . ولم يكن المناخ هو الذى جاء بالحضارة إلى بلاد اليونان ، وأكبر الظن أن المناخ لم يكن سبب قيام الحضارة فى قطر من الأقطار .

أما السبب الذى جذب الناس إلى بحر إيجه فهو جزائره : فلقد كانت هذه الجزائر جميلة ؛ ولا ريب فى أن الملاح المتعب كان ينشرح صدره حين يرى اختلاف ألوان التلال المظللة التى تقوم كالهياكل فوق مياه البحر وتنعكس عليها . وقلما يجد الإنسان فى هذه الأيام مناظر أجمل من منظر هذه التلال

أو أكثر منها إثارة لحاسة الجمال . وإذا ما طاف الإنسان ببحر إيجة أدرك لساعته لم أحب سكان هذه الشواطئ والجزائر بلادهم حبهم للحياة أو أكثر منها ، ولم كانوا يرون كما يرى سقراط أن النفى أشد ألماً من الموت . يضاف إلى هذا أن الملاح الذى كان يطوف بتلك البحار فى الزمن القديم كان يجد فى الجزائر منثورة كاللآلى فى جميع الجهات ، وكان يراها متقاربة فلا تكاد سفينة تبعد عن الأرض أكثر من أربعين ميلا ، سواء أكان مسافراً من الغرب إلى الشرق أم من الشمال إلى الجنوب . وإذ كانت هذه الجزائر البارزة فوق سطح الماء هى قلل سلاسل جبلية قديمة ، متصلة بعضها ببعض ، كسلاسل الجبال فى بلاد اليونان القارية ، طغى عليها البحر على توالى الأيام[٣] ، فإن عين الملاح المرتقب كانت تقع على الدوام على قلة من هذه القلل المحببة كأنها تحييه وترحب بمقدمه ؛ وكانت أشبه بمنارات تهتدى بها السفن فى وقت لم تكن تهتدى فيها بالبوصلة البحرية . وفوق هذا كله فإن حركات الريح والماء كانت تعين الملاح على الوصول إلى هدفه . فقد كان تيار مائى قوى أوسط يسير من البحر الأسود إلى بحر إيجة ، وكانت تيارات أخرى مضادة له تسير نحو الشمال محاذية شواطئ البحر ، وكانت الرياح الشمالية الشرقية تهب بانتظام فى فصل الصيف فتساعد السفن التى خرجت من موانيها لتأتى بالحب والسمك والفراء من البحر اليكسينى Euxine(*) على العودة إلى موانيها فى

(*) كان اليونان يسمون البحر المتوسط **Ho Ponttos** أى الممر أو الطريق ، وكانوا يسمون البحر الأسود تسمية يراعون فيها التجميـل فى اللفظ **Pontos Euxienos** البحر المحب للأضياف — وربما كان سبب هذه التسمية أنه يقابل السفن المقبلة من الجنوب برياح وتيارات معاكسة لها . وكانت الأنهار الواسعة التى تصب ماءها فيه ، والضباب الكثير الذى يقلل من سرعة البحر يجعلان مستوى الماء فى البحر الأسود أعلى من مستواه فى البحر المتوسط ؛ ومن أجل هذا كان تيار مائى قوى يندفع خلال مضيق البسفور (مخاضة الثور) الضيق ومضيق الدردنيل إلى بحر إيجه ، وكانوا يسمون بحر مرمرة البروپنتيس **Propontis** أى ما قبل البحر .

الشمال . وكان الضباب نادراً فى البحر المتوسط ، كما أن أشعة الشمس التى لا تكاد تحتجب عنه ينشأ منها بالليل وبالنهار نسيم البر والبحر ، حتى ليستطيع الإنسان من بدء الربيع إلى آخر الخريف أن يستعين فى أى ثغر من ثغوره — إلا القليل النادر منها — بنسيم الصباح فى خروجه منه وبنسيم المساء فى عودته إليه .

فى هـــذه البحار الصالحة للتجوال نـمى الفينيقيون الكسابون واليونان القوازب فن الملاحة وعلمها ، فبثوا فيها سفناً معظمها أكبر وأسرع من جميع السفن التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط قبلهم ولكنها كانت أيسر منها حركة ، وأضحت الطرق البحرية بين أوربا وأفريقية من جهة وآسية من جهة أخرى مارة بقبرص وصيدا وصور أو ببحر إيجه والبحر الأسود ، وأضحت على الرغم من قراصنة البحر وما يتهددها من أخطار ، أقل نفقة من الطرق البرية الطويلة الشاقة المعرضة للأخطار والتى كان ينقل عليها فى الأيام الخالية الكثيرة من تجارة مصر والشرق الأدنى . وبذلك اتجهت التجارة وجهات جديدة ، وضاعفت عدد السكان الجديد ، وأوجدت ثروات جديدة ، فاضمحل شأن مصر ، وأعقب ذلك اضمحلال شأن أرض الجزيرة وفارس ، وأقامت فينيقية إمبراطورية من المدائن على ساحل أفريقية وفى صقلية وأسبانيا ، وازدهرت بلاد اليونان ازدهار الوردة المرتوية .

الفصل الثانى

كشف كريت الثانى

« وفى وسط البحر القاتم كلون النبيذ أرض تسمى كريت ، وهى أرض جميلة غنية يحيط بها الماء ، وفيها خلق كثيرون يخطئهم العد ، كما أن بها تسعين مدينة(٤) » : لما أنشد هومر هذه الأبيات ، ولعل ذلك كان فى القرن التاسع قبل الميلاد(*)، كانت بلاد اليونان قد نسيت أو كادت تنسى ، وإن لم ينس الشاعر ، أن الجزيرة التى بدت له عظيمة حتى فى ذلك الوقت ، كانت فى وقت من الأوقات أعظم مما هى وقتئذ ثروة ، وأنها كانت تسيطر بأسطولها القوى على معظم نواحى بحر إيجة وعلى جزء من أرض اليونان الأصيلة ، وأنها قد أنشأت قبل حصار طروادة بألف عام حضارة من أعظم الحضارات الفنية فى تاريخ العالم . ولعل هذه الحضارة الإيجية التى كانت قديمة بالنسبة له بقدر ما هو نفسه قديم بالنسبة لنا ، هى التى عادت إلى ذاكرة هومر وهو يتحدث عن عصر ذهبى كان الناس فيه أكثر حضارة وأرق حاشية منهم فى أيامه المضطربة :

ولقد كان كشف هذه الحضارة المفقودة مرة ثانية عملا من أجل الأعمال فى تاريخ علم الآثار الحديث . فها هى ذى جزيرة تبلغ مساحتها قدر مساحة أكبر جزائر السكلديز عشرين مرة ، جوها جميل ، تنتج حقولها غلات مختلفة ، وتلالها كانت فى وقت من الأوقات كثيرة الأشجار ، وموقعها من أصلح المواقع للتجارة والحرب ، فهى فى منتصف الطريق بين فينيقية وإيطاليا ، وبين مصر وبلاد اليونان . ولقد أشار أرسطاطاليس إلى هذا

(*) كل التواريخ الواردة فى هذا المجلد قبل الميلاد إلا إذا نص على غير ذلك أو كانت واضحة الدلالة على أنها بعد الميلاد .

الموقع الحسن وذكر أنه « هو الذى مكن مينوس Minos من إقامة إمبراطورية لها فى بحر إيجة(ه) . ولكن قصة مينوس ، التى يسلم بصحتها كل الكتاب الأقدمين ، وقد رفضها الكتاب المحدثون وعدوها خرافة من الخرافات : وقد كان من عادة المؤرخين قبل أيامنا هذه بستين عاماً لا أكثر أن يقولوا كما قال جروت Grote إن تاريخ الحضارة فى بحر إيجة يبدأ بغزو الدوريين أو بعصر الألعاب الأولمبية ؛ ثم حدث فى عام ١٨٧٨ م أن عثر تاجر كريتى يسمى مينوس كلكيرنوس Minos Kalikairinos — وهو اسم من أليق الأسماء للكشف الذى وفق إليه — عثر هذا التاجر على آثار قديمة فى سفح أحد التلال القائمة فى جنوب قندية(*) . وزار شليمان Schliemann العظيم هذا الموقع فى عام ١٨٨٦ ، بعد أن لم يمض على كشفه عن ميسينى Mycenae وطروادة إلا زمن قليل ، وأعلن عن اعتقاده بأن تحت ثراه آثار مدينة كنوسس القديمة ، وأخذ يفاوض مالك الأرض فى أن يسمح له ببدء أعمال الحفر على الفور ، ولكن المالك أخذ يساوم ويماحك وحاول أن يمكر به ؛ وكان شليمان تاجراً قبل أن يكون عالم آثار ، فتركه مغضباً ، وأضاع بذلك فرصة ذهبية لو اغتنمها لأضاف هو حضارة جديدة إلى حضارات التاريخ ، ومات بعد عام واحد من ذلك الوقت .

وفى عام ١٨٩٣ ابتاع دكتور آرثر إيفنز Arthur Evans عالم الآثار البريطانى من امرأة فى أثينة عدداً من الحجارة البيضاء كانت تمائم ، وقد أدهشه ما كان محفوراً عليها من كتابة أثرية لم يكن فى وسع عالم من العلماء أن يقرأها . وما زال يتقصى مصدر هذه الحجارة حتى عرف أنها من كريت ، فحصل على إذن بالسفر إليها ، وأخذ يطوف فى أنحاء الجزيرة ويجمع منها مايعتقد أنه نماذج للكتابة الكريتية القديمة . وفى عام ١٨٩٥ ابتاع جزءاً من الموقع الذى كان شليمان والمدرسة الفرنسية يعتقدان أنه موقع كنوسس وبعد أن قضى

(*) العاصمة الجديدة للجزيرة واسمها الرسمى الحديث هرقليوم Heracleum

تسعة أسابيع من ربيع ذلك العام يحفر فيه مستخدماً فى ذلك خمسين رجلا أماط اللثام عن أعظم ما أسفرت عنه البحوث التاريخية الحديثة من كنوز ، نقصد بذلك قصر مينوس . وليس فيما كشف من الصروح القديمة صرح يعادل هذا الصرح المعقد فى اتساعه ، وأكبر الظن أنه هو قصر التيه الذى لا نهاية له ، والذى اشتهر فيما يروى من القصص اليونانية القديمة عن مينوس ، وديدلس Deadalus ، وثيسيوس Theseus ، وأدريانى Adriane والمينوتور Minotaur . وكأنما شاءت الأقدار أن تؤيد ما أوحت به قريحة إيفنز إليه ، فعثر فى هذه الخرافات وفى غيرها على آلاف من الأختام وألواح الصلصال ، عليها رموز تشبه الرموز التى جاء إلى كريت يتعقبها ، وكانت النيران التى دمرت قصور كنوسس قد حفظت هذه الألواح ، ولا يزال ما عليها من الكتابة التصويرية ومن الحروف الهجائية غامضاً يخفى قصة بحر إيجة القديمة(*) .

ولما ذاع نبأ هذا الكشف هرع العلماء إلى كريت من كثير من الأقطار . وبينما كان إيفنز يعمل فى كنوسس كشف جماعة من الإيطاليين ذوى الجلد والعزيمة — هلبهر Halbherr ، وبرنير Pernier ، وسفنيونى Savignoni وبرنينى Paribeni — فى حاجيا تريادا Hagia Triada (الثالوث المقدس) — تابوتاً عليه صور من الحياة الكريتية واضحة الدلالة ، كما كشفوا فى فستس Phaestus عن قصر لا يفوقه فى سعته إلا قصر ملوك كنوسس ؛ وفى هذه الأثناء كان اثنان من الأمريكيين هما سيجر Seager ومستر هوس Hawes يقومان بأعمال الكشف فى حفائر ڤاسلكى Vasiliki ، ومكلوس Mochlos ، وجورنيا Gournia ؛ وكان البريطانيون — هوجارث Hogarth ، وبوسنكوت Bosaquet ، ودوكنز Dawkins ، وميرز

(*) وظل إيفنز يعمل بجهد ومهارة فى كنوسس سنين طوالا ، ومنح لقب فارس Knight مكافأة له على جهوده ، وأتم فى عام ١٩٣٦ تقريره الرائع المسمى « قصر مينوس » فى أربعة مجلدات .

Myres ينقبون فى پليكسترو Palaikastro وپسيكرو Psychro وزكرو Zakro . واهتم أهل كريت أنفسهم بأعمال الحفر والتنقيب فى ديارهم ، فأخذ زنثوديديز Xanthoudidis وهتزيداكس Hatzidakis يحفران فى مواقع المساكن والمغارات والمقابر القديمة فى أركلوكورى Arkalochori وتيليسس Tylissus ، وكومازا Koumasa ، وشميزى Chamaizi ، وانضوت نصف الأمم الأوربية تحت لواء العلم فى الوقت الذى كان فيه ساستها يستعدون للحرب

ترى كيف تصنف هذه المادة الكثيرة — هذه القصور ، والرسوم ، والتماثيل والأختام ، والمزهريات والمعادن ، والألواح ، والنقوش ؟ — وإلى أى عصر من العصور الغابرة تضم ؟ وقد أرخ إيفنز ما كشف من الآثار حسب عمق الطبقات الأرضية التى وجدت فيها ، وما طرأ على أنماط الخزف من تطور تدريجى ، وما بين الآثار التى كشفت فى كريت وما كشف فى غيرها من البلاد من تشابه فى الشكل أو فى الغرض الذى صنعت من أجله ، والموازنة بين الطبقات التى كشفت فيها والطبقات التى يعرف تاريخها على وجه التقريب فى غير كريت . وما من شك فى أن هذه الطريقة لا تسلم من الخطأ ، ولكن البحوث التى أجريت فيما بعد ، وما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة ، تؤيدها تأييداً يتزايد على مر الأيام . وظل إيفنز يواصل أعمال الحفر تحت كنوسس حتى قابلته على بعد ثلاث وأربعين قدماً من سطح الأرض الصخور الصماء ، وكان النصف الأسفل من الأرض التى حفرها تشغله بقايا عليها طابع العصر الحجرى الحديث — من أشكال بدائية لفخار مصنوع باليد ، محلى برسوم مكونة من خطوط بسيطة ، ومن لوالب مغازل تستخدم فى الغزل والنسيج ، ومن إلهات ذوات أعجاز ضخمة من الحجر الصابونى أو الصلصال ، وأسلحة وحجارة مصقولة ؛ ولم يكن من تلك البقايا أدوات من النحاس أو البرنز . وصنف إيفنز الفخار ووازنه بما وجد منه فى مصر القديمة وبلاد النهرين ، وعلى أساس هذا التصنيف

قسم ثقافة كريت فيما بعد العصر الحجرى الحديث وفى عصر ما قبل التاريخ ثلاثة عصور : العصر المينوى المبكر . والمينوى الأوسط ، والمينوى المتأخر . ثم قسم كل عصر من هذه العصور إلى ثلاثة أطوار .

ويمثل أول ظهور النحاس — أى أبعد الطبقات التى ظهر فيها عن سطح الأرض — قيام حضارة جديدة قياماً بطيئاً من مرحلة العصر الحجرى الحديث . وقبل أن يحل العصر المينوى المبكر كان الكريتيون قد عرفوا كيف يخلطون النحاس بالقصدير ، وبدأ بذلك عصر البرنز ، وفى الطور الأول من العصر المينوى الأوسط تظهر أقدم القصور : فيقيم أمراء كنوسس ، وفستوس ، وماليا Mallia لأنفسهم مساكن مترفة كثيرة الحجرات ، ومخازن واسعة ، وحوانيت متخصصة ، ومذابح وهياكل ، ومجارى تبهر المتكبر الغربى المتعجرف ، وتجعله يغض الطرف منها استحياء . ونرى الفخار ذا ألوان كثيرة براقة ، والجدران تزينها مقرنصات ساحرة جميلة ، ونرى نوعاً من الكتابة الحرفية قد تطور من الكتابة التصويرية التى كانت فى العصر السابق .

وفى نهاية الطور الثانى من العصر المينوى الأوسط حلت بالبلاد كارثة عجيبة تركت ما يدل عليها فى الطبقات الأرضية . فقد تهدم قصر كنوسس كأن الأرض قد انشقت فحطمته ، أو لعل ذلك كان على أثر غارة قامت

(*) لما كان من المستطاع تحديد تاريخ أقدم الطبقات المحتوية على أدوات نحاسية فى كنوسس بعام ٣٤٠٠ ق. م. أى منذ ٥٣٠٠ سنة من وقتنا هذا ، وذلك بمقابلتها بآثار الحضارات المجاورة لها ؛ وإذ كانت الطبقات المحتوية على أدوات من العصر الحجر الحديث فى كنوسس تشغل نحو خمسين فى المائة من سمك مجموع عمق الأرض من سطحها إلى الطبقات الصخرية ، فقد قدر إيفنز أن العصر الحجرى الحديث فى كريت بقى ٤٥٠٠ عام على الأقل قبل معرفة المعادن ، أ من عام ٨٠٠٠ إلى ٣٤٠٠ ق. م. تقريباً . ولا حاجة إلى القول بأن تقدير الزمن بناء على عمق الطبقات الأرضية تقدير يختلف فيه العلماء كل الاختلاف ، لأن معدل الرسوب قد يختلف فى العصور المختلفة . وقد أدخل إيفنز فى حسابه بطء هذا المعدل بعد أن ترك موقع كنوسس ، ولم يعد موضعاً لمدينة عامرة فى القرن الرابع قبل الميلاد . ولم توجد فى كريت أدوات من العصر الحجرى القديم .

بها فستوس التى ظل قصرها باقيا بعد ذلك فترة من الزمان . ثم أصاب فستوس ومكلوش ، وجورنيا وپليكسترو ، ومدناً أخرى كثيرة فى الجزيرة، ما أصاب كنوسس من تخريب ، فترى الفخار قد غطاه الرماد ، والجرار الكبيرة فى المخازن ملأى بالأنقاض . أما الطور الثالث من العصر المينوى الأوسط فطور ركود نسبى ، وقد يكون هو الطور الذى اضطربت فيه أحوال البلاد الواقعة فى جنوب البحر المتوسط على أثر فتح الهكسوس مصر ، ودام اضطرابها زمناً طويلا(*) .

وفى العصر المينوى المتأخر يبدأ كل شىء من جديد ، فتتجدد آمال الإنسانية التى تصبر على كل بلوى ، وتسرى فيها روح الشجاعة ، وتبدأ الحياة مرة أخرى ، فتقوم قصور جديدة أجمل من القصور السابقة فى كنوسس ، وفستوس ، وتليسوس ، وحاجيا تريادا ، وجورنيا ، فتعمها الفخامة ، وتكثر المبانى ذوات الأطباق الخمسة ، والنقوش البديعة ، وتوحى المبانى الفخمة بأن أحوال البلاد قد بلغت من الثراء ما لم تعرفه بلاد اليونان حتى عصر پركليز .

هنالك ترى دور التمثيل قد شيدت فى أفنية القصور ، وترى النساء والرجال يجالدون الوحوش لتسلية الرجال والسيدات ؛ وهؤلاء لا تزال وجوههم الأرستقراطية اليقظة الهادئة حية فى المظلمات البراقة الباقية على الجدران الجديدة . وتتضاعف حاجات الأهلين ، وترق أذواقهم ، وتزدهر الآداب ، وتنشأ مئات من الصناعات ، فيستطيع الفقراء أن يستمتعوا بالرخاء وهم يعملون ليمدوا الأغنياء بأسباب الراحة والنعيم . وترى أبهاء الملوك تدوى فيها أصوات الكتبة وهم يحصون السلع التى يوزعونها أو يتسلمونها ، وأصوات الفنانين وهم ينحتون التماثيل ، أو يرسمون الصور ، أو يصنعون

(*) إذا أراد القارىء أن يعرف كم من السنين دام كل طور من هذه الأطوار فليرجع إلى ثبت الحوادث المسلسلة فى أول هذا الباب .

الفخار ، أو ينقشون النقوش ؛ وأصـــوات كبار الموظفين يعقدون المؤتمرات ، ويستمعون إلى القضايا المستأنفة أحكامها إليهم ، أو يبعثون بالأوراق مبصومة بأختامهم الجملية الدقيقة الصنع ؛ بينا ترى الأمراء ذوى الخصر النحيل والأميرات المحليات بالجواهر ، المغريات ، العاريات النحور ، يجتمعون فى وليمة ملكية يقدم لهم فيها الطعام على موائد تتلألأ عليها صحاف البرنز والذهب . لقد كان القرنان السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد هما العهد الذى بلغت فيه الحضارة الإيجية ذروة مجدها وهما عصر كريت الذهبى القديم :

الفصل الثالث

حضارة تستعاد من بقاياها

إذا شئنا أن نستعيد هذه الحضارة المدفونة مما بقى من آثارها — أى أن نفعل بآثار كريت المتفرقة ما فعله كوفييه Cuvier بالعظام البشرية المشتتة — وجب علينا أن نذكر أننا نقدم بهذا العمل على مغامرة تاريخية لا تؤمن مغبتها ، وللخيال فيها شأن كبير ، لأنه هو المصدر الذى نستمد منه الصلات الحية التى تسد الثغرات وتربط المادة العلمية الضئيلة المشتتة التى يحركها المؤرخون حركة اصطناعية ، بعد أن ماتت من زمن طويل . وسيظل ما تنطوى عليه جزيرة كريت من معلومات مجهولا خافياً على العالم حتى يقيض للأسرار المخبوءة فى ألواحها عالم مثل شمپليون .

١ — الرجال والنساء

بين الكريتيين ، كما يتصورهم فنانوهم ، وبين البلطة المزدوجة التى تظهر كثيراً فى رموزهم الدينية شبه غريب . فالرجال منهم والنساء لهم أجسام تدق من أعلاها ومن أسفلها حتى تنتهى فى الوسط بدائرة شديدة الضيق كطراز هذه الأيام ، ولكنه مبالغ فيه . وكلهم تقريباً قصار القامة نحاف ، لدن ، رشيقو الحركة ، ذوو أناقة رياضية . وهم بيض البشرة وقت مولدهم ؛ فأما نساؤهم اللائى يلازمن الظل فلهن وجوه بيض ، جرى عرفهم بأن تمثل فى صورهن ضاربة إلى الصفرة ؛ وأما الرجال الذين يسعون فى مناكب الأرض طلباً للرزق ، فقد لوحت الشمس وجوههم فاحمرت ، ولذلك كان اليونان يسمونهم كما كانوا يسمون الفينيقيين الفوينيقيين أى الأرجوانيي اللون ، ورؤوسهم أقرب إلى الطول منها إلى العرض ، ومعارفهم حادة دقيقة ، وشعورهم وعيونهم سوداء

براقة كشعور الإيطاليين وعيونهم فى وقتنا الحاضر . ولا جدال فى أن هؤلاء الكريتيين فرع من جنس « البحر المتوسط(*) » ؛ والرجال منهم والنساء يرسلون شعرهم ، بعضه معقوص فوق رؤوسهم وأعناقهم ، وبعضه فى حلقات فوق جباههم ، وبعضه الآخر فى غدائر تنوس على أكتافهم أو صدورهم . ويضيف النساء إلى ذلك أشرطة فى غدائرهن ، أما الرجال فكانوا يصطحبون معهم حتى فى قبورهم طائفة من شفرات الحلاقة ليحتفظوا بوجوههم حليقة نظيفة حتى فى القبور(١٠) .

وليست ملابسهم بأقل غرابة من أجسامهم ، فقد كان الرجال يضعون على رؤوسهم — إذا وضعوا شيئاً عليها لأنهم كانوا فى أغلب الأحيان يتركونها عارية — عمائم أو قبعات عراضاً ، وكان النساء يلبسن قبعات فخمة من طراز القبعات التى كانت منتشرة فى بداية القرن العشرين . وكانوا فى العادة حفاة الأقدام ، عدا أفراد الطبقات العليا ، فقد كانوا أحيانا ينتعلون أحذية بيضاء من الجلد ، كانت عند النساء مزركشة جميلة فى أطرافها ، مزينة سيورها بالخرز . ولم يكن الرجال فى العادة يلبسون شيئاً على أجسامهم فوق وسطهم ، أما فى أوساطهم فكانوا يلبسون تنورات قصيرة ، أو مناطق تكون أحياناً منتفخة من الأمام تأدباً واحتشاماً . وقد تكون « التنورة » مفتوحة من الجانبين عند العمال ، أما عند العظماء وفى الحفلات فكانت تطول حتى تصل إلى الأرض عند الرجال والنساء على السواء . وكان الرجال يلبسون السراويل أحياناً ، وكانوا فى الشتاء يلبسون رداء خارجياً طويلا يتخذ من الصوف أو الجلد . وكانت الملابس تربط ربطاً محكما فى وسط

(*) يتسم علماء تاريخ الإنسان الطبيعى الأوربيين بعد العصر الحجرى الحديث الأقسام الثلاثة الآتية التى كانت لها على الترتيب الكثرة الغالبة فى شمال أوربا ووسطها وجنوبها ، وهى : (١) « الجنس النوردى » أى الشمالى وأفراده طوال الرؤوس ، طوال القامة ، بيض البشرة شقر الشعر ملح العيون . (٢) « الجنس الألبى » وأفراده عراض الرؤوس ، متوسطو القامة ، عيونهم عسلية وبشرتهم ضاربة إلى السمرة . (٣) « جنس البحر المتوسط » وأفراده طوال الرؤوس قصار القامة سمر البشرة . وجدير بنا أن نعرف أنه لا يوجد من هذه الأجناس جنس خالص نقى .

الجسم ، لأن الرجال والنساء جميعاً كانوا يحرصون على أن يكونوا — أو أن يبدوا — رفيعى الوسط كأن أجسامهم تتركب من مثلثين[١١]. وأرادت النساء فى العصور المتأخرة أن ينافسن الرجال فى ضيق أوساطهن فعمدن إلى المشدات القوية تجمع تنوراتهن حول أعجازهن ، وترفع أثداءهن العارية إلى ضوء الشمس . وكان من عادات الكريتيات الظريفة أن تبقى صدورهن عارية ، أو تكشفها قمصان شفافة[١٢] ، ولم يكن أحد يتحرج من هذا أو يرى فيه غضاضة . وكان المجول يربط تحت الصدر ، ثم ينفتح فتحة دائرية غير دقيقة ، ثم يعود فينطبق انطباقا جميلا حول العنق أشبه بالطوق الميديشى لطراز . وكانت الأكمام قصيرة منتفخة فى بعض الأحيان ؛ وكانت التنورات تزدان بالثنايا والألوان الزاهية ، وتتسع كثيراً عند العجز ، وتقوَّى فى أغلب الظن بأعواد من المعدن أو بأطواق أفقية الوضع . وإنا لنرى فى ترتيب ملابس الكريتيات وأشكالها تناسقا فى الألوان ، وجمالا فى الأشكال ، ورقة فى الذوق ، تنم عن حضارة غنية راقية ازدهرت فيها الفنون وارتقت أساليب الحياة . ولم يتأثر اليونان بالكريتيين فى هذه المسائل ولم تتغلب أزياؤهم على غيرها من الأزياء إلا فى العواصم الحديثة ؛ بل إن علماء الآثار أنفسهم يطلقون اسم « الباريسية » على صورة المرأة الكريتية ذات الصدر المرتفع البراق ، والعنق الجميل ، والفم المغرى ، والأنف البارز ، والجمال القوى المثير . إن هذه المرأة لتجلس أمامنا اليوم فى غير حياء مصورة فى طنف منقوش ، يطل فيه جماعة من العظماء على منظر لن يسمح لنا الزمان برؤيته ما حيينا[١٣] .

وواضح فى هذه الرسوم أن رجال كريت كانوا يحمدون لنسائها ما يخلعنه على الحياة من لطف ومغامرات ، لأنهم لا يبخلون عليهن بما يحتجن من مال يزدن به جمالهن وفتنتهن . فقد كشف فى الآثار عن حلى كثيرة مختلفة الأنواع ، من دبابيس للشعر نحاسية وذهبية ، ودبابيس ومشابك منقوشة عليها بالذهب حيوانات أو أزهار ، أو رؤوس من البلور أو المرمر ، وأقراط

مزركشة بخيوط من الذهب تختلط بالشعر ، وعصائب أو حلى من المعادن النفيسة تربطه ،، وأقراط أو قلادات مدلاة من الآذان ، ومشابك وخرز وعقود على الصدر ، وأساور فى الأذرع ، وخواتم فى الأصابع من فضة ، وعقيق ، وجزع ، وجمشت ، وذهب . وكان الرجال يتحلون أيضاً ببعض هذه الحلى ، فإذا كانوا فقراء لبسوا عقوداً وأساور من حجارة عادية ، وإذا أمكنتهم مواردهم ازينوا بخواتم كبيرة نقشت عليها صور الحرب أو الصيد ؛ ونرى الساقى فى الصورة الذائعة الصيت يلبس فى عضده الأيسر إسورة عريضة من معدن نفيس ، وفى معصمه إسورة مطعمة بالعقيق . ونرى الرجل فى الحياة الكريتية أيا كان موضعه يعرض أنبل عواطفه وأشد ما يفتخر به من هذه العواطف وهى حرصه على التجمل .

وتكاد النساء أن يكن صاحبات السلطان الأعلى فى الحياة الكريتية ؛ ذلك أن المرأة المينوية لم تكن ترضى بحياة العزلة التى كانت تسود بلاد الشرق ، ولم تكن تطيق الحجاب أو البقاء فى الدور ، وليس ثمة دليل على أنه كان للنساء أجنحة خاصة فى المنازل . لقد كانت المرأة تشتغل فى البيت بلا ريب كما تفعل بعض النساء حتى فى وقتنا هذا ، تنسج الأقمشة وتضفر السلال ، وتطحن الحب وتخبز العيش ؛ ولكنها كانت فوق ذلك تعمل مع الرجل فى الحقل وتصنع معه الفخار ، وتختلط بالرجال فى الأسواق ، وكان النساء يجلسن فى المقاعد الأمامية فى دور التمثيل وفى حلبات الألعاب ، وينتقلن فى المجتمعات الكريتية وعليهن سيماء العظمة والملل من التعظيم والتمجيد ؛ ولما أن صاغت الأمة أربابها كان هؤلاء الأرباب فى أكثر الأحيان أشبه بالنساء منهم بالرجال . وإن العلماء المبجلين المشغفين على غير علم منهم — شغفاً لا غضاضة عليهم فيه — بصورة الأم المنقوشة على صفحات قلوبهم ليطأطئون رؤوسهم إجلالا أمام آثار المرأة فى هذه الحضارة ، ويقفون مذهولين أمام سلطانها العظيم(١٤) .

٢ — المجتمع

وسوف نفترض أن كريت فى عهدها القديم كانت تقسمها جبالها أقساماً تسكنها عشائر قليلة العدد متحاسدة متباغضة ، تقيم فى قرى منفصلة مستقلة ، يحكمها زعماؤها ، وتتقاتل كما يتقاتل سائر الناس بفطرتهم . ثم يظهر من بين هؤلاء الزعماء زعيم قدير يضم عدداً من هذه العشائر تحت سلطانه ، ويؤلف منها مملكة ، ويشيد قصره الحصين فى كنوسس أو فستوس أو تلنيسوس أو غيرها من المدن ، ثم تصبح الحروب أقل عدداً وأكثر اتساعاً وأشد تقتيلا . ثم تنضم المدن كلها وتحارب دفاعاً عن الجزيرة بأجمعها وتنتصر كنوسس ؛ وتنشئ المدينة المنتصرة أسطولا بحرياً تسيطر به على بحر إيجه ، وتقضى على القراصنة ، وتفرض الخراج على غيرها من الجزائر ، وتناصر الفنون كما فعل بركليز فيما بعد[١٩] . وهكذا تقوم الحضارة فى إثر القرصنة ، والحق أن من الصعب قيام حضارة من غير سرقة كما أن من الصعب أن تبقى بغير عبيد(*) .

ويستند سلطان الملك ، كما يستدل من الآثار ، على القوة والبطش ، وعلى الدين والقانون . وهو يغوى الآلهة ويستخدمها لمعونته ليجعل طاعة الناس إياه أيسر عليهم وأقل كلفة ، ويلقن كهنته الناس أنه من نسل ڤلكانوس Volchanos ، وأنه تلقى من هذا الإله القوانين التى يصدرها ، وإذا ما كان الملك قديراً أو سخياً فإن هؤلاء الكهنة يخلعون عليه من جديد السلطة الإلهية ، ويتخذ الملك البلطة المزدوجة وزهرة الزئبق رمزاً لسلطانه كما فعلت رومة وفرنسا فيما بعد . وهو يستخدم فى تصريف شئون الدولة (كما تشير بذلك أكداس الألواح) طائفة من الوزراء وموظفى الدواوين والكتبة .

(*) يقول توكيديد ، الحذر الدقيق ، إن أول شخص معروف تزعم الرواية التاريخية أنه بنى أسطولا هو مينوس وسيطر به على البحر المعروف باسم البحر الهيليني وحكم جزائر سكلديس ... وقد بذل غاية جهده ليقضى على القرصنة فى ذلك البحر ، وكانت هذه خطوة لا بد منها لضمان الخراج الذى يستخدمه فى مصالحه .

وهو يجبى الضرائب عيناً ، ويختزن فى جرار ضخمة موارده من حب وزيت وخمر ، ومن هذه الموارد يؤدى رواتب رجاله عيناً . وهو يقضى وهو جالس على عرشه فى القصر من مجلسه فى بيته الملكى الصغير فيما يرفع إليه من القضايا التى مرت بمحاكمه . وقد بلغ من شهرته فى أحكامه أنه يصبح فى الدار الآخرة بعد موته قاضى الموتى الذين لا مفر من عرض قضاياهم عليه(٢١) ، كما يؤكد لنا هومر . ونحن نسميه فى كتابنا مينوس ولكننا لا نعرف حقيقة اسمه . ولعل هذا لقب لا اسم شبيه بلفظ فرعون أو قيصر يطلق على عدد كبير من الملوك .

وتدل هذه الحضارة فى ذروة مجدها على أنها حضارة مدن لا حضارة ريف . وتحدثنا الإلياذة عن « مدائن » كريت « التسعين » ، ويعجب اليونان الذين يفتحونها من كثرة سكانها . بل إن الدارس ليقف اليوم مرتاعاً أمام شوارعها المحطمة المرصوفة ذات المجارى ، وأمام أزقتها المتقاطعة ، وحوانيتها التى يخططها الحصر ؛ وميادينها المتجمعة حول مركز من مراكز التجارة أو الحكم ، حيث نرى الرجال محتشدين يتحدثون وهم ساكنون وادعون . وليست كنوسس وحدها هى المدينة العظيمة ذات القصور الواسعة التى تغرى الخيال على أن يبالغ فى عظمة المدينة التى كانت بلا ريب أكبر مصدر لثروة هذه القصور ، وأول ما يستفيد من ثروتها . ويقابل كنوسس على شاطئ الجزيرة الجنوبى مدينة فستوس ، ومن مينائها « تحمل قوة الريح والأمواج إلى أرض مصر السفن ذات المقدمات القاتمة ، كما يقول هومر » (٢٢) . وفى هذه المدينة تتجمع تجارة كريت المينوية الذاهبة إلى الجنوب ، مضافاً إليها السلع التى يأتى بها تجار الشمال الذين ينقلون بضائعهم إليها بطريق البر ليتجنبوا أخطار الطريق البحرى الطويل . وتصبح فستوس بعدئذ لكريت كما كانت بيريوس لليونان ، تحب التجارة أكثر من حبها الفن ؛ ومع هذا فإن قصر أميرها صرح فخم ، يرقى إليه بطائفة من الدرج يبلغ اتساعها

خمساً وأربعين قدماً ؛ ولا تقل أبهاؤه وأفنيته عن مثيلاتها فى كنوسس ؛ ففناؤه الأوسط مربع مرصوف يبلغ اتساعه عشرة آلاف قدم مربعة ، وحجرة الاستقبال فيه تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف ، أى أكبر من الردهة العظيمة ، ردهة البلطة المزدوجة ، فى العاصمة الشمالية .

وعلى بعد ميلين من فستوس فى اتجاه الشمال الغربى منها تقع حاجياترياداً ؛ وإلى بيتها الملكى الصغير (كما يسميه علماء الآثار) يلجأ أمير فستوس ليتقى حر الصيف . وكان طرف الجزيرة الشرقى فى الأيام المينوية غنياً بالبلدان الصغيرة : سواء أكانت ثغوراً مثل زكرو ومكلوس ، أو قرى مثل بريسوس preasus وبسيرا pseira ، أو أحياء لسكنى العظماء مثل بليكسترو ، أو مراكز صناعية مثل جورنيا . والشارع الرئيسى فى بليكسترو حسن الرصف كثير المجارى ، تقوم على جانبيه بيوت رحبة ؛ منها بيت يحتوى على ثلاث وعشرين حجرة فى الطابق الذى بقى منه حتى الآن . ولجورنيا أن تفخر بما كان فيها من شوارع واسعة مرصوفة بالجبس وبيوت مشيدة بالحجارة من غير ملاط ، وحانوت حداد لا يزال كيره باقياً إلى الآن ، وحانوت نجار وجد فيه صندوق يحتوى على عدد ، ومصانع تعج بصناع المعادن ؛ وصناع الأحذية والمزهريات ، وتكرير الزيت ، والنسيج ، وإن العمال الذين يكشفون عن تلك الآثار فى هذه الأيام ويجمعون ما فيها من مناضد ذات ثلاث قوائم ، وجرار ، وفخار ، وأفران ، ومصابيح ، ومدى ، و « هاونات » ، وأدوات للصقل . وخطاطيف ، ودبابيس ، وخناجر ، وسيوف ، نقول إن العمال الذين يكشفون الآن عن تلك الآثار ويجمعونها لتعتريهم الدهشة من كثرة ما كانت تخرجه مصانعها من أدوات مختلفـة الأنواع . ويطلقون عليها اسم « مدينة الآلات »(٢٣) . وإذا قيست شوارع المدينة إلى شوارعنا فى هذه الأيام بدت لنا ضيقة ، فهى لا تزيد على أزقة من طراز أزقة المدن الشرقية الواقعة قرب المدارين ، والتى تخشى حر الشمس اللافح ، أما بيوتها المستطيلة الشكل المشيدة من الخشب أو الآجر أو الحجر ، فلا ترتفع فى الغالب

إلى أكثر من طابق واحد . غير أن ما وجد فى كنوسس من النقوش الباقية من العصر المينوى الأوسط يصور بيوتاً من طابقين أو ثلاثة ، بل ومن خمسة أحياناً ، فى أعلاها حجرة مفردة أو برج صغير فى بعض المواضع ؛ وفى الأطباق العليا من هذه البيوت المصورة نوافذ ذات ألواح حمراء مصنوعة من مادة لم تعرف بعد . و لحجرات الطابق الأسفل أبواب ذات مصراعين يدوران على قوائم لعلها من خشب السرو توصل إلى فناء ظليل . ويصعد بدرج إلى الأطباق العليا وإلى سطح المنزل حيث ينام الكريتيون فى الليالى الشديدة الحرارة . أما إذا قضوا الليل فى داخل البيوت فإنهم يضيئون بيوتهم بمصابيح زيتية تصنع من الصلصال أو حجر الصابون ، أو الجبس أو الرخام ، أو البرنز حسب ثروة أصحابها(٢٤) .

ولسنا نعلم عن ألعاب الكريتى إلا شيئاً واحداً أو شيئين لا أهمية لها ؛ فإذا كان داخل الدار فإنه يحب لعبة شبيهة بلعبة الشطرنج ، فقد خلف لنا فى خرائب قصر كنوسس لوحة لعب فخمة ذات إطار من العاج وعليها مربعات من الفضة والذهب ، واثنتين وسبعين قطعة من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة . فإذا كان الكريتى فى الحقول فإنه يعمد إلى الصيد بجرأة وحماسة ومعه قطط نصف برية ، وكلاب صيد أصيلة ضامرة . وإذا كان من سكان الحواضر شجع الملاكمين ، وتراه يصور على مزهرياته وفى نقوشه البارزة أنواعاً مختلفة من المباريات ، يتلاكم فيها ذوو الأوزان الخفيفة بأيديهم العارية وأقدامهم ، وذو الأوزان المتوسطة يتلاكمون بقوة ، وعلى رؤوسهم خوذ مزدانة بالريش ، وذوو الأوزان الثقيلة يدلّون بخوذهم وأقنعة خدودهم وقفازاتهم الطويلة المبطنة ، ويواصلون الملاكمة حتى يسقط أحدهم على الأرض من فرط الإعياء ، ويقف الثانى فوقه يتباهى بما أحرزه من نصر(٢٥).

ولكن أكثر ما يثير حماسة الكريتى أن يشق طريقه بين الجموع التى تملأ المدرج فى يوم من أيام الأعياد ليرى الرجال والنساء يواجهون الموت أمام

هجمات الثيران الهائجة . وكثيراً ما يصور مراحل هذا الصراع الوحشى الشديد ، يصور الصائد الجرىء يقتنص الثور بأن يقفز فوق عنقه وينزل ساقيه على جانبيه وهو يشرب الماء من إحدى البرك ؛ ويصور المروض المحترف وهو يلوى رأس الثور حتى يتعلم شيئاً من الخضوع لحيل المدرب البغيضة ؛ ثم المجتلد الماهر النحيل الجسم الخفيف الحركة وهو يلتقى بالثور فى الحلبة ، ويمسك بقرنيه ، ويقفز فى الهواء ، وينقلب فوق ظهر الحيوان ، ثم ينزل برجليه على الأرض بين ذراعى فتاة تضفى على المنظر من جمالها وزشاقتها(٢٦) . ولقد أصبح هذا الصراع حتى فى كريت المينوية من الألعاب القديمة التى طال بها العهد ؛ فقد عثر فى كپدوشيا على أسطوانة من الصلصال يعزى تاريخها إلى عام ٢٤٠٠ ق . م ، وتمثل صراع ثور لا يقل فى شدته أو خطورته عما هو مصور فى المظلمات السالفة الذكر(٢٧) . وإذا ما قلبنا الفكر فى هذه اللعبة الدالة على شجاعة الإنسان وتعطشه لسفك الدماء ، والتى لا تزال منتشرة فى هذه الأيام ، وعرفنا أنها قديمة قدم الحضارة نفسها ، إذا ما فعلنا ذلك أدركت عقولنا المولعة بتبسيط الأمور والاستهانة بها — وإن كان هـذا الإدراك لا يدوم إلا لحظات — ما فى الطبيعة البشرية من تناقض وتعقيد .

٣ — الدين

ربما كان الكريتى وحشياً قاسياً ، ولكنه كان بلا شك متديناً يتركب من مزيج بشرى كامل من الفيتشية والخرافة من جهة والمثالية وتعظيم الأرباب من جهة أخرى ؛ فهو يعبد الجبال والمغارات ، والعدد ٣ ، والأشجار ، والأعمدة ، والشمس والقمر ، والمعز والأفاعى ، واليمام والثيران ، وقلما يسلم شىء من عبادته . والهواء فى اعتقاده مملوء بالأرواح الطيب منها والخبيث ، وتنتقل منه إلى بلاد اليونان طائفة شفافة من جن الحراج منها الذكور ومنها الإناث .

وهو لا يعبد عضو التذكير عبادة ؛ ولكنه يعظم فى رهبة وخشوع ما فى الثور والأفعى من قوة حيوية منتجة[٢٨] . وإذ كان معدل الوفيات بين الكريتيين كبيراً فإنه يعظم الإخصاب ، وحين يسمو به تفكيره إلى إيجاد إله بشرى يصور لنفسه إلهته أماً ذات ثديين وجسم فارع الطول ، وأفاع تلتف حول ذراعيها وثدييها ، وتتلوى فى شعرها أو تتدلى فى أنفة وكبرياء من رأسها . وهو يرى فى هذه الإلهة الأم الحقيقة الأساسية من حقائق الطبيعة ، وهى أن الموت عدو الإنسان الألد تغلبه قدرة الأم الخفية العجيبة على التناسل والتكاثر ، وهو لذلك يؤله هذه القدرة . فالإلهة الأم تمثل له مصدر الحياة بأجمعها فى النبات والحيوان والإنسان . وإذا ما أحاط صورتها بالحيوان والنبات فما ذلك إلا أن الحيوان والنبات يوجدان من خصوبتها الخلاقة ، وهما لذلك يرمزان لها ولما ينبعث منها : وهى تظهر فى بعض الأحيان تضم بين ذراعيها طفلا قدسياً هو ڤلكانوس ولدته فى مغارة جبلية[٢٩]؛ وإذا ما تأملنا هذه الصورة القديمة رأينا من خلالها إيزيس وحورس ، وإشتار وتموز ، وسيبيل وأتيس ، وأفروديتى وأدنيس ، وأحسسنا بوحدة ثقافات ما قبل التاريخ ؛ واتصال الآراء والرموز الدينية فى عالم البحر المتوسط بعضها ببعض .

وزيوس الكريتيين ، وهو الاسم الذى يطلقه اليونان على ڤلكانوس ، أقل منزلة من أمه فى حب الكريتيين ، ولكنه يزداد أهمية على مر الأيام ، ففيه يتمثل المطر المخصب ، والرطوبة التى يرى هذا الدين كما يرى طاليس أنها أساس كل شىء . وهو يموت ثم يشاهد الناس ضريحه جيلا بعد جيل على جبل يوكتاس Jouktas ، ولا تزال صفحة وجهه الفخمة الجلية تظهر للسائح القوى الخيال ؛ ثم يقوم من قبره ليكون رمزاً للنبات المجدد للحياة ، ويحتفل القسيسون ببعثه المجيد بالرقص والضرب بالدروع[٣٠] ، وهو بوصفه إلهاً للخصب يتصور أحياناً كأنه حل فى جسم الثور المقدس ؛ وهو بهذه الصفة

يضاجع باسفيا زوجة مينوس فى الخرافات الكريتية فتلد له ثور مينوس المهول أو المينوتور .

ويعمد الكريتى لاسترضاء هذه الآلهة إلى طقوس لا حصر لها من الصلوات والتضحيات ، والرموز ، والاحتفالات ، يقيمها فى العادة كاهنات من النساء ، ويقيمها فى بعض الأحيان موظفون من رجال الدولة . وهو يطرد الشياطين ويتقى أذاها بحرق البخور ، ويستثير الإله الغافل بالنفخ فى صدفة بحر زدوجة ؛ وبالقيثارة أو الناى ، وينشد الأناشيد الجماعية تعبداً وخشوعاً . ويعمل على إنماء البساتين والحقول بإرواء أشجارها ونباتها بمراسم دينية ، وترى كاهنات البلاد وهن عاريات هائجات يهززن الأشجار التى نضجت ثمارها لتسقط حملها ، أو نساءها يسرن فى مواكب يحملن الفاكهة والأزهار يقدمنها للآلهة التى يحملنها فى هودج ويومئن بها إليها . والظاهر أن الكريتى لم بين له معبداً ولكنه كان يقيم مذبح القربان فى بهو القصر أو فى الأيك أو المغارات المقدسة أو على قلل الجبال . وهو يزين هذه الأماكن المقدسة بأن يضع فيها مناضد يصب عليها السوائل قرباناً للأرباب ، وأصناماً مختلفة الأشكال و « قروناً قدسية » لعلها ترمز إلى الثور المقدس . والرموز المقدسة عند الكريتى لا حصر لها ، ويلوح أنه يعبد هذه الرموز كما يعبد الآلهة التى تدل عليها . ومن هذه الرموز الدرع ولعله كان يراه رمزاً للآلهة فى صورتها الحربية ، ثم الصليب — فى صورتيه اليونانية والرومانية — يحفره على جبهة ثور أو على فخذ إلهة أو ينقشه على خواتم ، أو يقيمه من الرخام فى قصر الملك . وأهم هذه الرموز كلها البلطة المزدوجة بوصفها آلة التضحية ، وقد أضحت لها قوة سحرية عظيمة اكتسبتها من فضيلة الدم الذى تسفكه ، أو سلاحا مقدساً يهديه الإله فلا يخطئ قط ، أو رمزاً لزيوس الذى يرسل الرعد ويشق السماء بصواعقه[٣١] .

وهو إلى هذا كله يعنى بعض العناية بموتاه ، ويعبدهم عبادة لا تسمو إلى عبادة الآلهة السالفة الذكر . فهو يدفنهم فى توابيت من الصلصال أو فى جرار ضخمة ، لأنهم إذا لم يدفنوا على هذا النحو قد يعودون إلى الحياة الدنيا . وهو يعمل على أن يظلوا راضين قانعين تحت الأرض بأن يضع معهم قدراً غير كثير من الطعام ، وأدوات الزينة ، ودمى صغيرة من الصلصال فى صورة نساء يقمن على خدمتهم أو يواسينهم إلى أبد الدهر . وهو يعمد أحياناً إلى الخداع مدفوعاً برغبته فى الاقتصاد الذى يطيقه تشككه البدائى ، فيستبدل بالطعام الحقيقى حيوانات من الصلصال يضعها فى القبر إلى جانب موتاه .. وإذا دفن ملكاً أو نبيلا أو تاجراً مثرياً وضع مع جثته بعض الصحاف الثمينة أو الحلى التى كانت ملكاً لصاحب هذه الجثة ، ويضع أدوات الشطرنج مع اللاعب الماهر ، ومجموعة من الآلات الموسيقية مع الموسيقى ، وقارباً مع من كان مولعاً بركوب البحار . ألا ما أكثر ما يدل عليه هذا العمل من عطف على الأموات ! وهو يأتى إلى القبر فى مواسم معينة ليقدم للموتى قرباناً من الطعام يحفظ عليهم حياتهم ، وهو يرجو أن يستقبل ردمنثس Rhademanthus الإله العادل ابن زيوس فلكانوس الروح الذى تطهر ليهبه السعادة والسلام اللذين لا بقاء لها على ظهر هذه الأرض .

٤ — الثقافة

أصعب ما يواجهنا فى حضارة الكريتيين هو لغتهم . فالكريتى حين يستخدم الحروف الهجائية اليونانية بعد غزو الدوريين بلاده ، إنما يستخدمها ليدون بها كلاماً يختلف كل الاختلاف عن الكلام اليونانى المعروف وأقرب منه شبهاً بلغات الشرق الأدنى المصرية والقبرصية والحبشية والأناضولية . وقد اقتصر فى أقدم العصور على الرموز التصويرية ، ثم بدأ حوالى ١٨٠٠ ق . م

يختصر هذه الرموز إلى نحو تسعين علامة مقطعية ، وبعد مائتى عام من ذلك الوقت استنبط نوعاً آخر من الكتابة تشبه علاماته الحروف الهجائية الفينيقية : ولعل الفينيقيين قد جمعوا منــه ومن المصريين والساميين تلك الحروف التى نشروها فيما بعد فى جميع البلاد المطلة على البحر المتوسط ، والتى أصبحت الأداة الفعالة فى الحضارة الغربية . والكريتى العامى نفسه ينطق بما توحى به إليه شاعريته ، وينقش أشعاره على جدران حاجيا تريادا ، مثله فى ذلك مثل الأخصاء من ساسة تلك الأيام . وإنا لنجد فى فستوس نوعاً من الكتابة باقياً من أزمنة ما قبل التاريخ . فقد كشف فى تلك المدينة قرص كبير من الطور الثالث من أطوار الحضارة المينوية الوسطى ، طبعت على صلصاله وهو لين رموز تصويرية لأصنام لكل رمز منها خاتم ؛ ولكن الذى يزيد من حيرتنا فى أمر هذه الرموز أنها ليست كريتية بل أجنبية ، وربما كان هذا القرص قد نقل إلى كريت من أحد البلاد الشرقية(٣٢) .

وربما كشفت الألواح الطينية ، التى كان الكريتى يكتب عليها ، فى يوم من الأيام ما كان عنده من العلوم . أما الآن فكل ما نستطيع أن نقوله إنه كان على علم بشىء من الفلك لأنه اشتهر بأنه ملاح ماهر ؛ وتقول الرواية إن الدوريين الذين استوطنوا كريت فيما بعد قد أخذوا التقويم عن المينويين . ويعترف المصريون بأنهم مدينون للكريتيين ببعض الوصفات الطبية ، وقد أخذ عنهم اليونان بعض الأعشاب العطرية والطبية كالنعناع (mintha) ، والشيخ الرومى (aspithon) ، وعقاراً آخر مفيداً كل الفائدة يقال إنه يشفى البدانة من غير حاجة إلى الاقتصاد فى الطعام(٣٣) كما تدل على ذلك أسماء هذه الأعشاب وهذا العقار . ولكن من واجبنا ألا نضع الحدس والتخمين فى مكان التاريخ الصحيح .

وفى وسعنا أن نتأمل خرائب دور التمثيل الكريتية وإن كانت آدابهم



(شكل ٢ الساقي)
من قصر مينوس
(متحف هرقليوم)

(شكل ٣)
الإلهة الأنثى
(متحف بوسطن)

لا تزال كتاباً مغلقاً محتفظاً بجميع أسراره . فقد بنى الكريتيون فى فستوس حوالى عام ٢٠٠٠ق . م عشرة صفوف من المقاعد الحجرية تمتد نحو ثمانين قدماً بجوار جدار يطل على فناء ترفرف عليه أعلام ، كما أقاموا فى كنوسس ثمانية عشر صفاً من المقاعد الحجرية أيضاً طولها ثلاث وثلاثون قدماً . وهذه الدور التى تتسع لعدد من النظارة يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة من أقدم ما تعرفه دور التمثيل — فهى أقدم من ملهى ديونيسيوس بألف وخمسمائة عام . ولسنا نعرف ماذا كان يحدث على مسارح هذه الدور ، فالمظلمات تصور النظارة يشاهدون منظراً ما ، ولكننا لا نعرف ماهية هذا المنظر الذى يشاهدونه ، وأكبر الظن أنه خليط من الموسيقى والرقص . وقد احتفظت لنا صورة وجدت فى كنوسس بطائفة من سيدات الطبقة الراقية ، ومن حولهن جماعة من الرجال المعجبين بهن يشاهدون رقصاً تقوم به بعض الفتيات المرحات ، ذوات « النُّقَب » فى أيكة من شجر الزيتون ، وتمثل صورة أخرى راقصة تنوس غدائرها وتمد ذراعيها ؛ وهناك صور تمثل رقصات ريفية شعبية ؛ أو رقصات الكهنة والكاهنات والمتعبدين القوية أمام صنم أو شجرة مقدسة

ويصف هومر المرقص الذى أنشأه ديدلوس يوماً من الأيام فى كنوسس العريضة لأدريادنى ذات الشعر الجميل ، وفيه يرقص ثلاثة شبان وثلاث عذارى فاتنات مغريات يتماسكون بالأيدى . . . على صوت القيثارة وتقاسيم شاعر من رجال الدين »[٢٤] . وترى القيثارة ذات السبعة الأوتار : التى يعزو اليونان اختراعها إلى عبقرية ترپندر Terpander ، مصورة على تابوت فى حاجيا تريادا قبل أن يولد ترپندر بألف عام . وهناك أيضاً الناى والمزمار ذو الأنبوبتين والثمانية الخروق والأربع عشرة نغمة بالصورة التى نجدها عند اليونان الأقدمين . ونرى على إحدى الحلى نقشاً يمثل امرأة تنفخ فى بوق مصنوع من صدفة ضخمة كما نرى على زهرية جلاجل تضبط الوقت لأقدام أم الراقصات .

وروح النضارة والمرح والخفة التى تبعث البهجة فى رقص الكريتى ولعبه هى نفسها التى تبعث الحياة فى أعماله الفنية . ولم يخلف لنا الكريتى من مبانيه شيئاً من الأعمال ذات الأبهة والفخامة ، أو ذات الطراز الراقى العظيم ؛ بل نراه يفعل ما يفعله اليابانى فى عصر السموراى ؛ فيجد اللذة والبهجة فيما تمتاز به الفنون الصغيرة من دقة ، وفى تزيين الأدوات التى يستخدمها فى حياته اليومية ، وفى إحكام صنع الأشياء الصغيرة والوصول بها إلى درجة الكمال . وهو يقبل ما يمليه عليه العرف فى الشكل وفى الموضوع شأن كل الحضارات الأرستقراطية ، ويتحاشى البدع المفرطة فى الجدة ، ويتعلم الحرية داخل قيود الذوق والمحافظة على القديم . وقد برع الكريتى فى صـــناعة الفخار ، وفى قطع الجواهر ، وفى حفر مواضع الفصوص فى الخواتم ، وفى النقوش البارزة حيث تتاح له الفرصة لإظهار ما طبع عليه من مهارة ودقة . وهو لا يجد صعوبة فى صياغة الذهب والفضة ، وتركيب الأحجار الكريمة ، وصنع أنواع كثيرة من المجوهرات . وهو يحفر على الأختام التى يصنعها ليوقع بها الوثائق الرسمية والبطاقات التجارية والصكوك المالية ، يحفر على هذه الأختام كثيراً من مظاهر الحياة العادية مفصلة دقيقة ، وكثيراً من مناظر كريت الطبيعية ، تكفى وحدها لأن نتصور منها ما كانت عليه الحضارة الكريتية . وهو يصنع من البرنز طاسات ، وأباريق ، وخناجر وسيوفاً مزدانة بصور النبات والحيوان ومرصعة بالذهب والفضة والعاج والحجارة النادرة . وقد خلف لنا فى جورنيا Gournia ، رغم عبث اللصوص مدى ثلاثة آلاف عام ؛ كأساً من الفضة مصقولة صقلا فنياً جميلا ، كما خلف فى أماكن متفرقة من الجزيرة ، قروناً للشراب تبرز من رؤوس الآدميين أو الحيوان يكاد الإنسان حتى فى هذه الأيام يحس فيها أنفاس الحياة .

ولم يترك شكلا من أشكال الفخار إلا صنعه وبرز فى هذه الأشكال كلها تقريباً ، فقد صنع المزهريات ، والصحاف ، والفناجين ، وأقداح الشراب ،

والمصابيح والجرار والحيوانات والآلهة . وقد كان فى بادئ الأمر ، فى العهد المينوى الأول ، يقنع بتشكيل هذه الآنية بيده ، حسب الأنماط التى ورثها عن العصر الحجرى الحديث . وكان يطليها بطبقة زجاجية سمراء أو سوداء ويترك النار تلونها بما تشاء من الظلال . ثم عرف فى العهد المينوى الأوسط استخدام عجلة الفخرانى ليبلغ بها الذروة فى المهارة ، وهو يتطلبها فى العهد بطبقة زجاجية تماثل فى تناسقها ورقتها طلاء الخزف ، وينشر عليها فى غير نظام الألوان السوداء والسمراء ، والبيضاء ، والحمراء ، والبرتقالية ، والصفراء ، والقرمزية ، والحمراء القانية ، ويمزجها فيخرج منها ظلالا جديدة ؛ وهو يرقق الصلصال ترقيقاً وصل إلى حد الكمال فى الآنية الجميلة الزاهية الألوان الرقيقة الجدران التى وجدت فى كهف كمارس Kamares على جبل أيدا Ida ، والتى لا يزيد سمك جدرانها على ملليمتر واحد ، وقد أفرغ على هذه الآنية كل ما وهب من خصب الخيال : وبلغت صناعة الفخار فى كريت ذروة مجدها بين عامى ٢١٠٠ ، ١٩٥٠ ق . م وترى الصانع يوقع باسمه على ما يصنع ، ويحرص أهل بلاد البحر المتوسط على اقتناء مصنوعاته ، وفى العهد المينوى المتأخر يطبق أصول الفن إلى أقصى حد على صناعة الفخار الرقيق ، فيصنع من عجينة الفخار ألواحاً ومزهريات زرقاء فيروزجية وآلهات متعددة الألوان ، ونقوشاً لحيوانات بحرية تكاد أن تكون هى والحيوانات الحقيقية سواء . وهل هناك أدل على هـذا من أن إيفنز رأى سرطاناً بحرياً من الميناء فظنه سرطاناً متحجراً (٣٥) . وفى ذلك العهد ترى الفنان يشق الطبيعة ويسره أن يمثل على آنيته أنشط الحيوانات حركة ، وأزهى الأسماك لوناً ، وأرق الأزهار أوراقاً ، وأجمل النباتات شكلا . وهو يخرج روائع الفن الخالدة فى الطور الأول من أطوار العصر المينوى المتأخر أمثال مزهرية الملاكمين ومزهرية الحصادين ؛ ففى الأولى يصور القسوة بجميع أشكالها ومواقفها فى ألعاب الملاكمة ، ويضيف إليها صوراً من حياة مصارعى الثيران ، وفى

الثانية يتتبع بمنتهى الدقة والإخلاص موكباً لعله موكب الفلاحين يمشون يغنون فى عيد ، ثم تضعف تقاليد الفخار الكريتى ويضمحل فنه ؛ وينسى الصناع تحفظهم وذوقهم ، فتغطى الزخارف المزهريات من أولها إلى آخرها فى غير نظام ، ويعجز الصناع عن التفكير البطىء والتنفيذ فى صبر وأناة ، ويحل الإهمال والتراخى اللذان ينتحلان اسم الحرية محل الدقة والصقل اللذين عهدناهما فى عصر كمارس . وليس من حقنا أن نلوم الكريتيين على هذا الاضمحلال فهو الموت الذى لا مفر منه والذى لابد أن يلاقيه الفن إذا بلغ سن الشيخوخة وخارت قواه ، فيستغرق فى سبات مدى ألف عام ، ثم يولد من جديد ، ويبلغ منتهى الكمال فى المزهريات الأتكية .

وفن النحت من الفنون الصغرى فى كريت ، وقلما يرقى إلى أكثر من صنع التماثيل الصغيرة إلا فى النقوش المنخفضة وفى قصة ديدلوس . وكثير من هذه التماثيل الصغرى فجة لا تخرج عن نمط واحد جرى به العرف وثبت عليه ؛ ويبدو أنها كانت تصنع من غير مثال تحتذيه . ومن هذه تمثال من العاج يمثل لاعباً رياضياً ساعة أن يقفز فى الهواء ؛ ومنها رأس جميل ضاع جسمه فى أثناء انتقاله إلينا خلال القرون الطوال . وخير هذه التماثيل يفوق فى دقة التشريح وفى وضوح الحركات كل ما عرفناه من تماثيل اليونان قبل أيام ميرون Myron . وأغربها كلها إلهة الأفاعى المحفوظة فى متحف بُسطن — وهى تمثال قوى من العاج والذهب نصفها أنثى ونصفها أفعى ؛ وفى هذا يعالج المثال آخر الأمر الجسم الآدمى بشىء من سعة الإدراك والنجاح . ولكنه حين يريد أن يمثل الضخامة يعمد فى الغالب إلى تمثيل الحيوانات ويقتصر على النقوش البارزة الملونة ، كما نرى ذلك فى رأس الثور المحفوظ فى متحف هركيولانيوم ؛ وفى هذا الأثر المدهش ذى العينين الوحشيتين ، والمنخارين الناخرين ، والفم اللاهث ، واللسان

المرتجف ، وكل هذه قد بلغت من القوة درجة لن تفوقها بلاد اليونان نفسها فى أى عهد من عهودها .

وأكثر ما يستلفت النظر فى كريت القديمة هو تصويرها . ذلك أن النحت معتل لا يؤبه له ، وما عثر عليه من الفخار قليل معظمه قطع متفرقة ، وعمارتها كلها أطلال دارسة ؛ ولكن أجمل الفنون كلها ، وهو الذى يقع فريسة سهلة لعوادى الزمان الذى لا يرحم ، قد أبقى لنا روائع نستطيع أن ندرسها وتستثير إعجابنا من عصر بلغ من القدم حداً سقط من ذاكرة اليونان الأقدمين ، وهم الذين لم يبق من تصويرهم على حداثة عهده بالقياس إلى تصوير الكريتيين صورة واحدة أصيلة . وقد أبقت الزلازل والحروب التى دكت القصور فى كريت على مظلم فى جدار هنا وآخر فى جدار هناك . وإذا ما جلنا فى هذه القصور المخربة ، وتخطينا أربعين قرناً من الزمان ، والتقينا بالرجال الذين زينوا حجرات الملوك المينويين رأيناهم فى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد يضعون على الجدران طبقة من الجير النقى ، ويهديهم تفكيرهم إلى التصوير على السطح المبلل ، فيحركون الفرشاة حركات سريعة ينفذ بها اللون إلى الطلاء قبل أن يجف سطحه . وقد استطاعوا بحذقهم أن ينقلوا إلى أبهاء القصور المظلمة جمال الحقول المكشوفة الوضاء ، فيستنبتون الجص زنبقاً ، وسوسناً ، ونرجسا ، وبردقوشا . وما من أحد شاهد هذه المناظر ثم قال مع القائلين إن روسو قد أزاح الستار عن الطبيعة . ونرى فى متحف هركيولانيوم جامع الزعفران حريصاً على قطف زهره كما صوره مصوره فى العصر المينوى الأوسط ؛ ونرى وسطه رفيعاً إلى حد ينفر منه الذوق ، كما يبدو جسمه طويلا لا يتناسب مع ساقيه ، ولكنا نرى رأسه متقن التصوير خالياً من العيوب ، ونرى الألوان هادئة والأزهار نضرة كما كانت منذ أربعة آلاف عام . وفى حاجيا تريادا يزين الرسام تابوتاً برسوم لخلائق غريبة نكاد نقول إنها نوبية منهمكة فى طقوس دينية ؛ وخير من هذا كله ما زين به أحد الجدران من أشجار متماوجة يدس بينها — وإن

لم يخفها عن العين بل يتركها واضحة جلية — قطة متحفزة ، تستعد للهجوم دون أن يراها أحد على طائر ملك بنفسه ينشنش ريشه فى الشمس . ويصل الرسام الكريتى فى العصر المينوى المتأخر إلى ذروة مجده ، فكل جدار يغريه وكل ثرى يستدعيه ، وهو لا ينقش مساكن الملوك وحدها ، بل ينقش بيوت النبلاء وأثرياء البلاد ، ويزينها بما لا يقل عن زينة بيوت بمپى . على أن نجاحه هذا وكثرة ما ينهال عليه من الطلبات لا يلبثان حتى يفسدا عليه أمره ، وسرعان ما يؤدى حرصه على أن ينتهى مما بين يديه إلى قصوره عن الارتقاء إلى ما يقرب من الكمال فيما يصنع ، فيفضل الكم على الكيف ، ويكرر رسوم الأزهار حتى يمل الناظر إليها من التكرار ، ويصور الرجال بصور لا وجود لها فى الحياة الواقعية ، ويقنع برسم الخطوط الخارجية ، وينحط بفنه إلى المستوى الذى يدرك فيه أن هذا الفن قد جاوز مجده الأعلى وأنه قد آن أوان موته . ولكن من حقه علينا أن نقول إن التصوير لم يمثل الطبيعة بمثل النضارة التى مثلها بها التصوير الكريتى ، مع جواز استثناء مصر القديمة وحدها من هذا التعميم .

وتتضافر الفنون كلها على بناء القصور الكريتية ، فالقوة السياسية ، والسيادة التجارية ، والثراء ، والترف ، وما تجمع فى البلاد من رقة وسمو فى الذوق ، كل هذا يحتم على المهندس ، والبانى ، والصانع ، والمثال ، وصانع الفخار والمعادن ، والنجار ، والمصور ، يحتم على هؤلاء كلهم أن يجمعوا ما وهبهم الله من حذق ليشيدوا به طائفة من حجرات ملكية ، ومكاتب إدارية ، وملاه ، وحلبات ألعاب لتكون محور الحياة الكريتية ومشاهد رقيها وعظمتها . يبنون فى القرن الحادى والعشرين ثم يتهدم بنيانهم فى القرن العشرين ، فإذا جاء فى القرن السابع عشر لا يكتفون فيه ببناء قصر مينوس بل يشيدون كثيراً غيره من الصروح الفخمة فى كنوسس وفى نحو خمسين مدينة أخرى فى الجزيرة المثرية الرخية . ولقد كان عصر الحضارة الكريتية من أزهى العصور فى تاريخ العمارة .

وجدير بنا أن نذكر أن الذين شادوا قصر كنوسس كانت تنقصهم وفرة مواد البناء والرجال ؛ فالمعادن قليلة فى كريت والرخاء لا وجود له فيها على الإطلاق ، ومن أجل هذا تراهم يبنون بحجر الجير والجبس ، ويستخدمون الخشب فى إنشاء الأروقة المقامة على العمد والسقف وجميع الأعمدة التى فوق الطابق الأرضى . وهم يقطعون الكتل الحجرية قطعاً محدداً دقيقاً يستطيعون به أن يضعوها فى أماكنها من غير ملاط . وبهذه الأدوات شادوا حول فناء أوسط سعته عشرون ألف قدم مربعة ثلاثة أطباق من البناء أو أربعة يرقى إليها بدرجات حجرية واسعة ، وتحتوى على ما لا حصر له من الحجرات مراكز للحراسة ، وحوانيت ، ومعاصر للخمر ، ومخازن ، ومكاتب لتصريف شئون الدولة ، ومساكن للخدم ، وحجرات للانتظار ، وأخرى للاستقبال ، ومخادع ، ومعبد ، وجب ، وحجرة عرش ، « وبهو للبلطة المزدوجة » ، وبالقرب من هذه كلها دار للتمثيل ، وقصر صغير ذو حديقة ، ومقبرة . وفى الطابق الأسفل من القصر أقاموا عمداً مربعة ضخمة من الحجارة ، وأما فى الأطباق العليا فقد أقاموها من خشب السرو . والغريب فى هذه العمد أنها رفيعة من أسافلها ثم تتدرج فى السمك إلى أعاليها ، لتحمل السقف على تيجان ملساء مستديرة أو لتلقى بظلالها على جانبيها . وفى داخل هذا القصر وضع بناؤوه مقعداً حجرياً ، مستنداً فى مكان أمين إلى جدار جميل النقش ، وهذا المقعد الحجرى منحوت نحتا بسيطاً ولكنه يشهد بمهارة من نحته وحذقه ؛ ويسمى الحفارون المستكشفون هذا المقعد الحجرى عرش مينوس ، وفى وسع كل سائح جوال أن يجلس عليه فى تواضع واحتشام ويتصور نفسه برهة من الزمان مسيطراً على هذا المقعد الذى يزيد على بضعة أشبار . وأكبر الظن أن هذا القصر الفسيح هو قصر التيه الشهير (لابرنث) أو هيكل البلطة المزدوجة (لبريس Labryth) الذى يعزوه الأقدمون إلى

ديدلوس والذى خلع اسمه فيما بعد على كل شيء كثر التعاريج سواء كان(*) حجرات أو ألفاظاً أو آذاناً(٣٦) .

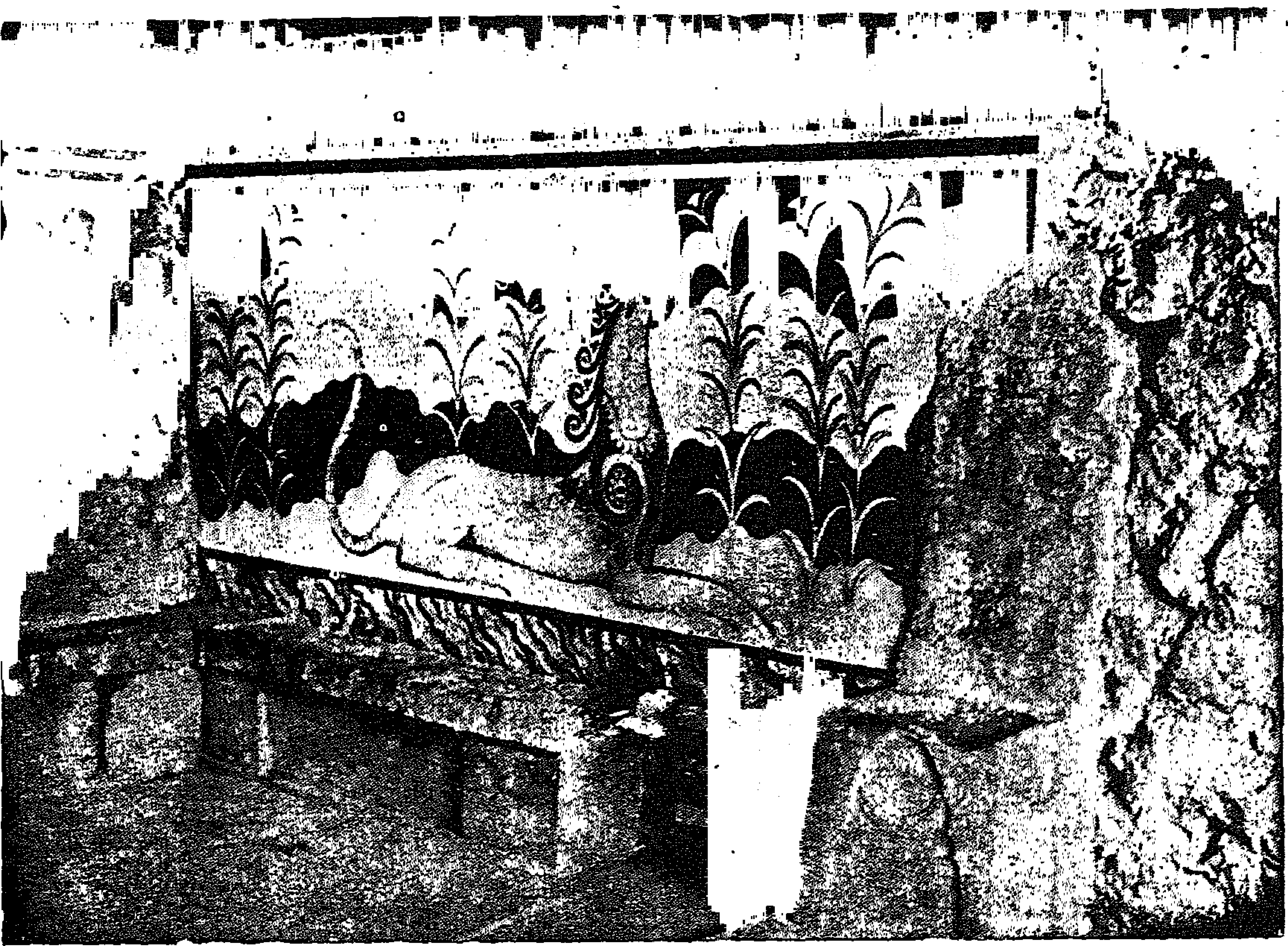
وكأن الذين شادوا مدينة كنوسس قد أرادوا أن يدخلوا السرور على النفعيين أهل هذه الأيام الذين يهتمون بأنابيب المياه أكثر من اهتمامهم بالشعر ، فجهزوا القصر بنظام لصرف مائه وفضلاته أرقى من كل نظام مماثل له فى التاريخ القديم . فقد كانوا يجمعون فى قنوات حجرية الماء الذى سيل على سفوح التلال أو ينزل من السماء ويسيرونه فى أسطوانات مجوفة إلى حمامات(**) ومراحيض ، ثم ينقلون الفضلات فى أنابيب من الصلصال المحروق مصنوعة على أحسن طراز — كل قسم منها طول قطره ست بوصات ، وطوله ثلاثون بوصة ، مزود بشرك لحجز الرواسب ، ومنته بطرف رفيع يدخل به فى القسم الذى يليه ، ويرتبط به ربطاً محكماً برباط من الأسمنت(٣٨) . وربما كان فيها جهاز يمد القصر الملكى بالمـــاء الساخن(٣٩) (†)

وقد زين الفنانون فى كنوسس داخل القصر على سعته بأرق وسائل الريش . فجملوا بعض الحجرات بالمزهريات والتماثيل الصغيرة ، وبعضها الآخر بالصور الملونة أو النقوش البارزة ، وبعضها بالقوارير الحجرية أو الآنية

(*) ليس قد انا حجرات إلا افتراضا محضاً بطبيعة الحال . وجدير بنا أن نضيف إلى هذا أن ما استخرج من نقوش القصر قد نقل كله إلى متحف هركية لانيوم أو غيره من المتاحف ، وأن كثيراً مما بقى منه فى موضعه قد رمم ترميماً مجرداً من الذوق .

(**) لم يعد المؤرخون الآن متفقين على أن الفجوات المربعة التى عثروا عليها فى أرض بعض الحجرات كانت حمامات ، وحجتهم فى هذا أنها لا منفذ لها وأنها مصنوعة من الجبس وهو ما يذيبه الماء شيئاً فشيئاً (٣٧) .

(†) عثر مسو **Mosso** على أنابيب للصرف شبيهة بهذه فى البيت الخلوى المقـــام فى حاجياترياداً ، وقد وصفها بقوله : « لقد أدهشنى أن أرى فى يوم من الأيام سقط فيه المطر مدراراً أن كل وسائل صرف المياه تعمل عملها بمنتهى الدقة والإتقان ، ولقد رأيت المياه فى البالوعات التى يستطيع الرجل أن يسير فيها واقفاً على قدميه . وإنى لأشك فى أن نظاماً آخر للصرف غير هذا النظام قد بقى يؤدى عمله بعد أربعة آلاف عام من إنشائه »(٤٠) .



(شكل ٤) مظلم على جدار و « عرش مينوس »
(متحف هرقليوم)

الضخمة ، وبعضها بتحف من العاج أو الخزف أو البرنز ، وأقاموا حول أحد الجدران طنفاً من حجر الجير عليه ألواح ذات ثلاثة حزوز متساوية الأبعاد ، وأنصاف ورود ، ونقشوا حول جدار آخر عدداً من اللوالب على سطح طلى ليمثل الرخام ؛ وحول جدار ثالث نقشوا صراعاً بين رجل وثور ، تجلت فيه جميع دقائق الصراع بغاية الوضوح ، ونشر المصور المينوى فى جميع الأبهاء والحجرات كل ما احتواه فنه المبهج من أمجاد ، فصور لنا فى إحدى حجرات الاستقبال سيدات فى ثياب زرقاء فاجأهن وهن يثرثرن ، وأبرز معارفهن ، وأذرعهن الجميلة ، وصدورهن ، وأثداءهن الدفينة ؛ وصور على جدار غيره حقولا من الأزورد والنيلوفر وغصون الزيتون ، وعلى جدار آخر سيدات فى دار التمثيل ، ودلافين تسبح من غير حركة فى ما البحر . وخير من هذه الرسوم الصورة الرائعة الذائعة الصيت ، صورة الساقى المنتصب القامة ، والقوى البنية ، يحمل دهاناً ثميناً فى وعاء أزرق رفيع ، وقد جمّلت وجهة تربيته ويد الفنان ، وتدلى شعره فى غديرة سميكة على كتفيه الأسمرين وتلألأت الحلى فى أذنيه ، وحول عنقه وذراعيه ومنطقته ، وزين ثوبه الغالى بصور جميلة لبعض الأزهار . وما من شك فى أن هذا الساقى ليس من الرقيق ، بل هو شاب من أبناء الأشراف يفخر بما نال من شرف خدمة الملك . وجملة القول أن ليس فى مقدور حضارة ما أن تتطلب أو تخلق مثل هذا الترف وهذه الزينة إلا إذا كان قد طال عهدها بالنظام ، والثراء ، والفراغ ، وسلامة الذوق .

الفصل الرابع

سقوط كنوسس

إذا ما رجعنا إلى ما قبل هذه الحضارة الباهرة نبحث عن أصلها ، وجدنا أنفسنا نتقلب بين آسية ومصر . فالكريتيون يبدون من جهة شديدى الصلة بالشعوب الهنديربية التى تسكن آسية الصغرى ؛ فنى هــذه البلاد كما فى كريت تستخدم ألواح الصلصال للكتابة ، وكان فيها الشاقل وحدة الموازين . وفى كاريا من أعمالها كان يعبد زيوس لبرنديوس Zeus Labrandeus أى زيوس ذو البلطة المزدوجة Labrys ، وفيها كان الناس يعبدون الأعمدة والثور واليمامة ، وفى فريجيا كانت سيبيل العظيمة الشبيهة كل الشبه بالأم الإلهة فى كريت حتى لقد أطلق اليونان على هذه الأم اسم ريا سيبيل Rhea Cybele وعدوا الاثنتين إلهة واحدة ![٤٠] .

ومع هذا كله فإن الشواهد الدالة على أثر مصر فى كريت كثيرة فى كل عصر من عصور تاريخها . وقد بلغ تشابه الثقافتين فى أول عهديهما حداً جعل بعض العلماء يظنون أن موجة من الهجرة قد حدثت من مصر إلى كريت أيام الاضطراب الذى وقع فى عهد مينا[٤١] . فالآنية الحجرية التى كشفت فى مكلوس والأسلحة النحاسية الباقية من الطور الأول من العصر المينوى القديم ، تشبه ما وجد من نوعها فى مقابر الأسر المصرية الأولى شبهاً يثير العجب ، والبلطة المزدوجة تظهر على شكل تميمة فى مصر بل يظهر فيها كذلك « كاهن البلطة المزدوجة » . والموازين والمكاييل الكريتية مصرية فى شكلها إن كانت أسـيوية فى قيمتها ؛ والأساليب المستخدمة فى النقش على الحجارة

الكريمة ، وفى فن الخزف والتصوير تتشابه فى البلدين تشابهاً جعل اسپنجلر يعتقد أن الحضارة الكريتية ليست إلا فرعا من الحضارة المصرية[٤٢] .

ولكننا لن ننهج نهج اسپنجلر لأننا لا يجوز لنا أن نتغاضى عن فردية الأجزاء فى كلتا الحضارتين ، فالصفة الكريتية واضحة فى حضارتها كل الوضوح مميزة أشد التميز ، ولسنا نجد فى العالم القديم شيئاً آخر امتاز بالرقة فى دقائق الفن وبالرشاقة المركزة فى الحياة والفن . ولنسلم جدلا بأن الثقافة الكريتية أسيوية فى نشأتها العنصرية ، مصرية فى كثير من فنونها ، غير أنها فى جوهرها وفى كليتها تبقى حضارة فذة ، وربما كانت تنتمى إلى خليط معقد من الحضارات شأن جميع البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط ، حيث ورثت كل أمة فنوناً وعقائد وأساليب متماثلة متقاربة نشأت من ثقافة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث كانت واسعة الانتشار فى تلك البلاد وقامت عليها حضارتها .

ومن هذه الحضارة المشتركة أخذت كريت فى شبابها وأمدتها بقسط بعد نضجها . وبفضل حكمها ساد النظام فى الجزائر المجاورة لها ودخل تجارها فى كل ثغر من ثغورها ، ثم استقرت مصنوعاتها وفنونها فى جزائر سكلديس وعمت قبرص ، ووصلت إلى كاريا وفلسطين[٤٣] ، ثم سارت شمالا إلى آسية الصغرى والجزائر المجاورة لها حتى بلغت طروادة ، واجتازت فى ناحية الغرب إيطاليا وصقلية إلى أسپانيا[٤٤] ، وعمت بلاد اليونان حتى تساليا ، وبقيت فى تراث اليونان عن طريق مسيسينى وتيرنز ، وبذلك كانت كريت فى تاريخ الحضارة الحلقة الأولى من سلسلة الحضارة الأوربية .

ولسنا نعرف أى طرق الاضمحلال الكثيرة هى الطريق التى سلكتها كريت اضمحلالها ، أو لعلها سلكت هذه الطرق الكثيرة كلها ، فقد اختفى ما كانت تشتهر به من غابات السرو والأرز ، وأضحى ثلثا الجزيرة اليوم صخوراً

حجرية صماء لاتستطيع الاحتفاظ بمياه الأمطار الشتوية[٤٥] . ولعل أهلها هى أيضاً قد أسرفوا فى تحديد النسل كما تسرف سائر الحضارات فى عصور اضمحلالها، وتركوا الإكثار للعجزة والضعفاء . ولعل ازدياد الثروة والترف وما أعقبه من انهماك فى الملذات الجسمية قد أضعف ما فى السكان من حيوية ، وأضعف إرادتهم فى أن يعيشوا ويدافعوا عن أنفسهم ، ذلك أن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية . ولعل انهيار مصر بعد موت إخناتون قد أحدث اضطراباً فى التجارة التى كانت قائمة بين مصر وكريت ، وقلل من ثراء الملوك المينويين ؛ وغير خاف أن كريت ليس فيها موارد داخلية واسعة ، وأن رخاءها إنما يعتمد على التجارة وعلى الأسواق الخارجية لتصريف مصنوعاتها ، ولذلك أصبحت كإنجلترا فى الوقت الحاضر تعتمد اعتماداً شديد الخطورة على سيطرتها البحرية . وربما كانت الحروب الخارجية قد قضت على الكثيرين من شبانها الأقوياء ، وتركت الجزيرة منقسمة مفككة لا تستطيع صد الغزاة الأجانب . وربما كانت الزلازل قد دكت قصورها ، أو أن أهلها قد انتقموا لأنفسهم فى ثورة عنيفة مما قاسوه من ظلم واستبداد قروناً طوالا .

ذلك ما لا نعلمه علم اليقين ، وأما الذى لا شك فيه فهو أن قصر فستوس قد دمر مرة أخرى فى عام ١٤٥٠ ، وأن قصر حاجيا تريادا قد التهمته النيران ، ، أن بيوت الأثرياء فى توليسوس قد اختفت من الوجود . ويلوح أن كنوسس ،انت فى الخمسين سنة التى تلت ذلك العهد تستمتع بأعظم ما وصلت إليه من اء ، ومن سلطان لا ينازعها فيه منازع فى جميع أنحاء بحر إيجة . وفى عام ١٤٠٠ التهمت النيران قصر كنوسس نفسه ، فقد عثر إيفنز فى كل مكان فيه على شواهد دالة على اندلاع اللهب الذى لم يقو الأهلون على حصره — من كتل خشبية وأعمدة محترقة ، وأسرار مسودة ، وألواح طينية قد جمدتها حرارة النار حتى استعصت على أنياب الزمان ، ولقد كان الدمار شاملا ، وكان اختفاء المعادن حتى من الحجرات التى غطتها الأنقاض وحمتها من النيران كاملا ،

مما جعل كثيرين من العلماء يظنون أن هذا الدمار(*) من فعل الغزاة لا من فعل الزلازل(٤٦) . ومهما يكن سبب هذه الكارثة فإن الجزيرة قد أخذت بها على غرة ، ذلك أن بأماكن الفنانين وحوانيت الصناع شواهد كثيرة على أن أصحابها كانوا منهمكين فى أعمالهم حين حل الموت بهم ؛ وفى هذا الوقت عينه دكت قواعد جورنيا ، وبسيرا ، وزكرو ، وبليكسترو .

وليس لنا أن نظن أن الحضارة الكريتية قد انمحت فى يوم وليلة ، فقد أعيد بناء القصور ، ولكنها بنيت متواضعة ، وظلت لمنتجات كريت الفنية الغلبة على الفن الإيجى جيلا أو جيلين من الزمان . وفى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد نجد آخر الأمر شخصية كريتية بارزة — هى شخصية الملك مينوس التى تقص الرواية اليونانية عنها كثيراً من القصص المرعبة . من ذلك قولها إن عرائس الملك قد ضايقتهن كثرة الأفاعى والعقارب فى نطفته ، ولكن زوجته بسفائيه Pasiphae تخلصت منها بطريقة خفية عجيبة(٤٧) ، وأفلحت فى أن تلد له كثيراً من الأبناء ، منهم فيدرا Phaedra (زوجة تسيوس وحبيبه هبوليتوس) وأريدنى Ariadne ذات الشعر الأشقر . ولما أغضب مينوس پوسيدن Poseidon سلط هذا الإله على بسفائية هياما جنونياً بثور مقدس ، وأشفق عليها ديدلوس ، وبفضل صلته حملت فى ميناثور الرهيب ؛ وسجن مينوس ذلك الحيوان فى التيه الذى شاده ديدلوس إطاعة لأمره ، ولكنه كان يسترضيه بالضحايا البشرية من حين إلى حين(٤٨) .

ولعل أظرف من هذه القصة قصة ديدلوس الخرافية رغم خاتمتها المخزية ، لأنها تفتتح ملحمة من أعظم الملاحم وأشدها افتخاراً فى التاريخ . فقد مثلته

(*) إذا سمحت التواريخ التى يحددها رجال الآثار بتأخير هذا الحريق الكبير إلى ١٢٥٠ أو نحوها ، أصبح من السهل تفسير هذه الكارثة بأنها من حوادث فتح الآخيين لجزائر بحر إيجة ، ذلك الفتح الذى كان مقدمة لحصار طروادة .

الأقاصيص اليونانية فى قصة أمير أثينى حسد ابن أخيه لمهارته ، فقتله فى ساعة من ساعات غضبه ، ونفى القاتل نفياً أبدياً من بلاد اليونان عقاباً له على قتله . فلجأ ديدلوس الطريد إلى قصر مينوس ، وأدهش الملك بمهارته فى اختراع الآلات وغيرها مما لا عهد له به فقربه وجعله كبير فنانيه ومهندسيه . وكان ديدلوس مثالا حاذقاً ، وقد استخدمت الأقاصيص اسمه فجعلته رمزاً على انتقال فن النحت من الأشكال الجامدة الميتة ، إلى صور الأناس الأحياء . ويحدثنا القصاصون بأن التماثيل التى صنعها كانت شديدة الشبه بالأحياء ، حتى لقد كانت تقف على أقدامها وتمشى إذا لم تشد إلى قواعدها(٤٩) . ولكن مينوس غضب على ديدلوس حين علم بما كان له من يد فى عشق باسيفائية ، فحبسه هو وابنه إيكاروس Icarus فى تبة اللابرنث ، فما كان من ديدلوس إلا أن صنع له ولابنه إيكاروس أجنحة استطاعا بها أن يقفزا من فوق الجدران ويطيرا فوق البحر المتوسط ، غير أن إيكاروس لم يأبه بنصيحة أبيه فاقترب من الشمس أكثر مما ينبغى ، وأذابت أشعتها الحارة ما على جناحيه من الشمع فغرق فى البحر ، وتلك خاتمة تزدان بها القصة وتكسبها مغزى أخلاقياً . وأصبح فؤاد ديدلوس فارغاً بعد موت ولده ، فنزل فى صقلية ، وبعث فى هذه الجزيرة حضارة عظيمة بعد أن نقل إليها ثقافة كريت الصناعية(*) والفنية(٥٠) .

وأشد من هذه القصة إثارة للشجن قصة ثسيوس وأدريدنى . وخلاصتها أن مينوس بعد أن انتصر فى حرب على أثينة الناشئة الفتية ، فرض على هذه

(*) يعزو بوسنياس Pausanias أول من وضع أدلة السياح ، إلى ديدلوس كثيراً من التماثيل معظمها من الخشب ، كما يعزو إليه نقشاً على الرخام يمثل أدريدنى وهى ترقص ، ويقول إنها كلها كانت موجودة فى القرن الثانى بعد الميلاد(٥١) ولم يشك اليونان يوماً من الأيام فى أن ديدلوس شخص حقيقى ؛ وإن تجارب شليمان لتجعلنا نتشكك حتى فى تشككنا . وليس أسهل على العلماء فى جيل من الأجيال من أن يرفضوا الروايات القديمة ، ثم يأتى من بعدهم جيل آخر فيؤيدها أقوى تأييد .

المدينة أن ترسل إليه كل تسع سنين جزية من سبع بنات وسبعة شبان ؟ يلتهمها الميناتور ، فلما حل الموعد الثالث للوفاء بهذه الجزية المذلة عمل ثسيوس الوسيم على أن يكون هو من بين السبعة الشبان ، ورضى أبوه الملك إيجيوس بذلك على كره منه شديد ؛ وكان ثسيوس قد صمم على قتل الميناتور والقضاء بذلك على هذه التضحية المتكررة . وأشفقت أدريدنى على الأمير الأثينى ، وأحبته ، فأعطته سيفاً مسحوراً وعلمته حيلة بسيطة هى أن يفلك خيطاً مطوياً على ذراعه حين يدخل التبة . وقتل ثسيوس الميناتور وسار متتبعاً الخيط حتى جاء أدريدنى وأخذها معه حين هرب من كريت . فلما وصلا إلى جزيرة نكسوس Naxos تزوجها وفاء بوعده ، ولكنه غدر بها فأقلع هو ورفاقه ، من الجزيرة فى أثناء نومها(٥٢) .

وبعد أدريدنى ومينوس تختفى كريت من التاريخ وتظل مختفية حتى يأتى ليكورج Lycurgus إلى الجزيرة ، ولعل ذلك كان فى القرن السابع قبل الميلاد . وثمة شواهد على أن الآخيين قد وصلوا إليها فى أثناء غاراتهم الطويلة على بلاد اليونان فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ؛ ولقد استوطنها الغزاة الدوريون فى أواخر الألف السنة الثانية قبل الميـــلاد .

ويقول كثيرون من الكريتيين وبعض اليونان إن ليكورج وجد فيها أمثلة يحتذيها فى قوانينه ، كما وجد صولون أمثلة لقوانينه هو أيضاً وإن لم تبلغ من الكثرة مبلغ ما وجده ليكورج . وكانت الطبقات الحاكمة فى كريت بعد أن سيطر الدوريون على الجزيرة ، تحيا حياة البساطة والتقشف فى الظاهر إن لم تكن فى الواقع ، شأنها فى ذلك شأن أسبارطة . وكان الشبان يربون تربية عسكرية ، وكان الكبار من الرجال يأكلون مجتمعين فى أبهاء كبرى معدة لهذا الغرض(*) .

(*) يعد الأثينيون هذا كله تاريخاً ، وقد ظلوا عدة قرون يحتفظون بالسفينة التى سافر فيها ثسيوس من كريت ويرممونها كلما أصيبت بأذى ، ويتخذونها سفينة مقدسة يرسلون فيها الرسل فى كل عام للاحتفال بعيد أبلو فى ديلوس . (٥ – ج ١ – مج ٢)

وكانت البلاد يحكمها بمجلس من شيوخ المدينة ويصرف أمورها عشرة مؤمرون Kosmoi يشبهون الإفورين Ephor فى أسبارطة والأركونين Arckons فى أثينة(٥٤) . وليس من السهل علينا أن نحكم هل أخذت أسبارطة ذلك النظام عن كريت أو أخذته كريت عن أسبارطة ؛ وربما كان النظام فى المدينتين نتيجة محتومة لظروف متشابهة — هى الحياة المزعزعة التى كانت تحياها طبقة عسكرية أرستقراطية من غير أهل البلاد بين أهلها الأقنان المعادين لها . ويلوح أن قوانين جورتيانا Gortyana المستنيرة نسبياً ، والتى وجدت على جدران تلك المدينة الكريتية ، قد وضعت فى بداية القرن الخامس ؛ وليس ببعيد أن تكون هذه القوانين ، فى صورة لها أقدم منها ، قد أثرت فى المشترعين اليونان . وكان ثاليتاس Thaletas الكريتى يعلم الموسيقى فى أسبارطة فى القرن السادس قبل الميلاد ، كما كان ديپونس Dipoenus وسكليس Scyllis المثالان الكريتيان يعلمان فنانى أرجوس Argos وشيسيون Sicyon . وملاك القول أن الحضارة القديمة كانت تفرغ مشتملاتها بعشرات من القنوات فى الحضارة الجديدة .

الباب الثانى

قبل أجممنون

الفصل الأول

شليمان

فى عام ١٨٢٢ ولد فى ألمانيا صبى قدر له أن يكتب بمعوله صفحة من أروع صفحات علم الآثار فى القرن التاسع عشر . وكان والده مولعاً بالتاريخ القديم ، فنشأه على حب قصص هومر عن حصار طروادة ، وتجوال أديسيوس ، « ولشد ما كان يحزننى أن أسمع منه أن طروادة قد دمرت عن آخرها تدميراً تاماً ، وأنها محيت من الوجود دون أن تخلف وراءها أثراً يدل عليها »(١) . ولما بلغ هنريخ شليمان الثامنة من عمره وفكر فى الأمر تفكيراً أوفى من تفكيره الأول أعلن أنه سيهب حياته للكشف عن المدينة المفقودة ؛ وفى العاشرة من عمره عرض على أبيه قصة لاتينية عن حرب طروادة . وفى عام ١٨٣٦ غادر المدرسة بعد أن حصل فيها علماً أرقى مما تطيقه موارده ، واشتغل صبياً عند بدال ، وفى عام ١٨٤١ خرج من همبرج خادماً على ظهر سفينة تجارية مسافرة إلى أمريكا الجنوبية ، وبعد اثنى عشر يوماً من مغادرة السفينة الميناء غرقت ، وظل بحارتها تسع ساعات فى قارب صغير تتقاذفهم الأمواج حتى ألقت بهم على سواحل هولندة . واشتغل هنريخ كاتباً ، وكان يكسب من عمله مائة وخمسين ريالا أمريكيا فى العام ، ينفق نصفها فى شراء الكتب ويعيش على نصفها الآخر وعلى أحلامه .

وأثمر ذكاؤه وجده ثمرتهما الطبيعية ؛ فلما أن بلغ الخامسة والعشرين كان تاجراً له مصالح مالية فى ثلاث قارات ؛ ولما بلغ السادسة والثلاثين أحس بأنه قد حصل من المال كفايته فاعتزل التجارة ووهب وقته كله لعلم الآثار : « لقد كنت وأنا فى غمرة الأعمال التجارية دائم التفكير فى طروادة أو فيما قطعته لوالدى من عهد على أن أكشف عن آثارها(*) » (٣).

وقد اعتاد فى أثناء اشتغاله بالتجارة أن يتعلم لغة كل بلد يتجر معه ، وأن يكتب بهذه اللغة ما يتصل بأعماله فى مفكرته اليومية (٤). وبهذه الطريقة تعلم اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والهولندية ، والأسپانية ، والبرتغالية ، والإيطالية ، والروسية ، والسويدية ، والپولندية ، والعربية. ثم ذهب إلى بلاد اليونان ودرس فيها لغـة الكلام الحية ، وسرعان ما أصبح فى مقدوره أن يقرأ اليونانية القديمة والحديثة بنفس السهولة التى يقرأ بها الألمانية . فلما تم له ذلك أعلن : « إنى لا أستطيع أن أعيش بعد الآن فى غير أرض اليونان القديمة »(٦). ولما أبت زوجته الروسية أن تغادر روسيا أعلن فى الصحف رغبته فى الزواج بيونانية ، ووصف بغاية الدقة كل ما يتطلبه فى هذه الزوجة ، ثم اختار فى السابعة والأربعين من عمره عروساً فى التاسعة عشرة من بين الصور الشمسية التى أرسلت إليه . ولم يكد

(*) وقد كتب شليمان يقول : « ولكنى أستطيع تعلم المردات اليونانية بسرعة حصلت على ترجمة يونانية حديثة ، لبول وڤرچينى وقرأتها من أولها إلى آخرها ، وقابلت كل كلمة بأختها فى الأصل الفرنسى . فلما فرغت من هذا العمل عرفت على الأقل نصف ما يحتويه الكتاب من المفردات اليونانية ، وبعد أن كررت هذه العملية نفسها مرة أخرى عرفتها كلها ، أو كدت ، من غير أن أضيع دقيقة واحدة فى البحث عن هذه المفردات فى معاجم اللغة ... أما النحو اليونانى فلم أتعلم منه إلا علامات الإعراب والأفعال ، ولم أضيع وقتى الثمين فى تعلم قواعده لأنى رأيت أن التلاميذ بعد أن يلاقوا العذاب ثمانى سنين أو أكثر منها يكدحون فى تعلم قواعد النحو اليونانى ، يخرجون من المدرسة وليس منهم من يستطيع أن يكتب خطاباً باللغة اليونانية القديمة دون أن يرتكب فيه مائة من الأغلاط . ولهذا أيقنت أن الطريقة التى يتبعها المدرسون فى تعليم تلك اللغة خاطئة من أولها إلى آخرها .. أما أنا فقد تعلمت اللغة اليونانية القديمة كما لو كنت أتعلم لغة من اللغات الحية »

يرى صاحبة الصورة حتى تزوجها من فوره ، وتزوجها بطريقة الشراء القديمة دون أن يعنى بمعرفة حقيقة أمرها ، وطلب إليه أبواها ثمناً يتناسب مع ما يعرفان من ثرائه . ولما ولدت له زوجته طفلين ، لم يرض أن يعمدهما إلا إلا مكرهاً ، ولكنه كان فى أثناء الاحتفال يضع نسخة من الإلياذة فوق رأسيهما ويقرأ منها مائة بيت بصوت عال . وسمى هؤلاء الأبناء أندروماك ، وأجممنون . وسمى خادميه تلامون Telamon ، وپلوپس Pelops ، وأطلق على بيته فى أثينة اسم بلروفون Bellerophon[٧] . لقد كان شليمان شيخاً افتتن بهومر إلى حد الجنون .

وفى عام ١٨٧٠ ذهب إلى الأرض المحيطة بطروادة — وهى الطرف الشمالى الغربى من آسية الصغرى — وأصر رغم آراء جميع العلماء فى ذلك الوقت على أن طروادة پريام مدفونة تحت التل المسمى حصار لك . واستطاع بعد مفاوضات دامت عاماً كاملا أن يحصل من الحكومة العثمانية على إذن بالحفر فى هذا الموقع ، واستأجر ثمانين عاملا وبدأ العمل . وكانت زوجته ، التى تحبه لما يتصف به من شذوذ ونزوات ، تشترك معه فى كدحه فى الأرض من مطلع الشمس إلى مغيبها . وظلت العواصف الثلجية تهب من الشمال طوال الشتاء وتقذف الثرى فى وجهيهما ، وكانت الرياح تندفع بقوة من ثغرات كوخهما الضعيف فلا يستطيعان أن يحتفظا فيه بمصباح مضىء أثناء الليل . « ولم يكن لدينا ما يدفئنا إلا تحمسنا لعملنا العظيم ألا وهو كشف طروادة »[٨] .

ومر عام كامل دون أن تثمر جهودهما ثمرة ما . ثم أخذت فأس أحد العمال تكشف ضربة فى إثر ضربة عن وعاء نحاسى كبير ، ولما فتح هذا الوعاء تكشف عن كنز مدهش ثمين مكون من تسعة آلاف تحفة مختلفة من الفضة والذهب . وكان شليمان ماكراً فأخفى الكنز فى لفاعة زوجته ، وصرف العمال على غير انتظار منهم لكى يستريحوا ، وأسرع إلى كوخه ، وأغلق

عليه الباب ، وبسط الكنز الثمين أمامه على المنضدة ، ووصل ما بين كل قطعة منه وبين فقرة فى شعر هومر ، وحلى رأس زوجته بجوهرة قديمة وأرسل إلى أصدقائه فى أوربا يبلغهم أنه كشف عن « كنز پريام »[٩] : لكن أحداً منهم لم يصدقه ، واتهمه بعض النقاد بأنه وضع بنفسه الأشياء التى كشفها فى المكان الذى استخرجها منه ، ورفع الباب العالى فى الوقت نفسه قضية عليه يتهمه بالاستيلاء على الذهب من أرض تركية . لكن بعض العلماء أمثال فرشاو Virchow ، ودورپفلد Dörpfeld وبرنوف Burnouf هرعوا إلى موضع الحفر ، وحققوا أقوال شليمان ، ووصلوا العمل معه حتى كشفوا عن طروادة مدفونة بعد طروادة ؛ ولم تبق المشكلة القائمة بعدئذ هل كانت هناك طروادة أو لم تكن ، بل أصبحت محصورة فى أى الطروادات التسع التى كشفت هى التى تطلق عليها الإلياذة اسم إليوس .

وفى عام ١٨٧٦ اعتزم شليمان أن يحقق ملحمة هومر من ناحية أخرى — وهى أن يثبت أن أجممنون كان هو أيضاً شخصاً حقيقياً . واسترشد فى عمله بوصف پوسنياس القديم لبلاد اليونان(*) ، فاحتفر أربعا وثلاثين فجوة فى ميسينى الواقعة فى شرقى البلوپونيز . وقطع عليه الموظفون الأتراك عمله بأن طالبوه بنصف الكنوز التى كشفها فى طروادة ؛ ولم يشأ هو أن يترك « كنز پريام » فى تركيا مختفياً عن الأنظار ، فأرسله سراً إلى متحف الدولة فى برلين ، وأدى للباب العالى خمسة أمثال ما طلبه من تعويض ، وواصل أعمال الحفر فى ميسينى . وكان النجاح فى هذه المرة أيضاً حليفه ، ولما أن أبصر عماله يحملون إليه هياكل بشرية ، وفخاراً ، وأقنعة ذهبية ، أبرق إلى ملك اليونان يقــول إنه كشف قبرى أتريوس وأجممنون[١٠] . وفى عام ١٨٨٤ انتقل إلى تيرينز Tiryns واسترشــد فى عمله هنالك

(*) لقــد طاف پوسنياس ببلاد اليونان فى عام ١٦٠ م ووصفها فى كتابه المسمى Periegesis أى الرحلة .

أيضاً بيوسنباس ، وكشف عن القصر العظيم وعن الأسوار الضخمة التى وصفها هومر[١١] .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إنه قلما خدم أحد علم الآثار كما خدمه شليمان . لقد كان هذا الرجل متصفا بعيوب فضائله ، ذلك أن حماسته كانت تدفعه إلى العجلة والتهور فى عمله ، فأدى ذلك به إلى إتلاف كثير من الأشياء التى عثر عليها أو خلطها بعضها ببعض لكى يحقق بسرعة الهدف الذى كان يعمل لتحقيقه . يضاف إلى هذا أن الملحمتين اللتين كانتا تهديانه فى عمله قد أضلتاه فحسب أنه كشف عن كنز پريام فى طروادة ، وعن قبر أجممنون فى ميسينى . وارتاب العلماء فى أنحاء العالم فى تقاريره وظلت متاحف إنجلترا ، وروسيا ، وفرنسا زمناً طويلا لا تصدق أن ما كشفه آثار قديمة بحق : وكان فى هذه الأثناء يعزى نفسه بما ناله من مكانة عظمى فى عينه هو ، ويواصل الحفر بشاعة حتى أقعده المرض . وتحير فى آخر أيامه هل يصلى إلى إله المسيحيين أو إلى زيوس إله اليونان الأقدمين ؛ وكتب إلى ابنه يقول : « إلى أجممنون شليمان أحب الأبناء أرسل تحياتى ، وإنى ليسرنى أنك ستدرس أفلوطرخس ، وأنك فرغت من زنوفون . . . . . وإنى لأدعو أبانا زيوس وپلاس أثينة أن يجزياك من الصحة والسعادة ما يعادل جهودك مائة مرة »[١٢]. وتوفى عام ١٨٩٠ بعد أن أنهكه الكدح فى الحر والبرد ، وقاسى ما قاسى من عداوة العلماء ، ومن حمى أحلامه التى لم تفارقه فى يوم من الأيام .

لقد كشف شليمان — كما كشف كولمبس — عن عالم أشـــد غرابة من العالم الذى كان يبحث عنه ، فلقد كانت هذه الجواهر أقدم بمئات السنين من پريام وهكيبا Hecuuba : ولم تكن تلك القبور قبور أتريدا ، بل كانت أطلال حضارة إيجية قامت فى أرض اليونان الأصلية ، قديمة قدم العصر المينوى فى كريت ، ولقد حقق شليمان ، دون أن يعرف ، بيت هوراس

الذائع الصيت « لقد عاش قبل أجممنون كثيرون من الرجال البواسل »(*) وكلما توسع دورپفلد ، وملر Muller وتسونتاس Tsountas واستماتاكس Stamatakis ، وولدشتين Waldstein ، وويس Wace فى أعمال الحفر فى أرض الپلوپونيز ، وواصل غيرهم الحفر فى أتكا وفى جزائر عوبيه Euboea وبوئتيا Boeotia ، وفوسيس Phocis وفى تساليا ، تكشفت أرض اليونان عن بقايا ثقافة قامت فيها فى أزمنة ما قبل التاريخ . وفى هذه الثقافة ارتقى الناس أيضاً من الهمجية إلى الحضارة بانتقالهم من حياة الصيد البدوية إلى حياة الاستقرار والأعمال الزراعية ، وباستبدال النحاس والبرنز بالحجارة ، وبما يسرته لهم الكتابة والتجارة من وسائل التقدم . إن الحضارة على الدوام أقدم مما نتصور ، وتحت كل شبر من الأرض نطؤه بأقدامنا عظام رجال ونساء عملوا وأحبوا كما نعمل نحن ونحب ، وكتبوا الأغانى وصنعوا الجميل من الأشياء ؛ ولكن أسماءهم وحيواتهم نفسها قد ضاعت على مر الزمان الذى لا يحفل قط بالرجال والنساء .

(*) وكاد دورپفلد وفرشاو يقنعانه فى أواخر أيامه بأنه لم يكشف عن بقايا أجممنون بل كشف عن جيل من الناس أقدم منه كثيراً . وبعد أن أظهر شليمان الشىء الكثير من الألم المبرح تقبل قولهما قبولا حسناً وصاح قائلا : « ماذا تقول الآن ؟ إذن فليس هذا جسم أجممنون ، وليست هذه حليته ؟ فليكن ، ولنسمه إذن شلز Schulz ، وظلوا من ذلك الحين يتحدثون باسم « شلز »(١٣).

الفصل الثانى

قصور الملوك

على تل منخفض طويل ، على بعد خمسة أميال شرقى أرجوس ، وعلى بعد ميل واحد فى شمال البحر ، كان يقوم فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد قصر تيرينز الحصين . ويستطيع الإنسان أن يصل إلى خرائب هذا القصر بعد رحلة ممتعة من أرجوس أو نوبليا Nsuplia ، ويشهد هذه الخرائب التى تكاد تضيع معالمها بين حقول القمح والذرة الهادئة الساكنة . فإذا صعد السائح قليلا فوق درجات حجرية باقية من أزمنة ما قبل التاريخ ، وقف أمام الجدران الضخمة السيكلوبية التى بنيت كما تقول الرواية اليونانية للأمير الأرجوسى بروتوس Proetus قبل حرب طروادة بمائتى عام(*) . ولقد كانت المدينة حتى فى ذلك الزمن البعيد قديمة العهد ، فقد شادها كما تقول الرواية القديمة المأثورة البطل تيرينز بن أرجس Argus ذو المائة عين ، والعالم لا يزال فى طفولته(١٤) . وتضيف القصة إلى ذلك أن بروتيوس أهدى القصر إلى پرسيوس الذى حكم تيرينز مع الملكة أندرمدا Andromeda الحمراء .

وكان ارتفاع الأسوار التى تحمى المدينة بين عشرين وخمسين قدماً ، وقد بلغ من سمكها أن كانت تحتوى فى بعض المواضع على معارض واسعة ذات قباب وعقود فيها قطع حجرية ضخمة مركبة بعضها فوق بعض فى وضع أفقى ،

(*) كان اليونانيون يصفون الصروح بأنها سيكلوبية إذا كانت حسب ما يتصوره خيالهم المولع بالأساطير لا يستطيع بناءها إلا المردة الجبابرة أمثال سيكلوبس (أى صاحب العين المستديرة) الأعور الذى كان يكدح بكير هباستوس Hephoestus فى براكين البحر المتوسط . ثم أصبح هذا الاسم يطلق فى هندسة البناء على الأحجار التى تشاد بلا ملاط والتى تنحت نحتاً غير متقن . ويملأ ما بينهما بالحصا المخلوط بالطين . وتضيف الرواية إلى هذا أن بروتس قد جاء بالبنائين المشهورين المسمين سيكلوبس من لوسيا Lycia .

ولاتزال بعض هذه الحجارة فى أماكنها حتى الآن ، والكثير منها يبلغ طوله ست أقدام وعرضه ثلاثا وسمكه مثلها ، أما أصغرها فيقول پوستياس « إنه يصعب على اثنين من البغال أن يحركاها من أماكنها »(١٥) . وكان فى داخل الأسوار ، وراء مدخل شيد على نمط كثير من مداخل الحصون فناء واسع مرصوف ، حوله طائفة من الأعمدة ، ومن حول هذه الأعمدة عدد كبير من الحجرات شبيهة بحجرات كنوسس ، تجتمع حول بهو فخم تبلغ سعته ألفا وثلثمائة قدم مربعة ، أرضه مرصوفة بالأسمنت المطلى وسقفه مقام على أربعة عمد بينها موقد . وهنا وجد مبدأ جرت عليه العمائر اليونانية يختلف عما كان متبعاً فى كريت — وهو فصل الجناح الذى تقيم فيه النساء عن حجرات الرجال . فقد كانت حجرة الملك وحجرة الملكة متجاورتين ولكنهما — على قدر ما نستطيع أن نستدل عليه من آثارهما — منفصلتان إحداهما عن الأخرى كل الانفصال ولا صلة بينهما من داخلهما . ولم يعثر شليمان من هذا القصر الحصين إلا على أساس الطابق الأرضى ، وقواعد الأعمدة ، وأجزاء من الجدران . وفى أسفل التل وجدت بقايا البيوت المقامة من الحجارة أو الآجر ، والقناطر ، وقطع من الفخار القديم . وفى هذا الموضع كانت مدينة تيرينز فى عهد ما قبل التاريخ تتقارب بيوتها لتحمى نفسها تحت أسوار القصر . ذلك أنه لا مفر لنا من أن نتصور بلاد اليونان فى عصر البرنز تحيا حياة غير آمنة حول هذه القلاع الإقطاعية وفى داخلها .

وعلى بعد عشرة أميال فى شمال هذه المدينة شاد پرسيوس (إذا أردنا أن نصدق قول پوسنياس)(١٦) مدينة ميسينى — أعظم عواصم اليونان قبل التاريخ . وهنا أيضاً نشأت حول قلعة منيعة مدينة من عدة قرى ، تضم عدداً من السكان النشيطين زراع ، وتجار ، وصناع ، ورقيق ، كانوا سعداء لأنهم ليس لهم تاريخ . وبعد ستمائة عام من ذلك الوقت وصف هومر ميسينى بأنها « مدينة حسنة البناء واسعة الطرقات ، موفورة الذهب »(١٧) . ولقد أبقى الزمان

على أجزاء من هذه الجدران الضخمة رغم ما مر بها من مئات الأجيال التى تكفى لتخريب أقوى الصروح ؛ وإن ما بقى منها ليشهد برخص الأيدى العاملة وعدم اطمئنان الملوك على أنفسهم فى تلك الأيام . وفى ركن من أركان السور يوجد باب الأسد الشهير ، وهناك فوق أسكفة ضخمة نحت على حجر مثلث الشكل أسدان كبيران أبلاهما الزمان وحطم رأسيهما ، وأبقى على جسميهما ليحرسا وهما صامتان ذلك المجد العتيد الزائل . وعلى الرابية القريبة من هذا الباب ترى أطلال القصر . وفى وسعنا أن نفعل هنا ما فعلناه فى تيرينز فنتبين فيها حجرة العرش ، وحجرات المخازن ، وحجرة النوم ، وحجرات الاستقبال . وهنا كانت فى غابر الأيام أرضيات منقوشة ، ومداخل ذات عمد ، وجدران ذات مظلمات ، وسلالم فخمة .

وقد كشف عمال شليمان ، بالقرب من باب الأسد فى بقعة ضيقة تحيط بها دائرة من القطع الحجرية المسطحة ، عن تسعة عشر هيكلا عظمياً ، وعن عاديات قيمة ثمينة لا يسع من يراها إلا أن يغفر لهذا الهاوى العظيم ظنه أن هذه الحفر هى الحجرات التى دفن فيها أبناء أتريوس . كيف لا وقد وصف پوسنياس القبور الملكية بأنها « فى أطلال ميسينى ؟ »[١٨] لقد كان من بين هذه الهياكل العظمية جماجم رجال عليها تيجان من الذهب ، وعلى عظام وجوهها أقنعة ذهبية ؛ وكان من بينها هياكل سيدات لهن تيجان من الذهب كن يلبسنها على رؤوسهن التى لم يبق لها وجود . ومن بين ما وجد فى هذه المقابر آنية عليها رسوم جميلة ، وجفان من البرنز ، وكأس من فضة ، ورؤوس من الكهرمان والجمست ، وأدوات من المرمر والعاج والخزف ، وخناجر وسيوف مزخرفة ، ولوحة للعب شبيهة بالتى وجدت فى كنوسس ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من الأدوات مصنوعة من الذهب الخالص — أختام وخواتم ، ودبابيس ، ومشابك ، وأقداح ، وخرز وأساور ، ودروع ، وآنية للزينة ، وأثواب مزركشة بصفائح رفيعة من الذهب[١٩] وليس ثمة شك فى أن هذه الجواهر جواهر ملوك ، وأن هذه العظام عظام ملوك .

وقد كشف شليمان وغيره من العلماء فى سفح التل المقابل للسفح الذى شيد عليه هذا الحصن ، تسعة قبور تختلف كل الاختلاف عن « القبور البئرية » . فإذا ما خرج الإنسان عن الطريق النازل من القلعة دخل عن يمينه دهليزاً على جانبيه جدران من الحجارة الكبيرة الجيدة القطع . وفى آخر الدهليز مدخل بسيط كان يزدان فيما مضى بعمودين أسطوانيين رفيعين من الرخام الأخضر محفوظين فى المتحف البريطانى الآن ، ومن فوق العمودين أسكفة بسيطة من حجرين طول أحدهما ثلاثون قدما ووزنه ١١٣ طناً . فإذا اجتاز السائح هذا المدخل ألفى نفسه تحت قبة ارتفاعها خمسون قدما وقطرها خمسون ، وجدرانها من الحجارة المنشورة ، مقواة بصفائح من البرنز نقش عليها الورد ، وتركب كل طبقة من الحجارة على ما تحتها حتى تسد أعلى الطبقات قمة القبة . وقد اعتقد شليمان أن هذا الصرح العجيب هو قبر أجممنون ، ولم يتردد فى أن يصف قبة أخرى أصغر من هذه وجدت إلى جوارها وكشفتها زوجته بأنها قبر كليتمنسترا Clytaemnestra . وكانت كل القبور التى وجدت فى ميسنى والتى تشبه خلية النحل فى كثرتها خالية ، لأن اللصوص سبقوا علماء الآثار إليها بعدة قرون .

وهذه الآثار الدارسة شواهد باقية على حضارة كانت قديمة فى أيام بركليز قدم شليمان إلينا نحن . ويرجع المؤرخون المحدثون تاريخ المقابر البئرية إلى عام ٦٠٠٠ ق . م (أى قبل التاريخ الذى يحددونه لأجممنون بأربعمائة عام) ، أما المقابر التى فى الجهة الأخرى من التل فيرجع تاريخها فى زعمهم إلى حوالى عام ١٤٥٠ ، ولكن تأريخ ما قبل التاريخ عملية بعيدة كل البعد عن الدقة . ولسنا نعرف كيف بدأت هذه الحضارة ، كما لا نعرف من هم أولئك الأقوام الذين شادوا مدائن فى موضعى ميسينى وتيرينز ، بل وفى مواضع اسبارطة ، وأمكلى Amyclae وإجينا Aegina ، واليوزيس Eleusis ، وقيرونيا Chaeronia ، وأرثومينوس Orthomenos ودلفى . وأكبر الظن أن هؤلاء الأقوام كانوا كغيرهم من الأمم قد أصبحوا خليطاً من

سلالات مختلفة ، ورثوا ثقافات متعددة ؛ فلقد كانت بلا د اليونان مختلطة دماء أهلها قبل غزو الدورين (١١٠٠ ق . م) اختلاط دماء سكان إنجلترا قبل فتح النورمان . ومبلغ ما نستطع أن نهتدى إليه بظننا أن الميسينيين كانوا يمتون بصلة القرابة العنصرية للفريجيين والكارين سكان آسية الصغرى ، وللمينويين سكان كريت[٢٠] . وللأسدين اللذين وجدا فى ميسينى وجهان شبيهان بآساد أرض النهرين ، ولعل هذه الفكرة القديمة قد انتقلت إلى هذه البلاد عن طريق أشور وفريجيا[٢٠] .

وتسمى الرواية التاريخية الميسينيين باسم « پلاسجى » Pelasgi (وربما كان معناه أهل البحر — پلاجوس Pelagos) ، وكانوا يصورونهم كأنهم آتون من تراقية وتساليا إلى أتكا والپلوپونيز فى زمن يبلغ من القدم حداً جعل اليونان يطلقون عليهم اسم السكان الأصليين ، أوتوكتنوى Autochthonoi وقد صدق هيرودوت هذه القصة وقال إن الآلهة الأولمپية من أصل پلاسجى ولكنه « لا يستطيع أن يقول وهو واثق ماذا كانت لغة الپلاسجى »[٢١] ولسنا نحن أكثر منه علما بها .

وما من شك فى أن أولئك الأوتوكتنويين قد قدموا فى عصر متأخر إلى أرض كانت تزرع من أيام العصر الحجرى الحديث ؛ ذلك أنه لا يوجد فى بلد من بلاد العالم سكان أصليون . وقد غلبهم على مر الزمان أقوام آخرون ، وشاهد ذلك أننا نجد فى العصور المتأخرة من تاريخ الميسينيين حوالى عام ١٦٠٠ ق . م دلائل كثيرة على غزوة تجارية ثقافية ، إن لم تكن سياسية عسكرية ، لأرض الپلوپونيز ، من حاصلات كريت أو من مهاجريها[٢٢] . وحجتنا فى هذا القول أن قصور تيرينز وميسينى قد خططت وزينت على غرار القصور المينوية إذا استثنينا أقسام النساء فى الأولى وهى التى لا نظير لها

فى الثانية . يضاف إلى هذا أن الآنية والأنماط الفنية الكريتية وصلت إلى إيجينيا وكلسيس Chalcis وطيبة ، وأن سيدات ميسينى وإلاهاتها قد قلدن الطراز الكريتى الساحر فى الملبس والزينة ، وأن الفن الذى كشف عنه فى القبور البثرية المتأخرة مينوى بلا ريب[٢٣] . وجلى أن اتصال الميسيليين بحضارة أرقى من حضارتهم كان له فيهم أثر حافز قوى ، وأنه هو الذى رفع ميسينى إلى أرقى ما وصلت إليه حضارتها .

الفصل الثالث

الحضارة الميسينية

إن ما لدينا من آثار هذه الحضارة أقل من أن يمكننا من أن نصورها في صورة واضحة وضوح الحضارات التي تتكشف عنها خربات كريت أو أشعار هومر . ولكننا نستطيع أن نقول عنها إن الحياة في أرض اليونان القارية كانت أقرب إلى مرحلة الصيد من الحياة في كريت ، وإن ما نجده بين بقايا الآثار الميسينية من عظام الظباء ، والخنازير البرية ، والمعز ، والضأن ، والأرانب ،والثيران ، والخنازير — بل عظام السمك والأصداف البحرية — ليدل على أن شهوة الطعام بين أولئك القوم قد وصلت إلى المرحلة التي يصفها لنا هومر ، والتي لا تلائم خصر الكريتيين النحيل . وتكشف الآثار في أماكن متفرقة عما بين أساليب الحياة «القديمة» و«الحديثة» من تشابه عجيب ، فقد نجد سهاماً من الحجر الزجاجي إلى جانب مثقب برنزي أجوف كان يستعمل في عمل ثقوب في الحجارة للأوتاد[٢٤] .

أما الصناعة فلم تكن متقدمة تقدمها في كريت ، فلسنا نجد في أرض اليونان القارية مراكز صناعية مثل جورنيا . كذلك كان نمو التجارة بطيئاً ، لأن البحار كانت عرضة لغارات القراصنة ، ومنهم الميسينيون أنفسهم . وكان ملوك ميسيني وتيرينز يستخدمون فنانين كريتيين ليحفروا على الأواني والخواتم ، ما كانوا يقومون به من أعمال القرصنة التي يفخرون بها[٢٥] . وكانوا يبنون مدنهم في داخل البلاد ليدفعوا عن أنفسهم شر غيرهم من القراصنة ، بعيدة عن البحر بعداً يمكنهم من أن يتقوا الغارات المفاجئة ،

وقريبة منه قرباً يمكنهم من الإسراع إلى سفنهم ، وكان موقع مدينتى تيرينز ، وميسينى على الطريق الممتد من خليج أرجولى إلى برزخ كورنث يمكنهما من فرض إتاوات باهظة على التجار ومن القيام بغارات قرصنة عليهم من حين إلى حين . ولما رأت ميسينى أن كريت قد أثرت من اشتغالها بالتجارة المشروعة ، أدركت أن القرصنة ، كالضريبة الجمركية وليدتها المتحضرة ؛ قد تخنق التجارة خنقاً وتنشر الفاقة فى أوسع نطاق ؛ ولذلك أصلحت أمرها وقبلت أن تتطور القرصنة فتصير تجارة . وما وافى عام ١٤٠٠ حتى بلغ أسطولها التجارى من القوة درجة استطاع بها أن ينازع كريت سلطانها البحرى ؛ فرفضت أن تنقل بضائع ميسينى الذاهبة إلى إفريقية عن طريق الجزيرة وأرسلتها إلى مصر مباشرة ؛ وقد يكون هذا العمل[٩] سبباً أو نتيجة لحرب انتهت بتدمير القلاع الكريتية[٥].

ولم تكن الثروة التى أفادتها البلاد من هذه التجارة مصحوبة بثقافة تتناسب معها ، ونستطيع أن نتبينها فيما بقى من الآثار . ونعزو الروايات اليونانية إلى البلاسجيين فضل تعلم الحروف الهجائية من التجار الفينيقيين ، وقد وجدت فى تيرينز وطيبة جرار عليها رموز لم تحل بعد ، ولكن لم تكشف قط ألواح من الصلصال ، أو نقوش ، أو وثائق ؛ وأكبر الظن أن ميسينى حين أرادت أن يتعلم أهلها الكتابة استخدمت فيها مواد سريعة العطب ، كما فعل الكريتيون فى المرحلة الأخيرة من تاريخهم ، ولذلك لم يبق شىء من هذه المواد . ونهج الميسينيون فى الفن نهج الكريتيين ، وقلدوهم فيه بأمانة جعلت علماء الآثار يظنون أنهم كانوا يأتون بكبار الفنانين من كريت ، ولكن يرد على هـذا بأنه بعد أن اضمحل الفن الكريتى ازدهر فن التصوير أيما ازدهار فى أرض اليونان ، فترى النقوش التى تزدان بها أطراف الجدران وحلياتها ترقى إلى المرتبة الأولى فى الفن وتبقى إلى عصر ازدهار الحضارة اليونانية ؛ وكذلك يدل ما بقى من المظلمات على

إحساس قوى بالحيـــاة والنشاط . وترى « النساء اللاتى فى المقاصير » من كبريات السيدات اللائى تزدان بأمثالهن دور التمثيل فى هذه الأيام . وقد صففن شعرهن وارتدين من الملابس ما يتفق مع أحسن طراز فى الوقت الحاضر ، وهن أقرب إلى الحياة الحقة من « السيدات الراكبات فى العربة » اللائى خرجن للتنزه فى الحقول آخر النهار وتكلفن الجمود فى ركبتهن . وخير من سيدات المقاصير منظر « صيد الخنازير البرية » وهو نقش من نقوش تيرنز . إن الخنزير والأزهار قد تحكم فى تصويرهما العرف إلى حد لايصدقه العقل ، واللون القرنفلى الغير المعقول قد شوهته بقع أرجوانية وسوداء وزرقاء تتمق مع النمط المألوف وتتشذ ، والنصف الخلفى من الخنزير المندفع فى جريه يدق تدريجاً حتى يشبه عذراء عالية الحذاءين تسقط من عريشة فى قصرها . ولكن المطاردة رغم هذا مطاردة حقيقية ، والخنزير قد أعياه الطراد حتى وصل إلى درجة اليأس ، والكلاب تقفز بأقصى سرعتها فى الهواء ؛ والرجل ، وهو أقوى الوحوش المفترسة عاطفة وأشدها قسوة ، واقف متأهب يرمحه القاتل الفتاك[٢٦] . ومن حق الإنسان أن يستدل من هذه النماذج على ما كان يستمتع به الميسينيون من حياة نشطة ومن أجسام قوية ، وما كان لنسائهم من جمال وما كان فى قصورهم من زينة واضحة جميلة .

وأرقى فنون ميسينى كلها ما كان منها على المعادن ، ففيها بلغت بلاد اليونان ما بلغته كريت ، وبلغ من جرأتها فى هذه الناحية أن اتبعت فيها أشكالها الخاصة وزينتها . وإذا لم يكن شليمان قد عثر بحق على عظام أجممنون ، فقد عثر على ما يعادل وزنها فضة وذهباً . عثر على حلى كثيرة الأنواع ؛ وبكميات تدل على الإسراف الشديد ، وعلى أزرار ذات رؤوس خليقة بأن تكون فى ملابس الملوك ، وحجارة كريمة حفرت عليها مناظر صيد أو حرب أو قرصنة ؛ ورأس بقرة من الفضة البراقة لها قرنان وجبهة من الفضة نقشت عليها ورود ، يتوقع الناظر إليها فى أية لحظة من اللحظات أن تخور خواراً

محزنا ؛ قد يفسره شليمان ، وهو الذى لا يعدم وسيلة لتفسير كل ما يراه ، بأنه اسم ميسينى[٢٧] : وأجمل ما وجد فى تيرينز وميسينى من آثار معدنية خنجران من البرنز مرصعان بمزيج من الذهب والفضة ، ومصفحان بالذهب المجلوّ المصقول ، وعليهما نقوش تمثل قططاً برية تطارد بطاً ، وأساداً تطارد فهاداً أو تحارب أناسى[٢٩] . وأغرب من هذه كلها الأقنعة الذهبية التى كانت على ما يظهر تغطى بها وجوه الموتى من الملوك . ويشبه أحد هذه الأقنعة وجه قطة ، وقد دفعت شليمان شهامته إلى أن يعزو هذا القناع لأجممنون لا لكليتمنسترا .

ولكن أروع روائع الفن الميسينى بلاجدال لم يعثر عليها فى تيرينز ولا فى ميسينى ، بل عثر عليها فى قبر فى ڤفيو Vaphio بالقرب من أسپارطة حيث كان أحد صغار الأمراء ينافس ملوك الشمال فى التفاخر والعظمة . وقد عثر فى ذلك المكان ، بين كنز آخر من الحلى ، على قدحين من الذهب المطروق بسيطين فى شكلهما ولكنهما بدل فى صنعهما كل ما يستطيع الفنان المحب لفنه العظيم أن يبذله فيه من الصبر والإتقان . وتشبه صناعة هذين القدحين أحسن الصناعة المينوية ، وقد أغرى ذلك بعض العلماء على أن يعزوهما إلى فنان كريتى عظيم بلغ من المنزلة فى كريت ما بلغه تشلينى عند الإيطاليين ، ولكننا يحزننا أن تحرم الثقافة الميسينية أحسن ما خلفت من آثار ؛ نعم إن موضوع النقوش التى على القدحين — وهو اقتناص ثور وترويضه — يبـــدو من الموضوعات التى اختصت بها كريت ، ولكن كثرة هذا المنظر وأمثاله محفورة على الخواتم والأختام الميسينية ، أو مصورة على جدران القصور ؛ تشهد بأن مصارعة الثيران . كانت منتشرة فى أرض اليونان انتشارها فى الجزيرة . وقد نقش على أحد القدحين منظر الثور وقد صيد فى شبكة من الحبال السميكة ، وفتح فاه ومنخريه وهو لا يكاد يستطيع التنفس من شدة

الغضب وفرط التعب ، وكلما حاول التخلص من الشرك ضاقت عليه حلقاته ؛ وعلى الجانب الآخر ثور ثان يقفز قفزة الرعب والهلع ، وثالث يهاجم غلاماً من الرعاة أمسكه بشجاعة نادرة من قرنيه . وعلى القدح الثانى يساق الثور المصيد ؛ فإذا أدنا القدح رأيناه قد رضى بقيود الحضارة ، وانهمك على حد قول إيفنز فى « حديث غرامى » مع بقرة[٣١] . وقد مضت قرون كثيرة بعد ذلك العهد قبل أن يظهر مثل هذا الصنع البديع فى بلاد اليونان .

ويوجد الميسينى نفسه ، كما توجد معظم مخلفات فنه ، فى قبوره ، ذلك أنه كان يطوى موتاه ويدفنهم فى جرار غير مريحة ، وقلما كان يحرق جثثهم كما كان يُفعل بها فى عصر الأبطال .

ويستدل من مخلفاته على أنه كان يؤمن بحياة من نوع ما فى الدار الآخرة ، لأن أدوات ذات قيمة ونفع قد وجدت فى قبوره . وفيما عدا هذا فإن الدين الميسينى ، على قدر ما تكشف لنا من مقدماته ، قوى الدلالة على أنه نشأ من الدين الكريتى أو كان قوى الصلة به ، ففيه — كما فى كريت — نجد البلطة المزدوجة ، والعمود المقدس ، واليمامة الإلهية ، وعبادة أم إلهة ممثلة فى إله غلام لعله ولدها ؛ وهنا أيضاً نجد أربابا صغارا فى صور أفاع . وقد بقيت الأم الإلهة فى بلاد اليونان خلال كل ما حدث فى دينها من تطور وتغيير ، فقد جاءت بعد ريا Rhea الكريتية دمتر Demeter أم اليونان الحزينة ، وبعد دمتر جاءت العذراء أم الإله . وإذا ما وقف الإنسان اليوم على أطلال ميسينى رأى فى القرية الصغيرة القائمة أسفلها كنيسة مسيحية متواضعة ، لقد ولى عصر الأبهة والفخامة ولم تبق إلا البساطة والسلوى .

وازدهرت ميسينى بعد سقوط كنوسس كما لم تزدهر من قبل ، واستخدمت الثروة الطائلة المتزايدة التى كانت « لأسرة القبور البئرية » فى تشييد القصور

الفخمة على تلال ميسيني وتيرينز ، واتخذ الفن الميسيني لنفسه طابعاً خاصا ، واستولى على أسواق بحر إيجه ، ووصلت تجارة أمراء البلاد شرقاً إلى قبرص وسورية ، وجنوباً إلى مصر مارة بجزائر سكلديس ، وغرباً إلى أسبانيا مارة بإيطاليا ، وشمالا إلى نهر الدانوب مخترقة بوثوتيا وتساليا ، ولم يقف في سبيلها إلا طروادة . وكما أن رومة قد استحوذت على حضارة اليونان ونشرتها في أنحاء العالم ، كذلك فعلت ميسيني فاستحوذت على ثقافة كريت المحتضرة ونشرت الطور الميسيني من أطوار تلك الحضارة في عالم البحر المتوسط كله

الفصل الرابع

طروادة

بين كريت وأرض اليونان ٢٢٠ جزيرة منثورة فى بحر إيجة فى دائرة حول ديلوس ، ومن أجل ذلك سميت السكليديس ، ومعظم هذه الجزائر صخرى قحل ، وهى بقايا قمم جبال كانت تمتد فى أرض غرق بعضها تحت ماء البحر ، ولكن بعضها كان غنياً بالرخام أو المعادن إلى حد جعل أهله يعملون فى استخراجهما ، وأنشأوا فيه حضارة على مر القرون القديمة قبل أن يطل علينا التاريخ اليونانى . وقد قامت المدرسة البريطانية فى أثينة عام ١٨٩٦ بأعمال الحفر فى أرض ميليوس Melos عند فيلاكوبى Phylakopi وعثرت على أدوات وأسلحة وفخار مشابهة شبهاً يثير الدهشة لآثار العصور التى مرت بها الحضارة المينوية عصراً عصراً ؛ واستطاع الباحثون بفضل البحوث التى أجريت فى عصرها من الجزائر أن يرسموا صورة جزائر السكلديس فى عصر ما قبل التاريخ تتفق فى زمنها وصفاتها مع الصورة المستعادة التى رسمها المنقبون لكريت ، وكانت جزائر السكلديس ضيقة الرقعة لا تزيد مساحة أرضها كلها على ألف ميل مربع ، فكانت من هذه الناحية شبيهة ببلاد اليونان عاجزة عن الاجتماع فى قوة سياسية موحدة ؛ ولم يكد يحل القرن السابع قبل الميلاد حتى خضعت هذه الجزائر الصغيرة فى حكمها وفنونها ، بل خضع بعضها فى لغته وكتابته ، لسيطرة الكريتيين ؛ ولما أن حل الطور الأخير من أطوار الحضارة الكريتية (١٤٠٠ — ١٢٠٠) انقطع ما تستورده تلك الجزائر من كريت ، وولت وجهها شطر ميسينى تستورد منها فخارها وأساليبها

وإذا اتجهنا نحو الشرق إلى جزائر أسبوراديس Sporades (أى المتفرقة) ألفينا فى جزيرة رودس ثقافة أخرى فى عصر ما قبل التاريخ من نوع الثقافات

الإيجية البسيطة ، أما فى قبرص فإن رواسب النحاس الغنية التى اشتق منها اسم الجزيرة قد أفاءت عليها قدراً من الثراء دام حتى عصر البرنز (٣٤٠٠ — ١٢٠٠) ، ولكن مصنوعاتها(*) ظلت مع ذلك خشنة غير مهذبة لا تمتاز فى شىء إلى ما قبل السيطرة الكريتية . وكان أهلها الذين يغلب عليهم العنصر الأسيوى يستخدمون كتابة مقطعية شديدة الصلة بالكتابة المينوية ، ويعبدون إلهات تنحدر من إشتار السامية ، وهى التى قدر لها أن تصبح أفروديتى إلهة اليونان(٣٢) . ثم نمت صناعة المعادن فى الجزيرة نمواً سريعاً بعد عام ١٦٠٠ ؛ وأخذت المناجم التى تمتلكها الحكومة الملكية تصدر النحاس إلى مصر ، وكريت ، وبلاد اليونان ؛ وكان المصنع المقام فى إنكومى Enkomi يصنع الخناجر الذائعة الصيت ، وكان الفخرانيون يبيعون آنيتهم المستديرة فى جميع البلاد الممتدة من مصر إلى طروادة . وفى القرن الأخشاب من الغابات ، وأخذ سرو قبرص ينافس أرز لبنان . وفى القرن الثالث عشر أنشأ المستعمرون الميسينيون المستعمرات التى أضحت فيما بعد مدناً يونانية وهى پاثوس Pathos مدينة أفروديتى المقدسة ، وسيتيوم Citium ، مسقط رأس الفيلسوف زينون ، وسلاميس القبرصية التى حط فيها صولون رحاله فى أثناء تجواله ليُحل القانون محل الفوضى .

وعبرت التجارة الميسينية كما عبر النفوذ الميسينى البحر من قبرص إلى سوريا وكاريا ، ومنهما انتقلا عن طريق الشواطئ والجزائر الأسيوية حتى وصلا إلى طروادة . وهناك كشف شليمان ودورپفلد على تل تفصله عن البحر ثلاثة أميال عن تسع مدن كل واحدة فوق الأخرى كأنما كان لطروادة تسع حيوات .

١ — فكان فى الطبقة الدنيا بقايا قرية من العصر الحجرى الحديث يصل تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق . م ، وقد وجدت فيها جدران من الحجارة غير

(*) ثابر على جمعها القائد دى سسنولا di Cesnola ، وهى الآن محفوظة فى المتحف الفنى بنيويورك .

المنحوتة بينها طبقات من الطين ، كما وجدت قواقع حلزونية ، وقطع من العاج المشغول ، وأدوات من الحجر الزجاجي ، وقطع من الفخار المصقول باليد .

٢ — ووجدت فوق هذه الآثار أنقاض المدينة الثانية التي اعتقد شليمان أنها طروادة هومر . وكانت أسوارها المحيطة بها مقامة من حجارة ضخمة كأسوار تيرينز وميسيني ، وكان في أماكن متفرقة منها حصون وفي أركانها أبواب ضخمة مزدوجة لا يزال اثنان منها باقيين حتى الآن . وهناك أيضاً بيوت باقية تعلو نحو أربع أقدام ، وقد بنيت من الآجر والخشب فوق أساس من الحجارة . ويستدل مما عثر عليه فيها من فخار مطلي بطلاء أحمر ، مصنوع على العجلة ولكنه خشن فج ، على أن هذه المدينة كانت قائمة في الفترة المحصورة بين ٢٤٠٠ ، ١٩٠٠ على وجه التقريب . وقد حل البرنز فيها محل الحجر في صنع الأدوات والأسلحة ، وكثرت فيها الحلي ، ولكن التماثيل الصغيرة قبيحة المنظر بدائية الصنع . ويتضح من مخلفات هذه المدينة الثانية على أن النار قد دمرتها ، فآثار النار كثيرة فيها كثرة اقتنع معها شليمان بأن هذا كان من عمل يونانيي أجممنون .

(٣ — ٥) ووجدت من فوق « المدينة المحروقة » بقايا ثلاث دساكر متتالية صغيرة وفقيرة ، لا قيمة لها من الناحية الأثرية .

٦ — وقامت حوالي ١٦٠٠ ق . م مدينة أخرى على هذا التل التاريخي . وقد دفعت السرعة والحماسة شليمان إلى أن يخلط عاديات هذه الطبقة بعاديات الطبقة الثانية ، وأن يصف المدينة السادسة بأنها « مستقر ليدي »[٣٣] لا خطر له ، ولكن دوربفلد واصل الحفر بعد موت شليمان مستعيناً إلى وقت ما بمال شليمان نفسه[٣٤] حتى كشف عن مدينة أكبر كثيراً من المدينة الثانية مزدانة بالمباني الكبيرة مقامة من حجارة مسواة ، يحيط بها سور يرتفع فوق الأرض ثلاثين قدماً بقيت له ثلاثة من أبوابه ؛ ووجدت في أنقاض

المدينة مزهريات ذات لون واحد أدق صنعاً من المزهريات التي وصفناها من قبل ، كما وجدت فيها آنية كآنية أوركمنوس Orchomenos المينية Minyan ، وقطع من الفخار شبيهة بما وجد في ميسيني إلى حد اعتقد معه دوريفلد أنها مستوردة من هذه المدينة الثانية وأنها لذلك معاصرة لأسرة القبور البئرية (١٤٠٠ — ١٢٠٠ ق . م) . ويرى معظم العلماء أن هذه المدينة السادسة هي طروادة هومر مستندين إلى هذه الآثار وإلى عوامل أخرى أقل منها ثباتاً واستقراراً(*)[٣٥] . ويخصون بها « كنز بريام » الذي ظن شليمان أنه عثر عليه في المدينة الثانية ، والمكون من ستة أساور ، وطاسين ، وتاجين ، وعصابتين للرأس ، وستين قرطاً و ٨٧٠٠ قطعة أخرى كلها من الذهب[٣٦] . ويؤكد لنا المؤرخون أن المدينة الثانية قد دمرتها النار أيضاً حوالي عام ١٢٠٠ ق . م ، ويحدد المؤرخون اليونان حصار طروادة بالفترة الواقعة بين : ١١٩٤ ، ١١٨٤ ق . م(**) .

وبعد ، فمن هم الطرواديون ؟ تذكر إحدى البرديات المصرية اسم الدردنيويين Dardenui بين أحلاف الحثيين في واقعة قادش (١٢٨٧) ؛ ويحتمل أن يكون هؤلاء هم أسلاف الدردنويين Dardenoi وهم في لغة هومر الطرواديون أنفسهم[٣٧] . والراجح أن هؤلاء الأقوام ينتمون إلى أصل

(*) يعتقد الدكتور كارل بلجن Dr. Carl Blegen مدير أعمال الحفر التي تقوم بها بعثة جامعة سنستاتي في طروادة (١٩٣١ وما بعدها) على أن مدينة طروادة السادسة قد دمرت حوالي عام ١٣٠٠ ويرجح أن ذلك كله كان بفعل زلزال ، كما يعتقد أن المدينة السابعة قامت فوق أنقاض هذه المدينة . وهو يسمى هذه المدينة السابعة طروادة بريام . أما دوربفلد فيسمى هذه المدينة طروادة رقم ٦ ب ، انظر ماجاء بصحيفة الدراسات اليونانية Journal of Hellenic Studies العدد السادس والخمسين ص ١٥٦ .

(**) كانت طروادة السابعة مستقراً صغيراً غير محصن قامت في ذلك المكان حتى أنشأ (٨) الإسكندر الأكبر في عام ٣٣٤ طراودة الثامنة تخليداً لذكرى هومر . (٩) وشاد الرومان في بداية التاريخ المسيحي اليوم أو طروادة الحديثة Novum Ilium التي بقيت إلى القرن الخامس بعد الميلاد .

بلقانی ، وأنهم عبروا مضيق الهلسبنت فى القرن السادس عشر مع أبناء عمومتهم الفريجيين واستقروا فی وادی نهر اسكمندر Scamander الأدنى [٣٨] .
أما هيرودوت فيوحد بين الطروادين والتيكريين Teucrians وهؤلاء فى رأى اسطرابون أقوام من كريت استقروا فى الصقع الذى بنيت فيه طروادة فيما بعد(*) ، ولعل استقرارهم فى ذلك المكان كان بعد سقوط كنوسس [٤٠].
ولقد كان لكريت وطروادة جميعاً جبل مقدس يسمى جبل أيدا « جبل أيدا ذا الفوارات الكثيرة » الذى يذكره هومر وتنيسن Tnnyson . ولقد تعرض هذا الإقليم فى أوقات مختلفة إلى مؤثرات سياسية وجنسـية من أرض الحيثيين الواقعة خلفه . وتدل أعمال الحفر فى جملتها على وجود حضارة بعضها مينوى ، وبعضها ميسينى ، وبعضها أسيوى ، وبعضها دانوبى Danubian .

ويصف هومر الطروادين بأنهم كانوا يتكلمون لغة اليونان ويعبدون آلهتهم ، ولكن اليونان المتأخرين عن عصر هومر كانوا يقولون إن طروادة مدينة أسيوية ، وإن حصارها الذائع الصيت هو أول الأحداث المعروفة فى النزاع القائم بين الساميين والآريين ، وبين الشرق والغرب[٤١] .

وأهم من مظهر أهلها وجنسهم موقع المدينة المنيع قرب مدخل الهلسبنت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود . لقد كان هذا الممر الضيق فى التاريخ كله ميدان القتال بين الإمبراطوريات ، وكان حصار طروادة هو معركة غليبولى

(*) ترجع الرواية اليونانية اسم طروادة إلى البطل الإبونيمى تروس Tros والدايلس Ilus والدلومذون Leomedon والدبريام[٣٩] . وهذا منشأ الأسماء المختلفة التى تطلق على المدينة : ترواس Troas إليوس Ilios إليون Ilion اليوم Ilium . والبطل الأپونيمى أو الإپونيم شخص خرافى فى أغلب الظن ، تعزو إليه جماعة سياسية أو اجتماعية أصلها واسمها . فالدردانيون مثلا يعتقدون أو يدعون أنهم من دردانوس بن زيوس ، ويعزو الدوريون أصلهم إلى دورس Dorus والأيونيون إلى أيون وهلم جرا .

الحديثة نشبت فى عام ١١٩٤ ق . م . وكان السهل القائمة عليه على درجة لا بأس به من الخصب ، وكانت الأرض المجاورة له من الشرق غنية بالمعادن الثمينة ؛ ولكن هذه الثروة وحدها لا يمكن أن تكون سبب ثراء طروادة أو هجمات اليونان عليها . إن أهم من هذا فى رأينا أن موقع المدينة كان يمكنها من فرض المكوس على السفن المارة بالهلسبنت ، وكانت هى فى الوقت عينه بعيدة عن البحر بعداً يجعلها فى مأمن من الهجمات البحرية(٤٢). وربما كان هــذا السبب لا وجه هلن Helen الجميل هو الذى جردت من أجله ألف سفينة للهجوم على إليوم . وثمة رأى آخر يفسر ثراء طروادة — وربما كان أرجح من الرأى الأول — وهو أن التيارات المائية والرياح الجنوبية فى مضيق الهلسبنت قد جعلت التجار يفرغون بضائعهم فى طروادة وينقلونها براً إلى داخل البلاد ، وأن طروادة قد حصلت من المكوس التى تتقاضاها نظير قيامها بهذا العمل على ما تجمع لها من قوة(٤٣) . ومهما يكن سبب هذا الثراء فإن تجارة المدينة نمت نمواً سريعاً كما يستدل على ذلك من اختلاف المصادر التى تنتمى إليها آثارها . فقد كان يأتى إليها من الجزء الجنوبى من بحر إيجة النحاس ، وزيت الزيتون ، والخمر ، والفخار ؛ ومن بلاد الدانوب وتراقية : الفخار ، والكهرمان ، والخيل ، والسيوف ؛ ومن بلاد الصين النائية أشياء نادرة كحجر اليشب(٤٤) . وكانت طروادة تستورد من داخل البلاد المحيطة بها خشباً ، وفضة ، وذهباً ، وحمرا برية ، وتصدرها إلى الخارج .

وكان أهل طروادة « مروضو الخيول » المقيمون فى زهو وخيلاء داخل أسوارهم ، يسيطرون على ما حولهم من البلاد ويفرضون المكوس على تجارتها البرية والبحرية .

والصورة التى تطالعنا فى الإلياذة عن بريام وبيته هى صورة العظمة والعطف الأبوى التى تطالعنا فى أسفار التوراة . فالملك كثير الزوجات ، ولم يكن منشأ هذه الكثرة حب المتعة بل كان منشؤها ما يشعر به من تبعة تفرض

عليه أن يستمر فى إنجاب الأبناء وزيادة عددهم . أما أبناء الملك فيقتصرون على زوجة واحدة ، وكلهم حسنو الأخلاق مستقيمون — إذا استثنينا بطبيعة الحال باريس المرح الذى كان بعيداً عن حسن الخلق بعد ألقبيادس . وإن هكتور Hector ، وهلنوس Helenus ، وترويلوس Troilus لأجدر بالحب من أجممنون المتقلب ، وأديسيوس Odysseus الغدار ، وأخيل المشاكس ، وأندروماك Andromache وبلكسينا Polyxena لا تقلان سحراً وفتنة عن هيلين وإفجينيا Iphigenia ؛ وهكيبا أحسن قليـــلا من كليتمنسترا . والطرواديون فى جملتهم كما يصورهم أعداؤهم يبدون فى نظرنا أقل خداعاً ، وأكثر وفاء ، وأحسن تهذيباً ، من اليونان الذين غلبوهم على أمرهم . ولقد أحس الفاتحون أنفسهم بهذا التفوق فى أواخر أيامهم ؛ ولم يبخل هومر على أهل طروادة بكلمة طيبة ؛ ولم يترك سافو Saphc ولا يوربديز شكا فى الناحية التى يريان أنها خليقة بعطفهما وإعجابهما .

ولقد كان من دواعى الأسف أن يعترض هذا الشعب طريق بلاد اليونان المتوسعة التى جاءت ، رغم عيوبها الكثيرة ، إلى هذا الإقليم وإلى غيره من أقاليم البحر المتوسط فى آخر الأمر بحضارة أرقى من كل الحضارات التى عرفها من قبل .

الباب الثالث

عصر الأبطال

الفصل الأول

الآخيون

عثر المنقبون فى بوغاز كوى Boghaz Keui على ألواح حثية قليلة يرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٢٣ ق . م تصف الأهجافا Ahhijava بأنهم شعب لا يقل فى قوته عن الحثيين أنفسهم . وورد فى سجل مصرى يرجع إلى حوالى عام ١٢٢١ ق . م أن الأكيواشا Akaiwasha انضموا إلى غيرهم من « شعوب البحر » فى غارة لوبية على مصر ، ويصفهم بأنهم عصابات رحل « يقاتلون ليشبعوا بطونهم ...[1] » .

والآخيون كما يصفهم هومر فى شعره شعب يتكلم اللغة اليونانية يسكن جنوبى تساليا[1] ، وإذ كان هذا الشعب قد أصبح أقوى القبائل اليونانية فإن هومر يطلق اسمه على جميع اليونان الذين حاربوا طروادة . ويصف المؤرخون والشعراء اليونان، الذين عاشوا فى أيام مجد البلاد الأدبى ، الآخيين ، كما يصفون البلاسجيين ، بأنهم أهل البلاد الأصليون ، وأنهم كانوا يعيشون فيها من أقدم الأزمنة التى تعيها الذاكرة ؛ وافترضوا من غير ما تردد أن الثقافة الآخية التى يصفها هومر كانت هى والتى سميناها فى هذا الكتاب بالثقافة الميسينية ثقافة واحدة . وأخذ شليمان بهذا الرأى ، وظل العلماء يأخذون به فترة قصيرة من الزمان .

ثم حدث في عام ١٩٠١ أن جاء رجل إنجليزى عنيد هو سير وليم ردچواى Sir William Ridgeway[٢] وزعزع هذه الثقة العزيزة على نفوس العلماء بقوله إن الحضارة الآخية ، وإن اتفقت هي والميسينية في نواح كثيرة ، تختلف عنها في تفاصيل هامة : (١) فالحديد لا يكاد يعرف في الحضارة الميسينية أما الآخيون فهم على علم به . (٢) ويذكر هومر أن موتى الآخيين يحرقون ، أما في تيرينز وميسينى فهم يدفنون ، وهذا يدل على اختلاف هؤلاء وأولئك في عقيدتهم عن الحياة الآخرة . (٣) والآلهة الآخية هي الآلهة الأولمبية ، وهذه لا أثر لها قط في ثقافة ميسينى . (٤) إن الآخيين يستعملون سيوفاً طويلة ، وتروساً مستديرة ودبابيس للصدور مأمونة ، ولم يعثر قط بين الآثار الميسينية على أدوات مشابهة لها في الشكل . (٥) وبين الشعبين اختلافات كثيرة في ملابسهم وفي تصفيف شعرهم . واستنتج ردچواى من هذا أن الميسينيين بلاسجيون ، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وأن الآخيين « كِلْت » شقر أومن شعوب أوربا الوسطى نزحوا إلى تلك البلاد مخترقين إبيروس وتساليا ابتداء من عام ٢٠٠٠ ق . م ، وجاءوا معهم بعبادة زيوس ، ثم غزوا البلوبونيز حوالى عام ١٤٠٠ ، واتخذوا اليونانية لغة لهم ، واتبعوا أساليب الحياة اليونانية ، وأقاموا من أنفسهم زعماء إقطاعيين يحكمون من قصورهم الحصينة البلاسجيين الخاضعين لسلطانهم .

وتلك نظرية تلقى بلا شك كثيراً من الضوء على أصل أولئك القوم حتى لو اضطر العلماء إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها . ومما يؤخذ عليها أن الآداب اليونانية لا تذكر قط شيئاً عن غارة آخية على بلاد اليونان ، وأن ليس من الحكمة أن ترفض نظرة أجمع عليها العلماء بسبب زيادة تدريجية في استعمال الحديد ، أو تبدل في أساليب الدفن أو تصفيف الشعر ، وفي إطالة

السيوف أو استدارة التروس أو التزين بدبابيس مأمونة . وأرجح من هذا الرأى أن نفترض ، كما كان يفترض كتاب اليونان الأقدمون ، أن الآخيين قبيلة يونانية انتشرت على أثر الزيادة الطبيعية فى عددها من تساليا إلى البلوپونيز فى خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر وامتزجت دماؤهم بدماء البلسجيين – الميسينيين الذين كانوا فى تلك البلاد – وأنهم أصبحوا حوالى عام ١٢٥٠ ق . م الطبقة الحاكمة فيها[٤] . وأغلب الظن أنهم هم الذين أخذ عنهم البلاسجيون اللغـــة اليونانية ، ولم يأخذوها هم عن البلاسجيين . وقد تكون ألفاظ كورنثة ، وتيرينز ، وپارنسس Parnassus ، وأولمبيا(*) وأمثالها من أسماء الأماكن ، قد تكون هذه أصداء للغة كريتية – پلاسجية – ميسينية[٥] . وبهذه الطريقة عينها ، فيما يبدو لنا ، فرض الآخيون آلهتهم الجلية والسماوية على الآلهة ... لأرضية التى كان يعبدها مَن قبلهم من الأهلين . أما فيما عدا هذا فليس ثمة فارق واضح بين الثقافة الميسينية وذلك الطور الأخير منها ، وهو الآخية ، الذى نجده فى أشعار هومر . ويلوح أن أساليب الحياة عند هؤلاء وأولئك قد امتزجت وانصهرت حتى أمست أساليب واحدة . ثم انمحت الحضارة الإيجية ببطء بعد أن جرى هذا الامتزاج فى مجراه ، وقضى عليها القضاء الأخير فى هزيمة طروادة ؛ ومن ذلك الوقت بدأت الحضارة اليونانية .

(*) وألفاظ يونانية أخرى مثل sesamon سمسم ، kyparissos (السرو) ، byssops (الثغام) ، oinos (الخمر) ، sandalon (الصندل) ، chalkos (النحاس) thalassa (البحر) ، molybdos (الرصاص) ، zephyros(النسيم) ، tkybernao (يوجه السفينة) ، sphongos (الإسفنج) ، jaos (النـــاس) ، labyrinthis (التيه) ، kitharis (الزيثار وهى آلة موسيقية شبيهة بالقيثارة) syrinx (الناى) ، paian (تهليل) .

الفصل الثانى

خرافات الأبطال

توحى إلينا خرافات عصر الأبطال بأصل الآخيين وبما آل إليه أمرهم. وليس من حقنا أن نغفل هذه القصص ، فهى وإن سادها خيال القتيل وإراقة الدماء قد يكون فيها من الحقائق التاريخية أكثر مما نظن ، وهى ممتزجة بالشعر والسرح والفن اليونانى امتزاجاً يجعل فهمها مستحيلا بغير هذه القصص(*) ،

وتذكر النقوش الحثية اسم ملك يدعى أتارسياس Atarissyas تقول إنه ملك الأهيجاوا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ؛ وأكبر الظن أنه هو أتريوس ملك الآخيين(٦) . وتقول الأساطير اليونانية إن زيوس أعقب تنتالوس Tantalus ملك فريجيا(**) وإن هذا أعقب بلبس Pelops ، وأعقب بلبس أجممنون ، ولما نفى بلبس من وطنه جاء إلى إليس فى غرب

(*) برسيوس ... هرقليس ... مينوس ، تسيوس ، جيسن ... إن من المألوف فى هذه الأيام أن تعد هؤلاء وغيرهم من أبطال ذلك العصر ... من خلق الأساطير وحدها . أما اليونان المتأخرون فقد كانوا فى نقدهم لتواريخ أيامهم الماضية لا يشكون فى أن هؤلاء أشخاص حقيقيون حكموا بالفعل فى أرجوس وغيرها من الممالك ، وقد أخذ كثيرون من النقاد المحدثين ، بعد أن ظلوا يشكون فى آراء النقاد اليونان زمناً طويلا ، أخذ كثيرون من هؤلاء النقاد يعودون إلى رأى اليونان ويرون أنه هو الرأى الذى يفسر ما لدينا من الشواهد تفسيراً مقبولا ... إن أبطال القصص « أبطال حقيقيون » شأنهم فى هذا شأن المواضع الجغرافية التى كانوا يتحركون فيها » . تاريخ كيمبردج القديم المجلد الثانى ص ٤٧٨ . وسنفترض فى هذا الكتاب أن الخرافات الكبيرة حقيقية فى جوهرها وهمية فى تفاصيلها .

(**) وأغضب تنتالوس الآلهة بأن أفشى أسرارها ، وسرق شرابها وطعامها ، وقدم لها بدلا منهما ابنه بلبس بعد أن قطعه إرباً وغلاه . وأعاد زيوس جسم بلبس كما كان وجازى تنتالوس فى الجحيم بأن سلط عليه ظمأ شديداً ، فوضعه وسط بحيرة ينحسر ماؤها كلما هم بشربه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتعد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما علق فوقه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتعد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما علق فوقه صخرة تهدده فى كل وقت بأن تسقط عليه وتهشمه(٧) .

البلوبونيز حوالى ١٢٨٣ وصمم على أن يتزوج هبودوميا Hippodomia ابنة أونوماوس Onomaus ملك إليس . ولا تزال القوصرة الشرقية فوق الهيكل العظيم المقام لزيوس فى أولمبيا تقص علينا قصة خطبتهما . وقد كانت عادة الملك أن يختبر من يتقدمون لخطبة ابنته بأن يتبارى وإياهم فى سباق المركبات فإذا سبقه الخطيب تزوج هبودوميا ، أما إذا لم يسبقه فإنه يقتل . وحاول كثير من الخاطبين أن يفوزوا بها ، ولكنهم خسروا السباق وخسروا حياتهم جميعاً ؛ وأراد پلپس أن يقلل مما يتعرض له من الأخطار بأن أرشى مريتلوس Myrtilus سائق عربة الملك لنزيل المسامير التى تربط عجلات العربة بقطبها ، ووعده بأن يقتسم معه المملكة إذا أفلحت خطتهما . وحدث فى أثناء المباراة أن انكسرت عربة الملك وقتل ، وتزوج پلپس هبوداميا وحكم إيليس ولكنه لم يقتسم مملكته مع مرتيلوس بل ألقاه فى البحر ؛ وصب مرتيلوس وهو يغرق لعنة على پلپس وعلى جميع نسله .

وتزوجت ابنة پلپس ستنلوس Sthenelus بن پرسيوس ملك أرجوس ؛ وورث الملك من بعده ابنهما يوريسثيوس Eurystheus ، ولما مات خلفه عمه أتريوس . وتزوج أجممنون ومنلوس Menelaus ابنا اتريوس كليتمنسترا وهلن ابنتى تنداريوس Tyndareus ملك لاسيديمون Lacedoemon ، ولما مات أتريوس وتنداريوس اقتسم أجممنون ومنلوس فيما بينهما بلاد البلوپونيز الشرقية بأجمعها ، وحكماها من عاصمتيهما ميسينى واسپارطة ، وسميت تلك البلاد پلوپونيز أو جزيرة پلوپس نسبة إلى جدهما ، بعد أن نسى أحفاده لعنة مرتيلوس .

وكانت بقية بلاد اليونان فى ذلك الوقت تجد فى إنجاب الأبطال ، وكانوا يعملون فى الغالب فى تشييد المدن . وتقول الرواية اليونانية إن زيوس غضب على الجنس البشرى لما كان يقترفه من مظالم لسلط عليه طوفاناً جائحاً لم ينجح منه إلا رجل واحد هو ديوكاليون Deucalion وزوجته پرها Pyrrha فى فلك

أو صندوق استقر على جبل پارنسس . وتناسلت من هيلّن Hellen بن ديوكاليون جميع القبائل اليونانية واشتق من اسمه هلين Hellenes اسم هذه القبائل مجتمعة . وكان هيلّن جد أخيوس Acheus وأيون Ion اللذين تناسلت منهما القبائل الآخية والأيونية واستقرتا بعد تجوال طويل أولاهما فى البلوپونيز والثانية فى أتكا . وأنشأ سكرپس أحد أبناء أيون بمعونة الإلهة أثينا فى موضع كان البلسجيون قد استقروا من قبل على رابية فيه المدينة التى سميت فيما بعد باسمها وهى مدينة أثينة[٨] . وتقول القصة إنه هو الذى نشر الحضارة فى أتكا ، وسن شريعة الزواج ، وحرم التضحية بالأحياء ، وعلم رعاياه عبادة الآلهة الأولمبية ، وخاصة زيوس وأثينا .

وحكم أبناء سكرپس وأحفاده أثينة وكانوا ملوكاً عليها . وكان رابع من حكمها من نسله إركثيوس Erechtheue الذى ألهته المدنية وأقامت له فيما بعد هيكلا من أجمل هياكلها . وجمع حفده ثسيوس حوالى ١٢٥٠ ق م . قرى أتكا الاثنتى عشرة فى وحدة سياسية سمى سكانها فيما بعد أينما كانوا بالأثينيين . ولعل السبب فى أن اسم أثينة اليونانى ينطق به بصيغة الجمع كما ينطق أيضاً اسم طيبة وميسينى هو أنها نشأت فى بداية أمرها من اجتماع سكان عدة قرى متجاورة . وكان ثسيوس هو الذى وهب أثينة النظام والقوة ، وقضى على عادة التضحية بأبنائها قرباناً لمتيوس ، وأمن أهلها فى ترحالهم بقتل قاطع الطريق بركرستيس Procrustes الذى كان يحب أن يمد سيقان أسراه أو يقطعها حتى تكون فى طول سريره . وعبدت أثينة ثسيوس بعد وفاته واتخذته هو أيضاً إلهاً لها . وجاءت المدينة فى عام ٤٧١ ق . م أى فى عصر التشكك أيام بركليز ، جاءت بعظام ثسيوس من اسكيروش Scyros وأودعتها آثاراً مقدسة فى هيكل ثسيوس .

وقامت فى شمال أثينة فى بؤوتيه Boeotia حاضرة أخرى تنافسها ، وكان لها مثلها تاريخ مثير للمشاعر ، قدر له أن يكون محور المسرحيات اليونانية فى عصر البلاد الأدبى . فقد أنشأ الفينيقيون أو الكريتيون ، أو كادموس Cadmus أحد أمراء المصريين فى أواخر القرن الرابع عشر مدينة طيبة عند ملتقى الطرق التى تعبر بلاد اليونان من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وعلم منشئوها أهلها الحروف الهجائية ، وقتلوا التنين (ولعل هذا رمز قديم لوباء معد أو فتاك) الذى كان يمنع الأهلين من الانتفاع بماء العين الآرية Areian وخرج من أسنان التنين التى غرسها كدموس فى الأرض رجال مسلحون أخذوا يقتتلون كما يقتتل اليونان فى عصورهم التاريخية حتى لم يبق منهم إلا خمسة ؛ وهؤلاء الخمسة هم الذين أنشئوا المدينة المالكة ، على حد قول طيبة نفسها . وكان مركز حكومة المدينة حصناً يدعى كدمية Cadmeia أقيم على ربوة عثر فيها فى هذه الأيام على قصر كدموس (*) ، وحكم بعد كدموس من هذا الحصن نفسه ابنه پوليدوروس Polydorus ثم حفيده لبدكوس Labdacus ثم ابن حفيده لايوس Laius وهو الذى قتله ابنه أوديپوس (أوديب) Oedipus كما يعرف العالم كله وتزوج أمه . ولما مات أوديب تنازع الملك أبناؤه كما يتنازع الأمراء على الدوام ، وطرد إتيوكليز Eteocles أخاه پولينيسز ، فذهب هذا إلى أدراستوس Adrastus ملك أرجوس وأقنعه بالعمل على تنصيبه ملكا . وحاول أدراستوس أن يقوم بهذه المهمة (حوالى ١٢١٣ ق . م .) وشن على أثينة حرب (الأحلاف) السبعة ، ثم عاد إلى حربها مرة أخرى بعد ستة عشر عاماً من ذلك الوقت فى حرب الإپجونى Epigoni أو الأبناء السبعة . وفى هذه الحرب قتل إتيوكليز وپولينيسز وحرقت طيبة عن آخرها .

(*) يرجع المؤرخون تاريخ هذا العصر إلى ما بين ١٤٠٠ ، ١٢٠٠ ق. م. وقد عثروا فيه على كتابة قليلة بحروف لم تحل رموزها بعد ولعلها متفرعة من أصل كريتى .

وكان بين أشراف طيبة رجل يسمى أمفتريون Amphitryon متزوج من امرأة فاتنة تدعى ألكمين Alcmene . وزارها زيوس وأمفتريون غائب فى حرب من الحروب واستولدها هرقليز (هرقل) Heracles أو هرقول Hercules(*) . ولم تكن هيرا Hera تحب أن ينزل الآلهة فى عبثهم إلى هذا الحد فأرسلت حيتين لإهلاك الوليد فى مهده ؛ ولكن الطفل أمسك كل واحدة منهما بإحدى يديه وخنقهما جميعاً ، ومن أجل ذلك سمى هرقليز لأنه ورث المجد عن هيرا . وحاول لينوس Linus ، أقدم الأسماء فى تاريخ الموسيقى ، أن يعلم الطفل العزف والغناء ، ولكن هرقليز لم يعبأ بالموسيقى ، وقتل لينوس بقيثارته . ولما شب الطفل ، وأصبح جباراً ، شقياً ، سمجاً ، سكيراً ، نهماً ، تعهد أن يقتل أسداً كان يفتك بقطعان أمفتريون وثسبيوس . وقدم ثسبيوس ملك ثسبيا Théspiae بيته وبناته الخمسين إلى هرقليز . وقام البطل بما تعهد به على أحسن وجه[10] ، فقتل الأسد واتخذ جلده لباساً له ، وتزوج بجارة Megara ابنـــة كريون Creon الطيبى وحاول أن يحيا حياة مستقرة هادئة ، ولكن هيرا سلطت عليه نوبة من الجنون ، فقتل أبناءه على غير علم منه . وجاء إلى مهبط الوحى فى دلفى يستنصحه ، فأشير عليه بأن يذهب إلى تيرينز ويعيش فيها ويخدم يورثيوس ملك أرجوس مدى اثنى عشر عاماً يصبح بعدها إلهاً مخلداً . فصدع بالأمر وقام ليورثسيوس بالاثنى عشر عملا(**) الذائعة الصيت . ولما أطلقه الملك عاد إلى طيبة ، حيث قام

(*) ويقول ديودور إن « زيوس ضاعف طول تلك الليلة ثلاثة أضعاف طولها الأصلى ؛ وإنه تنبأ للطفل بقوته غير العادية بسبب طول الوقت الذى قضياه فى إنجابه »[9]

(**) وخنق الأسد الذى كان يفترس قطعان نيميا Nemea ، وقتل الأفعى هيدرا الكثيرة الرؤوس التى أهلكت لرنا Lerna ، وقبض على ظبى سريع العدو وجاء به إلى يورسثيوس Eurystheus ، واقتنص خنزيراً برياً من جبل يورمنثوس Eurymanthus وجاء به إلى يورسثيوس ، وطهر فى يوم واحد اصطبلات أوجياس وكان فيها ثلاثة آلاف ثور وذلك بأن حول مجرى ألفيوس Alpheus وبنيوس Peneus إلى مزاود الثيران ، وانتظر فى إليس حتى أقام الألعاب الأولمبية ، ثم أهلك الطيور الأستمفالية Stymphalian الفتاكة التى كانت فى أركاديا ، وقبض على الثور الهائج الذى كان يعيث فى كريت فساداً ، —

بأعمال كثيرة شاقة ، وانضم إلى ركاب السفينة أرجوس ، ونهب طروادة فيمن نهبوها ، وأعان الآلهة على أن تنتصر على المردة الجبابرة ، وفك قيود بروميثيوس Prometheus ، وأعاد الحياة إلى ألستيس Alcestis ، وقتل أصدقاءه فى أوقات مختلفة بطريق الصدفة . واتخذه الناس بعد موته بطلا وإلهاً وعبدوه . وإذ كان قد أحب فتيات يخطئهن الحصر فقد ادعت كثير من القبائل أنها من نسله(*) .

واستقر أبناؤه فى تراكيس Trackis فى تساليا ، ولكن يوريسثيوس خشى أن يخلعوه عن عرشه انتقاماً منه لما عاناه أبوهم على يديه من نصب لا ضرورة له ، فأمر ملك تراكيس أن يخرجهم من بلاد اليونان . ولجأ أبناء هرقل إلى أثينة ، وسير يوريسثيوس إليهم جيشاً ليقاتلهم ولكنهم هزموا الجيش وقتلوه . ولما جاءهم أتريوس على رأس قوة أخرى ، عرض هيلوس Hyllus أحد أبناء هرقل أن يبارز أحد رجال أتريوس مشترطاً أنه إذا غلب خصمه استولى الهرقليون على مملكة ميسينى ، وإذا هزم خرج الهرقليون فلا يعودون قبل

= وحمله فوق ظهره إلى يورسثيوس ، وقبض على خيل ديوميديس Diomedes آكلة الآدميين وروضها ، وقتــل الأمزونيات عن آخرهن ؛ وأنشأ عند مدخل البحر المتوسط نتوءين بارزين متقابلين هما « عمودا هرقول » . وقبض على ثورى جريون Geryon واخترق بلاد غالة وجبال الألب ، وإيطاليا ثم عبر بهما البحر إلى يورسثيوس ، ووجد تفاحتى هسپريدس ، ثم أمسك بالأرض زمنا ما بدل أطلس ؛ ثم نزل إلى هيديس (الجحيم) ، وأنجى من العذاب فيها ثسيوس وأسكلفوس Ascalophus . وكانت هيرا قد عهدت إلى بنات أطلس بالتفاحات الذهبية التى أهدتها إياها جائيا Gaea (الأرض) حين تزوجت زيوس . وكان تنين جبار يحرس التفاحتين ، اللتين تهبان من يأكلهما صفات شبيهة بصفات الآلهة .

(*) يظن ديودور أن هذا « البطل الثقافى » العجيب كان مهندساً بدائياً فى عصر ما قبل التاريخ شبيهاً بأمپدقليز . ويفهم من الخرافات التى تروى عنه أنه طهر العيون المائية ، وشق الطرق فى الجبال ، وحول مجارى الأنهار وأصلح الأراضى البور ، وطهر الغابات من الوحوش المفترسة ، وجعل أرض اليونان صالحة للسكنى(١١) وقد تفسر قصة هرقل على أنه كان ابن الله المحبوب الذى يرضى بالعذاب حباً فى الخلق ، ويحيى الموتى وينزل إلى الجحيم ثم يصعد إلى السماء .

مضى خمسين عاماً يمتلك أبناؤهم بعدها ميسينى[١٢] . فلما هزم خرج هو وأتباعه من البلاد ، وبعد خمسين عاماً عاد إليها جيل جديد من الهرقليين . وكانوا هم ، لا الدوريون ، الذين رفضت مطالبهم ، ففتحوا البلوپونيز ، كما تقول الرواية اليونانية ، وانتهى بهذا الفتح عصر الأبطال .

وإذا كانت قصة پلپس وأبنائه توحى بأن آسية الصغرى هى أصل الآخيين فإنا نستطيع أن نتتبع ما آل إليه أمرهم فى قصة ركاب السفينة أرجوس ، وهذه القصة ككثير غيرها من الخرافات التى تجمع بين الرواية التاريخية والقصص الشعبية عند اليونان تعد من أحسن القصص القديمة لأن فيها جميع عناصر المغامرة ، والارتياد ، والحرب ، والحب ، والغموض ، والموت ، اندمجت كلها بعضها ببعض وتكون منها نسيج غنى خصب صاغ منه أپولونيوس الرودسى فى أيام الحضارة المتأغرقة ملحمة جديدة متوسطة القيمة بعد أن كاد الكتاب المسرحيون الأثينيون يبلونه بما صاغوه منه من مسرحيات . وتبدأ هـذه الملحمة بقصة أوركمنوس البيؤوتى Boeotian وبالتضحية الآدمية كما تبدأ مأساة أجممنون . ذلك أن الملك أثاماس Athamas لما وجد أن بلاده قد حل بها القحط ، عرض أن يقرب ابنه فركسوس Phrixus قرباناً للآلهة . وبلغ الخبر مسامع فوكسوس ففر من أركمنوس بصحبة أخته هـلِى Hel'e بأن طار معها فى الجو على ظهر كبش ذى جزة من الذهب . ولكن الكبش لم يكن ثابتاً فى طيرانه فسقطت هلى من فوق ظهره وغرقت فى المضيق الذى سمى فيما بعد الهلسپنت . أما فركسوس فوصل سالماً إلى البر واتخذ طريقه إلى كلكيز Colchis عند الطرف الشرقى من البحر الأسود ، وهناك ضحى بالكبش وعلق جزته قرباناً لآريس Ares إله الحرب . وأقام أيتيس Aietes ملك كلكيز تنيناً لا تغمض له عين ليحرس الجزة ، لأن نبوءة قد أوحت إليه أنه سيموت إذا استولى عليها رجل من غير أهل البلاد ؛ وأراد أن يزيد اطمئناناً على نفسه فأمر أن يقتل

كل من يأتى إلى كلكيز من الغرباء . وكانت ابنته ميديا Medea تحب الغرباء والأساليب الغريبة ؛ وتشفق على أبناء السبيل وتساعدهم على الخروج من بلاد أبيها سالمين ، فأمر أبوها بأن تمنع من الاتصال بالناس ، ولكنها فرت إلى مكان مقدس بجوار البحر وعاشت هناك مكتئبة حزينة دائمة التفكير فى أمرها حتى عثر عليها چيسن Jason فى أثناء تجواله على شاطئ البحر .

وقبل عشرين عاماً من ذلك الوقت (والمؤرخون اليونان يقولون إن ذلك كان حوالى ١٢٤٥) اغتصب پلياس Pelias بن پوسيدن Poseidon عرش إيسن Aeson ملك يولكوس Iolcus من أعمال تساليا . وأخفى أصدقاء الملك المخلوع ابنه الطفل چيسن ، وشب هذا الطفل فى الغابات حتى أصبح شابا قوياً شجاعاً . وظهر يوما من الأيام فى السوق يرتدى جلد فهد ويحمل من السلاح رمحين ، وطالب بملك أبيه . ولكنه كان يبلغ من السذاجة مبلغه من القوة . وأقنعه پلياس أن يقوم بعمل شاق يكون ثمنا لعرشه — وكان هذا العمل الشاق هو استعادة الجزة الذهبية . فصنع چيسن السفينة العظيمة أرجو (أى السريعة) ودعا إلى صحبته فى مغامرته أشجع شجعان اليونان ، فلبى الدعوة هرقل ومعه هيلاس Hylas رفيقه المحبوب ؛ وجاء معهما پليوس Peleus والد أخيل ، وثسيوس ، ومليجر Meleager ، وأرفيوس Orpheus والعذراء أتلنتا السريعة العدو . ولما دخلت السفينة الهلسپنت اضطرت إلى الوقوف ، ولعلها قد وقفت فى وجهها قوة من طروادة لأن هرقل ترك الحملة لينهب المدينة ويقتل ملكها لؤمدون Laamedon وأبناءه كلهم عدا پريام .

ولما وصل ركاب السفينة أرجو إلى مقصدهم بعد أن لاقوا ألوانا من العذاب حذرتهم ميديا من الموت الذى ينتظر كل من جاء كلكيز من الغرباء ؛ ولكن چيسن أصر على عزمه ورضيت ميديا أن تساعده فى الحصول على الجزة إذا وعدها بأن يأخذها معه إلى تساليا ويحتفظ بها زوجة له حتى مماته .

وعاهدها على ذلك واستولى بمعونتها على الجزة ، وفر بها إلى سفينته ومعه ميديا ورجاله . وجرح الكثيرون منهم ولكن ميديا عالجتهم بالأعشاب والجذور . ولما وصل چيسن إلى پولكوس طالب بمملكته مرة أخرى ، وتلكأ پلياس فى إجابة طلبه ، فما كان من ميديا إلا أن استعانت بفنون السحر فخدعت بنات پلياس وحملتهن على أن يغلين أباهن حتى يموت . وارتاع الناس من قواها السحرية فأخرجوها هى وچيسن من پولكوس وحرموه من العرش إلى أبد الدهر(١٣) . ونترك بقية القصة إلى يورپديز .

إن الأسطورة فى الكثير الغالب قطعة من الحكم الشعبية يخلق منها الشعر أشخاصاً . وكثيراً ما تكون الأسطورة قطعة من التاريخ تضخمت بفضل ما اتصل بها من قصص جديدة على مرّ السنين . وأكبر الظن أن اليونان قد حاولوا فى الجيل السابق على حصار طروادة التاريخى أن يشقوا طريقهم فى الهلسپنت ويفتحوا بلاد البحر الأسود للاستعمار والتجارة ؛ وقد تكون قصة رجال السفينة أرجو ذكريات قديمة لهذا الارتياد التجارى صيغت فى قالب المسرحيات ؛ وقد تكون قصة « الجزة الذهبية » إشارة إلى الجلود الصوفية أو الأقمشة التى كانت تستخدم قديماً فى شمالى آسية الصغرى للحصول على ما تحمله المجارى المائية من قطع ذهبية صغيرة(١٤) .

ولقد استقر اليونان فعلا حوالى ذلك الوقت فى جزيرة لمنوس **Lemnos** التى لا تبعد كثيراً عن الهلسپنت . لكن البحر الأسود لم يكن من البحار الصالحة للتجارة والاستعمار رغم اسمه المغرى ، وقامت طروادة الحصينة مرة أخرى بعد أن انتهبها هرقل تعترض سبيل من يخاطرون باجتياز المضيق ؛ ولكن اليونان لم ينسوا ما فعلوه من قبل وعادوا من جديد يحاولون اجتيازه بمائة سفينة بدل سفينة واحدة ، وأهلك الآخيون أنفسهم فى سهل إليون ليحرروا الهلسپنت .

الفصل الثالث

الحضارة الهومرية

ترى كيف نستطيع أن نعيد تصوير حياة بلاد اليونان الآخية (١٣٠٠ — ١١٠٠ ق . م) بالاستناد إلى أقاصيصها ؟ أن أكثر ما نعتمد عليـــه من المصادر فى رسم هذه الصورة هو أشعار هومر ، وهو إنسان قد لا يكون له وجود ، وقد قيلت ملاحمه بعد عصر الآخيين بثلاثة قرون على أقل تقدير . نعم إن علم الآثار قد أدهش الأثريين بأن أثبت أن طروادة ، وميسينى ، وتيرينز ، وكنوسس وغيرها من المدائن التى وصفتها الإلياذة كلها مدن حقيقية ، كما أدهشهم بالكشف عن حضارة ميسينية تشبه شبهاً عجيباً تلك الحضارة التى تتشكل من تلقاء نفسها بين أشعار هومر ؛ ومن أجل هذا ينزع العلماء فى هذه الأيام إلى أن يعدوا بعض الأشخاص المهمين الذين ورد ذكرهم فى هذه القصص الخلابة أشخاصاً حقيقيين . لكننا مع هذا لا نستطيع أن نقول إلى أى حد تعكس قصائد هومر حال العصر الذى كان يعيش فيه الشاعر لا العصر الذى يكتب عنه . إذن فكل الذى فى وسعنا أن نسأل عنه هو : ما هى الصورة التى كانت تتخيلها الرواية اليونانية كما جمعها هومر فى أشعاره عن العصر الهومرى ؟ ومهما تكن هذه الصورة فإنا سنحصل منها على صورة من بلاد اليونان فى طور الانتقال الظريف من الثقافة الإيجية إلى حضارة اليونان فى العصور التاريخية .

١ — العمال

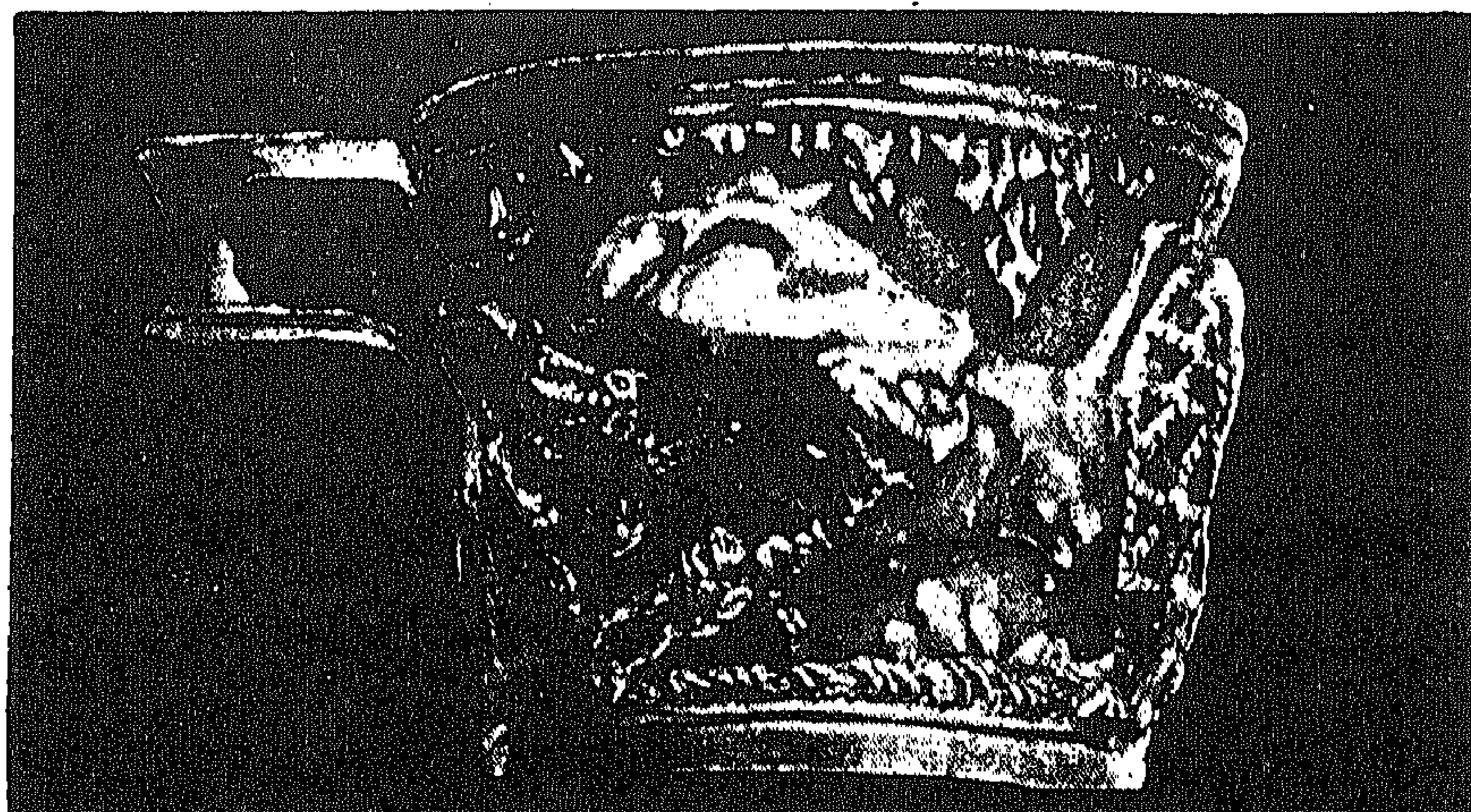
إن الصورة التى تنطبع فى أذهاننا عن الآخيين (أى عن اليونان فى عصر الأبطال) هى أنهم كانوا أقل حضـــارة من الميسينيين الذين سبقوهم ،

وأرق حضارة من الدوريين الذين خلفوهم ، وأهم ما نلاحظ فيهم أنهم كانوا أحسن أجساماً من هؤلاء وأولئك ، فرجالهم طوال القامة أقوياء البنية ، ونساؤهم ذوات جمال بارع فتان يسلب العقول بكل ما فى هذا التعبير من معان . والآخيون ينظرون ، كما ينظر الرومان الذين عاشوا من بعدهم بألف عام ، إلى الثقافة الأدبية على أنها تدهور وتخنث . وهم لا يستخدمون الكتابة إلا مضطرين ، ولا يعرفون من الأدب إلا الأغانى الحربية وأناشيد الشعراء الجوالين غير المكتوبة . وإذا جاز لنا أن نصدق هومر حق علينا أن نقول إن زيوس قد حقق فى المجتمع الآخى آمال الشاعر الأمريكى الذى كتب يقول إنه لو كان إلهاً لجعل الرجال كلهم أقوياء ، والنساء كلهن حساناً ، ثم جعل نفسه بعد ذلك رجلا . لقد كانت بلاد اليونان الهومرية جنة من الحور العين[١٥] . وحتى رجالها كانوا على جانب كبير من الجمال ، كان لهم شعر مرسل طويل ، ولحى كبيرة ؛ وكانت أعظم هدية يستطيع الرجل أن يهديها أن يقص شعر رأسه ويقربه قرباناً أمام كومة الحطب التى تحرق عليها جثة صديقه[١٦] ؛ ولم يكن العرى قد أصبح بعد عادة فى البلاد فكان النساء والرجال يغطون أجسامهم برداء مربع يطوونه فوق الكتفين ، ويشبكونه بدبوس ، ويصل إلى قرب الركبتين . وتضيف النساء إلى هذا نقاباً أوحزاماً ويضيف الرجال غطاء للحقوين — قدر له أن يتطور على مر الزمن وازدياد الاحتشام والكرامة حتى أصبح هو اللباس ثم السروال (البنطلون) . وكان الأغنياء يرتدون أثواباً غالية الثمن كالثوب الذى تقدم به بريام فى ذلة إلى أخيل ليفتدى به ولده[١٧] . وكان الرجال حفاة الأقدام والنساء عاريات الأذرع ، إلا فى خارج الدور فكانوا يحتذون جميعاً صنادل ، أما فى داخلها فكانوا فى العادة حفاة . وكانوا رجالا ونساء يتحلون بالجواهر ، وقد ادهنت النساء وادهن باريس » بالزيت الذى له رائحة الورد[١٨] « .

ترى كيف كان يعيش أولئك الرجال والنساء ؟ يصفهم هومر بأنهم

كانوا يحرثون الأرض ، ويشمون وهم فرحون الأرض السوداء بعد تقليبها ، ويتتبعون بأعينهم فى فخر وخيلاء الخطوط المستقيمة التى خطتها المحاريث ؛ ويبذرون القمح ويروون الأرض ، ويقيمون الجسور ليتقوا بها فيضان الأنهار فى الشتاء[١٩] . ويشعرنا هومر بيأس الفلاح الذى قضى الشهور الطوال فى كدح مستمر ثم يأتى « التيار الجارف السريع فيهدم الحواجز والجسور ، ولا تستطيع سلسلة الأكوام الطويلة أن تكبح جماحه ، أو أسوار البساتين المثمرة حين يفاجئها أن تقف فى سبيله[٢٠] وليست أرض البلاد مما يسهل فلحها لأن الكثير منها جبال أو مناقع ، أو تلال كثيفة الأشجار ؛ وكانت الحيوانات البرية تهاجم القرى ، فكان الصيد ضرورة قبل أن يصبح رياضة وهواية . وكان الأغنياء يعنون بتربية قطعان كبيرة من الماشية ، والضأن ، والخنازير ، والمعز ، والخيل ، ويروى أن رجلا منهم يسمى إركثونيوس Erichthonius كان له ثلاثة آلاف فرس ولود مع أمهارها[٢١] . وكان الفقراء يأكلون لحم السمك ، والبقول ، والخضر أحياناً ، أما المحاربون والأغنياء فكان جل اعتمادهم على اللحم المشوى الكثير ، وكان فطورهم اللحم والنبيذ . وقد تغذى أديسيوس مع راعى خنازيره بخنزير صغير مشوى ، وتعشيا بثلث خنزير عمره خمس سنوات » . وكانوا يستعملون عسل النحل بدل السكر ، ودهن الحيوان بدل الزبد ، والكعك المصنوع من الحب بدل الخبز ، فكانوا يجعلونه رقائق ثم يخبزونه على لوح من الحديد أو على حجر محمى ، ولم يكن الآكلون يضطجعون فى أثناء تناول الطعام كما كان الأثينيون يفعلون فيما بعد ، بل كانوا يجلسون على كراسى ممتدة على طول الجدار لا مصفوفة حول مائدة وسطى. ولم يكونوا يستعملون الشوك أو الملاعق أو الفوط إلا ما عسى أن يكون مع الضيوف من مدى ؛ وكانوا يأكلون بأيديهم وأصابعهم[٢٢] ، وكان شرابهم الرئيسى حتى الفقراء والأطفال هو النبيذ المخفف .

وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد : وكان الأب هو الذى



(شكل ٥) كأس من ڤافيو
(متحف أثينة)



(شكل ٦) قناع « أجممنون »
(متحف أثينة)

يشرف عليها ويصرف شئونها ، ولكنه لم يكن من حقه أن يبيعها(٢٤) ، وتقول الإلياذة إن مساحات واسعة كانت من أملاك الملك المشاعة (اللومين) ؛ وكانت فى واقع الأمر ملكاً للمجتمع يستطيع أى إنسان أن يرعى فيها ماشيته ؛ ونرى فى الأودية أن هذه الأرض المشاعة قد قسمت وبيعت — أو أصبحت ملكا للأفراد الأثرياء أو الأقوياء ؛ وهكذا اختفت الأرض المشاعة فى بلاد اليونان القديمة بنفس الطريقة التى اختفت بها فى إنجلترا الحديثة(٢٥) .

وكان فى مقدور الأرض أن تخرج المعادن كما تخرج الطعام ، ولكن الآخيين أهملوا استخراج المعادن واكتفوا باستيراد النحاس ، والقصدير ، والفضة والذهب ، ومادة أخرى جديدة عجيبة من أسباب الترف ، وهى الحديد . فنرى كتلة غير مشكلة من الحديد تقدم هدية ثمينة فى الألعاب التى أقيمت تكريماً لپتروكلوس Patroclus(٢٦) ، ويقول عنها أخيل إنه سوف يُصنع منها كثير من الأدوات الزراعية . وهو لا يذكر فى هذا المقام شيئاً عن الأسلحة ، وكانت لا تزال تصنع من البرنز(٢٧) ، وتصف الأوديسة سقى الحديد(*) ، ولكن هذه الملحمة قد وصلت إلينا فى أكبر الظن من عصر متأخر من عصر الإلياذة .

وكان الحداد أمام كوره والفخرانى أمام عجلته يعملان فى حانوتيهما ، وكان غيرهم من الصناع الذين ورد ذكرهم فى أشعار هومر — كصناع السروج ، والبنائين ، والنجارين ، وصناع الأثاث — كان هؤلاء يعملون فى منازل من يكلفونهم بعمل لهم ؛ ولم يكونوا يعملون للأسواق ؛ أو للبيع أو للكسب ؛ وكانوا يداومون العمل ساعات طوالا ، لكنهم كانوا يعملون على مهل وليس وراءهم دافع من المنافسة الظاهرة(٢٩) . وكانت الأسرة نفسها تقوم بصنع أكثر حاجياتها ، فكان كل فرد يعمل بيديه ، وكان

(*) « وحين يسق الحداد بلطة عظيمة أو مقشراً فى الماء البارد ، كان يخرج منها أو منه ، حسيس هو الذى يكسب الحديد صلابته(٢٨) »

رب الأسرة ، بل كان الملك المحلى نفسه مثل أديسيوس ، يصنع ما يحتاجه بيته من سرر وكراسى ، وما يلزمه هو من أحذية وسروج ، وكان — على عكس اليونان المتأخرين — يفخر بمهارته فى الأشغال اليدوية . ولقد كانت بنلبى ، وهلين ، وأندروماك وخادماتهن لا ينقطعن عن الاشتغال بالغزل والنسج والتطريز ، والأعمال المنزلية . وتبدو هلين وهى تعرض تطريزها على تلك[٣٠] ، أجمل منها وهى تتبختر فوق أسوار طروادة .

وكان الصناع من الأحرار ، ولم يكونوا قط من الرقيق كما كانوا عند اليونان الأقدمين ؛ وكان من المستطاع عند الحاجة تجنيد الفلاحين للعمل فى خدمة الملك ، ولكننا لا نسمع قط بالأقنان اللاصقين بالأرض المرتبطين بها ؛ ولم يكن الأرقاء كثيرين ، ولم تكن منزلتهم منحطة ، وكان معظم الرقيق من الجوارى خادمات المنازل ، وكانت منزلتهن فى الواقع لا تقل عن منزلة خادمات المنازل فى هذه الأيام إذا استثنينا أنهن كن يُشترين أو يبعن لآجال طوال لا للقيام بأعمال قصيرة غير ثابتة كحالهن فى هذه الأيام . وكن فى بعض الأحيان يعاملن بقسوة ووحشية ؛ لكنهن فى العادة كن كأعضاء فى الأسرة التى يعملن لها ، يعنى بهن فى مرضهن أو عجزهن أو شيخوختهن ؛ وكن يرتبطن فى بعض الأحيان بعلاقات الود والمحبة مع رب الأسرة أو ربتها . فقد كانت نوسكا Nausica تساعد جواريها فى غسل الملابس فى النهر ، وتلعب الكرة معهن ، وتعاملهن فى جميع الأحوال معاملة الرفيقات[٣١] . وإذا ولدت الجارية ولداً من سيدها كان هذا الولد فى العادة من الأحرار[٣٢] ، غير أنه كان ككل إنسان معرضاً لأن يكون رقيقاً إذا وقع أسيراً فى الحرب أو فى غارة القراصنة . وكان هذا أسوأ ما فى الحياة الآخية .

والمجتمع الهومرى مجتمع ريفى ، وحتى « مدنه » لا تعدو أن تكون قرى تشرف عليها قلاع قائمة فوق التلال المجاورة لها . وكانت الرسائل تنقل على أيدى السعاة أو الرسل ، وإذا كانت المسافة طويلة نقلت الرسالة بإشارات

النار تبعث من إحدى قلل الجبال إلى قلة أخرى[٢٣] : وكان النقل البرى تعوقه الجبال الخالية من الطرق ، كما تعوقه المستنقعات ، والمجارى الخالية من القناطر . وكان النجارون يصنعون عربات ذات أربع عجلات لها تروس وأطر من الخشب ، ولكن معظم البضائع كانت رغم وجود هذه العربات تنقل على ظهور البغال أو الرجال ؛ وكانت التجارة البحرية أقل مشقة من التجارة البرية رغم القراصنة والعواصف ؛ فقد كانت الموانئ الطبيعية كثيرة ، ولم تكن السفن تنقطع عن رؤية الأرض إلا فى أثناء الرحلة الخطرة التى تدوم أربعة أيام من كريت إلى مصر . وكانت السفن عادة ترسو إلى البر فى الليل وينام البحارة والمسافرون فى مكان أمين على الأرض . وكان الفينيقيون فى العصر الذى نتحدث عنه لا يزالون أفضل من اليونان فى التجارة والملاحة ، وكان اليونان يثأرون لأنفسهم من هذا النقص باحتقار التجارة وإيثار القرصنة .

ولم يكن عند اليونان الهومريين نقود ، فكانوا يستخدمون بدل النقود المضروبة سبائك من الحديد ، والبرنز ، والذهب ؛ وكان الثور والبقرة يتخذان واسطة للتبادل . وكانت السبيكة الذهبية التى تزن سبعة وخمسين رطلا تسمى تالنت (من تالنتون أى وزنة[٢٤]) . وكانت المقايضة كثيرة رغم ما كان عندهم من وسائط متعددة للتبادل ، وكانت ثروة الشخص تقدر بما عنده من بضائع وخاصة بما عنده من ماشية لا بما يملك من قطع من المعدن أو الورق قد تفقد قيمتها أو يعتريها التغيير والتبديل فى أى وقت من الأوقات إذا ما بدل الناس عقائدهم الاقتصادية . وفى أشعار هومر كما فى الحياة الواقعية أغنياء وفقراء ؛ ذلك بأن المجتمع أشبه ما يكون بعربة تجعجع(*) فى طريق لا مستو ولا معبد ، ومهما أتقن صنع العربة وتركيبها فإن بعض ما تحمله من متاع سوف يرسب فى قاعها ويطفو بعضه الآخر

(*) الجعجعة صوت الرحى وهو أقرب الأصوات إلى صوت العربات على الطريق الغير المعبد . (المترجم)

إلى أعلى سطحها . ولم يصنع الفخرانى آنيته كلها من طينة واخدة كما لم يصنعها كلها بنفس القوة والهشاشة ؛ ومن أجل هذا لا يكاد يستهل عصر الكتاب الثانى من كتب الإلياذة حتى نستمع إلى حرب الطبقات ، وحين يستشيط ثرسيتس Thersites غضباً ويطلق لسانه فى أجممنون ندرك من فورنا أن هذا عرض قديم من أعراض ذلك الداء المزمن الوبيل(٣٥) .

إنا ليخيل إلينا ونحن نقرأ أشعار هومر أننا نعيش فى مجتمع أكثر بدائية وأقل خضوعاً للقوانين من المجتمع الذى شهدناه فى كنوسس أو ميسينى . فلقد رجعت الثقافة الآخية خطوة إلى الوراء ، وكانت مرحلة انتقال بين الحضارة الإيجية الزاهرة والعصر المظلم الذى سوف يعقب الفتح الدورى . فالحياة الهومرية فقيرة فى الفنون ، غنية فى النشاط والعمل ؛ وهى ثقافة ينقصها التفكير والتأمل ، خفية سطحية ، سريعة . وهى أصغر سناً وأصلب عوداً من أن تهتم بالأخلاق أو الفلسفة . أو لعلنا نخطئ فى حكمنا عليها لأننا نراها فى الأزمنة الحادة أو الفوضى التى أعقبت الحرب .

ولسنا ننكر أننا نشهد فى هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحيمة ، وإنك لترى المحاربين أنفسهم كراماً ، يعطف بعضهم على بعض ، كما ترى بين الأب والابن حبا به من العمق قدر ما به من السكون والصمت . فها هو ذا أديسوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكتافهم حينما يعرفونه بعد غيابه الطويل ، وها هم أولاء يقبلونه كما يقبلهم(٣٦) . وحين يعلم منلوس وتعلم هلن أن تلمكس الطفل النبيل ابن أديسيوس المفقود الذى حارب من أجلهم حرب الأبطال يبكيان ويتحسران(٣٧) . وحتى أجممنون نفسه لا يستعصى عليه البكاء فيذرف من الدموع ما يذكر هومر بمجرى ماء يتدفق فوق الصخور(٣٨) والصداقة بين الأبطال قوية متينة ، وإن كنا نظن أنه قد يكون فى العلاقة أو قل العلاقة الغرامية التى بين أخيل وپتركلوس وخاصة پتركلوس الميت

شيء من الصلات الجنسية الشاذة . وهم شديدو السخاء على الأضياف لأن « الغرباء والمتسولين أبناء زيوس[٣٩] » والعذارى يغسلن قدمي الضيف أو جسمه ويدهنه بالأدهان ، وربما قدمن له ثياباً غير ثيابه ؛ وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان فى حاجة إليهما ، وقد يتلقى الهدايا أيضاً[٤٠] . ومن أقوال هلن ذات الخد الأسيل ، وهى يضع بين يدى تلمكس ثوباً غالى الثمن : « هأنذا أقدم لك أيها الطفل العزيز هذه الهدية لتذكر بها يدى هلن فى يوم زواجك المرتقب من زمن بعيد ولتلبسها زوجتك[٤١] » ؛ تلك صورة تكشف لنا عن الحنو الإنسانى والشعور الرقيق اللذين يختفيان حتما فى الإبادة بين نقع الحرب وقعقعة السلاح .

والحرب نفسها لا تحول بين اليونان وبين حبهم القوى للألعاب . فالصغار والكبار على السواء يتبارون مباريات على جانب عظيم من الخطورة والمهارة ، تسودها العدالة والفكاهة . ويلعب خطاب بنلبي الداما ويتقاذفون الأقراص والحراب ، ويلعب ضيوف أديسيوس الفاكهون لعبة القرص وألعاباً غريبة هى مزيج من ألعاب الكرة والرقص(*) . ولما أحرقت جثة بتركلوس بعد وفاته أقيمت بهذه المناسبة حسب العادات الآخية ألعاب كانت هى المثل الذى احتذى فى الألعاب الأولمبية ، وكانت تشمل العدو ، وقذف القرص والحربة ، والرمى بالسهام ، والمصارعة ، وسباق المركبات ، والمبارزة بالسلاح ؛ وكانت كلها تسودها الروح الرياضية الطيبة ، إذا استثنينا أنها كانت محرمة إلا على الطبقات الحاكمة ، وأن الآلهة وحدها هى التى كان يسمح لها بالغش والخداع[٤٢] .

(*) ثم أمر ألسنوس **Alcinous** هلياس **Halias** ولاودماس **Laodmas** أن يرقصا منفردين لأن أحداً من قبل لم يجرؤ على أن يراقصهما . وأخذ كل منهما فى يده الكرة الجميلة ، المصبوغة باللون الأرجوانى ... وأخذا يلعبان . فكان أولهما يثنى جسمه كله إلى الوراء ، ثم يقذف الكرة نحو الجماهير التى لا يراها ، فيقفز الآخر فى الهواء ويلتقطها بخفة ورشاقة قبل أن تلمس قدماه الأرض . وبعد أن يمارسا لعبة قذف الكرة إلى أعلى ، يشرعان فى قذفها فيما بينهما ، وهما فى أثناء ذلك كله يرقصان فوق الأرض المثمرة

أما الجانب الآخر من الصورة فكان أقل من هذا مدعاة للسرور.
فنحن نرى أخيل يقدم « امرأة تحذق الأشغال اليدوية الجميلة » جائزة للفائز في سباق العربات . ونرى الخيل ، والكلاب ، والثيران ، والضأن ، والآدميين يضحى بها على كومة إحراق بتركلوس حتى يكون له بعد موته ما يبتغيه من حسن الخدمة ومن الطعام(٤٤) ؛ ويحسن أخيل معاملة بريام ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يجر جسم هكتور المشوه جراً مهيناً حول كومة الحريق . وكانت الحياة في نظر الرجل الآخي قليلة القيمة ، لا يعد سلبها من الأمور الخطيرة ، وكانت لحظة من السرور كفيلة بردها إلى من قضى عليه بفقدها . وإذا ما غلبت مدينة على أمرها قتل رجالها أو بيعوا بيع الرقيق ، واتخذت النساء خليلات إن كن حساناً ، أو رقيقات إن لم تكن كذلك . وكانت القرصنة لا تزال من المهن المحترمة ، وكان الملوك أنفسهم ينظمون حملات مغيرة ، تنهب المدن والقرى وتتخذ أهلها عبيداً ، ويقول توكيديدس في هذا : « والحق أن هذا العمل أصبح أهم مورد من موارد الرزق لليونان الأولين ، ولم تكن هذه المهنة حتى ذلك الوقت مما يجلل صاحبها العار(٤٥) » ، بل كانت تكسبه المجد . وكان في مقدور الأمم العظيمة أن تهاجم الشعوب الضعيفة المحرومة من وسائل الدفاع وتخضعها لسلطانها دون أن يعد ذلك منها مخالفاً للعدل أو الكرامة ، شأنها في هذا شأن الأمم القوية في هذه الأيام . وحين يسأل أديسيوس هل هو تاجر يهتم بالمكاسب التي يسد بها مطامعه(٤٦) يرى في هذا القول إهانة له ؛ ولكنه يتحدث في زهو وخيلاء عما فعله وهو عائد من طروادة إذ قل ما كان لديه من المؤن فنهب مدينة إسمروس Ismarus وملأ منها سفينة بالطعام ؛ وكيف صعد في نهر إجبتس Aegyptus (يقصد نيل مصر) لينهب الحقول النضرة ويسوق أمامه النساء والأطفال الصغار ، ويقتل الرجال(٤٧) » . وملاك القول أنه

لم تكن ثمة مدينة من المدن آمنة من هجوم القراصنة المفاجئ عليها دون أن تعمل من جانبها ما يستفزهم أو يبرر هجومهم .

ويتصف الآخيون فضلاً عن حبهم للنهب والقتل دون أن يخشوا فى ذلك تأنيب الضمير ، يتصفون فضلا عن هذا بالكذب والخداع دون حياء ؛ فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول دون أن يكذب فيه ، أو يعمل عملا دون يشوبه الغدر . من ذلك أنه لما قبض على دولون Dolon الجاسوس الطروادى وعده هو وديوميد Diomed أن يبقيا على حياته إذا أدلى إليهما بما يطلبانه من المعلومات ، فلما فعل قتلاه[٣٨] . ولسنا ننكر أن غير أديسيوس من الآخيين لا يضارعونه فى الغدر والخيانة ، ولكنهم لا يمتنعون عن ذلك لأنهم لا يريدون أن يغدروا أو يخونوا ، بل هم يحسدون أديسيوس ويعجبون به ، ويرونه أنموذجاً للخلق الطيب ؛ والشاعر الذى يصوره يعده بطلا من كل الوجوه ، وحتى الإلهة أثينا نفسها تثنى عليه لكذبه ، وتضيف هذه الصفة إلى محاسنه الخاصة التى تحببه إليها ، وتقول له وهى تبتسم وتربت عليه بيدها : « إن الذى يفوقك فى حيلك المختلفة الأنواع لا بد أن يكون ماكراً خبيثاً ، ولو كان الذى يلقاك إلهاً من الآلهة . إنك رجل ماكر فيما تسبديه من نصح ، لا يقف خداعك وغدرك عند حد ؛ ويلوح أنك لا تمتنع فى بلدك نفسه عن الاحتيال وعن القصص الكاذبة الخادعة التى تحبها من أعماق قلبك »[٤٩] .

والحق أننا نحن أنفسنا نشعر بميل نحو هذا البطل الذى يشبه فى التاريخ القديم البطل منشهوزن الخرافى Munchausen ، فنحن نتبين فيه وفى الشعب المجد المحتال الذى ينتمى إليه من الصفات ما يستثير الحب ؛ فهو أب لطيف رقيق القلب ، وهو فى بلده حاكم عادل « لم يسئ لأحد فى أرضه لا بالقول ولا بالفعل » . ويقول فيه راعى خنازيره : « إننى لن أجد بعد اليوم سيداً يضارعه فى شفقته مهما بعدت البلاد التى أذهب إليها ، حتى لو عدت إلى

بيت أبي وأمي ! »[٥٠] . ونحن نغبط أديسيوس على « شكله الشبيه بأشكال الآلهة المخلدين » وعلى جسمه الرياضي ، الذي يمكنه وهو في نحو الخمسين من عمره أن يقذف القرص أبعد مما يقذفه أي شاب من شبان الفيشيان Phaeacian ؛ ونعجب « بثبات جنانه » و « بحكمته الشبيهة بحكمة چوف »[٥١]. ولا ينقطع عطفنا عليه وهو يتمنى الموت بعد أن يئس من قدرته على أن يرى مرة أخرى « الدخان ينبعث من أرض وطنه » ، أو حين يقوى قلبه وسط ما يحيط به من أخطار وآلام بالألفاظ التي كان بقراط يحب أن يرددها : « اصبري الآن يا نفسي ، لقد قاسيت من قبل ماهو شر من هذا [٥٢] . وهو في جسمه وعقله رجل من حديد ، ولكن كل قطعة فيه مهما صغرت قطعة من إنسان ، ولهذا فإنا نعفو عنه ونتجاوز عن سيئاته .

والحق أن المعايير الخلقية عند الآخيين تختلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم . فالرجل الآخي يعيش في عالم مضطرب ، كدر جوعان ، على كل إنسان فيه أن يعنى بحراسة نفسه ، وأن يكون على الدوام ممسكاً بقوسه ورمحه ، قادراً على أن ينظر في هدوء إلى الدم المراق . وفي ذلك يقول أديسيوس : « إن المعدة الجائعة لا يستطيع أحد أن يخيفها ... ومن أجلها صنعت السفن المعوجة وأعدت لتحمل الويل إلى الأعداء فوق البحر المائج المضطرب »[٥٣]. وإذا كان الآخي لا يجد إلا القليل من الأمن والسلامة في بلاده . فإنه لا يرعى شيئاً منهما في خارجها ؛ ويرى أن من حقه أن يفترس كل ضعيف . وأسمى الفضائل في رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالشجاعة والقسوة ، ولفظ الفضيلة في لغته مشتق من لفظ الرجولة ومن صفة Ares أو المريخ(*) . وليس الرجل الصالح عنده هو الرجل اللطيف المتسامح ،

(*) Virtus = الرجولة ، Arete صفة أريس أو المريخ .

الأمين الرزين ، المجد الشريف ؛ بل هو الرجل الذى يحارب ببسالة وكفاية ، وليس الرجل الطالح هو الذى يدمن الشراب ، ويكذب ، ويقتل ويغدر ؛ بل هو الجبان الغبى أو الضعيف . لقد كان ثمة نيتشيون قبل نتشه ، وقبل ثرازمكس Thrasymachus بزمن طويل ، فى فجاجة العالم الأوربى وصلابته ؟

٣ – الرجال والنساء

كان المجتمع الآخى مجتمعاً أبوياً استبدادياً ، يمتزج به جمال المرأة وغضبها بحنان الأبوة وحبها القويين(*) . وكان الأب من الوجهة النظرية صاحب السلطان الأعلى ، وكان له أن يتخذ من السرارى ما يشاء(**) ، وأن يقدمهن لضيوفه ، وأن يضع أطفاله على قمم الجبال ليموتوا أو يذبحهم قرباناً للآلهة الغضاب . وهذه السلطة الأبوية المطلقة لا تستلزم حتماً أن يكون المجتمع الذى تسوده مجتمعاً وحشياً ، بل كل ما تعنيه أن هذا المجتمع لم يبلغ نظام الدولة فيه مبلغاً يكفى لحفظ النظام الاجتماعى ، وأن الأسرة فيه تحتاج فى خلق هذا النظام الاجتماعى إلى القوى التى آلت فيما بعد إلى الدولة حين أممت حق القتل ؛ وكلما تقدم التنظيم الاجتماعى وارتقى نقص سلطان الأب ، وتفككت وحدة الأسرة ، ونمت الحرية والفردية . ولقد كان الرجل الآخى فى الحياة العملية رجلا معقولا فى أغلب الأحوال ، يصغى فى صبر وأناة إلى فصاحة أهل منزله ويخلص إلى أبنائه .

وكان مركز المرأة فى نطاق هذا الإطار الأبوى أرقى فى بلاد اليونان

(*) لدينا آثار تدل على وجود مجتمع قبل ذلك العهد كانت السيادة فيه للأم . من ذلك ما تقوله الرواية الأثينية من أن « الأطفال » قبل سكربس Cecrops لم يكونوا يعرفون آباءهم ؛ ولنا أن نستنتج من هذا أن الأطفال كانوا ينتسبون إلى أمهم . بل إننا نرى فى الأيام الهومرية نفسها أن الآلهة التى كانت تعبدها المدن اليونانية بصفة خاصة كانت نساء : هيرا فى أرجوس ، وأثينا فى مدينة أثينة ، ومترو پرسفونى فى إليوسيس Elausis . ولسنا نرى هذه الإلهات تخضع لإله ذكر (٥٤)

(**) لقد كان لتسيوس زوجات بلغن من الكثرة درجة لم يحاول معها مؤرخ أن يترك لنا إحصاء لهن موثوقاً به(٥٥)

الهومرية منه فى أيام بركليز . فهى تضطلع بدور رئيسى فى القصص والملاحم من خطبة بلپس لهپوداميا Hippodameia إلى رقة إفچينيا وحقد إلكترا : فلا الحجاب ولا البيت بمانع لها من الخروج ، بل نراها تسير حرة بين الرجال والنساء على السواء ، وتشترك أحياناً فى مناقشات الرجال الجدية كاشتراك هلن مع منلوس وتلمكس . ولم يكن الزعماء الآخيون إذا أرادوا أن يستثيروا غضب الشعب على طروادة يلجئون إلى المبادئ السياسية أو العنصرية أو الدينية ، بل كانوا يستثيرونه بجمال النساء ؛ ومن أجل ذلك كان وجه هلن الجميل هو الحجة التى تذرعوا بها لإثارة حرب تهدف إلى امتلاك الأرض وإلى التجارة ؛ ولولا المرأة لكان بطل هومر جلفاً فظاً ليس له هدف يعيش من أجله ، فهى تعلمه شيئاً من الأدب والمثالية ودماثة الأخلاق .

وكان الشراء طريقة الزواج ، وكان الثمن عادة أثواراً أو ما يساويها يؤديه الخطيب إلى والد الفتاة . ويحدثنا الشاعر عن « العذراء حالبة الماشية[٥٦] » . ولم يكن الخطيب وحده هو الذى يؤدى ثمن العرس ، بل كان والدها يؤدى لها أحياناً بائنة قيمة . وكانت حفلة الزفاف عائلية واجتماعية معاً ، وكان من مظاهرها كثرة الطعام ، والرقص ، والمرح الذى تنطلق فيه الألسنة . وكانوا يسيرون بالعروسين فى وهج المشاعل من حجراتهما ويخترقون بها المدينة وسط أغانى العرس العالية . وكان الشبان يرقصون وهم يدورون ، وتعلو بينهم نغمات الناى والقيثارة[٥٧] » — ألا ما أشبه الليلة بالبارحة . ومتى تزوجت المرأة أصبحت من فورها ربة بيتها ونالت من التكريم بقدر ما تنجب من الأبناء وكان الحب بمعناه الحقيقى — أى بوصفه حناناً وشوقاً — يأتى إلى اليونان كما يأتى إلى الفرنسيين بعد الزواج لا قبله ، فلم يكن هو الشرارة التى تنطلق باتصال جسمين أو تقاربهما . بل كان ثمرة الاشتراك الطويل فى العناية بالبيت وشئونه . وفى الزوجة الهومرية من الوفاء بقدر ما فى زوجها

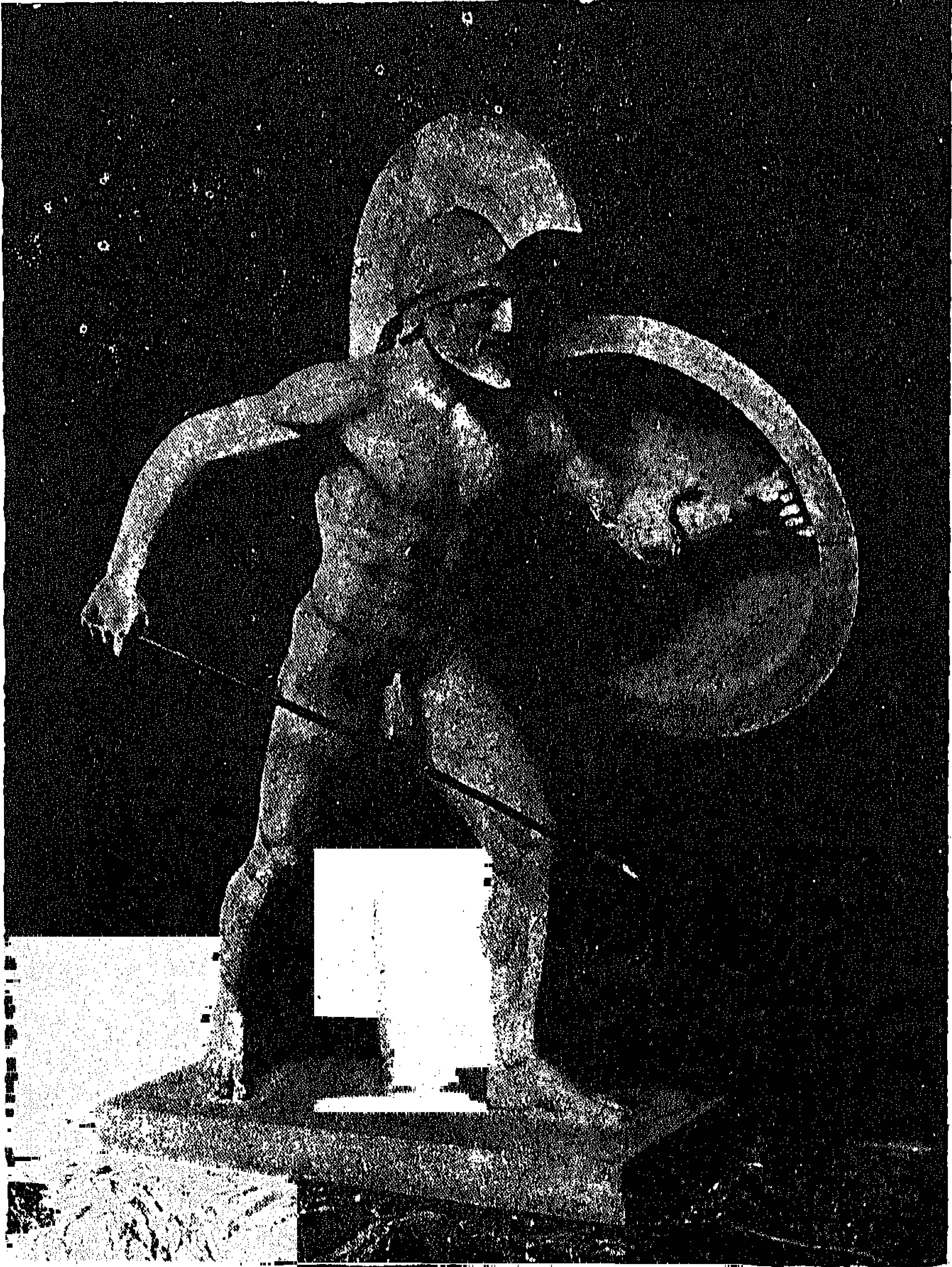
من عدمه ، وليس فى أشعار هومر إلا ثلاث زانيات — هن كليتمنسترا ، وهلن ، وأفروديتى ؛ ولكن الصورة التى يرسمها لهن لا تنطبق على المرأة العادية ، وإن انطبقت على الإلهات فى تلك الأيام :

وكانت الأسرة الهومرية التى أثرت فيها هذه العوامل (إذا صرفنا النظر عن مغالاة الأقاصيص التى لا وجود لها فى أشعار هومر) نظاماً سليماً يستريح له الإنسان ويسر منه ، أكثر نسائها مهذبات رقيقات وأكثر أطفالها مخلصون أوفياء . ولم يكن عمل الأمهات مقصوراً على إنجاب الأبناء ، بل كن يقمن فيها بكثير من الأعمال ، فكن يطحن الحب ، ويمشطن الصوف ، ويغزلن ، وينسجن ، ويطرزن . ولم يكن يخطن كثيراً لأن معظم الملابس لم تكن بحاجة إلى الخياطة ، كما كان الطبخ فى العادة من أعمال الرجال . وكن فضلا عن هذه الأعمال يلدن الأطفال ويربينهم ، ويعالجن ما يصيبهم من أذى ، ويسوين ما يقوم بينهم من خصام ، ويعلمنهم عادات القبيلة وأخلاقها وتقاليدها الموروثة . ولم تكن لديهم تربية منظمة ، ولم يكونوا يتعلمون الكتابة أو الهجاء أو النحو ، ولم تكن عندهم كتب ؛ فكانت الأسرة والحالة هذه أحسن نظام يرتضيه الصبيان . وكانت البنات يتعلمن الفنون المنزلية على حين يتعلم الأولاد الصيد والحرب ؛ فكان الولد يدرب على صيد السمك وعلى السباحة ، وحرث الأرض ، ونصب الشراك وترويض الحيوانات ، وتصويب السهام والحراب ، وأن يعنى بنفسه فى كل ما يعترضه من الأحداث فى حياته التى لم يكن للقوانين فيها السلطان الكامل على الأهلين . وإذا شب أكبر أبناء الأسرة من الذكور وبلغ سن الرجولة أصبح فى غيبة أبيه رب الأسرة المسئول عنها ؛ فإذا تزوج جاء بزوجته إلى بيت أبيه . وهكذا تتجدد الأجيال جيلا بعد جيل ، يتغير فى خلالها أفراد الأسرة على مر الأيام وتبقى الأسرة محتفظة بهما عدة قرون ، تضع فى بوتقة البيت التى ينصهر فيها الأفراد قواعد النظام والأخلاق التى لا بد منها لقيام الحكومات على اختلاف أنواعها .

٤ ــ الفنون

وترك الآخيون إلى التجار والكتبة من أهل الطبقة الدنيا فن الكتابة الذى تلقوه فى أغلب الظن من بلاد اليونان الميسينية ، ذلك أنهم كانوا يفضلون الدم عن المداد واللحم عن الطين ، ولسنا نجد فى أشعار هومر كلها إلا إشارة واحدة للكتابة(٥٨) . ونجدها فى سياق فذ واضح الدلالة ، وهو أن لوحة مطوية تعطى لرسول ويؤمر فيها من سوف يتلقاها بأن يقتل حاملها . وإذا ما وجد الآخيون وقتاً يقضونه فى ممارسة الأدب فإن ذلك لم يكن إلا حين يجدون بين الحروب والغارات فترة من الوقت يركنون فيها إلى السلم ، ووقتئذ يجمع الملك أو الأمير أتباعه حوله ، يولم لهم وليمة ويدعو شاعراً أو مغنياً جوالا ينشدهم على قيثارته شعراً ساذجاً يقص أعمال الأبطال من أسلافهم الأولين . وكان ذلك شعر الآخيين وتاريخهم . ولعل هومر قد أراد كما أراد فيدياس أن ينقش صورته على ملاحمه فأخذ يقص علينا كيف طلب ألسينوس ملك القباشانيين أن يحيى أديسيوس بشىء من هذه الأغانى : « ادع إلينا المنشد الإلهى دمدوكس Demodocus ، لأن الله قد اختصه دون غيره بالمهارة فى الغناء . . . . ثم اقترب الرسول يقود المنشد القدير الذى تحبه إلهة الشعر أكثر من سائر الناس ، فوهبته من نعمتها وسلطت عليه من نقمتها ، فحرمته قوة البصر ولكنها وهبته نعمة الصوت الجميل »(٥٩) .

والفن الوحيد الذى يعنى به هومر غير فنه هو طرق الحديد وتشكيله فهو لا يذكر شيئاً عن التصوير ولا النحت ولكنه يستجمع كل ما أوتى من إلهام ليصف المناظر المصورة بالجواهر أو المزركشة على ترس أخيل ، أو المنقوشة نقشاً بارزاً على دبوس أديسيوس الذى يحلى به صدره . وإذا تحــدث عن العمارة كان حديثه قصيراً ولكنه يلقى على هذا الفن كثيراً من الضوء . فنى وسعنا أن نستدل من حديثه على أن المساكن العادية فى



(شكل ٧) محارب
من هيكل أفائيا فى إيجنيا
(متحف ميونيخ)

عصره كانت تشاد من اللبن على أساس من الحجارة ، وأرضها من الطين المطروق بالأقدام ، والذى كان ينظف بحكه بأداة خشنة ؛ وكان السقف يتخذ من الغاب تعلوه طبقة من الطين لا تميل إلا بالقدر الذى يمكن الأمطار من النزول . وكانت الأبواب مفردة أو مزدوجة ، وقد تكون لها مزالج أو مفاتيح(٦٠) . أما المساكن التى هى أعلى من هذه درجة فكانت جدرانها تطلى بالجبس الملون ، وتزين حافاتها أو تنقش ، وتعلق عليها الأسلحة والتروس والنسيج المنقوش . ولم يكن فى الدار مطبخ ، ولا مدخنة ، ولا نوافذ ، وكان فى سقف بهوها الأسط فتحة يخرج منها بعض الدخان المنبعث من الموقد ، وتخرج بقيته من باب الدار ، أو تستقر صناجا على الجدران . وكانت الحمامات من المرافق التى تحتويها بيوت الأغنياء ، أما غيرهم فكانوا يقنعون بوعاء من الخشب بدل الحمام . وكانوا يتخذون أثاثهم من الخشب الثقيل ، وكثيراً ما كان يصقل وتحفر فيه أشكال فنية جميلة . وقد صنع إكماليوس لبنلبى كرسياً ذا متكأ مطعما بالعاج والمعادن النفيسة ، وكذلك صنع أديسيوس له ولزوجته سريراً ضخما متيناً قدّر له أن يبقى مائة عام .

ومن خصائص هذا العصر أن أهله يُغفلون الهياكل ويوجهون كل عنايتهم إلى تشييد القصور ، بعكس عصر بركليز فإن أهله كانوا يهملون القصور ويصرفون جهودهم فى بناء الهياكل . فنحن نسمع عن « بيت پاريس الفخم » الذى شاده ذلك الأمير بمعونة أمهر المهندسين فى طروادة(٦١) ، وبقصر الملك ألسنوس الفاخر الذى كانت جدرانه من البرنز ؛ وطنفه من عجين الزجاج الأزرق ، وأبوابه من الفضة والذهب ، إلى غير ذلك من الأوصاف التى تصدق على الشعر أكثر مما تصدق على فن العمارة . ونسمع كذلك الشىء القليل عن بيت أجممنون الملكى فى ميسينى كما نسمع الشىء الكثير عن قصر أديسيوس فى إثكا . وقد كان لهذا القصر دهليز أمامى مرصوف بعضه بالحجارة ، ويحيط به سور مجصص ، ويزدان بالأشجار ومذاود الخالى ، وكومة من الروث الساحن ينام عليها أرجوس كلب أديسيوس فى

ضوء الشمس(*) . ويؤدى إلى داخل القصر مدخل ذو عمد ينام فيه العبيد والزائرون فى كثير من الأحيان ، أما داخل القصر نفسه فكان يحتوى على حجرة للانتظار تؤدى إلى بهو أوسط يستند إلى عمد يصل إليه الضوء من قمته فى السقف ، وفى بعض الأحيان من فتحة أخرى بين طنف البناء وعوارضه التى فوق الأعمدة . وكانت مجامر نحاسية مستقرة على قواعد عالية تضىء البيت إضاءة مضطربة غير مستقرة . وكان فى وسط البهو مدفأة الدار تجتمع الأسرة حول نارها المقدسة أثناء الليل للدفء والطرب ، وللتحدث عن أخبار الجيران ، وعاد الأطفال ، وتقلبات الأيام .

٥ – الدولة

ترى كيف كان هؤلاء الآخيون الأشداء السريعو الانفعال يُحكمون ؟ لقد كانوا فى السلم تحكمهم الأسرة وفى الأزمات تحكمهم العشيرة . والعشيرة جماعة من الناس ينتسبون إلى أصل واحد ويدينون بالطاعة إلى رئيس واحد ، وحصن هذا الرئيس هو منشأ المدينة ومركزها ، حتى إذا ما أصبح سلطانه سنة متبعة وشريعة معترفاً بها ، تجمعت حول الحصن عشيرة بعد عشيرة حتى يتكون من مجموعها مجتمع سياسى من ذوى القربى . وإذا تطلب الرئيس عملا إجماعياً من عشيرته أو مدينته دعا أحرارها الذكور إلى اجتماع عام وعرض عليهم اقتراحاً قد يقبلونه وقد يرفضونه ، ولكن أعظم الأعضاء شأناً هم الذين يستطيعون أن يقترحوا تغييره . ولقد كانت هذه الجمعية القروية العنصر الدمقراطى الوحيد فى هذا المجتمع الأرستقراطى الإقطاعى ، وكان أعظم أعضائها فائدة للدولة أفصحهم لساناً وأقدرهم على التأثير فى عامة الشعب . وإنا لنشهد منذ ذلك الوقت البعيد فى الشيخ نسطور الذى « يسيل صوته من لسانه أحلى من الشهد(٦٢) » ، وفى أديسيوس المخاتل الذى تقع

(*) يموت أرجوس من فرط الطرب حين يرى سيده بعد أن غاب عنه عشرين عاما .

كلماته « على الناس وقح هشائش الثالج[٦٣] » ، نشهد فيهما بداية ذلك السيل من الفصاحة الذى قدر له أن يبلغ فى بلاد اليونان مستوى أرفع مما بلغه فى أية حضارة أخرى ، والذى قضى فى آخر الأمر على هذه الحضارة القضاء الأخير ؛

وإذا تطلب الأمر أن تعمل العشائر مجتمعة فإن رؤساءها يطيعون أوامر أقواهم سلطاناً ، ويتخذونه ملكا عليهم ، ويدينون له بالطاعة هم وجيوشهم من الأحرار وأتباعهم العبيد . وكان أقرب الرؤساء إلى الملك مسكناً ، وأكبرهم مقاماً عنده ؛ يسمون « صحابة الملك » ، وهذا هو الاسم الذى أطلق عليهم أيضاً فى مقدونية أيام فليب وفى معسكر الإسكندر . وكان هؤلاء الأعيان يستمتعون فى البول boule أو المجلس بحرية القول ويخاطبونه حين يوجهون له القول على أنه « الأول بين الأنداد » . ومن هذه الهيئات المختلفة — الجمعية العامة ، ومجلس الأعيان ، والملك — نشأت دساتير العالم الغربى الحديث كله على كثرتها واختلاف أنواعها وأسمائها .

وكان للملك سلطان عظيم ولكنه ضيق الحدود . فهو ضيق فى الرقعة التى يظلها لأن مملكته صغيرة ، وهو ضيق فى زمانه لأن الملك معرض لأن يخلعه المجلس أو أن يخلع استناداً إلى حق سرعان ما اعترف به الآخيون وهو حق من عساه أن يكون أقوى من الملك سلطاناً . وفيما عدا هذا فقد كان حكم الملك وراثياً وكانت حدود سلطانه غير واضحة المعالم . وهو قبل كل شىء زعيم عسكرى شديد العناية بجيشه لأنه إذا عدمه تبينت للناس أخطاؤه ؛ وهو يحرص على أن يكون هذا الجيش حسن العدة ، والطعام ، والتدريب ؛ لديه ذخيرة من السهام المسمومة[٦٤] ، والحراب ، والخوذ ، والجراميق ، والرماح ، والتروس ، والدروع ، والعربات الحربية . وهو الحكومة بأجمعها طالما كان الجيش يحميه ، يجمع فى يديه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وهو كاهن الدين الأكبر الذى يقرب القرابين باسم الشعب ، أوامره هى القانون ، وأحكامه نهائية لا معقب لها ، ولم يكن لفظ القانون قد وجد بعد[٦٥] . ومن

تحته المجلس الذى يجتمع أحياناً ليفصل فى المنازعات الخطيرة ؛ وكأنما كان هذا المجلس يضع التقاليد التى تسير عليها جميع المحاكم فيما بعد ، فكان يبحث عن السوابق ويحكم على غرارها . وكان للسوابق الغلبة على القانون لأن السابقة مستمدة من العادة ، والعادة هى الأخت الكبرى للقانون تنازعه سلطانه : على أن المحاكمات على أنواعها نادرة فى المجتمع الهومرى ، وقلما نسمع فيه عن هيئات عامة للقضاء ، بل كان على كل أسرة أن تدفع الأذى عن نفسها وتثأر لنفسها ، وكانت أعمال العنف كثيرة تسود المجتمع .

ولم يكن من عادة الملك أن يجبى الضرائب ليقيم بها دعائم ملكه ، بل كان يتلقى من حين إلى حين « هدايا » من رعاياه ؛ ولو أنه كان يعتمد على هذه الهدايا وحدها لكان ملكا فقيراً بحق ؛ أما مورده الأكبر فكان فى أغلب الظن مستمداً من الرسوم التى يفرضها على ما ينتزعه جنوده وسفنه من الأسلاب فى البر والبحر . ولعل هذا هو السبب من أجله وجد الآخيون فى عصر متأخر كالقرن الثالث عشر قبل الميلاد فى مصر وفى كريت . فكانوا فى مصر قراصنة غير ناجحين وفى كريت فاتحين عابرين . ثم نسمع عنهم فجأة وهم يستثيرون غضب الشعب بقصة عن السبى المذل ؛ ويجمعون بذلك قوى القبائل جميعها ، ويجندون مائة ألف محارب ، ويبحرون بأسطول ضخم منقطع النظير مكون من نحو ألف سفينة ليجربوا حظهم ضد حراب آسية على سهول طروادة وتلها .

الفصل الرابع

حصار طروادة

ترى هل حوصرت طروادة بحق ؟ لسنا نعلم أكثر من أن كل مؤرخ يونانى وكل شاعر يونانى ، وأن كل سجل فى معبد يونانى إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، وكل قصة يونانية — من أن هذه كلها تسلم بلا جدال بأن طروادة حوصرت ؛ وأن علم الآثار قد كشف لنا عن المدينة المخربة مضاعفة عدة مرار ؛ وأن القصة وأبطالها لا تزال فى هذه الأيام كما كانت فى آخر القرن الماضى تعد فى جوهرها قصة صحيحة[٦٦] : وقد جاء فى نقش مصرى خلفه رمسيس الثالث أن « الجزائر كانت قلقة مضطربة » حوالى ١١٩٦ ق . م[٦٧] ، وفى بلنى إشارة إلى رمسيس « الذى سقطت طروادة فى أيامه[٦٨] » . ويرجع إرتشثنز Eratosthenes العالم الإسكندرى العظيم تاريخ هذا الحصار إلى عام ١١٩٤ ق . م مستنداً فى ذلك إلى الأنساب المتواترة التى نسقها المؤرخ — الجغرافى هِكتيُوس Hecataeus فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

ويتفق الفرس الأقدمون والفينيقيون مع اليونان فى قولهم إن تلك الحرب العظمى قد استعرت نارها لأن أربعة من النساء الحسان قد اختطفن عن بلادهن . فالمصريون على قولهم اختطفوا أيو Io من أرجوس ، واليونان اختطفوا أوربا Europa من فينيقية وميديا من كلكز Colchis ؛ أليس من الإنصاف والحالة هذه أن يختطف باريس(*) هلن[٦٩] ؟ ويأبى استسيكورس

(*) لا حاجة بنا إلى القول بأن هلن كانت ابنة زيوس ، فقد اتخذ صورة بجعة وأغوى ليدا زوجة تندارَيوس Tyndareus ملك اسپارطة .

فى سنيه الأخيرة بعد أن تاب وأناب ، كما يأبى هيرودوت ويوربيديز من بعده ، أن يعترفا بأن هلن قد غادرت بلادها إلى طروادة ؛ وكل ما فى الأمر أنها ذهبت إلى مصر مكرهة وأقامت فيها اثنتى عشرة سنة حتى جاءها منلوس . ويتساءل هيرودوت قائلا : هل من الناس من يصدق أن الطرواديين يحاربون عشر سنين من أجل امرأة واحدة ؟ ويعزو يوربيديز إرسال الحملة إلى ازدياد السكان فى بلاد اليونان أكثر مما تتحمله مواردها ، واضطرار أهلها بسبب هذه الزيادة إلى الهجرة والتوسع(٧٠) . ألا ما أقدم الأسباب الحديثة التى تبرر بها الرغبة فى القوة والسلطان .

على أنه لا يبعد أن تكون قصة شبيهة بهذه القصة قد استعين بها على جعل هذه المغامرة مستساغة لدى اليونان العادى ، وذلك بأن الناس فى حاجة إلى الألفاظ الطنانة إذا أريد منهم أن يضحوا بحياتهم . ومهما تكن أسباب الحرب الظاهرة ، فإن الذى لا شك فيه أن حقيقة أمرها وجوهرها لم تكن إلا نزاعاً بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضيق الهسپنت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود ، وكانت بلاد اليونان بأجمعها وغرب آسية على بكرة أبيها ترى أنها نزاع حاسم ؛ واحتشدت أمم اليونان الصغيرة لمساعدة أجممنون ، كما أرسلت شعوب آسية الصغرى العون بعد العون لطروادة . وكانت الحرب فى حقيقة أمرها بداية الكفاح الذى تجدد فى مراثون وسلاميس ، وعند إسوس وأربيلا ، وعند تور وغرناطة ، وعند ليپنتو وڤينا ...

وليس فى وسعنا أن نذكر من أحداث الحرب وما بعدها غير ما يقصه علينا الشعراء اليونان ومؤلفو المسرحيات منهم ، ونحن نقبل ما يقولون على أنه أدب أكثر مما هو تاريخ ، وهذا فى حد ذاته مبرر قوى لاعتباره جزءاً من قصة الحضارة . فنحن نعلم أن الحرب بشعة وأن الإلياذة جميلة ، وأن الفن (إذا عكسنا قول أرسطاطاليس) قد يجمل الرعب — ويظهر تبعاً لذلك —

بما يخلعه عليه من معنى جميل وشكل ظريف . ولسنا نقصد بقولنا هذا أن الإلياذة قد وصلت إلى حد الكمال فى شكلها ، إذ الحقيقة أن تركيبها مهلهل غير رصين ، وأن القصص فيها متناقض تارة وغامض تارة أخرى ، وأن خاتمتها ليست خاتمة بالمعنى الصحيح . غير أن كمال كل جزء على حدته يعوض ما فى مجموعها الكلى من اضطراب ، والقصة رغم عيوبها الصغرى لا تقل فى مستواها عن مسرحيات التاريخ العظمى ، ولعلها لا تقل عن مستوى التاريخ نفسه .

(١)(*) نرى اليونان فى مستهل القصيدة وقد قضوا فى حصار طروادة تسع سنين دون أن يظفروا بها ؛ وقد غلبهم اليأس والحنين إلى الوطن ، وفتك بهم المرض . وقد وقفوا طويلا عند أوليس Oulis لأن المرض وسكون الريح فى البحر قد حالا بينهم وبين مواصلة السير ، وأثار أجممنون غضب كلتمنسترا وهيأ السبيل لسوء مصيره بأن ضحى بابنتهما إفجينيا لكى تهب الريح . وكان اليونان قد وقفوا فى أماكن متفرقة فى طريقهم ليأخذوا حاجتهم من الطعام والسرارى ، فأخذ أجممنون الحسناء كريسيس Chryses وأخذ أخيل بريسيس البارعة الجمال ؛ ثم يقول عراف إن أپلو يمنع النصر عن اليونان لأن أجممنون قد اعتـــدى على عفاف ابنه كاهنه كريسيز Chryseis . فيرد أجممنون كريسيس لأبيها ولكنه يواسى نفسه ويخلق فى القصة موقفاً مثيراً بأن يرغم بريسيس على أن تفارق أخيل وتحل محل كريسيس فى الخيمة الملكية . ويدعو أخيل الجمعية العامة إلى الانعقاد ، ويشكو إليها أجممنون وهو غاضب ثائر ، وينطق بأول كلمة فى الإلياذة ويثير الموضوع الذى يتردد فيها مراراً وتكراراً ، ويقسم أنه لن يمد هو أو جنوده يداً لمساعدة اليونان . (٢) ثم ننتقل بعدئذ إلى استعراض سفن الجيوش المتجمعة وقبائلهم ، ثم (٣) نشاهد منلوس المتعجرف يبارز باريس

(*) تشير الأعداد المحصورة بين قوسين إلى كتب الإلياذة .

مبارزة يراد بها وضع حد للقتال ؛ ويتهادن الجيشان مهادنة المتحفزين ، ويشترك پريام مع أجممنون فى تقديم القربان إلى الآلهة . ويظفر منلوس بپاريس ولكن أفرديتى تنقذه وتختطفه فى سحابة ثم تلقيه على فراش زوجته بعد أن تعطره وتمسحه بالمساحيق الربانية . وتأمره هلن أن يعود إلى القتال ولكنه يعرض عليها بدلا من هذا أن « يصرفا الوقت فى الفراش » . وتتغلب على هلن شهوتها فتجيبه إلى طلبه (٤) ويعلن أجممنون انتصار منلوس ، ويلوح أن الحرب قد وضعت أوزارها ، ولكن الآلهة تعقد مجلساً على جبل أولمپس للتشاور فى الأمر كما يتشاور البشر ، وتقرر أنها فى حاجة إلى أن يسفك فوق ما سفك من الدماء . ويقترع زيوس لمصلحة السلم ولكنه يسحب صوته وينقلب مرتاعاً حين توجه زوجته هيرا خطابها إليه ، وتقترح أن تسمح لزيوس بأن يدك ميسينى وأرجوس واسپارطة دكا إذا وافق على تدمير طروادة : ويبدأ القتال من جديد ويهلك عدد كثير من الرجال تمزق أجسامهم السهام أو الحراب أو السيوف « ويخيم الظلام على أعينهم » .

(٥) وتشترك الآلهة فى هذه اللعبة المرحة لعبة التقتيل والتقطيع ، فتنفذ حربة ديوميد فى جسم أريس إله الحرب الرهيب ، ويصيح صيحة كأنها صادرة من تسعة آلاف رجل » ، ويسرع إلى زيوس ليبثه شكواه .

(٦) وتعقب ذلك فترة يودع فيها هكتر البطل الطروادى زوجته أندرمكا وداعاً حاراً قبل عودته إلى القتال . وتخاطبه بصوت رقيق قائلة : « حبيبى ، إن بسالتك ستؤدى إلى هلاكك ؛ إنك لا ترحم طفلك ولا ترحمنى ، أنا التى سأكون عما قريب أرملة ، لقد قتل أبى وأمى وإخوتى جميعاً ، ولكنك أنت يا هكتر أبى وأمى ، وأنت زوج شبابى ، فأشفق علىّ إذن وأقم هنا فى البرج » . فيرد عليها بقوله : « إنى أعلم حق العلم أن مآل طروادة هو السقوط ، وأرى بعين الخيال أحزان إخوانى وأحزان الملك ؛ غير أنى لا أحزن من أجلهم ؛ أما الذى يكاد يزلزل كيانى فهو أن أراك أسيرة رقيقة فى أرجوس ؛ ولكنى مع هذا لن أحجم

عن القتال[٧١] » ويصرخ ابنه الطفل أستيانا كس Astyanax ، الذى قدر له أن يلقيه اليونان للمتصرون من فوق أسوار المدينة بعد قليل فيسقط على الأرض جثة هامدة، يصرخ مرتاعاً حين يبصر الريش يتماوج فى خوذة أبيه ، فيرفع البطل خوذته حتى يستطيع أن يضحك ، ويبكى ويصلى للطفل الحائر المندهش . ثم يتخذ طريقه إلى المعركة . (٧) ويبارز أجاكس Aijox ملك سلاميس . ويستميت البطلان فى القتال ثم يفترقان فى المساء بعد أن يتبادلا الثناء والهدايا . يا لها من زهرة مجاملة تسبح فى بحر من الدماء . (٨) وبعد أن يقضى الطرواديون يوماً كاملا يتنقلون فيه من نصر إلى نصر يأمر هكتر المحاربون بالكف عن القتال ليستريحوا .

هكذا خطب فيهم هكتر ؛ وحياه الطرواديون بأعلى أصواتهم وصفقوا له بأكفهم . ثم رفعوا النير عن جيادهم الحربية والعرق يتصبب من أجسامهم وعقل كل منهم جواديه بالسيور بجوار عربته ، وجاء من المدينة بالثيران والضأن السمين ؛ وقدم هكتر لهم النبيذ وهو يخاطبهم بأعذب الألفاظ وأرقها .. وجاءهم بالحب من البيوت ، وجمع الرجال وقود النار ، وحمل الهواء الرائحة الذكية من السهل إلى السماء ، وسهر من كانوا على جانبى الميدان الليل الطويل يملأ الأمل صدورهم ، وأوقدوا نار المراقبة ، وعلا لهب النيران الكثيرة التى أوقدها الطرواديون مروضو الخيول بجوار إليوم بين السفن السود ونهر زنثوس Thanathus ، وتلألأت تلألؤ النجوم حول آية الليل ، فكان منظراً من أعجب المناظر ، وسكنت الريح ، ولاحت قمم الجبال والرؤوس ، وظهرت الخلوات التى بين الجبال ، وبدت السماء الواسطة ذات الجلال ، وتلألأت نجومها التى يخطئها الحصر على قلب الراعى الذى أضناه النصب . وفى هذه الأثناء كانت خيل القتال المتعبة تلوك القمح والشعير الأبيض بالقرب من مركباتها تنتظر مقدم الفجر فوق عرشه الجميل[٧٤] .

(٩) ويشير نسطور ملك پيلوس الإيلية على أجممنون أن يرد بريسيس

إلى أخيل ، ويجيبه أجممنون إلى طلبه ، ويعد أخيل بأن يعطبه نصف بلاد اليونان إذا انضم مرة أخرى إلى المحاصرين ، ولكن أخيل يظـــل غاضباً . (١٠) ويفاجئ أديسيوس وديوميد معسكر الطرواديين بهجمة فى أثناء الليل يقتلان فيها اثنى عشر من رؤساء العشائر . (١١) ويقود أجممنون جنده ويستبسل فى القتال ويُجرح ثم ينسحب من الميدان . (١٢) ويلتف الأعداء حول أديسيوس فيقاتلهم قتال الأسود ، ويشق له أجاكس ومنلوس الطريق وينجيانه ليقاسى فيما بعد حياة مريرة (١٢ — ١٣) ويتقدم الطرواديون إلى الأسوار التى أقامها اليونان حول معسكرهم . (١٤) فتنزعج هيرا وتصمم على إنقاذ اليونان ، فتدهن بالزيت وتتعطر وتلبس أفخر الثياب ، وتتمنطق بمنطقة أفرديتى المقوية ، وتغوى زيوس فيضاجعها ، ويعمد پوسيدن فى هذه الأثناء إلى مساعدة اليونان على رد الطرواديين (١٥) وتظل الحرب سجالا فيصل الطرواديون إلى سفن اليونان ، وهنا تصل حماسة الشاعر ذروتها وهو يقص علينا كيف كان اليونان يحاربون مستيئسين وهم يتراجعون تراجعاً سيؤدى بهم إلى الهلاك .

(١٦) ويقنع پتركلوس حبيب أخيل هذا الطبل فيسمح له بأن يقود جنوده لمحاربة طروادة . ويقتله هكتر بيده ، (١٧) ويحارب أجاكس حرباً شديدة فوق جثة الشاب القتيل . (١٨) ويسمع أخيل بموت پتركلوس فيصمم آخر الأمر على القتال ، وتقنع أمه الإلهة ثيتيس الحداد الإلهى هفستوس Hephaestus بأن يصنع له أسلحة جديدة ودرعاً سابغة ضخمة . (١٩) ويتصالح أخيل مع أجممنون ، (٢٠) ويقاتل إينياس ويوشك أن يقتله لولا أن پوسيدن ينقذه ليتخذ منه ڤرجيل موضوعاً لشعره. (٢١) ويقتل أخيل عدداً كبيراً من الطرواديين ويقذف بهم إلى الجحيم مودعين بخطب يتحدث فيها عن نسبهم . وتواصل الآلهة القتال : فتقذف أثينا أريس بحجر يطرحه أرضاً وتحاول أفرديتى وهى فى زى جندى أن تنقذه، فتضربها أثينا ضربة على

صدرها الجميل تلقيها على الأرض . وتصفع هيرا أرتميس على أذنيها ، أما پوسيدن وأپلو فيكتفيان بحرب الألفاظ . (٢٢) ويولى الطرواديون الأدبار من أخيل عدا هكتر وحده ؛ ويشير پريام وهكيبا على هكتر أن يبقى وراء أسوار المدينة ولكنه يرفض مشورتهما ، حتى إذا تقدم أخيل نحوه ولى الأدبار فجأة ؛ ويطارده أخيل حول أسوار طروادة ويطوف بها ثلاث مرات ؛ ثم يقف هكتر ليلاقى عدوه فيخر صريعا .

(٢٣) وفى ختام هذه المسرحية تحرق جثة پترکلوس بالمراسم الفخمة ؛ ويضحى أخيل من أجله بعدد كبير من الماشية ، وباثنى عشر من أسرى الطرواديين وبشــعره هو الطويل . ويقيم اليونان الألعاب تكريماً له و (٢٤) يجر أخيل جثة هكتر خلف مركبته ثلاث مرات حول كومة الحريق . ويقبل پريام بموكبه وحزنه يرجو أن يسمح له بجثة ولده ، ويرق قلب أخيل له ، ويرضى بعقد هدنة تدوم اثنى عشر يوماً ، ويسمح للملك الشيخ بأن يأخذ جثة ولده بعد تطهيرها ودهنها بالزيت ، ويعود بها إلى طروادة .

الفصل الخامس

العودة إلى الوطن

وهنا تختتم القصيدة العظيمة خاتمة فجائية ، كأن الشاعر قد قام بنصيبه من القصة العامة ورأى من واجبه أن يترك ما بقى منها ينشده شاعر غيره ؟ وتقص الآداب بعدئذ كيف رمى باريس أخيل وهو واقف إلى جانب المعركة بسهم اخترق مؤخرة قدمه ، وهو الجزء الوحيد من جسمه الذى تؤثر فيه السهام ، فأرداه قتيلا ، وكيف سقطت طروادة آخر الأمر نتيجة لخدعة الحصان الخشبي .

وكان النصر الذى أحرزه المنتصرون سبباً فى هزيمتهم ، فعادوا منهكين محزونين إلى أوطانهم بعد حنين إليهـــا طويل . وتحطم كثير من السفن التى أقلتهم ، وارتطم بعضها بشواطئ البلاد الأجنبية وأنشأ من فيها مستعمرات يونانية فى آسية وجزائر بحر إيجة وإيطاليا[٧٣] : ولما أقبلت هلن « الإلهة بين النساء » على منلوس بجلال جمالها الهادى عاد حبها إلى قلبه وكان قد أقسم أن يقتلها حين يظفر بها ، وسره أن يعود بها إلى اسبارطة لتكون ملكته فيها ؛ ولما عاد أجممنون إلى ميسيني « عانق أرض بلاده وقبلها وذرفت عينه الدمع السخين[٧٤] » ولكن كلتمنسترا تزوجت ابن عمه إجسثس وأجلسته على العرش ، فلما أن دخل أجممنون القصر قتلا .

وأدعى إلى الأسى من هذا عودة أديسيوس ، وأكبر ظننا أن شاعراً آخر غير هومر قد قص قصته فى ملحمة أقل قوة وبطولة من الإلياذة(*) ،

(*) وأكبر الظن أن أساس القصة التى ترويها الأديسية أقل انطباقاً على الحقائق التاريخية من الإلياذة . ذلك أن أسطورة الملاح أو المحارب الجوال الذى لا تعرفه زوجته حين عودته أقدم يقيناً من قصة طروادة ، ولا يكاد يخلو منها أدب من آداب الأمم كلها[٧٥] .

ولكنها أسلس منها وأرق وأجمل ، وتقول الأديسة إن أديسيوس تحطمت سفينته على ساحل جزيرة أجيجيا Ogygia ، وهى جزيرة مسحورة شبيهة بجزيرة تهيتى Tahiti ، تحكمها ملكة إلهة تدعى كلبسو Calypso ؛ شغفها حباً فاستبقته عندها ثمانى سنين يحن فيها أشد الحنين إلى زوجته پنلپى وابنه تلمكس اللذين ينتظرانه فى إثكا على أحر من الجمر .

وتقنع أثينة زيوس بأن يأمر كلپسو بإطلاق سراح أديسيوس ، وتطير الإلهة إلى تلمكس وتستمع إلى قصته الساذجة وتعطف عليه ، فتعرف كيف أقبل أمراء إثكا والجزائر الخاضعة لها على پنلپى يتوددون لها ويسعون إلى زواجها ليظفروا بعد ذلك الزواج بعرش إثكا ، وكيف يعيشون فى قصف ومرح فى قصر أديسيوس ويستمتعون بخيراته (٢) ويأمر تلمكس الخطاب بأن يعودوا إلى ديارهم ولكنهم يسخرون من شبابه ، فيخرج سراً على ظهر سفينة يبحث عن أبيه ؛ وتحزن پنلپى لبعد زوجها وابنها ، وتستمهل خاطبيها بأن تعدهم أنها ستتزوج واحداً منهم بعد أن تتم نسيج غزلها ، ولكنها تنقض منه فى الليل ما تعمله بالنهار (٣) ويزور تلمكس نسطور فى پيلس و (٤) منلوس فى اسپارطة ولكن أحداً منهما لا يستطيع أن يدله على مكان أبيه . ويرسم الشاعر صورة جذابة لهلن وقد استقرت فى بيتها خاضعة ولكنها لا تزال تستمتع بجمالها الربانى ، وقد غفر لها زوجها خطاياها من زمن بعيد ، وتقول إنها حين سقطت طروادة كانت قد سئمت المقام فى المدينة(*) :

= بأديسيوس اليونان هو بعينه سنوحى Sinuhe وسندباد ، وربنسن كروزو ، وإنك أردن Enoch Arden . أما الأماكن الواردة فى القصيدة فهى من الأسرار المحيرة للعقول التى لا يجد أصحابها ما يقضون فيه أوقات فراغهم .

(*) وتقول الرواية اليونانية إن مواطنيها قد اتخذوها بعد موتها إلهة لهم وعبدوها ، وكان من العقائد الشائعة فى بلاد اليونان أن الآلهة تعاقب من يستطيلون فى عرضها . بل إنهم قد أشاروا إلى أن هومر نفسه إنما أصيب بالعمى لأنه تغنى بالفرية القائلة بأن هلن فرت إلى طروادة بدل أن يقول إنها اختطفت وحملت إلى مصر رغم إرادتها(٧٧)

(٥) وهنا يدخل أديسيوس القصة لأول مرة . فقد كان « يجلس على ساحل جزيرة كلپسو » وقد جف الدمع من عينيه وغاض ماء حياته الحلوة من شدة حزنه وحنينه إلى وطنه . نعم إنه كان يقضي ليله في الكهوف الجوفاء مضطجعاً على الرغم منه بجوار كلپسو ، ينام وهو كاره بجوار الحورية المشتاقة ، ولكنه كان يقضي النهار جالساً على الصخور والرمال ، يبكي ويتوجع وينظر إلى البحر المضطرب(٧٨) » وتستبقيه كلپسو ليلة أخرى تأمره بعدها أن يصنع رمثاً ويبحر فيه منفرداً .

(٦) ويكافح أديسيوس البحر كفاحاً طويلاً ثم ينزل في أرض فيشيا الخرافية (ولعلها كرسيرا — كورفو Corcyra - Corfu) حيث تعثر عليه العذراء نوسكا Nausicaa وتأخذ إلى قصر أبيها الملك ألسنوس ، وتعشق الفتاة البطل الجريء المفتول العضلات ، وتفضي بسرها إلى أترابها فتقول لهن : « استمعن إلي أيتها العذارى ذوات الأذرع الجميلة البيضاء . . . لقد كان هذا الرجل يبدو لي منذ قليل غير وسيم ، أما الآن فهو في نظري كالآلهة التي تستقر في السماء الواسعة . ألا ليت رجلاً كهذا يصبح لي زوجاً ، يقيم هنا ، ألا ليته يرضى أن يقيم هنا معي(٧٩) » . (٧ — ٨) ويعجب ألسنوس بأديسيوس أشد الإعجاب فيعرض عليه ان يزوجه نوسكا ، ويعتذر أديسيوس ولكنه يسره أن يقص عليه قصة عودته من طروادة .

(١١) فيقول للملك إن سفنه قد دفعتها الرياح عن طريقها إلى أرض أكلة (اللوطس) ، وإن هؤلاء قدموا لرجاله فاكهة اللوطس الحلوة فنسى الكثيرون منهم أوطانهم وحنينهم إليها حتى لم يجد أديسيوس بد من أن يرغمهم على العودة إلى سفنهم . وساروا من هنا إلى أرض السيكلوبين الجبابرة العور ، الذين لا يقومون بعمل ولا يخضعون لقانون ، ويعيشون في جزة تكثر فيها الحبوب والفاكهة البرية . ووقعوا في كهف السيكلوپ

بلنيفيمس Polyphemus فأكل عدداً منهم ، وأنقذ أديسيوس من بقى بأن أنام الوحش الجبار بعد أن أسكره ، ثم حرق بالنار عينه الوحيدة : (١٠) ثم ركب الجوالون البحر مرة أخرى وأوغلوا فيه حتى وصلوا إلى أرض اللستريجونيين Laestrygonians ، وكان هؤلاء أيضاً من أكلة اللحوم البشرية فلم تنج منهم إلا سفينة أديسيوس . ووصل هو ومن كان معه فى السفينة إلى جزيرة إينيا Aenea حيث أغوت سرس Circe الإلهة الجميلة الغدارة معظم رفاقه بغنائها الجميل فدخلوا كهفها ، ثم خدرتهم ومسختهم فصاروا خنازير . وأوشك أديسيوس أن يذبحها ، ولكنه غير رأيه ورضى بحبها ، ثم عاد هو ورفاقه إلى صورتهم البشرية وأقاموا مع سرس سنة كاملة . (١١) أبحروا بعدها مرة أخرى ووصلوا إلى أرض يغشاها الظلام السرمدى تبين لهم أنها مدخل الجحيم (هيدس Hades) ، وفيها تحدث أديسيوس إلى أطياف أجممنون وأخيل ووالدته . (١٢) ثم واصلوا سيرهم ومروا بجزيرة السيرينات Sirens ، وهناك أنجى أديسيوس رجاله من أغانيهن المغوية بأن وضع شمعاً فى آذانهم . ثم تحطمت سفينته فى مضيق سلا Scylls وكربديس Charybdis (مسينا ؟) ولم ينج ممن كانوا فيها إلا هو وحده ، وقد نجا ليعيش تسع سنين أخرى فى جزيرة كلپسو .

(١٣) ويتأثر ألسنوس بقصة أديسيوس و تدفعه شفقته عليه فيأمر رجاله أن ينقلوه بحراً إلى إثكا ، على أن يعصبوا عينيه لئلا يعرف مكان أرضهم المنيئة ويدل الناس عليها . وفى إثكا تقود الإلهة أثينة السائح الجوال إلى كوخ يوميوس Eumaeus راعى خنازيره . (١٤) ويستقبله الراعى ويكرمه إكراماً حاتمياً ، وإن كان لا يعرفه . (١٥) وتقود أثينة تلمكس إلى هذا الكوخ نفسه (١٦) ويكشف أديسيوس عن نفسه لولده . (١٧) ويبكيان كلاهما « وينتحبان بحرقة وبأعلى صوتيهما » ويفضى الوالد لولده بخدعة يقتل بها جميع الذين تقدموا لخطبة زوجته :

(١٧ — ١٨) ويدخل القصر فى زى متسول ، ويرى الخاطبين يأكلون ويتمتعون بماله ، وتغلى مراجل الغضب فى صدره حين يعلم أنهم يضاجعون خادماته بالليل وإن كانوا يغازلون پنلپى بالنهار . (١٩ — ٢٠) ويحتقره الخاطبون ويهينونه ولكنه يرد أذاهم بقوته وصبره . (٢١) وكان الخاطبون وقتئذ قد كشفوا حيلة النسيج التى خدعتهم بها پنلپى ، وأرغموها على أن تفرغ منه ، وتوافق على أن تتزوج من يستطيع منهم أن يشد وتر قوس أديسيوس المعلق على أحد جدران القصر ، ويرمى منه بسهم يمر من فتحات اثنتى عشرة بلطة مصفوفة فى صف واحد . ويحاولون جميعاً أن يفعلوا هذا ولكنهم لا يفلحون ، ويطلب أديسيوس أن تتحاح له الفرصة ليجرب حظه ويفلح فيما أخفقوا فيه . (٢٢) ثم يلقى عن نفسه القناع ويكشف عن حقيقة أمره وهو غضبان أسف ، ويصوب سهامه إلى صدور الخاطبين ويقتلهم جميعاً بمعونة تلمكس ، ويوميس ، وأثينا . (٢٣) ويلقى صعوبة شديدة فى إقناع پنلپى أنه هو أديسيوس ، ذلك أن من أصعب الأمور أن تتخلى امرأة عن عشرين خاطباً من أجل زوج واحد . (٢٤) ويواجه هجمات أبناء الخاطبين ، ويستل سخائم صدورهم ويستعيد ملكه .

وفى هذه الأثناء كانت أشد المآسى فى القصص اليونانى تجرى فى مجراها ذلك أن أرستيز Arestes بن أجممنون كان وقتئذ قد بلغ رشده ، وأثارت أخته إلكترا ثائرته فأخذا بثأر أبيهما وقتلا أمهما وعشيقها . وقضى رستيز بعدئذ سنين كثيرة يضرب فى الأرض وهو ذاهب العقل حتى جلس آخر الأمر على عرش أرجوس — ميسينى (حوالى عام ١١٦٧ ق . م) ، وضم بعدئذ اسپارطة إلى ملكه(*). ولكن بيت پلوپس Pelops أخذ بعد اعتلائه العرش فى الاضمحلال ،

(*) عثر السير آ ثر إيفنز فى قبر ميسينى فى بؤوتيا على نقوش محفورة تمثل كهلا يهاجم تمثالا لأبى الهول وشابا يهاجم رجلا أكبر منه سناً وامرأة . ويرى أن هذه النقوش تشير إلى —

ولعل هذا الاضمحلال قد بدأ من أيام أجممنون نفسه ، وكان هذا الزعيم قد اتخذ الحرب وسيلة لضم شتات ملك كان وقتئذ ينفرط عقده . غير أن انتصاره كان الضربة القاضية عليه لأن من كان معه من الزعماء لم يعد منهم إلا القليل ، وشقت كثير من الممالك عصا الطاعة وخرجت على كثيرين ممن لم يصحبوه من الزعماء . ولم يكد ينتهى العهد الذى بدأ بحصار طروادة حتى كانت قوة الآخيين قد أنهكت ونضب معين الحياة من جسم أبناء بلوپس ، وأخذ الشعب يترقب فى صبر وأناة ظهور أسرة جديدة .

— أديپوس وأرستيز.. وإذ كان يعزو هذه النقوش إلى حوالى عام ١٤٥٠ ق.م. فإنه يرجع تاريخ أديپوس وأرستيز بناء على هذا إلى عصر يسبق بمائتى عام العصر الذى حددناه فى المتن إلى هاتين الشخصيتين تحديداً لا نجزم بصحته .

الفصل السادس

فتح الدوريين

اجتاحت بلاد اليونان حوالى عام ١١٠٤ موجة جديدة من الهجرة أو الغزو متدفقة من الشمال القلق المضطرب النازع إلى التوسع ؛ فقد انزلق أو سار إلى البلوپونيز ، أو تدفق عليها ، شعب ذو روح حربية ؛ طويل القامات مستدير الرؤوس ، معدوم الصلة بالأدب ، بعد أن اخترق إلبريا وتسليا وعبر خليج كورنثة عند نوپكتوس Naupacuts ، ومضيق كورنثة عند كورنثه نفسها ، واستولى على البلاد وقضى على الحضارة الميسينية قضاء يكاد يكون تاماً . وكل ما نقوله عن أصلهم وعن الطريق الذى سلكوه لا يرقى إلى أكثر من الحدس والتخمين . أما أخلاقهم وأثرهم فى البلاد التى فتحوها فإن علمنا عنهما يرقى إلى مرتبة اليقين . لقد كانوا لا يزالون فى مرحلة الرعى والصيد ؛ وكانوا من حين إلى حين يستقرون لفلح الأرض ، ولكن جل اعتمادهم كان على ماشيتهم ، وكانت حاجة هذه الماشية إلى المرعى الجديد سبباً فى كثرة تنقلهم وعدم استقرارهم . وكان الشىء الوحيد الموفور عندهم وفرة لم يسمع بها عند غيرهم هو الحديد ؛ ومن أجل ذلك كانوا هم رسل الثقافة الهلستانية(*) إلى بلاد اليونان ؛ وكانت صلابة أسيافهم وشدة بأسهم سبباً فى تفوقهم على الآخيين والكريتيين ، وفى قسوة قلوبهم وبطشهم الشديد ، وكان الآخيون والكريتيون وقتئذ يستخدمون أسلحة من البرنز . والراجح أنهم تدفقوا من الغرب والشرق ، من إليس ومجارا ، على ممالك البلوپونيز المتفرقة الصغيرة وذبحوا بسيوفهم طبقاتها الحاكمة ، واتخـذوا من بقى

(*) مدينة فى النمسا أطلق اسمها على الفترة الأولى من الحديد فى أوربا لكثرة ما كشف فيها من الآثار المصنوعة منه .

ن الميسينيين أرقاء . ودمرت النيران ميسيني وتيرينز وأضحت أرجوس عاصمة جزيرة پلوپس وظلت كذلك مائتين من السنين . واستولى الغزاة فى برزخ كورنثة على أكروكورنثوس Acrocorinthus وهى قمة عالية تشرف على ما حولها وتسيطر عليه ، وشادوا حولها مدينة كورنثة الدورية[٨٠] . وفر أمامهم من بقى حياً من الدوريين ، فلجأ بعضهم إلى جبال البلوبونيز الشمالية ، وبعضهم إلى أتكا ، وعبر بعضهم البحر إلى الجزائر وإلى سواحل آسية . واقتفى الفاتحون أثرهم إلى أتكا ولكنهم صدوا عنها ؛ وجاءوا فى أثرهم إلى كريت[٨١] ، ودمروا ما بقى من كنوسس تدميراً تاماً ؛ واستولوا على ميلوس وثيرا Thera وكوس Cos ، ونيدس Nidus ورودس . وكان الخراب أشمل وأتم فى جميع أنحاء البلوپونيز ودريت حيث ازدهرت الثقافة الميسينية أكثر من ازدهارها فى غيرهما من الأصقاع .

وهذه الكارثة الختامية التى وقعت فى العصر السابق للحضارة الإيجية هى المعروفة لدى المؤرخين المحدثين باسم الفتح الدورى ، والتى تسميها الرواية اليونانية « عودة الهرقليين » . ذلك أن الظافرين لم يقنعوا بأن يسموا انتصارهم هذا غلبة أقوام همج على شعب متحضر ، بل قالوا إن ما حدث فى واقع الأمر هو أن أبناء هرقل ومن تناسلوا من أبنائه حيل بينهم وبين حقهم المشروع فى العودة إلى البلوپونيز ، فانتزعوا هذا الحق بقوة سواعدهم وبطولتهم . ولسنا نعرف ما فى هذا القول من الحقائق التاريخية وما فيه من الأساطير الدپلوماسية التى يقصد بها تصوير هذا الفتح الدموى فى صورة حق مقدس . وإنا ليصعب علينا أن نعتقد أن الدوريين قد برعوا فى الكذب هذه البراعة كلها فى شباب العالم . وقد تكون القصتان كلتاهما صحيحتين وهو ما لم يسلم به المحاجون : فقد يكون الدوريون غزاة فاتحين من الشمال يقودهم أبناء هرقل وحفدته .

ومهما يكن مظهر هذا الفتح فإن ما ترتب عليه من الأثر هو أنه عاق تقدم بلاد اليونان ونماءها زمناً طويلا ، وأصابها بمحنة شديدة . فقد ظلت أحوالها السياسية مضطربة قرنين كاملين ، وكان كل رجل فيها يحمل السلاح لأنه بات غير مطمئن على حياته ؛ وزادت أعمال العنف زيادة مطردة فعطلت أعمال الزراعة والتجارة البرية والبحرية ، واشتعلت نيران الحرب وعلا سعيرها ، وازداد الفقر شدة وانتشاراً ؛ وأصبحت الحياة قلقة مضطربة لأن الأسر أخذت تنتقل من إقليم إلى إقليم طلباً للأمن والسلم(٨٢) . ويسمى هزيود Hesiod هذا العصر عصر الحديد ، ويأسف على فساده وانحطاطه عن العصور الجميلة التي سبقته ، وكان كثير من اليونان يعتقدون أن « كشف الحديد قد أضر بالإنسان(٨٣) » ؛ واضمحلت الفنون وأهمل التصوير ، وقنع المثالون بنحت التماثيل الصغيرة الملونة ؛ وانحطت صناعة الفخار لأن الصناع غفلوا عما كان يمتاز به فن ميسيني وكريت من نزعة طبيعية حيوية ، فاتبعوا « طرازاً هندسياً » لا حياة فيه ، ظل يسيطر على فن الخزف اليوناني جملة قرون .

ولكن الخسارة لم تحل بكل شيء ، فقد امتزج العنصر الجديد بالقديم امتزاجاً سريعاً في خارج لكونيا Laconia وامتزاجاً بطيئاً في داخلها ، على الرغم من تصميم الغزاة الدوريين على أن يحتفظوا بدمائهم نقية طاهرة من دماء الأهلين المغلوبين ، وعلى الرغم من الكراهية العنصرية بين الدوريين والأيونيين ، وهي الكراهية التي اصطبغت بها بلاد اليونان على بكرة أبيها . ولعل امتزاج دم الآخيين والدوريين القوى النشيط بدم الشعوب التي هي أقدم من هذين الشعبين وأرق ، والتي كانت تقيم في جنوبي اليونان ، لعل هذا كان ذا أثر حافز منشط . ومهما يكن لهذا الامتزاج من أثر فإن النتيجة النهائية التي أسفر عنها بعد قرنين من الزمان هي نشأة شعب جديد مختلف عن الشعوب التي كانت تعيش من قبل في تلك البلاد ، امتزجت فيها دماء عناصر « البحر المتوسط » و « الألبي » و « الشمالي

(النوردى) » والعناصر الأسـيوية امتزاجاً أدى إلى كثير من القلق والاضطراب .

كذلك لم تمح الحضارة الميسينية من الوجود . فقد بقيت الحياة كامنة طوال قرون العنف والفوضى فى بعض عناصر التراث الإيجى — كطرائق الحكم والنظام الاجتماعى ، وعناصر الصناعات اليدوية والفنية ، وأساليب التجارة وطرقها ، وأشكال العبادة وأدواتها[٨٤] ، والمهارة فى صنع الخزف والنقش ، وفن طلاء المظلمات ، وأساليب الزينة وطرز العمارة . ويعتقد اليونان أن النظم الكريتية قد انتقلت إلى اسپارطة[٨٥] ، وقد ظلت الجمعية الآخية عنصراً أساسياً فى بلاد اليونان الدمقراطية . وأكبر الظن أن تصميم الهياكل الدورية قد أخذ عن الميسينيين[٨٦] ، بعد أن خلعت عليه الروح الدورية حرية وتناسقاً وقوة . وانتعشت التقاليد الفنية انتعاشاً بطيئاً فرفعت كورنثة وطيبة وسكيون Sicyon وأرجوس إلى نهضة فنية مبكرة شبيهة بالنهضة الأوربية التى أعقبت العصور الوسطى ، وجعلت الفن والغناء يبتسمان فى اسپارطة العنيدة نفسها ، حيناً من الدهر ، وظلت هذه التقاليد تبعث الحياة فى الشعر الغنائى طوال هذا العصر المظلم الذى لا تاريخ له ، وحملها معهم البلاسجيون والآخيون ، والأيونيون ، والميناويون المنفيون فى هجرتهم إلى جزائر بحر إيجة وإلى آسية هرباً من الغزاة الفاتحين ، وأعانت المدن التى أقامها المستعمرون على أن تفوق أمهاتها فى الآداب والفنون . ولما جاء المنفيون إلى الجزائر وإلى أيونيا وجدوا بقايا الحضارة الإيجية فاستولوا عليها واستعانوا بها . فقد احتفظ عصر البرنز بشىء من المهارة والنضارة القديمتين فى المدن القديمة بهذه الجزائر ، لأنها كانت أقل اضطراباً من مدن القارة الأوربية ، وهناك فى هذه الأرض الأسيوية بدأت بعدئذ يقظة اليونان الجديدة .

وبعض هذا الاتصال بين خمس ثقافات — الكريتية والميسينية والآخية ، والدورية والشرقية — الشباب من جديد فى حضارة بدأ يدب فيها دبيب

الفناء ، حضارة فقدت رقتها فى أرض القارة بفعل الحرب والنهب ، وأصبحت حضارة منحلة مخنثة فى كريت لما ركنت إليه عبقرية أهلها من ترف . وقد احتاج امتزاج السلالات والأساليب قروناً عدة حتى استقر بعض الاستقرار ، ولكنه أعان على خلق ما فى التفكير اليونانى والحضارة اليونانية من تنوع ، ومرونة ، ودقة منقطعة النظير . وليس من حقنا أن ننظر إلى الثقافة اليونانية على أنها وميض لاح فجأة ، وبطريقة غير عادية ، فى بحر مظلم من الهمجية ، بل إن علينا أن ننظر إليها على أنها عملية بطيئة كدرة أدت إلى خلق شعب غنى غنىّ يكاد أن يكون مفرطاً فى تنوع دمائه وفى ذكرياته ، تحيط به وتتحداه ، وتعلمه ، جموع همجية ، وإمبراطوريات قوية وحضارات قديمة *

الكتاب الثاني

نهضة بلاد اليونان

من ١٠٠٠ إلى ٤٨٠ ق . م .

أهم الحوادث فى الكتاب الثانى

مرتبة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ السابقة لعام ٤٨٠ عدا ٧٧٦ تواريخ غير مؤكدة. إذا ذكر اسم مكان غير مصحوب بوصف آخر دل ذكره على تاريخ استيطانه الأول كما تذكره الروايات التاريخية المأثورة :

ق . م .			
١١٠٠	–	٨٠٠	هجرة الأيولين والأيونيين .
١٠٠٠	–		تشييد هيكل هيرا فى أولمبيا .
٨٤٠	–		عصر هومر المرجح .
٧٧٦	–		الألعاب الألمبية الأولى .
٧٧٠	–		سينوب وكوميا .
٧٥٧	–	٦	سيزكس وترابيزس .
٧٥٢	–		العهد الأول للرؤساء (الأرخون) الذين كانوا يتولون الأمور عشر سنين .
٧٥٠	–	٦٥٠	اليونان يستقرون فى شبه جزيرة تراقية .
٧٥٠	–	٥٩٤	عصر الأشراف .
٧٥٠	–		عصر هزيود المرجح .
٧٣٥	–		ناكسوس و (صقلية) .
٧٣٤	–		كرسيرا وسرقوسة .
٧٣٠	–	٢٩	رجيوم ، ولينتيني : وكتانا .
٧٢٥	–	٧٠٥	الحرب المسينية الأولى .
٧٢٥	–		النقود فى ليديا وأيونيا .
٧٢١	–		سيبارس ، ٧١٠ كروتونا .
٧٠٥	–		تاراس ؛ ٧٠٠ ، بوسيدونيا ؛ بدء استعمال الحجارة فى العمارة اليونانية .
٦٨٣	–		العصر الأول للحكام التسعة الذى كان يدوم عاماً واحداً .
٦٨٠	–		فيدون طاغية أرجوس ؛ أول ظهور العملة الرسمية فى بلاد اليونان .
٦٧٦	–		أرثجراس طاغية فى سيكون .
٦٧٠	–		تربندر اللسبوسى الشاعر والموسيقى ؛ أركلوكس الپاروسى الشاعر ؛ أناشيد هومر لأبلو وديمتر .
٦٦٠	–		شرائع زلوكس فى لكرى .
٦٥٨	–		بيزنطية ، ٦٥٤ لمپساكوس .

ق . م .

٦٥٥ — ٦٢٥ كپسيلوس طاغية فى كورنثة .
٦٥١ — سلنيوس ؛ ٦٥٠ ، أبديرا وألبيا .
٦٤٨ — هيرا ، ميرون طاغية فى سكيون .
٦٤٥ — ٣١ الحرب الميسينية الثانية ، ترليوس الشاعر فى اسپارطة .
٦٣٥ — شرائع ليقورغ فى اسپارطة (؟) .
٦٣٥ — سيرينى (٦١٥) أبيدوس .
٦٢٥ — ٥٨٥ پرينيدر طاغية فى كورنثة .
٦٢٠ — شرائع دراكو فى أثينة .
٦١٥ — ثراسيبولوس طاغية فى ميليتس .
٦١٠ — شرائع كاروتداس فى كتانا .
٦٠٠ — نقراطس ؛ مساليا (مرسيليا) ؛ كليستنيس طاغية فى سكيون ، وبتاكس فى مثلينى ، وسپفو وألكيوس شاعرا لسپوس ، طاليس فيلسوف ميليتس ، ألكمان الشاعر فى اسپارطة ، نهضة فن النحت .
٥٩٥ — الحرب المقدسة الأولى .
٥٩٤ — شرائع صولون فى أثينة .
٥٩٠ — عصر الحكماء السبعة ، نشأة الحلف الأمفكتيونى ، والأرفية ، الهيكل الثانى لأرتميس فى إفسس .
٥٨٢ — الألعاب البينية والبرزخية الأولى ، تماثيل الأكروپولس وأپلو
٥٨٠ — أكراجاس ، إيسوپ السامونى ، صاحب الخرافات المشهورة .
٥٧٦ — الألعاب النيمية الأولى .
٥٧٠ — فلارس طاغيـة فى أكراجاس ؛ استسيكورس الهميرى الشاعر ؛ انكسمندر فيلسوف ميليتس .
٥٦٦ — الألعاب الأثينية الجامعة الأولى .
٥٦١ — ٦٠ حكومة الطاغية پيسستراتس الأولى .
٥٦٠ — ٤٦ كروسس الليدى يخضع أيونيا .
٥٥٨ — قرطاجة تستولى على صقلية وقورسقة .
٥٥٠ — إمپوريوم (اسپانيا) ، ٦٢٥ إيليا (إيطاليا) .
٥٤٦ — ٢٧ حكومة الطاغية پيسستراتس الثانية
٥٤٥ — فارس تخضع أيونيا .
٥٤٤ — انكسمينس فيلسوف ميلتس .
٥٤٠ — هيپوناكس شاعر إفسوس .

ق.م.

٥٣٥ — ١٥ پولكراتس طاغيــة ساموس ؛ ثيودورس فنان ساموس ؛ أنكريون شاعر تيوس .

٥٣٤ — ثبسيس يوطد قواعد التمثيل فى أثينة .

٥٣٠ — ثيجنيس شاعر مجارا .

٥٢٩ — ٥٠٠ الفيلسوف فيثاغورس فى كروتانا .

٥٢٧ — ١٠ هپياس طاغية أثينة .

٥٢٠ — بدء هيكل الألمپيوم فى أثينة .

٥١٧ — سمنيدس شاعر كيوس .

٥١٤ — مؤامرة هرمديوس وارستوجيتون .

٥١١ — فرينكوس الممثل الأثينى .

٥١٠ — كروتونا يدمر سيبارس .

٥٠٧ — كليسثنيز يوسع نطاق الدمقراطية فى أثينة .

٥٠٠ — هكتيوس جغرافى ميليتس .

٤٩٩ — أيونيا تثور ؛ مسرحية إسكلس الأولى .

٤٩٧ — اليونان الأيونيون يحرقون سرديس .

٤٩٤ — الفرس يغلبون الأيونيين فى لادى .

٤٩٣ — شمستكليز حاكم (أرخون) فى أثينة .

٤٩٠ — مرثون ؛ هيكل أفيا فى إيجنيا .

٤٨٩ — أرستيديز حاكم (أرخون) ؛ محاكمة ملتيادس .

٤٨٨ — ٧٢ ثيرون طاغية فى أكرجاس .

٤٨٧ — اختيار الأرخونيين بالقرعة لأول مرة .

٤٨٥ — ٤٧٨ جيلون طاغية فى سرقوسة .

٤٨٥ — إفكارمس يوطد دعائم الملهاة فى سرقوسة .

٤٨٢ — نفى أرستيديز .

٤٨٠ — معارك أرتميسيوم ، وترموبيل ، وسلاميس ، وهميرا ؛ أجلاداس الأرجوسى المثال .

٤٧٩ — معركتا بلاتية ومكالى .

الباب الرابع

اسـپارطة

الفصل الأول

البيئة المحيطة ببلاد اليونان

لننظر إلى خريطة للعالم القديم ونطلع فيها على جيران بلاد اليونان القديمة ، ونعنى ببلاد اليونان أو هلاس جميع البلاد التى كان يسكنها فى الزمن القديم شعوب تتكلم اللغة اليونانية .

ولنبدأ بالنظر إلى الأصقاع التى دخل منها إلى تلك البلاد كثير من الغزاة — فوق تلال إپيروس وعلى طول وديانها . وما من شك فى أن أسلاف اليونان قد أقاموا فى تلك الأماكن كثيراً من السنين ، لأنهم أنشأوا فى ددونا Dodona مزاراً لزيوس إله السماء المرعد . ولقد ظل اليونان حتى القرن الخامس يتلقون الوحى فى هـذا المكان ويقرأون ما تريده الآلهة فى غليان المراجل أو حفيف أوراق البلوطة المقدسة[1] . ويخترق نهر أكرون الجزء الجنوبى من إپيروس ، وسط أخاديد بلغت من الظلمة والعمق درجة جعلت شعراء اليونان يصفونها بأنها مدخل الجحيم أو أنها هى الجحيم نفسها . وكان معظم أهل إپيروس فى أيام هومر يتكلمون اللغـة اليونانية ويتبعون الأساليب اليونانية ، ثم طغت عليهم موجات جديدة من الهمج أهل الشمال وحالت بينهم وبين المدينة .

وإلى شمال إبيروس على ساحل البحر الأدرياوى تقع إليريا Illyria ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه بلاداً قليلة السكان أهلها من الرعاة يبيعون الماشية والعبيد بملح الطعام(٢) . وعلى هـــذا الساحل عند إيدمنوس Epidamnus (وهى ديركيوم Dyrrachium الرومانية ودرزو الحالية) أنزل قيصر جنوده وهو يطارد بمبى . وعلى الجانب الآخر من البحر الأدرياوى اغتصب اليونان السواحل الجنوبية من القبائل المستوطنة هناك : وأدخلوا الحضارة فى إيطاليا ، (وقد عادت تلك القبائل فى آخر الأمر فاكتسحتهم وابتلعت معهم بلادهم الأصلية وضمت بلادهم إلى إمبراطورية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم) . وكان من وراء جبال الألب الغاليون ، الذين أخلصوا الود فيما بعد لمساليا (مرسيليا) ؛ وفى الطرف الغربى من البحر المتوسط تقع أسپانيا ، وكانت قد تمدنت إلى حد ما على يد الفينيقيين والقرطاجيين حين أنشأ اليونان فى عام ٥٥٠ مستعمرتهم الوجلة فى إمپريوم (أمپورياس Ampurias) . وكانت قرطاجنة الإمبراطورية تقع على ساحل أفريقية أمام صقلية تتسلط عليها وتهددها ، وقد اختط هذه المدينة ديدو Dido والفينيقيون ، وتقول الرواية إن ذلك كان فى عام ٨١٣ . ولم تكن وقت إنشائها قرية صغيرة بل كانت مدينة عامرة يبلغ سكانها ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، تحتكر تجارة البحر المتوسط الغربى وتسيطر على يتكا ، وهپو Hippo وثلثمائة بلدة أخرى فى أفريقية ، ومناجم غنية ، ومستعمرات فى صقلية ، وسردينية ، وأسپانيا ، وقد قدر لهذه الحاضرة ذات الثروة الطائلة أن تقود الكفاح ضد اليونان من ناحية الغرب ، كما قدر لبلاد الفرس أن تقوده من ناحية الشرق .

وإلى شرق هذه المدينة على ساحل أفريقية كانت تقع مدينة قورينة اليونانية ، وفى مؤخرتها بلاد اللوبيين المجهولة ، وإلى شرقها مصر . وكان معظم اليونان يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضارتهم قد جاءتهم من مصر . وتعزو قصصهم نشأة كثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال كدموس

Cadmus ودانوس Danaus جاءوا من مصر أو نقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينيقية وكريت[٣] . وقد انتعشت التجارة المصرية وبعث الفن المصرى من جديد فى عهد الملوك الساويين (٦٦٣ — ٥٢٥) ، وفتحت الثغور الواقعة على نهر النيل لتستقبل التجارة اليونانية لأول مرة فى التاريخ : وزار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين — أمثال طاليس ، وفيثاغورس ، وصولون ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، فأعجبوا أشد إعجاب بعظيم حضارتها وقدمها ؛ ولم يجدوا فيها برابرة همجاً كالذين كانوا يجدونهم فى الأقطار الأخرى ، بل وجدوا فيها أقواماً كانت لهم حضارة ناضجة ، وفنون راقية ، قبل سقوط طروادة بألفى عام . وكان مما قاله أحد الكهنة المصريين لصولون : « إنكم أيها اليونان لا تزالون أطفالا ، ثرثارين ، مغرورين ، لا تعرفون شيئاً عن الماضى . ولما أخذ هكتيوس الميلتى يزدهى على الكهنة المصريين ويقول لهم إن فى وسعه أن يذكر لهم سلسلة نسبه التى تنتهى بعد خمسة عشر جيلا إلى أحد الآلهة ، أطلعوه فى هياكلهم على ٣٤٥ تمثالا لكبار الكهنة كل منهم ابن الذى قبله ويتكون من مجموعهم ٣٤٥ جيلا تبدأ من العهد الذى كان فيه الآلهة يحكمون الأرض[٥] . وكان علماء اليونان أمثال هيرودوت وأفلوطرخس يرون أن العقيدة الأرفية القائلة بأن الخلق يحاسبون بعد موتهم على ما قدموا من خير وشر فى حياتهم ، وأن الاحتفالات التى كانت تقام لبعث دمتر وپرسفونى فى إليوسيس ، مأخوذة كلها عن عبادة إيزيس وأوزريس المصريين . وأكبر الظن أن طاليس الميليتى تعلم الهندسة النظرية فى مصر ، وأن روكوس Rhoecus وثيودورس الساموسيين قد عرفا فيها فن صب الآنية المجوفة البرنزية ، وفى مصر ازداد مهارة فى صناعة الفخار والنسيج وطرق المعادن والحفر على العاج[٧] . وعن المصريين والأشوريين والفينيقيين والحثيين أخذ المثالون اليونان طراز تماثيلهم الأولى — وجوهها المستوية ، وعيونها

المائلة ، وأيديها المقبوضة ؛ وأطرافها المعتدلة المتصلبة(*) . وقد وجد مهندسو اليونان بعض إلهامهم الفني ، الذي أوحى إليهم بالعمد المحززة وبالطراز الدورى ، فى عمد سقارة ، وبنى حسن ، كما وجدوا بعضه الآخر فى بقايا ميسيني اليونانية(٨) . وكما أن بلاد اليونان قد تعلمت فى شبابها من مصر واعترفت لها بالفضل ، فإنها حين خارت قواها ماتت فى أحضان مصر إذا جاز هذا التعبير ، فقد مزجت فى الإسكندرية فلسفتها ، وطقوسها الدينية ، وآلهتها بنظائرها فى مصر وبلاد اليهود حتى تبعث وتحيا حياة جديدة فى رومة وفى المسيحية .

وكان أثر فينيقية فى اليونان لا يزيد عليه إلا أثر مصر نفسها . فقد كان تجار صور وصيدا المغامرون وسيلة طوافة لنقل الثقافة ، ونشروا فى جميع أقاليم البحر المتوسط علوم مصر والشرق الأدنى ، وصناعاتهما ، وفنونهما . وطقوسهما الدينية . ولقد بز الفينيقون اليونان فى صنع السفن ولعل اليونان قد أخذوا هذه الصناعة عنهم ؛ وعلموهم كذلك أساليب فى طرق المعادن ، والنسيج والصباغة خيراً من أساليبهم(٩) ، وقد اشتركوا مع كريت وآسية الصغرى فى نقل الصورة السامية للحروف الهجائية إلى بلاد اليونان بعد نمائها وتطورها فى مصر واليونان وسوريا : وأخذت بلاد اليونان عن بابل نظام موازينها ومكاييلها(١٠) ، وساعتها المائية ومزولتها(١١) ، ووحدات العملة المتداولة فيها ، وهى الأبول obol والمينا mina ، والتالنت (الوزنة)(١٢) ، وقواعد علم الفلك ، وآلاته ، وسجلاته ، وحسابه ، ونظامها الستيني الذى يقضى بتقسيم السنة والدائرة والزوايا الأربع القائمة التى تتقابل فى مركزها إلى ٣٦٠ جزءاً ، وتقسيم كل درجة إلى ٦٠ دقيقة وكل دقيقة من هذه الستين إلى ٦٠ ثانية ، ولعل معرفة طاليس بعلم الفلك عند المصريين

(*) انظر تمثال كاريز Cihares الجالس الذى عثر عليه فى ميليتس والمحفوظ فى المتحف البريطانى ، أو رأس كليوبس Cleobis الذى صنعه پليميدس Polymedes والمحفوظ فى متحف دلنى .

والبابليين هي التي أمكنته أن يتنبأ بكسوف الشمس(١٢) ، ولعل هزيود قد أخذ(١٣) عن بابل فكرته القائلة إن الفوضى والعماء أصل الأشياء جميعها ؛ وإن قصة إشتار وتموز لتشبه قصتى أفروديتي وأدنيس ودمتر وپرسفونى شبهاً يدعو إلى الظن بأن الأولى هي الأصل الذى أخذت عنه القصتان الأخريان .

وكان بالقرب من الطرف الشرقى للمحيط التجارى الذى يضم أجزاء العالم القديم كله آخر أعداء اليونان ونعنى بهم الفرس . ولقد كانت حضارة بلادهم من بعض نواحيها — وإن كانت نواحى قليلة — أرقى من حضارة بلاد اليونان المعاصرة لها . فلقد أخرجت إلى العالم طرازاً من الرجل المهذب أرقى وأظرف من الرجل اليونانى فى كل ناحية من النواحى عدا حدة الذهن والتعليم ، كما أنشأت نظاماً للإدارة الإمبراطورية يفوق بلا جدال ذلك النظام الذى كانت تتزعمه أثينة واسپارطة ، ولم يكن ينقصه إلا حرص اليونان على الحرية . ولقد أخذ اليونان الأيونيون عن أشور قدراً من المهارة فى صنع تماثيل الحيوان ، كما أخذوا عنهم فى صناعة النحت المبكرة ميلهم إلى ضخامة التماثيل واستواء ما عليها من الملبس ، وأساليب الزينة فى الأطناف والقوالب ، وفى طراز النقش البارز فى بعض الأحيان ، كما نشاهد ذلك فى لوحة أرستيون الجميلة(١٤) . وكانت لليديا علاقات وثيقة بأيونيا ، وكانت سرديس عاصمتها الزاهرة بمثابة البيت التجارى الذى تصفى فيه المتاجر والأفكار المتبادلة بين بلاد النهرين والمدن اليونانية المنتشرة على الساحل . وقد اقتضت الأعمال التجارية الواسعة قيام المصارف ، واضطرت الحكومة الليدية إلى إصدار عملة مضمونة من الدولة فى عام ٦٨٠ . وسرعان ما حاكى اليونان هذا العمل الجليل ذا الفائدة العظمى للتجارة ، وأدخلوا عليه ضروب الإصلاح والتحسين ، وكان له من الآثار التى لا تقل فى خطرها وسعتها عن استخدام الحروف الهجائية . وكان أثر فريجيا فى بلاد اليونان أقدم من هذه الآثار السابقة . وأدل على حذق الفريجيين . فقد دخلت سيبيلى أمها

الإلهة من أول الأمر إلى دين اليونان ، وأضحت موسيقى الناى وما يصحبها من تهتك هى « الطراز الفريجى » الشائع بين عامة الشعب ، والذى أقلق بال رجال الأخلاق اليونان . وعبرت هذه الموسيقى العنيفة مضيق الهلسپنت من فريجيا إلى تراقية ، واستخدمت فى طقوس ديونيسس . وكان إله الخمر أهم ما أهدته تراقية إلى بلاد اليونان ، ولكن مدينة تراقية هى أبدرا المتأغرقة أرادت أن تعوض بلاد اليونان عما أصابها بهذه الهدية فأهدت إليها ثلاثة من فلاسفتها هم ليوسپس Leucippus ودمقريطس Democritus ، وپروتجراس Protagoras . وتراقية هى التى انتقلت منها طقوس ربات الشعر إلى بلاد اليونان ، ولقد كان واضعو فن الموسيقى اليونانية نصف الخرافيين — أرفيوس ، وموسايوس Mausaeus وثاميريس Thamyris — مغنين وشعراء تراقيين .

وننتقل بعد من تراقية نحو الجنوب إلى مقدونية ، وبذلك نكون قد أتممنا دراسة كل ما يحيط ببلاد اليونان من حضارات . ومقدونية بلاد جميلة المناظر الطبيعية ، كانت أرضها فى الزمن القديم غنية بالمعادن ، وسهولها الخصبة تنتج الفاكهة والحب ، وجبالها تنشئ أقواماً صلاباً قدر لهم فيما بعد أن يفتحوا بلاد اليونان . وكان سكان الجبال والفلاحون من أهلها من عناصر مختلطة ، أهمها الإليريون والتراقيون ، وربما كانت لهم صلات فى الدم بالدوريين الذين فتحوا الپلوپونيز . وكان حكامها الأشراف يدعون أنهم من نسل اليونان (ومن أبناء هرقل نفسه) ، وكانوا يتكلمون لهجة يونانية . وكانت عاصمتهم الأولى إدسا Edessa تقع فوق هضبة واسعة بين السهول الممتدة إلى إپيروس وسلاسل الجبال التى تصل إلى بحر إيجة . وكان إلى الشرق منها مدينة پلا Pella التى أضحت فيما بعد عاصمة فليب والإسكندر ، وبالقرب من البحر مدينة پدنا ، التى هزم فيها الرومان المقدونيين الفاتحين وكسبوا بعد هذه الهزيمة حق نقل حضارة اليونان إلى العالم الغربى .

تلك إذن هى البيئة التى كانت تحيط ببلاد اليونان : حضارات كحضارة مصر وكريت وبلاد النهرين أهدت العناصر الفنية فى الصناعة ، والعلوم ، والفن ، فاستحالت على أيدى اليونان إلى أزهى صورة فى التاريخ ؛ وإمبراطوريات كبلاد فارس وقرطاجنة تؤثر فيها منافسة التجارة اليونانية ، وينضم بعضها إلى بعض لمحاربة اليونان وجعلها ولاية خاضعة لسلطانها غير قادرة على أذاها ؛ وإلى الشمال جموع حربية النزعة ، تتكاثر دون تفكير فى العواقب ، وتتنقل فى قلق واضطراب ، وتعبر بعد زمن قد يقصر وقد يطول الحواجز الجبلية القائمة بينها وبين بلاد اليونان ، وتفعل بها ما فعله الدوريون من قبل فتمزق ما سماه شيشرون الإطار اليونانى الموشى به الثوب الهمجى(١٥) ، وتدمر حضارة لا تفقه لها معنى . وقلما كانت هذه الأمم المحيطة ببلاد اليونان تعنى بما كان يعده اليونان جوهر الحياة وأغلى ما فيها ألا وهو الحرية — حرية الحياة والتفكير ، والقول والعمل . وكان كل شعب من هذه الشعوب ، عدا الفينيقيين ، يرزح تحت حكم الطغاة المستبدين ، ويسلم أرواح بنيه إلى الخرافات والأوهام ، ولا يعرف إلا القليل من بواعث الحرية أو الحياة العقلية . وهذا هو السبب الذى حدا باليونان إلى أن يطلقوا عليهم بلا تمييز بينهم اسم البَرْبَرُوى barbaroi أى الهمج ؛ فالهمجى فى اعتقادهم هو الذى لا يرضى بالاعتقاد دون تفكير ، والذى يعيش مسلوب الحرية .

ثم تتنازع الفكرتان — صوفية الشرق وعقلية الغرب — آخر الأمر جسم بلاد اليونان وروحها ، فتنتصر العقلية فى عهد بركليز ، كما انتصرت فى عهد قيصر ، وليو العاشر ، وفردريك ؛ ولكن الصوفية كانت تعود على الدوام . وتبادل النصر بين هاتين الفلسفتين المكملة كلتاهما للأخرى هو الذى تتكون منه أهم المراحل فى قصة الحضارة الغربية .

الفصل الثاني

أرجـــوس

وأخذت بلاد اليونان الصغيرة تمد رقعتها داخل هذه الدائرة من الأمم المحيطة بها حتى لم يكد يبقى جزء من شاطئ البحر المتوسط لم يعمـــره أبناؤها . ذلك أن اليد الهزيلة التي مدت أصابعها الرفيعة إلى البحر نحو الجنوب لم تكن إلا جزءاً صغيراً من بلاد اليونان التي يعنينا تاريخها في هذا الكتاب ؛ فقد انتشر اليونان ، الذين لا تصدهم عن غرضهم عقبات مهما قويت في أثناء تطورهم ونمائهم ، في كل جزيرة من جزائر بحر إيجة ، وإلى كريت وقبرص ، وإلى مصر وفلسطين ، وسوريا ، وما بين النهرين ، وآسية الصغرى ، وإلى بحر مرمرة والبحر الأسود ، وإلى شواطئ بحر إيجة وشبه الجزيرة الممتدة منه ، وإلى إيطاليا ، وغالة ، وصقلية ، وإلى شمال أفريقية . وقد أنشأوا في هذه الأقاليم جميعها دول مدن مستقلة متفرقة ولكنها يونانية ، تتكلم اللغة اليونانية وتعبد الآلهة اليونانية ،وتكتب الآداب اليونانية وتقرؤها ، وتقوم بنصيبها في تقدم العلوم والفلسفة اليونانية ، وتمارس الدمقراطية على الطريقة اليونانية الأرستقراطية . وهم حين هاجروا من بلاد اليونان لم يتركوا موطنهم الأصلي وراءهم ؛ بل حملوه معهم ، حتى أرضه نفسها ، أينما ذهبوا ، وقد جعلوا حوض البحر المتوسط بحيرة يونانية ومركزاً للعالم ، ودام على هذا الوضع قرابة ألف عام :

وأصعب ما يواجه مؤرخ الحضارة اليونانية القديمة ويثبط همته هو أن يؤلف من هذه الأعضاء المتفرقة في جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة

وقصة متصلة الأجزاء(*) . وسنحاول أن نفعل هذا بتلك الطريقة الشيقة طريقة الطواف فى رحلة بهذه الأجزاء . وسنضع أمامنا فى خلال هذه الرحلة خريطة ، لا تكلفنا غير قليل من الخيال ، وسننتقل من مدينة إلى مدينة فى العالم اليونانى ، وندرس فى كل مركز من هذه المراكز حياة الأهلين قبل الحرب الفارسية — أساليبهم الاقتصادية والحكومية ، ونشاط علمائهم وفلاسفتهم ، وما أنشدوه من الشعر وما أنتجوه من الفنون(**) . ولسنا ننكر أن فى هذه الطريقة عيوباً كثيرة : فالتتابع الجغرافى لن يتفق كل الاتفاق مع السياق التاريخى ، وسنضطر فى هذه الرحلة إلى أن نقفز من قرن إلى قرن ومن جزيرة إلى جزيرة ، وسنجد أنفسنا نتحدث إلى طاليس وأنكسمندر قبل أن نصغى إلى هومر وهزيود . ولكننا لا يضيرنا قط أن نرى الإلياذة وما فيها من فحش فى ضوء التشكك الأيونى ، أو أن نستمع إلى شكاية هزيود الشديد بعد أن زار المستعمرات الأيونية التى جاء منها والده المنهوك . وسنحيط بعض الإحاطة ، حين نصل فى آخر رحلتنا إلى أثينة ، بالنواحى الكثيرة الاختلاف لتلك الحضارة التى ورثتها والتى حافظت عليها ببسالة فى مرثون .

وإذا بدأنا رحلتنا من أرجوس حيث أقام الدوريون المنتصرون حكمهم ، وجدنا أنفسنا فى إقليم يونانى خالص : فى سهل غير مسرف فى خصبه ، ومدينة صغيرة مهوشة النظام ، ذات بيوت صغيرة من الآجر والجص ، وهيكل

(*) « إن كتابة تاريخ بلاد اليونان فى كل عصر من عصوره إلا القليل النادر منها من غير أن يتشتت اهتمامنا عمل من أصعب الأعمال ... ذلك أنه لا توجد وحدة دائمة متصلة أو مركز ثابت تستطيع أن تخضع له أعمال الدول اليونانية المتعددة وأهدافها » بيورى **Bury** من كتاب « المؤرخون اليونان الأقدمون » .

(**) سنقص التاريخ المعمارى للمدن اليونانية الصغرى فى هذه الفصول (الكتاب الثانى) حتى وفاة الإسكندر (٣٢٣) ، وذلك لكى نتحاشى العودة مراراً كثيرة إلى المكان الواحد .

على تلها ، وملهى فى الهواء الطلق على سفح ذلك التل ، وقصور متواضعة فى أماكن منها متفرقة ، وأزقة ضيقة ، وشوارع غير مرصوفة ، وعلى بعد منها البكر الجميل الجذاب المضطرب الأمواج . ذلك أن بلاد اليونان إنما تتكون من جبال وبحار ؛ والمناظر الجميلة الفخمة عادية فيها مألوفة إلى حد يجعل اليونان لايعنون بذكر ذلك الجمال فى كتبهم وإن كان يستحوذ على قلوبهم ويوحى إلى عقولهم . وشتاء البلاد بارد مطير ، وصيفها حار جاف ، وأهلها يزرعون فى الخريف ويحصدون فى الربيع ؛ والمطر فيها نعمة وبركة ، وزيوس مرسل المطر إله الآلهة . وأنهارها قصيرة ضحلة ، تتحول إلى سيول جارفة فى فصل الشتاء ، وتجف حتى تظهر الحصباء فى قيعانها فى حر الصيف . ولقد كان على طول الشاطئ اليونانى مائة مدينة فى حجم أرجوس وشبيهة بها ؛ وألف مدينة أخرى تشبهها ولكنها أقل حجماً منها ، وكلها ذات سيادة تغار على سيادتها ، يفصل كل واحدة عن الأخرى ما بينها من خصام شديد أو مياه خطرة ، أو تلال عديمة المسالك .

ويعزو أهل أرجوس منشأ مدينتهم إلى أرجس البيلاسجى ، البطل ذى المائة العين ، كما يعزون ازدهارها الأول إلى رجل مصرى يدعى دانوس Danaus قدم إليها على رأس جماعة من « الدنائيين » ، وعلم الأهلين طريقة إرواء حقولهم من الآبار. وليس من حقنا أن نسخر من هذه الأسماء الخيالية ؛ فقد كان اليونان يفضلون أن تنتهى بالأساطير تلك التواريخ الطويلة التى تنتهى عندنا نحن إلى الجهل والغموض . وقد أصبحت أرجوس ، تحت حكم تمنوس أحد الهرقليين الذين عادوا إليها ، أقوى المدن اليونانية بأجمعها ، وأخضعت لسلطانها تيرينز ، وميسينى وجميع الأراضى المحيطة بها . واستولى على زمام الحكم فيها حوالى عام ٦٨٠ أحد أولئك tyrranoi ، الذين أصبح حكمهم الطراز المألوف فى كبريات المدن اليونانية طوال القرنين اللذين أعقبا ذلك العهد ؛ ولعل هذا الطاغية المسمى فيدون Pheidon قد استولى على الحكم ،

كما استولى عليه أمثاله من الطغاة ، بأن تزعم طبقة التجار الآخذة قوتها فى الازدياد بعد أن ضموا إليهم العامة موقتاً ليسهل عليهم الوصول إلى غرضهم — وهو مقاومة سلطان الأشراف ملاك الأراضى . ولما هددت إپدروس وأثينة مدينة إيجينة خف فيدون لمساعدتها واستولى عليها لنفسه . واستعمل فيدون طريقة الموازين والمكاييل البابلية — ولعله أخذها عن الفينيقيين — كما استخدم نظام النقد الليدى الذى تضمنه الدولة . وأنشأ دار الضرب فى إيجينة وأضحت « السلاحف » (أى قطع النقد المنقوش عليها رمز الجزيرة) أول عملة رسمية فى بلاد اليونان القارية(١٦) .

وكان حكم فيدون الاستبدادى المستنير بداية عصر من الرخاء جاء إلى أرجوس وما حولها بكثير من الفنون حتى كان موسيقيو أرجوس أشهر الموسيقيين فى بلاد اليونان كلها فى القرن السادس قبل الميلاد(١٧) ، ومن هؤلاء لاسوس Lasus الهرميونى (Hermione) الذى اشتهر بين الشعراء الغنائيين فى عصره ، والذى أخذ عنه پندار Pindar مهارته فى هذا الضرب من الشعر . وفى أيامه وضع أساس مدرسة النحت الأرجوسية التى أهدت إلى بلاد اليونان پليكليتس كما أهدت إليها قواعدها الفنية ؛ ووجد التمثيل موطناً له فى تلك المدينة حيث أنشئت له دار تحتوى على عشرين ألف مقعد ؛ وشاد المهندسون فيها هيكلا لهيرا ، التى كانت تحبها أرجوس ، وتخصها بعبادتها ، وتعدها العروس الإلهة التى تتجدد بكارتها فى كل عام(١٨) لكن ما أصاب خلفاء فيدون من ضعف وفساد — هما نقمة الملكية — بالإضافة إلى الحروب المتعاقبة الطوال مع اسپارطه ، أوهن أرجوس ، واضطرها إلى أن تتخلى عن زعامة الپلوپونيز إلى السديمونيين Lacedaemonians ؟ وهى اليوم بلدة هادئة تختفى معالمها بين ما يحيط بها من حقول ، ولا تذكر إلا قليلا عن مجدها الغابر ، وتفخر بأن أهلها لم يهجروها قط فى أثناء تاريخها الحافل الطويل .

الفصل الثالث

لسكونيا

فى جنوب أرجوس ، وعلى مسافة بعيدة من البحر ، يشاهد السائح قلل سلاسل جبال البرنون Parnon ، وهى قلل جميلة المنظر ولكن أجمل منها فى العين نهر يوروتاس Eurotas الذى يجرى بينها وبين سلسلة تيجتوس فى الغرب ، وهو أكثر منها ارتفاعاً وأشد قتاماً وتكلل أعلاها الثلوج . وفى الوادى المعرض لفعل الزلازل يمتد « تجويف لسديمون » ، وهو سهل منبسط تحميه التلال من جميع جوانبه بحيث لا تحتاج حاضرته اسپارطة إلى أسوار تحميها . وكانت اسپارطة « المبعثرة » فى ذروة مجدها تتكون من خمس قرى منضمة بعضها إلى بعض يعمرها حوالى سبعين ألف نسمة . أما اليوم فهى قرية صغيرة لا يزيد سكانها على أربعة آلاف ، ولا يكاد يبقى شىء حتى فى متحفها الصغير ، من تلك المدينة التى حكمت فيما مضى بلاد اليونان وكانت سبباً فى خرابها .

١ — توسع اسبارطة

ولقد سيطر الدوريون من هذا الحصن الطبيعى المنيع على جنوبى البلوپونيز واستعبدوه . وكان هؤلاء الشماليون ذوو الشعر المرسل الطويل ، الذين قوت حياة الجبال أجسامهم وضرستهم الحروب ، كان هؤلاء الأقوام يرون أن الحياة إما فتح أو استرقاق ولا ثالث لها . وكانت الحرب عملهم المألوف يحصلون بها على رزقهم الشريف فى ظنهم ، كما كان غير الدوريين من أهل البلاد الذين أضعفهم اشتغالهم بالزراعة وطول عهدهم بالسلم فى حاجة ملحة إلى سادة يتولون أمورهم ويسيطرون عليهم . وكان أول ما فعله ملوك اسپارطة ، الذين

يدعون أنهم من سلالة الهرقليين الذين وفدوا إلى البلاد منذ عام ١١٠٤ ، أن أخضعوا سكان لكونيا الأصليين ثم هاجموا مسينيا Messinia : وكانت تلك الأراضي الممتدة فى الطرف الجنوبى الغربى من البلوبونيز مستوية وخصبة إذا قيست إلى سائر أجزاء شبه الجزيرة ، وتقوم بحرثها قبائل هادئة مسالمة . ويقص علينا پوسنياس كيف ذهب أرستوديموس Aristodemus ملك مسينيا إلى مهبط الوحى فى دلفى ليستشيره فى الوسائل التى يستطيع بها أن يهزم الاسپارطيين ، وكيف أمره أپلو أن يضحى بعذراء يجرى فى عروقها دمه الملكى ، وكيف قتل ابنته هو وخسر الحرب(١٩) (وربما كان سبب خسرانه أنه كان مخطئاً فى اعتقاده أنه قتل ابنته) ، وكيف قاد أرستومينس Aristomenes الشجاع الميسينيين بعد جيلين من ذلك الوقت فى ثورة جامحة على حكامهم الفاتحين ، وكيف ظلت مدنهم تسع سنين صابرة على الهجوم والحصار ولكن الإسپارطيين ظفروا بهم آخر الأمر ، فأخضعوا الميسينيين وفرضوا عليهم جزية سنوية تعادل نصف محصولاتهم ، وساقوا نصف عددهم وضموهم إلى أقنان هيلوت Helot :

والصورة التى ترتسم فى مخيلتنا للمجتمع اللكونى قبل ليقورغ تتكون ، كما تتكون بعض الصور الملونة القديمة ، من ثلاث طبقات ، العليا منها هى طبقة السادة الدوريين ، ويعيش معظمهم فى اسپارطه على منتجات الحقول التى يملكونها فى الريف والتى يحرثها لهم الهيلوتيون (الأرقاء) . وكان بين هاتين الطبقتين من الوجهة الاجتماعية ، ويحيط بهما من الوجهة الجغرافية ، طبقة البريئيسيين Perioeci (الساكنين حولهم) ، وهم قوم أحرار يسكنون فى مائة قرية أو على تخوم لكونيا ، أو يشتغلون بالتجار أو الصناعة فى المدن ، يؤدون الضرائب ويخدمون فى الجيش ولكنهم لا نصيب لهم فى حكم البلاد ، وليس لهم حق الزواج من الطبقة الحاكمة . وكانت أحط الطبقات وأكثرها عدداً طبقة الهيلوتيين ، وقد سموا بهذا الاسم —

— على حد قول استرابون — نسبة إلى مدينة هيلوس ، وكان أهلها من أول من استعبدهم الاسبارطيون[٢٠] . وقد استطاعت اسبارطة بالغزو السافر لسكان لكونيا من غير الدوريين أو باستيراد أسرى الحرب أن تجعل لكونيا بلاداً يعمرها نحو ٠٠٠ر٢٢٤ من الهيلوتين ، ٠٠٠ر١٢٠ من البريثيسين، ٠٠٠ر٣٢ رجل وامرأة وطفل من طبقة المواطنين(*)[٢١] ؛

وكان الهيلوتيون يتمتعون بجميع الحريات التى يستمتع بها أقنان الإقطاع فى العصور الوسطى ، فكان للواحد منهم أن يتزوج كيف شاء ، وأن يكون له أبناء لا يهتم بعددهم أو ما سوف يؤول إليه أمرهم ، ويستغل الأرض بطريقته هو ، ويعيش فى قريته مع جيرته ، لا يقلقه مالك أرضه الغائب عنها ، ما دام يؤدى إلى هذا المالك بانتظام إيجارها الذى حددته لها الحكومة . وكان هذا الفن مرتبطاً بالأرض ولكن مالكها لم يكن فى مقدوره أن يبيعه أو يبيعها وكان فى بعض الحالات يؤدى خدمات منزلية فى المدينة ؛ وكان ينتظر منه أن يقوم على خدمة سيده فى الحرب ، وأن يحارب دفاعاً عن الدولة إذا ما طلب إليه أن يحارب من أجلها ، فإذا أبلى فى الحرب بلاء حسناً فقد ينال حريته . ولم تكن حاله الاقتصادية فى الظروف العادية أسوأ من حال المزارعين القرويين فى سائر أجزاء اليونان الخارجة عن أتكا ، أو الفعلة غير المهرة فى مدينة من المدن الحديثة : وكان مما يخفف عنه عبء الحياة مسكنه الذى يملكه ، وعمله المنوع ، وما حوله من حقول وأشجار هادئة تؤنسه وتعينه على عيشه ؛ ولكنه كان من الناحية الأخرى معرضاً على الدوام لأن تطبق عليه القوانين العسكرية ، وأن تفرض عليه رقابة الشرطة السرية تقتله فى أية لحظة من غير سبب أو محاكمة .

وكان الساذج فى لكونيا كما كان فى غيرها من بلاد العالم يؤدى الجزية إلى الشاطر الماكر : وتلك عادة لها ماض قديم مبجل ومستقبل مبشر بطول البقاء ؛

(*) هذه الأرقام بطبيعة الحال ظنية كلها ، تستند إلى إشارات قليلة وفروض كثيرة .

وسبب ذلك أن طيبات الحياة فى أكثر الحضارات تأتى بها وتنظم تصريفها عملية البيع والشراء الهادئة السوية : فالشاطر الماكر يحملنا على أن ندفع فى الكماليات التى لا يتيسر مضاعفتها وفى الخدمات التى يؤديها لنا أكثر مما يستطيع الساذج أن يحصل عليه فى نظير ما ينتجه من الضرورات التى يسهل إنتاجها وتعويض ما يستهلك منها . أما فى لكونيا فقد توصل بعضهم إلى تركيز الثروة فى أيديهم بوسائل بادية للعين منفرة ، ملأت قلوب الهيلوتيين غيظاً بلغ من الشدة حداً جعل اسپارطة فى كل عام تقريباً مهددة بالثورات التى تعرض كيان الدولة لأشد الأخطار .

٢ — عصر اسبارطة الذهبى

كانت اسپارطة فى هذا الماضى الغامض قبل أن يأتيها ليقورغ مدينة كسائر المدن اليونانية ازدهر فيها الفن والأغانى كما لم يزدهرا قط بعد أيامه . وكانت الموسيقى أكثر الفنون انتشاراً فيها وهى قديمة فيها قدم السكان أنفسهم ، ذلك أننا مهما أوغلنا فى القدم نجد اليونان يغنون . وإذ كان تاريخ اسبارطة لا تنقطع منه الحروب فإن موسيقاها قد اصطبغت بالصبغة العسكرية — وكان أسلوبها هو « الأسلوب الدورى » البسيط القوى . أما غيره من الأساليب الموسيقية فلم يكن يثبط فحسب ، بل كان كل خروج عن هذا النمط الدورى يعاقب عليه القانون ؛ وحتى ترپندر Terpander نفسه ، وهو الذى أخمـد بأغانيه فتنة قامت فى المدينة ، قد حكم عليه الإفوريون(*) بغرامة وسمرت قيثارته فى جدار لأنه جرؤ على أن يزيد على أوتاوها وتراً جديداً لتنسجم نغماتها مع صوته ؛ ولم يسمح لتيموثيوس Timotheus فى عهد آخر من عهودها بأن يشـترك فى المباريات

(*) طبقة الحكام الاسپارطيين .

الاسپارطية إلا بعد أن نزع بأمر الإفوريين ما أضافه من الأوتار الشائنة المرذولة على قيثارة ترپندر وكان قد زاد هذه الأوتار من سبعة إلى أحد عشر(٢٣) .

وقد وجد فى اسپارطة ، كما وجد فى إنجلترا ، مؤلفون عظام فى الموسيقى ، حين كانت تستورد هؤلاء المؤلفين من خارجها ؛ فقد استدعيت حوالى عام ٦٧٠ ترپندر من لسپس بأمر الوحى فى دلفى ، حسب زعمهم ، ليعد مباراة فى الغناء الجماعى فى الاحتفال بعيد كرنيا Carneia . وكذلك استدعى ثاليتاس Thaletas من كريت حوالى عام ٦٢٠ كما استدعى بعد ذلك بقليل ترتيوس Tyrteus ، وألكمان Alcman ، وپلمنستوس Polymnestus. وقد وجه هؤلاء معظم جهودهم لوضع ألحان وطنية وتدريب الفرق على إنشادها . وقلما كانت الموسيقى تعلم للأفراد من الاسپارطيين(٢٤) ، فقد بلغت الروح الشيوعية فيها ، كما بلغت فى روسيا الثورية ، من القوة درجة جعلت الموسيقى تنزع فيها نزعة جماعية ، وكانت الجماعات فيها تتبارى فى إقامة حفلات الغناء والرقص الفخمة . وأتاحت هذه الأغانى الجماعية للاسپارطيين فرصة أخرى للتدريب ولتنظيم الجماهير ، لأن كل صوت فى الغناء كان خاضعاً للرئيس . ولم يشذ الملوك أنفسهم عن هذا الخضوع ، فقد حدث فى احتفال الهياسنثيا Hyacinthia أن غنى الملك أجلسوس فى الزمان والمكان اللذين عينهما له رئيس الفرقة . وكان الاسپارطيون على بكرة أبيهم ، كبيرهم وصغيرهم ، رجالهم ونساؤهم ، يشتركون أثناء الاحتفال بعيد الجمنوپيديا Gymnopedia فى تمارين رياضية جماعية ورقص متناسق وغناء . وما من شك فى أن هذه المناسبات كانت باعثاً قوياً للشعور الوطنى ، ومصرفاً ينصرف فيه ما يتأجج فى الصدور من هذا الشعور .

وكان ترپندر أى « مطرب الناس » أحد أولئك الشعراء الموسيقيين النابهين الذين بدأ بهم عصر ليسبوس المجيد فى الجيل الذى سبق سافو . وتعزو إليه الرواية المأثورة اختراع أناشيد الشراب المعروفة باسم اسكوليا scolia

وزيادة أوتار القيثارة من أربعة إلى سبعة ؛ ولكن القيثارة ذات السبعة الأوتار كانت ، كما سبق القول ، قديمة قدم ميتوس ، وأكبر الظن أن الناس كانوا يتغنون بفضائل الخمر فى شباب العالم الذى جر عليه النسيان ذيله ؛ والذى لا شك فيه أن ترپندر قد ذاع صيته فى لسبوس وعرف فيها بأنه مؤلف المقطوعات الغنائية الموسيقية ومغنيها . ولما أن قتل رجلا فى مشاجرة ، نفى من هذه المدينة ورأى من مصلحته أن يقبـل دعوة جاءته من اسپارطة بالذهاب إليها . ويلوح أنه أقام فيها بقية أيام حياته يعلم الموسيقى ويدرب الفرق الغنائية . ويقال لنا إنه قضى نحبه فى مجلس شراب : فبينما هو يغنى — ولعله كان يغنى النغمة التى أضافها فى أعلى السلم الموسيقى — قذفه أحد السامعين بتينة ، فدخلت فى فمه ، وفى قصبته الرئوية ، فسـدت مسالك التنفس ، وقضت عليه وهو فى نشوة الغناء(٢٥) .

وواصل ترتيوس عمل ترپندر فى اسپارطة فى أثناء الحرب الميسينية الثانية ؛ وقد جاءها من أفدنا Aphidna — وقد تكون فى لسيدمون ، وقد تكون وهو الأرجح فى أتكا . والذى لا شك فيه أن الأثينيين كانوا يروون فكاهة قديمة عن الأسپارطيين ، وهى أنهم حين كانت الدائرة تدور عليهم فى الحرب الثانية أنجاهم من الهزيمة الماحقة معلم أتيكى أعرج أيقظت أغانيه الاسپارطيين الخاملين وبعثت فى قلوبهم الشجاعة فانتصروا بذلك على أعدائهم(٢٦) . وجلى أنه كان ينشد أغانيه فى المجتمعات العامة بمصاحبة الناى ، وهو يعمل لتبديل الموت الحربى بالمجد الذى يحسد عليه . وقد جاء فى إحدى القطع الباقية من أغانيه : « ما أجمل أن يموت الرجل الشجاع فى الصف الأول من المجاهدين فى سبيل أوطانهم ؛ ألا فليثبت كل إنسان فى مكانه واقفاً على قدميه لا يتزحزح عن موقفه ، وليعض على نواجذه . . . . وليضم كل إنسان قدمه إلى قدم زميله ، ولتتلاحق الدروع ، ولتختلط الرياش المتماوجة ، والخوذ المتلاطمة ، وليتقدم المقاتلون متلاصـقين كالبنيان المرصوص ، تتلاقى فى معمعان القتال نصال سيوفهم وأسنة رماحهم(٢٧) » . ويقول

ليونداس ملك اسپارطة إن ترتيوس « كان رجلا بارعاً فى إثارة حميـــة الشباب[٢٨] .

وغنى ألكمال لأهل ذلك الجيل نفسه ، وكان صديقاً لترتيوس ومنافساً له ، ولكن غناءه كان أكثر تنوعاً من غناء صديقه وأقرب منه إلى مطالب هذه الحياة الدنيا . وكان موطنه الأصلى ليديا البعيدة . ويقول بعضهم إنه كان عبداً ولكن اللسديمونيين رحبوا به لأنهم لم يكونوا قد تعلموا كراهية الأجنبى التى أصبحت فيما بعـــد جزءاً من قانون ليقورغ . ولو أنه قد عاصر الاسپارطيين المتأخرين لرأوا فى مدائحه فى الحب والطعام وتعداده لأصناف الخمور اللكونية مسبة لهم . وتصفه الرواية التاريخية بأنه أشد الأقدمين شرهاً وشغفاً بالنساء . وهو يقول فى إحدى أغانيه إنه كان سعيد الحظ لأنه لم يبق فى سرايس ، وإلا لجبت خصيتاه وأصبح من كهنة سيبيل ، بل جاء اسپارطة حيث يستطيع أن يحب بكامل حريته حبيبته مجالستراتا Megalostrata ذات الشعر الذهبى[٢٩] . وبه تبدأ أسرة الشعراء العشاق التى تنتهى بأنكريون ، وهو حامل لواء « التسعة الشعراء الغنائيين » الذين اختارهم النقاد الإسكندريون ووصفوهم بأنهم أحسن شعراء بلاد اليونان القديمة(*) ؛ ولقد كان فى وسعه أن يكتب ترانيم وتهاليل ، وخمريات وغزلا ، وكان أحب شىء إلى الاسپارطيين ما وضعه من المقطوعات لتغنها البنات مجتمعات . وإنا لنجد فى هذه الأغانى من حين إلى حين قطعاً تكشف لنا عن قوة الشعور الخيالى التى هى جوهر الشعر وأساسه :

« لقد استغرقت فى النوم قلل الجبال ومسايلها ، وشعابها ، وخوانقها ، والزواحف التى تخرج من الأرض السوداء ، والوحوش التى تتربص على

(*) ألكمان ، ألسيوس Alcaeus ، سفو ، استسيكورس ، إبيكس ، أنكريون ، سمنيدس ، پندار ، بكليدس .

سفوح التلال ، وثول النحل ، والحيوانات المهولة فى قاع البحر الأرجوانى ، استغرقت كلها فى النوم ، ومعها أسراب الطيور المجنحة(*) (٣٠) .

ولنا أن نستنتج من وجود هؤلاء الشعراء أن الاسپارطيين لم يكونوا اسپارطيين على الدوام ، وأنهم لم يكونوا فى القرن السابق لليقورغ أقل شغفاً بالشعر والفنون الجميلة من سائر اليونان ؛ ولقد أضحت الأغانى الجماعية من الخواص الوثيقة الصلة بهم ؛ ولما أن أراد كتاب المسرحيات الأثينيون أن يكتبوا أغانى جماعية لمسرحياتهم ولم يروا بدّاً من أن يكتبوها باللهجة الدورية ، مع أنهم كتبوا الحوار باللهجة الأتيكية . وليس من السهل علينا أن نقول أى الفنون الأخرى قد ازدهرت فى لسديمون فى تلك الأيام ، أيام الهدوء والاطمئنان ، لأن الاسپارطيين أنفسهم قد غفلوا عن تأريخ تلك الأيام والاحتفاظ بتاريخها إن كانوا قد سجلوه ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن الفخار والبرنز اللكونيين قد اشتهرا فى القرن السابع ، وإن الفنون الصغرى قد أخرجت كثيراً من الكماليات التى تستمتع بها الأقلية المحظوظة . لكن هذه النهضة القصيرة الأجل قضت عليها الحروب المسينية . فقد وزعت الأراضى المفتوحة على الاسپارطيين ، وكاد عدد الأقنان أن يتضاعف نتيجة لهذا التوزيع . وكيف يستطيع ثلاثون ألفاً من المواطنين أن يخضعوا على الدوام أربعة أمثالهم من البرئيسيين وسبعة أمثالهم من الهيلوتيين ؟ إنهم

(*) ما أشبه هذه الأغنية « بأغنية الجائل الليل » لجيته . كأن إحساساً واحداً قد جمع بين شاعرين بين أحدهما والآخر خمسة وعشرون قرناً من الزمان :

فوق قلل التلال كلها
ساد السكون الآن
وفى أعالى الأشجار جميعها
لا تكاد تستمع
إلى نفس يهب .
إن الطيور نائمة بين الأغصان ،
على رسلك ، إنك أنت الآخر
لن تلبث حتى تستريح مثلها

لا يستطيعون ذلك إلا إذا نفضوا أيديهم من ممارسة الفنون ومناصرتها ، وجعلوا من كل اسپارطى جندياً شاكى السلاح مستعداً على الدوام لقمع الثورات أو السير إلى ميدان القتال . ولقد بلغوا هذه الغاية بفضل دستور ليقورغ ، ولكن هذا الدستور نفسه قد أخرج اسپارطة من تاريخ الحضارة بكافة معانيها اللهم إلا معناها السياسى وحده .

٣ — ليقورغ

يعتقد المؤرخون اليونان اعتقاداً لا يقبل الجدل أن ليقورغ هو واضع شرائع اسپارطة ، كما يعتقدون أن حصار طروادة وقتل أجممنون من الحقائق التاريخية المسلم بصحتها . وكما أن العلماء المحدثين قد ظلوا مائة عام كاملة ينكرون وجود طروادة وأجممنون ، فإنهم اليوم يترددون فى الاعتراف بأن ليقورغ شخص واقعى كان له وجود فى التاريخ . وتختلف التواريخ التى يحددها له من يؤمن بوجوده منهم ما بين ٩٠٠ ، ٦٠٠ ق . م ؛ وكيف يستطيع رجل واحد أن يبتدع أعجب وأبغض طائفة من الشرائع فى التاريخ كله ثم لا يفرضها فى سنين قليلة على شعب خاضع مغلوب فحسب بل يفرضها كذلك على الطبقة الحاكمة ذات النزعة العسكرية صاحبة الإرادة القوية[٣٣] ؟ ولكننا رغم هذا إذا رفضنا رواية يأخذ بها جميع المؤرخين اليونان اعتماداً منا على هذه الأسباب ، نكون متجنين على الحقيقة والتاريخ . لقد كان القرن السابع قبل الميلاد عصر المؤرخين الأفراد — زلوكس Zleucus فى لكريس الإيطالية (حوالى ٦٦٠) ، ودريكو Draco فى أثينة (٦٢٠) ، وكراندَاس Charondas فى قطانا بصقلية (حوالى ٦١٠) — دع عنك كشف يوشع لشرائع موسى فى هيكل أورشليم (حوالى ٦٢١) . ولعل الحق فى الحالات السالفة الذكر أن هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل بعينه بل كانت طائفة من العادات

نسقت وصيغت — حتى صارت قوانين معينة محددة ، سميت من قبيل التيسير باسم الرجل الذى جمعها وقننها وأبرزها فى معظم الأحيان فى صورة شرائع مكتوبة(*) . وسوف نسجل فى هذا الكتاب الرواية المتواترة كما وصلت إلينا على أن نذكر مع ذلك أنها فى أغلب الظن تجسيد وتصوير لعملية طويلة تطورت فيها العادات حتى صارت قوانين على يد عدد كبير من المؤلفين دأبو على العمل كثيراً من السنين .

ويقول هيرودوت (٣٤) إن ليقورغ ، عم الملك كاريلوس Charilaus ملك اسپارطة ووليه ، تلقى من الوحى فى دلفى بعض مراسيم ، يصفها البعض بأنها قوانين ليقورغ نفسها ، ويصفها البعض الآخر بأنها تصديق ربانى على القوانين التى اقترحها هو . ويبدو أن المشترعين قد أحسوا أن آمن طريقة لتغيير بعض العادات القائمة أو إدخال عادات جديدة هى أن يعرضوا ما يريدونه فى الحالين على أنه أوامر من عند الله ؛ ولم تكن هذه أول مرة أقامت الدولة قواعدها فى السماء . وتضيف الرواية إلى هذا أن ليقورغ سافر إلى كريت ، وأعجب بنظمها ، واعتزم أن يدخل بعضها فى لكونيا(٣٥) ؛ وقبل الملوك ومعظم النبلاء إصلاحاته على مضض لأنهم رأوا أن لا بد لهم منها إذا أرادوا أن يضمنوا لأنفسهم السلامة والطمأنينة ؛ ولكن أحد الشبان الأشراف ، واسمه الكمندر ، قاوم هذا الإصلاح مقاومة شديدة عنيفة وفقأ إحدى عينى المشترع نفسه . ويقص أفلوطرخس هذه القصة بأسلوبه السلس الساحر :

ولم يثبط هذا العمل عزيمة ليقورغ أو يضعف همته ، بل سكت وكشف لمواطنيه عن وجهه المشوه وعينه المفقوءة . واستولى عليهم الخجل والهلع من هذا المنظر فجاءوه بألكمندر ليعاقبه على فعلته . . . . فشكر لهم ليقورغ ما فعلوا ، وصرفهم عن آخرهم ، ولم يستبق منهم إلا الكمندر ، ثم أخذه معه

(*) ويقال إن ليقورغ قد نهى الناس عن كتابة قوانينه .

إلى منزله ، ولم يقل له كلمة نابية أو يوقع عليه أى عقاب ، بل . . . أمره أن يقف فى خدمته وقت الطعام . وكان الشاب ذا خلق كريم فقام بكل ما كان يؤمر أن يقوم به دون أن يتذمر أو يتململ ، .وبذلك أتيحت له الفرصة لأن يعيش مع ليقورغ فيلاحظ فيه فضلا عن رقته وهدوء طباعه استقامة لا عهد له بها ، وجداً وصبراً على العمل ، وأصبح الشاب من أشد الناس إعجاباً به وقد كان من قبل من ألد أعدائه ، وقال لأصدقائه وأقاربه إن ليقورغ لم يكن ذلك الرجل النكد السيئ الطباع كما كانوا يظنون ، بل إنه دون غيره الرجل الظريف الرقيق الحاشية فى العالم كله .

ولما أتم ليقورغ قوانينه ، أخذ على الأهلين عهداً (ولعل هذه زيادة خرافية زيدت على قصته) ألا يبدلوا فى القانون شيئاً قبل أن يعود إليهم . ثم سافر إلى دلفى ، واعتزل العالم ، وحرم على نفسه الطعام حتى مات « ظنا منه أن الواجب يقضى على السياسى أن يجعل موته إذا استطاع عملا يخدم به الدولة[٣٧] » .

٤ — دستور لسديمدنيا

وإذا أردنا أن نحدد بالضبط إصلاحات ليقورغ ، وجدنا الروايات التاريخية مضطربة متناقضة ، حتى ليصعب علينا أن نقول أى عناصر القوانين الاسپارطية سبقت ليقورغ ، وأيها من وضعه هو أو من وضع الجيل الذى كان يعيش فيه ، وأيها أضيفت إليها بعد أيامه . فأما أفلوطرخس ويليبيوس[٣٨] فيؤكدان لنا أن ليقورغ أعاد تقسيم أراضى لكونيا ثلاثين ألف قسم متساوية ووزعها على المواطنين ؛ وأما توكيديدس[٣٩] فيفهم من أقواله أن تقسيما من هذا النوع لم يحدث قط ، ولعل الذى حدث فعــلا أن الأملاك القديمة لم تمس وإنما وزعت الأراضى التى استولوا عليها حديثا توزيعاً متساوياً . وألغى ليقورغ (أو واضعو الدستور المنسوب إليه) ،

كما فعل كليسثنيز السكيونى وكليسثنيز الأثينى ، نظام المجتمع اللكونى القائم على صلة القرابة ، واستبدل به أقساماً جغرافية ، وبهذا تحطم سلطان الأسر القـديمة ، وأنشئ نظام أرستقراطى واسع النطاق . وأراد ليقورغ أن يمنع هـذه الأجركية مالكة الأرض من أن تقضى عليها طبقات التجار ونحوها التى كانت تسير سيراً حثيثاً نحو مركز الزعامة فى أرجوس ، وسكيون ، وكورنثة ، ومجارا ، وأثينة ، فحرم على المواطنين أن يشتغلوا بالصناعة ، أو التجارة ، ومنع استيراد الفضة والذهب ، وأمر ألا يستخدم فى سك العملة غير الذهب وحده . ذلك بأنه قد وطد العزم على أن يتفرغ الاسپارطيون (المواطنون ملاك الأرض) إلى شئون الحكم والحرب .

وكان مما يفخر به المحافظون الأقدمون[٤٠] أن دسـتور ليقورغ قد دام عهداً طويلا لأن أنظمة الحكم الثلاثة : الملكية ، والأرستقراطية ، والدمقراطية قد اجتمعت كلها فيه ، واجتمعت بنسب تمنع طغيان أى عنصر منها على العنصرين الباقيين . من ذلك أن الملكية الاسپارطية كانت فى الواقع ملكية ثنائية ، فقد كان فيها ملكان يحكمان معاً وينحدران من الهرقليين الغزاة . ولعل هذا النظام الغريب كان تراضيا بين أسرتين متنافستين لأنهما تنتميان إلى أصـل واحد ، أو لعله كان وسيلة للاستفادة مما للملكية من مزايا نفسانية فى المحافظة على النظام الاجتماعى والعزة القومية مع تجنب استبدادها وطغيانها . وكانت سلطة الملكين سلطة محددة غير مطلقة : فكانا يقومان بتقريب القرابين التى يتطلبها دين الدولة ، ويرأسان الهيئة القضائية ، ويقودان الجيش فى الحرب . وكانا فى جميع أعمالهما خاضعين لمجلس الشيوخ ، وأخذا بعد معركة بلاتية يفقدان سلطانهما شيئاً فشيئاً ويتولاها الإفورون .

أما العناصر الأرستقراطية ذات السلطان الأكبر فى الدولة فكان مقرها فى مجلس الشـيوخ أو الجروسيا . وكانت الجروسـيا بمعناها الحرفى

وحقيقة أمرها جماعة من الرجال كبار السن ؛ وكان الذين تقل أعمارهم عن ستين عاما يعدون فى العادة غير ناضجين لمناقشة شئون الدولة فى هذا المجلس . ويحدد أفلوطرخس عدد أعضاء المجلس بثمانية وعشرين عضواً ويروى عن طريقة انتخابهم رواية لا يصدقها العقل ، فيقول إنه إذا خلا مكان فى المجلس كان يطلب إلى من يتقدمون لملئه أن يمروا صامتين واحداً بعد واحد أمام الجمعية ، فمن حيته منهم بأعلى الأصوات وأطولها أعلن انتخابه(٤١) . وربما كانت هذه الطريقة فى رأيهم طريقة واقعية مختصرة للإجراءات الدمقراطية الطويلة الكاملة . ولسنا نعرف أى المواطنين كانوا هم الصالحين لهذا الانتخاب ، وأكبر الظن أن الذين يصلحون كانوا هم « الهمويوى » أى الأنداد والذين يمتلكون أرض لكونيا وخدموا فى الجيش ، وجاءوا بنصيبهم من الطعام إلى المائدة العامة(٤٢) . وكان مجلس الشيوخ هو الذى يقترح القوانين ، وكان هو المحكمة العليا التى تفصل فى الجرائم الكبرى ، وهو الذى يضع أسس السياسة العامة للدولة .

وكانت الجمعية ، الأبلا Apella ، هى العنصر الدمقراطى الذى ارتضته اسبارطة فى حكومتها . ويلوح أن جميع المواطنين الذكور كانوا يقبلون فيها متى بلغوا سن الثلاثين ، وكان عدد من يمكن اختيارهم أعضاء فيها ٨٠٠٠ من بين سكان اسبارطة البالغ عددهم ٣٧٦٠٠٠ . وكانت تجتمع فى كل يوم من الأيام التى يكون فيها القمر بدراً ، وتعرض عليها جميع المسائل العامة ذات الأهمية الكبرى ، ولا يسن قانون إلا إذا وافقت عليه . على أن الذى حدث بالفعل أن القوانين التى أضيفت إلى دستور ليقورغ كانت قلة لا تستحق الذكر ، وهكذا لم يكن للجمعية إلا أن تقبلها أو ترفضها دون أن يكون لها حق تعديلها . فهى فى جوهرها الاجتماع الهومرى العام القديم تستمع فى رهبة إلى آراء الزعماء والكبار أو إلى الملكين قائدى الجيش . وكانت الأبلا من الوجهة النظرية مصدر السلطات وصاحبة السيادة ، ولكن تعديلا أدخل على

الدستور بعد ليقورغ جعل لمجلس الشيوخ حق تغيير قرار الجمعية إذا رأى أنها اتخذت قراراً « معوجاً[٤٣] » ولما أن طلب مفكر سبّاق لعصره إلى ليقورغ أن ينشئ دولة دمقراطية أجابه المشرع بقوله : « ابدأ أيها الصديق بإنشائها فى أسرتك[٤٤] » .

وكان شيشرون يشبه الإفورين (المشرفين) الخمسة بالتربيونين فى رومة لأن الجمعية هى التى كانت تختارهم فى كل عام ، ولكنهم فى الواقع كانوا أكثر شبها بالقناصل الرومان لأنهم كانت لهم سلطة إدارية لا يقف فى سبيلها إلا معارضة مجلس الشيوخ . وكانت وظيفة الإيفور قائمة قبل ليقورغ ، ولكنها مع ذلك لم يرد لها ذكر فيما وصل إلينا من أنباء عن شرائعه . ولم يكد يمضى من القرن السادس إلا نصفه حتى أضحت سلطة الإفورين مساوية لسلطة الملكين ؛ ثم أصبحوا فى واقع الأمر أصحاب السلطة العليا بعد الحرب الفارسية ، فكانوا يستقبلون السفراء ، ويفصلون فى المنازعات القضائية ، ويقودون الجيوش ؛ ويوجهون أعمال الملوك ، ويعاقبون الملوك أنفسهم أو يبرئونهم من التهم التى توجه إليهم .

أما تنفيذ أوامر الحكومة فكان يتولاه الجيش أو الشرطة . وقد جرت عادة الإفورين بأن يسلحوا بعض الشبان الاسپارطيين ، ويتخذوهم شرطة سرية (كرپتيا krypteia) ليتجسسوا على الناس ، وكان لهم حق قتل الهليوتيين بمحض إرادتهم[٤٥] . وكانت هذه الهيئة تستخدم فى أوقات لم يكن ينتظر أن تستخدم فيها ، بل إنها كانت تستخدم للتخلص من الهليوتيين إذا كان سادتهم يرونهم رجالا قادرين يخشى بأسهم ، وإن كانوا قد دافعوا عن الدولة فى الحرب دفاع الأبطال . ويقول عنهم ثوكيديدس النزيه بعد ثمان سنين من حرب البلوپونيز :

صدر إعلان يدعو الهليوتيين لأن يختاروا من بينهم من يقولون إنهم

قد أظهروا تفوقهم فى قتال الأعداء لكى ينالوا حريتهم ؛ وكان الغرض الحقيقى من هذه الدعوة هو اختبارهم ، لأن أول من يتقدمون للمطالبة بحريتهم كانوا فى رأى الداعين أعزهم نفسا وأكثرهم استعداداً للعصيان . واختير بهذه الطريقة ألفان منهم وضعت على رؤوسهم التيجان ، وطافوا بالهياكل مغتبطين بحريتهم الجديدة ، ولكن الاسپارطيين ما لبثوا أن تخلصوا منهم جميعاً ؛ ولم يعترف أحد قط كيف هلك كل فرد من أفرادهم(٤٦) .

وكان الجيش عماد السلطة فى اسپارطة ومناط فخرها ، لأنها وجدت فى شجاعته ، ونظامه ، ومهارته ، أمنها ومثلها الأعلى . وكان كل مواطن يدرب تدريباً حربياً ، وكان عرضة لأن يدعى إلى الخدمة العسكرية فيما بين العشرين والستين من عمره . وبفضل هذا التدريب القاسى نشأت الهپليت hoplites الاسپارطية وهى فرق المشاة المتراصة الثقيلة .قاذفات الحراب ، والمكونة من المواطنين ، التى كانت تقذف الرعب فى قلوب الأثينيين أنفسهم ، ولم يكد يقهرها عـــدو حتى انتصر عليها إپامينونداس فى Epaminondas فى لكترا Leuctra . وكان هذا الجيش هو المحور الذى صاغت اسپارطة حوله قانونها الأخلاقى . فالطيبة فى اسپارطة هى أن تكون قوياً شجاعاً ؛ والموت فى ميدان القتال هو أعظم الشرف ومنتهى السعادة ؛ والحياة بعد الهزيمة هى العار الذى لايمحى والذى لاتغتفره الأم نفسها لابنها الجندى . وكانت الأم تودع ابنها الجندى الذاهب إلى حومة الوغى بقولها : « عد بدرعك أو محمولا عليه » . وكان الفرار بالدرع الثقيل أمراً مستحيلا .

٣ – القانون الاسپارطى

إن تدريب الناس على مثل أعلى متعب للجسم وخاصة إذا كان كالذى يدرَّب عليه الاسپارطيون ، يحتم أخذهم من أيام مولدهم وتعويدهم أشد النظم

وأعظمها صرامة . وكانت الخطوة الأولى هى تقوية النسل بأقسى الطرق . فلم يكن كل ما يفرض على الطفل هو أن يواجه ما لأبيه من حق قتله ، بل كان يؤتى به فضلا عن ذلك أمام مجلس من مجالس الدولة مكونة من مفتشين ، فإذا ظهر أن الطفل مشوه ألقى به من فوق جرف فى جبل تيجيتس ليلقى حتفه على الصخور القائمة فى أسفله(٤٧) . وكان ثمة وسيلة أخرى للتخلص من ضعاف الأطفال نشأت من العادة التى جرى عليها الاسپارطيون وهى تعويد أطفالهم تحمل المشاق والتعرض لمختلف الجواء(٤٨) . وكان يطلب إلى الرجال والنساء أن يهتموا بصحة من يريدون أن يتزوجوهم وبأخلاقهم وحتى الملك أركداموس Archidamus نفسه قد فرضت عليه غرامة لأنه تزوج بامرأة ضئيله الجسم(٤٩) . وكان الأزواج يشجعون على أن يعيروا زوجاتهم إلى رجال ذوى قوة ممتازة غير عادية حتى يكثر بذلك الأطفال الأقوياء ؛ وكان ينتظر من الأزواج الذين أنهكهم المرض أو أعجزتهم الشيخوخة أن يدعوا الشبان ليعينوهم على تكوين أسر قوية . ويقول لون أفلوطرخس « إن ليقورغ كان يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج ويقول إن من أسخف الأشياء أن يعنى الناس بكلابهم وخيلهم ، فيبذلوا جهدهم ومالهم ليحصلوا منها على سلالات جيدة ، ثم تراهم مع ذلك يبقون زوجاتهم فى معزل ليختصوا بهن فى إنجاب الأبناء ، وقد يكونون ناقصى العقل أو ضعفاء أو مرضى » . والأقدمون كلهم مجمعون على أن الذكور من الاسپارطيين كانوا أقوى أجساماً وأجمل وجوهاً من سائر رجال اليونان ، وأن نساءهم كن أصح وأجمل من سائر نساء تلك البلاد(٥٠) .

وأغلب الظن أن هـــذه النتيجة يرجع أكثرها إلى التدريب لا إلى العناية بالنسل . وفى ذلك يقول توكيديدس على لسان الملك أركداموس : « قلما يكون ثمة فرق » (يعنى وقت المولد على ما نظن) « بين الرجل والرجل . ولكن الذى يتفوق فى آخر الأمر هو الذى ينشأ فى أقسى مدرسة »(٥١) . وكان الولد الاسپارطى يؤخذ من أسرته فى السابعة من عمره

لتتكفل الدولة بتربيته ؛ فكان يسلك فى فرقة عسكرية هى فى الوقت نفسه فصل مدرسى تحت إشراف پيدونوموس Paidonomos أو قيم على الأولاد . وكان أقدر الأولاد وأشجعهم فى كل فصل ينصب عريفاً عليهم ؛ ويطلب إلى سائر الأولاد أن يطيعوه ، وأن يخضعوا لما عساه أن يفرضه عليهم من عقاب ، وأن يحاولوا أن يجاروه أو أن يتفوقوا عليه فى الأعمال الشاقة وفى حسن النظام . ولم يكن هدفهم من هذه التربية هو الجسم الرياضى والمهارة فى الألعاب كما كان هدف الأثينيين ، بل كان هذا الهدف هو الشجاعة الحربية والقيمة العسكرية . وكانوا يقومون بالألعاب وهم عراة على أعين الكبار والعشاق من الرجال والنساء. وكان هم الكبار من الرجال أن يثيروا الشحناء بين الأولاد فرادى وجماعات ، ليختبروا بهذا ما لديهم من قوة وجلد ويدربوهم عليهما ؛ فإذا ما جبنوا لحظة جللهم العار أياماً طوالا . وكان يطلب إلى الاسپارطيين جميعاً أن يتحملوا الألم ويقاسوا الصعاب ، وأن يصبروا على المصائب وهم صامتون لايتذمرون . وكان عدد من الشبان يختارن كل عام أمام مذبح أرتميس أرثيا Artemis Orthia وتلهب أجسامهم بالسياط حتى تخضب دماؤهم الحجارة(٥٢) . وإذا بلغ الولد الثانية عشرة من عمره منعت عنه ملابسه السفلى ، ولم يسمح له إلا بثوب واحد طوال أيام السنة . ولم يكن يستحم كثيراً كغلمان الأثينيين ، لأن الماء والأدهان تجعل الجسم ليناً رخواً ، أما الهواء البارد والتراب النظيف فيجعلانه صلبا شديد المقاومة . وكان ينام فى العراء صيفاً وشتاء ، على فراش من الأسل يقطع من شاطئ يوروتاس . وكان يعيش حتى الثلاثين من عمره فى الثكنات مع فرقته ، ولا يعرف وسائل الراحة المنزلية .

وكان يتعلم القراءة والكتابة ، ولكنه لا يكاد يتعلم منهما ما يكفى لأن يخرجه من سلك الأميين ، وقلما كانت الكتب تجد فى اسپارطة من يشتريها(٥٣) وكان الناشرون قلة كالمشترين . ويقول أفلوطرخس إن ليقورغ كان يرغب ألا يتعلم الأطفال قوانينه بطريق الكتابة ، بل يجب أن يتلقوها مشافهة وبطريق

المران عليها فى شبابهم بعناية من يرشدهم ويضرب لهم المثل بنفسه . وكان يرى أن تقويم الأخلاق بتعويدهم إياها دون أن يحسوا هم بذلك خير من الاعتماد على الإقناع بالحجج النظرية ؛ وأن التعليم الصحيح هو خير أساليب الحكم ، على أن يكون هذا التعليم خلقيا أكثر منه عقلياً ، لأن الخلق أعظم خطراً من العقل . وكان الشاب الاسپارطى يدرب على الاعتدال فى الشراب ، وكانوا يرغمون بعض الهليوتيين على الإفراط فيه حتى يرى الشبان ما قد يتردى فيه المخمور من حماقات(٥٤) . وكان يعلم أن يستعد للحرب بأن ينطلق فى الحقول يجد طعامه بنفسه أو يموت جوعاً إذا لم يجده ، وكانوا يجيزون له السرقة فى هذه الأحوال ، فإذا قبض عليه وهو يسرق عوقب بالجلد(٥٥) . وإذا كان حسن السلوك سمح له أن يحضر اجتماع المواطنين العام ، وكان ينتظر منه أن يعنى بالاستماع إلى ما يقال فيه حتى يلم بمشاكل الدولة ويتعلم فن الحديث الظريف . فإذا تخطى صعاب الشباب بشرف وبلغ سن الثلاثين منح كل ما للمواطن من حقوق ، وألقيت عليه جميع ما يلقى على المواطن من تبعات ، وأجيز له أن يجلس لتناول الطعام مع من هم أكبر منه .

وكانت البنت أيضاً خاضعة لقيود تفرضها الدولة وإن كانت تتركها لتربى فى منزل أبويها . فكان يطلب إليها أن تقوم ببعض الألعاب العنيفة — كالجرى ، والمصارعة ، ورمى القرص ، وإطلاق السهام من القوس — لكى تصبح قوية البنية ، صحيحة الجسم ، صالحة فى يسر للأمومة الكاملة . وكان عليها أن تسير عارية فى أثناء الرقصات والمواكب العامة ، ولو كانت فى حضرة الشبان لكى يحفزها ذلك إلى أن تعنى بجسمها العناية الواجبة ، ولكى تنكشف للناس عيوبها فيعملوا على إزالتها . وفى ذلك يقول أفلوطرخس وهو الرجل الشديد الحرص على الأخلاق : « ولم يكن ثمة شىء يستحى منه فى عرى الفتيات ، فقد كان الوقار شعارهن ، وكان الفجور أبعد الصفات عنهن . وكن وهن يرقصن يغنين الأغانى

فى مدح من أظهروا الشجاعة فى الحرب . ويصببن اللعنات على من يجبن . ولم يكن الاسپارطيون يضيعون جهودهم ووقتهم فى تربية البنات تربية عقلية .

أما الحب فكان يسمح للشاب أن ينغمس فيه وأن يحب الذكور والإناث دون ما تحرج ؛ فقد كان لكل صبى تقريباً حبيب بين من هم أكبر منه من الرجال ، وكان ينتظر من هذا الحبيب أن يواصل تعليمه ، وأن يجزيه الصبى عن هذا حباً وطاعة . وكثيراً ما استحال هذا النفع المتبادل صداقة عاطفية قوية تبعث فى نفس الفتى والرجل ضروب البسالة فى الحرب(٥٦) . وكان يسمح للشبان بالكثير من الحرية قبل الزواج ، ولذلك كانت الدعارة الرسمية نادرة الوجود وكان التسرى لا يلقى تشجيعاً(٥٧) . ولم نسمع عن وجود هياكل لأفروديتى فى لسديمون كلها ، اللهم إلا هيكلا واحداً ، وحتى فى هذا الهيكل قد مثلت الإلهة وعليها نقاب وفى يدها سيف ، وفى قدميها أغلال ، كأنها تشير بذلك إلى ما فى زواج الحب من سخف وطيش ، وإلى خضوع الحب للحرب ، وإلى إشراف الدولة إشرافاً قوياً على الزواج .

وحددت الدولة أنسب سن للزواج سن الثلاثين للرجال والعشرين للنساء . وكانت العزوبة فى اسپارطة جريمة ، وكان العزاب يحرمون حق الانتخاب وحق مشاهدة المواكب العامة التى يرقص فيها الفتيان والفتيات عرايا ؛ ويقول أفلوطرخس إن العزاب أنفسهم كانوا يرغمون على أن يمشوا بين الجماهير عرايا صيفاً وشتاء ينشدون نشيداً فحواه أنهم يقاسون هذا العقاب العادل جزاء لهم على مخالفة قوانين البلاد . وكان الذين يصرون على عدم الزواج عرضة لأن تهاجمهم فى أى وقت من الأوقات جماعات من النساء يؤذينهم أشد الأذى . ولم يكن العار الذى يلحق بمن يتزوجون ولا يلدون يقل كثيراً عن العار الذى يلحق العزاب ؛ وكان المفهوم أن من لا أبناء لهم من الرجال غير خليقين بذلك الإجلال الدينى الذى يقدمه الشبان الاسبارطيون لمن هم أكبر منهم سناً(٥٨) .

وكان الوالدان هما اللذين ينظمان زواج أبنائهما ، دون أن يكون للبيع والشراء أثر فى هذا التنظيم ؛ فإذا ما اتفقا على الزواج كان ينتظر من العريس أن ينتزع عروسه من بيت أبيها قوة واقتداراً ، كما كان ينتظر منها أن تقاوم هذا الانتزاع ، وكان اللفظ الذى يعبر به عن الزواج هو لفظ هرپدزين harpadzein أى الاغتصاب(٥٩) . فإذا ترك هذا التنظيم بعض الكبار بلا زواج ، جاز حشر عدد من الرجال فى حجرة مظلمة ومعهم عـــدد مساو لهم من البنات ، ثم يترك هؤلاء وأولئك ليختار كل رجل شريكة حياته فى الظلام(٦٠) ؛ ذلك أن الاسپارطيين كانوا يعتقدون أن هذا الاختيار لم يكن فيه من العمى أكثر مما فى الحب . وقد كان من المألوف أن تبقى العروس مع أبويها وقتاً ما ، وأن يبقى العريس فى ثكناته لا يزور زوجته إلا خلسة . ويقول أفلوطرخس إنهما كانا يعيشان على هذا النحو زمناً طويلا حتى لقد كان بعضهم ينجب من زوجته أطفالا قبل أن يرى وجهها فى ضوء النهار » . فإذا ما أوشكا أن يكونا أبوين سمح لهما بأن ينشئا بيتاً . وكان الحب ينشأ بعد الزواج لا قبله ، ويلوح أن الحب بين الزوج وزوجته لم يكن فى اسپارطة أقل منه فى سائر الحضارات(٦١) . وكان الاسپارطيون يفخرون بأن الزنا لا وجود له بينهم ، وقد يكونون على حق فى هذا الفخر ، لأنهم كانوا يتمتعون قبل الزواج بقسط كبير من الحرية ، وكان الكثيرون من الأزواج يقبلون أن يشترك معهم غيرهم وخاصة إخوتهم فى زوجاتهم(٦٢) . وكان الطلاق نادراً وقد عوقب ليسندر Lysander القائد الاسبارطى لأنه هجر زوجته وأراد أن يتزوج أخرى أجمل منها(٦٣) .

وكان مركز المرأة بصفة عامة فى اسبارطة خيراً منه فى أى مجتمع يونانى آخر ، فقد احتفظت فيها أكثر من سائر المدن اليونانية بمكانتها الهومرية العالية وبالمزايا التى بقيت لها من أيام المجتمع القديم الذى كان الأبناء فيه ينسبون إلى أمهاتهم ... وفى ذلك يقول أفلوطرخس إن النساء الاسپارطيات كن

يمتزن « بالجرأة والرجولة ، وبالتشامخ على أزواجهن ... وكن يتحدثن بصراحة حتى فى أهم الأمور » ؛ وكان من حقهن أن يرثن ويورثن ، وقد آلت لهن على مر الوقت نصف الأملاك الثابتة فى اسپارطة بفضل ماكان لهن من سيطرة قوية على الرجال(٦٥) . وكن يعشن فى بيوتهن عيشة الترف والحرية ، على حين كان الرجال يقاسون أهوال الحروب الكثيرة أو يطعمن الطعام البسيط مع سائر الرفاق .

ذلك أن الدستور الاسپارطى كان يفرض على كل رجل من سن الثلاثين إلى الستين أن يتناول وجبته اليومية الرئيسية فى مطعم عام كبير ، وكان الطعام فيه بسيطا فى نوعه وأقل قليلا فى كميته مما يلزم للشخص للعادى. وكانت هذه القلة فى الطعام متعمدة يقصد بها المشترع – كما يقول أفلوطرخس – أن يعودهم الصبر على ما يلاقونه فى الحرب من حرمان ، وأن يحول بينهم وبين ما ينشأ فى عهود السلم من تدهور وانحطاط ؛ فكان يحرم عليهم « أن يقضوا حياتهم فى البيوت ، يناموں على الفراش الوثير ويطعمون الطعام الشهى ، يسلمون أنفسهم إلى أيدى التجار والطهاة ، يتخمونهم فى أركان الدور كما يتخمون الحيوانات الشرهة ، فلا يفسدون بذلك عقولهم فحسب بل يفسدون أجسامهم كذلك ، فإذا ما انحطت قواهم بسبب الانهماك والإفراط ، أصبحوا فى حاجة إلى النوم الطويل والاستحمام بالماء الساخن والتحرر من العمل ؛ وجملة القول أنهم يصبحون لا يعنون بعمل شىء ولا يشرفن على شىء كأنهم مصابون بعلة دائمة لا يبرءون منها(٦٦) » . وكانوا يحصلون على المواد اللازمة لهذه الوجبة العامة بأن يطلب إلى كل شخص أن يقدم فى فترات معينة إلى النادى الذى يطعم فيه كميات محددة من الحبوب وغيرها من الطعام ؛ فإذا لم يقدمها حرم من حقوق المواطنين .

وكانت هذه البساطة فى المأكل والمشرب ، وكان هذا التقشف فى المعيشة ، اللذان يدرب عليهما الشاب الاسپارطى يمتدان فى القرون الأولى بعد وضع القانون إلى ما بعد سن الشباب . ولذلك كانت البدانة نادرة فى لسديمون ؛ نعم

إنهم لم يسنوا قانونا يحدد حجم المعدة ، ولكن إذا كبر بطن الرجل كبراً معيباً ، كان عرضة لأن تؤنبه الحكومة علنا على هذا الكبر أو أن تنفيه من لكونيا . ولم يكن في اسپارطة إلا القليل من السكر واللهو المنتشرين في أثينة ؛ وكان ثمة فروق حقيقية في الثروات ولكنها كانت فروقاً خفية ؛ فقد كان الأغنياء والفقراء يلبسون الثياب البسيطة نفسها — وهي قميص من الصوف يتدلى من الكتفين من غير تظاهر بجمال أو اختيار شكل معين له ؛ وكان الإكثار من الثروة المنقولة من أصعب الأمور ، وكان ادخار نقود حديدية تبلغ قيمتها نحو مائة ريال أمريكي يتطلب صندوقا كبيراً ، ولم يكن نقل هذا القدر من المال يحتاج إلى أقل من ثورين(١٨) ، بيد أن الطمع الإنساني لم يكن معدوما ، وكان يجد له منفذاً في الفساد الرسمي ، ذلك أنه كان من المستطاع شراء الإفورين ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، والرسل ، وقواد الجيش ، والملوك بأثمان تتفق مع مكانتهم(٦٩) . ولما أن عرض سفير من جزيرة ساموس صحافة الذهبية في اسپارطة حتم الملك كليومنيس الأول استدعاءه منها لئلا يفسد مواطنوه بهذا المثل الأجنبي(٧٠) .

وكان نظام الحكم الاسبارطي ، لخوف الأهلين من هذه العدوى ، غير كريم في معاملة الأجانب إلى حد لم يسبق له مثيل . فقلما كان الأجانب يرحب بهم في البلاد ، وكانوا يفهمون عادة أن زياراتهم يجب ألا تطول ، فإذا طالت فوق ما يجب صحبهم رجال الشرطة إلى حدود البلاد . وكان يحرم على الاسپارطيين أنفسهم أن يخرجوا من بلادهم إلا بإذن من الحكومة ؛ كما كان يقلل من تشوفهم بتعويدهم العزلة المتعجرفة التي لا يحلمون معها أن في وسع غيرهم من الأمم أن تعلمهم شيئاً(٧١) ؛ وكان لا بد لهذا النظام أن يكون غير كريم إلى هذا الحد ليحمي بذلك نفسه ؛ لأن ريحاً تهب من هذا العالم المحرم عليهم ، عالم الحرية ، والترف ، والآداب ، والفنون ، قد تدك هذا النظام المصطنع العجيب الذي كان ثلثا الشعب فيه من الأقنان وكل السادة فيه من الرقيق .

٦ — ما لإسبارطة وما عليها

ترى أى طراز من الرجال وأى نوع من الحضارة أنتجهما هذا القانون ؟ فأما الرجال فكانوا أقوياء الأجسام ألفوا المشاق والحرمان . وقد قال عنهم احد السيباريين Sybarites المترفين إن الاسپارطيين « لا يمدحون على استعدادهم للموت فى ميدان القتال لأن موتهم هذا ينجيهم من كثير من العمل الشاق ومن الحياة البائسة »(٧٢) . وكانت صحة الجسم من الفضائل الرئيسية فى اسپارطة ، كما كان المرض جريمة فيها ؛ وما من شك فى أن أفلاطون قد سره أن يجد بلاداً خالية من الدواء ومن الدمقراطية . وكان الاسپارطى شجاعاً ؛ وما من أحد من الناس غير الرومان يضارعه فى ثبات جنانه وفى انتصاره فى الحروب ؛ وليس أدل على ذلك من أن بلاد اليونان كلها لم تكد تصدق ان الاسپارطيين قد استسلموا لأعدائهم فى اسفكتيريا Sphacteria ؛ ذلك أنه لم يسمع عنهم من قبل أنهم لم يحاربوا إلى آخر رجل فيهم ، وحتى الجندى الاسپارطى العادى كان يفضل الانتحار على الحياة بعد الهزيمة(٧٣) . ولما أن وصلت إلى آذان الإفورين أنباء هزيمة الاسبارطيين المنكرة فى لوكترLeuctra — وكانت هزيمة ما حقه اختتم بها فى واقع الأمر تاريخ اسبارطة — وكانوا وقتئذ على رأس الألعاب الجمنوپودية ، لم ينطقوا بكلمة واحدة . وكل ما فعلوه أن أضافوا إلى سجل الموتى المقدسين الذين نالوا شرف الموت فى الألعاب أسماء القتلى الجدد . وكان من الصفات العادية التى يتصف بها كل مواطن اسپارطى ، والتى كان يكتب عنها الأثينيون ولكنهم قلما كانوا يتحلون بها ، كان من هذه الصفات ضبط النفس ، والاعتدال ، والهدوء والثبات فى السراء والضراء .

وإذ كانت إطاعة القانون فضيلة فقد كان الأسپارطى يفوق فى هذه الفضيلة سائر الناس . وفى ذلك يقول الطبيب دمراتوس Demaratus

لخشيارشاى : « إن اللسديمونيين ، وإن كانوا أحراراً ، ليسوا أحراراً فى كل شىء ، لأن القانون سيدهم الأعلى ، يخافونه أكثر مما يخافك شعبك »(٧٤) . وقل أن تجد شعباً غيرهم — مع جواز استثناء الرومان واليهود فى العصور الوسطى — كان احترامه لقوانينه سبباً فى قوته . وقد ظلت اسپارطة مائتى عام على الأقل تزداد قوة على قوة تحت دستور ليقورغ ، وهى وإن عجزت عن فتح أرجوس وأركاديا ، قد أقنعت جميع البلوپونيزيين أن يقبلوا زعامتها لحلف البلوپونيز الذى ساد بفضله السلام فى جزيرة پلويس ما يقرب من قرنين كاملين (٥٦٠ — ٣٨٠ ق . م) . وكانت بلاد اليونان على بكرة أبيها تعجب بجيش اسپارطة وحكومتها ، وتتطلع إلى معونتها فى ثل عروش الطغاة الظالمين . ويحدثنا أكسانوفون عن « الدهشة التى عرتنى حين لاحظت أول مرة موقع اسپارطة الفذ بين دول اليونان ، وعدد سكانها القليلين بالنسبة لغيرها من الدول ، وقوة شعبها ومنزلته العالية بالرغم من هذه القلة . وقد حيرنى تعليل قوة هذا الشعب ومنزلة هذه الدولة ، ولم تزل هذه الحيرة إلا حين فكرت فى أنظمة الاسپارطيين العجيبة »(٧٥) . ولم يكن أكسانوفون يمل من الثناء على أساليب الاسپارطيين ، كما لم يكن أفلاطون وأفلوطرخس يملان من الثناء عليهم . ولا حاجة إلى القول بأن اسپارطة هى التى وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسية لمدينته الفاضلة ، التى طمس معالمها بعض الشىء إغفاله العجيب للمثل العليا . ولقد كان كثيرون من المفكرين اليونان يعمدون إلى تمجيد نظام اسپارطة وشرائعها بعد أن ملوا ما فى الدمقراطية من انحطاط وفوضى وأوجسوا فى أنفسهم خيفة منهما .

والحق أنهم كانوا يستطيعون الثناء على اسپارطة لأنهم لم يضطروا إلى المعيشة فيها ، ولم يروا عن كثب ما فى أخلاق الاسپارطيين من أنانية ، وبرود ، وقسوة ، ولم يتبينوا ممن يرونهم من الصفوة التى التقوا بها منهم ، أو من الأبطال الذين يمجدونهم عن بعد ، أن الشرائع الاسپارطية كانت تخرج

جنوداً بواسل ولا شيء غير الجنود ، وأنها جعلت قوة الجسم وحشية مرذولة لأنها أماتت الكفايات العقلية كلها تقريباً . ذلك أنه لما أصبح لهذا القانون المقام الأول فى البلاد أصاب الموت فجاءة جميع الفنون التى ازدهرت قبل سيادته ، فلم نعد نسمع بعدئذ عن شعراء أو مثالين ، أو بنائين فى اسپارطة بعد عام ٥٥٠ ق . م(*) ، ولم يبق فيها إلا الرقص الجماعى والموسيقى لأن فيهما يمكن أن يتجلى النظام الاسپارطى وأن يختفى الفرد ويضيع فى المجموع . ولقد كان أثر حرمان الاسپارطيين أن يتجروا مع العـــالم ومنعهم من الأسفار ، وجهلهم بعلوم بلاد اليونان وآدابها وفلسفتها الآخذة فى الظهور والنماء ، أن أصبحوا أمة من الجنود المشاة المدرعين الثقال ، لا ترقى عقليتهم فوق مستوى الذين قضوا فى هذه الجندية حياتهم كلها ؛ ولقد كان الرحالة اليونان يعجبون من هذه البسيطة الخالية من الرونق والبهاء ، ومن هذا القدر الضئيل المقيد من الحرية ، وهذه المحافظة الشديدة على كل عادة وكل خرافة ، وفى الشجاعة التى كانت موضع الإجلال ، وذلك النظام الصارم ، وهذا الخلق النبيل ، وذاك الغرض الدنىء الذى لا يؤدى إلى غاية . وعلى بعد لا يزيد على مسيرة يوم واحد على ظهور الجياد كان الأثينيون يشيدون من آلاف المظالم والأخطاء صرح حضارة واسعة المدى ، قوية فى أعمالها ، تتقبل كل فكرة جديدة ، حريصة على الاتصال بالعالم ، متسامحة ، متنوعة ، معقدة ، مترفة ، مبتدعة ، متشككة ، واسعة الخيال ، شعرية ، مشاغبة ، حرة . لقد كان ما بين أثينة واسپارطة من التناقض هو الذى صبغ التاريخ اليونانى بصـــبغته المعروفة ورسم خطوطه الرئيسية .

(*) لقد زين جتياداس Gitiadas هيكل أثينة بصفائح البرنز البديعة الصنع ، وشاد باثكليز Bathycles المجنيزى عرشاً فخماً لأپاو فى أمكل Amyclae كما شاد ثيودورس الساموسى بهواً كبيراً لمدينة اسپارطة ؛ وبعد هذا لا نكاد نسمع شيئاً عن الفن الاسپارطى حتى على يد فنانين من خارجها .

ولقد قضى ضيق أفق اسپارطة فى آخر الأمر على ما لها من قوة نفسية ، ذلك أن نفسيتها قد انحطت حتى صارت ترتضى كل وسيلة تؤدى إلى غرض اسپارطى ، وبلغ من ذلتها فى آخر الأمر للغزاة أن باعت للفرس تلك الحريات التى كسبتها بلاد اليونان فى مراثون . لقد استحوذت عليها النزعة العسكرية وجعلتها سوط عذاب لجيرانها بعد أن كانت فى مكان الشرف منها ، ولما أن سقطت ، عجبت الأمم كلها من سقوطها ، ولكن ما من أمة حزنت لها . ولا نكاد اليوم نجد بين الأنقاض القليلة الباقية من هذه العاصمة القديمة نقشاً واحداً أو عموداً ملقى على الأرض يعلن للعالم أن اليونان كانوا فى يوم من الأيام يسكنون فى هذا المكان :

الفصل الرابع

الدول المنسية

يمتد وادى نهر يوروتس Eurotas فى شمال اسپارطة إلى جبال أركاديا المتجمعة بعد أن يجتاز حدود لكونيا . ولو أن هذه الجبال كانت أقل مما هى خطورة لكانت أكثر مما هى جمالا . ويلوح أنها لم ترحب بالطرق الضيقة التى نحتت فى منحدراتها الصخرية ، وأنها تهدد بقتامها كل من يحاول الاعتداء على هذه الملاجئ الأركادية المنعزلة ؛ فلا غرابة والحالة هذه إذا ضل فيها الفاتحون الدوريون والاسپارطيون وتركوا أركادية كما تركوا إليس وآخيا للسلالات الآخية والبلاسجية . ويعثر السائح فى أماكن متفرقة من هذا الإقليم على سهل أو هضبة ، كما يجد فيه مدناً جديدة زاهرة كمدينة تريبوليس Tripolis ، أو بقايا مدن قديمة كمدائن أركمنوس Orchomenos ، ومجالوبوليس Megalopolis ، وتيجيا Tegea ، ومنتينيا Mantinea . حيث انتصر أپامينداس ولاقى حتفه . ولكنها فى معظم أجزائها أرض يسكنها فلاحون ورعاة متفرقون يعتمدون على موارد مزعزعة غير ثابتة ، ويعيشون هم وماشيتهم على هذه التلال الضنينة ؛ ومع أن هذه المدائن قد استيقظت بعد مرثون لتستقبل الحضارة والفن ، فإن من الصعب أن نسلكها فى قصة الحضارة قبل الحرب الفارسية . وفى هذه الغابات ذات الأشجار العمودية كان يجول الإله پان فى وقت من الأوقات .

ويلتقى نهر يوروتس فى أركاديا الجنوبية بنهر آخر أوسع منه شهرة وهو نهر ألفيوس Alpheus . وهذا النهر يشق طريقه شقاً سريعاً خلال سلاسل الجبال البرهازية Parhasian ، ثم يتثنى ببطء حتى يدخل سهول إليس ،

ويرشد السائح إلى أولمبيا . ويحدثنا بوزنياس بأن الإليانيين[٧٦] . كانوا من أصل إيولى أو پلاسجى جاءوا إلى إيتوليا بعد أن عبروا الخليج . وكان أول ملوكهم إيثليوس Aethlius والد إندميون Endymion الذى أغوى جماله القمر(*) فأغمضت عينيه وأرسلت عليه نعاساً سرمدياً ، وما زالت تضاجعه على مهل حتى ولدت منه مائة بنت . وفى هذا المكان الذى يلتقى فيه نهر ألفيوس بنهر كلاديوس Cladeus المقبل من الشمال كانت المدينة المقدسة للعالم اليونانى كله ؛ وقد بلغ من قدسيتها أن الحرب قلما أزعجتها ، ومن أجل ذلك نعم الإيليون Elians بتاريخ استبدلوا فيه الألعاب بالحروب ؛ وفى الزاوية المحصورة بين النهرين كانت الألتيس Altis أو التخوم المباركة لمقر زيوس الأولمبى . وكانت موجات الغزاة المتتابعة تحط رحالها فى هذا المكان لتعبده ، كما كان مندوبون عن هؤلاء الغزاة يعودون إليه فيما بعد فى مواسم معينة ليسألوه العون ويغنوا مزاره بالنذور . وظلت ثروة هيكلى زيوس وهيرا وشهرتهما تزدادان جيلا بعد جيل حتى انتصر اليونان على الفرس فحشد أكابر المهندسين والمثالين اليونان ليعيدوا بناء الهيكلين ويزينوهما وينفقوا فى سبيل ذلك الأموال الطائلة اعترافاً بما كان لهما من فضل فى هذا النصر . ويرجع تاريخ هيكل هيرا إلى عام ١٠٠٠ ق . م ، وآثاره أقدم ما بقى من آثار الهياكل فى بلاد اليونان جميعها . وقد بقى من هذه الآثار أجزاء من ستة وثلاثين عموداً وعشرين تاجاً دورياً تشهد بأن هذه العمد قد أقيمت المرة بعد المرة ، وأنها كانت تقام بأشكال مختلفة . ولا جدال فى أنها صنعت فى أول الأمر من الخشب . وكان جذع من أحدها وهو من شجر البلوط لا يزال قائماً حين أقبل پوزنياس على ذلك المكان ، وبيده كراسته ، فى أيام الأنطونيين .

وإذا ما غادر الإنسان أولمبيا مر بموضع إيليس العاصمة القديمة ودخل

(*) القمر فى القصة مؤنث وقد احتفظنا به كذلك حتى يستقيم المعنى .

آخيا التى فر إليها بعض الآخيين بعـــد أن استولى الدوريون على أرجوس وميسينى ، وهى شبيهة بأركاديا فى أنها بلاد جبلية يرعى على منحدراتها الرعاة الصابرون قطعان الماشية ، ويصعدون إلى أعلاها أو ينزلون إلى أسفلها فى فصول السنة المختلفة . ولا يزال ثغر پتراس القديم قائماً مزدهراً حتى الآن على الساحل الغربى ؛ وهذا الثغر هو الذى قال پوزنياس عن نسائه إنهن « ضعفا عدد الرجال ، وإنهن وفيات لأفروديتى إن كان فى النساء وفاء »[٧٧] .
وكانت هناك عدة مدن أخرى محتشدة فى غير نظام على طول خليج كورنثة — إيجيوم Aegium ، وهليس Helice ، وإيجيرا Aegira ، وپلينى Pellene ، وقد كادت كلها تصبح نسياً منسياً ولكنها كانت فى غابر الأزمان تعج بالرجال والنساء والأطفال ، وما من أحد منهم إلا كان مركز العالم .

الفصل الخامس

كورنثة

وبعد أن يخترق السائح عدداً آخر قليلا من الجبال يعـود إلى سكيون مستقر الدوريين . وفى هذه المدينة علم رجل يدعى أورثجراس Orthagoras العالم فى سنة ٦٧٦ حيلة ظل يلجأ إليها فيما بعد ذلك من القرون . فقد قال للفلاحين إنهم من نسل البلاسجيين أو الآخيين على حين أن الأشراف المالكين للأرض والذين يستغلونهم من نسل الغزاة الدوريين ؛ ثم أخذ يستثير نعرة غير المالكين العنصرية ، وتزعمهم فى ثورة موفقة ، ونصب نفسه حاكما بأمره عليهم ، ووضع السلطة فى أيدى طبقتى الصناع والتجار(*) . وأصبحت سكيون فى عهد خليفتيه العظيمين ميرون Myron وكليسثنيز مدينة يشتغل نصف أهلها بالصناعة ، واشتهرت بأحذيتها وفخارها ، وإن كانت لا تزال تسمى باسم ما ينمو فيها من الخيار .

وإلى شرقها تقوم المدينة التى كان موقعها الجغرافى والاقتصادى خليقاً بأن يجعلها أغنى بلاد اليونان وأرقاها ثقافة . تلك هى مدينـة كورنثة ؛ وكان موقعها على الخليج المسمى باسمها مما تحسدها عليه سائر المدن اليونانية ؛ فقد كان فى مقدورها أن تغلق باب الطريق البرى الموصل إلى البلوبونيز ، وفى وسعها أن تيسر أسباب التجارة البرية بين شمالى بلاد اليونان وجنوبها ، أو أن تفرض عليها ما تشاء من الإتاوات . وكان لها موان وسفن على خليجى ساروس وكورنثة . وقد أنشأت بين هذين البحرين « مزلقاً للسفن »

(*) وهكذا فعل كامى ده مولن Camille Desmoulins فى عام ١٧٨٩ فقد حرض الغالبين من فوق دكته فى المقهى على طرد الأشراف الألمان .

(ديولكوس Diolcos) — أى طريقاً خشبياً تجر عليه السفن نحو أربعة أميال فوق الأرض على اسطوانات ، وربحت من وراء ذلك كثيراً من الأموال(*) :
وكان لها قلعة منيعة تدعى أكروكورنثس Acrocorinthus وهى قلة من قلل الجبال يبلغ ارتفاعها ألفى قدم ، ويغذيها بالماء نبع لا ينضب معينه أبداً . وقد وصف لنا استرابون المنظر الذى تقع عليه عين من يشرف على هذا المكان من القلعة ، والمدينة مبسوطة على سطحين مدرجين من تحتها ، والملهى المقام فى الهواء الطلق والحمامات العامة العظيمة ، والسوق ذات العمد ، والهياكل البراقة ، والأسوار التى تصد عنها الأعداء والتى تمتد إلى ميناء لكيوم Lechaeum على الخليج الشمالى . وكان على قمة الجبل نفسها هيكل لأفروديتى وكأنما أقيم ليرمز إلى صناعة من أهم صناعات المدينة(٨٠) .

وكان لكورنثة تاريخ يرجع فى قدمه إلى الأيام الميسينية ، واشتهرت المدينة فى أيام هومر نفسه بثروتها الطائلة(٨١) . وكان يحكمها بعد الفتح الدورى ملوك ، ثم تولى حكمها الأشراف تسيطر عليهم أسرة البكيادى Bachiadae ثم حدث فيها ما حدث فى أرجوس ، وسكيون ، ومجارا ، وأثينة ، ولسيوس ، وميليتس ، وساموس ، وصقلية ، وفى كل مكان راجت فيه التجارة اليونانية ، وهو استيلاء طبقة التجار ورجال الأعمال على السلطة السياسية بالثوره أو الدسائس . وهذا هو المعنى الحقيقى الذى يجب أن يفهم من قيام حكومات « الطغيان » أو الدكتاتورية فى بلاد اليونان فى القرن السابع قبل الميلاد . ففى عام ٦٥٥ استولى سيسيلوس على مقاليد الحكم ، وكان قد نذر أن يخص زيوس بثروة كورنثة كلها إذا ما وصل إلى غرضه ، فلما تم له الأمر فرض

(*) وكان هذا المزلق طريقاً يرحب به التجار ويفضلونه على المياه الصاخبة القريبة من رأس ماليا Malea التى تعترض الطريق الذاهب إلى الجزء الغربى من البحر المتوسط . وكان الطريق الخشبى يقوى على حمل السفن التجارية المألوفة فى أيام اليونان . ولقد نقل أغسطس أسطوله على هذا الطريق وهو يطارد أنطونيوس وكليوبطره ، بعد معركة أكتيوم ، ونقل أسطول يونانى بهذه الطريقة نفسها فى عام ٨٨٣(٧٨) م . وقد وضع پرياندر فى أيامه مشروعاً لحفر القناة التى تصل الخليجين ، ولكن مهندسيه رأوا هذا العمل فوق طاقتهم(٧٩) .

على جميع أملاك المدينة ضريبة سنوية قدرها عشرة فى المائة من قيمتها ، ووهب ما تجمع منها للهيكل ، فلم تمض إلا عشر سنين حتى كان قد وفى بنذره وأبقى ثروة المدينة كما كانت من قبل(٨٢) . وقد وضع بحكمه المحبب المستنير الذى دام ثلاثين عاماً أساس رخاء كورنثة(٨٣) .

وكان حكم ولده القاسى پرياندر أطول حكم للطغاة فى تاريخ اليونان (٦٢٥ — ٥٨٥) . وقد أقر فيه الأمن والنظام ، ومنع استغلال الناس بعضهم بعضاً ، وشجع الأعمال التجارية والصناعية ، وناصر الآداب والفنون ، وجعل كورنثة زمناً ما أولى المدائن اليونانية ، ونشط التجارة بسك عملة رسمية(٨٤) ، كما نشط الصناعة بخفض الضرائب المفروضة عليها ، وحل مشكلة التعطل بإقامة طائفة من المبانى العامة وإنشاء المستعمرات فى خارج البلاد ؛ وحمى صغار رجال الأعمال من منافسة الشركات الكبرى بتحديد عدد الأرقاء الذين يجوز للرجل الواحد أن يستخدمهم فى أعماله ، وحرم استيرادهم بعد هذا التحديد(٨٥) ، وأنجى الأغنياء مما عندهم من الذهب الزائد على حاجتهم بأن أرغمهم على الاشتراك بذهبهم فى صنع تمثال ذهبى لتزدان به المدينة ؛ ثم دعا النساء ذوات المال فى كورنثة إلى حفلة كبرى ، جردهن فيها من أثوابهن الغالية وحليهن الثمينة ، ثم أمرهن بالعودة إلى بيوتهن بعد أن أتم جمالهن . وقد خلقت له أعماله هذه أعداء كثيرين أقوياء ، فلم يكن يجرؤ على الخروج دون حرس كبير ، وكان لخوفه وعزلته نكداً قاسياً . وأراد أن يحمى نفسه من الثورات فعمل بالنصيحة الخفية التى أشار بها عليه زميله الطاغية تراسيبولس الميليتى ، وهى أن يقطع « الفينة بعد الفينة أطول ما فى الحقل(٨٦) من سنابل(*) » . وأخذت سراريه يوجهن التهم إلى زوجته ، حتى أثرن غضبه عليها ، فألقاها فى نوبة من نوبات هذا الغضب من فوق سلم القصر ؛ وكانت حاملا فماتت من شدة الصدمة ، فما كان منه إلا أن

(*) يريد بذلك أنه كان يعدم أقوى رجال الدولة (المترجم) . قارن ذلك بأعمال « التطهير » التى تحدث من آن إلى آن فى روسيا الشيوعية ١٩٣٥ — ٣٨ .

حرق السرارى ونفى ابنه ليكفرون Lycophron إلى كرسيرا Corcyra لأنه حزن على أمه حزناً لم يطق معه أن يتحدث إلى أبيه . ولما أن قتل الكرسيريون ليكفرون قبض بريندر على ثلثمائة شاب من أشراف الأسر وأرسلهم إلى ألياتس Alyattes ملك ليديا ليتخذهم خصياناً ، ولكن السفينة التى أقلتهم مرت بساموس ، فما كان من أهلها إلا أن أطلقوا سراح الشبان متحدين بعملهم هذا بريندر غير عابئين بغضبه . وعمر هذا الطاغية طويلا وعده البعض بعد موته من السبعة الحكماء فى بلاد اليونان القديمة(٨٧) .

وثل الاسپارطيون بعد جيل من وفاته عرش الطغاة فى كورنثة ، وأقاموا مكانهم حكم الأشراف — ولم يكن ذلك لأن اسپارطة تعشق الحرية ، بل لأنها كانت تفضل طبقة الملاك على طبقات رجال الأعمال . بيد أن ثروة كورنثة كانت تقوم على التجارة يعينها من حين إلى حين أتباع أفروديتى والألعاب الهيلينية التى كانت تقام فى برزخ كورنثة . وكانت العاهرات كثيرات فى المدينة إلى حد جعل اليونان يطلقون اسم كورنثيازوماى Corinthiazomai على العهر نفسه (٨٨) . وكان من العادات المتبعة فى كورنثة أن تخصص إلى هيكل أفروديتى نساء يحترفن فيه الدعارة ويأتين بأجورهن إلى الكهنة . وقد وصل إلى علمنا أن رجلا يدعى أكسانوفون (وهو غير أكسانوفون قائد العشرة الآلاف) وعد الإلهة خمسين محظية إذا أعانته على النصر فى الألعاب الأولمپية . ويشير پندار الشاعر التقى إلى هذا النذر وهو يشيد بهذا النصر دون حياء أو اشمئزاز(٨٩) . ويقول استرابون إن « هيكل أفروديتى قد بلغ من الثروة أن كان له أكثر من ألف عبد من عبيد الهياكل ، ومحاظ وهبهن الرجال والنساء للهيكل ؛ وبفضل أولئك النسوة ازدحمت المدينة بالناس وعظمت ثروتها ؛ من ذلك أن قادة السفن كانوا ينفقون أموالهم فى المدينة بلا حساب » . وكانت المدينة تشكر لهن حسن صنيعهن وتنظر إلى « أولئك السيدات الكريمات » نظرتها إلى المحسنين للشعب . وفى ذلك يقول

مؤلف قديم نقل عنه أثينيوس Athenayus : « من العادات القديمة فى كورنثة ، كلما أرادت المدينة أن توجه دعاء إلى أفروديتى . . . ، أن تستعين بأكبر عدد مستطاع من المحاظى ليشتركن فى هذا الدعاء » . وكان لهؤلاء المحاظى عيد دينى خاص بهن هو عيد الأفروديزيا Aphrodisia يحتفلن به احتفالا فخما محوطاً بضروب التقى والصلاح(٩٢) . وقد ندد القديس بولس فى رسالته الأولى إلى الكورنثيين(٩٣) بأولئك النسوة اللائى ظللن يمارسن حرفتهن فى المدينة إلى أيامه .

وكان يسكن كورنثة فى عام ٤٨٠ ق م خمسون ألفا من المواطنين وثلاثون ألفا من الأرقاء ، وهذه النسبة بين الأحرار والعبيد عالية علوا غير مألوف فى المدن اليونانية(٩٤) . وكان اقتناص اللذة والذهب هم جميع الطبقات ، يستنفد كل جهودهم فلا يبقى منها ما ينفقونه فى الأدب والفنون إلا القليل . نعم إننا نسمع فى القرن الثامن عشر عن شاعر يدعى يوملوس Eumelus ولكن الأدب اليونانى قلما يزدان بأسماء كورنثية . وكان پرياندر يرحب بالشعراء فى بلاطه واستقدم أريون Arion من لسبوس لينظم شئون الموسيقى فى كورنثة . واشتهر فخار المدينة وبرنزها فى القرن الثامن ؛ وكان من يعملون فى طلاء مزهرياتها فى القرن السادس أرقى أهل هذا الفن فى بلاد اليونان كلها . ويحدثنا پوزنياس عن صندوق عظيم من خشب الأرز اختفى فيه سپسيلوس Cypselus من البكياديين وحفر فيه الفنانون نقوشاً ظريفة ورصعوه بالعاج والذهب(٩٥) . والراجح أن عصر پرياندر هو الذى أقامت فيه كورنثة لأپلو هيكلا دوريا اشتهر بأعمدته السبعة المنحوت كل واحد منها من حجر واحد . ولا تزال خمسة من هذه الأعمدة قائمة إلى يومنا هذا توحى بأن كورنثة قد تكون أحبت الجمال فى أكثر من صورة واحدة . ولربما كان الدهر والمصادفات قد ظلما هذه المدينة فلم يوفياها حقها من الشكر لأن تاريخها دونه رجال لا يدينون لها بولاء ولا يعترفون لها بفضل ، ولو أتيح للماضى أن يطلع على ما كتب عنه فى صحف المؤرخين لعجب مما يرى أشد العجب .

الفصل السادس

مجـارا

لم تكن مجارا أقل حباً للذهب من كورنثة ، وكانت التجارة عماد ثروة الأولى كما كانت عماد ثروة الثانية ، لكنها تختلف عنها فى أنها كان لها شاعر عظيم تحيا تلك المدينة القديمة فى شعره ، كأن ما قام فيها من الثورات هى بعينها الثورات التى قامت فى بلادنا . وكانت المدينة تقع عند مدخل البلوبونيز نفسه ، وكان لها مرفأ على كلا الخليجين ، ومن أجل هذا كان موقعها يمكنها من أن تساوم الجيوش المغيرة على تلك البلاد ، وتفرض المكوس على التجارة ؛ وقد أضافت إلى هذه التجارة صناعة للنسيج مزدهرة يشتغل بها رجال ونساء كانوا يسمون بلغة تلك الأيام الصادقة عبيداً . وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها فى القرنين السابع والسادس حين كانت تنازع كورنثة تجارة البرزخ ؛ وهذا هو العهد الذى أنشأت فيه مستعمرات لها كانت بمثابة محطات تجارية انتشرت ما بين بيزنطية على البسفور حتى مجارا هبليا Megara Hyblaea فى صقلية ، وازدادت الثروة فى المدينة زيادة مطردة ؛ ولكنها تجمعت فى أيدى طائفة قليلة برعت فى جمعها وبقيت جمهرة الشعب مكونة من أقنان معدمين بين أقلية موفورة الثراء ،(٩٦) يستمعون إلى الدعاة الذين يمنونهم بعيش أرخى وحياة أنعم من عيشهم وحياتهم . وفى عام ٦٣٠ قرر ثياجينز Theagenes أن يصبح طاغية فيها ، فأخذ يتملق الفقراء ويندد بالأغنياء ، ثم قاد جماهير الغوغاء الجياع إلى مراعى الأغنياء أصحاب الأنعام ، وأفلح فى حمل العامة على أن يؤلفوا له حرساً خاصاً ، فلما تألف ضاعف عدده ، واستعان به على إسقاط الحكومة القائمة(٩٧) . وحكم ثياجينز مجارا

نحو ثلاثين عاماً حرر فى أثنائها الأقنان ، وأذل الأقوياء ، وناصر الفنون ؛ ولكن أغنياء المدينة أنزلوه عن العرش حوالى عام ٦٠٠ ؛ ثم قامت ثورة ثالثة أعادت الدمقراطية الشعبية ، وصادرت أملاك زعماء طبقة الأشراف ، واستولت على بيوت الأغنياء ، وألغت الديون ، وأصدرت قراراً يحتم على أصحاب الأموال أن يردوا إلى المدينين ما استولوا عليه من فوائد عن قروضهم(٩٨) .

وكان ثيوجنيز Theognis حياً خلال هذه الثورات كلها ، وقد وصفها فى قصائد مليئة حقداً تصلح لأن تكون وصفاً لحرب الطبقات عندنا فى هذه الأيام . ويقول عن نفسه (وهو مرجعنا الوحيد فى هذا الموضوع) إنه من أبناء أسرة قديمة شريفة . وما من شك فى أنه قد نشأ نشأة منعمة راضية ، لأنه كان مرشداً ، وفيلسوفاً ، وعاشقاً لشاب يدعى سيرنس Cyrnus أصبح فيما بعد زعيم حزب الأشراف ؛ وهو يسدى سيرنس هذا كثيراً من النصح ، ولا يطلب إليه فى نظير هذا إلا أن يحبه . وهو يشكو الصد كما يشكو سائر المحبين ، وأجمل ما بقى من قصائده قصيدة يذكر فيها سيرنس أنه لن يخلد اسمه إلا شعر ثيوجنيز :

هأنذا قد جعلت لك جناحين تطير بهما
فوق البحر والأرض اللذين لا آخر لها ؛
وسيتردد اسمك على ألسنة الكثيرين ،
وستكون رفيقاً لهم فى مآدبهم وفى مرحهم .
وسيأمرك الشبان الذين يحبونك أن
تطربهم بالناى الفض ذى الصوت الشجى ؛
وإذا ما ذهبت إلى أطباق الثرى المظلمة ،
إلى مستقر الموتى الذى يبعث الأسى فى القلوب ،
فلن ينقطع اتصالك بالمجد والشرف
بل سوف تجول فى الآفاق اسماً مخلداً ،

سيرنس ، يتردد فى بحار بلاد اليونان وسواحلها ،
يعبر البحر المجدب من جزيرة إلى جزيرة
ولن تكون فى حاجة إلى الخيل ؛ بل سوف تنطلق بخفة
تحملك ربات الشعر ذوات التاج البنفسجى .
وسيولع بذكرك كل من يولع بالغناء ،
أجل ، لقد جعلت لك جناحين ، ولم أنل منك
فى نظير هذا إلا السخرية التى تتلظى كالنار بين أضامى(٩٩)

وهو ينذر سيرنس بأن مظالم الأشراف قد توقد نيران الثورة فيقول:

إن الليالى حبالى ، وستلد عما قريب
من ينتقمون لهذا الفساد الطويل الأمد .
إن العامة ليظهرون حتى الآن بمظهر الاعتدال ،
ولكن سادتهم فاسدون عمى العيون .
وحكم النفوس النبيلة ، الباسلة العالية ،
لم تعرض السلام والانسجام للخطر فى يوم من الأيام :
أما التشامخ والغطرسة والادعاء الكاذب
من ذوى العقول الصغيرة ، والضعف والوقاحة ،
واغتصاب العدالة والحق والقانون ،
والعبث بها بالحيلة والطمع والكبرياء ،
أما هذا كله فهو الطريق الذى سيؤدي بنا إلى الخراب .
وحذار أن تحلم يا سيرنس
(وإن بدت الدولة هادئة غير مضطربة)
أن ستكون الدولة فى مستقبلها متمتعة بالسلام والأمن ؛
بل سيعقب هذا الهدوء الظاهر ،

عاجلا كان ذاك أو آجلا ، الدم المراق والنزاع [١٠٠](*) .

وشبت نار الثورة فعلا ؛ وكان ثيوجنيز من بين من نفتهم الدمقراطية المنتصرة من البلاد وصودرت أملاكه . فترك زوجته وأطفاله في رعاية بعض أصدقائه ، وأخذ يتنقل من دولة إلى دولة — من عوبية ، إلى طيبة ، إلى اسپارطة ، إلى صقلية ؛ وكان يجد فيها بادئ الأمر الطعام والحفاوة جزاء له على شعره ، ثم حل به بعدئذ ما لم يتعوده من ضنك شديد . وأنطقه غيظه بتلك الأسئلة يوجهها إلى زيوس ، وما أشبهها بالأسئلة التي يوجهها أيوب إلى يهوه :

طوبى لك يا جوف يا ذا الحول والطول ! إني أنظر إلى العالم وأنا مندهش غاية الدهشة ، متحير من أساليبك فيه . . . يا عجباً كيف ينطبق فعلك فيه على إدراكك للحق والباطل إذا كنت توزع نعمك على الصالح والطالح على حد سواء ؟ وإذن فكيف يعرف الناس كنه شرائعك أو يدركون معناها ؟[١٠١] .

ويصب جام غضبه على زعماء الدمقراطيـــة ويرجو زيوس الإله الذي تخفى على الناس طرائقه أن ينعم عليه بشرب دمائهم[١٠٢] . وهو يشبه مجارا بسفينة استبدل بقائدها ملاحـــون عاجزون لا يعرفون قيمة النظام في العمل[١٠٣] » وتلك على ما نعلم هي أول مرة يستخدم فيها هذا التشبيه . ويقول إن بعض الناس أقدر من غيرهم بفطرتهم ، وإن الأرستقراطية في صورة من الصور نظام لا بد منه ؛ وهكذا نرى أن الناس في ذلك العهد القديم قد تبينوا أن الأغلبية لا تحكم قط . وهو يستخدم لفظ الأخيار **hoi agathoi** بمعنى الأشراف ، ولفظ الأشرار أو الأراذل أو المنحطين **hoi kokoi** بمعنى السوقة . ويقول إن هذه الفروق المتأصلة لا يمكن

(*) إن نسبة هذه القصيدة والقصائد التي سيرد ذكرها فيما بعد إلى فترات معينة في حياة ثيوجنيز ظني محض .

استئصالها ؛ « وإن الرجـل الشرير لا يمكن أن يصبح صالحا مهما علمته »(١٠٥) . — وقد يكون كل الذى يعنيه بقوله هذا أنه ما من تعليم يستطيع أن يجعل السوقى أرستقراطياً ، وهو ككل المحافظين الخلَّص يحرص أشد الحرص على نقاء النسل ويقول « إن ما فى العالم من شرور ليس ناشئاً من شره الأخيار بل من سوء اختيارهم لأزواجهم ومن ضعف خصبهم(١٠٦) » .

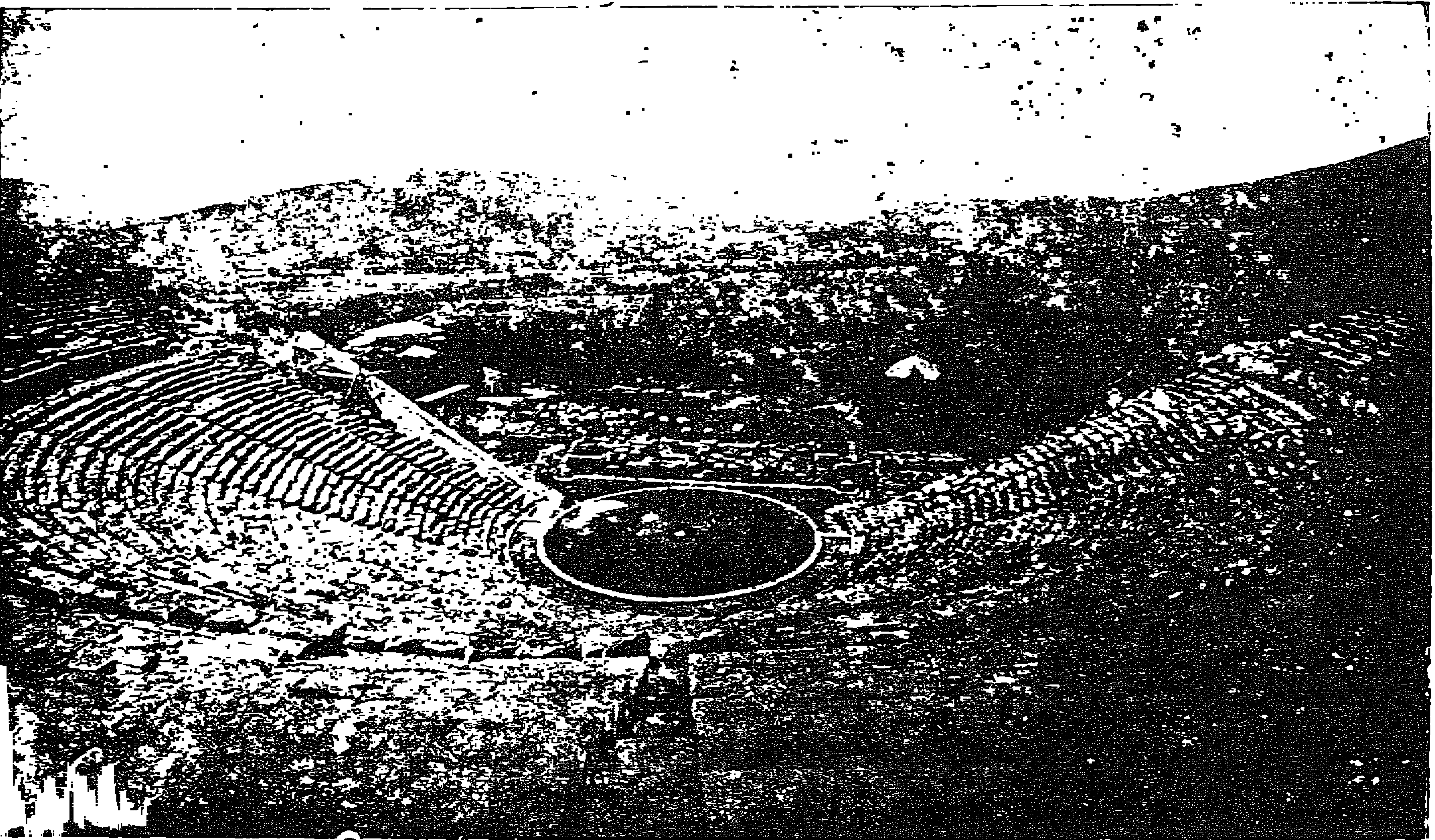
وهو يدبر مع سيرنس ثورة جديدة مقاومة للثورة السابقة ؛ ومن رأيه أن الإنسان ، وإن أقسم يمين الولاء للحكومة الجديدة ، يجوز له أن يغتال الحاكم المستبد الظالم ؛ ويتعهد بأن يعمل مع رفاقه حتى ينتقموا لأنفسهم من أعدائهم أشد انتقام . لكنه بعد أن قضى فى النفى والعزلة كثيرا من السنين يرشو موظفاً من الموظفين ليمكنه من العودة إلى مجارا (١٠٧) . ثم تشمئز نفسه من نفاقه هذا وينشد أبياتاً من الشعر يعبر فيها عن يأسه ، وهى أبيات يكررها مئات من اليونان :

ليس فى العالم نعمة
أحسن من ألا يولد الإنسان أو لا يرى الشمس !
ويليها أن يدركه الموت عاجلا
ويدفن تحت أطباق الثرى(١٠٨) .

وتراه فى آخر حياته فى مجارا رجلا طاعناً فى السن مهشما ، وقد أخذ على نفسه ألا يكتب شيئاً فى السياسة ليضمن بذلك سلامته . ويجد سلواه فى الخمر وفى زوجة صالحة (١٠٩) ، ويحاول جهده أن يتعلم أخيراً أن كل شىء طبيعى ممكن أن يغتفر .

تعلم ، ياسيرنس ، تعلم أن تكون هادئ العقل ؛
ووفق بين مزاجك وبين الجنس البشرى والطبيعة البشرية ،

وخذ تلك الطبيعة كما تجدها ،
فهى مزيج من العناصر فيه الطيب وفى الخبيث .
هكذا خلقنا كلنا ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان :.
فخير الناس لا يخلون من النقص ، ومن بقى منهم
حين يراد الانتفاع بهم لا يقلون عن خيارهم :.
ولو أن الأمر كان على عكس هذا
لما أمكن أن تسير شئون العالم(١١٠) !



(شكل ٨) ملهى أبيدورس

الفصل السابع

إيجينا وإبدورس

لقد رفعت الزلازل أو خلفت وراءها فى عرض الخيج الممتد من مجارا إلى كورنثةجزيرة من أقدم الجزائر المنافسة لهاتين البلدتين فى الصناعة والتجارة ، وهى جزيرة إيجينا حيث نشأت فى أيام ميسينى مدينة عامرة كشف فى مقابرها كميات كبيرة من الذهب(١١١) . وقد وجد القائمون الدوريون أرض الجزيرة جدباء مستعصية على الزراعة ولكنها جد صالحة للتجارة : ولما غزا الفرس بلاد اليونان لم تكن فى الجزيرة إلا أرستقراطية من التجار الحريصين على أن يبيعوا المزهريات الرائعة والآنية البرنزية التى يصنعونها فى حوانيتهم ، ليشتروا بها العبيد الذين كانوا يستوردون منهم عدداً كبيراً ليعملوا فى المصانع ، أو ليبيعوها للمدن اليونانية . وقد قدر أرسطو حوالى عام ٣٥٠ ق . م سكان إيجينا بنصف مليون منهم ٠٠٠ر٤٧٠ من العبيد(١١٢) . وفى هذه المدينة وسكت أول عملة يونانية ، وبقيت الموازين والمكاييل الإيجينية هى الموازين والمكاييل الرسمية فى بلاد اليونان إلى أيام الفتح الرومانى .

ولقد عرف أن هذه البيئة التجارية يمكن أن تتحول من الاهتمام بالثراء إلى الاهتمام بالفن حين كشف أحد الرحالة فى عام ١٩١١ فى كومة من المخلفات التماثيل الجميلة القوية التى كانت تزدان بها فى وقت من الأوقات قوصرة هيكل أفئيا **Aphaea** . أما الهيكل نفسه فقد بقى منه اثنان وعشرون من الأعمدة الدورية تحمل فوقها عوارضها . وأكبر الظن أن أهل إيجينا قد

شادوا هذا المعبد قبيل الحرب الفارسية ، وذلك لأن فى التماثيل شواهد كثيرة من الطراز نصف الشرقى العتيق وإن كانت هندسة البناء من الطراز اليونانى . غير أننا لا نستطيع أن نجزم بهذا ، فربما كان الهيكل قد شيد بعد سلاميس لأن التماثيل التى تصور الإيجينيين يهزمون الطرواديين قد تكون مجرد رمز للنزاع الدائم بين بلاد اليونان والشرق ، وإلى النصر الذى أحرزه الأسطول اليونانى من عهد قريب على مرأى من إيجينا فى سلاميس ، وقد أمدت الجزيرة الصغيرة ذلك الأسطول بثلاثين سفينة منح اليونان إحداها بعد النصر الجائزة الأولى من جوائز الشجاعة .

ويستطيع السائح بعد رحلة بحرية ممتعة أن ينتقل من إيجينا إلى إپدورس ، وهى الآن قرية لا يزيد سكانها على خمسة نسمة ، ولكنها كانت فى وقت من الأوقات من أشهر المدن فى بلاد اليونان ؛ فقد كان فيها ، أو على الأصح على بعد عشرة أميال منها ، فى أخدود ضيق بين أعلى الجبال وبين شبه جزيرة أرجوس ، الموطن الرئيسى لأسكلپيوس Asclepius إله الشفاء وبطله . وقد خاطبه أپلو نفسه على لسان الوحى فى دلفى بقوله : « أى اسكلپيوس يا من ولدت لتكون مصدر السرور للخلق أجمعين ، يا وليد الحب يا من أنجبتك لى كورونيس الجميلة عند إپدورس الصخرية »(١١٣) . ولقد بلغ من شفاهم إسكپيوس من الكثرة حداً جعل پلوتو إله الجحيم يشكو إلى زيوس — وخاصة بعد أن أحيا رجلا من الموت — أنه لا يكاد أحد يموت . وتحير زيوس فى أمره ، ولم يدر ما يفعل بالجنس البشرى إذا لم يكن مآلهم الموت ، فأرسل على أسكلپيوس صاعقة أهلكته(١١٤) . لكن الناس اتخذوه إلهاً منقذاً وعبدوه فى تساليا أولا ثم فى بلاد اليونان بعدئذ ، وشادوا له فى إپدورس أعظم تماثيله ، وهناك أنشأ الكهنة الأطباء ، الذين سموا على اسمه بالأسكلپياويين ، مصحة اشتهرت فى بلاد اليونان جميعها بنجاحها فى علاج الأمراض . وأصبحت إپدورس فيما بعد اوردیس Lourdes اليونان ، يحج

إليها الناس من جميع بلاد البحر المتوسط ، ينشدون فيها نعمة الصحة التى يعدها اليونان أعظم النعم جميعها . وكانوا ينامون فى الهيكل ، ويتبعون بدقة النظام الذى يفرض عليهم ، ويسجلون شفاءهم الذى يعتقدون أنه من المعجزات الإلهية على ألواح من الحجر لا تزال باقية فى أماكن متفرقة بين خربات الأيكة المقدسة . ومن الأجور والهدايا التى كانت تجمع من هؤلاء المرضى شادت إبدورس دار تمثيلها وملعبها ، ولا تزال مقاعدهما ومراميهما باقية إلى اليوم بالقرب من التلال المجاورة لها ؛ وقبابها المرفوعة على العمد والتى تعد بقاياها المحفوظة فى متحف المدينة الصغير من أروع قطع الرخام المنقوش فى بلاد اليونان . ويذهب اليوم أمثال هؤلاء المرضى إلى تنوس Tenos فى السكلديس حيث يعالجهم قساوسة الكنيسة اليونانية(١١٥) كما كان قساوسة أسكلبيوس يعالجون أسلافهم منذ ألفى عام وخمسمائة . أما القُلَّة القائمة التى كان أهل إبدورس يقربون عليها القرابين إلى زيوس وهيرا فقد أضحت الآن جبل سانت الياس St. Elias المقدس . إن الآلهة تموت ولكن التقى والصلاح مخلدان .

وليس أعظم ما يحرص العلماء على مشاهدته فى إبدورس هو خرائب أسكلبيوم التى سويت بالأرض . فالمكان كثير الأشجار وليس فى وسع السائح أن يرى الملهى الكامل الذى جاء لمشاهدته حتى يصل إلى منعطف فى الطريق يبسطه أمامه عند سفح الجبل على هيئة مروحة ضخمة من الحجارة . ولقد شاده پوليكليتوس الأصغر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنه لا يزال باقيا إلى اليوم ، ويكاد يكون كاملا لم ينقص منه شىء . وإذا وقف السائح فى وسط المرقص (الأركستر Orchestra) وهو مكان رحب مستدير مرصوف بالحجارة ، وأبصر أمامه أربع آلاف مقعد فى صفوف متراصة يعلو بعضها وراء بعض ، وقد نظمت تنظيما رائعا بحيث يكون كل مقعد منها مواجها له ، وإذا ما تتبع بنظراته الممرات المتشعبة التى ترتفع ارتفاعا

سريعا فى خطوط مستقيمة من المسرح إلى سفح الجبل من ورائه ، وتحدث بصوت خافت إلى أصدقائه الجالسين على أبعد المقاعد وأعلاها على مسافة مائتى قدم منه ، وأيقن أن كل كلمة نطق بها قد سمعها هؤلاء الأصدقاء وفهموها ، إذ ما فعل هذا تمثلت له إپدورس فى أيام عزها ورخائها ، وصور له خياله الجموع الهائلة مقبلة حرة مرحة من كل مدينة ومزار لتستمع إلى يوريپديز ، وسرى فى نفسه إحساس ، أقوى من أن يعبر عنه بلسانه ، بحياة الهواء الطلق البهجة التى كان يستمتع بها اليونان الأقدمون ؟

الباب الخامس
أثينـــة

الفصل الأول

بؤوتية هزيود

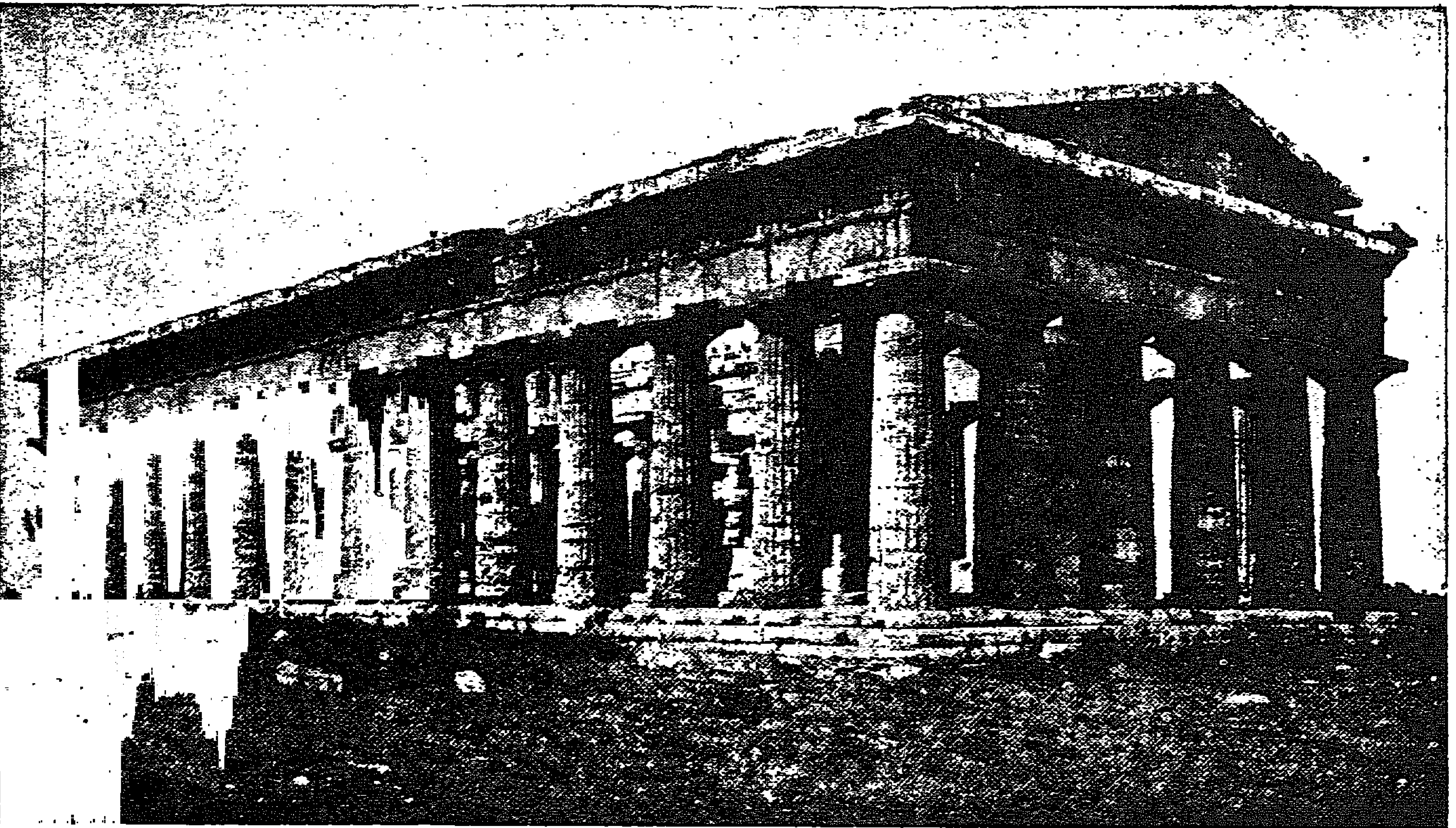
يتفرع الطريق فى شرق مجارا — فيتجه جنوباً إلى أثينة وشمالا إلى طيبة . والطريق الشمالى جبلى وعر يؤدى بالمسافر إلى مرتفعات جبل سيثرون Cithacron ، وإذا نظر المسافر نحو الغرب رأى من بعيد جبل پرنسس Parnassus . ومن وراء هذا الجبل تقوم مرتفعات أقل منه ، ومن بعدها يتبسط سهل بؤوتية الخصيب . وعند سفح التل تقوم پلاتية حيث أفنى مائة ألف من اليونان ثلثمائة ألف من الفرس . وإلى غربها قليلا نجـــد لوكترا Leuctra حيث كسب أپامينانداس أول نصر عظـــيم له على الاسپارطيين . وإلى غرب لوكترا بقليل يرتفع جبل هليكون Mt. Helicon موطن ربات الشعر « وهبكرين الحيية » التى تغنى بها كيتس Keats ، وهى الينبوع الذائع الصيت ، ينبوع الجواد الذى تؤكد لنا الأساطير أنه نبع منه الماء حين ضرب بجسوس Pegasus الجواد المجنح الأرض بقدمه وهو يصعد إلى السماء(١) . وإلى شمال هذا النبع مباشرة تقوم مدينة ثسبيا التى لا ينقطع النزاع بينها وبين طيبة ، وبالقرب منها يوجد النبع الذى أبصر فيه نارسس خياله — أو خيال أخته الميتة التى كان يحبها على ما جاء فى قصة أخرى(٢) .

وفى بلدة أسكرا Ascra الصغيرة بالقرب من ثسبيا كان يعيش ويكدح الشاعر هزيود الذى لا يعلو عنه فى حب اليونان الأقدمين إلا هومر وحده .

وتقول الرواية المتواترة إن هذا الشاعر ولد فى عام ٨٤٦ وتوفى فى عام ٧٧٧ ، ولكن بعض العلماء المحدثين يؤخرون تاريخه إلى حوالى ٦٥٠[٣] ، وأكبر ظننا أنه عاش قبل التاريخ الأخير بمائة عام[٤] . وكان مولده فى سيمى Cyme من أعمال إيوليا فى آسية الصغرى ، ولكن والده حاقت به الفاقة فيها فهاجر إلى أسكرا التى يصفها هزيود بأنها « بائسة فى الشتاء ، لا تطاق فى الصيف ، وليس فيها خير فى وقت من الأوقات »[٥] — كمعظم الأماكن التى يعيش فيها الناس . وبينا كان هزيود الغلام الراعى والعامل فى المزرعة يسير وراء قطعانه على سفوح جبال هليكون صاعداً تارة ونازلا تارة أخرى خيل إليه أن ربات الشعر قد نفثت فى جسمه روح الشعر فأخذ يكتبه ويغنيه ويكسب الجوائز فى المباريات الموسيقية[٦] ، ويقول البعض إنه فاز على هومر نفسه[٧] .

وإذ كان ككل شاب يونانى مولعاً بعجائب الأساطير ، فقد كتب[*] أنساباً للآلهة عندنا منها ألف بيت غث تسرد أسر الأرباب وملوكهم ، وهى أنساب لا غنى عنها فى الدين كما أن أنساب الملوك لا غنى عنها فى التاريخ . وقد تغنى فى بادئ الأمر بربات الشعر نفسها لأنها كانت جاراته على تل هليكون إذا جاز القول بأن الآلهة يجاورون الآدميين ، وقد صور له خيال الشباب أنه يكاد يراها « ترقص بأقدامها الدقيقة » على سفح الجبل ، و « تغسل جلدها الرقيق » فى الهبكرين[٧] . ثم وصف بعدئذ مولد العالم — لا خلقه — فأخذ يقص علينا كيف ولد إله من إله حتى ضاق أولمبس بالآلهة . ويقول إنه فى بادئ الأمر عماء ثم « كانت بعدئذ الأرض العريضة الصدر المقر الثابت الأمين لجميع الآلهة المخلدين » ؛ وكان الآلهة فى الدين اليونانى يعيشون إما على ظهر الأرض أو فى باطنها ، وهم على الدوام قريبون من الناس ،

(*) هذا ما كان يعتقده جميع الكتاب الأقدمين ما عدا بعض الأدباء البؤوتيين ممن عاشوا فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وهؤلاء يرتابون فى أن هزيود هو مؤلف هذه الأنساب .



(شكل ٩) هيكل پوسيدن فى پيستم

ثم جاء بعدئذ طرطروس Tartarus إله العالم السفلى ثم جاء بعده إروس Eros أو الحب « أجمل الآلهة » كلهم(١٠) . وولد للعماء Chaos الظلمة والليل وولد لهذين الأثير Ether والنهار ؛ وولدت الأرض الجبال والسماء ؛ وولد من اقتران السماء والأرض الأقيانوس Oceanus أى البحر . والمؤلفون الإنجليز يبدءون هذه الأسماء بالحروف الكبيرة Capitals ولكن هذه الحروف لم يكن لها وجود فى اللغة اليونانية أيام هزيود ، ومبلغ علمنا أنه لم يكن يقصد بهذا كله أكثر من أن العالم فى بادئ الأمر كان عماء ، ثم نشأت الأرض وما فى باطنها ، والليل والنهار والبحار ؛ وأن الشهوة هى التى أوجدت كل شىء ولعل هزيود كان فيلسوفاً ألهم الشعر فأخذ يجسد المعانى المجردة وينشئ منها شعراً ؛ وقد لجأ إمبدقليز إلى تلك الأساليب نفسها بعد مائة عام أو مائتين فى صقلية(١١) . وليس بين هذا القصص الدينى وبين فلسفة الأيونيين الطبيعية إلا خطوة واحدة .

ويكثر فى أساطير هزيود الهولات والدماء وهو لا يتحرج من أن يعزو إلى الآلهة أفحش الصلات الجنسية . وقد نشأ من تزاوج السماء (أورانوس) والأرض (جى أوجيا) جنس من الجبابرة (Titans) لبعضهم خمسون رأساً ومائة يد . ولم يكن أورانوس يحبهم فقذف بهم إلى طرطروس المظلمة . ولكن الأرض ساءها هذا فعرضت عليهم أن يقتلوا أباهم . وقام كرونس أحد الجبابرة بهذه المهنة . فابتهجت « جى الضخمة بهذا العمل وأخفته فى كمين ؛ ووضعت فى يده منجلا ، مثلم الأسنان ، وأوحت إليه بالخطة التى يسير عليها . ثم جاء السماء الواسع وأحضر معه الليل (Erebus) ، وكان السماء محباً وإلهاً فاحتضن الأرض وامتد حولها فى جميع الجهات » . فلما رأى كرونس ذلك بتر قضيب أبيه وألقى باللحم المقطوع فى اليم ، ونشأت من نقط الماء التى سقطت على الأرض آلهة الانتقام (Furias) ؛ ومن الزبد الذى

تكون حول اللحم وهو طاف فوق الماء نشأت أفرديتى(*)(١٢) . واستولى الجبابرة على أولمپس ، وأنزلوا أورانوس (السماء) عن عرشه ورفعوا عليه كرونس . وتزوج كرونس بأخته ريا Rhae ، ولكن أبويه الأرض والسماء كانا قد تنبأا بأن أحد أبنائه سيقتله ، فابتلعهم كرنس جميعاً ما عدا زيوس ، الذى ولدته ريا سرا فى كريت . فلما شب زيوس خلع كرونس وأرغمه على أن يخرج أولاده من بطنه . وأعاد الجبابرة إلى باطن الأرض قوة واقتداراً(١٣) .

هذه هى الطريقة التى ولدت بها الآلهة وهذه هى أساليبهم كما جاء فى أقوال هزيود . وهنا نجد قصة پروميثيوس البعيد النظر ، جالب النار ؛ ونجد كذلك فجور الآلهة الكثير الممل ، وهو الفجور الذى استطاع به كثير من اليونان أن يصلوا بأنسابهم إلى هؤلاء الآلهة — ولم يكن الإنسان ليظن أن الشعر الذى يروى هذا الفجور سيكون شعراً مملا خالياً من الروعة إلى هذا الحد . ولسنا نعرف كم من هذه الأساطير كانت هى القصص الشعبى الذى نشأ فى ثقافة بدائية تكاد أن تكون همجية ، وكم منها من تأليف هزيود نفسه ، ولسنا نجد فى صحف هومر الطيبة إلا القليل من هذه الأساطير . ولربما كان بعض الفساد الذى غمرت فيه هذه القصص آلهة جبل أولمپس فى أيام النقد الفلسفى والتطور الأخلاقى ربما كان هذا البعض من خيال شاعر أسكرا القاتم النكد .

وينزل هزيود فى القصيدة الوحيدة التى لا يجادل أحد فى أنها من شعره من قلل أولمپس إلى السهول فيكتب شعراً زراعياً قوياً فى وصف حياة الفلاح . وتلك هى قصيدة الأعمال والأيام وهى عتاب طويل ونصيحة إلى أخيه پرسيوس ، وقد صوره فيها بصورة غريبة تحمل على الظن بأن هذا الأخ لا يعدو أن يكون تجسيداً أدبياً لمعنى تخيله الشاعر . وهو يقول فى مطلع

(*) واللفظ مشتق من أفروس Aphros الزبد . أما المقطع الأخير فى الكلمة dite فلا يعرف أصله على وجه التحقيق .

القصيدة : « والآن سأتحدث إليك أيها الأخ الأبله پرسيوس ولا أبغى من حديثى إلا الخير لك[١٤] » . ويقول لنا هزيود إن پرسيوس هذا قد خدعه واغتصب منه بعض ميراثه ؛ ثم يحدثنا بعد هذا الاغتصاب حديثاً هو أول موعظة معروفة فى التاريخ تصف فضيلة الجد وكرامته ، وتقول إن الشرف والكدح أوفر كرامة وأدل على الحكمة من الرذيلة والترف والخمول : « إن من أيسر الأمور لك أن تختار الرذيلة وأن تختار منها أكداساً مكدسة ؛ لأن الطريق إليها معبد ومقامها جد قريب . ولكن الآلهة المخلدين قد أقاموا فى سبيل الفضيلة عرق الكدح ، وجعلوا الطريق المؤدى إليها طويلا وعراً . شاقاً فى بداية الأمر ، ولكنك إذا وصلت إلى أعلاه وجدته سهلا بحق رغم ما لقيت فيه من المشقة قبل[١٥] » . ثم يضع الشاعر قواعد لأعمال الزراعة الجدية ، ويحدد خير أيام الحرث والغرس والحصاد ، ويصوغ أقواله فى أمثال فجة صقلها ڤرچيل فيما بعد فى شعر بلغ حد الكمال . وهو يحذر پرسيوس من عاقبة الإفراط فى الشراب صيفاً ومن تخفيف الملابس شتاء . ويصور شتاء بؤوتية القاسى فيقول عنه إن ريحه زمهرير تسلخ جلد الجوذر» والبحار والأنهار تضطرب مياهها بفعل ريح الشمال ، والغابات تنوح وأشجار الصنوبر تتساقط ، والحيوانات « ترهب الثلج الأبيض » ، وتأوى خائفة إلى حظائرها ومذادرها[١٦] ، وما أدفأ الكوخ الحسن البناء فى ذلك الوقت ، فهو الجزاء الأخير للكدح بشجاعة وفطنة ! ففيه لا تنقطع الأعمال المنزلية مهما اشتدت العواصف ، وفيه تكون الزوجة نعم العون حقاً ، فهى خير عوض للرجل مما سببته له من متاعب كثيرة .

ولا يستطيع هزيود أن يقطع برأى فى الزوجات ، وما من شك فى أنه كان أعزب أو أرمل ، لأن من كانت له زوجة حية لا يتحدث عن المرأة بهذا الغل الشديد . نعم إن الشاعر يبدأ فى آخر القطعة الباقية من قصيدته ثبتاً بأسماء النساء كله شهامة ومروءة ، ويعيد على مسامعنا قصص تلك الأيام التى كان عدد البطلات فيها لا يقل عن عدد الأبطال وحين كانت كثرة الأرباب

من النساء . ولكنه يذكر فى كتابيه الكبيرين فى اغتباط الحاقد الشامت أن معظم الشرور التى فى العالم من فعل پندورا الحسناء ، وأن زيوس لما غضب على پروميثيوس Prometheus حين سرق النار من السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية يونانية إلى الرجل : « فأمر هفستوس Hephaestus أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته ، وأن يجعل وجه الفتاة الحسناء جميلا كوجه الآلهات والمخلدات . ثم أمر أثينا أن تعلمها كيف تنسج القماش المتين ، وأمر أفروديتى الذهبية أن تنشر حول رأسها الرشاقة ، والشهوة الملحة ، والقلق الذى يتلف الأعضاء ، ولكنه أمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلا كعقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء . وأطاعوا كلهم زيوس ... ووضع رسول الآلهة فى جوفها صوتاً جذاباً ؛ وسمى هذه المرأة پندورا لأن كل الساكنين فى البيوت الأولمپية قد أهدوا إليها هدية لتؤذى بها الرجال المبدعين[١٧] » .

ثم يقدم زيوس پندورا إلى إپمثيوس Epimstheus ؛ وقد حذره أخوه پروميثيوس من قبول هدايا الآلهة ، ولكنه رغم هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع للجمال هذه المرة . وكان پروميثيوس قد ترك مع إپمثيوس صندوقاً خفياً عجيباً وأوصاه ألا يفتحه بحال من الأحوال . وغلب على پندورا حب الاستطلاع ففتحت الصندوق فطار منه عشرة آلاف شر أخذت تنغص على الناس حياتهم ، ولم يبق فيه إلا الأمل وحده . ومن پندورا ، كما يقول هزيود ، نشأ جنس النساء الرقيقات ، ومنها نشأت سلالة مؤذية ، وتسكن طوائف النساء الشديدات الأذى مع الرجال وهن لا يعنهم على الفقر المدقع بل يعنهم على التخمة ؛ وبهذه الطريقة وهب زيوس الرجال نساء ليكن مصدر الشر والأذى[١٨] » .

ثم يقول الشاعر المذبذب بعدئذ فى حسرة ولوعة إن العزوبة لا تقل شراً عن الزواج لأن الشيخوخة مع العزلة شقاء أيما شقاء ، ولأن أملاك من لا ولد له تعود بعد موته إلى عشيرته ، ولهذا فإن من مصلحة الرجل أن

يتزوج — وإن كان عليه ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، ومن مصلحته أن يكون له أولاد — وإن كان من الواجب ألا يكون له أكثر من ولد واحد ، حتى لا تنقسم ثروته بعد موته .

« إذا ما توج النضج فخر رجولتك ، فخذ بيدك إلى بيتك زوجة راضية ؛ وخير سن الزواج هي سن الثلاثين ، فلا تنقص منها كثيراً ولا تزد عليها كثيراً ؛ . . واخترها عذراء حتى تطبع الأخلاق الطاهرة صدرها بطابع الحب القائم على الحكمة والعقل . ولتكن الهدية التي تهدى إليك فتاة من جيرتك معروفة لك ؛ ولتكن حذراً غاية الحذر لئلا تسيء الاختيار فتكون أضحوكة لجميع من يسكنون حولك . وخير ما تهبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة ؛ وشر ما يصيب الإنسان زوجة صغيرة تقضي كل وقتها في الطعام والشراب . إن هذه المرأة لتحرق بغير نار متقدة جسمك الذي أنهكته المتاعب ، وتشعل النار في عظامك القوية التي في داخل جسمك ، وتسبب لك الشيخوخة وأنت لا تزال في عنفوان الشباب[١٩] » .

ويقول هزيود إن الجنس البشري عاش على وجه الأرض قبل سقوط الإنسان على هذا النحو مئات من السنين يرسل في حلل السعادة . ذلك بأن الآلهة قد خلقت أولا في أيام كرونس (ستورينا في شعر ڤرچيل) جيلا ذهبياً كانوا كالآلهة يعيشون بلا كدح ولا قلق ؛ تنتج لهم الأرض من نفسها الطعام ، وتغذى بكلئها قطعانهم الكثيرة ، ويقضون كثيراً من الأيام فرحين مسرورين لا تدركهم الشيخوخة ، حتى إذا أقبل عليهم الموت آخر الأمر كان كأنه نوم خال من الآلام والأحلام . ثم خلق الآلهة في نزوة من نزواتهم القدسية جيلا فضيا أحط منزلة من الجيل الأول ، يحتاج أفراده في نموهم إلى مائة عام ، فإذا كمل هذا النمو عاشوا معذبين زمناً قليلا يدركهم بعده الموت . ثم خلق زيوس جيلا نحاسياً ، رجالا أعضاؤهم وأسلحتهم وبيوتهم من النحاس ، شن بعضهم على بعض كثيراً من الحروب

حتى « سلط عليهم الموت الأسود فغادروا ضياء الشمس اللامعة » . ثم عاود زيوس التجربة وخلق جيل الأبطال الذين حاربوا فى طيبة وطروادة ؛ ولما مات أولئك الرجال « سكنوا بأرواحهم الخالية من الهم فى جزائر الأبرار » ، وجاء من بعدهم شر الناس كلهم ، الجيل الحديدى ، وهم خلق أدنياء فاسدون فقراء لا يعرفون النظام ، يكدحون بالنهار ويقاسون الشدائد والأهوال بالليل ؛ لا يوقر أبناؤهم آباءهم ، يعصون الآلهة ويخاونون عليهم ، كسالى مشاغبون ، يحارب بعضهم بعضاً ، يرشون ويرتشون ، لا يثق بعضهم ببعض ، ويفترى بعضهم على بعض ، ويطأون بأقدامهم وجوه الفقراء منهم . ويقول هزيود فى حسرة : « ألا ليتنى لم أولد فى هذا العهد بل ولدت قبله أو بعده ! » وهو يتمنى أن يعجل زيوس بدفن هذا الجيل الحديدى فى باطن الأرض[٢٠] .

هذا هو اللاهوت التاريخى الذى يفسر به هزيود ما فى زمانه من فقر وظلم . وقد كان يرى هذه الشرور بعينيه ويلمسها بيديه ؛ ولكن الشاعر لم يكن يشك فى أن الماضى الذى ملأه أبطالا وآلهة كان أنبل وأجمل من هذا الجيل ؛ ولسنا نرتاب فى أن الناس لم يكونوا على الدوام فقراء معذبين أذلاء كما كان الزراع الذين عرفهم فى بؤوتية . وهو لا يعرف أن أخطاء الطبقة التى ينتمى إليها قد أثرت فى نظرته ، وأن آراءه فى الحياة والعمل والنساء والرجال آراء ضيقة ، أرضية ، تكاد أن تكون تجارية . وما أبعد هذه الصورة من صورة أعمال الناس التى تطالعنا فى شعر هومر ، وهى صورة إن كان فيها الإجرام والفزع فإن فيها أيضاً العظمة والنبل ! لقد كان هومر شاعراً ، يعرف أن ومضة من الجمال تمحو آلافا من الخطايا ؛ أما هزيود فكان فلاحاً يصعب عليه ما تتكلفه الزوجة ، ويغضب من وقاحة النساء اللائى يجلسن حول المائدة مع أزواجهن[٢١] . ويكشف لنا هزيود فى صراحة فظة عما كان فى المجتمع اليونانى القديم من انحطاط قبيح — عن الفقر المدقع الذى كان يعانيه رقيق الأرض وصغار الزراع الذين يقوم على سواعدهم مجد

الأشراف والملوك وعبث الحروب . وكان هومر يتغنى بالأبطال والأمراء للأشراف من الرجال والنساء ؛ أما هزيود فلم يكن يعرف أمراء ، بل كان يتغنى فى قصائده بالسوقة من الرجال ويوائم بين نغماته وبين موضوعه . فنحن نستمع فى شعره إلى قعقعة ثورات الفلاحين التى أنتجت فى أتكا من بعد إصلاحات صولون وطغيان پيسستراتس(*) .

لقد كانت الأرض فى بؤوتية ، كما كانت فى البلوپونيز ، فى حوزة نبلاء غائبين عنها يقيمون فى المدن أو بالقرب منها . وقد شيدت أكثر المدن رخاء وازدهاراً نحو بحيرة كپسيس Capsais ، وهى الآن جافة ولكنها كانت فيما مضى تمد بالماء شبكة معقدة من قنوات الرى وأنفاقه . وقد غزت هذا الإقليم المغرى الجذاب فى أواخر عصر هومر شعوب اشتق اسمهم من جبل بيئون Boeon فى إپيروس الذى أقاموا بيوتهم بالقرب منه . وقد استولوا على قيرونيا Chaeronia (وبقربها قضى فليپ على حرية اليونان) ، وطيبة عاصمتهم فى مستقبل الأيام ، ثم استولوا أخيراً على أركمنوس العاصمة المينياوية القديمة . وقد انضوت هذه المدن وغيرها فى أيام اليونان الأقدمين تحت لواء طيبة فى اتحاد بؤوتى يصرف شئونه العامة رجال من أهل هذا الحلف يختارون فى كل عام ، ويحتفـــل أهله مجتمعين فى كورونية Coronea بعيد الجامعة البؤوتية .

وكان من عادة الأثينيين أن يسخروا من البؤوتيين ويتهموهم بأنهم أغبياء ويعزوا بلادة ذهنهم إلى إفراطهم فى الأكل وإلى جو بلادهم الكثير الضباب والأمطار – كما كان الفرنسيون يعيرون الإنجليز سواء بسواء . وقد

(*) ولا يذكر التاريخ شيئاً عن موت هزيود ، ولكن الأقاصيص تقول إنه وهو فى سن الثلاثين أغوى العذراء كليميني Clymene ؛ وإن أخاها قتله وألقى بجثته فى البحر ؛ وإن كليميني حملت منه بابنه الشاعر الغنائى استسيكوروس Stesichorus وهو الشاعر الذى ولد مع ذلك فى صقلية » .

يكون فى هذا الوصف والتعليل بعض الصدق ، لأن البؤوتيين يضطلعون فى تاريخ اليونان بدور لا ترتاح له النفوس . من ذلك أن طيبة مثلا قد ساعدت الغزاة الفرس ، وظلت شوكة فى جانب أثينة مئات السنين . ولكننا نضع فى الكفة الأخرى — كفة الحسنات — أبطال پلاتية الشجعان الأوفياء ، ونضع هزيود الكادح المثابر ، وپندار الذى بلغ السماكين ، وأپامينونداس الأبى الشريف النفس ، وفلوطرخس الحبيب إلى النفوس . ومن واجبنا أن نكون على حذر فلا نرى منافسى أثينة بأعين الأثينيين .

الفصل الثاني

دلفى

بعد أن يغادر الإنسان قيرونيا مدينة أفلوطرخس يصعد وهو يعرض حياته للخطر فوق اثنى عشر ميلا يلتقى عند آخرها بفوقيس Phocis ، ثم يصل عند سفح جبل پارنسس نفسه إلى دلفى مدينة اليونان المقدسة : وعلى بعد ألف قدم من تحتها ينبسط سهل كريسيا Crisaea الذى تتلألأ فيه بأوراقها الفضية عشرة آلاف شجرة زيتونة ؛ وعلى بعد خمسمائة قدم أخرى تحت هذا السهل يمتد فى الأرض جون صغير من خليج كورنثة ، تمر فيه السفن وهى مقبلة من بعيد ، تتهادى فى بطء وصمت فوق المياه الساكنة الخداعة . ومن وراء الجون سلاسل أخرى من الجبال تكسوها عند مغيب الشمس حلة أرجوانية . وعند منعطف فى الطريق يلتقى السائح بنبع كستاليا Castalia فى خانق بين الصخور العمودية . وتروى القصص أن أهل دلفى ألقوا إيسوب Aesop من فوق هذه الصخور المرتفعة (وأضافوا بقولهم هذا خرافة أخرى إلى خرافاته) ؛ كما يروى التاريخ أن فلوميلوس Philomelus الفوقى Phocian طارد اللكريين المنهزمين من فوق هذه الصخور فى الحرب المقدسة(*) الثانية(٢٣) . ومن فوقها قمتا پرنسس التوأمتان حيث سكنت ربات الشعر بعد أن ملت المقام فى جبل هليكن . ولم يكن اليونان الذين يتسلقون مئات

(*) لقد أوقد اليونان نار حربين مقدستين بسبب مطالب هيكل أپلو أولاهما من ٥٩٥ إلى ٥٨٦ وفيها قضى اليونان الجنوبيون على ما كان يفرضه أهل سرا Cirrha المجاورة للهيكل من إتاوات باهظة على الحجاج المارين بثغرهم فى طريقهم إلى دلفى ؛ وكانت الحرب الثانية بين عامى ٣٥٦ ، ٣٤٦ ، فيها هزم جيش حلف يونانى بقيادة فليب المقدونى الفوقيين الذين استولوا على دلفى ونهبوا أموال الهيكل . وأدت الحرب الأولى إلى إعلان حياد دلفى وإلى إقامة الألعاب البيثية Pythian ، أما الثانية فكانت عاقبتها أن فتحت مقدونية بلاد اليونان .

الأميال فوق الصخور الوعرة ليقفوا على قمة الجبل — متزنين على لسان بارز من الصخر بين المرتفعات التى يكسوها الضباب من جهة والبحر الذى تسطع عليه الشمس من جهة أخرى ، ويحيط بهم من جميع الجهات جمال الطبيعة وأهوالها — لم يكن هؤلاء اليونان يشكّون فى أن من تحت هذه الصخور إله رهيب . وكثيراً ما زلزلت الأرض فى هذا المكان وقذفت الرعب فى قلوب الفرس النهابين ، ومن بعدهم بمائة عام فى قلوب الفوقيين النهابين ، وبعد مائة عام أخرى فى قلوب الغالبيين النهابين ؛ وكانت الزلازل فى اعتقاد اليونان من فعل الإله يحمى بها قراره . وكان العباد المتدينون يؤمون هذا المكان من أقدم الأزمنة التى تتحدث عنها التواريخ اليونانية ليجدوا فى الرياح التى تهب بين الأخاديد ، أو الغازات التى تنبعث من باطن الأرض ، صوت إلههم وإرادته . وكانت الصخرة العظيمة ، التى تكاد تسد الفتحة التى تنبعث منها الغازات ، وسط بلاد اليونان كلها فى اعتقاد الأهلين ، ومن ثم كانت هى سرة العالم أو أمفالوسه omphalos كما كانوا هم يسمونها .

وقد شادوا فوق هذه السرة مذابحهم لجى أمهم الأرض فى الأيام القديمة ، ثم لأپلو مالكها الأزهر فيما بعد . وكانت تحرس الأخدود فى الزمن القديم أفعى رهيبة فتصد عنه الرجال ؛ حتى قتلها فيبوس Phoebus بسهم وأصبح هو أپلو البيثيين الذى يعبد فى هذا الضريح . ولما أن دمرت النيران فى عام ٥٤٨ هيكلا قديماً أعاد بناءه الأشراف الألكميونيون المنفيون من أثينة بأموال اكتتبت بها بلاد اليونان كلها وبأموالهم هم ، وجعلوا له واجهة من الرخام . وأحاطوه برواق دورى الطراز ، وأقاموه من الداخل على أعمدة أيونية . وقلما رأت بلاد اليونان ضريحاً مثله من قبل . وكان طريق مقدس ملتف حول الجبل يؤدى إلى المزار ، ويزدان فى كل خطوة بالتماثيل والأروقة والخزانات أى الهياكل الصغيرة التى أقامها عند تخومه المقدسة (فى أولمپيا ، ودلفى ، وديلوس المدن اليونانية) لتودع فيها أموالها أو لتكون

هبات منها إلى الإله . وقد أقامت كورنثة وسكسيون خزائن من هذا النوع فى دلفى ؛ وأقامت مثلها فيما بعد أثينة ، وطيبة ، وسيرينى ، وأقامت أحسن منها نيدوس Cnidus وسفنوس Siphnos . وفى وسطها كلها شيد ملهى مواجه لجبل پرنسس ليذكر الناس أن التمثيل كان فى اليونان أصلا من الأصول الدين . وكان يعلو فوق هذه كلها ملعب يمارس فيه اليونان أحب الشعائر إليهم وهى عبادة الصحة ، والشجاعة ، والجمال ، والشباب .

وفى وسعنا أن نتخيل منظر هذا المكان فى عيد أپلو ، فنصور لأنفسنا الحجاج المتحمسين يزحمون الطريق الموصل إلى المدينة المقدسة ، وتغص بهم وبصخبهم وضجيجهم النزل والخيام التى أقيمت على عجل لتأويهم ، وهم يمرون فى حذر وارتياب بين الحوانيت التى يعرض فيها التجار الماكرون بضاعتهم ، ثم يصعدون فى مواكب دينية أو حاجين إلى هيكل أپلو يطلبون إليه الرضوان ، ويقربون إليه القرابين أو الضحايا ، ويرتلون الأناشيد ، أو يتلون الأدعية والصلوات ، ويجلسون خاشعين فى الملهى ، ثم يصعدون فى خطى ثقيلة متعبة تبلغ الحسهائه عدا ليشهدوا الألعاب البيثية أو ليتطلعوا فى دهشة إلى البحر والجبال . لقد كانت الحياة يوماً من الأيام تسير على هذا النهج الملىء بالحمية والحماسة .

الفصل الثالث

الدول الصغرى

كان الأهلون فى الجزء الغربى من أرض اليونان الأصلية يعيشون قانعين بحياتهم الريفية الهادئة طوال تاريخ اليونان القديم ولا يزالون كذلك حتى اليوم . لقد كان الناس فى لكريس Locris ، وإيتوليا Aetolia ، وأكرنانيا Acarnania ، واينيانيا Aeniania ، لشدة قربهم من الحقائق البدائية الواقعية ، وبعدهم عن تيار الحركة والتجارة الجارف ، لا يجدون متسعاً من الوقت ، وليست لهم المهارة الكافية ، للاشتغال بالأدب أو الفلسفة أو الفن ؛ إن الملعب والملهى العزيزين على أتكا لم يجدا لهما مواطناً فى هذا المكان ، وكانت الهياكل نفسها أضرحة قروية لا يجملها الفن ولا تثير العاطفة القومية . وكانت تقوم فى فترات طويلة مدائن متواضعة مثل أمفسا Amphissa فى لكريس ، أو نوبكتوس Naupactus الإيتولية ، أو كليدون Clydon الصغيرة حيث صاد مليجر Meleager فى يوم من الأيام الخنزير البرى مع أطلنطا Atalanta[*] . وعلى الساحـــل الغربى بالقرب من كليدون تقوم مسولنجيون Messolongion أو مسولنجى Messolongi حيث

(*) دمر خنزير برى حقول كلودون فانبرى له مليجو ابن مليكها إنيوس . ودبر أمر صيده مستعيناً بثيوس ، وكاستر ، وپلكس ، ونسطور ، وچيسن ، وأطلنطا ذات الوجه الجميل والخطو السريع . وقتل الخنزير عدداً من الأبطال ولكن أطلنطا صادته ومليجر قتله . وتزاحم الخاطبون على أطليطا فى بيتها فى أركاديا ، فوافقت على أن تتزوج من يسبقها منهم واشترطت أن تقتل كل من لايستطيع أن يسبقها . واستطاع هپومينيس Hippomenes أن يسبقها بأن ألقى فى طريقها وهو يعدو التفاحات الثلاث التى أعطتها إياه أفرديتى من الهسپردين Hesperides ، فوقفت أطلنطا لتأخذها وخسرت الرهان . وفى وسع القارىء أن يطلع على حب مليجر الخفى لأطلنطا وموته المفجع فى قصيدة سونبيرن Swinburne المسماة « أطلنطا فى كيلدون Atalanta in Clydon » .

حارب ماركو بوزارس Marco Bozzaris وقُتل بيرن Byron ؟ ويجرى بين أكرانيا وإيتوليا أعظم نهر فى بلاد اليونان — نهر أكلوس الذى اتخذه اليونان ذوو الخيال الخصب إلهاً لهم وعبدوه واسترضوه بالصلاة والضحايا . وبالقرب من منابعه فى إپيروس Epirus ينبع نهر أسبركيوس Spercheus ، وبالقرب من شاطئيه فى دولة إينيانيا Aeniania الصغيرة كان يعيش الآخيون فى العصر السابق لعصر هومر ، هم وقبيلة صغيرة تسمى هلينز وهو الاسم الذى سمى به اليونان كلهم أنفسهم طوعاً لحكم العادة التى لا تخضع لغير الهوى . وفى اتجاه الشرق يقع ممر ترموپيل المعروف باسم « الأبواب الحارة . . . » بسبب عيونه الكبريتية الساخنة وممره الضيق المنيع الممتد من الشمال إلى الجنوب بين الجبال والخليج المالى Malic Gulf ؛ وبعد أن يصعد الإنسان جبل أثريس Othrys ويخترق آخيا ثيوتيس Achaea Ththiotis ينحدر إلى سهول تساليا العظيمة .

وفيها عند فرسالس Pharsalus أبادت جنود قيصر المتعبة قوات بمپى ؛ وليس فى بلاد اليونان كلها إقليم آخر أوفر من تساليا زرعاً ، أو أقوى منها خيولا ، أو أفقر فنوناً . وتجرى فيها الأنهار من جميع الجهات ، ويصب كلها فى نهر پنيوس فتكون فيها تربة غرينية خصبة تمتد من حدود الإقليم الجنوبية إلى سفوح السلاسل الشمالية . ويشق نهر پنيوس طريقه خلال هذه الجبال مخترقاً تساليا إلى بحر تراقية ، وينحت بين قمم أسا Assa وأولمبس وادى التمپى (القطع) حيث تحيط بالنهر الغضوب من جميع الجهات صخور وعرة تمتد على شاطئيه مدى أربعة أميال ، وتعلو عن ماء النهر نحو ألف من الأقدام . وقد قامت على طول النهر فى الزمن القديم مدن كثيرة — فيرى ، وكرانون ، وفركا ، ولاريسا ، وجيرتون ، وإلاتيا(*) ، كان يحكمها أمراء إقطاعيون

(*) Elates, Gyrton, Larisa, Frica, Crannon, Pherae

يعيشون من كدح رقيق الأرض . وهنا فى أقصى الشمال يعلو جبل أولمبس أعلى قلل البلاد ومواطن الآلهة الأولمبية . وعلى سفوحه الشمالية والشرقية تقوم پيريا Pieria التى كانت موطن ربات الشعر قبل انتقالهن إلى هليكون(*) . وإلى الجنوب ، على طول الخليج ، تمتد مجنيزيا حيث تتجمع الجبال من أسا Ossa إلى پليون Pelion .

وتمتد جزيرة عوبية العظيمة Euboea مقابلة لسواحل اليونان القارية بين الخلجان الداخلية ومياه بحر إيجة الخارجية ، مبتدئة فى عرض المضيق على بعد أميال قليلة من مجنيزيا ، وترتكز على شبه جزيرة فى كليس تكاد تصلها ببؤوتيــة . والعمود الفقرى للجزيرة سلسلة جبلية هى امتداد لأولمپس ، وپليون ، وأثريس وتنتهى بجزائر سكلديس . وقد بلغت سهولها الساحلية درجة من الخصب والثراء أغرت بها الأيونيين القادمين من أتكا فى أيام غزو الدوريين ، وأدت إلى فتحها على يد الأثينيين فى عام ٥٠٦ ق . م ، وكانت حجة أثينة التى تذرعت بها لهذا الفتح أنها إذا حوصرت عند پيريوس ماتت جوعاً إن لم تصلها حبوب عوبية . وكانت رواسب النحاس والحديد وأجراف الأصداف مصدر ثراء كلسيس والأصل الذى اشتق منه اسمها . وقد ظلت وقتا ما أهم مراكز الصناعات المعدنية فى بلاد اليونان ، واشتهرت بسيوفها التى لا تضارعها قط سيوف أخرى ، وبمزهرياتها البرنزية التى بلغت أعلى درجة من الإتقان . ومما ساعد على انتعاش تجارة الجزيرة أن استخدمت فيها نقود من أقدم النقود اليونانية ، وكانت تخرج من كلسيس فكانت مصدر ثراء أهلها وحافزاً لهم إلى إنشاء مستعمرات تجارية فى تراقية وإيطالية وصقلية . وكاد نظام الموازين والمكاييل العوبى أن يعم بلاد اليونان كلها ، كما أضحت حروف كلسيس الهجائية التى أخذتها رومة عن كومى الإيطالية مستعمرة

(*) وهى التى وردت فى نصيحة ألكسندر پوپ الحكيمة التى يتضمنها البيتان الآتيان :

إن العلم القليل يعرض للأخطار

فإما أن ترتوى منه وإما ألا تمس النبع البيرى(٢٤)

عوبية ، كما أضحت هذه الحروف فى صورتها اللاتينية هى الحروف الهجائية لأوربا الحديثة . وعلى بعد أميال قليلة من جنوب كلسيس كانت مدينة إرتريا منافستها القديمة حيث أنشأ مندموس Meredemus أحد تلاميذ أفلاطون مدرسة للفلسفة ؛ وفيما عدا هذا فإن إرتريا وكلسيس Cha cis كلتيهما لا يظهر أسماهما واضحين فى تاريخ الفكر أو الفن اليونانيين .

ومن كلسيس يعبر المسافر على جسر قائم مكان المعبر الخشبى الذى أنشىء فى عام ٤١١ ق . م مضيق يوريبوس Euripus عائداً إلى بؤوتية . وعلى بعد بضعة أميال إلى الجنوب على الساحل البؤوتى تقع بلدة أويس الصغيرة حيث ضحى أجممنون بابنته للآلهة . وكانت تعيش فى هذا الإقليم فى يوم من الأيام قبيلة خاملة الذكر هى قبيلة الجرايس التى أرسلت مع العوبيين جماعة من أهلها أنشئوا مستعمرة كومى بالقرب من نابلى ، واشتق الرومان من اسم هذه القبيلة الاسم الذى أطلقوه على من قابلهم من الهيلينيين فسموهم الجراكى (الإغريق)(*) . ومن أجل هذا أطلق العالم كله على هلاس Hellas اسما لم يسم أهلها بلادهم به فى يوم من الأيام(٢٥) . وإلى جنوب أويس تقوم تنجارا Tangara التى كسبت شاعرتها كورنا Corinna الجائزة من پندار حوالى عام ٥٠٠ ق . م . والتى صنع خزافوها فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أشهر التماثيل الصغيرة فى التاريخ . وبعد خمسة أميال أخرى إلى الجنوب يدخل السائح أتكا ، وفى وسعنا إذا وقفنا على قلل جبال پارنيس أن نبصر تلال أثينة .

(*) وقد فعل العرب بهم ما يشبه هذا فاشتقوا من اسم الأيونيين اسماً أطلقوه على جميع الهيلينيين فسموهم اليونان أو اليونانيين . (المترجم)

الفصل الرابع

أتِكا

١ – ما حول أثينة

إن الجو نفسه فى هذا الإقليم يختلف عنه فى الإقليم السابق — فهو هنا نظيف ، بارد ، مضىء ؛ وكل سنة هنا تحتوى على ثلثمائة يوم ذات شمس ساطعة . وإذا قدم الإنسان إليه تذكر من فوره وصف شيشرون « هواء أثينة الصافى الذى يقال إنه كان له أكبر الأثر فى حدة عقول أهل أتكا[٢٦] » . ويسقط المطر فى أتـــكا فى الخريف والشتاء ، وقلما يسقط فى الصيف والضباب نادر فيها ، ويسقط الثلج فى أثينة مرة واحدة فى العام تقريباً ، ويسقط أربع مرات أو خمساً كل عام على قمم الجبال المحيطة بها[٢٧]. والصيف هنا حار ولكنه جاف يطاق ؛ وكانت الأراضى المنخفضة فى الزمن القديم ذات مناقع تنتشر فيها الملاريا فتقلل من ملاءمة الهواء للصحة[٢٨] . وتربة أتكا فقيرة ، والصخور الصلبة قريبة من سطح الأرض فى كل مكان تقريباً ، وهـــذا القرب يجعل الزراعة كفاحاً شاقاً للحصول على أبسط ضرورات الحياة(*) ؛ ولولا التجارة التى تتطلب كثيراً من المغامرة ، وزراعة الزيتون والكرم التى تتطلب كثيراً من الصبر ، لما أمكن قيام الحضارة فى أتكا .

وأكثر ما يدهش له الإنسان أن تقوم مدن كثيرة فى هذه الشبه الجزيرة القاحلة ؛ فهى تطالع الإنسان فى كل مرفأ على الساحل ، وفى كل واد

(*) يقول توكيديدس إن « أتكا نجت لفقر تربتها منذ أقدم الأزمان من الانقسامات الداخلية (؟) والغزو الأجنبى » .

بين التلال ، فقد استقر فى أتكا شعب نشيط مغامر إبان العصر الحجرى الحديث أو قبله ، وأكرم وفادة القادمين عليه من الأيونيين — وهم مزيج من الپلاسجيين الميسينيين والآخيين[٢٨] — الفارين من بؤوتية والبلوپونيز أمام المهاجرين والغزاة الشماليين ، وتزوج منهم وتزوجوا منه . ولم يكن هؤلاء القادمون فاتحين من الأجانب ، يستغلون أهل البلاد الأولين ، بل كانوا سلالة مختلطة من شعوب البحر المتوسط ، متوسطى القامة ، سمر البشرة ، ورثوا من طريق مباشر دم الحضارة الهيلينية وثقافتها ، وكانوا يعتزون بنشأتها وصفاتها الأصلية[٢٩] ، يصدون عن قدسها القومى ، الأكربوليس ، الدوريين نصف الهمج الحديثى العهد بالثقافة اليونانية[٣٠] .

وكان نظامهم الاجتماعى مستمداً من صلة الدم هذه ؛ فكانت كل أسرة تنتمى إلى قبيلة من القبائل يدعى أفرادها أنهم من نسل بطل مقدس واحد ، ويعبدون إلهاً واحداً ، ويشتركون فى حفلات دينية واحدة ، ولهم أركون (حاكم) واحد وخازن على المال واحد ، ويملكون مجتمعين بعض الأراضى العامة ، ويستمتعون بحق التزاوج والتوارث ، ويقبلون ما تفرضه عليهم واجبات التعاون ، والثأر ، والدفاع ، ويوارون التراب آخر الأمر فى مدافن القبيلة . وكانت كل قبيلة من قبائل أتكا الأربع تتألف من ثلاثة بطون ، وكل بطن من ثلاث أفخاذ وكل فخذ من ثلاثين من آباء الأسر أو نحوهم[٣١] . وكان تقسيم المجتمع الأتيكى هذا التقسيم القائم على صلة القربى مما يسر تنظيمه الحربى وتعبئته العسكرية ، كما أنه ساعد على قيام طبقة أرستقراطية من الأسر القديمة اضطر كليسثنيز بسبب وجودها إلى إعادة توزيع القبائل قبل أن يستطيع إقامة نظام دمقراطى فى البلاد .

ويغلب على الظن أن كل بلدة أو قرية كانت فى الأصل موطن بطن من البطون وكانت تسمى أحياناً باسم هذا البطن أو باسم الإله أو البطل الذى

تعبده ، وكانت هذه هي الحال في أثينة نفسها . وإذا أقبل السائح على أتكا من بؤوتية الشرقية التقى أولا بأوروبوس Oropus وانطبعت في ذهنه صورة غير جميلة لهذا الإقليم ، لأن أوروبوس كانت بلدة قائمة عند تخومه يرتاع لها السائح ارتياعه من أية بلدة مثلها في هذه الأيام . ويصفها ديكي آركوس، Dicacarchus حوالي عام ٣٠٠ ق . م بقوله إن « أوروپوس معشش للبائعين المحتالين . وموظفو الجمارك في هذا البلد شرهون شرهاً لا يدانيه شره سواه ، وخستهم متأصلة في لحمهم وعظامهم . ومعظم أهله أغلاظ ، شرسو الطباع ، لأنهم أطاحوا برؤوس المؤدبين الظرفاء من الأهلين »(٣٢) . وإذا اتجه السائح من أوروپوس نحو الجنوب التقى في الزمن القديم بسلسلة من البلدان المتقاربة ؛ رامنوس Rhamnus ، أفدنا Aphidna ، دسليا Deceleia (وهي مكان ذو موقع حربي حصين اشتهر في حرب البلوپونيز) ، وأكارني Acharnae (موطن ديسپوپوليس Dicaepolis داعية السلام الشرس في مسرحيات أرستفنيز) ، ومراثون ، وبرورّونيا Brauronia . وفي الهيكل العظيم الذي كان قائماً في هذه المدينة الأخيرة نصب تمثال أرتميس الذي جاء به أرستيز وإفيچينيا من كرسنيز Chersonese في طوروس Taurus ، وكان يحج إليه كل أربعة أعوام كل من يستطيع الحج إليه من أهل أتكا ليشتركوا في حفلات التقى والدعارة المعروفة باسم برورونيا أو عيد أرتميس(٣٣) . وبعد هذا يلتقي السائح براسيه Prasiae وثوركوس Thoricus ، ثم يدخل إقليم لوريوم Laurium الذي تستخرج الفضة من مناجمه ، والذي كان عظيم الشأن في تاريخ أثينة الاقتصادي والحربي ؛ ثم يلتقي في طرف شبه الجزيرة بسونيوم Sunium التي شيد على أطرافها هيكل جميل يهتدي به الملاحون ويوفون فيه بنذورهم إلى بوسيدن . وعلى الساحل الغربي (لأن نصف أرض أتكا سواحل، واسمها نفسه مشتق من أكتيكي Aktike أي أرض

السواحل) ، يمر المسافر بأنافلستوس Anaphlystus ويصل إلى جزيرة سلاميس Salamis (*) موطن إجاكس ويوريبذيز ، ومن بعدها إلى إلوسيس المدينة المقدسة لدمتر وطقوسها الخفية ، ثم يعود آخر الأمر الى پيريس (پيريه) Piraeus . وإلى هذا المرفأ الأمين ، الذى ظل مهملا حتى كشف ثمستكليز فائدته العظيمة ، صارت السفن فيما بعد تنقل جميع غلات عالم البحر المتوسط لتستخدمها أثينة فيما يعود عليها بالمنفعة أو اللذة . وكان جدب تربة أتكا ، وقرب أجزائها كلها من شاطئ البحر ، ووفرة الموانى الصالحة ، كان هذا كله حافزا لأهل أتكا للاشتغال بالتجارة ؛ وقد كسبوا بفضل شجاعتهم وقوة ابتكارهم أسواق بحر إيجه ؛ ومن هذه الإمبراطورية التجارية العظيمة نشأت ثروة أثينة ، وقوتها ، وثقافتها ، فى عصر پركليز.

٢ — أثينة فى عهدها الأجركى

لم تكن هذه البلدان محيطة بأثينة فحسب ، بل كانت أجزاء منها كذلك . وقد سبق القول كيف جمع ثيسوس ، كما يعتقد اليونان ، الأهلين فى نظام سياسى واحد وجعل لهم عاصمة واحدة(**) . ونشأت أثينة ثم نمت على بعد خمسة أميال من پيريس بين معشش من التلال ، همتوس Hymettus وپنتلكوس Pentalicus وپارنس Parnes ، حول الحصن الميسينى القديم . وكان جميع ملاك الأراضى فى أتكا من مواطنيها . وكانت أقدم الأسر ، وأكثرها أملاكا هى التى تحفظ التوازن بين ذوى السلطان فى البلاد ؛ فقد رضوا بقيام الملكية حين كان اضطراب الأمن يهدد

(*) وأكبر الظن أن الفينيقيين هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم المشتق من شالام أى السلام ؛ ومنه أيضاً سالم الخ .

(**) تحدد الرواية زمن هذه الحادثة بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكن اتحاد أتكا كلها تحت سلطان أثينة لا يمكن أن يكون قد تم قبل عام ٧٠٠ ، وذلك لأن نشيد دمتر « الهومرى » الذى وضع حوالى ذلك الوقت حين يتحدث عن إليوسيس يقول إنها كانت لا تزال تحت حكم ملك خاص بها(٣٦)

البلاد ، ولما أن عاد إليها الهدوء والاستقرار عادوا هم أيضاً إلى الاستمساك بسيطرتهم الإقطاعية وبالحكومة المركزية ؛ ولما مات الملك كادروس Cadrus ميتة الأبطال مضحياً بنفسه لصد الدوريين الغزاة(*) أعلنوا (كما تروى القصة المتواترة) أن أحداً من الناس لا يصلح خليفة له ، واستبدلوا بالملك أركونا (حاكما) يختار ليتولى السلطة مدى الحياة . وفى عام ٧٥٢ حددوا مدة الأركونية بعشر سنين ثم أنقصوها إلى سنة واحدة فى عام ٦٨٣ . وفى هذه السنة الأخيرة قسموا سلطة صاحب هذا المنصب بين تسعة أركونيين ، أركون سميت السنة باسمه ليستطيعوا بذلك تأريخ الحوادث ، وأركون يسمى ملكا ولكنه لم يكن إلا رئيس دين الدولة ؛ وأركون يتولى قيادة الجند وستة مشترعين . وحدث هنا ما حدث فى اسپارطة ورومة ، فلم يكن القضاء على الملكية نصراً للعامة أو خطوة مقصودة نحو الدمقراطية ، بل كان يمثل عودة الإقطاعيين إلى السيادة ، ويكرر ما كان يحدث فى التاريخ كله من قيام السلطة المركزية تارة وغير المركزية تارة أخرى . وبفضل هذه الثورة المجزأة جرد منصب الملك من كل ما كان له من سلطان ، واقتصر عمل من يتولاه على الكهانة دون غيرها من الأعمال . ولقد بقيت لفظة ملك فى الدستور الأثينى حتى آخر تاريخ المدينة القديم ، ولكن حقيقة الملكية لم تعد إليها قط . إن الدساتير قد تبدل أو يقضى عليها من ذوى السلطة العليا دون أن ينالهم من جراء ذلك عقاب ما إذا تركت أسماؤها دون تغيير .

وظل « الحاكمون الشريفو المحتد » (Eupatrid Oligarchs) يحكمون أتكا زمناً يكاد يبلغ خمسة قرون . وكان أهل البلاد أيام حكمهم مقسمين خمس طبقات سياسية : طبقة الفرسان (Rippes) الذين يملكون الخيل(**)

(*) والراجح أنها حادثة خرافية ترجعها الرواية التاريخية إلى عام ١٠٦٨ ق . م .

(**) وكانت هذه وقتئذ ميزة الرجل الشريف المهذب كما كانت الحال عند الفرسان الرومان equites والفرنسيين Chevailiers والإنجليز Cavalers .

والذين يستطيعون أن يكونوا فرقة الفرسان فى الجيش ، وذوى الثيران (Zeugitai) الذين يملك كل منهم ثورين والذين يستطيعون أن يسلحوا أنفسهم ليكونوا من فرق المشاة الثقيلة ، وطبقة العمال المأجورين Chetes الذين كانوا يؤلفون فرق المشاة الخفيفة . وكانت الطائفتان الأوليان وحدهما هما اللتين تحسبان فى عداد المواطنين ؛ والفرسان وحدهم هم الذين يمكن اختيارهم أركونين أو قضاة أو كهنة . وكان الأركونون بعد أن يتموا مدة توليهم منصبهم يصبحون ، إذا لم يرتكبوا فضائح تلوث سمعتهم ، بحكم منصبهم القديم أعضاء فى البول boule أو المجلس الذى كان يجتمع فى نسيم المساء العليل على الأريوپاجوس Areopagus أو تل أريس Ares ، ويختارون الأركونين ، ويحكمون الدولة . وقد حدد مجلس شيوخ الأريوپاجوسى فى عهد الملكية نفسها سلطان الملوك ؛ فلما قامت الحكومة الألجركية كان له مثل ما لنظيره فى رومة من سعة النفوذ وعظيم السلطان[٣٦] .

وكان السكان ينقسمون من الوجهة الاقتصادية ثلاثة أقسام كذلك . فكان على رأسهم الأشراف الكريمو المحتد Eupatrids الذين كانوا يعيشون عيشة مترفة بالنسبة إلى غيرهم من الجماعات ، ويقيمون فى المدن بينما يقوم العبيد والعمال المأجورون بزراعة أملاكهم فى الريف ، أو اتجار باستغلال الأموال التى اقترضوها منهم وأداء جزء غير يسير من الأرباح إليهم . ويلى هؤلاء فى الثروة العمال العموميون (demiugoi) أى أرباب المهن ، والصناع ، والتجار ، والعمال الأحرار . ولما فتح الاستعمار أسواقاً جديدة للتجارة ، وتحررت هذه التجارة بعد سك العملة ، كان سلطان هذه الطبقة المتزايد هو القوة الفعالة التى أنالتها فى عهد صولون وپيسستراتس نصيباً من الحكم ، ورفعتها فى عهد كليسثنيز وپركليز إلى ذروة السلطان . وكان معظم العمال أحراراً لأن العبيد كانوا فى ذلك العهد لا يزالون أقلية حتى بين الطبقات الدنيا[٣٧] . وكان أفقر الأهلين عمال الأرض (georgoi) ، وهم

الزراع الصغار الذين ينتزعون القوت من التربة الضنينة ومن شره المرابين والأشراف ، وليس لهم من عزاء إلا التباهى بأنهم يملكون قطعة من الأرض .

وكان بعض هؤلاء الزراع يملكون فى أيامهم الخالية أراضى واسعة ، ولكن زوجاتهم كن أكثر خصوبة من أرضهم ، فتقسمت هذه الأرض ثم تقسمت بين أبنائهم وأحفادهم على مر الأجيال . وكان امتلاك العشائر أو الأسر الأبوية للأرض يزول زوالا سريعاً ، كما كانت الأسوار والخنادق والحواجز تشير إلى الأملاك الفردية وما يصحبها من غيرة وتحاسد . وكلما صغرت مساحة الأراضى التى يملكها الأفراد وأضحت الحياة الريفية مزعزعة غير مأمونة باع كثيرون من الفلاحين أرضهم — رغم ما كان يوقع على الذين يبيعونها من عقاب وما يحرمون بسببه من حقوق — ونزحوا إلى أثينة أو غيرها من المدن الصغرى ليشتغلوا فيها تجاراً أو صناعاً أو فعلة . وأصبح غيرهم ، ممن عجزوا عن تحمل التزامات الملكية ، مستأجرين لضياع الأشراف hectemoroi ، أو عاملين فيها لقاء نصيب من غلتها(٣٨) . وظل غيرهم فى أرضهم يكافحون ، يقترضون المال بربا فاحش ويرهنون أرضهم ضماناً لما اقترضوه ، ولكنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم وألفوا أنفسهم لاصقين بالأرض يلزمهم بذلك دائنوهم ويعملون فيها عمل الرقيق الإقطاعيين . وكان الدائن المرهونة إليه الأرض يعد مالك الأرض الحقيقى حتى يسترد ماله من دين ، وكان يضع عليها لوحاً من الحجر يعلن فيه هذه الملكية(٣٩) . وتضاءلت الملكيات الصغيرة على توالى الأيام ، وقل عدد الملاك ، واتسعت الأملاك الكبيرة . ويقول أرسطاطاليس فى هذا : « وأصبحت كل الأراضى ملكاً لعدد قليل من الناس ، وتعرض الزراع هم وأزواجهم وأبناؤهم لأن يباعوا بيع الرقيق » لا فى داخل البلاد فحسب بل فى خارجها أيضاً ، « إذا عجزوا عن أداء إيجار الأرض » أو الوفاء بما عليهم من ديون(٤٠) . وألحقت التجارة الخارجية واستبدال النقود بالمقايضة ضرراً آخر بالأهلين ، لأن منافسة مواد الطعام المستوردة من خارج

البلاد أبقت أثمان محصولاتهم منخفضة ، على حين أن ما كان عليهم أن يؤدوه ثمناً للسلع المصنوعة التي كانوا مضطرين إلى شرائها كانت تحدده عوامل لا سلطان لهم عليها ؛ وظلت هذه الأثمان تزداد على توالى السنين . وإذا ما أجدبت البلاد عاماً حل الخراب بكثيرين من الزراع وهلك بعضهم جوعاً . وبلغ الضنك فى أتكا درجة رحب معها الأهلون بالحرب وعدوها نعمة وبركة ، فقد تؤدى إلى كسب أرض جديدة ، وستؤدى حتما إلى قلة الأفواه التي تتطلب الطعام(٤١) .

وفى هذه الأثناء كانت الطبقات الوسطى من أهل المدن التي لا يقف فى وجهها القانون تنزل بالعمال الأحرار الفقر والضنك ، وتستبدل بهم الرقيق شيئاً فشيئاً(٤٢) . وبلغ الجهد العضلى من الرخص حداً أصبح معه كل القادرين على ابتياعه يترفعون عن العمل بأيديهم . وصار العمل اليدوى غلا وعبودية ، ومهنة غير جديرة بالأحرار ، وأخذ ملاك الأرض ، لغيرتهم من ثراء التجار المتزايد ، يبيعون فى خارج البلاد الحبوب التي يحتاجها مستأجرو أرضهم طعاما لهم ، وانتهوا آخر الأمر ببيع الأثينيين أنفسهم تطبيقا لقانون الديون(٤٣) .

وأمل الناس وقتاً ما أن تعالج تشريعات دراكون Draco هذه الشرور . فقد كلف هذا المشترع ثسموثيتى Thesmothete حوالى عام ٦٢٠ بأن يسن القوانين الكفيلة بإعادة النظام إلى أتكا ، وأن يسجلها كتابة لأول مرة فى تاريخ اليونان . ومبلغ علمنا أن أهم ما نجده من تقدم فى قوانينه هو أنه وسع إلى حد ما دائرة من لهم الحق فى أن يُختاروا أركونين حتى شملت كثيرين من الأغنياء المحدثين ، وأحل القانون محل الغضب والانتقام ، وأصبح مجلس الشيوخ الأريوباجوسى بعدئذ صاحب الحق فى النظر فى جميع جرائم القتل . وكان هذا التشريع الأخير إصلاحاً أساسياً تقدمياً ؛ ولكنه لما أراد أن ينفذه ، بل لما أراد أن يقنع ذوى الثراء بقبوله وبأنه أقسى من كل ما يستطيعون فرضه من ثأر وانتقام ، لما أراد هذا وذاك

اضطر أن يضمن قوانينه صنوفاً من العقاب القاسي الشديد . ولما أن حلت شرائع صولون محل معظم قوانينه هو ، كان كل ما يذكره الناس به هو ضروب القسوة والعقاب لا قوانينه نفسها . والحقيقة أن دراكون قد جمع في شرائعه ما كان في نظام الإقطاع من عادات قاسية مهوشة خالية من النظام ، ولكنه لم يفعل شيئاً لإنقاذ المدينين من الاسترقاق ، أو يقلل من استغلال الأقوياء للضعفاء ؛ ومع أنه قد وسع دائرة من لهم حقوق سياسية بعض التوسيع ، فإنه ترك لطبقة كرام المحتد (اليوپترد) السيطرة التامة على دور القضاء ، كما ترك لهم الحق في أن يفسروا كما يرون كل ما يمس مصالحهم من القوانين ونقط الخلاف[٤٤] . وقد ضمنت شرائعه لأصحاب الأملاك حماية أكثر مما كان لهم من قبل ؛ فكانت السرقات الصغيرة ، بل التراخي في العمل ، يعاقب عليهما بحرمان المواطنين من حقوقهم السياسية ، ويعاقب عليهما غير المواطنين(*) بالإعدام[٤٥] .

وبينا كان القرن السابع عشر قبل الميلاد يقترب من نهايته ، كان حقد الفقراء المعدمين عديمي النصير على الأغنياء المتمتعين بحماية القانون قد أوشك أن يقذف بأثينة في أتون الثورة . ذلك أن المساواة ليست نظاماً طبيعياً ، وحيث تطلق الحرية للكفاية وللدهاء فلابد من أن تنشأ الفوارق وتبقى حتى تقضى على نفسها في الفقر الشامل الذي تؤدى إليه الحرب الاجتماعية والذي لا يميز بين من كان في الأصل غنياً ومن كان فقيراً ؛ وقصارى القول أن الحرية والمساواة ليستا رفيقين متلازمين بل عدوين متباغضين . وتجمع الثروة يبدأ بأن يكون نظاماً محتوماً ، ثم ينتهي بأن يكون نظاماً مهلكا مبيداً . وفي ذلك يقول أفلوطرخس : إن التفاوت في الثراء بين الأغنياء والفقراء قد بلغ غايته ، حتى بدا أن المدينة قد أضحت في حال تخشى مغبتها ، وأن ليس ثمة وسيلة تنجيها من الاضطراب . . . إلا سلطة استبدادية »[٤٦] . ورأى الفقراء أن حالهم تزداد سوءاً عاماً بعد عام ،

(*) « كان الذي يسرق كرنبة يجازى بما يجازى به من يقتل أمه أو ينتهك حرمة الدين » صولون لأفلوطرخس .

فزمام الحكم والجيش فى أيدى سادتهم ، والمحاكم الفاسدة المرتشية تقضى فى كل نزاع فى غير مصلحتهم[٤٧] — فأخذوا يتحدثون عن الثورة العنيفة ، وعن توزيع الثروة توزيعاً يخالف ما هو قائم وقتئذ مخالفة تامة[٤٨] . فلما عجز الأغنياء عن تحصيل ما لهم من ديون قانونية ، وأغضبهم تحدى الفقراء لهم وتهديدهم بالاعتداء على أموالهم المدخرة وأملاكهم[٤٩] ، لجأوا إلى القوانين القديمة واستعدوا الحماية أنفسهم بالقوة من الغوغاء ، بعد أن بدا لهم أن هؤلاء لا يهددون أموالهم فحسب ، بل يهددون فوق ذلك النظام القائم كله ، والدِّين ، والحضارة بقضها وقضيضها .

٢ — الثورة الصولونية

قد يبدو عجيباً بعيداً عن المعقول أن يقوم فى هذا الدرك الذى تدهورت إليه شئون أثينة والذى يتكرر كثيراً فى تاريخ الأمم ، نقول قد يبدو عجيباً أن يقوم رجل يستطيع بغير عنف أو خطب قاسية مريرة أن يقنع الأغنياء والفقراء على السواء بأن يسووا أمورهم فيما بينهم تسوية لم تحل دون الفوضى الاجتماعية فحسب بل أقامت فوق ذلك نظاماً سياسياً واقتصاديا جديداً خيراً من النظام السابق ، بقى ما بقيت أثينة مدينة مستقلة . ألا إن ثورة صولون السلمية لمن المعجزات التاريخية التى تبعث الشجاعة والأمل فى النفوس !

كان والد صولون من الأشراف الكرام المحتد ، ومن أرفعهم بيتاً ، وأنقاهم دما ، ينتهى نسبه إلى الملك كدروس ، بل إنه كان يتتبع نسبه إلى بوسيدن نفسه . وكانت أمه ابنة عم بيسستراتس الطاغية الذى خرق دستور صولون فى أول الأمر ثم عاد بعدئذ فثبت دعائمه . وقد انغمس صولون فى شبابه فيما كان ينغمس فيه أهل زمانه : فكان يقرض الشعر ويتغنى بملاذ « الصداقة اليونانية[٥٠] » ، وفعل ما فعله ترتاتوس Tyrtaetus فأثار حماسة

الناس بشعره ودفعهم إلى فتح سلاميس(٥١) . ثم صلحت أخلاقه فى سن الكهولة صلاحاً يتناسب تناسباً عكسياً مع شعره ، فأصبحت أشعاره فاترة ونصائحه جيدة . انظر مثلا إلى قوله فى أشعاره : « إن الكثيرين من الناس أغنياء ، ولكنهم لا يستحقون هذا الغنى ، على حين أن من هم خير منهم يقاسون آلام الفاقة . ولكنا لن نستبدل حال هؤلاء الأغنياء بحالنا ، لأن ميزتنا باقية دائمة ، أما ميزتهم فإنها تنتقل من إنسان إلى إنسان » ، وثروة الغنى « ليست أعظم من ثروة من لا يملك إلا معدته ورئتيه وقدميه ، وهى الأعضاء التى تأتيه بالسرور ولا تأتيه بالألم ؛ وليست خيراً من محاسن الفتى أو الفتاة أو نضرة شبابه أو شبابها ، أو من وجود ينسجم مع صروف الأيام(٥٢) » .

ولما حدث فى أثينة شقاق وانقسام بقى هو على الحياد ، وكان ذلك لحسن الحظ قبل أن تقرر الشرائع المعزوة له أن هذه الحيطة جريمة(٥٣) ، ولكنه لم يتردد قط فى التشهير بالوسائل التى سلكها الأغنياء لإذلال الفقراء ، ودفعهم إلى أحضان الفاقة(٥٤) . وإذا كان لنا أن نأخذ بأقوال أفلوطرخس فإن والد صولون قد « بدد ثروته فى التصدق على الناس والإحسان إليهم » . واشتغل صولون بالتجارة وأصبح من التجار الناجحين ذا مصالح كثيرة فى أقطار بعيدة ، أكسبته خبرة واسعة وأمكنته من الأسفار والتنقل فى بلاد بعيدة ، وكان يسير فى عمله على المبادئ التى يدعو إليها فى قوله ، واشتهر بين جميع طبقات الناس بالاستقامة . وكان لا يزال صغير السن نسبياً — فى الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين — حين أقبل عليه فى عام ٥٩٤ ممثلو الطبقات الوسطى يدعونه إلى قبول ترشيحهم إياه ليكون أركونا بالاسم teponymos ، على أن يمنح سلطة مطلقة لإخماد نار حرب الطبقات ، ووضع دستور جديد للبلاد ، وإعادة الاستقرار إلى الدولة . ووافقت الطبقات العليا على هذا

الاختيار وهى كارهة ، وكان الباعث لها على الموافقة ثقتها بأن رجلا مثله من أصحاب المال لا بد أن يكون رجلا محافظا .

وكانت أعماله الأولى أعمالا بسيطة ولكنها كانت من قبيل الإصلاحات الاقتصادية الشاملة ؛ وقد خيب آمال المتطرفين بإحجامه عن إعادة تقسيم الأراضى . ولو أنه فعل هذا لأدى ذلك إلى الحرب الأهلية وإلى الفوضى التى تدوم جيلا كاملا ، وإلى عودة الفوارق مسرعة ، ولكن صولون استطاع بفضل قانونه الشهير قانون السيسكثيا Seisachtheia أو « رفع الأعباء » أن يلغى كما يقول أرسطاطاليس « جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة[٥٥] » ، وهكذا حرر أراضى أتكا من جميع الرهون بجرة قلم ؛ هذا إلى أنه أطلق سراح جميع من استرقوا أو التصقوا بالأرض ، وكل من بيعوا رقيقاً فى خارج البلاد وطاب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم ، وحرم مثل هذا الاسترقاق فى المستقبل . وخليق بنا أن نذكر من خصائص الخلق فى هذا المقام أن بعض أصدقاء صولون قد عرفوا ما يعتزمه من إلغاء الديون فاشتروا أراضى واسعة مرتهنة ثم احتفظوا بها فيما بعد من غير أن يؤدوا ما عليها من رهون ؛ ويحدثنا أرسطاطاليس بأسلوب تهكمى بأن هذا كان منشأ ثروات طائلة كثيرة العدد « ظن الناس » فيما بعد « أنها ترجع إلى أزمنة لا يذكرها الناس لقدم عهدها[٥٧] » . وقال بعض الناس إن صولون قد تغاضى عن هذا العمل وإنه استفاد منه ، حتى تبين بعدئذ أنه وهو الدائن الكبير قد خسر بقانونه الشىء الكثير[٥٨] . واحتج الأغنياء بأن هذا التشريع كان فى حقيقة الأمر مصادرة لأموالهم ، ولكنه أصم أذنيه عن سماع احتجاجهم ؛ ولم تمض عشرة أعوام على صدوره حتى أجمع الناس ؛ أو كادوا يجمعون ، على أنه أنجى أتكا من الثورة[٥٩] .

وثمة إصلاح آخر من إصلاحات صولون لا نستطيع أن نتحدث عنه حديثاً يقينياً واضحاً . وفيه يقول أرسطاطاليس إن صولون قد « استبدل

بالنقود الفيدونية « Pheidonian » — أى النقود الأجنبية التى كانت مستعملة فى أتكا حتى ذلك الوقت — « نظام عوبية النقدى على نطاق واسع وجعل قيمة المينا mina(*) مائة درخمة بعد أن كانت من قبل سبعين[٦٠] » . ويقول أفلوطرخس فى بيانه عن هذا الإصلاح ، وهو أوفى من بيان أرسطاطاليس ، إن صولون جعل المينا تصرف بمائة درخمة بعد أن كانت ثلاثاً وسبعين ، وبهذا أصبحت قيمة القطع التى تدفع أقل مما كانت قبل وإن كان عددها واحداً ، وكان فى هذا نفع كبير للذين يريدون أن يوفوا بديونهم ، ولم يكن فيه خسارة على الدائنين[٦١] » . إن أفلوطرخس الظريف الكريم وحده هو الذى استطاع أن يجد طريقة لتضخم العملة ينقذ بها المدينين دون أن يلحق الضرر بالدائنين — إلا هذا الضرر الوحيد وهو أن نصف العمى فى بعض الحالات خير بلا ريب من العمى كله(**) .

وكان أبقى من هذه الإصلاحات الاقتصادية تلك القرارات التاريخية التى أنشئ بمقتضاها دستور صولون . وقد قدم لها صولون بعفو عام أطلق به سراح كل من سجن ، وأعاد إلى البلاد كل من نفى منها لجرائم سياسية إذا لم تكن هذه الجرائم هى محاولة اغتصاب مقاليد الحكم فى البلاد . ثم واصل عمله بأن ألغى إلغاء صريحاً أو ضمنيا معظم شرائع دراكون؛ إلا أنه أبقى منها على القانون الخاص بعقاب القتلة[٦٢] وقد طبقت قوانين صولون

(*) انظر قيمة العملة الأثينية فى الفصل الثالث من الباب الثانى عشر من هذا الكتاب .

(**) فسر جروت Grote وغيره قول أفلوطرخس إن صولون قد خفض العملة بمقدار ٢٫٧٪ من قيمتها فتيسر الأمر للملاك الذين كانوا هم أنفسهم مدينين وحرموا من فوائد الرهون التى كانوا يعتمدون عليها للوفاء بما عليهم من التزامات . غير أن هذا التضخم او أنه قد حصل لكان ضربة ثانية شديدة الوقع على الملاك الذين أقرضوا التجار أموالا ؛ وإذا كان قد أفاد طائفة ما فهى طائفة التجار لا طائفة الملاك أو الفلاحين الذين ألغى من قبل ما على أملاكهم من رهون . ولعل صولون لم يفكر قط فى تخفيض قيمة العملة ، بل كل ما فعله هو أنه أراد أن يستبدل بالمعيار النقدى الذى وجد أنه ييسر التجارة مع بلاد البلوبونيز معياراً آخر ييسر الأعمال التجارية مع أسواق أيونيا الغنية المطردة الاتساع والتى كان معيار النقد العوبى مستعملا فيها[٦٣].

على جميع السكان الأحرار بلا تمييز بينهم ؛ فأصبح الأغنياء والفقراء على السواء مقيدين بقيود واحدة تفرض عليهم عقوبات واحدة . وإذ كان صولون قد عرف أنه لم يستطع تنفيذ إصلاحاته إلا بمعونة طبقتي التجار والصناع ، ورغبة منه في أن يجعل لهم حظاً في حكومة البلاد ، فقد قسم سكان أتكا أربع مجموعات على أساس ثروتهم : الأولى أصحاب الخمسمائة بشل bushel(*) وهم الذين يصل دخلهم السنوى إلى خمسمائة مكيال من الحاصلات أو ما يعادلها pentacosiomedemni(**) ، والثانية هم الهپى hippes الذين يتراوح دخلهم بين ثلثمائة وخمسمائة بشل . والثالثة جماعة الزوجتاى zeugitai الذين يتراوح دخلهم بين مائتين وثلثمائة ، والرابعة جماعة الثيتى hetes وتشمل غير هؤلاء كلهم من الأحرار . وكانت مظاهر الشرف والتكريم تتناسب مع ما يؤدى من الضرائب فلا يستمتع إنسان بالأولى دون أن يتحمل عبء الثانيه ؛ يضاف إلى هذا أن الضرائب التي تؤديها الطبقة الأولى كانت تفرض على ما يعادل دخلها السنوى اثنى عشر مرة ؛ والطبقة الثانية على ما يعادل دخلها عشر مرات ، والثالثة على ما يعادل دخلها خمس مرات فقط ؛ أى أن ضريبة الأملاك كانت فى واقع الأمر ضريبة دخل تصاعدية(٦٥) . أما الطبقة الرابعة فكانت معفاة من الضرائب المقررة (المباشرة) . وكانت الطبقة الأولى وحدها هى التى يمكن اختيار رجالها إلى الأركونية وإلى قيادة الجيش ؛ أما الطبقة الثانية فكان من حقها أن يختار أفرادها إلى المناصب وإلى فرق الفرسان فى الجيش ، وكانت الطبقة الثالثة تختص بالعمل فى فرق المشاة الثقيلة ؛ وأما الرابعة فكان يطلب إليها أن تمد الدولة بالجنود العاديين . وقد أضعف هذا التقسيم الفذ نظام

(*) البشل مكيال إنجليزى يعادل ثمانية جالونات .

(**) كان المدمنس medimnus – المعادل لبشل ونصف تقريباً – يعد مساوياً فى قيمته النقدية للدرخمة .

القرابة الذى كانت تعتمد عليه قوة الأجاركية ؛ وأحل محله مبدأ جديداً هو مبدأ «التمقراسيه Timocracy » ، أى حكم ذوى الشرف أو المنزلة ، ويحددهم صراحة ما لهم من ثروة تفرض عليها الضرائب . وكان حكم « بلوتوقراطى (يتولاه المثرون) » شبيه بهذا الحكم منتشراً خلال القرن السادس كله وبعض القرن الخامس فى معظم المستعمرات اليونانية .

وقد أبقى دستور صولون على رأس الدولة مجلس الشيوخ القديم مجلس الأريوبجوس ، بعد أن جرده من بعض ما كان له من سلطان وما كان يمتاز به من عزلة ، وبعد أن أصبح مفتوح الأبواب لجميع أفراد الطبقة الأولى ، ولكنه ظل مع ذلك صاحب السلطة العليا المهيمن على سلوك الناس وعلى موظفى الدولة(٦٦) . ثم أنشأ بولا boule أو مجلساً جديداً مؤلفاً من أربعمائة عضو يلى مجلس الشيوخ فى السلطة تختار له كل طبقة من الطبقات الأربع مائة عضو . وكان هذا المجلس يختار جميع الأعمال التى تعرض على الجمعية ويبحثها ويعدها . ووضع صولون فى منزلة أدنى من هذا النظام الأجركى الأعلى الذى استرضى به الأقوياء ، أنظمة دمقراطية فى أساسها ، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بحسن النية ورغبة العمل على خير الطبقات الدنيا . فقد أعاد إلى الحياة الإكلزيا leklesia (الجمعية) القديمة التى كانت قائمة فى أيام هومر ودعا كل المواطنين إلى الاشتراك فى مناقشاتها . وكانت هذه الجمعية تختار كل عام من بين ذوى الخمسمائة بشل الأركونين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعينون من قبل مجلس الأريوبجوس ؛ وكان من حقها أن تستجوب هؤلاء الموظفين فى أى وقت ، وتتهمهم ، وتعاقبهم ؛ وإذا ما انقضت مدة توليهم مناصبهم ، كانت تبحث فى مسلكهم فى السنة التى تولوا العمل فيها ، وكان لها إذا شاءت أن تحرمهم حقهم فى أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ . وأهم من هذا الحق ، وإن لم يبد وقتئذ كذلك ، مساواة الطبقات الدنيا للطبقات العليا فى حق الاختيار بالقرعة إلى الهيليائيا heliaea ، وهى هيئة من خمسة آلاف

من المحلفين تتألف منهم أنواع المحاكم التى تنظر فى جميع القضايا عدا قضايا القتل والخيانة ، والتى يصح أن ترفع إليها الشكاوى من أعمال الحكام على اختلاف أنواعها . ويقول أرسطاطاليس فى هذا : « يظن البعض أن صولون قد تعمد إدخال الغموض على قوانينه ليمكن العامة من استخدام سلطتهم القضائية لتقوية نفوذهم السياسى » ؛ ذلك أنه « لما كان الخلاف بينهم وبين الحكام لا يمكن تسويته بتطبيق حرفية القانون ، فقد كان عليهم أن يعرضوا جميع منازعاتهم على القضاة ، وكان هؤلاء إلى حد ما سادة القوانين[٦٧] » كما يقول أفلوطرخس نفسه . وقد كان حق الاستئناف إلى المحاكم الشعبية الإسفين الذى وسع نطاق الدمقراطية الأثينية ، كما كان حصنها الحصين فى مستقبل الأيام .

وأضاف صولون إلى هذا التشريع الأساسى ، وهو أهم ما فى تاريخ أثينة من تشريعات ، طائفة أخرى من الشرائع المختلفة يقصد بها معالجة مشاكل الوقت التى لم تكن لها مثل ما للمسائل الأساسية السابقة من خطر . وكان أول ما فعله أن جعل الثروة الفردية التى قررتها العادات قبل معترفاً بها قانوناً . وإذا كان للرجل أولاد كان عليه أن يقسم ثروته بينهم قبل وفاته ؛ فإذا لم يكن له أولاد كان له أن يوصى لأى إنسان بأملاكه التى كانت تؤول حتى ذلك الوقت ومن تلقاء نفسها لقبيلته[٦٨] . فبقوانين صولون بدأ حق الوصية وقانونها . وإذ كان هو من رجال الأعمال فقد أراد أن يشجع التجارة والصناعة بمنح حق المواطنية لجميع الأجانب الذين يحذقون حرفة ما والذين يأتون مع أسرهم ليقيموا بصفة دائمة فى أثينة . وحرم تصدير الغلات الزراعية عدا زيت الزيتون ، وكان يرجو بهذا أن يحول الناس من إنتاج المحصولات الزراعية الزائدة على الحاجة إلى الاشتغال بالصناعة . وسن قانوناً يقضى بأن الولد غير ملزم بمساعدة أبيه إذا كان هذا الأب لم يعلمه حرفة خاصة[٦٩] . ويرجع الفضل فيما نالته الصناعات من تشريف

عظيم ومكانة سامية إلى صولون — لا إلى من جاء بعده من الأثينيين .

ولم يحجم صولون عن التشريع فى ذلك الميدان الخطر ميدان الأخلاق والآداب العامة . فقد كان يعد الإصرار على البطالة جريمة ، ولم يكن يسمح للرجل الذى يعيش عيشة الدعارة والفجور أن يتقدم إلى الجمعية بطلب[٧٠] ، وجعل البغاء قانونياً وفرض على البغاة ضريبة ، وأنشأ مواخير عامة ، مرخصة من قبل الدولة وخاضعة لرقابتها . وشاد هيكلا لأفروديتى پندموس من إيراد هذه المواخير . وقد تغنى بمدحه رجل من معاصريه يدين بما يدين به لكى Lecky المؤرخ الأيرلنـــدى المعروف فقال : « مرحباً بك يا صولون ! لقد ابتعت المومسات لخير المدنية ، ولوقاية أخلاق المدينة الغاصة بالشبان الأشداء ، ولولا تشريعك الحكيم ، لضايق هؤلاء الشبان فضليات النساء ونشروا فى المدينة الفساد والاضطراب[٧١] » . وفرض غرامة قدرها مائة درخمة على من يعتدى على عرض امرأة حرة ، وهى عقوبة أقل كثيراً مما فى قوانين دراكون ، ولكنه أباح لمن يمسك برجل زان متلبس بجريمته أن يقتله لساعته . وحدد بائنات العرائس ومهورهن لرغبته فى أن يكون الباعث على الزواج هو الحب المتبادل بين الزوجين والرغبة فى النسل وتربية الأولاد ، ونهى النساء عن أن يكون لهن من الملابس أكثر من ثلاث حلل ، وكان فى ثقته بقدرته على تنفيذ قانونه شبيهاً بالأطفال فى ثقتهم بقدرتهم على تنفيذ أوامرهم ونواهيهم . ولقد طلب إليه أن يسن قانوناً يضيق به على العزاب ، ولكنه لم يجب هذا الطلب وقال فى تبرير عدم إجابته إن « الزوجة عبء ثقيل الحمل[٧٢] » . وقد جعل اغتياب الموتى جريمة ، وكذلك كان اغتياب الأحياء فى الهياكل والمحاكم ، ومكاتب الموظفين العموميين ، وفى ساحات الألعاب ؛ ولكنه حتى هو نفسه لم يستطع أن يمسك ألسنة الناس فى أثينة حيث كانت الغيبة والنميمة تبدوان كما تبدوان عندنا الآن من مستلزمات الدمقراطية .

وقد قرر أن الذين يبقون على الحياد فى أوقات الفتن يفقدون حقهم بوصف كونهم مواطنين ، وذلك لأنه كان يرى أن عدم اهتمام الجمهور بالشئون العامة يؤدى إلى خراب الدولة . وحرم الاحتفالات الفخمة ، والقرابين الكثيرة النفقة ، والندب الطويل فى الجنائز ؛ وحدد مقدار ما يدفن مع الأموات من متاع ، وسن ذلك القانون العادل الذى ظل مصدراً لبسالة الأثينيين أجيالا طويلة وهو القانون الذى فرض على الحكومة تربية أبناء من يقتلون فى الحرب وتعليمهم على نفقتها .

وأضاف صولون إلى كل شريعة من شرائعه عقوبات كانت أخف من عقوبات دراكون ولكنها مع ذلك صارمة ، وجعل من حق كل مواطن أن يقاضى أى شخص يرى أنه ارتكب جريمة ما . وأراد أن يعرف الناس قوانينه حق المعرفة وأن يطيعوها ويلتزموا العمل بها فكتبها فى ساحة الأركون الدينى (أركون باسليوس) على ملفات أو منشورات خشبية تدار وتقرأ . ولم يدّع كما ادعى ليقورغ ومينوس ، وحمورابى ، ونحوهما ، أن إلها ما قد أنزل عليه هذه الشرائع ؛ وهذا العمل فى حد ذاته مما يكشف عن مزاج ذلك العصر ومزاج المدينة ومزاج صولون نفسه . ولما طلب إليه أن يجعل نفسه حاكما بأمره مدى الحياة أبى وقال إن الدكتاتورية « مُقام جميل حقا ، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه[٧٣] » . وكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يسو بين الناس فى الملك وفى السلطان ، والمحافظون ينددون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصة القضاء ؛ بل إن صديقه أنكرسيس Anachrsis ، الحكيم السكوذى صاحب الأطوار الشاذة ، قد سخر من دستوره الجديد وقال فى ذلك إن الحكماء قد أصبحوا يترافعون ، والحمقى يحكمون ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يمكن أن تقوم بين الناس عدالة دائمة لأن فى وسع الأقوياء والمهرة أن يحوروا أى قانون يسن لكى يتفق مع مصلحتهم الخاصة ؛ ولأن القانون أشبه ببيت العنكبوت يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير . وكان صولون

يتقبل كل هذا النقد بقبول حسن ، ويعترف بما فى شرائعه من نقص ؛ ولما سئل هل سن للأثينيين أحسن الشرائع أجاب « لا ، بل » سننت لهم « خير ما يستطيعون أن يُعطَوه » — أى خير ما يمكن إقناع الجماعات والمصالح المتضاربة فى أثينة بأن تقبله كلها فى ذلك الوقت بالذات . وقد اتبع الطريق الأوسط وأبقى بذلك على الدولة ؛ وكان تلميذاً ناجحا من تلاميذ أرسطاطاليس قبل أن يولد هذا الفيلسوف الاستجيرى Stagirite . وتعزو إليه الرواية الشعار الذى نقش على هيكل أپلو فى دلفى وهو medenagan أى لا إفراط فى شىء[٧٥] ، وقد أجمع اليونان على وضعه بين السبعة الحكماء .

وخير شاهد على حكمته هو ما كان لتشريعه من أثر خالد ، فقد استطاع شيشرون ، على الرغم مما حدث فى أثينة من آلاف التغيرات والتطورات ، وبالرغم مما قام فيها من دكتاتوريات وانقلابات سطحية ، استطاع على الرغم من هذا أن يقول بعد خمسة قرون من عهد صولون إن شرائعه كانت لا تزال نافذة فى أثينة[٧٦] . ولقد كان عمله من الوجهة القضائية الحد الفاصل بين حكم المراسيم المتغيرة التى لا عداد لها وبين بداية حكم الشرائع المدونة الدائمة . ولما سأله سائل متى تكون الدولة حسنة النظام ثابتة البنيان أجاب بقوله : « حين يطيع المحكومون الحكام ، ويطيع الحكام القوانين[٧٧] » . وبفضل قوانينه تحرر زراع أتكا من الاسترقاق الإقطاعى ، وقامت فيها طبقة من الزراع الملاك ، كان امتلاكهم الأرض هو الذى جعل الجيوش الأثينية الصغيرة قادرة على الاحتفاظ بحرية المدينة أجيالا طويلة ، ولما اقترح فى نهاية حرب البلوپونيز قصر الحقوق السياسية على الملاك الأحرار لم يوجد من الأحرار الراشـدين فى أتكا كلها من لا ينطبق على هذا الشرط إلا خمسة آلاف لا أكثر[٧٨] . هذا إلى أن التجارة والصناعة قد تحررتا فى الوقت نفسه من القيود السياسية التى كانت مفروضة عليهما ، ومن العوائق المالية ، وبذلك بدأ فيهما ذلك التطور القوى النشيط

الذى أصبحت أثينة بفضله الزعيمة التجارية فى بلاد البحر المتوسط . وكانت أرستقراطية الثراء الجديدة ترفع من شأن الذكاء لا من شأن المولد ، وتشجع العلم والتعليم ، وتمهيد السبيل مادياً وعقلياً للأعمال الثقافية العظيمة التى تمت فى العصر الذهبى .

ولما بلغ صولون فى عام ٥٧٢ سن السادسة والستين آثر الحياة الخاصة ، فاعتزل منصبه بعد أن ظل أركونا خمسة وعشرين عاماً ، وبعد أن أخذ العهد على أثينة ، بأيمان أقسمها موظفوها ، أن تطيع قوانينه بلا تغيير فيها ولا تبديل مدة عشر سنين[٧٩] ؛ وسافر بعدئذ ليطلع على حضارة مصر والشرق ، ويلوح أن ذلك الوقت هو الذى قال فيه قالته الذائعة الصيت — « إنى لتكبر سنى وما فتئت أتعلم »[٨٠] . ويقول أفلوطرخس إنه درس التاريخ فى عين شمس (هليوبوليس) على الكهنة ، ويقال إنه سمع منهم عن أطلنطيس Atlantis القارة الغارقة ، التى قص قصتها فى ملحمة لم يتمها ، افتتن بها أفلاطون الواسع الخيال بعد مائتى عام من عصره . وسافر من مصر إلى قبرص ووضع القوانين لتلك المدينة التى غيرت اسمها من قبرص إلى Soli تكريماً له[*] . ويصف هيرودوت[١٨] أفلوطرخس حديثه مع كروسس ملك ليديا فى سرديس — وما أقوى ذاكرتهما التى أمكنتهما من أن يقصا هذا الحديث — فيرويا كيف خرج هذا الرجل صاحب الثروة المنقطعة النظير مزداناً بكل ما عنده ، وسأل صولون ألا يرى أنه ، كروسس ، رجل سعيد ، وكيف أجابه صولون بصفاقته اليونانية قائلا : « إن الآلهة أيها الملك قد وهبت اليونان كل ما وهبتهم من النعم بقسط معتدل ؛ وكذلك حكمتنا فهى حكمة مرحة معتدلة ، لا حكمة نبيلة ملكية ؛ وإذا ما قلبنا النظر فى البلايا الكثيرة التى تكتنف الناس فى جميع الظروف فإن هذا الاعتدال

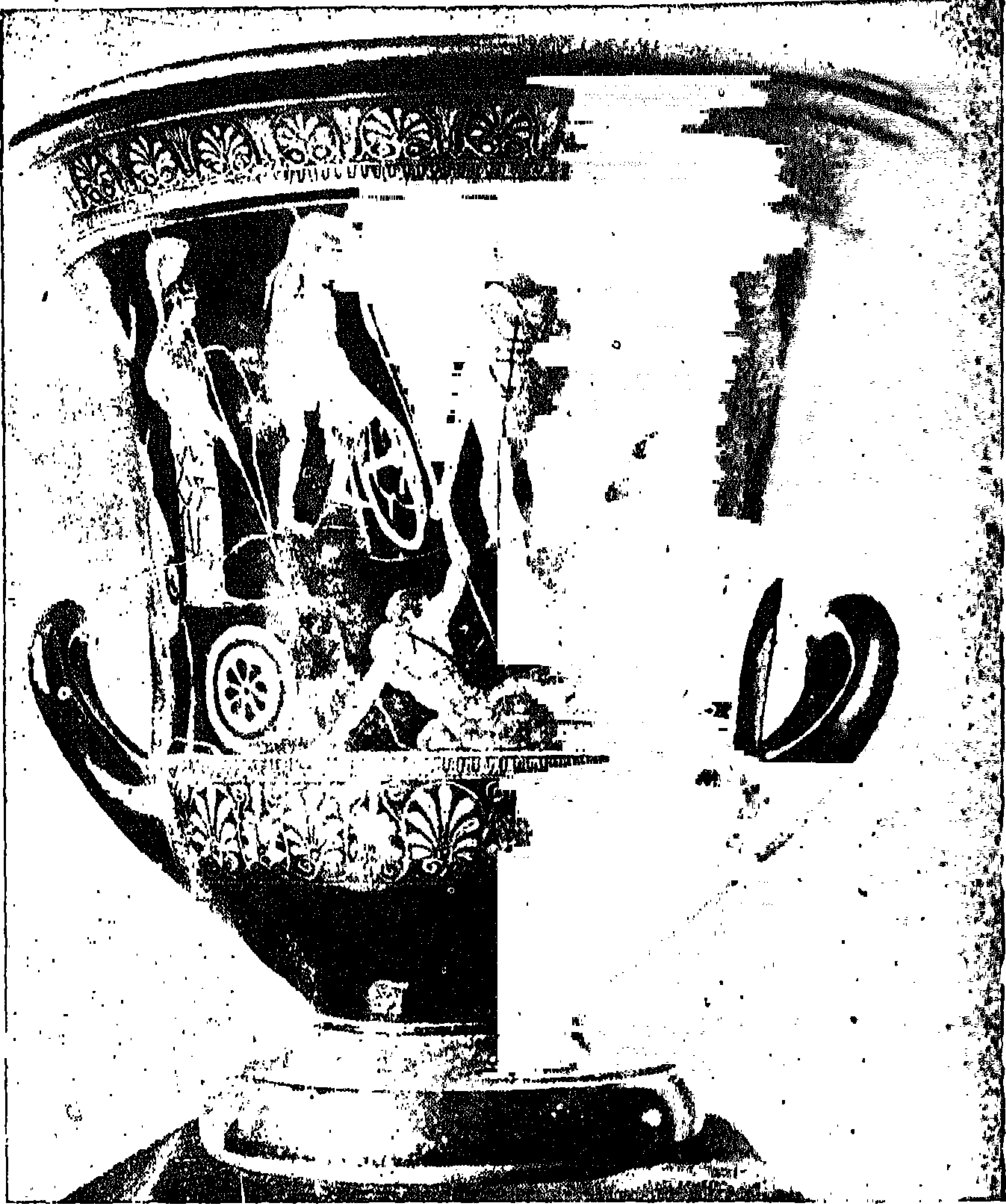
(*) يقص ديوجنيز ليرتيس هذه القصة عن صول فى قليقية — وهى البلدة التى كان احتفاظها باللغة اليونانية القديمة إلى أيام الإسكندر سبباً فى وجود لفظ solecism ومعناه الخطأ فى الكلام أو خرق حرمة الآداب .

ينأى بنا عن أن نصطنع الصغار فيما نتمتع به فى وقتنا الحاضر ، أو أن نعجب بما يتقلب فيه أى إنسان من سعادة ، قد تتبدل إلى نقيضها على مر الأيام . ذلك أن المستقبل المجهول قد يأتى بما لا يحصى من مختلف الحظوظ ؛ ونحن لا نسمى إنساناً سعيداً إلا إذا وهبته الآلهة السعادة إلى آخر أيامه . وإن فى وصف الرجل الذى لا يزال فى منتصف حياته وأخطارها بأنه سعيد من الخطأ والمخاطرة مثل ما فى تتويج المصارع بتاج النصر وإعلان فوزه وهو لا يزال فى حلبة الصراع[٨٢] .

وهذا العرض الشائق لما يطلق عليه كتاب المسرحيات اليونان اسم هبريس hybris — أى الرخاء الوقح — لينم عن حكمة أفلاطرخس الشاملة . وكل ما نستطيع أن نقوله فيها إنها قد صيغت فى ألفاظ أجمل من الألفاظ التى صاغها فيها هيرودوت ، وإن كلا النصين فى أغلب الظن من نسج الخيال . وما من شك فى أن الطريقة التى مات بها صولون وكروسس تبرر ما فى هذه العظة من تشكك . فقد خلع قورش كروسس فى عام ٥٤٦ ، وعرف الرجل (إذا صح لنا أن نعيد صياغة عظة هيرودوت فى ألفاظ دانتى) وهو فى بؤسه مرارة تذكر أيام مجده السعيدة وما كان فى تحذير الحكيم اليونانى من صرامة . أما صولون فإنه بعد أن عاد إلى أثينة ليلاقى فيها الموت ، شهد فى آخر أيامه القضاء على دستوره ، وإقامة حكم دكتاتورى على أنقاضه ، وإخفاق كل ما بذله من جهود وإن كان إخفاقاً فى ظاهر الأمر فحسب .

٤ — دكتاتورية بيسستراتس

لما غادر صولون أثينة — عادت الجماعات المتنازعة التى سيطر عليها مدى جيل كامل إلى ما كانت عليه من دسائس ومشاحنات سياسية متأصلة فى طبيعتها . وكان فيها ، كما كان فى أيام الانفعالات الشديدة فى الثورة الفرنسية ، ثلاثة أحزاب تسعى جاهدة ليكون منها صاحب السلطان الأقوى : « الشاطئ » ويتزعمه تجار الثغور الذين يميلون إلى صولون ؛ و « السهل »



(شكل ١٠) مزهرية عليها نقش يمثل أثينا وهرقل
(متحف اللوفر بباريس)

ويتزعمه ملاك الأراضى الذين يكرهون صولون ؛ و « الجبل » ويتألف من خليط من الفلاحين وعمال المدن ، وكانوا لايزالون يطالبون بإعادة توزيع الأراضى . ورضى پيسستراتس ، كما رضى بركليز بعد مائة عام من ذلك الوقت ، أن يتزعم حزب العامة ، وإن كان هو من الأشراف مولداً ، وثروة ، وأخلاقاً ، وميولا . وكشف فى إحدى جلسات الجمعية عن جرح قال إنه أصابه به أعداء الشعب ، وطلب أن يعين له حرس خاص ؛ واحتج صولون على هذا الطلب ، لأنه كان يعرف ما عليه قريبه من دهاء ، وظن أن الجرح قد أحدثه هو فى جسمه ، وأن الحرس الخاص سيمهد السبيل إلى الدكتاتورية ، وقال محذراً الأثينيين : « يا رجال أثينة ! إنى أكثر من بعضكم حكمة ، وأكثر من البعض الآخر شجاعة : أكثر حكمة ممن لا يدركون غدر پيسستراتس ، وأكثر شجاعة ممن يدركونها ولكنهم لخوفهم يسكتون عنها[٨٣] » . ولكن الجمعية رغم هذا التحذير وافقت على أن يكون له حرس مؤلف من خمسين رجلا ، غير أن پيسستراتس لم يكتف بخمسين — بل جمع أربعمائة ، واستولى على الأكروپول ، وأعلن نفسه حاكما بأمره . ونشر صولون على الأثينيين رأيه فيهم فقال إن «كل واحد منكم يمشى وهو منفرد بخطى الثعلب فإذا اجتمعتم كنتم إوزا[٨٤] » ، ثم وضع أسلحته ودرعه على باب بيته إشارة إلى أنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وخص أيامه الباقية بقرض الشعر .

واتحدت قوات أصحاب المال من حزبى الشاطئ والسهل زمناً ما ، وطردت الطاغية من البلاد (٥٥٦) ، ولكن پيسستراتس اصطلح مع حزب الشاطئ سراً ، وعاد إلى أثينة فى ظروف يلوح أنها تؤيد رأى صولون فى عقلية الجماعة . وأكبر الظن أن حزب الشاطئ قد غض الطرف عن هذه العودة . وأقبلت امرأة طويلة حسناء مدرعة بدرع أثينا إلهة المدينة وعليها ثيابها ، تجلس فى مركبة جلسة العظمة والكبرياء ، وتقود جيش پيسستراتس إلى المدينة ، بينا كان المبشرون ينادون أن ربة المدينة وحاميتها أخذت تعيد

إليه بنفسها سلطته (٦٥٠) . ويقول هيرودوت فى هذا : « ولم يكن لدى أهل المدينة أقل شك فى أن هذه المرأة هى الإلهة نفسها ، فخروا سجداً أمامها ، ورضوا بعودة پيسستراتس[٨٥] » . وانقلب زعماء الشاطئ عليه مرة أخرى ، وأخرجوه من المدينة مرة ثانية (٥٤٩) ، ولكنه عاد إليها من جديد فى عام ٥٤٦ ، وهزم الجنود الذين سيروا لقتاله ، وبقى فى هذه المرة حاكما بأمره تسعة عشر عاماً ، كادت سياسته وخططه الحكيمة فى خلالها أن تكفر عن الأساليب الروائية غير الشريفة التى استولى بها على أزمة الحكم .

وكانت أخلاق پيسستراتس مزيجا نادراً من الثقافة ، وقوة العقل ، ومن الكفاية الإدارية ، والجاذبية الشخصية . وكان فى وسعه أن يقاتل دون أن تأخذه بأعدائه رحمة ، وأن يعفو عنهم دون ما تردد ؛ وكان فى مقدوره أن يعيش فى أكثر التيارات الفكرية تقدماً فى أيامه ، وأن يحكم دون أن يتأثر بما يتأثر به الرجل المفكر من تردد فى الهدف وإحجام عن البت فى الأمور . وكان دمث الأخلاق ، رحيما فى أحكامه ، كريماً فى معاملته جميع الناس . ويقول فيه أرسطاطاليس : « وكان حكمه معتدلا ، وسار فيه سيرة السياسى لا سيرة الرجل الظالم المستبد »[٦٨] . ولم ينتقم إلا من عدد قليل من أعدائه الحدد ؛ ولكنه نفى من البلاد من لم يستطع استرضاءهم من معارضيه ، وقسم ضياعهم على الفقراء . وأصلح الجيش ، وأنشأ الأسطول ، ليصد بهما الاعتداء من خارج البلاد ؛ وجعل أثينة بمنجاة من الحرب ، ونشر فى المدينة التى لم تخرج من غمار المنازعات الطائفية إلا من عهد قريب لواء الأمن والنظام والرضا والطمأنينة ، حتى أصبح من الأقوال التى تألف الأذن سماعها أنه أعاد إليها عصر كرونوس الذهبى .

وأدهش الناس كلهم باحتفاظه بدستور صولون وعدم إدخاله شيئاً على تفاصيله إلا القليل الذى لا يستحق الذكر . ذلك أنه كان يعرف ، كما عرف أغسطس من بعده ، كيف يزين الدكتاتورية ويؤيدها بالمنح والأشكال



(شكل ١١) مزهرية پورتلند
(المتحف البريطانى)



شكل ١٢) مزهرية فرانسوا
(متحف الآثار بفلورنس)

الدمقراطية . لقد ظل الأركونون يختارون كما كانوا يختارون من قبل ، وظلت الجمعية ، والمحاكم الشعبية ، ومجلس الأربعمائة ، ومجلس شيوخ الأربوجوس تجتمع وتقوم بواجباتها كما كانت تفعل قبل أيامه ، وكل ما جد أن اقتراحات پيسستراتس كانت تلقى فيها كلها أذناً واعية . ولما أن اتهمه أحد المواطنين بالقتل مثل أمام مجلس الشيوخ وعرض عليه أن يتقدم للمحاكمة ، فما كان من الشاكى إلا أن قرر أنه لا يستمسك بالتهمة . ورضى الناس بحكمه على مر السنين ، وكان أكثرهم رضا أقلهم ثراء ، وما لبثوا أن تفاخروا به ، وفى آخر الأمر أحبوه وأولعوا به ، وأكبر الظن أن أثينة كانت بعد صولون فى حاجة إلى رجل مثل پيسستراتس أوتى من الشدة ما يستطيع به أن يستبدل بما كان فى الحياة الأثينية من اضطراب نظاماً واستقراراً ، وأن يعود الناس بالإكراه فى بادئ الأمر عادات النظام وطاعة القانون ، وهما للمجتمع البشرى كالهيكل العظمى للحيوان يكسبانه الشكل والقوة وإن لم يكسباه الحياة المبدعة الخلاقة . ولما زالت الدكتاتورية بعد جيل من ذلك الوقت ، بقيت عادات النظام ، وبقى معها الإطار الخارجى لدستور صولون ، لترثهما الدمقراطية . فكأن پيسستراتس لم يأت ليمحو القانون بل ليوطد أركانه ، وربما كان قد فعل ذلك على غير علم منه .

أما خططه الاقتصادية فقد واصل بها تحرير الشعب ، وهو التحرير الذى بدأه صولون . وقد حل المشكلة الزراعية بأن وزع على الفقراء ما كانت تمتلكه الدولة من الأراضى ، وما كان يمتلكه منها الأشراف الذين نفوا من البلاد ، وهكذا استقر فى الأرض الزراعية آلاف من الأثينيين الذين كانت بطالتهم خطراً على البلاد ، وظلت أتكا بعدئذ قروناً طوالا لا نسمع فيها عن تذمر بين الزراع(٨٧) . وأوجد عملا للمحتاجين فيما شرع فيه من منشآت متسعة النطاق ، فقد أنشأ سلسلة من المجارى لنقل ماء الشرب إلى المدينة ، ومن الطرق المعبدة ، وشاد هياكل عظيمة للآلهة ، وشجع استخراج الفضة من مناجم لوريوم **Laurium** ، وسك

للبلاد عملة جديدة خاصة بها . وجاء بالمال اللازم لهذه الأعمال بأن فرض ضريبة قدرها عشرة في المائة على جميع المحصولات الزراعية ، ويبدو أنه خفض هذه الضريبة فيما بعد إلى خمسة فى المائة (٨٨) . ووضع مشروعاً لإقامة مستعمرات فى النقط الحربية الهامة على الدردنيل ، وعقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول . وراجت التجارة فى أيامه رواجاً عظيما ، وازدادت الثروة ، ولم تكن زيادتها بين عدد قليل من الناس بل شملت الأهلين بوجه عام ؛ فقد أصبح الفقراء أقل فقراً ، ولم يعد الأغنياء أقل غنى ؛ مما كانوا ؛ وامتنع تركيز الثروة الذى كاد يقذف بالمدينة فى أتون الحرب الأهلية ؛ وانتشر الرخاء وسنحت له الفرص فوضعت بذلك الأسس الاقتصادية للدمقراطية الأثينية .

وتبدلت أحوال أثينة جسما وعقلا فى أيام پيسستراتس وولده فقد كانت إلى ما قبل أيامهما بلدة فى المرتبة الثانية بين بلاد العالم اليونانى ، تسبقها ميليتس وإفسوس ، ومتلينى ، وسرقوسة ، فى الثروة والثقافة ، والحيوية والنتاج العقلى . أما فى أيامهما فقد قامت فيها أبنية من الحجر والرخام شاهدة بما كانت فيه وقتئذ من بهجة ونعيم ، وزين معبد أثينا القديم القائم على الأكروپول بأن ضم إليه رواق دورى الطراز ، وبدئ العمل فى هيكل زيوس الأولمپى الذى تزين أعمدته الكورنثية الفخمة ، حتى وهى محطمة ، الطريق الممتد بين أثينة ومرفئها . وأقام الألعاب الأثينية الجامعة ، وخلع عليها الصبغة اليونانية العامة ، فأولى المدينة بذلك شرفاً عظيما ، فضلا عما بعثه فيها من النشاط رؤيتها وجوها أجنبية ، ومباريات وأساليب غير أساليبها ، وفى أيامه أصبح عيد أثينة الجامع عيداً قومياً عاماً للشعب اليونانى كله ، ولا يزال موكبه العظيم يتحرك أمامنا على إفريز البارثنون . وقد أقبل على بلاطه ، يجملون منشآته العامة وحياته الخاصة ، المثالون والمهندسون ، والشعراء ، وجمع فى قصره مكتبة من أولى المكتبات التى أنشئت فى بلاد اليونان . وقد عين لجنة أعطت للإلياذة والأوديسة الصورتين اللتين

تعرفهما بهما الآن ؛ وبفضل إدارته الرشيدة وتشجيعه العظيم ارتقى تسپيس وغيره من الكتاب بالتمثيل من تقليد هزلى ساخر إلى عمل فنى قابل لأن يصل إلى ذروة الكمال فى العهد الثلاثى العظيم من عهود المسرح الأثينى .

ولم يكن « استبداد » پيسستراتس إلا جزءاً من حركة عامة فى المدن التجارية النشيطة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان فى القرن السادس ، والتى كانت تسعى لكى تستبدل بالحكم الإقطاعى على أيدى الملاك الأشراف السلطان السياسى للطبقة الوسطى المتحالفة موقتاً مع الطبقات الفقيرة(*) . وكانت أهم الظروف التى مهدت لهذه الدكتاتوريات هى تركيز الثروة فى أيد قليلة تركيزاً وخيم العاقبة ، وعجز الأغنياء عن الاتفاق على وسيلة للتوفيق بينهم وبين غيرهم من الطبقات . وإذ لم يكن للفقراء بد من أن يختاروا بين المال والحرية السياســية ، فإنهم كالأغنياء سواء بسواء يؤثرون المال على الحرية ، والحرية السياسية التى تستطيع البقاء وهى التى تشذب بحيث تمنع الأغنياء أن يستخدموا ما عندهم من مقدرة أو دهاء فى تجريد الفقراء مما عندهم ، وتمنع الفقراء أن ينهبوا الأغنياء بعنفهم أو بأصواتهم . ومن ثم كانت لسبيل إلى السلطة فى المدن التجارية اليونانية ممهدة سهلة : فما على من يريدها إلا أن يهاجم الأشراف ، ويدافع عن الفقراء ، ويتفاهم مع الطبقات الوسطى(٨٩) . فإذا وصل الطاغية إلى ما يرجوه من سلطان ألغى الديون ، أو صادر الضياع الواسعة ، وفرض الضرائب على الأغنياء ليمول بحصيلتها ما ينشئه من الأشغال العامة ، أو أعاد توزيع الثروة المركزة فى أيد قليلة بوسيلة أخرى غير هذه الوسيلة . وفى الوقت الذى يضم فيه الجماهير إلى جانبه

(*) والكلمة الإنجليزية tyrant أى المستبد أو الطاغية كلمة ليدية ، ولعلها مشتقة من اسم ترها Tyrrha المدينة الليدية . ومعنى هذا اللفظ هو قلعة ، ولعله ذو صلة بعيدة بلفظ Tower الإنجليزى (ولفظه پترپس اليونانى) . ويبدو أن أول من وصف به هو جيجيس Gyges ملك ليديا .

بهذه الوسائل وأشباهها ، يحصل على معونة رجال الأعمال بتشجيع التجارة عن طريق العملة الرسمية وعقد المعاهدات التجارية الأجنبية ، ورفع المنزلة الاجتماعية للطبقات الوسطى. وإذ كان الحاكم بأمره مضطراً إلى الاعتماد على حب الشعب له لا على حقه الموروث فى السلطان ، فإن الدكتاتوريات كانت فى الأغلب الأعم تتجنب الحروب وتناصر الدين ، وتحفظ النظام ، وتحث على الأخلاق الفاضلة ، وترفع منزلة النساء فى المجتمع ، وتشجع الفنون ، وتنفق المال بسخاء فى تجميل مدائنها . والطغاة يفعلون هذا كله فى كثير من الأحيان وهم محتفظون بصور الحكومة الشعبية وأساليبها فى العمل ، ومن ثم كان الناس حتى فى عهود الاستبداد يتعلمون طرائق الحرية . وبعد أن تنتهى الدكتاتورية من تحطيم الأرستقراطية كان الشعب يحطم الدكتاتورية ، ولم يكن يحتاج إلى تغييرات كثيرة ليجعل دمقراطية الأحرار قائمة شكلا وعملا .

٥ ـ قيام الدمقراطية

لما توفى بسستراتس فى عام ٥٢٧ ورث أبناؤه السلطة من بعده ، وكانت حكمته قد اجتازت بنجاح كل اختبار إلا اختباراً واحداً ، فقد أخفق فى كسب حب أبنائه له . وقد وعد هبياس أن يكون عادلا عاقلا فى حكمه ، وظل ثلاثة عشر عاماً يسير على نهج أبيه . وكان أخوه الأصغر مولعاً بالحب والشعر ؛ ولم يكن فى هذا من الضرر أكثر من تبديد المال فى هاتين الهوايتين ؛ وكان هو الذى استقدم أنكريون Anacreon وسمنيدس Simonides إلى أثينة . غير أن الأثينيين لم يكونوا راضين كل الرضا عن أن يروا أزمة الحكم تنتقل بغير رضاهم إلى ابنى بيسستراتس ، وأخذوا يدركون أن الدكتاتورية قد مكنت لهم فى كل شىء إلا حافز الحرية . على أن أثينة رغم هـذا كانت تتمتع بالرفاهية ورغد العيش ، ولولا أن الحب اليونانى الحقيقى يسير فى طريق وعر شائك لاستطال

حكم هيپاس الهادئ حتى يصل إلى خاتمته السلمية الطبيعية . وكان أرستوجيتون Aristogeiton وهو رجـــل كهل قد كسب حب الفتى هرمديوس Harmodius وهو وقتئذ « فى ريعان الشباب ونضارته » كما يقول توكيديدس[٩٠] ، ولكن هپاركس ، وهو أيضاً ممن لا يستحون أن يحبوا الغلمان ، كان يسعى هو الآخر ليتحبب إلى هذا الشاب ؛ فلما سمع أرستوجيتون بهذا اعتزم أن يقتل هپاركس ويعمل فى الوقت ذاته على حماية نفسه بقلب الحكومة الاستبدادية ، وانضم إليه فى هذه المؤامرة هرموديوس وغيره من الأثينيين (٥١٤) واغتالوا هپاركس وهو يعد العدة لموكب الألعاب الأثينية الجامعة ؛ ولكن هپياس أفلت منهم ودبر قتلهم . ومما زاد الأمور تعقيداً أن ليينا Leaena عشيقة هرمديوس ماتت ميتة الشجعان أثناء تعذيبهم إياها ، لأنها أبت أن تغدر بالباقين من المتآمرين ؛ وإذا كان لنا أن نصدق الرواية اليونانية فإنها قطعت طرف لسانها وبصقته فى وجه معذبيها لتؤكد لهم أنها لن تجيب عن أسئلتهم[٩١] .

وارتاع هپياس لهذه الثورة ، وإن كان الأهلون لم يؤيدوها تأييداً ظاهراً ، ودفعه هذا الروع إلى أن يستبدل بحكمه الرحيم حكما طابعه القمع ، والتجسس والإرهاب . وكان فى مقدور الأثينيين ، بعد أن نعموا بالرخاء جيلا كاملا ، أن يطلبوا الآن ترف الحرية ، وزادت صرخة المطالبة بها دوياً كلما زاد الطغيان قسوة ؛ واستحال هرمديوس وأرستجيتون فى خيال الشعب شهيدين من شهداء الحرية بعد أن لم يكونا إلا متآمرين يحيكان مؤامرة مبعثها الحب والهيام لا الدمقراطية(*). ورأى الألكميونيون فى دلفى الذين نفاهم پيسستراتس من البلاد الفرصة سانحة لهم ، فجمعوا جيشاً ، وزحفوا به على أثينة ،

(*) ليس من حق الإنسان أن يعجب من أنهما يمثلان طبقة الأشراف الناصبة ، كما كان بروتس وكاسيس يمثلان هذه الطبقة فى رومة . وقد صار بروتس أيضاً بطل ثورة ، بعد أن طمس تاريخه ، مدى ثمانية عشر قرناً .

وأعلنوا أنهم لا يقصدون إلا خلع هيپياس . ورشوا فى الوقت نفسه الناطق بلسان الوحى فى پيثيا لكى يعلن لكل من يستشيره من الاسپارطيين أن من واجب اسپارطة أن تقضى على حكومة الطغيان فى أثينة . وقاوم هيپياس قوى الألكميونيين مقاومة عنيفة موفقة ، حتى انضم إليهم جيش لسديمونى ، فانسحب من الميدان واعتصم بالأريوپجوس . وأراد أن يؤمن أبناءه على حياتهم إذا ما قُتل هو ، فأخرجهم سراً من أثينة ؛ ولكن الغزاة ألقوا القبض عليهم ، وافتداهم هيپياس بأن قبل النزول عن الحكم والنفى (٥١٠) . ودخل الألكميونيون وعلى رأسهم كليسثنيز الباسل(*) ، أثينة ظافرين ، وفى أعقابهم الأشراف المنفيون يستعدون للاحتفال باسترجاع أملاكهم وسلطانهم .

واختير إسجوراس Isagoras فى الانتخابات التى أعقبت هذه الحوادث ليكون كبير الأركونين ، ولكن كليسثنيز أحد المرشحين المنهزمين حرض الشعب على العصيان ، وأسقط إسجوراس ، وأقام دكتاتورية شعبية . وغزا الاسپارطيون أثينة مرة أخرى ، يريدون إعادة إسجوراس إلى منصبه ، ولكن الأثينيين قاوموا الغزو مقاومة عنيفة اضطرت الاسپارطيين إلى الارتداد ، فلما تم ذلك شرع كليسثنيز ، الشريف الألكيمونى ، ينشئ حكومة دمقراطية (٥٠٧) .

وكان أول إصلاح له بمثابة معول دك به قواعد الارستقراطية الأتيكية — ونعنى بها القبائل الأربع والبطون الثلثمائة والستين التى كانت تتولى زعامتها ، جرياً على التقاليد التى دامت مئات السنين ، أقدمُ الأسر وأوفرها ثراء : فقد ألغى كليسثنيز هذا التقسيم القائم على صلات القرابة واستبدل به تقسيماً آخر إقليمياً جعل الأهلين بمقتضاه عشر قبائل تتألف كل

(*) وهو حفيد كليسثنيز طاغية سكيون .

منها بمن عدد من المراكز يختلف باختلاف القبائل . وأراد أن يمنع التكتلات الجغرافية أو المهنية الشبيهة بأحزاب الجبل ، والشاطئ ، والسهل ، فألف كل قبيلة من عدد متساو من أقسام المدينة وسواحل البحر وداخلية البلاد . وعوض كل الأقسام الجديدة عن القداسة التى كان يخلعها على الأقسام القديمة فأوجد لكل قسم أو قبيلة حفلات دينية واختار أحد الأبطال القدماء وجعله إلهاً أو قديساً راعياً للقسم أو القبيلة . وأصبح الأحرار الذين ولدوا من أصل أجنبي مواطنين من تلقاء أنفسهم فى القسم الذى يقيمون فيه ، وقلما كان هؤلاء يتمتعون بحق الانتخاب فى العهود الأرستقراطية التى كان حق المواطن فيها يعتمد على حسبه ونسبه ، وبهذا العمل وحده تضاعف عدد الناخبين ، وأصبحوا عوناً جديداً للدمقراطية التى أضحت من ذلك الوقت أقوى أساساً من ذى قبل .

وخولت كل قبيلة جديدة حق ترشيح أحد الاستراتيجوى (القواد) العشرة الذين اشتركوا من ذلك الوقت مع القائد الأعلى فى قيادة الجيش ، كما خولت أيضاً حق اختيار خمسين عضواً من أعضاء المجلس الجديد المؤلف من خمسمائة عضو وعضو والذى حل الآن محل مجلس صولون المؤلف من أربعمائة ، وجعلت له السلطات الهامة التى كانت لمجلس الأريوبجوس . وكان هؤلاء الأعضاء يختارون مدة عام واحد بالقرعة لا بالانتخاب ، من قوائم تحوى أسماء جميع المواطنين الذين بلغوا سن الثلاثين ، والذين لم يكونوا قد قضوا فى المجلس القديم دورتين . وفى هذا النوع الجديد العجيب من أنواع النظام النيابى استبدل بالمبدأ الارستقراطى القائم على شرف المحتد ، وبالمبدأ البلوتقراطى القائم على الثراء ، مبدأ الانتخاب بالقرعة ، فأتيحت لكل مواطن فرص متكافئة للاقتراع ، ولشغل منصب فى أهم فرع من فروع الحكومة وأعظمها سلطاناً . ذلك أن المجلس الذى كان يختار بهذه الطريقة كان يعين جميع المسائل والاقتراحات التى تعرض على الجمعية لإقرارها أو رفضها ،

كما كان يحتفظ لنفسه ببعض السلطات القضائية المختلفة الأنواع ، ويصرف كثيراً من الشئون الإدارية ، ويشرف على جميع موظفى الدولة .

وزيد عدد أعضاء الجمعية بمن دخلها من المواطنين الجدد ، وبهذا كانت جلستها التى يحضرها الأعضاء جميعاً تضم ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، وكان من حق هؤلاء جميعاً أن يختاروا للعمل فى البليا أو المحاكم ، أما الطبقة الرابعة أو الثيتيس فقد بقيت كما كانت فى عهد صولون لا يختار منها أحد للمناصب التى يشغلها فرد واحد . وزادت سلطات الجمعية بإنشاء نظام « الحرمان » من عضوية الهيئة الاجتماعية والطرد من البلاد ، وهو الحق الذى أضافه كليسثنيز الى حقوقها على ما يبدو ليحمى به الجمهورية الناشئة . وبمقتضى هذا الحق الجديد كان فى استطاعة الجمعية ، بناء على اقتراح تقدمه أغلبية أعضائها مكتوب بطريقة سرية على قطع من الفخار ، كان فى استطاعة الجمعية إذا حضرها العدد القانونى وهو ستة آلاف من أعضائها أن تنفى من البلاد مدة عشر سنين أى إنسان ترى هى أنه أصبح خطراً على الدولة . وبهذه الطريقة كان الزعماء الطموحون يضطرون إلى أن يسلكوا مسلك الحذر والاعتدال ، وكان فى استطاعة الجمعية أن تتخلص ممن تظنهم يتآمرون عليها من غير الإبطاء الذى تستلزمه الإجراءات القضائية . وكان كل ما يتطلبه هذا العمل من إجراء أن يسأل أعضاء الجمعية : « هل من بينكم رجل تظنونه شديد الخطر على الدولة ؟ وإذا كان فمن هو هذا الرجل ؟ » وكان فى وسع الجمعية حينئذ أن تقترع على نفى أى مواطن دون أن يستثنى من ذلك صاحب السؤال نفسه(*) . ولم يكن هذا النفى يتضمن مصادرة الملك كما أن المنفى لم يكن يلحقه من جرائه عار ؛ ولم يكن إلا الطريقة التى تلجأ إليها الدمقراطية لقطع « أطول السنابل[٩٢] » . ولم تسئ الجمعية استخدام سلطانها هذا ، ذلك أنها

(*) وقد أنشئ نظام كهذا فى أرجوس ، ومجارا ، وسرقوسة .

لم تستخدم حقها طوال التسعين عاماً التى مضت بين تقريره وبين إبطال العمل به فى أثينة إلا فى إخراج عشرة أشخاص من أتكا .

ويقال إن كليسثنيز نفسه كان من بين هؤلاء العشرة ؛ ولكننا فى واقع الأمر لا نعرف تاريخه فى آخر أيامه ، فقد اختفى وضاع فى لألاء أعماله . بدأ عمله بثورة تتعارض كل المعارضة مع الأصول الدستورية ، ولكنه وضع بها رغم معارضة أقوى الأسر فى أثينة دستوراً دمقراطياً ظل نافذاً ، مع بعض تغييرات قليلة ، إلى آخر عهود الحرية الأثينية . على أن الدمقراطية لم تكن كاملة ، لأنها لم تكن تطبق إلا على الأحرار ، وظلت تضع قيداً خفيفاً من الملكية على حق الانتخاب للمناصب الفردية(*) . غير أنها أعطت جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية إلى جمعية وإلى محكمة تتكونان من المواطنين ، وإلى حكام كبار تعينهم الجمعية ويكونون مسئولين أمامها ، وإلى مجلس يختار أعضاؤه بأصوات كل من يريد الاقتراع من المواطنين ، ويشترك بالفعل فى ممارسة سلطانه الأعلى ثلثهم مدة سنة من حياتهم على الأقل . إن العالم لم ير قط فى تاريخه كله قبل ذلك العهد نظاماً انتخابياً أكثر من هذا النظام حرية ، ولا سلطة سياسية شعبية أوسع من هذه السلطة .

واغتبط الأثينيون أنفسهم أشد الاغتباط بهذه المغامرة التى تستهدف سيادة الشعب . لقد أدركوا أنهم كانوا مقدمين على مغامرة شاقة خطيرة ، ولكنهم أقدموا عليها بشجاعة وأنفة ، وباعتدال وضبط للنفس داما بعض الوقت . ولقد عرفوا من ذلك الوقت لذة الحرية فى العمل والقول والتفكير ، وبدأوا يتزعمون بلاد اليونان كلها فى الآداب والفنون ، بل فى السياسة والحرب أيضاً ، وتعلموا أن يطيعوا من جديد قانوناً يعبر عن إرادتهم

(*) اشترط قدر من الملك لممارسة حق الانتخاب فى المراحل الأولى من الدمقراطية الأمريكية والفرنسية .

هم أنفسهم ، وأن يحبوا حباً لا يعادله حب من قبله الدولة التى كانت تمثل
وحدتهم وسلطانهم ، والتى تعمل لإكمال هذه الوحدة وهذا السلطان :
ولما همت أعظم إمبراطورية فى ذلك العهد أن تدمر هذه المدن المتفرقة المسماة
ببلاد اليونان ، وأن تفرض عليها الجزية تؤديها عن يد إلى الملك العظيم ،
نسيت أنها سيقاومها فى أتكا رجال يمتلكون الأرض التى يفلحونها ،
ويسيطرون على الدولة التى تحكمهم : وكان من حسن حظ بلاد اليونان
ومن حسن حظ أوربا أن كليسثنيز قد أتم عمله وعمل صولون قبل مرثون
باثنى عشر عاماً .

الباب السادس

الهجرة الكبرى

الفصل الأول

أسبابها ووسائلها

بقد ضحينا فى سبيل استكمال قصة اسپارطة وأثينة إلى قبيل واقعة مرثون بوحدة الزمان من أجل وحدة المكان . نعم إن مدن بلاد اليونا الأصلية كانت أقدم من المستعمرات اليونانية فى بحر إيجة وفى جزائر أيونيان ، وإن هذه هى التى أنشأت فى كثير من الحالات المستعمرات التى سنصف حياتها فى هذه الفصول ، ولكن عدداً من هذه المستعمرات أضحى بما حدث من انقلاب مربك فى سياق الحوادث السوى أعظم شأناً من المدن التى أنشأتها وسبقتها فى ثروتها وفنونها ، وبذلك لم يكن الذين أوجدوا الثقافة اليونانية بحق هم اليونان أهل البلاد التى نسميها الآن بلاد اليونان ، بل كانوا هم الذين فروا أمام الدوريين الفاتحين وحاربوا حرب المستيئسين ليثبتوا أقدامهم على السواحل الأجنبية ، وأنشأوا بفضل ذكرياتهم الميسينية وجهودهم العجيبة العلوم والفنون ، والفلسفة والشعر ، التى جعلت لهم قبل مرثون بزمن طويل المقام الأول فى العـالم الغربى ؛ ثم أورثت المستعمرات أمهاتها من المدائن الأصلية الحضارة اليونانية .

وليس شىء فى تاريخ اليونان أدل على حيويتهم من انتشارهم السريع

فى جميع بلاد البحر المتوسط (*) . لقد كانوا قبل أيام هومر شعباً بدوياً متنقلا ، وكانت شبه جزيرة البلقان كلها تضطرب بحركاتهم ، ولكن أهم العوامل التى أثارت الموجات اليونانية المتتابعة التى طغت على جزائر بحر إيجة وعلى السواحل الغربية للقارة الأسيوية كانت غزوات الدوريين . فقد خرج الناس على أثرها من جميع أنحاء هيلاس يبحثون عن الموطن وينشدون الحرية بعيدين عن قبضة الفاتحين المستعبدين ؛ وكان من العوامل الأخرى التى بعثت على هذه الهجرة ما فى الدول القديمة من انقسامات سياسية ومنازعات بين الأسر ؛ فكان المغلوبون يختارون النفى من البلاد أحياناً ، وكان الغالبون يشجعونهم على الخروج منها أعظم تشجيع ؛ يضاف إلى هذا أن بعض من بقى على قيد الحياة من اليونان الذين اشتركوا فى حرب طروادة فضلوا البقاء فى آسية ؛ واستقر غيرهم فى جزائر بحر إيجة حباً فى المغامرات أو عجزاً عن العودة إلى وطنهم بعد أن تحطمت بهم السفن التى كانت تقلهم ، ووجد غيرهم حين عادوا إلى أوطانهم بعد أسفارهم الطويلة التى تعرضوا فيها لأشد الأخطار ، أن عروشهم قد ثلت وأن زوجاتهم قد احتضنهن غيرهم ، فعادوا إلى سفنهم لينشئوا لهم أوطاناً جديدة ويجمعوا ثروات جديدة فى خارج بلادهم(٢) . وعاد الاستعمار على بلاد اليونان الأصيلة ، كما عاد صنوه على أوربا الحديثة ، بمزايا عظيمة من عدة وجوه . فلقد كان منفذاً للزائدين على طاقة الأرض من السكان وللمغامرين منهم ، وكان بمثابة صمام الأمان من التذمر الزراعى ؛ وبفضله نشأت أسواق أجنبية لغلات البلاد الأصيلة ، ومستودعات حصينة فى مراكز منيعة للواردات من الطعام والمعادن . وأوجد الاستعمار فى آخر الأمر إمبراطورية تجارية كان ما فيها من تبادل السلع ،

(*) قارن هذا بقول پيتر Pater : « لعل أروع حوادث التاريخ اليونانى كله وأشدها إثارة للنفس هو استعمارهم فى بداية أمره ! » .

والفنون، وأساليب الحياة ، والأفكار ؛ من أقوى العوامل فى نشأة حضارة اليونان المعقدة .

وسارت الهجرات فى خمسة خطوط رئيسية — إيوليّة ، أيونيّة ، دورية ، يكسينية Euxine ، إيطالية . وبدأت أقدمها فى الدويلات الشمالية من أرض اليونان الأصيلة ، وهى التى لاقت أولى الغزوات من الشمال والغرب . فقد سارت على مهل جحافل من المهاجرين من تساليا ، وثيوتس . وبؤوتية ، وإيتوليا ، لم تنقطع طوال القرنين الثانى عشر والحادى عشر ، مخترقة بحر إيجه ، وزحفت على الأصقاع المحيطة بطروادة ، وأنشأت فيها المدائن الاثنتى عشرة التى تألف منها الحلف الإيولى . ويبدأ الخط الثانى من خطوط الهجرة فى البلوبونيز حيث فر آلاف من الميسينيين والآخيين على أثر « عودة الهرقليين » ، واستقر بعضهم فى أتكا والبعض الآخر فى عوبية ، وخرج الكثيرون منهم إلى جزائر سكلديس ، وجازفوا باختراق بحر إيجه ، وأسسوا فى غربى آسية الصغرى المدائن الاثنتى عشرة التى تألف منها الحلف الأيونى الاثنى عشرى Ionian Dadecapolis . وسار فى الخط الثالث من خطوط الهجرة الدوريون الذين فاضت بهم أرض البلوبونيز ، فاستقروا فى جزائر سكلديس ، وفتحوا كريت وسيرينى ، وأنشأوا حلفاً من ست مدن دورية Dorian Hexapolis حول جزيرة رودس . وبدأ الخط الرابع فى مكان ما من بلاد اليونان واستقر من ساروا فيه على سواحل تراقية ، وأنشأوا مائة مدينة على شواطئ الدردنيل ، والبروبنتس (بحر مرمرة) والبحر اليكسينى (البحر الأسود) . واتجه الخط الخامس نحو الغرب إلى الجزائر التى أسماها اليونان الجزائر الأيونية ، ثم اخترق إيطاليا وصقلية حتى بلغ آخر الأمر غالة وأسبانيا :

وليس فى وسع إنسان ما أن يتصور ما قام من العقبات فى سبيل هذه الهجرة الطويلة المدى التى دامت مائة عام ، أو كيف ذللت ، إلا إذا كان عطوفاً واسع الخيال أو كان قوى الذاكرة لم ينس ما لقيناه نحن الأمريكيين .

فى تاريخنا الاستعمارى . لقد كان فى مغادرة الأرض التى خلعت عليها شعائر القداسة قبور الآباء والأجداد ، والتى يحرسها الأرباب القدامى ، والخروج إلى أصقاع غريبة لا تحميها فى أكبر الظن آلهة بلاد اليونان ، لقد كان فى هذا وذاك مغامرة خطيرة الشأن ، ومن أجل هذا أخذ المستعمرون معهم حفنات التراب من بلادهم الأصيلة لينثروها فوق أرض الأقاليم الأجنبية ، وحملوا فى جد ووقار قبساً من النار من المذابح العامة فى مدافنهم الأولى ليشعلوا به النار فى مواقد المدن التى أنشأوها فى مستعمراتهم الجديدة . وكانوا يختارون مواضع هذه المدن على شاطئ البحر أو قريبة منه ، حيث يمكن أن تكون السفن — وهى الموطن الثانى لنصف اليونان — ملجأ يعصمهم من هجمات الأعداء براً ؛ وكان خيراً من هذا الوضع عندهم أن تقام فوق سهل ساحلى تحميها الجبال التى تصد المغيرين من ورائها ، أو على تل يكون حصناً منيعاً فى داخل المدينة نفسها ، أو أن تكون ذات ميناء فى البحر يحميه لسان بارز منه ؛ وخير من هذا وذاك أن يكون هذا الميناء الأمين على طريق تجارى أو قريباً من مصب نهر تصل إليه السفن حاملة الغلات من داخل البلاد لتصدر أو يستبدل بها غيرها من الغلات ، فتنتعش ويعمها الرخاء عاجلا كان ذلك أو آجلا . وكانوا لا يكادون يجدون موقعاً صالحاً إلا احتلوه ، واستولوا عليه بالحيلة إن أفلحت ، فإن لم تفلح سلكوا إليه سبيل القوة . ولم يكن اليونان فى هذه الظروف يرعون مبادئ أخلاقية أرقى مما نرعاه نحن الآن(*) ، فكان الفاتحون فى بعض الأحيان يستعبدون السكان الأولين بنفس الدعاوى المضحكة الباطلة التى ادعاها الحجاج المهاجرون طلباً للحرية . وكان أكثر من هذا حدوثاً أن يتودد المهاجرون الجدد إلى السكان الأولين بما يحملونه إليهم من الهدايا ، ويخلبوا لبهم بثقافتهم الراقية ، ومغازلة نسائهم ، وعبادة آلهتهم . ولم يكن اليونان المستعمرون يعنون بنقاء الدم[٣] . وكان فى وسعهم على الدوام أن يجدوا فى مجتمع آلهتهم الكثيرة

(*) يريد الأمريكيين .

إلهاً شبيهاً بإله الموطن الجديد شبهاً ييسر لهم التوفيق بين الإلهين : ولهم من هذا كله أن المستعمرين كانوا يعرضون ما صنعته أيديهم من سلع يونانية على السكان الأصليين ، ويستبدلون بها الحبوب والماشية أو المعادن ، ويصدرون هذه الغلات إلى بلاد البحر المتوسط ، ويفضلون من هذه البلاد أمهم التى هاجروا منها ، والتى لا تنفك قلوبهم تنطوى لها مدى القرون على حب وولاء يبلغ حد التقديس .

وأخذت هذه المستعمرات واحدة بعد أخرى تتشكل وتتخذ صورة المدائن اليونانية حتى لم تعد بلاد اليونان مقصورة على شبه الجزيرة الضيقة التى كان يطلق عليها هذا الاسم فى أيام هومر ، بل أضحت طائفة من المدن المستقلة مرتبطة بعضها مع بعض برباط غير متين ، ومنتشرة من إفريقية إلى تراقية ، ومن جبل طارق إلى الطرف الشرقى من البحر الأسود . وكان هذا العهد من أهم العهود فى تاريخ نساء اليونان ، فلسنا نجدهن على الدوام أكثر استعداداً مماكن فى ذلك الوقت لإنجاب الأبناء . وبفضل هذه المراكز التى تفيض جِدًّا وحيوية وذكاء نشر اليونان فى جميع أنحاء أوربا الجنوبية بذور ذلك الترف المزعزع الدال على الحذق والدهاء الذى يطلق عليه اسم الحضارة ، والذى لولاه لما كان للحياة جمال ولا للتاريخ معنى .

الفصل الثانى

السيكلديس الأيونية

إذا سار السائح بحراً من پيريس (پيرية) ، متجهاً نحو الجنوب ، مصاقباً ساحل أتكا ، ثم انحرف نحو الشرق وحول لسان سنيوم ذى الهيكل ، وصل إلى جزيرة كيوس Ceos الصغيرة حيث « كان فى يوم من الأيام قانون يحتم على من بلغو الستين من عمرهم أن يشربوا عصير الشيكران السام حتى يكفى الطعام من يبقى حياً من الناس[٤] » إذا قبلنا ما لا يقبله العقل اعتماداً على قول استرابون وأفلوطرخس .

وربما كان هذا هو الذى جعل شاعرها العظيم ينفى نفسه مختاراً من كيوس بعد أن جاوز سن الكهولة ؛ ولعله قد وجد أن من العسير عليه أن يبلغ فى موطنه الأصلى السابعة والثمانين من العمر التى تقول الرواية اليونانية المتواترة إنه قد بلغها . وقد كان جميع العالم اليونانى يعرف سمنيدس وهو فى سن الثلاثين ، ولما مات فى عام ٤٦٩ أجمع الناس كلهم على أنه أنبه كتاب زمانه ذكراً . كانت شهرته فى الشعر والغناء هى التى جعلت هپاركس Hipparchus ، وهو ثانى اثنين من الحاكمين بأمرهما معاً فى أثينة ، يدعوه إليها ، وقد استطاع فى بلاطها أن يعقد أواصر الصداقة مع شاعر آخر . وبقى حياً بعد الحروب الفارسية واختير عدة مرار ليكتب قبريات الأنصاب التى تقام على قبور المكرمين من الأموات . وعاش فى شيخوخته فى بلاط هيرون Hieron الأول طاغية سرقوسة ، وبلغ من الشهرة وقتئذ حداً أمكنه به أن يعقد الصلح فى ميدان القتال عام ٤٧٥ بين هيرون وثيرون Thēron طاغية أكرجاس ، وكان القتال قد أوشك أن ينشب بينهما[٥] . ويحدثنا أفلوطرخس فى مقاله الشديد الصلة بهذا الموضوع نفسه وعنوانه « هل يجب أن يحكم الناس الشيوخ » أن سمنيدس ظل يكسب جائزة

الشعر الغنائى والغناء الجماعى حتى بلغ سن الشيخوخة . ولما رضى آخر الأمر أن يموت دفن فى أكرجاس بمظاهر التكريم الخليقة بالملوك .

ولم يكن سمنيدس شاعراً فحسب ، بل كان فوق ذلك رجلا ذا شخصية عجيبة ، وكان اليونان يندون به ويحبونه لرذائله وشذوذه . وكان مغرماً بالمال فإذا غاب عنه الذهب لم يلهم الشعر ؛ وكان أول من كتب الشعر ليؤجر عليه ، وحجته فى هذا أن من حق الشاعر أن يأكل كما يأكل سائر الناس ؛ ولكن هذه العادة كانت جديدة فى بلاد اليونان ، وكان أرستفنيز يردد غضب الشعب منها ، ويقول إن سمنيدس « لا يستنكف أن يذهب إلى البحر فى محفة ليكسب فيه فلساً[1] » . وكان يفخر بأنه اخترع طريقة لمساعدة الذاكرة على الاستظهار أخذها عنه شيشرون واعترف بفضله عليه[1] . والمبدأ الجوهرى الذى تقوم عليه هذه الطريقة هو ترتيب الأشياء التى يريد أن يتذكرها متتابعة فى ترتيب منطقى من نوع ما بحيث يؤدى كل قسم منها بطبيعته إلى القسم الذى يليه . وكان رجلا فكها ، انتشرت أجوبته الفكهة المسكتة فى جميع مدن اليونان وتداولها الناس فيما بينهم تداول النقود ، ولكنه قال فى شيخوخته إنه كثيراً ما ندم على الكلام وإن لم يندم قط على السكوت[٨] .

وإنا ليدهشنا أن نجد فى القليل الباقى لدينا من أقوال هذا الشاعر الذى نال كثيراً من الثناء والعطاء تلك الكآبة التى كانت طابع الكثير من أدب اليونان بعد هومر — ونقول بعد هومر لأن الناس فى أيامه كانوا أنشط من أن يكتئبوا ، وكانوا أعنف من أن يتضايقوا ويملوا :

« ألا ما أقل أيام الحياة وما أكثر ما فيها من شرور ، ولكن نومنا تحت أطباق الثرى سيكون نوماً سرمدياً ... وما أضعف الإنسان وما أقوى أغلاطه ؛ إن الأحزان تأتى فى أعقاب الأحزان طوال حياته القصيرة ثم يدركه آخر الأمر الموت الذى لا ينجو منه إنسان ، والذى يرد حوضه الأخيار والأشرار على

السواء ... ما من أحد من الناس وما من شيء من صنعهم خالد ؛ وما أصدق قول شاعر طشيوز Chjos، إن حياة الإنسان كحياة ورقة الشجر الخضراء . لكن الذين يسمعون هذا لا يكاد يذكره منهم أحد ، لأن الأمل قوى فى صدور الشبان ؛ فإذا كان الإنسان فى نضرة الشباب ، وكان فارغ القلب من المتاعب ، امتلأ عقله بالأفكار الباطلة وظن أنه لن تدركه الشيخوخة ، ولا الموت ؛ وهو لا يفكر فى المرض إذا كان صحيح الجسم.. ألا ما أشد حمق من يفكرون هذا التفكير ومن لا يعرفون أن أيام شبابنا وأيام حياتنا قصيرة[٩] » .

ولم يكن يجيش فى صدر سمنيدس أمل فى جزيرة مباركة تخفف عنه آلامه ؛ كما أن أرباب أولمبس قد أصبحت كأرباب المسيحية فى بعض الشعر الحديث أدوات لقرض الشعر لا وسائل لتخفيف أحزان النفوس . ولما تحداه هيرون وطلب إليه أن يحدد طبيعة الله وصفاته ، استمهله يوماً واحداً يعد فيه جوابه ، وفى اليوم الثانى استمهله يومين آخرين ، وكان فى كل مرة يضاعف المهلة التى يطلبها ليعد فيها الجواب . ولما طلب إليه هيرون أن يوضح له معنى مسلكه هذا ، أجابه أن هذا الأمر يزداد غموضاً كلما طال تفكيره فيه[١٠] .

ولم تنجب كيوس سمنيدس وحده بل أنجبت أيضاً بكليدس Bacchylides ابن أخيه وخليفته فى الشعر الغنائى ، وأنجبت فى أيام الإسكندر الأكبر إراستراتس Erasistratus العالم الكبير فى تشريح الأجسام . وليس فى مقدورنا أن نقول هذا القول نفسه عن جزائر سريفوس Siriphos ، أو أندروس Andros أو تينوس Tenos أو ميكونوس Myconos أو سيكنوس Sicinos أو إيوس Ios . وفى سيروس Syros عاش فرسيديز Pherecydes (حوالى ٥٥٠) ، وقد اشتهر بأنه علم فيثاغورس ، وبأنه أول من كتب من الفلاسفة نثراً . أما ديلوس فكانت مسقط رأس أبلو نفسه ، على حد قول القصة اليونانية . ولقد بلغ من تقديس الناس لهذه الجزيرة ، لأن فيها مزاره ، أن حرموا الموت والولادة داخل

حدودها . فكانت كل امرأة مقبلة على الوضع تنقل منها ، وكان كل إنسان دنت منيته يبعد عنها، إلى غيرها من البلاد ، وأخرجت أجسام من كان فيها قبل مولد أپلو من قبورها المعروفة حتى تصبح الجزيرة طاهرة نقية[11] . وفى هذه الجزيرة احتفظت أثينة هى وحليفاتها من المدن الأيونية بكنوز حلف ديلوس بعد هزيمة الفرس ؛ وفيها كان الأيونيون يجتمعون كل أربع سنين اجتماعاً يختلط فيه التقى بالمرح للاحتفال بعيد الإله الجميل . وتصف إحدى ترانيم القرن السابع قبل الميلاد « النساء ذوات المناطق الجميلة[12] » ، والتجار الحريصين الدائبين على العمل فى حوانيتهم ؛ والجماهير المصطفة على جوانب الطرق ترقب الموكب المقدس ، وما يقام فى المعبد من شعائر وطقوس مهيبة ، وما يقرب فيه من قربان مقدس ؛ وتصف كذلك الرقص المرح والترانيم الجماعية التى تنشدها عذارى من ديلوس وأثينة اختاروهن لجمالهن وحسن أصواتهن ؛ والمباريات الرياضية والموسيقية ، والمسرحيات التى كانت تمثل فى الملاهى فى الهواء الطلق . وكان الأثينيون يرسلون فى كل عام بعثة إلى ديلوس تحتفل فيها بمولد أپلو ، فإذا سافرت إليها لا يعدم مجرم فى أثينة حتى تعود . وهذا هو سبب الفترة الطويلة التى انقضت بين الحكم على سقراط وبين إعدامه والتى أفاد منها الأدب والفلسفة أعظم فائدة .

ونكسوس Naxos أكبر جوائر السكلديس كما أن ديلوس تكاد تكون أصغرها . واشتهرت فى الزمن القديم بخمرها ورخامها ، وأثرت فى القرن السادس ثراء أمكنها أن تبنى لها أسطولا خاصاً بها، وأن تكون لها مدرسة خاصة للنحت . وإلى الجنوب الشرقى من نكسوس جزيرة أمرجوس Amorgos موطن سمنيدس Semonides البغيض الذى هجا النساء

هجاء لاذعاً حرص التاريخ الذى كتبه الرجال على الاحتفاظ به إلى هذه الأيام(*) . وإلى الغرب منها تقع جزيرة پاروس وتكاد كلها أن تكون من الرخام ، وأهلها يشيدون منه بيوتهم ، وقد وجد فيها پركستيلز الحجر النصف الشفاف الذى نحته وصقله وصور فيه الجسم الآدمى صورة يكاد يعتقد الناظر إليها أنها من لحم ودم . وفى هذه الجزيرة ولد فى أواخر القرن الثامن أركلوكوس Archilochus من جارية مشتراة بالمال ولكنه كان أعظم الشعراء المغنين فى بلاد اليونان . وقد قاده حظ الجنود شمالا إلى ثاسيوس Thasos حيث اشتبك فى حرب مع أهلها ، ولكنه فى أثناء المعركة ألقى بدرعه وأطلق ساقيه للريح لأنه وجدهما أعود عليه بالفائدة من الدروع ، وعاش ليسخر من هذا الحرب فيما بعد سخريات مرحة كثيرة . ولما عاد إلى پاروس أحب فيها نيوبولى Neobule ابنة الثرى ليكمبيز Lycambes . وهو يصفها بأنها فتاة متواضعة ، لها ضفيرتان تنوسان على كتفيها ، ويتحسر كما يتحسر أمثاله فى كل الأزمان ويقول إن « كل ما يتمناه أن يلمس يدها(٤٩) » . ولكن ليكمبيز كان يعجب بشعر الشاعر أكثر من إعجابه بماله ، فقضى على آماله ؛ فما كان من أركلوكس إلا أن حمل عليه وعلى نيوبولى وأختها حملة من الهجاء شعواء آثر معها ثلاثتهم كما تقول القصة أن يشنقوا أنفسهم . وامتلأ قلب أركلوكس حقداً على پاروس فترك « تينها وسمكها » وأصبح مرة أخرى جندياً يبحث عن حظه فى ميادين القتال . ولما أن عجزت ساقاه فى آخر الأمر عن أن تسعفاه فى الهرب قتل وهو يحارب النكسيين(**) .

وتدلنا قصائده على أنه كان يغلظ فى القول لأعدائه وأصدقائه على السواء ، وأنه كان شديد الولع بالزنا يدفعه إلى هذا خيبة آماله فى الحب(٥١)

(*) يشبه سمنيدس النساء فى أيامه بالثعالب والحمير والخنازير ، والبحر المتقلب ، ويتهم أن زوجاً من الأزواج لا يمر عليه يوم واحد فى حياته دون أن توجه إليه زوجته كلمة تأنيب

(**) أهل جزيرة نكسوس Naxos .

والصورة التى ترتسم له فى مخيلتنا هى صورة القرصان الملهم والبحار الرخيم الصوت ، ذى اللفظ الخشن فى نثره المصقول فى شعره ، يعمد إلى البحر العمبق(*) من بحور الشعر ، وهو الذى كانت تصاغ فيه الأغانى الشعبية وقتئذ ، فيؤلف به أبياتاً قصيرة لاذعة من ثلاثة أوتاد . وهذا البحر العمبق ذو الثلاثة الأوتاد هو الذى كتبت به المآسى اليونانية الشهيرة . لكنه لم يقتصر على هذا الوزن بل أخذ يجرب بحوراً أخرى كالبحر الدقتيلى(**) السداسى الأوتاد والتروقى(†) الرباعى الأوتاد ، وبحوراً أخرى تجاوز العشرة عدا(††) . وهو الذى أدخل فى الشعر اليونانى الأوزان التى احتفظ بها إلى آخر الأيام . ولم يبق من قصائده إلا بضعة أسطر قليلة غير كاملة ، ولسنا نجد بداً من قبول قول الأقدمين إنه كان أحب الشعراء اليونان إلى بنى وطنه بعد هومر . وكان هوراس يحب أن يقلد أوزانه المتغيرة ، ولما سئل أرستفنيز البيزنطى الناقد المتأغرق العظيم أى قصائد أركلوكوس أحبها إليه ، أجاب عن ذلك السؤال بكلمتين اثنتين عبر بهما عن شعور بلاد اليونان كلها فقال : « أطول القصائد[١٦] » .

وعلى مسيرة باكورة اليوم بالسفينة من پاروس تقع جزيرة سفنوس Siphnos الشهيرة بمناجم الفضة والذهب . وكان الشعب يمتلك هذه المناجم عن طريق حكومته . وكان نتاجها عظيما استطاعت الجزيرة به أن تعتمد

(*) البحر العمبق **Iambic** هو المؤلف من فاصلة قصيرة تليها فاصلة طويلة ؛ أو من مقطع لا نبرة صوتية عليه يليه مقطع ذو نبرة صوتية . (المترجم)

(**) البحر الدقتيلى هو الذى يتألف كل وتد من أوتاده من ثلاثة مقاطع أولها قصير ويليه مقطعان طويلان . (المترجم)

(†) والتروق يتألف كل وتد من أوتاده من مقطعين أولها طويل والآخر قصير . (المترجم)

(††) إذا شاء القارئ أمثلة لهذه البحور فإنه يجدها فى قصيدتى **Evangeline** و **Hiawtha** للنج فلو **Lengfellow** ، وفى مقطوعة **Blwo blow, thou winter wrind** لشيكسبير ؛ فالأولى من البحر الدقتيل السداسى الأوتاد والثانية من التروق الرباعى الأوتاد والثالثة من العمبق الثلاثى الأوتاد .

عليه فى إقامة الخزانة السِّفنية فى دلوى ، وما فيها من تماثيل النســوة اللائى يحملن على رؤوسهن مواد البناء وهن هادئات مطمئنات ، وأن تقيم آثاراً غيرها كثيرة ، وأن توزع مع ذلك مقداراً كبيراً من المعدنين النفيسين على الأهلين فى آخر كل عام (١٧) . وفى عام ٥٢٤ جاء جماعة من اللصوص من ساموس ونزلوا فى هذه الجزيرة وفرضوا عليها جزية تبلغ مائة وزنة — أى ما يساوى ٦٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام . وقبلت بلاد اليونان الأخرى هذه السرقة الجريئة بالاطمئنان والجلد اللذين يقبل بهما الناس فى العادة مصائب أصدقائهم .

الفصل الثالث

الفيض الدورى

واستعمر الدوريون أيضاً جزائر سكلديس وروضوا طباعهم العسكرية بتدريج جوانب الجبال وتسويتها على مهل حتى تمسك الأمطار الشحيحة فتروى نباتهم وكرومهم . وفى ميلوس ورثوا عن أسلافهم من أهل العصر البرنزى استخراج الحجر الزجاجى الطبيعى ، وبفضلهم أثرت الجزيرة ثراء جعل الأثينيين يبذلون قصارى جهدهم لكسب معونتها فى كفاحهم مع اسپارطة . وسنرى هذا فى الفصول التالية من هذا الكتاب . وفى هذه الجزيرة عثر المنقبون على « أفروديتى ميلوس(*) » وهو الآن أشهر تمثال فى العالم الغربى كله .

واتجه الدوريون شرقاً ثم جنوباً وفتحوا ثيرا Thera وكريت ؛ ومن ثيرا أرسلوا جالية منهم استعمرت سيرينى . واستقر عدد قليل منهم فى قبرص ، وكان فيها منذ القرن الحادى عشر جالية قليلة العدد من اليونان الأركاديين تنازع الأسر الفينيقية القديمة السيادة على الجزيرة . وكان من هؤلاء الملوك الصغار بجمليون الذى تروى عنه القصص أنه أعجب بتمثال من العاج لأفروديتى نحته هو بنفسه فشغفه حباً ورجا الآلهة أن تهبه الحياة ، فلما أجابت رجاءه تزوج الفتاة التى صنعها بيده[١٨] . والراجح أن كشف الحديد قد قلل طلب الناس لنحاس قبرص فتخلفت الجزيرة عن ركب التقدم الاقتصادى اليونانى . وكان من أثر تقطيع الأهلين الأشجار ليصهروا بها فلذ النحاس ، وتقطيع الفينيقيين إياها لصنع سفنهم ، وتقطيع اليونان الكثير منها لإعداد الأرض للزراعة ، كان من أثر هذا التقطيع أن استحالت الجزيرة

(*) أوفينوس (زهرة) ميلوكا يعرفها الغربيون باسمها المشتق من اسم الإلهة الرومانى واسم الجزيرة الإيطالى .

شيئاً فشيئاً إلى تلك الأرض المهجورة نصف المجدبة كما نراها اليوم . وكان فن الجزيرة ، كما كان أهلها ، فى العصر اليونانى خليطاً من آثار الفن المصرى والفينيقى واليونانى ، ولم يكن له فى يوم من الأيام طابع واحد خاص به(*) .

ولم يكن الدوريون إلا أقلية من سكان قبرص اليونان ؛ أما فى رودس ، وجزائر اسبرديس Sporades الجنوبية وما جاورها من أرض القارة الأوربية فقد أصبحوا هم الطبقة الحاكمة . وازدهرت رودس وعمها الرخاء فى القرون التى بين هومر ومرثون ، وإن لم يبلغ هذا الازدهار ذروته إلا فى العصر الذى اصطبغت فيه تلك البلاد بالصبغة اليونانية . وأنشأ المستعمرون الدوريون على لسان فى البحر بارز من قارة آسية مدينة نيدوس Cnidus ؛ وبفضل موقعها هذا أضحت ثغراً صالحاً للتجارة الساحلية . وفى هذه المدينة ولد فى مستقبل الأيام يودكسس Eudoxus الفلكى وتسياس Ctesias المؤرخ (أو كاتب الخرافات) وسستراتس Sostratus الذى بنى فى مستقبل الأيام منارة الإسكندرية . وهنا أيضاً وجد بين أنقاض المعابد القديمة تمثال دمتر الأم الحزينة المحفوظ فى المتحف البريطانى .

وتقع أمام نيدوس جزيرة كوس موطن أبقراط ، وقد كانت مركزاً لعلم الطب اليونانى ينافس فيه نيدوس . وفيها ولد أبليز Apelles الرسام وثيكريتوس Theocritus الشاعر . وكان على بعد قليل منها وعلى الساحل نفسه مدينة هليكرنسس Halicarnassus مسقط رأس هيرودوت . وقد كانت فى أيام انتشار الحضارة اليونانية مقر حكم موسولوس Mausolus الملك الكارى وحبيبته أرتميزيا . وقد تكون من هذه المدينة ومن كوس ونيدوس ومن مدائن رودس الشهيرة (لندس ، وكميرس ، وبليس) المدائن الست الدورية فى آسية الصغرى وهى التى قامت تنافس إلى حين مدائن أيونيا الاثنتى عشرة منافسة ضعيفة .

(*) انظر الصندوق رقم ١٣ من مجموعة العاديات القبرصية لسنولا Cesnola فى المتحف الفنى بنيويورك . وقد كشف علماء الآثار الإنجليز فى عام ١٨٦٨ لوحة عليها كتابة بلغتين استطاعوا بفضلها أن يحلوا رموز الكتابة القبرصية ، وتبين لهم وللعالم أنها لهجة من اللهجات اليونانية تكتب برموز مقطعية . ولكن نتيجة هذا الكشف لم تضف شيئاً ذا قيمة لتاريخ العالم .

الفصل الرابع

الاثنتا عشرة مدينة الأيونية

١ — ميليتس والموطن الأول للفلسفة اليونانية

كان يمتد إلى الشمال الغربى من كاريا مسافة تسعين ميلا شريط ساحلى جبلى يختلف عرضه بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهو المعروف فى الزمن القديم باسم أيونيا . ويصفه هيرودوت بقوله « إن هواءه ومناخه أجمل هواء ومناخ فى العالم كله[١٩] » . وكانت كثرة مدائنه عند مصاب الأنهار أو عند منتهى الطرق ، وكانت هذه الأنهار والطرق تنقل البضائع مما وراءها من الإقليم إلى شاطئ البحر المتوسط ، منه تنقل على ظهور السفن إلى كافة الأنحاء .

وكانت ميليتس ، وهى أبعد المدن الاثنتى عشرة الأيونية جهة الجنوب ، أغنى مدائن العالم اليونانى كله فى القرن السادس قبل الميلاد . وقد قامت هذه المدينة فى موضع كان يسكنه الكاريون من العهد المينوى ، فلما أقبل الأيونيون من أتكا على هذا المكان حوالى ١٠٠٠ ق . م ، وجدوا فيه الثقافة الإيجية وإن كانت فى صورة مضمحلة ، تنتظرهم ليتخذوها بداية متقدمة لحضارتهم . ولم يأتوا معهم بنساء إلى ميليتس فاكتفوا بأن قتلوا الذكران من أهلها وتزوجوا الأرامل[٣٠] . وبدأ امتزاج الثقافتين بامتزاج دماء الأهلين والوافدين . وخضعت ميليتس ، كما خضعت كثرة المدن الأيونية ، فى أول الأمر لحكم الملوك الذين يقودون جيوشها فى الحرب ، ثم خضعت بعدئذ لحكم الأشراف الذين يملكون الأرض ، ثم لحكم « المستبدين » الذين يمثلون الطبقة الوسطى . ووصلت الصناعة والتجارة إلى ذروتهما فى عهد الطاغية ثراسيبولوس **Thrasybulus** فى بداية القرن

السادس قبل الميلاد ، وأثمر رخاؤها المطرد أدباً وفلسفة وفناً . وكان الصوف يحمل إليها من أرض الكلأ الغنية فى الداخل وينسج ملابس فى مصانع النسيج القائمة فى المدينة . وتعلم التجار الأيونيون عن الفينيقيين إقامة المستعمرات لتكون مراكز تجارية ، فأنشأوا العدد الكبير منها فى مصر وإيطاليا وعلى شواطئ بحر البروپنتس واليوكسين ، ثم تفوقوا شيئاً فشيئاً على معلميهم فى هذا المجال فكان لميليتس وحدها ثمانون مستعمرة من هذه المستعمرات التجارية ، ستون منها فى الشمال . وكانت ميليتس تستورد من أبيدوس ، وسيزيكوس Cyzicus ، وسينوپ ، وألبيا Olbia ، وترابيزوس Trapezus ، وديوسكورياس Dioscurias ، الكتان ، والخشب ، والفاكهة ، والمعادن ، وتصدر إليها بدلا منها مصنوعاتها اليدوية . وأصبح ثراء المدينة وترفها تضرب بهما الأمثال وتعبر بهما المدينة فى بلاد اليونان بأجمعها . وفاضت خزائن تجارها بالأموال فأخذوا يمولون المشروعات فى طول البلاد وعرضها وفى المدينة نفسها ، فكانوا هم آل ميديتشى فى عصر النهضة الأيونية .

وفى هذه البيئة المنعشة الباعثة على النشاط الذهنى أثمرت بلاد اليونان الثمرتين الأوليين من الثمار التى امتازت بها على غيرها ، وأهدتهما إلى العالم كله — نقصد العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ ذلك أنه حيث تتلاقى الطرق تتلاقى كذلك الآراء والعادات والعقائد المتباينة ؛ وينشأ من اختلافها احتكاك ، فتنازع ، فمفاضلة ، فتفكير ؛ فتمحو الخرافات بعضها بعضاً ، ويبدأ التفكير المنطقى السليم . وقد تلاقى فى ميليتس كما تلاقى فى أثينة رجال جاءوا من مائة دولة متفرقة ، ذوو نشاط عقلى بعثه فيهم التنافس التجارى ، وقد تحرروا من أسر التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم ، وهياكلهم ، ومذابح آلهتهم . وكان أهل ميليتس أنفسهم يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحت عيونهم على حضارة ليديا ، وبابل ، وفينيقية ، ومصر . وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق دخل علم الهندسة المصرية



شكل ١٣) عذراء
منقولة عن (متحف الأكروبول بأثينة)



(شكل ١٤) أپلو
(عن متحف الأكروپول بأثينة)

وعلم الفلك البابلى العقل اليونانى ، ونمت التجارة الداخلية . والعلوم الرياضية ، والتجارة الخارجية ، وعلوم الجغرافية ، والملاحة ، والفلك ، كلها فى وقت واحد . وكان الثراء فى هذه الأثناء قد أوجد للناس الفراغ ؛ ونشأت فى البلدة أرستقراطية ثقافية امتازت بالتسامح الفكرى لأن من يستطيعون القراءة كانوا أقلية صغيرة فى المدينة . ولم يكن يُضَيِّق على عقول الناس وتفكيرهم قيود يفرضها رجال دين أقوياء ، ولا نصوص قديمة منزلة موحى بها ، وحتى القصائد الهومرية التى أمست فيما بعد كتاب اليونان المقدس إلى حد ما لم تكن قد اتخذت بعد شكلها النهائى المحدد المعروف ، ولما اتخذته كان ما فيها من أساطير دينية مطبوعاً بطابع التشكك الأيونى والمرح المجونى . ومن ثم أصبح التفكير فى هذه المدينة لأول مرة تفكيراً دنيوياً غير دينى يسعى وراء الأجوبة العقلية المنسقة غير المتنافرة لما يحير العقول من مسائل العالم والناس(*) .

على أن الغرس الجديد ، وإن كان قد حل محل الغرس القديم ، كانت له أصوله وكان له آباؤه وأجداده ، فقد امتزجت بالفلسفة الواقعية الطبية التى كانت من خصائص التجار الفينيقيين واليونان حكمة الكهنة المصريين والمجوس الفرس الأقدمين ، بل لعلها قد امتزج بها أيضاً حكمة المتنبئين الهنود وعلم الكهنة الكلدان وبداية الخليقة المجسدة التى صاغها هزيود شعراً . وقد مهد الدين نفسه السبيل إلى هذا المزج حين تحدث عن مويرا mori a أو القدر ، وقال إنه هو المتحكم فى الآلهة والبشر . وكان هذا بداية فكرة القانون الذى يعلو على الإرادة الشخصية مهما عظمت ، وهى الفكرة التى تدل على الفرق الجوهرى بين العلم والأساطير ؛ وبين الاستبداد والدمقراطية . ولقد تحرر الإنسان من يوم أن اعترف أنه خاضع لحكم القانون ، وأكبر الأسباب التى جعلت اليونان ذوى خطر فى

(*) وقد ظهرت حركات شبيهة بهذه الحركة فى الهند والصين فى هذا القرن السادس قبل الميلاد .

التاريخ ورفعتهم فيه إلى أعلى مكانة ، هى أنهم ، على قدر ما وصل إليه علمنا ، كانوا أول من اعترف بخضوع الإنسان لحكم القانون وبحقه فى البحث الفلسفى وفى اختيار الحكم الذى يرتضيه .

وإذ كانت الحياة تتطور متأثرة بعاملين هما الوراثة والتجديد ، أى بتثبيت العادات وإقرارها وبالتجديد التجريبى ، فقد كان من المنتظر أن تكون الأصول الدينية للفلسفة هى التى تغذيها ، وأن يبقى فيها إلى آخر أيامها عنصر دينى قوى . وقد كان فى الفلسفة اليونانية تياران يجريان جنباً إلى جنب : أحدهما تيار طبيعى النزعة ظاهر والثانى تيار صوفى غامض . وقد نشأ الثانى من عهد فيثاغورس ، وشمل پرمنيدس وهرقليطس ، وأفلاطون وكلنثيس Cleanthes وانتهى بپلنتينوس Blontinus والقديس بولس ؛ وأما الثانى فقد كان أول رجاله العالمين طاليس وشمل أنكسمندر ، وكزنوفانيس Xenophanes ، وپروتجراس، وهبقراطس ، ودمقريطس ، وانتهى بأبيقور ولكرتيتوس Lucretius . وكان يحدث من حين إلى حين أن يقوم رجل عظيم — كسقراط وأرسطاطاليس ، وماركس أورليوس — فيمزج التيارين فى مجرى واحد يحاول به أن يوضح نظم الحياة المعقدة التى لا تنطبق على قانون . على أن النغمة الغالبة فى هؤلاء الرجال أنفسهم كانت هى حب اتباع العقل ؛ وهى النغمة التى يمتاز بها التفكير اليونانى .

ولد طاليس حوالى ٦٤٠ ق . م وأكبر الظن أنه ولد فى ميليتس وكان الدائر على ألسنة الناس أنه من أبوين فينيقيين[٢١] ، وتلقى معظم تعليمه فى مصر والشرق الأدنى . وفيه يتمثل انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب . ويبدو أنه لم يشتغل بالأعمال التجارية والمالية إلا بالقدر الذى أمكنه أن يحصل به على طيبات الحياة العادية . وليس من يجهل قصة مضارباته فى معاصر الزيت(*) . ثم صرف باقى

(*) وهاهى ذى القصة على لسان أرسطو نفسه ؛ يقولون إن طاليس أدرك بمهارته فى علم النجوم (الفلك) أن محصول الزيتون سيكون موفوراً فى ذلك العام فاستأجر فى الشتاء —

وقته فى الدرس وانهمك فيه انهماكا توحى به قصة سقوطه فى حفرة وهو يرقب النجوم . وكان رغم عزلته يهتم بشئون المدنيـــة ، يعرف الطاغية ثراسيبولوس معرفة وثيقة ، ويدعو إلى تكوين حلف من الدول الأيونية للدفاع عن نفسها ضد ليديا وفارس[٢٣]

وتعزو إليه الروايات المتواترة كلها إدخال العلوم الرياضية والفلكية إلى بلاد اليونان . وتروى إحدى القصص القديمة أنه وهو فى مصر قدر ارتفاع الأهرام بقياس ظلها فى الساعة التى يكون فيها ظل الإنسان مساوياً لطول قامته . ولما عاد إلى أيونيا واصل دراسة الهندســـة النظرية التى خلبت لبه بمنطقها السليم ، وما فيها من استدلال علمى ، وشرح كثير من النظريات التى جمعها إقليدس فيما بعـــد(*) . وكما أن هذه النظريات كانت الأساس الذى قام عليه علم الهندسة النظرية اليونانية ، كذلك كانت دراسته لعـــلم الفلك الأساس الذى قام عليه هـــذا العلم فى الحضارة الغربية ، بعد أن خلصه من التنجيم الذى أدخله فيه الشرقيون . وكانت له بعض الأرصاد الصغرى ، وقد دهشت بلاد أيونيا بأجمعها حين أفلح فى التنبؤ بخسوف الشمس فى الثامن والعشرين من شهر مايو عام ٥٨٥ ق . م[٢٥] ، والراجح أنه قد بنى هذا التنبؤ على أساس السجلات المصرية وعلى حساب البابليين . أما فيما عدا هذا فإن نظريته فى نظام الكون لا ترقى كثيراً على ما كان

— قبل أن يحين موعد جنيه جميع معاصر الزيت فى ميليتس وطشيوز بإيجار منخفض لأنه لم يجد وقتئذ أحداً ينافسه . ولما حل موعد عصر الزيت وتقدم الكثيرون من الناس يطلبون هذه المعاصر أجرها لهم بالشروط التى يرتضيها ، وجمع بهذه الطريقة أموالا طائلة وأثبت لهم أن من اليسير على الفلاسفة أن يغتنوا إذا شاءوا .

(*) وهى : أن قطر الدائرة يقسمها قسمين متساويين ، وأن الزاويتين المجاورتين لقاعدة المثلث المتساوى الساقين متشابهتان (يقصد متساويتين) ، وأن الزاوية المقابلة لربع الدائرة زاوية قائمة ؛ وأن الزاويتين المتقابلتين بالرأس الناشئتين من تقاطع خطين مستقيمين متساويتان ؛ وأن المثلثين يتساويان إذا تساوت فى أحدهما زاويتان وضلع بنظائرها فى المثلث الثانى[٢٤] .

شائعاً عن هذا النظام عند المصريين واليهود ، فقد ظن أن العالم يتكون من نصف كرة يرتكز على منبسط من الماء لا نهاية له ، وأن الأرض قرص مستوطاف على السطح المستوى فى داخل هذا الجسم النصف الكرى. ويذكرنا هذا بقول چيته Goethe إن الإنسان يشترك فى رذائله (أو أخطائه) مع أهل زمانه ، أما فضائله (أو فراسته) فإنه ينفرد بها دون سائر الناس .

وكما أن بعض الأساطير اليونانية قد جعلت أقيانوس Oceanus والد الخلائق بأجمعها ، فكذلك جعل طاليس الماء المبدأ الأول لجميع الأشياء ، وشكلها الأصلى ومصيرها النهائى . ويقول أرسطو إنه ربما جاء بهذا الرأى بعد أن شاهد « أن غذاء كل شىء رطب وأن ... بذور كل شىء ذات طبيعة رطبة ؛ .. وأن ما يتولد منه كل شىء هو دائماً مبدؤها الأساسى(٢٧) » . أو لعله كان يعتقد أن الماء هو الصورة الأولى أو الأساسية من صور المادة الثلاث — الغازية والسائلة والصلبة — التى يمكن أن تتحول إليها المواد كلها من الوجهة النظرية ؛ وليس أهم ما فى آرائه قوله إن الماء أصل كل شىء ؛ بل أهمها إرجاعه الأشياء جميعها إلى أصل واحد ؛ ولقد كان ذلك أول قول بوحدة المادة فى التاريخ المدون كله . ويصف أرسطو آراء طاليس بأنها آراء مادية ؛ ولكن طاليس يضيف إلى أقواله السابقة أن كل جزء فى العالم حى ، وأن المادة والحياة وحدة لا ينفصل أحد جزأيها عن الآخر ، وأن فى النباتات والمعادن « نفسا » خالدة كما فى الحيوان والإنسان ، وأن القوة الحيوية تتغير صورتها ولكنها لا تموت أبداً(٢٨) . وكان من عادة طاليس أن يقول إنه لا يوجد فرق جوهرى بين الأحياء والأموات . ولما أراد بعض الناس أن يضايقه بسؤال إياه لم إذن يؤثر الحياة على الموت أجابه بقوله : « ذلك لأنه لا فرق بينهما(٢٩) » .

ولما بلغ سن الشيخوخة أجمع مواطنوه على تلقيبه بلقب الحكيم Sophos ، ولما اعتزمت بلاد اليونان أن تخلد أسماء حكمائها السبعة ، وضعت اسم طاليس

على رأسهم . وسئل طاليس عن أصعب الأشياء ، فأجاب بقوله الحكيم الذى جرى مجرى الأمثال : « أن تعرف نفسك » . ولما سئل عن أسهل الأشياء قال : « أن تسدى النصح » وسئل ما هو الله ؟ فأجاب « هو ماليس له بداية ولا نهاية » . وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب : « ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله[٣٠] » . ويقول ديوجنيز ليرتيوس Diogenes Laertius[٣١] : إنه مات « وهو يشاهد مباراة فى الألعاب الرياضية . بعد أن أضناه الحر والظمأ والتعب لأنه بلغ سن الشيخوخة » .

ويقول استرابون[٣٢] . إن طاليس كان من كتب فى الفزيولوچيا أى علم الطبيعة (physics) أو مبدأ وجود الأشياء وتطورها . وقد تقدم علمه تقدماً عظيما على يد تلميذه أنكسندر ؛ وقد عاش بين عامى ٦١١ ، ٥٤٩ ق . م ولكنه نشر على الناس فلسفة تشبه شبهاً عجيباً الفلسفة التى نشرها هربرت اسبنسر Herbert Spencer فى عام ١٨٦٠ م وهو يهتز طرباً من قوة ابتكاره الفطن . ويقول أنكسمندر إن المبدأ الأول كان لا نهائية غير محددة واسعة الأرجاء (Apeiron) ، أى كتلة غير محددة ليست لها صفات خاصة ، ولكنها تنمو وتتطور بما فيها من قوى ذاتية ، حتى نشأت منها جميع حقائق الكون المختلفة(*) . وهذه اللانهائية الحية السرمدية التى لا صلة لها بالشخصية ولا بالأخلاق هى الإله الذى لا إله غيره فى نظام أنكسمندر ؛ هى الواحد السرمدى الذى لا يحول ، والذى يختلف كل الاختلاف عن الكثرة الفانية المتغيرة التى فى عالم الأشياء . وهنا تلتقى هذه الفلسفة بآراء المدرسة الإيلية Eleatic فيما وراء الطبيعة — وهى أن الواحد السرمدى دون غيره هو الحقيقة . ومن هذه اللانهائية التى لا خواص لها تولد العوالم الجديدة فى تتابع لا ينقطع أبداً ، وإليها تعود هذه العوالم فى تتابع

(*) قارن هذا بما عرف به اسبنسر التطور إذ قال إنه قبل كل شىء تحول من التجانس غير المترابط غير المحدد ؛ إلى التباين المترابط المحدد[٣٣] » .

لا ينقطع أبداً ، بعد أن تتطور وتموت . وتحتوى اللانهائية الأزلية على جميع الأضداد — الحر والبرد ، والرطوبة والجفاف ، والسيولة والصلابة والغازية . . . ، وهذه الصفات الإمكانية تصبح فى حالة التطور حقائق واقعية ، وتنشأ منها أشياء محددة مختلفة ؛ وفى حالة الانحلال تعود الصفات المتضادة مرة ثانية إلى اللانهائية (ومن هذه الآراء استمد هرقليطس واسپنسر آراءهما) . وفى قيام العوالم وسقوطها على هذا النحو تصطرع العناصر المختلفة بعضها مع بعض ، ويعتدى بعضها على بعضها اصطراع الأضداد المتعادية ، ويكون جزاؤها على هذا التضاد هو الانحلال ؛ « فتفنى الأشياء فى الأشياء التى ولدت منها » .

ولا يسلم أنكسمندر هو الآخر من الأوهام الفلكية التى يمكن أن تغتفر فى عصر لا توجد فيه آلات ، ولكنه تفوق على طاليس بقوله إن الأرض اسطوانة معلقة بغير شىء فى وسط الكون لا يمسكها غير وجودها على أبعاد متساوية من جميع الأشياء (٣٤) . وهو يرى أن الشمس والقمر والنجوم تتحرك فى دوائر حول الأرض . وأراد أنكسمندر أن يوضح هذا كله فصنع فى اسپارطة مزولة (gnomon) — وأكبر الظن أنه قلد فيها نماذج بابلية — أظهر فيها حركة الكواكب ، وميل الفلك(*) وتعاقب الانقلابين والاعتدالين والفصول(٣٥) . وقد استطاع بمعاونة زميله ومواطنه هكاتيوس Hecataeus أن يجعل الجغرافية علماً ، وذلك برسمه أول خريطة معروفة للعالم المعمور(**) .

ويقول أنكسمندر إن الدنيا فى أول صورة لها كانت فى حالة الميوعة ، ولكن الحرارة الخارجية جففت بعضها فكان أرضاً ، وبخرت بعضها فكان سحاباً ؛

(*) ودائرة فلك البروج هى الدائرة الكبرى التى تدور فيها الشمس فى حركتها الظاهرية السنوية فى السماء . وإذ كان مستوى الفلك هو أيضاً مستوى مدار الأرض ، فإن ميل دائرة البروج هو زاوية الميل (٢٣°) بين مستوى دائرة خط الاستواء الأرضى ومستوى مدارها حول الشمس .

(**) لقد رسم المصريون قبله خرائط ولكنها كانت خرائط لأقاليم قليلة محدودة .

وإن اختلاف الحرارة فى جوها الذى تكوّن بهذه الطريقة قد نشأت عنه حركة الرياح . ونشأت الكائنات الحية بمراحل تدريجية من الرطوبة الأولى ؛ وكانت الحيوانات الأرضية فى بادئ الأمر سمكاً ، ولم تتشكل بأشكالها الحالية إلا بعد أن جفت الأرض . وقد كان الإنسان هو الآخر سمكة ولا يمكن أن يكون من أول ما ظهر على الأرض قد ولد بالصورة التى هو عليها الآن وإلا لكان عاجزاً عن الحصول على طعامه ، ولهلك(٣٦)

وكان أنكسمينز Anaximenes تلميذ أنكسمندر أقل منه شأنا ، والمبدأ الأول عنده هو الهواء . ومن الهواء تنشأ جميع العناصر الأخرى بالتلطيف (تقليل الكثافة) وبه تحدث النار ، وبالتكثيف وبه تحدث على التوالى الرياح والسحب والماء والأرض والحجارة . وكما أن الروح وهى هواء ، تمسك أجسامنا فكذلك يكون هواء العالم (النوما pneuma) هو روحه السارية فيه كله أو نفسه أو الإله (٣٧) تلك فكرة لا تنال منها جميع أعاصير الفلسفة اليونانية ، وتجد لها عاصما فى الرواقية والمسيحية .

ولم تنتج هذه الأيام أيام مجد ميليتس وعزتها أقدم ما أنتجته الفلسفة اليونانية فحسب ، بل أنتجت أيضاً أقدم النثر وأقدم التاريخ المدون فى بلاد اليونان كلها(*) . ويبدو أن قول الشعر أمر طبيعى فى شباب الأمة حين يكون الخيال فيها أعظم من المعرفة وحين يجسد الإيمان القوى قوى الطبيعة فى الحقل ، والغابة ، والبحر ، والجو . وإن من أصعب الأشياء على الشعر تجنب تجسيد القوى ومنحها روحا ، كما أن أصعب الأشياء على هذا التجسيد وذاك المنح أن يتجنبا الشعر . أما النثر فهو صورة المعرفة التى تخلصت من الخيال ومن الإيمان ، وهو لغة الشئون العادية الدنيوية غير الدينية ، وهو رمز نضوج الأمة والشاهد على انقضاء عهد

(*) على القارئ الحكيم أن يضع لفظ المعروف بعد كلمتى أقدم وأول وأمثالها .

شبابها . وقد ظل الأدب اليونانى كله تقريبا إلى العصر الذى نتحدث عنه (٦٠٠ ق .م) ، وتقل التعليم أخلاق اليونان وقصصهم شعراً لا نثرا ، بل إن الفلاسفة الأولين أمثال زنوفانيز ، وپرميدس ، وأنپدقليز قد ألبسوا نظامهم الفلسفى ثوبا شعريا ؛ وكما أن العلم كان فى بداية الأمر صورة من صور الفلسفة تكافح لتحرر نفسها من الصور العامة النظرية غير القابلة للتحقيق ، كذلك كانت الفلسفة فى أول عهدها صورة من صور الشعر ، تحاول أن تتحرر من الأساطير ، وتجسيد القوى ومنحها روحا ، ومن التشابيه والاستعارات(*) .

ولذلك كان من الحوادث الهامة فى تاريخ العلم أن يشرح فرسيدس Pherecydes وانكسمندر آراءهما نثراً . وقد بدأ رجال غيرهما فى ذلك العصر نفسه يسميهم اليونان لوجوجرافوى أى الكتاب العقليين أو كتاب النثر ، بدءوا يسجلون بهذه الوسيلة الجديدة تواريخ دولهم ؛ فكتب كدموس Cadmus (٥٥٠) تاريخاً لمليتس ، وكتب يوجايون Eugaeon تاريخاً لساموس ، وكتب زانثوس Xanthus تاريخاً لليديا . وفى أواخر ذلك القرن ارتقى هكتيوس Hecataeus الميليتى بالتاريخ والجغرافية رقياً عظيما فى كتابين يعدان فتحاً جديداً فى هذين العلمين هما الهستريای Historiai أو البحوث والجس پريودوس Ges Periodos أو دورة الأرض . وقد قسم الكتاب الثانى الكوكب الأرضى قارتين هما أوروبا وآسية وضم مصر إلى آسية . وإذا كانت الأجزاء الباقية من هذا الكتاب حقيقية ؛ فإن فيها معلومات قيمة عن مصر سطا هيرودوت على الكثير منها دون أن يعترف بهذا . وقد بدأ كتاب البحوث بهذه العبارة القوية الدالة على تشككه : « إنى أكتب ما أرى أنه حق ؛ لأن روايات اليونان فى نظرى كثيرة وسخيفة » . وكان هكتيوس يعد أقوال هومر تاريخاً وأخذ منها

(*) للكاتب الإنجليزى ارود مكول بحث طريف فى هذا الموضوع تضمنه مقاله من ملتن وقد ترجمنا هذا المقال إلى العربية . (المترجم)

عدة قصص وهو مغمض العينين ، على أنه قد حاول محاولة شريفة أن يميز الحقائق من الأساطير ، وأن يتعقب الأنساب الحقة ، وأن يحاول الوصول إلى تاريخ لليونان يمكن الركون إليه . وجملة القول أن كتابة التاريخ اليونانى كانت قديمة العهد حين ولد « أبو التاريخ » .

وكان هكتيوس وغيره من الكتاب العقليين الذين ظهروا فى هذا العصر فى معظم مدن اليونان ومستعمراتهم يفهمون من كلمة هستوريا(*) بحث الحقائق المتصلة بأية مادة من المواد العلمية ، سواء كانت متصلة بالعلوم الطبيعية أو بالفلسفة أو بكتابة التاريخ بمعناه الحديث . وكان لهذا اللفظ فى أيونيا معنى يثير الريبة فى نفوس أهلها ؛ فقد كانوا يفهمون منه أنه يراد به أن يستبدل بقصص المعجزات الخاصة بالآلهة وبالأبطال أنصاف الآلهة ، سجلات للحوادث الدنيوية وتفاسير عقلية لعلل هذه الحوادث ونتائجها . وقد بدأت هذه العملية بهكاتيوس ، وتقدمت على يد هيرودوت ، وبلغت غايتها على يد توكيديدس .

ويرتبط فقر النثر اليونانى قبل هيرودوت بهزيمـــة ميليتس وتغلب المغيرين عليها وفقرها فى العصر الذى بدأ فيه النثر . ذلك أن الاضمحلال الداخـــلى قد عهد السبيل للفاتحين كما جرت العادة فى مختلف العصور ، وقد كان ازدياد الثراء وانتشار الترف سبباً فى انغماس الناس فى الملاذ ، وبدت الرواقية والوطنية فى نظر الناس من المبادئ العتيقة السخيفة ؛ وجرت على ألسنة اليونان تلك العبارة التى يسخرون بها من أهل ميليتس : « لقد كان الميليذيون شجعانا فى يوم من الأيام(٢٨) » . واشتدت المنافسة بين الأهلين للحصول على طيبات الحياة حين فقد الإيمان القديم قدرته على تخفيف النزاع بين الطبقات ببث مبادئ الرحمة والعدالة فى

(*) وهى مشتقة من histor أو istor ومعناها عارف ، وهى تيسير فى النطق لكلمة jd - tor المأخوذة من Id فى eldenael بمعنى يعرف . قارن هذا أيضاً بكلمة wit الإنجليزية فى wisdom . وكلمة Story اختصار لكلمة hitory .

نفوس الأقوياء والسلوى فى نفوس الضعفاء ؛ وأصبح الأغنياء وهم عماد الدكتاتورية الأجاركيـــة حزباً متحداً يقف فى وجه الفقراء المطالبين بالدمقراطية ؛ ولكن الفقراء استولوا على زمام الحكم ، وطردوا الأغنياء من البلاد ، وجمعوا من بقى من أبناء الأغنياء فى أماكن الدراس ، وأطلقوا عليهم الثيران فداستهم بأقدامها وقضت عليهم جميعاً . ثم عاد الأغنياء وقبضوا على أزمة الحكم وطلوا جلود زعماء الدمقراطية بالقار وأحرقوهم أحياء[٣٩] ؛ وستقال عنا هذه القصة فى مستقبل الأيام . ولما شرع كروسس فى عام ٥٦٠ يخضع إلى حكم ليديا ساحل آسية الصغرى اليونانى الممتد من نيدس إلى الهلسپنت (الدردنيل) حافظت ميليتس على استقلالها بامتناعها عن مساعدة أخواتها من الدول اليونانية . ولكن قورش فتح ليديا فى عام ٥٤٦ ولم يجد صعوبة كبيرة فى الاستيلاء على مدن أيونيا التى مزقتها الانقسامات الداخلية ، وضمها إلى الدولة الفارسية ، وانقضى بذلك عصر ميليتس المجيد : إن العلم والفلسفة فى تاريخ الدول يصلان إلى غايتهما بعد أن يبدأ فيها الانحلال ، ذلك أن الحكمة نذير الموت .

٢ – بوليكراتيز الساموسى

على شاطئ الخليج فى مقابل ميليتس ، بالقرب من منافذ نهر الميندر Maeander كانت تقوم بلدة ميوس المتواضعة أشهر مدائن البرينى Priene ، وكان يسكنها فى القرن السادس بياس Bias أحد الحكماء السبعة ، ونقول سبعة وإن كان هرمپوس Hermippus يقول إنهم سبعة عشر ، لأن اليونان اختلفوا فى أسمائهم فوضع كل منهم أسماء غير التى وضعها الآخر . ولكن معظمهم متفقون على طاليس ، وصولون ؛ وبياس ، وپتكوس Pittacus الميليتى ، وپرياندر الكورنثى ، وشيلون Chilon الأسپارطى ، وكليوبولوس Cleobolus اللندى (Lindus) من أعمال رودس . وكانت بلاد اليونان تعظم الحكمة كما

تعظم الهند الدين ، وكما عظمت إيطاليا فى عهد النهضة العبقرية الفنية ، وكما تعظم أمريكا الناشئة بطبيعة الحال المشروعات الاقتصادية . فأبطال اليونان لم يكونوا قديسين أو فنانين أو من أصحاب الملايين ، بل كانوا حكماء ، ولم يكن أجل حكمائهم هم أصحاب النظريات العلمية ، بل كانوا رجالا جعلوا لحكمتهم عملا جدياً نشيطاً فى العالم . وأصبحت أقوال هؤلاء الرجال حكما وأمثالا يتناقلها اليونان ، وكانت فى بعض الأحيان تنقش على جدران معبد أپلو فى دلفى . فقد كان الناس مثلا مولعين بترديد قول بياس ، إن أبأس الناس من لم يعرف كيف يصبر على البؤس ، وإن على الناس أن ينظموا حياتهم كما لو كانوا قد قدر عليهم أن يعيشوا طويلا أو قصيراً ، وإن « الحكمة يجب أن يعتز بها وأن تكون وسيلة للانتقال من الشباب إلى الشيخوخة ، لأنها أبقى من كل ما عداها مما يملكه الإنسان (٤٠) » .

وإلى غرب پرينى تقوم جزيرة ساموس ثانية جزائر أيونيا فى الاتساع . وكانت حاضرتها تقوم على ساحلها الجنوبى الشرقى ؛ وكان الإنســان إذا ما دخل موفأها الأمين ، ماراً بالسفن الحمراء الذائعة الصيت التى يتألف منها أسطول الجزيرة ، شاهد المدينة تقوم أمامه كأنها مشيدة من القرميد على سفح التل . وكان أول ما يشاهده الأرصفة والحوانيت ، ثم يرى بعدئذ البيوت ؛ ثم جصنها القائم على الربوة ، ثم هيكل هيرا العظيم ، ومن وراء هذه كلها سلاسل متتابعة من الجبال والقلل تعلو إلى خمسة آلاف قدم . لقد كان ذلك بلا ريب منظراً يثير الحماسة الوطنية فى قلب كل ساموسى :

ووصلت ساموس إلى أوج عظمتها فى الربع الثالث من القرن السادس تحت حكم پوليكراتيز Polycrates . وقد استطاع هذا الطاغية بفضل المال الذى تدره عليه رسوم المبناء أن يقضى فترة من البطالة كانت تنذر الجزيرة بأوخم العواقب ، فوضع خطة لإقامة منشآت عامة أثارت إعجاب هيرودوت . وكان أعظم مشروعاته نفق فى جبل ينقل الماء إلى المدينة مسافة ٤٥٠٠ قدم . وفى

وسعنا أن نستدل بعض الاستدلال على مهارة اليونان فى الرياضة والهندسة إذا عرفنا أن الثقبين الذين بدأ من اتجاهين متضادين التقيا فى وسط النفق ، وأن الخطأ فى تقديرهم عند التقائهما لم يزد على ثمانى عشرة قدماً فى الاتجاه وعلى تسع أقدام فى الارتفاع(*)(٤١) .

وكانت ساموس مركزاً من مراكز الثقافة قبـل پوليكراتيز بزمن طويل . ففيها عاش إيسوب صاحب الخرافات المشهورة ، وكان عبداً فريجيا للادمون Lodmon اليونانى . وتقول إحدى الروايات التى لم تؤيد بعدُ إن لادمون أعتقه وإن إيسوب سافر كثيراً والتقى بصولون ، وعاش فى بلاط كروسس ، واستولى على الأموال التى كلفه كروسس بتوزيعها فى دلفى ، وإنه لقى حتفه على يد الدلفيين الذين اغتصب مالهم(٤٢) . وكانت خرافاته التى أخذ معظمها من مصادر شرقية منتشرة بين الأثينيين فى عصر بلادهم الأدبى . ويقول أفلوطرخس إن سقراط قد نظمها شعراً(٤٣) ، وإن ما فيها من فلسفة فلسفة يونانية خالصة ، وإن كانت الخرافات نفسها مصوغة فى قالب شرقى : « ما أحلى جمال الطبيعة ؛ والأرض والبحر ، والنجوم وقرصى الشمس والقمر ، وأما ما عدا هـذه فخوف وألم(٤٤) » وخاصة إذا اغتصب الإنسان مال غيره ! ولا نزال حتى الآن نلتقى به فى الڤاتيكان حيث نراه على كوب من عصر پركايز ذى رأس أصاب الصلع نصفه ولحية كلحية ڤانديك Vandyke ، يستمع إلى ثعلب مرح يروى له قصة ذات فائدة له(٤٥) .

وفى ساموس ولد فيثاغورس العظيم ، ولكنه غادرها فى عام ٥٢٩ ليعيش فى كروثونا بإيطاليا . وجاء أنكريوس من تيوس Teos إلى ساموس ليتغنى بمحاسن بوليكراتيز ويرثى له ابنه ؛ وكانت أعظم شخصية فى بلاد بوليكراتيز هى شخصية الفنان ثيودوس Theodorus ليوناردو ساموس ، الذى يعرف

(*) ولا يزيد الخطأ عند التقاء الثقبين فى هذه الايام على بضع بوصات ، وقد لا يكون ثمة خطأ على الإطلاق .

طرفاً من كل شيء ويجيد معظم ما يعرف . ويعزو إليه اليونان — ولعلهم فعلوا هذا بعد بحث وتنقيب — اختراع ميزان الماء ، وزاوية النجار ، والخرطة(٤٦) . وكان ماهراً فى الحفر على الجواهر ، كما كان يحترف صنع الأدوات المعدنية والحجرية والخشبية ؛ وكان مثالا ومهندسا معمارياً ، اشترك في تصميم المعبد الثانى لأرتميس فى إفسوس ، وشاد قبة عظيمة للجمعيات العامة فى اسپارطة ، وساعد على إدخال التماثيل والنماذج الطينية إلى بلاد اليونان ، وشارك ريكوس Rhoecus شرف إدخال صناعة صب البرنز المجوف من مصر أو من أشور إلى ساموس(٤٧) . وكان اليونان قبل ثيودورس يصنعون تماثيل برنزية غير متقنة بتثبيت ألواح من المعدن على « قنطرة » من الخشب(٤٨) ، أما فى أيامه فقد استطاعوا أن يخرجوا من روائع الصناعة البرنزية أمثال راكب العربة فى دلفى وقاذف القرص فى ميرون . واشتهرت ساموس فضلا عن هذا بفخارها ؛ ويثنى پلنى على هذا الفخار بقوله إن كهنة سيبيل لم يكونوا يستخدمون غير شقافة ساموس فى حرمان أنفسهم من رجولتهم(٤٩) .

٣ — هرقليطس الإفسوسى

وعلى الجانب الثانى المقابل لساموس من خليج كايسترا كانت تقوم إفسوس أشهر مدائن أيونيا ، وقد أنشأها حوالى عام ١٠٠٠ ق . م مستعمرون من أثينة . وكان اجتماع تجارة نهرى كايستر وميندر سبباً فى رخاء المدينة . وكان فى أصلها ، وفى دينها ، وفنها ، عنصر شرقى واضح . وكانت أرتميز التى تعبد فيها من بداية أمرها إلى نهايته إلهة شرقية للأمومة والخصوبة . وقد حدثت فى هيكلها العظيم وفيات كثيرة وعاد فيه إلى الحياة خلق لا يقلون فى عددهم عمن ماتو فيه . وقد شيد هيكلها الأول حوال عام ٦٠٠ ق . م فى موضع كان فيه من قبل هيكل قديم ، وأعيد بناؤه مرتين ودمر مرتين ، ولعله كان أول صرح

عظيم شيد على الطراز الأيونى . وشيد الهيكل الثانى حوالى عام ٥٢٠ وقدم كروسس جزءاً كبيراً من المال الذى أنفق فى تشييده ، واشترك فى تصميمه بيونيوس الإفسوسى وثيودورس الساموسى ، ودمتريوس أحد كهنة الضريح . وكان أكبر هيكل يونانى أقيم حتى ذلك الوقت ، وكان بعد بلا نزاع من بين عجائب الدنيا السبع(*) . ولم تشتهر المدينة بهياكلها وحدها ، بل اشتهرت أيضاً بشعرائها ، وفلاسفتها ، وبنسائها ذوات الجلابيب الغالية(٥١) .

وعاش فيها فى ذلك الزمن البعيد أى حوالى ٦٩٠ ق . م كلنوس Callinus أول من نعرف من شعراء المراثى فى بلاد اليونان . وكان أعظم منه قدراً وأقبح منه منظراً هپوناكس Hipponax الذى ألف عام ٥٥٠ قصائد قبيحة فى موضوعها ، غامضة فى ألفاظها ، لاذعة فى فكاهتها ، دقيقة فى وزنها الشعرى ، جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه ، وإفسوس كلها تحقد عليه . وكان قصير القامة نحيل الجسم ، أعرج ، مشوها ، غاية فى قبح المنظر . ويقول فى بعض ما بقى من إحدى قصائده إن المرأة تسبب السعادة للرجل فى يومين — « أحدهما يوم يتزوجها ، والثانى يوم يدفنها(٥٢) » . وكان هجاء قاسياً هجا كل عظيم فى إفسوس من أحقر المجرمين إلى أعظم كهنة الهيكل ، ولما عرض المثالان بوپالوس Bupalus وأثنيس Athenis رسماً له مضحكاً لطيفاً ، هجاهما فى شعره هجوا قاذعاً بلغ من القذارة حداً جعله أبقى على الدهر من حجارتهم وأحد من أسنان الزمان .

وكان أعظم أبناء إفسوس كلهم هو هرقليطس الغامض Heracleitus the Obscure

(*) وكانت العجائب الست الأخرى هى حدائق بابل المعلقة ، ومنارة الإسكندرية ، وتمثال رودس الضخم ، وزيوس فيدياس فى أولمپيا ، وقبر موسولس فى هليكرنسس ، وأهرام مصر . ويصف پلنى الهيكل الثانى بقوله إنه يبلغ ٤١٥ قدماً فى الطول ، ٢٢٥ قدماً فى العرض ، وإن به ١٢٧ عموداً يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدماً — وكان بعضها مزداناً أو مشوهاً بالنقوش(٥٠) . وقد تم بناء هذا الهيكل فى عام ٥٢٠ ق . م بعد كدح دام قرناً كاملا ، ثم احترق وتهدم فى عام ٣٥٦ ق . م .

وقد ولد فى عام ٥٣٠ من أسرة نبيلة ، ولذلك كان يرى أن الدمقراطية نظام خاطئ . ومن أقواله فى هذا المعنى (١١١(*)) : « إن الفاسدين كثيرون والصالحين قلائل » و « عندى أن رجلا واحداً خير من عشرة آلاف إذا كان هو أحسنهم » (١١٣) . ولكن الأشراف أنفسهم لم يعجبوه ، كما لم يعجبه العلماء والنساء . وقد كتب فى هذا المعنى خاصة بعبارة طريفة هى : « إن العلم الكثير لا يكون العقل ، ولو كان يكونه لأفاد هزيود ، وفيثاغورس ، وزنوفانيز ، وهكاتيوس » . (١٦) « لأن الحكمة الحقة الوحيدة هى معرفة الفكرة التى تسيطر بنفسها على كل شىء فى جميع الأحوال » (١٩) . ثم خرج ، كما كان يخرج حكماء الصين ، ليعيش فى شعاب الجبال ، ويجيل العقل فى الفكرة الوحيدة التى يستطيع بها أن يفسر كل شىء . وترفع عن شرح ما هداه إليه تفكيره فى ألفاظ يفهمها عامة الناس ، وأخذ يطلب فى غموض الحياة وغموض الأقوال ملجأ يعصمه من متابعة الأحزاب والعامة الذين يقتلون الفردية ، ولذلك أخذ يعبر عن آرائه فى أمثال جامعة غامضة فى الطبيعة ، أودعها هيكل أرتميز لتحير عقول الخلف .

وقد صُوِّر هرقليطس فى الأدب الحديث بأنه يقيم فلسفته حول فكرة التغير ، ولكن من الصعب علينا أن نجد القليل الباقى من هذه الفلسفة ، ما يؤيد هذا التفسير . وقد كان يتوق كما يتوق معظم الفلاسفة للكشف عن الواحد المستتر وراء الكثرة ، وعن وحدة تثبت العقول ، ونظام بين ما فى العالم من زحام وفوضى وكثرة . وقد قال فى هذا المعنى قولا لا يقل قوة وحماسة عن قول پرمنيدز Parmenidez (١) إن الأشياء كلها وحدة » ؛ والمشكلة التى تواجهها الفلسفة هى أن تعرف ما هى هذه الوحدة . ، قد أجاب هرقليطس عن هذا السؤال بأنها

(*) تشير الأعداد التى بين الأقواس [illegible] من أقوال هرقليطس كما [illegible] Bywater .

هى النار . ولعله كان فى هذا الجواب متأثراً بعبادة الفرس للنار . وأكبر الظن أنه كان يستعمل هذا اللفظ استعمالا رمزياً وحرفياً معاً ، ويقصد به الطاقة كما يقصد به النار نفسها ، كما نستدل على هذا من جمعه بين النار والنفس والله فى معنى واحد . على أننا ليس فى وسعنا أن نقطع برأى فى هذا بالاستناد إلى القليل الباقى من فلسفته . انظر مثلا إلى قوله : « إن هذا العالم ... لم يصنعه إله ولا إنسان ، ولكنه كان منذ الأزل ، وهو كائن ، وسيكون ، ناراً حية أزلية ، توقد بقدر ، وتنطفئ بقدر » . (٢٠) وكل شىء صورة من صور النار ، فهو إما فى « طريق » النار « إلى أسفل » فى تكثفها المتتابع إلى رطوبة ، فماء ، فأرض ؛ أو إلى « طريقها إلى أعلى » من الأرض ، إلى الماء ، إلى الرطوبة(*) ، إلى النار(٥٤) » .

ومما يضايق هرقليطس فى النار الخالدة أنها تتبدل تبدلا لا يقف عند حد وإن كان يجد فيها ثباتاً يخفف عنه ما يسببه هذا التبدل من ضيق ؛ والمحور الثانى الذى يدور حوله تفكيره هو أبدية « هذا التبدل ووجوده فى كل شىء ، فهو لا يجد قط شيئاً جامداً فى الكون أو فى العقل أو فى النفس ؛ فلا شىء كائن بل

(*) وربما كان فى عقل هرقليطس شىء يشبه نظرية السديم ، على النحو الآتى : يبدأ العالم ناراً ، (أو حرارة أو طاقة) ، ثم تستحيل غازاً أو أبخرة ، تتكثف وتسقط ماء ، وتتكون من رواسبها الكيميائية بعد أن تتبخر المواد الصلبة التى فى الأرض(٥٥) ، والماء والأرض (أى السوائل والأجسام الصلبة) مرحلتان من عملية واحدة وصورتان من حقيقة واحدة (٢٥) . « الأشياء جميعها تتحول إلى نار ، والنار تتحول إلى جميع الأشياء » (٢٢) . وكل التغيرات « طريق إلى أسفل أو إلى أعلى » أى انتقال من إحدى صور الطاقة أو النار إلى صورة أخرى منها ، تارة أكثر منها تكثفاً وطوراً أقل — . والطريق إلى أعلى أو إلى أسفل واحد لا يتغير » (٦٩) . والتلطيف والتكثيف حركتان فى دورة دائبة من التغير ؛ والأشياء كلها تتكون فى طريق الحقيقة إلى أسفل وهو طريق التكثف أو طريقها إلى أعلى وهو طريق التلطيف من النار ثم تعود مرة أخرى إلى النار ، والأشكال جميعها صور من طاقة واحدة كامنة وراءها . وقد عبر اسپنوزا عن هذا بقوله : إن النار أو الطاقة هى المادة الخالدة الموجودة فى كل مكان أو هى المبدأ الأساسى . والتكثيف والتلطيف (الطريق إلى أسفل أو إلى أعلى) هما خاصتان . وصورها الخاصة أو أساليبها هى الأشياء الظاهرة فى العالم .

كل شيء صائر ، وليس ثمة حالة تبقى على حالها دون أن تتغير ، حتى فى أقصر اللحظات ؛ فكل شيء دائب على الخروج عن حاله التى هو عليها ، صائر إلى ما سيكون عليه . وتلك حال جديدة من حالات الفلسفة تلقى من هرقليطس عناية وتوكيداً ، فهو لا يقتصر (كما يقتصر طاليس) على السؤال عن ماهية الأشياء فى حاضرها ، ولكنه يسأل كما يسأل أنكسمندر ، ولكريشيوس ، واسپنسر عن الطريقة التى أدت بها إلى ما هى عليه . وهو يشير ، كما يشير أرسطو ، إلى أن دراسة الحالة الثانية هى خير طريقة تعرف بها الأولى . ولسنا نجد فيما بقى لدينا من أمثاله المثل القائل : « كل شيء يسير ، ولا شيء يسكن » (Panta rei,ouden menei) ، ولكن الأقدمين على بكرة أبيهم يعزون هذا المثل إلى هرقليطس[٥٦] : « إنك لا تستطيع أن تخطو خطوتين فى نهر واحد ، لأن مياهاً أخرى لا تنفك تجرى إليك (٤١) ». « نحن كائنون ونحن غير كائنين » (٨١) ؛ والكون عنده كما هو عند هيجل صيرورة كبرى . والتضاعف ، والاختلاف ، والتغير حقائق لا تقل فى ذلك عن الوحدة ، والذاتية ، والكينونة ؛ والتعدد حقيقة لا تقل فى ذلك عن الوحدة[٥٧] . فالتكثرة هى الوحدة ؛ وكل تغير ما هو إلا انتقال الأشياء نحو حالة النار أو منها إن الوحدة هى الكثرة ، وفى قلب النار نفسها يخفق التغير الذى لا يستقر أبداً (*) .

ومن هنا ينتقل هرقليطس إلى العنصر الثالث من عناصر فلسفته — وهو وحدة الأضداد ، واعتماد المتناقضات بعضها على بعض ، وائتلاف النزاع . « الله هو الليل والنهار ، والشتاء والصيف ، والحرب والسلم ، والتخمة والجوع » (٣٦) . والخيِّر والشرير واحد ، وكذلك الخير والشر » (٥٧—٥٨) « والحياة والموت شيء واحد ، وكذلك اليقظة والنوم ، والشباب والشيخوخة » (٧٨) لأن هذه

(*) على القارئ أن يذكر على الدوام أن هرقليطس هو الفيلسوف الغامض !

الأضداد كلها مراحل فى حركة متقلبة ، ولحظات فى النار الدائمة التغير ؛ وكل فرد فى الزوجين المتضادين لا غنى عنه لمعنى الآخر ووجود ، والحقيقة هى توتر الأضداد وتفاعلها وتبادلها وتغيرها ووحدتها وانسجامها . « وهم لا يفهمون كيف يتفق مع نفسه ما يختلف مع نفســـه . وهنا يكون تطابق التوترات المتضادة ، كتطابق قوس الرامى ووتر القيثارة » . (٤٥) فكما أن وتر الآلة الموسيقية إذا أرخيته أو شددته أحدث التآلف فى الذبذبة الذى نسميه موسيقى أو نغمة ، فكذلك تبادل الأضداد وتنازعها يخلق جوهر تآلف الحياة والتغير ومعناهما . وفى النزاع القائم بين كائن حى وكائن حى ، بين رجل ورجل ، وبين رجل وامرأة ، وبين جيل وجيل ، وبين طبقة وطبقة ، وبين أمة وأمة ، وبين فكرة وفكرة ، وبين عقيدة وعقيدة ، تكون الأضداد المحتربة هى اللحمة والسدى على نول الحياة ، تعمل كل منها لغاية تناقض التى تعمل لها الأخرى ، لتنتج وحدة الكل غير المنظورة واتفاقه المخبوء . وأجمل التطابق ماكان بين الأشياء التى تختلف » (٤٦) ؛ وليس هذا المعنى بخاف على كل عاشق

وهذه المبادئ الثلاثة جميعها — النار والتغير ووحـــدة التوتر فى الأضداد — تدخل كلها فى فكرة هرقليطس عن الروح والله . وهو يسخر من الذين « يسعون عبثاً ليطهروا أنفسهم من خفايا الدم بتدنيس أنفسهم بالدم » (١٣٠) ، ومن الذين يُصَلُّون إلى التماثيل القائمة هنا — ولا فرق بين من يفعل هـــذا وبين من يخاطب البيوت ؛ إن هؤلاء الناس لا يعرفون قط شيئاً عن طبيعة الآلهة الحقة » (١٢٦) . وهو لا يوافق فكرة الخلود الشخصية ، ويقول إن الإنسان أيضاً ، ككل شىء آخر ، لهب كثير التغير كثير التقلب ، « يشتعل ثم ينطفئ كالضوء فى الليـــل » (٧٧) . والإنسان فى هذه الحالة نفسها ، نار ؛ والنفس ، أو المبدأ الحيوى فى الإنسان ، جزء من الطاقة الخالدة فى الأشياء جميعها ؛ وهى بهذا الوصف لا تموت أبداً ، والموت والميلاد نقطتان حددهما العقل البشرى المحلل

للأشياء تحديداً تعسفياً ؛ ولكنهما من وجهة نظر الكون النزيهة الخالية من التحيزات لا تعدوان أن تكونا صورتين من صور تغير الأشكال التى لا تقف عند حد ؛ ففى كل لحظة من اللحظات يموت جزء منا ، ويعيش الكل ، وفى كل ثانية يموت واحد منا وتبقى الحياة . والموت بداية كما هو نهاية ؛ والمولد نهاية كما هو بداية . وألفاظنا ، وأفكارنا ، وحتى أخلاقنا نفسها ، نزعات وأهواء ، وتمثيل لمصالحنا مجزأة أو مجتمعة ؛ ومن واجب الفلسفة أن تنظر إلى الأشياء الفردية فى ضوء المجموع . « والأشياء كلها عند الله جميلة طيبة ، حقة ؛ ولكن الناس يرون بعض الأشياء خطأ ويرون بعضها صواباً » (٦١)

وكما أن الروح لسان عابر من لهب الحياة المتغير إلى أبد الدهر ، فكذلك الله هو النار الخالدة الأبدية ، هو طاقة العالم التى لا تفنى أبداً . وهو الوحدة التى تربط جميع الأضداد ، وهو الانسجام الكائن بين جميع التفاعلات ، وهو جماع المعانى فى كل المشاحنات . وهذه النار المقدسة كالحياة (لأن كلتيهما توجد فى كل مكان ، وهما شىء واحد) تغير شكلها على الدوام ولا تنفك تنقل إلى أعلى أو أسفل على سلم التغير ، ولا تفتأ تبيد الأشياء وتعيد صنعها ؛ والحق أن سيأتى يوم بعيد « تحكم فيه النار على جميع الأشياء وتدينها » ، (٢٦) تهلكها وتمهد السبيل لأشكال جديدة ، فى يوم الحساب الأخير ، أو يوم الكارثة الكونية . بيد أن أعمال النار الخالدة ليست خالية من المعنى أو مجردة من النظام ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم العالم مجتمعا ، لرأينا فيه حكمة عظيمة غير شخصية ، علما أو عقلا أو كلمة (٦٥) ؛ ومن واجبنا أن نحاول تشكيل حياتنا بحيث تتفق مع هذه السُّنة من سنن الطبيعة ، وهذا القانون العالمى ، هذه الحكمة أو الطاقة المنظمة التى هى الله (٩١) . « إن من الحكمة ألا تستمعوا إلىَّ بل إلى الكلمة » (١) ، وأن تبحثوا عن العقل اللانهائى للكل وتتبعوه .

وحين يطبق هرقليطس على الأخلاق هذه القواعد الأربع الأساسية من أفكاره — الطاقة ، والتغير ، ووحدة الأضداد — وعقل الكل — ينير بعمله هذا سبيل الحياة كلها والسلوك كله . فالطاقة إذا سيطر عليها العقل ، واقترنت بالنظام ، نشأ عنها أعظم الخير . وليس التغير شرا بل هو خير وبركة ؛ «وفى التغير يجد الإنسان الراحة ؛ والإنسان يمل الكدح الدائم فى الأشياء نفسها والبدء دائماً من جديد» (٧٢ — ٧٣) . وحاجة الأضداد بعضها إلى بعض تجعل نزاع الحياة وآلامها شيئاً معقولا يمكن فهمه وغفرانه . «ليس حصول الناس على كل ما يرغبون فيه هو أحسن الأشياء ؛ فالمرض هو الذى يجعل الصحة سارة حلوة ؛ والشر هو الذى يفهم به الإنسان الخير ، والجوع هو الذى يفهم به الشبع ، والكدح هو الذى يفهم به الراحة» (١٠٤) . وهو يلوم الذين يرغبون فى القضاء على ما فى العالم من نزاع (٤٣) ؛ فبغير تشاد الأضداد لا يكون هناك تآلف ، ولا ينسج نسيج حى ولا يحدث تطور . وليس الانسجام هو القضاء على النزاع وإنما هو تشاد لا ينتهى بانتصار عنصر على عنصر ، بل يعمل فيه العنصران دون أن يستغنى كلاهما عن الآخر (كتطرف الشباب وتحفظ المشيب) ، وتنازع البقاء ضرورى لكى ينفصل الأطيب عن الأخبث ، وينشأ الأعلى . والنزاع والد كل شىء ومَلِك كل شىء ، وقد اختار البعض ليكونوا آلهة ، والبعض ليكونوا رجالا ؛ وجعل البعض عبيدا ، والبعض أحرارا» (٤٤) . وفى النهاية يكون التنازع هو «العدالة» (٦٢) . وتنافس الأفراد ، والجماعات ، والأنواع ، والأنظمة ، والإمبراطوريات يكوِّن محكمة الطبيعة العليا ، التى لا يستأنف حكمها ولا ينقض .

وفلسفة هرقليطس فى جملتها ، كما تجمعها لنا الآن مائة وثلاثون جذاذة متفرقة ، تعد من أعظم نتاج العقل اليونانى . وقد انتقلت نظرية النار المقدسة منها إلى الرواقية ؛ كما انتقلت منها فكرة النار الأخيرة إلى المسيحية بطريق الرواقية ،

وكما صارت الكلمة أو عقل الطبيعة فى اللاهوت المسيحى هى الكلمة الإلهية ، أو الحكمة المجسدة التى يخلق الله بها الأشياء كلها ويحكمها . وقد مهدت هذه الفلسفة إلى حد ما لفكرة القانون الطبيعى فى الفلسفة الحديثة ؛ وأصبحت الفضيلة بوصفها إطاعة الطبيعة شعار الرواقية ؛ وانتعشت وحدة الأضداد انتعاشاً قوياً فى فلسفة هيجل ، واستردت فكرة التغير فى فلسفة برجسن Bergson ما كان لها من قوة ، وعادت إلى الظهور فكرة التنازع والكفاح المحددة لجميع الأشياء ، فى فلسفة دارون ، واسپنسر ، ونتشه — وقد واصل آخرهم حرب هرقليطس ضد الدمقراطية بعد أربعة وعشرين قرنا — .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياة هرقليطس ؛ ولا نعرف عن موته إلا قصة لا سند لها رواها ديوچنيس ليرتس توضح لنا ما قد تنتهى إليه حياة النوابغ الأفذاذ . ذلك أنه أصبح أخيراً شديد الكره للإنسانية ، فكان يقضى وقته يضرب فى الجبال يقتات بالعشب والنبات ، فأصابه بسبب هذا داء الاستسقاء ، وعاد إلى المدينة يسأل الأطباء ويحاورهم هل يستطيعون أن يحدثوا الجفاف بعد الجو الرطب ؟ ولما لم يفهموه حبس نفسه فى حظيرة ثيران ، وغطى نفسه بروث البقر ، لعل الرطوبة تتبخر منه بما يحدثه هذا الروث من دفء ، ولكن عمله هذا لم يفده شيئاً ، ومات بعد أن عاش من العمر سبعين عاماً (٥٨) .

٤ — أنكريون التئوسى

تقوم كلوفون Colophon على مسيرة بضعة أميال من إفسوس ، ولعل اسمها مأخوذ من اسم التل الذى تقوم على جانبه (*) وقد ولد فيها حوالى ٥٧٦ ق.م .

(*) من لفظ Kolophon اليونانى ومعناه تل ويقابل باللاتينية collis وبالإنجليزية hill ولما كان فرسان المدينة قد اشتهروا بإجهازهم على قوى العدو المنهزم ، فقد أصبحت كلمة —

زنوفانيز الذى كان يبغض الكهنة ، وقد وصف مواطنيه بأنهم « يلبسون الثياب الأرجوانية الفاخرة ، ويعجبون بشعورهم المصففة المضمخة بالزيوت العطرة الغالية » ؛ إن للزهو بلا شك تاريخاً طويلا[٦٠] . وكان الشاعر ممنرموس Mimnermus (٦١٠) يغنى فى هذه المدينة . ولعله كان يغنى أيضاً فى أزمير ، لأقوام سرى فيهم تشاؤم الشرق الواهن بأغانيه الحزينة عن الشاب والحب القصيرى الأجل . وشغف حباً بنانو Nanno الفتاة التى كانت توقع أغانيه على نغمات الناى الحزينة ، ولما لم تستجب إلى حبه (ولعل سبب امتناعها اعتقادها أن الشاعر إذا تزوج مات) خلد اسمها فى قصيدة من الشعر الرثائى العذب الرقيق .

« نحن نزهر كأوراق الربيع ، حين تبدأ الشمس تتوهج وتلتهب ، وفى مسرات الشباب القصيرة الأجل لا نعرف من الآلهة خيراً ولا شراً ، ولكن الأرواح السوداء تقف دائماً عند الهدف ، تمسك فى يدها عمراً واحداً محزناً وموتاً واحداً[٦١] » .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت كان شاعر آخر أعظم شهرة من أنكريون يعيش فى مدينة تئوس القريبة من كلوفون ، ذلك هو أنكريون . وكان هذا الشاعر كثير الأسفار ولكنه ولد فى أنكريون (٥٦٣) وتوفى فيها (٤٧٨) . وقد دعاه كثير من الملوك ليعيش فى بلاطهم لأنه لم يكن ينافسه فى بعد الصيت أحد من معاصريه إلا سمنيدس وحده . ونشهده منضماً إلى جماعة من المهــاجرين إلى أبدرا Abdera فى تراقية ، وينخرط فى سلك الجندية ، ويحارب فى سلسلة أو سلسلتين من المعارك : ثم يترك درعه فى الميدان كما كان يفعل الشعراء فى زمانه ، ولا يستل بعدئذ إلا قلمه ، ثم يقضى بضع سنين فى بلاط پوليكراتيس فى ساموس ؛ وجىء به من هناك فى موكب رسمى فخم ، ليزدان به قصر هيباركس فى أثينة ، ثم عاد آخر

— Kolophon فى اللغة اليونانية مرادفة لعبارة الضربة القاضية ؛ ولما انتقلت إلى اللغة الإنجليزية أضحت رمزاً للناشرين كانوا يضعونها أولا فى نهاية الكتاب .

الأمر إلى تئوس بعد الحرب الفارسية ليخفف عن نفسه العناء فى شيخوخته وضعفه بالغناء والشراب . وكان جزاؤه على إفراطه فى ملذاته أن عمر طويلا حتى بلغ الخامسة والثمانين من عمره ؛ وكان سبب موته على ما نقل إلينا الرواة أن وقفت بذرة عنبة فى حلقه(٦٢) .

وقد عرفت الإسكندرية خمسة من كتب أنكريون ولكن لم يبق من أشعاره إلا بضعة أبيات مزدوجة . وكانت موضوعات شعره هى الخمر ، والنساء ، والغلمان ، وكان يلجأ فيه إلى المزاح اللطيف يصوغه فى البحر العمبقى (iambic) الخفيف « وأيا كان الموضوع الذى يطرقه فإنه لا يبدو للقارئ بذيئاً أو غليظاً لأنه يصوغه فى ألفاظ عفة وشعر رقيق . ولم يكن أنكريون مثل هپوناكس ذا ألفاظ بذيئة حادة ، أو مثل سافو فى شدتها ، بل كان شاعر بلاط يعرض ثرثرته المهذبة الرقيقة على من يشتريها ، ويمتدح كل ملك يعجبه ويبتاع له خمره . ويظن أثنيوس أن أغانيه الخمرية ، وتقلبه فى عشقه ، كانت كلها تصنعاً(٦٣) ؛ ولعل أنكريون كان يخفى وفاءه لكى يحظى بإعجاب النساء به ، كما كان يخفى اعتداله فى الشراب لنزيد بذلك شهرته . وثمة قصة لطيفة تروى كيف صدمت قدمه وهو ثمل طفلا صغيراً فانهال عليه سباً بأقذع الألفاظ ، ثم أحب فى شيخوخته هذا الغلام نفسه وكفر عن ذنبه بأن أخذ يكيل له المدح(٦٤) . وكان لا يفرق فى عشقه بين الذكور والإناث ، بل يحب الجنسين على السواء ، ولكنه لما كبر دفعته شهامته إلى تفضيل الإناث على الذكور . وقد جاء فى بعض ما بقى لنا من شعره : « أنظر الآن ، إن الحب ذا الشَّعر الذهبى يضربنى بكرته الأرجوانية ، ويدعونى لكى ألعب مع فتاة ذات حذاءين متعددى الألوان ، ولكنها تسكن لسبوس الشامخة ، ولا يعجبها شعرى الأبيض وتذهب لتبحث لها عن ضحية أخرى(٦٥) » . وقد كتب أحد الكتاب الفكهين الذى عاش بعد عصره قبرية تكشف عن حقيقة أمره قال فيها :

« الشجرة الساحرة يا ربيبة الخمر ، يا كرمة ، أينعى وطولى فوق قبر أنكريون حتى يستطيع الصاحب الثمل صديق الشراب الصافى ، الذى كان يقضى الليل الطويل يقصف ويطرب وينشد على نغمات العود أغانى حب الغلمان ، حتى يستطيع ذلك الصاحب الثمل أن يعبث بما فوق رأسه المدفون من عناقيد غصن ملىء مثقل ، وحتى لا ينفك يبتل برضاب الندى الذى لم يكن شذاه الذكى إلا أنفاساً تخرج من فم الرقيق حين كبر[٦٦] .

٥ ـ طشيوز ، أزمير ، فوسيا

تمتد أرض اليونان الاصلية من تئوس نحو الغرب فى خلجان ونتوءات أرضية متتالية ، حتى إذا قطع المسافر فى البحر عشرة أميال وصل إلى طشيوز Chios(*) . وليس ببعيد أن يكون هومر قد قضى شبابه فى هذه الجزيرة بين غياض التين والزيتون والكروم الأنكرونية . وكان عصر الخمر من الصناعات الكبرى فى طشيوز ، وكان يشتغل به عدد كبير من الرقيق ؛ فقد كانت الجزيرة فى عام ٤٣١ تضم ٣٠,٠٠٠ من الأحرار ، ١٠٠,٠٠٠ من الأرقاء[٦٧] ، وأصبحت على مر الزمن سوقاً كبرى للنخاسة ، فكان النخاسون يبتاعون من الدائنين أبناء من عجزوا عن الوفاء بديونهم ، ويبتاعون الغلمان ليجعلوهم خصياناً يخدمون فى قصور ليديا وفارس[٦٨] .

وفى القرن السادس ثار الأرقاء بزعامة زميلهم درمكوس Drimachus وهزموا جميع الجيوش التى أرسلت للقضاء عليهم ، واعتصم قائدهم بمكان منيع فى الجبال وفرض الإتاوات على الأغنياء من أهل الجزيرة ، ونهب أموال من يرى أن أموالهم خليقة بأن تنهب ، وعرض عليهم « حمايته » نظير جعل معين كما يحدث

(*) هذا هو الاسم التركى لهذه الجزيرة ولا تزال تعرف به الآن . (المترجم)

عندنا(*) فى هذه الأيام ، وأرغمهم بجبروته على أن يعاملوا عبيدهم معاملة أقرب إلى العدل من معاملتهم السابقة ، وقُطع رأسه باختياره وأوصى بأن يعطى لجماعة من أصدقائه حتى يحق لهم أن يطالبوا بالمكافأة التى وعد بها من يأتى به ، وظل مئات من السنين بعد موته يعد نصير الأرقاء والإله الحامى لهم(٦٩) ؛ وتلك حياة ما أجدرها أن تكون ملحمة طيبة يتغنى بها كاتب ثورى مثل حياة اسپارتكوس . وازدهرت الآداب والفنون بين أحضان الثروة والرق فى طشيوز . وكانت الجزيرة مركز الهومريين وهم رابطة من الشعراء المتتابعين ، وفيها ولد أيون Ion الكاتب المسرحى ، وتيوپومپوس Theopompus المؤرخ . وهنا كشف جلوكوس Glaucus (كما تقول الرواية المتواترة) حوالى ٥٦٠ صناعة طرق الحديد المحمى ، وهنا صنع أركرموس Archermus وولداه بوپالوس وأثنيس أجمل ما صنع من التماثيل فى القرن السادس فى بلاد اليونان .

وإذا عاد المسافر بعدئذ إلى أرض اليونان الأصلية مر بمواقع إريثرا Erythra وكلازومينى Clazomenae — مسقط رأس أنكسجراس Anaxagoras معلم پركليز وصديقه . وبعدها من جهة الشرق على خليج صغير أمين تقع مدينة أزمير التى استقر فيها الإيوليون من زمن بعيد يرجع إلى عام ١٠١٥ ق . م(٧٠) ، ثم استحالت بالهجرة والفتح مدينة أيونية . وكانت مدينة واسعة الشهرة فى أيام أخيل ، وقد نهبها ألياتس Alyattes الليدى حوالى عام ٦٠٠ ق . م ، ودمرت بعد ذلك مراراً ، كان آخرها فى عام ١٩٢٤ م على أيدى اليونان أنفسهم . وتنافس أزمير دمشق فى قدم عهدها وطول حياتها ، وقد ذاقت صروف الزمان حلوها ومرها على السواء(**) . ويدل ما بقى من مبانى المدينة القديمة على ثرائها

(*) يريد فى أمريكا .

(**) إن اسم المدينة القديم أزميرنا Smyrna واسمها الحديث أزمير يرتبطان فى أغلب الظن بتجارة المر . وهى ثانى مدينة فى تركيا من حيث تعداد السكان وأكبر مدينة فى آسية الصغرى .

وتنوع الحياة فيها ، فقد كشف فى أرضها عن ملعب رياضى ، وحصن ، ومضمار للركض ، ودار للتمثيل . وكانت طرقاتها واسعة جيدة الرصف تزينها الهياكل والقصور ، وكان شارعها الرئيسى ، المعروف بالذهبى ، مشهوراً ذائع الصيت فى بلاد اليونان بأجمعها .

وكانت أبعد المدن اليونانية شمالا مدينة فوقية Phocaea ، ولا تزال قائمة إلى اليوم يطلق عليها اسم فوقية Fokia ؛ وكان نهر هرمس يكاد يصلها بسرديس نفسها فأكسبها هـذا الاتصال مزية عظيمة فى تجارة اليونان مع ليديا ، وكان التجار الفوقيون يسافرون أسفاراً بعيدة بحثاً عن الأسواق ، وهم الذين حملوا الثقافة اليونانيـة إلى قورسقة Corsica وأسسوا مرسيليا .

تلك هى مدائن أيونيا الاثنتا عشرة ألقينا عليها نظرة عاجلة كأنا نطوف بها فى رحلة جوية خلال الزمان والفضاء . لقد كان ما بين هذه المدائن من تنافس وتحاسد مانعاً لها من أن تكون فيما بينها وحدة تعينها على الدفاع المشترك ، ولكن أهلها مع ذلك كانوا يعترفون بما بينهم من تضامن واتفاق فى المصالح ، وكانوا يجتمعون فى مراسم معينة فى ميكالى Mycale ، الأكمة الممتدة فى البحر عند پرين Prien ، فى عيد جميع الأيونيين Paniomium العظيم . وقد طلب إليهم طاليس أن يؤلفوا منهم جامعة يكون فيها كل ذكر رشيد مواطناً فى مدينته وفى الاتحاد الأيونى ، ولكن التنافس التجارى كان أقوى من أن يسمح بقيام هذه الجامعة ، بل إنه بدل أن يؤدى إلى الوحدة السياسية أدى إلى التقاتل والتطاحن ، ولما أن أقبل الفرس غازين فاتحين (٥٤٦ — ٥٤٥) واتحدت تلك المدائن إتحاداً مرتجلا للدفاع عن نفسها ، كان هذا الاتحاد ضعيفاً واهى الأساس ، فلم تلبث المدن الأيونية أن دانت لسـلطان الملك العظيم . على أن ما كانت تنطوى عليه قلوب

الأهلين من نزعة الاستقلال والتطاحن قد بعث فى نفوس الجماعات الأيونية حب التنافس والحرص الشديد على الجرية .

وتلك هى الظروف التى نمت فيها فى أيونيا العـلوم ، والفلسفة ، والتاريخ ، ونشأت فيها العاصمة الأيونية ، ووجد فيها فى الوقت نفسه الشعراء الكثيرو العدد الذين جعلوا القرن السادس فى هيلاس يبدو خصيباً كالقرن الخامس . ولما أن سقطت أيونيا خلفت وراءها ثقافتها فورثتها أثينة التى حاربت الدفاع عنها ، كما انتقلت إليها الزعامة العقلية لبلاد اليونان جميعها ؟

الفصل الخامس

سافو اللسبوسية

وفى أعلى المدن الأيونية الاثنتى عشرة تقوم المدن الإيولية الاثنتا عشرة فى الأرض القارية التى يسكنها الإيوليون والآخيون الذين وفدوا من شمالى بلاد اليونان ، بعد أن افتتحت آسية الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة . وكانت كثرة هذه المدن صغيرة ، وكان شأنها فى التاريخ صغيراً كذلك . غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الأيونية فى الثروة ، والرق ، والعبقرية الأدبية . وكانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقة من البساتين والكروم ؛ وكانت متلينى أكبر مدائنها الخمس ، وكانت تجارتها سبباً فى ثرائها العظيم الذى لا يكاد يقل عن ثراء ميليتس ، وساموس ، وإفسوس . وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء فى أواخر القرن السابع ، وانتزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس Bitacus الشجاع الفظ حاكماً بأمره مدة عشر سنين ، ووضعوا فى يديه من القوة مثل ما كان فى يدى صديقه وزميله الحكيم صولون . وأخذ الأشراف يأتمرون ليستعيدوا سلطانهم ، ولكن پتاكوس رد كيدهم فى نحرهم ، ونفى زعماءهم ومنهم ألكيوس Alcaeus وسافو ، فأخرجهم أولا من متلينى ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر .

وكان ألفيوس ثائراً صخاباً ، خلط السياسة بالشعر ، فكانت كل قصيدة من قصائده مثاراً للفتنة والثورة . وكان شريف المحتد ، وهاجم پتاكوس بكل ما فى اللغة من بذاءة استحق عليها النفى من البلاد . وقد صطنع هو بحوره الشعرية التى أسماها من جاءوا بعده « ألفيوس » ؛ ويقال لنا إن كل مقطوعة فى شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها . وقد غنى بعض الوقت فى الحرب ،

ووصف بيته بأنه مزدان بالغنائم الحربية والدروع العسكرية . غير أنه لما سنحت له الفرصة التى كان يستطيع أن يظهر فيها بطولته ، ألقى بدرعه ، وفر كما فر أركلوكس من قبله ، وأخذ يمتدح نفسه لحصافته الباسلة . وقد غنى أحياناً فى الحب ، ولكن أحب الموضوعات التى كتب فيها إلى نفسه كان موضوع الخمر التى اشتهرت بها لسبوس شهرتها فى الشعر . وهو ينصحنا بأن نعب الخمر عباً ، وأن ننقع بها غليلنا فى الصيف ، وأن نستقبل بها الموت بلا رهبة فى الخريف ، وأن ندفئ بها دماءنا فى الشتاء ، ونحتفل بها ببعث الطبيعة فى الربيع .

ينزل مطر زيوس ، وفى السموات العلا تثور العاصفة ،
ويمسك البَرْد بقبضته الثلجية مجارى الماء .
إذن فقم ! وتغلب على الشتاء ، وأشعل النار عالية ، عالية —
وامزج الخمر الكثيرة حلوة كشهد النحل ؛
ثم اشربها ولفاعة الصوف المريحة قد لفت حول صدغيك .
إن علينا ألا نستسلم للأحزان أو نضنى أجساماً بكثرة
المشاغل التى تذهب بقوانا ؛
لأن الحزن يا صاح لا يعود علينا بأقل نفع ،
ولا يصلح حالنا بأى حال ؛
أما خير دواء لنا
فهو الخمر نطرد بها الأفكار(٧٢)(*)

ولقد كان من سوء حظه — وإن كان قد تحمل هذه الكارثة بصدر رحب ولم يلق بالا إليها — أن كان بين معاصريه امرأة هى أشهر نساء اليونان أجمعين ، ونعنى بها سافو . وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن

(*) ما أشبه هذه الأقوال بأقوال عمر الخيام . (المترجم)

تموت ، ومن أقوال استبايوس Stobaeus فيها : « وحدث مرة فى مجلس شراب أن أخذ إجزستيديس Execestidez ابن أخى صولون يغنى أغنية من أغانى سافو ، أعجب بها عمه إعجاباً لم يسعه معه إلا أن يأمر الغلام أن يعلمه إياها ، ولما سأله أحد الحاضرين : « لم يطلب هذا الطلب ؟ » أجاب بقوله : « إنى أريد أن أتعلمها ثم أموت !(٧٣) » . وكان سقراط — ولعله كان يرجو مثل ما يرجوه صولون لنفسه — يسميها « الجميلة » ، وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها :

يقولون إن ربات الشعر تسع ، ألا ما أكثر غباءهم
فليعلموا أن سافو اللسبوسية هى العاشرة !(٧٤) .

ويقول استرابون : « كانت سافو امرأة فذة عجيبة ؛ لأنى لا أعرف أن قد وجدت فى جميع العصور التى وصل إلينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ فى قرض الشعر(٧٥) » . وكما أن الأقدمين إذا ذكروا لفظ « الشاعر » فإنما يعنون بهذا اللفظ هومر ، كذلك كان العالم اليونانى كله إذا نطق أمامهم أحد بلفظ « الشاعرة » فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم .

وقد ولدت پسافا Psappha كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الإيولية الرقيقة ، فى إرسوس Eresus من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق . م ، ولكن أسرتها انتقلت إلى متلينى وهى لا تزال فى المهد . وكانت فى عام ٥٩٣ بين الأشراف الذين ائتمروا بپتاكوس والذين نفاهم إلى مدينة پيرا Pyrrha ؛ ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن فى الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة ، وبقول الشعر . ولم تشتهر بجمالها ، فقد كانت صغيرة الجسم ، ضعيفة البنية ، وكان شعرها وعيناها ، وبشرتها أسود مما يحبه اليونان(٧٦) ، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها ، ورقتها ، ودماثة أخلاقها ، وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من « السفسطة » درجة تخفى رقتها وحنانها . ومما قالته هى عن نفسها : « إن قلبى كقلب الطفل »(٧٧) ، ويستدل من شعرها

على أنها كانت ذات عواطف جياشة ، وأن ألفاظها كما يقول أفلوطرخس « كانت تمتزج باللهب »[٧٨] ؛ وكانت مرهفة الحس إلى حد ما ، وكان هذا سبباً فى الحد من حماسة عقلها . وقد وصفها أثيس تلميذها المقرب إليها بأنها كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والأرجوانية ، وتتوج رأسها بالزهر ؛ وما من شك فى أن قوامها النحيل قد أكسبها ملاحة وجاذبية ، وشاهد ذلك أن لفيوس الذى نفى معها إلى پيرا أرسل إليها مسرعاً رسالة عشق وهيام قال فيها : « أى سافو ! يا ذات التاج القرنفلى ، يا طاهرة ، يا ذات الابتسامة الحلوة ، أريد أن أحدثك فى أمر ولكن الحياء يمنعنى أن أنطق به » . وكان جوابها أقل غموضاً من اقتراحه « لو كانت رغباتك طيبة نبيلة ، ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو دنىء ، لما أسدل الحياء على عينيك غشاوة ، ولأفصحت عن رغباتك الطيبة العادلة »[٩٧] .
وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها فى قصائده وأناشيده ، ولكننا لا نعرف أن صلة غير هذه الصلة قد عقدت أواصرها بينهما ، ولعلهما قد افترقا حين نفيت سافو للمرة الثانية ، وكان سبب نفيها أن پتاكوس قد خشى قلمها بعد نضوجه فنفاها فى هذه المرة إلى صقلية ، وكان ذلك فى أغلب الظن عام ٥٩١ ، وهى فى سن يكاد الإنسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع أن تؤذى إنساناً .
وقد تزوجت حوالى ذلك الوقت بتاجر ثرى من أندروس Anodros ، وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول : « لى ابنة صغيرة شبيهة بالزهرة الذهبية ، هى كليس Cleis قرة عينى ، التى لا أفرط فيها ولو أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة »[٨٠] . وما من شك فى أنها كان فى وسعها أن ترفض ما فى ليديا من ثروة لأنها ورثت ثروة زوجها بعد وفاته المبكرة ، وعادت إلى لسبوس بعد أن أقامت فى منفاها خمس سنين ، وأضحت زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية فى الجزيرة . وإنا لنلمح بهرج الترف فى إحدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول : « أما أنا فليكن فى علمكم أنى أحب الحياة اللينة ، وأرى أن النور والجمال مما تشتهيه الشمس »[٨١] . وأضحت وثيقة

الصلة بأخيها الأصغر كركسوس Charaxus ، شديدة التعليق به ، وغضبت أشد الغضب حين شغف فى إحدى سفراته التجارية إلى مصر بحب محظية تدعى دريكا Doricha ثم تزوجها ، ضارباً بتوسلات أخته عرض الحائط(٨٢) .

وفى هذا الوقت نفسه أحست سافو بنار الحب تشتعل فى قلبها . ذلك أن نفسها تاقت إلى الحياة النشيطة ، فأنشأت مدرسة للفتيات ، تعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص ، كانت هى أولى « مدارس صقل » الفتيات فى التاريخ كله : ولم تكن تسمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسميهن الرفيقات (hetairai) ، ولم تكن هذه الكلمة قد أصبح لها بعد معنى الاختلاط الجنسى الشاذ . وأحبت سافو — وكانت وقتئذ أرملة — هاته الفتيات واحدة بعد واحدة : وقد قالت فى إحدى القطع الباقية من أشعارها : « لقد هز الحب قلبى كما تهز الريح القوية أشجار البلوط(٨٣) » . وتقول فى إحدى القطع الأخرى : « لقد أحببتك يا أثيس من زمن بعيد ، حين كانت أتوثى كلها أزهاراً ، وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة » . فلما أن تقبلت أثيس حب شاب من متلينى ، عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تبدو فيها قوة العاطفة فى قصيدة احتفظ بها إلينا لنجينس وترجمها ترجمة عرجاء چون أدنجتن سمندس فى شعر من البحر السافى :

إنه ليبدو لى هو والآلهة سواء ، ذلك الرجل السعيد الذى يجلس ويراك بعينيه أمامه : فهو يجلس بالقرب منك ويستمع إليك وهو معقود اللسان تتحدثين حديثك الفضى وتضحكين ضحك الحبيب فى غير صوت عال . إن هذا ، هذا وحده ، ليكفى لأن يثير قلبى المكلوم فى صدرى ويبعثه على الاضطراب ! لأنى إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتى من فورى ، وانعقد لسانى ؛ وسرت فى ضلوعى نار تلظى يسمع من حولى حسيسها ، ولا تبصر عيناى منها شيئاً ، وتطن فى أذنى أمواج من الصوت عالية ، ويتصبب جسمى عرقاً فيجرى أنهاراً ، وترتجف جميع أعضائى ، ويصبح لونى أكثر اصفراراً من لون الكلأ فى الخريف ، وتنتابنى

آلام الموت المترصد لى فأضطرب وأضل فى سكرات(*) الحب(٨٤) ؟

وأخرج والدا أثيس ابنتهما من المدرسة ، ولدينا رسالة تعزى إلى سافو نفسها تصف فيها ساعة فراقهما :

بكت (أثيس ؟) بكاء مراً لفراقنا وقالت : « واحسرتاه ما أتعس حظنا ، وأقسم لك يا سافا أن فراقى إياك كان على الرغم منى » ، فأجبتها : « سيرى فى طريقك منشرحة الصدر ؛ ولكن اذكرينى لأنك تعرفين هيامى بك . فإذا لم تذكرينى ، فإنى سأذكرك بما تنسين ؛ ألا ما أعز وأجمل الأيام التى قضيناها معاً ! لقد كنت تزينين غدائرك المتماوجة بتيجان القرنفل والورد الجميل وأنت إلى جانبى ، وتزينين جيدك الرقيق بعقود مجدولة من مئات الأزهار ، وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليقة بالملوك دهنت إهابك الأبيض النضر وأنت بين ذراعى . ولم يكن فى المكان كله تل ، أو موضع مقدس ، أو غدير ماء لم تذهب إليه ؛ ولم تملأ الأصوات الكثيرة فى بواكير الربيع غابة من الغابات بسجع العندليب إلا ذهبت إليه معى(٨٥) » .

وتأتى بعد هذه الأغنية فى نفس المخطوط تلك الصيحة المريرة : « لن أرى أثيس بعد اليوم ولا فرق عندى بين هـــذا وبين الموت » . إن هذا بلا ريب هو صوت الحب الصادق ، الذى يعلو ذروة الوفاء والجمال ويسمو فوق الخير والشر !

وقد ثار الجدل بين من جاء بعد ذلك العصر من علماء التاريخ القديم واختلفوا هل هذه القصائد تعبر حقاً عن « الحب اللسبوسى » أو أنها لم تكن إلا تدريباً للخيال الشعرى ولتجسيد المعانى المجردة . ولكننا لا شأن لنا بهذا

(*) ولقد ترك لنا سونبيرن مثلا من هذا البحر خيراً مما تركه جون أدنجتن سمندس ووصف حب سافو فى قصيدة رائعة سماها « السافيات » فى كتابه Poems and Ballads مطلعها : لم يطرق جفونى الكرى طول الليل .

الجدل ، وحسبنا أن هذه القصائد شعر من الطراز الأول جياش بالعاطفة ، قوى الخيال ، يبلغ حد الكمال فى لفظه ومبناه . وفى قطعة باقية منه حديث عن « وقع أقدام الربيع المزهر » ؛ وفى قطعة أخرى حديث عن « الحب الذى يفكك الأعضاء ، والعذاب المر — الحلو » وتُشبِّه قطعة ثالثة الحبيب البعيد المنال « بالتفاحة الحلوة التى تحمر على طرف الغصن ، على الطرف الأعلى للغصن ، والتى سها عنها الجانى ، لا لم ينسها بل إنه لم يستطع لعلوها أن يصل إليها[٨٦] » . وكتبت سافو عن موضوعات أخرى غير الحب ، واستخدمت فيها بحوراً من الشعر بلغ عدد ما بقى لنا منها خمسين بحراً . وقد لحنت هى بنفسها أغانيها ووقعتها على العود . وجُمع شعرها فى خمسة دواوين تحتوى نحو ألف بيت ومائتين ، بقى منها ستمائة يندر أن تكون متتالية . وحدث فى عام ١٠٧٣ بعد الميلاد أن أمر رؤساء الكنيسة فى القسطنطينية وروما بإحراق جميع أشعار سافو وألفيوس علناً[٨٧] ، وفى عام ١٨٩٧ كشف جرنفل Grenfel وهنت Hunt فى أكسرنكوس Oxyrhynchus بمديرية الفيوم توابيت مصنوعه من طبقات من الورق استخدمت فى صناعتها قطع من كتب قديمة ؛ وجدت عليها بعض قصائد سافو[٨٨] .

وقد ثأر ذكور الأجيال التاليـــة لأنفسهم منها بأن نقلوا عنها ، أو اخترعوا من عندهم ، قصة تروى كيف ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب . وثمة فقرة فى معجم سويداس Suidas [٨٩] تروى كيف قفزت « العاهر سافو » — وهو الوصف الذى توصف به الشاعرة عادة — من فوق صخرة فى جزيرة لوكاس Leucas قفزة قضت بها على نفسها ، لأن البحار فاؤون لم يستجب لحبها . ويشير مناندر ، واسترابون ، وغيرهما من الكتاب إلى هـــذه القصة ، ويروبها أوفد فى تفاصيل جميلة[٩٠] ولكنا نجد فيها حوادث كثيرة من نسج الخيال ، وخليق بنا أن نتركها من غير تمحيص حائرة بين الحقيقة والخيال . وتقول الروايات المتواترة إن سافو عادت فتعلمت حب الرجال . ونجد فى القطع الصغيرة التى

كشفت أشعارها فى مصر جواباً لها مؤثراً ردت به على اقتراح عرضه عليها بعضهم بأن تتزوجه فقالت « لو أن ثديى قد بقيا قادرين على إرضاع الأطفال ، ولو أن رحمى قد بقى قادراً على حملهم ، لجئت إلى فراش الزوجية بقدمى ترتجفان ، ولكن الزمان قد خط على جسدى خطوطاً كثيرة ، والحب لا يسرع إلى بما يحمله من هدايا الآلام » ، ثم تشير على خطيبها بأن يبحث له عن زوجة أصغر منها سناً(٩١) . وفى الحق أننا لا نعلم متى ماتت وكيف قضت نحبها ، وكل الذى نعرفه أنها خلفت وراءها ذكريات واضحة من العاطفة القوية ، والشعر الرائع ، واللطف والدعة ، وأنها بزت ألفيوس نفسه فكانت أشجى أهل زمانها صوتاً . وتراها فى آخر قطعة لها تلوم فى غير عنف من لا يقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول :

« إنكم يا أطفالى تجللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون : « سنتوجك يا سافو الحبيبة ، يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغانى وأشجاها ، ألا تعرفون أن إهابى كله قد تجعد من طول العمر ، وأن شعرى قد استحال من أسود إلى أبيض ؟ . . وكما أن الليل ذا النجوم يخلف حتماً الفجر ذا الذراع الوردية وينشر الظلام فى طول الأرض وعرضها ، كذلك يقتفى الموت آثار كل حى ويمسك بتلابيبه آخر الأمر »(٩٢) .

الفصل السادس

الإمبراطورية الشمالية

فى شمال لسبوس تقع تندوس Tenedos الصغيرة التى يقول بعض الرحالة الأقدمين إن نساءها أجمل النساء فى بلاد اليونان جميعها(٩٣) ، ومنها يسير الإنسان فى أثر اليونان المغامرين إلى جزائر اسبرديس الشمالية ؛ إلى إمبروس ، ولمنوس ، وسمثريس . وأنشأ الميليزيون حولى عام ٥٦٠ فى سعيهم للإشراف على الهلسپنت (الدردنيل) بلدة أبيدوس Abydos على شاطئه الجنوبى ، ولا تزال هــذه البلدة قائمة حتى الآن(*) . ومن هذا المكان قطع ليندر Leander وبيرن Byron المضيق سباحة ، ومنه عبر جيش خشيارشاى البحر إلى أوربا على جسر من القوارب ، وإلى شرق هذه البلدة استعمر الفوقيون لمپاكوس Lampacus مسقط رأس أبيقور . وفى داخل البروپنتس مجموعتان من الجزائر ، أولاهما مجموعة الفقونيسوس Phoconnesus ، وهى غنية بالرخام الذى أكسب البروپنتس اسمه المعروف به فى هذه الأيام (بحر مرمره – أى بحر الرخام) وثانيتهما مجموعة الأركتنيسوس Arctonnesus . وفى أقصى طرفها الجنوبى أنشأ الميليزيون فى عام ٧٥٧ ثغر سزكوس Cyzicus العظيم . وقامت على طول الساحل مدينة فى إثر مدينة : پنورموس Panormus ، ودسيليوم Dascylium ، وأپاميا Apameia ، وكيوس Cius ، وأستكوس Astacus ؛ وخلقدون Chalcedon . وتقدم اليونان مجتازين مضيق البسفور ، طلباً للمعادن والحبوب والتجارة ، وأنشأوا كرسپوليس

(*) كل المدن المذكورة فى هذا الباب تقريباً لا تزال قائمة حتى اليوم ، وإن سميت بأسماء غير أسمائها القديمة .



(شكل ١٥) بركليز
(المتحف البريطاني)



(شكل ١٦) أبيقور
(متحف نيويورك)

Chrysopolis (اشقودار الحالية) نتقوبوليس Neopolis ، « مدينة النصر » ، ثم شقوا طريقهم على طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود ، وأقاموا مدائن فى هرقلية ، وبنتيكا Tieum ، وتتوم Pontica ، وسينوب Sinope — التى يصفها استرابون بأنها مدينة مزدانة أفخم زينة(٩٤) ، بها ملعب رياضى عظيم ، وساحة كبرى ، وأروقة مظللة ذات عمد ؛ وكانت خليقة بأن يولد فيها ديوچين الكلبى Diogenes the Cynic ؛ ثم تليها أميسس Amisus ، وإينوى Oenoe ، وتربوليس Tripolis ، وترابيزوس Trapezus (تربزند أوطربزون) ، والتى صاح فيها رجال زنوفون العشرة الآلاف من فرط السرور حين أبصروا البحر الذى طالما تاقت نفوسهم لرؤيته . وقد كان افتتاح هذا الإقليم للاستعمار ، على يد چيسن فى أكبر الظن ، ثم على أيدى الأيونيين فيما بعد ، مصرفاً ينزح إليه من تفيض بهم المدائن الأصلية من السكان ، وتنصرف إليه تجارتها ، كما جعلها هذا الفتح مورداً للطعام والفضة والذهب ، شأنها فى ذلك شأن أمريكا بالنسبة لبلاد أوربا فى بداية العصر الحديث(٩٥) . واتجه اليونان نحو الشمال بإزاء الساحل الشرقى لبحر اليوكسين حتى وصلوا إلى كلكيز Colchis الميدية وأسسوا فاسيس Phasis ، وديوسكورياس Dioscurias ، وثيودوسيا Theodosia ، وبنتيكپيوم Panticapaeum فى شبه جزيرة القرم . وأنشأوا عند مصبى نهرى البوج Bug والدنيبر مدينة ألبيا Olbia (نيقولايف الحالية) وعند مصب الدنيستر أسسوا مدينة تيراس Tyras ، وأقاموا على نهر الدانوب مدينة ترسميس Troesmis . ثم اتجهوا جنوباً على طول الشاطئ الغربى وشادوا مدائن إستروس Istrus (قنسطنطة أوقسطنج) ، وتومى Tomi (التى مات فيها أوفد) ؛ وأدسوس(وارنة) ، وأپولونيا Apollonia (برجاس) . وإن الرحالة الذى يدرك طول الأعصر التاريخية ليذهله قدم هذه المدائن التى لا تزال باقية حتى الآن ،

ولكن سكانها الحاليين المنهمكين فى أعمالهم الحاضرة لا يشغلون أنفسهم بالقرون الطوال المستقرة فى بطون الثرى تحت أقدامهم .

وأنشأ المجاريون أيضاً على البسفور حوالى عام ٦٦٠ مدينة بيزنطيوم (بيزنطية Byzantium (*)) التى كانت إلى عهد قريب تسمى القسطنطينية والتى تسمى الآن اسطنبول . وقد كان هذا الثغر ذو الموقع الحربى المنيع حتى قبل أيام بركليز مفتاح أوربا كما سماه نابليون فى معاهدة تلزت Tilsit . وقد وصف بوليبيوس فى القرن الثالث قبل الميلاد موقعه البحرى بأنه « من حيث السلامة والرخاء خير من موقع أية مدينة أخرى فى العالم المعروف لنا(٩٧) » . وازدادت ثروة بيزنطية بما كانت تفرضه من المكوس على السفن المارة بها ، وبما كانت تصدره إلى العالم اليونانى من حبوب روسيا الجنوبية (« سكوذيا » Scythia) والبلقان ، وبما كان يصاد بلا أدنى عناء من السمك الذى يتجمع فى المضايق الضيقة . وقد كان التواؤها ، وما تفيضه عليها صناعة الصيد من ثرائهما اللذين خلعا على المدينة اسم « القرن الذهبى » . وكانت أثينة فى عصر بركليز هى المسيطرة على سياسة بيزنطية ، وكانت تفرض المكوس على السفن المارة لتملأ بها خزائنها فى أوقات الشدائد ، وتعامل إصدار الحبوب من موانى البحر الأسود معاملة مهربات الحرب(٩٨) .

وأنشأ اليونان على الشاطئ الشمالى أو التراقى للبروبنتس مدائن عند سلمبريا Selymbria . وبرنثوس Perinthus (إرجلى Eregli الحديثة) وبيزنثى Bisanthe ، وكليبوليس Callipolis (غاليبولى) ، وسستوس Sestus .. ثم أقاموا فيما بعد مدناً أخرى على ساحل تراقية الجنوبى الغربى عند أفروديسياس Aphrodisias ، وإينوس Oenus ، وأبدرا Abdera — حيث قام ليوسبوس

(*) والراجح أن اسمها مشتق من لفظ بيزاس Byzas أى الملك الوطنى .

Leucippus ودمقرايطوس Democritus بعد ذلك العصر بنشر الفلسفة المادية الذرية(*) وأمام ساحل تراقية فى البحر تقع جزيرة ثاسوس Thasos ، « الجرداء القبيحة المنظر كأنها ظهر حمار فى البحر » كما وصفها أركلوكوس(٩٩) ، ولكنها كانت غنية بمناجم الذهب غنى جعل منتجاتها منه تفى بنفقات الأداة الحكومية كلها . وأنشأ الباحثون عن الذهب من اليونان وخاصة الأثينيون على ساحل مقدونية الشرقى أو بالقرب منه مدينتى نيوبوليس Neapolis وأمفيوليس Amphipolis — وكان استيلاء فليب على هاتين المدينتين سبباً فى اشتعال نار الحرب التى خسرت فيها أثينة حريتها . واستولى يونان آخرون معظمهم من كلسيس وإرتريا على شبه جزيرة كلسديس Chalcidice ذات الأصابع الثلاث وسموها بهذا الاسم . وما وافى عام ٧٠٠ ق . م حتى كانوا قد أنشأوا فيها ثلاثين بلدة قدر للكثير منها أن تكون ذات شأن عظيم فى تاريخ اليونان : استاجيروس Stageirus (مسقط رأس أرسطاطاليس) وسيونى Scione ، ومندى Mende ، وپوتيديا ، وأكنثوس Acanthus ، وكليونى Cleonae ، وتورونى Torone ، وأولنثوس Olynthus التى استولى عليها فليب فى عام ٣٤٨ والتى تشتهر عندنا لصلتها بخطب دمستين . وقد كشفت أعمال الحفر الحديثة فى أولنثوس عن مدينة واسعة الرقعة ذات بيوت كثيرة من طابقين يحتوى بعضها خمسا وعشرين حجرة . ويبدو أن هذه المدينة كان يسكنها فى أيام فليب نحو ستين ألف نسمة . وفى وسعنا أن نستدل من هذا العدد الكبير الذى كان يقيم فى مدينة صغيرة على سرعة تناسل اليونان قبل عصر پركليز ونشاطهم وسرعة انتشارهم

وآخر ما نذكره عن انتشار اليونان أن المهاجرين الأيونيين استقروا فى الجزائر العوبية الواقعة بين كلسديس وجزيرة عوبية الكبيرة ، وهى جيرونتيا Gerontia ،

(*) هى الفلسفة القائلة بأن العالم يتكون من ذرات ترتب نفسها فيه فى صور مختلفة (المترجم)

وپوليجوس Polyaegos ، ، وإيكوس Icos ، وپپارثوس Peparethos ، واسكانديل Scandile ، واسكيروس Scyros ؛ وهكذا انطبق محيط الإمبراطورية فى الشرق والشمال انطباقا تاما والتقى طرفاه . وبفضل نشاط اليونان ومغامراتهم استحالت جزائر بحر إيجة وســـواحل آسية الصغرى ، وشواطئ الهلسپنت ، والبحر الأسود ، وسواحل مقدونية وتراقية معششا من المدائن المصطبغة بالصبغة اليونانية ، تفيض بالأعمال الزراعية والصناعية ، والتجارية ، وبالنشاط السياسى ، والأدبى ، والدينى ، والفلسفى ، والعلمى ، والفنى ، وبالبلاغة ، وبالسفسطة ، والمماحكة . ولم يبق أمام اليونان فى ذلك الوقت إلا أن يفتحوا بلادا يونانية أخرى فى غرب بلادهم ، ويقيموا قنطرة بين هيلاس القديمة والعالم الحديث .

الباب السابع

اليونان في الغرب

الفصل الأول

السيباريون

بعد أن تمر سفينتنا الخيالية بسنيوم Sunium وتتجه نحو الغرب تصل إلى سترا Cythera مقر أفروديتي الجزرى ، والتي كانت من أجل هذا مقصد وتو Watteau (*) . وفيها شاهد بوزنياس في عام ١٦٠ م (أقدس وأقدم ما شاده اليونان من الهياكل لأفروديتي[1] » ، وفيها كشف شليمان في عام ١٨٨٧ م عن أنقاض هـذا الهيكل[2] . وكانت في أقصى الجنوب من الجزائر الأيونية التي تجاور ساحل بلاد اليونان الغربي وقد سميت أيونية لأن مهاجرين أيونيين استقروا فيها ، وبقية هذه الجزائر هي زاسنثوس Zacynthos ، وكيفالينيا Cephalenia ، وإثكا Ithaca ، واوكاس Leucas ، وباكوس Paxos ، وكورسيرا Corcyra . وحسب شليمان أن إثكا هي جزيرة أديسيوس ، وحاول عبثاً أن يجد تحت ثراها ما يؤيد قصة هومر[3] . غير أن دوربفلد Dörpfeld كان يعتقد أن موطن أديسيوس هو جزيرة لوكاس الصخرية . ويقول استرابون إن أهل هذه الجزيرة القدامى كانوا يلقون من فوق صخورها ضحية بشرية يقدمونها في كل عام قرباناً لأبلو ؛

---

(٥) كانت صورة Embarkation for Cythera (السفر إلى سترا) التي صورها وتو تمثل روح الطبقات العليا في فرنسا خلال القرن الثامن عشر بعد أن تخلت عن الدين بالقدر الذي يسمح لها بأن تكون أبيقورية .

ولكن هؤلاء السكان لم يكونوا رجال دين فحسب بل كانوا فوق ذلك بشراً ، ولهذا كانوا يربطون فى الضحية طيوراً قوية شفقة بها ورحمة ، حتى تخفف أجنحتها من شدة الصدمة عند سقوط الضحية على الأرض[٤] . والراجح أن قفزة سافو نفسها ذات اتصال بذكريات هذه العادة الدينية .
واحتل كرسيرا (كورفو Corfu) مستعمرون كورنثة حوالى ٧٣٤ ق . م ، ولم يلبثوا أن أصبح لهم من القوة ما أمكنهم بها أن يهزموا أسطول كورنثة ويقرروا استقلالهم . وسافر بعض المغامرين اليونان من كرسيرا فى البحر الأدرياوى متجهين نحو الشمال حتى وصلوا إلى البندقية ؛ واستقر بعضهم فى مستعمرات صغيرة على ساحل دلماشيا ، وفى وادى نهر البو Po[٥] ، وعبر بعضهم آخر الأمر مياه البحر الهائجة وقطعوا فيها خمسين ميلا حتى استقروا فى كعب إيطاليا . ووجدوا فى ذلك المكان شاطئاً جميلا ينحنى فتتكون من انحنائه مرافئ طبيعية آمنة ، ومن ورائه أرض خصبة أهملها السكان الأصليون إهمالا يكاد أن يكون تاماً[٦] . واستولى الغزاة اليونان على هذا الإقليم الساحلى بمقتضى قانون التوسع الاستعمارى الذى لا يعرف للرحمة معنى ، وهو القانون القائل إن الموارد الطبيعية التى لا يستغلها أهل الإقليم تجتذب ، بنوع من الجاذبية الكيميائية ، غيرهم من الناس ليستغلوها ويدفعوا بها إلى تجارة العالم ومنفعته . واخترق الوافدون الجدد — وأكثرهم من الدوريين — كعب شبه الجزيرة مبتدئين من برنتيزيوم (برنديزى) وأنشأوا مدينة كبيرة فى تاراس Taras — تارنتم الرومانية (تارنتو الحديثة)(*) وفيها غرسوا أشجار الزيتون وربوا الخيول ، وصنعوا الفخار ، وبنوا السفن ، وصادوا

(*) ذكرنا فى جدول الحوادث التاريخية المسلسلة التواريخ المتواترة لإنشاء هذه المدن فى غرب بلاد اليونان وقد أخذ ثوكيديدس هذه التواريخ عن المؤرخ القديم أنتيكوس السرقوسى Antjochus of Syracuse . ومظنة الخطأ فيها كبيرة ، ويعتقد مهفى Mahaffy أن المدن التى أنشئت فى صقلية قد أنشئت فى عهود متأخرة عن العهد الذى أنشئت فيه المدن الإيطالية . غير أن تواريخ ثوكيديدس لا يزال يؤيدها كثيرون من المؤرخين[٧] .

السمك بالشباك ، وجمعوا بعض القواقع البحرية ليستخرجوا منها الصبغة الأرجوانية التى كانت أغلى قيمة من نظيرتها الفينيقية(٨) . وبدأت الحكومة كما بدأت معظم المستعمرات اليونانية بأن كانت ألجاركية يتولاها ملاك الأرض ، ثم انتقلت إلى أيدى طغاة تمدهم بالمال الطبقة الوسطى ، واستمتعت بفترات من الحكم الديمقراطى القوى المضطرب . وفى هذا المكان نزل پيرّس صاحب الشخصية الروائية فى عام ٢٨١ ، وأراد أن يقوم فى الغرب بالدور الذى قام به الإسكندر فى الشرق .

وأسست موجة أخرى من المهاجرين معظمهم من الآخيين مدينتى سيبارس وكروتونا على الجانب الآخر من خليج تارنتم . وتدل الغيرة القاتلة التى نشاهدها بين هذه الدول ، وكلها من أصل واحد ، على ما كان يتصف به اليونان من نشاط قوى مبدع ، وعواطف جياشة مدمرة . وكان للتجارة بين بلاد اليونان الشرقية وإيطاليا الغربية طريقان أحدهما بحرى والثانى برى فى بعض أجزائه . وكانت السفن التى تسير فى الطريق البحرى تمر بكروتونا وتبادل فيها بالكثير من بضائعها ، وتمر بعدها برجيوم Rhegium وتؤدى فيها المكوس ، ثم تجتاز فى حذر بحاراً موبوءة بالقراصنة ، ومضيق مسينا الكثير الدوامات ، حتى تقبل إلى إلياوكومى ، أقصى المستعمرات اليونانية فى إيطاليا شمالا . وكان التجار الذين يختارون الطريق الآخر يفرغون بضائعهم فى سيبارس ليفروا من هذه المكوس والأخطار ، وليوفروا على أنفسهم عناء السير بحراً بالمجاذيف والشراع ، ثم ينقلونها بطريق البر نحو ثلاثين ميلا إلى ساحل لوس Laus الغربى ، ثم يحملونها مرة أخرى على ظهور السفن إلى پوسيدونيا ، ومنها تنتقل إلى الأسواق فى داخل إيطاليا .

وكانت سيبارس ذات موقع حسن على هذا الطريق التجارى ، فأثرت وعمها الرخاء حتى بلغ عامرها (إذا جاز لنا أن نصدق أقوال ديودور الصقلى(٩))

ثلثمائة ألف نسمة ، وأثرت ثراء لا يضارعها فيه إلا القليل من مدن اليونان ، حيث أضحت كلمة سيبارى مرادفة لكلمة أبيقورى . وكان العمل الجثمانى كله يقوم به العبيد ورقيق الأرض ، أما المواطنون الأحرار فكانوا يرتدون الثياب الغالية ، ويسكنون بيوتاً مترفة مريحة ، ويطعمون الأطعمة الشهية الواردة من خارج البلاد(*) . وكان يحرم على من يشتغلون بأعمال ذات جلبة أن يمارسوا صناعتهم فى داخل حدود المدينة . وكانت بعض الطرقات فى الأحياء الغنية من المدينة تغطيها خيام ومظلات لتقى الناس شر الحر والمطر[١١] . ويقول أرسطو إنه كان لألسستنيز السيبارى ثوب من نسيج بلغ من عظيم قيمته أن باعه ديونيسيوس الأول السرقوسى فيما بعد بمائة وعشرين وزنة (٧٢٠ر٠٠٠ ريال أمريكى[١٢]) . ولما جاء اسمندريدز Smyndyrides السيبارى فى زيارة لسكيون ليخطب ابنة كليسثنيز ، كان معه ألف خادم[١٣] .

وسارت الأمور على أذلالها فى سيبارس حتى انزلقت إلى الحرب مع كروتونا المجاورة لها (٥١٠) . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن السيباريين ساروا إلى الحرب بجيش تبلغ عدته ثلثمائة ألف[١٥] . وتؤكد لنا هذه الرواية نفسها أن الكروتنيين أحدثوا الاضطراب فى صفوف هــذا الجيش بأن عزفوا النغمات التى علم السيباريون خيولهم أن يرقصوا عليها[١٦] . فلما سمعتها الخيل رقصت ، وأعمل الأعداء فيهم القتل ، ونهبوا مدينتهم ، وخربوها ، وأشعلوا فيها النيران ، حتى اختفت من التاريخ فى يوم واحد . ولما أن قام هيرودوت وغيره من الأثينيين بعد خمس وستين سنة من ذلك الوقت بالقرب من موقعها مستعمرة تورلى Thurli الجديدة ، لم يكادوا يجدون فى هذا الموضع أثراً لهذه الجالية التى كانت فى يوم من الأيام أكثر الجاليات اليونانية زهواً .

(*) ويقول أثنيوس إن الطهاة أو صانعى الحلوى الذين كانوا يبتدعون أصنافاً جديدة كان يسمح لهم بأن يسجلوها باسمهم ويحتكروها مدى عام[١٠] . وربما كان أثنيوس يخلط فى هذا القول بين الهزل والتاريخ .

الفصل الثانى

فيثاغورس الكروتونى

كان عمر كروتونا أطول من عمر سيبارس ؛ فقد أنشئت فى عام ٧١٠ ق . م ولا تزال حتى الآن تعج بالصناعة والتجارة بعد أن تغير اسمها إلى كروتون . وقد كان مرفؤها المرفأ الطبيعى الوحيد بين تاراس وصقلية ، ولم تكن تعفو عن السفن التى تفرغ بضائعها فى سيبارس . وقد بقى فيها من التجارة ما يكفى لكى يعيش أهلها عيشة هنيئة لينة ، كما أن هزيمتهم الموفقة فى الحرب ، وكساد تجارتهم زمناً طويلا ، وجو بلادهم المنعش ، ومزاجهم الدورى المتزمت بعض الشىء ، كل هذه الظروف مجتمعة قد جعلتهم يحتفظون بنشاطهم وقوتهم رغم ثرائهم العظيم . وفى هذه المدينة نشأ الرياضيون المشهورون أمثال ميلو Milo ، كما نشأت أعظم مدرسة طبية فى بلاد اليونان الكبرى (Magna Greca)(*) .

ولعل اشتهار كروتونا بأنها ملجأ صحى هو الذى حبب إلى فيثاغورس المجىء إليها . ومعنى فيثاغورس هو « الناطق الفيثى » بلسان مهبط الوحى فى دلفى ، وكان كثيرون من أتباعه يرون أنه هو أپلو نفسه ، ويدعى بعضهم أنه أبصر وميض فخذه الذهبية[١٧] . وتقول الروايات المتواترة إنه ولد فى ساموس حوالى عام ٥٨٠ ، وتتحدث عن جده فى صباه . وتعزو إليه أنه صرف ثلاثين عاماً فى الأسفار . ويقول عنه هرقليطس ، وهو الرجل الشديد الاقتصاد فى مدحه إن « فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة[١٨] » . ويروى عنه أنه زار بلاد العرب ، وسوريا ، وفينيقية ، وكلديا ، والهند ، وغالة ، وعاد يلقى على الرجالة حكمة عالية جديرة بالإعجاب هى قوله : إذا كنت مسافراً فى خارج بلادك فلا

(*) هذا هو الاسم الذى كان الرومان يطلقونه على المدن اليونانية فى جنوبى إيطاليا . (المترجم)

تلتفت وراءك إلى حدودها[١٩] » ، ويجب أن تكبح جماح نزواتك عند كل ثغر تدخل فيه . وما من شك فى أنه زار مصر حيث درس مع الكهنة ، وتعلم الكثير من علم الفلك والهندسة النظرية ، وربما تعلم أيضاً قليلا من السخف[٢٠] . ولما عاد إلى ساموس ووجد أن طغيان پوليكراتيز يحد من طغيانه هو هجرها إلى كروتونا وكان قد جاوز الخمسين من العمر[٢١] .

وهنا اشتغل بالتدريس ، وكانت هيبته ، وغزارة علمه ، واستعداده لقبول النساء والرجال فى مدرسته ، سبباً فى إقبال الناس عليها حتى بلغ عدد من فيها بضع مئين فى زمن قصير . وقد قال بمبدأ تكافؤ الفرص للذكور والإناث على السواء قبل أن ينادى بذلك أفلاطون بمائتى عام ، ولم يناد به فحسب بل نفذه عملياً . على أنه مع ذلك لم يكن ينكر أن بين الجنسين فوارق طبيعية من حيث وظائف كل منهما . وكان يعلم تلميذاته الشىء الكثير من الفلسفة والآداب ، ولكنه كان يعلمهن أيضاً فن الأمومة والتدبير المنزلى ، ومن أجل ذلك اشتهرت النساء الفيثاغوريات فى الزمن القديم بأنهن « أعلى نموذج فى الأنوثة أخرجته بلاد اليونان فى جميع العصور » .

وقد وضع فيثاغورس لطلابه بصفة عامة قواعد تكاد تحول مدرسته إلى دير للراهبات . فقد كان من يدخلونها يقسمون يمين الولاء للأستاذ ولبعضهم بعضاً . وتجمع الروايات المأثورة على أنهم كانوا يشتركون على قدم المساواة فى جميع طيبات الحياة ما داموا يعيشون فى هذه الجماعة الفيثاغورية[٢٢] . وكان اللحم والسمك والفول محرمة عليهم ، أما الخمر فلم تكن محرمة ؛ ولكنه كان يوصيهم بشرب الماء ، وتلك وصية شديدة الخطورة فى جنوبى إيطاليا فى هـذه الأيام . وربما كان تحريم اللحم لسبب دينى ذى صلة بعقيدة تقمص الأرواح ، فإن على الناس أن يحذروا أن يأكلوا أجدادهم . والراجح أنه كان يباح للطلاب أن يخرجوا على حرفية هذه القواعد من حين إلى حين . ويرى المؤرخون الإنجليز

بنوع خاص أن من غير المعقول أن يصبح المصارع ميلو الفيثاغورى أقوى رجل فى بلاد اليونان كلها دون أن يأكل لحم العجول[٢٤] ، — وإن كان العجل الذى أصبح بين ذراعيه ثوراً (*) قد شب على أكل الكلأ . وكان يحرم على أفراد هذه الجماعة أن يقتلوا أى حيوان لا يؤذى الإنسان أو أن يتلفوا شجرة مزروعة . وكان يطلب إليهم أن يلبسوا الثياب البسيطة وأن يطرحوا الكبرياء ، وألا « يندفعوا فى الضحك ، وألا يكونوا مع ذلك عابسين » . ولم يكن يباح لهم أن يقسموا بالآلهة لأن « من الواجب على كل إنسان أن يعيش عيشة تجعله خليقاً بأن يصدقه الناس دون أن يلجأ إلى القسم » . وكان محرماً عليهم أن يقدموا الضحايا قرباناً ، وكان فى وسعهم أن يتعبدوا أمام المذابح التى لم تلوثها الدماء . وكان عليهم أن يسألوا أنفسهم فى آخر كل يوم عما ارتكبوه من الذنوب ، وعما أهملوه من الواجبات ، وعما فعلوه من الخير[٢٥] .

وقد أخذ فيثاغورس نفسه بهذه القواعد وراعاها أشد مما راعاها أى تلميذ من تلاميذه اللهم إلا إن كان هو ممثلا من أبرع الممثلين . وما من شك فى أن أسلوب حياته قد أكسبه من احترام طلابه وسلطانه عليهم ما جعلهم كلهم يتحملون طغيانه بلا تذمر ، وما جعل الكلمة الفاصلة فى كل جدال أو نظرية هى : لقد قالها هو نفسه Autos epha-ipsi dixit » . وقد نقل إلينا فى عبارة تنم عن التعظيم وتستثير الإعجاب أن المعلم نفسه لم يشرب الخمر بالنهار أبداً ، وأنه كان يعيش معظم أيامه على الخبز والعسل ، وأن حلواه كانت هى الخضر ، وأن ثوبه كان على الدوام ناصع البياض ؛ وأنه لم يُعرف عنه قط أنه أفرط فى الأكل ، أو عشق ، وأنه لم يغرق فى الضحك ، أو المزاح ، أو القصص ، ولم يعاقب إنساناً مطلقاً ولو كان عبداً[٢٦] . وكان تيمن الأثينى يظنه « مشعوذاً يخادع بقول الجد ، ويعمل على اصطياد الناس[٢٧] » ، وينقض هذا القول أن زوجته ثيانو Theano وابنته

(*) انظر الفصل الرابع من الباب التاسع من هذا الكتاب .

دامو Damo كانتا ن أشد أتباعه إخلاصاً له ، وقد كان فى وسعهما أن توازنا بين فلسفته وحياته . ويقول ديوجنيز ليرتس إنه « عهد بتعليقاته إلى دامو وأمرها ألا تذيعها لأى إنسان فى خارج البيت ، وإنها لم تفرط قط فى أحاديثه مع أنه كان فى وسعها أن تبيعها بالمال الكثير ، لأنها كانت ترى أن طاعة أوامر والدها أثمن من الذهب ، ويزيد فى فضلها أنها امرأة[٢٨] » .

وكان الانضمام إلى المجتمع الفيثاغورى يتطلب ، فضلا عن تطهير الجسم بالعفة وكبح الشهوات ، تطهير العقل بدراسة العلم . وكان ينتظر من الطالب الجديد أن يلتزم « الصمت الفيثاغورى » مدى خمس سنين — ولعل المقصود بالصمت الفيثاغورى أن يتقبل الأوامر من غير سؤال أو مناقشة — قبل أن يعترف به عضواً كاملا فى الجماعة ، وقبل أن يسمح له بأن « يرى » فيثاغورس[٢٩] أى أن يدرس عليه . وتنفيذاً لهذا النظام كان التلاميذ يقسمون إلى طلاب خارجيين وطلاب داخليين ، وكان الداخليون هم الذين يحق لهم أن يعرفوا الحكمة السرية للمعلم نفسه . وكان منهج الدراسة يتألف من أربعة موضوعات : الهندسة النظرية ، والحساب ، والفلك ، والموسيقى . وكان يبدأ بالرياضيات(*) ؛ ولكنها لم تكن العلم العملى الذى استحالت إليه على أيدى المصريين القدامى ، بل كانت علماً مجرداً نظرياً يبحث فى الكميات ، ومثلا أعلى فى التدريب المنطقى يجعل التفكير منظماً واضحاً بعرضه على محك الاستدلال الصارم والبرهان الواضح الملموس . وأضحت الهندسة النظرية من ذلك الوقت مجموعة من البدهيات ، والنظريات ، والبراهين . وكانت كل خطوة فى القضايا المنطقية المتتالية ترفع الطالب إلى مستوى أعلى من مستواه السابق — على حد قول الفيثاغوريين — يستطيع منه أن يطلع أكثر من ذى قبل على بناء العالم[٣١] . وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن

(*) ويلوح أن الفيثاغوريين كانوا أول من استعمل كلمة ماثماطيقا **Mathematike** بمعنى الرياضيات ، فقد كانت قبل أيامهم تستخدم للدلالة على تعلم أى شىء[٣٠] ، مهما يكن نوعه !

فيثاغورس نفسه كشف كثيراً من النظريات الهندسية : وأهمها كلها أن مجموع الزوايا الداخلة فى أى مثلث يساوى قائمتين ، وأن المربع المقام على الضلع المقابل للزاوية القائمة فى المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المقامين على الضلعين الآخرين . ويقول أپلودورس Appollodorus إنه لما كشف المعلم هذه النظرية ضحى بمائة ذبيحة شكراً على هذا الكشف العظيم[٣٢] . فإن كان قد فعل ذلك حقاً فقد ناقض المبادئ الفيثاغورية مناقضة يندى لها الجبين . وانتقل فيثاغورس من الهندسة إلى الحساب — على عكس النظام المتبع فى هذه الأيام . ولم يكن يقصد بالحساب وقتئذ أن يكون فناً عملياً للتعـــداد والإحصاء ، بل كان نظرية مجردة للأعداد . ويلوح أن المدرسة الفيثاغورية هى أول من قسم الأعداد إلى فردية وزوجية ، وإلى أعداد صماء وأخرى قابلة للقسمة[٣٣] ، وقد صاغت نظرية النسبة ، واستطاعت بها وبـ « بتطبيق المساحات » أن توجد الجبر الهندسى[٣٤] . ولعل دراسة النسبة هى التى أمكنت الفيثاغوريين من أن يحولوا الموسيقى إلى أعداد . ويروى أن فيثاغورس كان فى يوم من الأيام ماراً بحانوت حداد ، فاسترعت سمعه الفترات الصوتية الخارجة من ضربات السندان ، والتى بدت له كأنها فترات موسيقية منتظمة . ولمـــا عرف أن المطارق ذات أوزان مختلفة استنتج من ذلك أن النغمات تتوقف على نسب عددية . وتقول إحدى التجارب القلائل التى سمعنا بها فى علوم القدماء إنه أتى بوترين متساويين فى السمك وفى التوتر ، وتبين له أنه إذا كان طول أحدهما ضعفى طول الآخر أخرجا إذا جذبهما نغمة من الدرجة الأولى ؛ وإذا كان أحدهما قدر الآخر مرة ونصف مرة أخرجا خُمساً (دو — صول) ؛ وإذا كان لأحدهما قدر الآخر مرة وثلث مرة ، أخرجا رُبعاً (دو ، فا[٣٥]) ؛ وبهذه الطريقة يمكن أن تقدر كل نغمة موسيقية تقديراً رياضياً ، وأن يعبر عنها تعبيراً رياضياً كذلك . وإذ كانت كل الأجسام التى تتحرك فى الفضاء تخرج أصواتاً ، تتوقف درجة ارتفاعها على حجم الجسم وسرعة

حركته ، فإن كل كوكب فى فلكه حول الأرض (كما يقول فيثاغورس) يحدث صوتاً يتناسب مع سرعة انتقاله ، وهذا الصوت يعلو أيضاً كلما بعد الكوكب عن الأرض ؛ ويتكون من هذه النغمات المختلفة ائتلاف فى الأصوات أو « موسيقى الأفلاك » وهى موسيقى لا نسمعها قط لأننا نسمعها على الدوام[٣٦] .

ويقول فيثاغورس إن العالم جرم كرى حىٌّ مركزه الأرض ، وإن الأرض هى الأخرى جرم كرى تدور ، كما تدور الكواكب ، من الغرب إلى الشرق ، وقد قسم الأرض ، والعالم كله فى الحقيقة ، خمس مناطق — المنطقة الباردة الشمالية ، والباردة الجنوبية ، ومنطقة الصيف ، ومنطقة الشتاء ، والمنطقة الاستوائية ، وقال إن الجزء الذى نراه من القمر يكبر حجمه أو يصغر تبعاً للزاوية التى يواجه بها الأرض نصفُه المتجه نحو الشمس ، وإن خسوف القمر ينشأ من وجود الأرض أو أى جرم آخر بينه وبين الشمس[٣٧] . ويقول ديوجنيز ليرتس إن فيثاغورس كان أول من قال إن الأرض مستديرة ، وأول من سمى العالم كونا Kosmos «[٣٨] .

وقد عمل فيثاغورس بفضل بحوثه فى الرياضيات والفلك أكثر مما عمله أى عالم آخر لوضع أسس العلوم الطبيعية فى أوربا ، ولما أن تم له ذلك انتقل إلى الفلسفة . ويبدو أن لفظ الفلسفة نفسه من وضعه هو . وقد رفض أن يستخدم كلمة سوفيا Sophia أى الحكمة لأنها ادعاء عريض لا يرضاه ، ووصف سعيه لإدراك الحقائق بأنها فلسفة Philosophia أى محبة الحكمة[٣٩] . وقد صارت كلمتا فيلسوف وفيثاغورى فى القرن السادس كلمتين مترادفتين[٤٠] . وبينا كان طاليس وغيره من الميليتيين يبحثون عن أصل الأشياء جميعها فى المادة ، كان فيثاغورس يبحث عنه فى الشكل ، وبعد أن كشف ما فى الموسيقى من علاقات ونتائج متتالية عددية منتظمة ، وبعد أن افترض وجود هذه العلاقات والنتائج المتتالية فى الكواكب نفسها ، قفز قفزة الفلاسفة نحو الوحدة ، وأعلن أن هذه العلاقات والنتائج المتتالية العددية المنتظمة توجد فى كل مكان ، وأن العامل الجوهرى

الأساسى فى كل شىء هو العدد . وكما أن اسپنوزا قد قال فيها بعد(*) إن ثمة عالمين — أحدهما عالَم الأشياء أو عالَم الناس الذى يدركونه بالحواس والآخر عالم الفلاسفة ، أو عالم القوانين والثوابت الذى يدركه العقل — وإن العالم الثانى وحده هو العالم الحقيقى الدائم ، كذلك شعر فيثاغورس أن النواحى الأساسية الخالدة لأى شىء هى ما بين أجزائه من علاقة عددية(**) ، ولعله كان يرى أيضاً أن الصحة نفسها علاقة رياضية أو نسبة صالحة بين أجزاء الجسم أو عناصره ؛ أو أن النفس كانت هى الأخرى عدداً . وعند هذه النقطة انطلقت صوفية فيثاغورس التى استقاها من مصر وبلاد الشرق الأدنى حرة لا تلوى على شىء . فقال إن النفس تنقسم أقساماً ثلاثة : الشعور واللقانة والعقل ؛ فالشعور مركزه القلب ، واللقانة والعقل مركزهما المخ ؛ وإن الشعور واللقانة من صفات الحيوان والإنسان على السواء(†) ، أما العقل فيختص به الإنسان وحده ، وهو خالد لا يفنى(٤٢) . وتمر النفس بعد الموت بفترة من التطهير فى الجحيم Hades ، تعود بعدها إلى الأرض وتدخل فى جسم جديد ، ثم فى جسم آخر ، وتمر فى سلسلة من التناسخ لا تنتهى إلا إذا كان صاحبها قد حيى حياة فاضلة منزهة عن الرذائل بأجمعها .

وكان فيثاغورس يدخل السرور على أتباعه ، أو لعله كان يقوى عقيدتهم ، بقوله لهم إن روحه قد تقمصت مرة جسم عاهر ، ومرة أخرى جسم البطل يوفوربوس

(*) فى مقاله عن « تحسين العقل » .

(**) يحاول العلم أن يرجع الظواهر كلها إلى تقديرات كية رياضية قابلة للتحقيق . والكيمياء تتحدث عن الأشياء بلغة الرموز والأرقام ، وترتب العناصر ترتيباً رياضياً فى قوانين دورية ، وترجعها إلى حساب ذرى داخلى من الكهارب ؛ وعلم الفلك رياضيات سماوية ، وعلماء الطبيعة يجدون فى البحث عن قانون رياضى ينطبق على الكهرباء ، والمغنطيسية ، والجاذبية ؛ ولقد حاول بعض مفكرى هذه الأيام أن يعبروا عن الفلسفة نفسها فى صورة رياضية .

(†) ومن واجبنا أن نلاحظ فى هذه المقام أن فيثاغورس قد سبق باستير بعض السبق فى إنكاره التوالد التلقائى ، وقال إن الحيوانات كلها تولد من حيوانات أخرى عن طريق « البذور » أو « الأصول » .

Euphorbus ؛ وإنه يذكر بوضوح مغامراته فى حصار طروادة ، وإنه قد تعرف فى هيكلها فى أرجوس على الدرع الذى كان يلبسه فى تلك الحياة القديمة(٤٣) . وسمع مرة عواء كلب مضروب فقام من فوره لإنقاذه ، وقال إنه قد عرف فى عوائه صوت صديق له ميت(٤٤) . وفى وسعنا أن نتبين شيئاً من الصلات الفكرية التى كانت تربط بلاد اليونان وأفريقية وآسية فى القرن السادس ، إذا ذكرنا أن فكرة التناسخ هذه كانت مستحوذة فى وقت واحد على خيال الهنود وعلى طقوس أورفيوس فى بلاد اليونان وعلى إحدى الطوائف الفلسفية فى إيطاليا .

ونحن نستشف نزعة التشاؤم الهندية تمتزج فى فلسفة فيثاغورس الأخلاقية بروح أفلاطون النيرة الصافية . والقصد من الحياة فى النظام الفيثاغورى أن تخلص من التقمص ، والسبيل إلى ذلك هى الفضيلة ، والفضيلة هى ائتلاف الروح مع نفسها ومع الله . ومن المستطاع كسب هذا التآلف بطريقة اصطناعية . وكان الفيثاغوريون يستخدمون الموسيقى كما كان يستخدمها كهنة اليونان وأطباؤهم لشفاء الاضطرابات العصبية . وكانوا يعتقدون أن أكثر ما تحصل به النفس على التآلف هو الحكمة ، وهى فهم الحقائق التى يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئا ؛ وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الإنسان التواضع والاعتدال ، والطريقة الوسطى الذهبية : أما الطريقة المضادة لهذه — أى طريقة التنازع والتطرف ، والخطيئة — فتؤدى حتما إلى المآسى والعقاب والعدالة « عـــدد مربع » ، وكل خطأ « سيربع » إن عاجلا أو آجلا بالعقوبة المكافئة له(٥٤) . هذا هو جوهر فلسفة أفلاطون وأرسطو الأخلاقية .

أما سياسة فيثاغورس فهى فلسفة أفلاطون حققها من قبل أن يدركها . ولقد كانت مدرسة فيثاغورس ، حسب ما نفهمه من الروايات القديمة المتواترة ، أرستقراطية شيوعية : تطلب إلى الرجال والنساء أن يجمعوا كل ما لديهم من الطيبات ، وأن يتعلموا مجتمعين ، وأن يدربوا على الفضيلة والتفكير الراقى بطريق

العلوم الرياضية والموسيقى ، والفلسفة ، وأن يتقدموا من تلقاء أنفسهم ليكونوا حكام الدولة الحارسين لها . والحق أن الجهد الذى كان يبذله فيثاغورس ليجعل مجتمعه هو نفسه حكومة مدينته العقلية ، هو الذى أهلكه وأهلك أتباعه . فقد اندفع المبتذئون من أتباعه فى تيار السياسة . وانحازوا إلى جانب الأشراف انحيازاً أثار عليهم حزب الشعب فى كروتونا ، فاندفع أفراده فى ثورات غضبهم ، وأحرقوا البيت الذى كان الفيثاغوريون مجتمعين فيه ، وقتلوا طائفة منهم ، وأخرجوا الباقين من المدينة . وتقول إحدى الروايات إن فيثاغورس نفسه قد قبض عليه وقتل حين أبى فى فراره أن يطأ بقدمه حقلا من الفول ؛ وتقول رواية أخرى إنه فر إلى متابنتم Metapontum حيث امتنع عن الطعام أربعين يوماً — ولعله كان يحس أنه يجب أن يكتفى من العمر بثمانين عاماً — وأمات نفسه جوعاً(٤٦) .

أما أثره فهو أثر خالد على مدى الأيام : ولا يزال اسمه حتى اليوم طناناً رناناً ؛ كما عاش مجتمعه ثلثمائة عام فى صورة جماعات منتشرة فى بلاد اليونان ، يخرج منها علماء طبيعيون أمثال فيلولوس Philolaus الطيبى ، وحكام أمثال أركيتاس Archytas طاغية تاتاس Tatas وصديق أفلاطون . ولقد كان وردسورث Wordsworth فى أشهر قصائده كلها فيثاغوريا من غير أن يشعر . وكان أفلاطون نفسه يهيم بصورة فيثاغورس الغامضة ؛ وهو يأخذ عنه فى جميع نواحى نشاط الذهنى — فى سخريته من الدمقراطية ، وفى تلهفه على وجود أرستقراطية شيوعية من الحكام الفلاسفة ، وفى اعتقاده أن الفضيلة تآلف ، وفى نظرياته عن الطبيعة والنفس ، وفى شغفه بالهندسة ، وفى إيمانه بقوة الأعداد الخفية . وقصارى القول أن فيثاغورس — على قدر ما وصل إليه علمنا — هو واضع أساس العلوم الطبيعية والفلسفة فى أوربا ؛ وذلك عمل يكفى لتخليد اسم أى إنسان .

الفصل الثالث

زنوفانيز الإيلائى

فى غرب كروتونا مكانٌ لكرى Locri القديمة ، ويقول أرسطو إن هذه المستعمرة قد أسسها العبيد والزانون واللصوص الفارون من بلدة لكرى فى أرض اليونان القارية ؛ ولكن لعل الذى أنطق أرسطو بهذا القول هو احتقار العالم القديم للجديد . وساد بين المستعمرين الاضطراب الناشئ من أصلهم الأول ، فلجأوا إلى مهبط الوحى فى دلفى يطلبون النصيحة فقيل لهم إن عليهم أن يسنوا لأنفسهم قوانين . وربما كان زلوكوس هو الذى أنطق الوحى بما نطق به ، لأنه وضع للكرى فى عام ٦٦٤ قوانين قال إن أثينة أملتها عليه فى المنام . وكانت هذه أول قوانين مكتوبة فى بلاد اليونان كلها ، وإن لم تكن أولى القوانين التى هبطت من عند الآلهة . وبلغ من حب اللكريين إياها أن حتموا على كل من يريد أن يقترح قانوناً جديداً أن يتكلم وفى جيده حبل ، حتى إذا رفض اقتراحه شنقوه بأقل كلفة من الأموال العامة(*)(٧١) .

وبعد أن يطوف المسافر حول إصبع قدم إيطاليا ويتجه نحو الشمال يصل إلى رجيو Reggio ، وكانت مدينة مزدهرة أسسها أهل مسينا حوالى عام ٧٣٠ ق . م وسموها رجيون Rhegion وعرفها الرومان باسم رجيوم Rhegium ، فإذا اجتاز مضيق مسينا — ولعله هو الذى سمته الأوديسة « سلا وكربديس » Scylla and Charybdis — وصل إلى المكان الذى وقف فيه اوس Laus ؛

(*) كان اليونان مولعين بهذه الخرافة ولعل حملهم على أن يذكروها أيضاً عن قوانين كتانا Catana وثورياى Thurii ، وشنف ميشيل ده منتاى Michel de Montaigne بهذه الخطة ، ولعلها لم تبق بعد أن استنفدت غرضها .

ثم جاء بعدئذ إلى هيلى[١٤] Hyele القديمة وهى ڤليا Velia الرومانية ، المعروفة فى التاريخ باسم إليا Elea لأن أفلاطون كتبها بهذه الصورة ، ولأن فلاسفتها وحدهم هم الذين بقى ذكرهم . وهنا جاء زنوفانيز الكلوفونى حوالى ٥١٠ وأنشأ المدرسة الإليائية .

وكان ذا شخصية فذة لا تقل فى ذلك عن عدوه فيثاغورس المحبوب من أهل بلده . ذلك أنه كان جم النشاط لا يكل من العمل ، مبتكراً لا يهاب الابتداع ، ظل ستة وسبعين عاماً — على حد قوله هو نفسه — يطوف « فى أرض هيلاس من أقصاها إلى أقصاها » يجمع منها مشاهداته ويخلق لنفسه فيها أعداء أينما حل . وكان يكتب قصائد فلسفية ويتلوها على الناس ، ويندد بهومر ويعيب عليه سفاهته وعدم تقواه ، ويسخر من الخرافات ؛ وقد أنشأ ميناء فى إليا وأتم من العمر قرناً كاملا قبل أن يموت[٢٩] . ومن أقواله أن هومر وهزيود « يعزوان إلى الآلهة كل الأعمال التى تحط من قدر الآدميين وتجللهم بالعار — . كالتلصص ، والزنا والغش[٥٠] . ولكنه هو لم يبلغ شأوا بعيداً فى التقى والصلاح كما يدل على ذلك قوله :

« لم يوجد فى العالم كله ، ولن يوجد فيه ، رجل ذو علم أكيد عن الآلهة . . . فالآدميون يتصورون أن الآلهة يولدون ، ويلبسون الثياب ، وأن لهم أصواتاً وصوراً كأصوات الآدميين وصورهم . ولو كان للثيران والآساد أيد مثلنا ، وكان فى وسعها أن ترسم وتصنع صوراً كما يفعل الآدميون ، لرسمت لآلهتها صوراً وصنعت لها تماثيل على صورتها هى ؛ ولو استطاعت الخيل لصورت آلهتها فى صورتها ، ولصورت الثيران آلهتها فى صورة الثيران . والأحباش يصورون آلهتهم سوداً فطس الأنوف ؛ والتراقيون يصورون آلهتهم زرق العيون حمر الشعر . . . ألا إن ثمة إلهاً واحداً يعلو على الآلهة والبشر ، لا يشبه الآدميين فى صورته ولا فى عقله .

فهو كله يرى ، وكله يفكر ، وكله يسمع . وهو يسيطر من غير نصب على الأشياء كلها بقوة عقله[٥١] .

ويقول ديوچنيز لبرتس[٥٢] إن زنوفانيز قد وحد بين هـذا الإله والكون . وكان هذا الفيلسوف يعلم الناس أن الأشياء كلها ، بل والناس أيضاً ، مخلوقون من الطين والماء حسب قوانين طبيعية[٥٣] ، وأن الماء كان في يوم من الأيام يغطى الأرض بأجمعها لأنا نرى الحفريات البحرية فى الأرض بعيدة عن شواطئ البحار وعلى رؤوس الجبال ، وأكبر الظن أن الماء سيغطى الأرض كلها يوماً ما فى المستقبل[٥٤]. بيد أن كل ما يحدث فى التاريخ من تغير ، وكل ما يحدث فى الأشياء من فرقة وانقسام ، ليس إلا ظواهر سطحية ، وأن من تحت هذا الزحام ومن وراء ذلك الاختلاف فى الصور والأشكال وحدة لا تتبدل أبداً هى حقيقة العلم الباطنة الداخلية .

ومن هذه البداية سار پرمنيدس الإيليائى تلميذ زنوفانيز إلى الفلسفة المثالية التى كان لها أكبر الأثر فى تشكيل تفكير أفلاطون والأفلاطونيين طوال العصر القديم ، وتفكير أوربا الذى دام إلى يومنا هذا .

الفصل الرابع

من إيطاليا إلى أسبانيا

على بعد عشرين ميلا إلى شمال إليا كانت تقوم مدينة پسلونيا - پستم Paestum الرومانية - التى أنشأها مستعمرون من سيباريس لتكون آخر محطة برية إيطالية لتجارة ميليتس . وفى وسع الإنسان أن يصل إليها اليوم بعد سفرة لطيفة من ناپلى مخترقاً سالرنو Salerno ، وتظهر أمامه على حين غفلة ، على جانب الطريق ، وسط حقل مهجور ، ثلاثة تماثيل ، عظيمة حتى فى عزلتها . فلقد سد النهر فى هذا المكان مصبه بما يحمله من الغرين طوال القرون الماضية ، فاستحال هذا الوادى الذى كان من قبل وادياً صحياً طيباً مناقع ضارة بالصحة ؛ وحتى الأقوام الذين يحرثون سفوح جبل ڤيزوف ، والذين لا يبالون بما يصيبهم فى سبيل ذلك من أذى ، حتى هؤلاء قد فروا يائسين من هذه السهول الموبوءة بالملاريا . وقد أبقى الزمان على أجزاء من الجدران القديمة ، وأبقى كذلك بحالة أجود من حالة هذه الجدران - وكأن العزلة كانت من أسباب هذا البقاء - على الأضرحة التى شادها اليونان من حجر الجير المتوسط الصلابة ، ولكنها كاملة لم تكد تنال منها يد الزمان شيئاً . وقد أقام اليونان هذه الأضرحة لآلهة الحب والبحر - وأغلب الظن أن أقدم هذه المبانى ، وهو البناء الذى سمى فيما بعد « الباسلكا Basilika » ، كان هيكلا لپوسيدن . وقد شاهده له الأقوام الذين يعتمدون فى طعامهم على فاكهة البحر المتوسط وتجارته حوالى منتصف هذا القرن السادس العجيب ، الذى خلق كل عظيم فى الفن والأدب والفلسفة بين إيطاليا وشانتنج Shantung . وقد بقيت من هذا الهيكل أعمدته الداخلية والخارجية شاهدة على شغف اليونان بإقامة العمد . وأقام الجيل الذى تلاه

هيكلا أصغر من هذا الهيكل شبيهاً به في بساطته وقوته الدوريتين . ونحن نسميه « هيكل سيريز Ceres » ولكننا لا نعرف أى الآلهة كان يشم رائحة قرابينه . وشاد جيل بعد هذا الجيل أيضاً ، قبيل الحرب الفارسية أو بعيدها(٥١) ، أعظم الهياكل الثلاثة وأحسنها تناسباً ، وأكبر الظن أنه شيد لپوسيدن أيضاً — وهو من أجدر الهياكل بهذا الإله لأن فى وسع الإنسان أن يظل من أروقته على صفحة البحر الغدار الذى يغرى المطل عليه بركوبه . وأينما ولى الإنسان وجهه فى هذا الهيكل رأى عمداً : فى الخارج رواق دورى قوى كامل البناء ، وفى الداخل رواق من العمد ذو طابقين كان يحمل أعلاها فيما مضى سقفاً . وذلك منظر من أعظم المناظر الإيطالية تأثيراً فى النفس ، ولا يكاد الإنسان يصدق أن هذا الهيكل التى احتفظ بكيانه أحسن مما احتفظ به أى هيكل شاده الرومان ، كان من عمل اليونان قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون لا تكاد تنقص شيئاً . وفى وسعنا أن نستدل منه على ما كان للأقوام الذين شادوا أمثال هذا المركز لحياتهم الدينية من حيوية وولع بالجمال ، وما كانوا يستمتعون به من موارد ثراء ومن حسن ذوق . وفى وسعنا أن نتصور من بعد هذا صورة واضحة جلية لما كانت عليه المدن الكبرى مثل ميليتس ، وساموس ، وإفسوس ، وكروتونا ، وسيباريس وسرقوسة من أبهة وثراء .

وعلى مسافة قليلة من الموضع الذى تقوم عليه نابلى الحديثة ، وإلى شمالها ، أقام بعض المغامرين من كولسيس ، وإرتريا ، وكيمى Cyme العوبية ، وجرايا Graia ، حوالى عام ٧٥٠ ثغر كومية العظيم أقدم المدائن اليونانية فى غرب بلادهم . وسرعان ما أثرت كومية من استيرادها غلات بلاد اليونان الشرقية وبيعها فى أواسط إيطاليا ، وأعانها ذلك على استعمار رجيوم والسيطرة عليها ، كما سيطرت على مضيق مسينا وحرمت عبوره على سفن المدائن التى لم تعقد معها حلفاً تجاريا أو سمحت لها بالمرور بعد أداء رسوم باهظة فرضتها عليها(٥٦) . وانتشر الكوميون

جنوباً وأسسوا دسيآركيا Dicaearchia — وهى التى أصبحت فيما بعد ثغر بتيولى Puteoli (بتسيولى Pozzuoli) الرومانى — ونيپوليس Neapolis أو المدينة الجديدة وهى مدينة نابلى الحالية . ومن هذه المستعمرات انتقلت الأفكار اليونانية كما انتقلت المتاجر اليونانية إلى مدينة رومة الناشئة التى لم يكن لها وقتئذ شأن كبير بين المدن ، كما انتقلت شمالاً إلى إترووريا . واختار الرومان من كومية عدداً من الآلهة اليونانية — وبخاصة أپلو ، وهرقليز ، وابتاعوا الملفات التى تنبأت فيها سيبيل الكومية — كاهنة أپلو العجوز — بمستقبل رومة بأكثر مما تستحقه من الثمن .

وقبل أوائل القرن السادس بقليل نزل فوقيو أيونيا على سواحل فرنسا الجنوبية وأسسوا مساليا (مرسيليا) ، ونقلوا غلات بلاد اليونان فى نهر الرون وروافده حتى أرليس Arles ونيمز Nimes . واتخذوا من الأهلين أصدقاء وأزواجاً ، وأدخلوا زراعة الزيتون والكروم هدية منهم إلى فرنسا ، كما أدخلوا الحضارة اليونانية إلى غالة الجنوبية ، ونشروها بين ربوعها إلى حد يسر لرومة فيما بعد أن تنشر فيها هى الأخرى فى أيام قيصر حضارتها الوثيقة الصلة بالحضارة اليونانية . وأسس الفوقيون فى اتجاه الشرق على طول الساحل مدن أنتيپوليس Antipolis (أنتيب Antipes الحديثة) ، ونيسية Nicaea (نيس الحالية) ومنوكوش Monoecus (موناكو) . أما فى الغرب فقد وصلوا إلى أسبانيا وأسسوا مدينة رودية Rhodae (روساس Rosas) وإمپوريوم (أمپورياس) وهمروسكوبيوم Hemoroscopium ومينا كا Maenaca بالقرب من مالقة Malaga ، وأثرى اليونان فى أسپانيا وقتاماً باستغلالهم مناجم الفضة فى تارتسوس Tartessus ؛ ولكن القرطاجيين والإترووريين تألبوا عليهم فى عام ٥٣٥ ودمروا الأسطول الفوقى ، ومن ذلك الوقت أخذت قوة اليونان فى غرب البحر المتوسط تتضاءل ولم تقم لهم فيه بعدئذ قائمة .

الفصل الخامس

صقلية

لقد تركنا إلى آخر المطاف ، أو على الأصح إلى قبيل آخره ، أغنى الأصقاع التي استعمرها اليونان . ونقول أغناها لأن الطبيعة وهبت صقلية ما حرمت منه بلاد اليونان في القارة الأوربية — ونعنى بذلك تربتها التي لا يكاد ينفد خصبها بفضل أمطارها وحمم بركانها — ، ولذلك كانت تنتج من القمح والحبوب الأخرى ما جعل أهلها يعتقدون أنها إن لم تكن مسقط رأس دمتر نفسها فلا أقل من أن تكون ملجأها المفضل المحبوب . لقد كان فيها بساتين وكروم ، وآجام من أشجار الزيتون مثقلة كلها بالثمار ؛ وكان فيها شهد لا يقل حلاوة ولذة عن جنى همتوس Hymettus ، وأزهار تتفتح طائفة بعد طائفة من بداية العام إلى نهايته . كان فيها سهول كلئة ترعى فيها الماشية والضأن ، وتنمو على منحدرات تلالها أشجار لا يحصيها عد ، وسمك البحار المحيطة بها يتوالد وينمو أسرع مما يستطيع أهل صقلية أن يأكلوه .

وازدهرت في هذه الجزيرة ثقافة من ثقافات العصر الحجري الحديد في الألف الثالث من السنين التي قبل ميلاد المسيح ، وأخرى من ثقافات العصر البرنزي في الألف الثاني منها ؛ وحتى في الأيام المينوية كانت التجارة الخارجية تربط الجزيرة بكريت وبلاد اليونان[٥٧] . وفي أواخر الألف الثاني من السنين تكسرت ثلاث أمواج من الهجرة على سواحل صقلية : وهي موجة السكانيين Sicans من أسپانيا ، وموجة الإليميين Elymi من آسية الصغرى ، وموجة الصقليين Sicels من إيطاليا[٥٨] . واستقر الفينيقيون حوالى عام ٨٠٠ ق . م في متيا Motya وپنورموس Panormus (پالرمو) في غربي الجزيرة . ثم تدفق

اليونان عليها من سنة ٧٣٥ وما بعدها(*) ، وسرعان ما أسسوا ناكسوس ، وسرقوسة ، وليونتيني Leontini ، ومسانا (مسينا) ، وقطانا Catana ، وجيلا ، وهميرا Himera ، وسلينس ، وأكروجاس . وكان أهل الجزيرة الأصليون في جميع هذه الهجرات يُطردون من السواحل نحو الداخل بقوة السلاح . وقد انسحبت كثرتهم إلى الأصقاع الجبليــة الداخلية تفلحها وتستغلها ، ومنهم أقلية أصبحت عبيداً للغزاة . وتزاوج عدد منهم مع الفاتحين بلغ من الكثرة حداً أصبح معه للدم والعادات والأخلاق اليونانية في صقلية الغلبة على طباع الأهلين ، فاتصفوا بما كان يتصف به اليونان من ثورة عاطفية وانهماك في العلاقات الجنسية(٥٩) . ولم يفتــح اليونان الجزيرة في وقت من الأوقات بالمعنى الصحيح للفظ الفتح ، بل بقي الفينيقيون والقرطاجنيون أصحاب السلطة العليا على ساحلها الغربي ، ودامت الحرب بينهم وبين اليونان خمسمائة عام ، رمزاً للكفاح بين اليونان والساميين ، وبين أوربا وأفريقية ، للاستيلاء على صقلية وبدأ هذا النزاع من جديد في العصور الوسطى بين أهل الشمال (النورمان) والعرب بعد أن ظلت رومة مسيطرة على الجزيرة ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

وامتازت قطانا بشرائعها ، كما اشتهرت جــزائر ليباري Lipari بشيوعيتها ، وميرا بشاعرها سيجستا Segesta وسلينس وأكروجاس بهياكلهما ، وسرقوسة بقوتها وثرائها . وأضحت الشرائع التي سنها كارنداس Charondas لقطانا قبل صولون بجيل كامل أنموذجاً تحتذيه كثير من المدن في صقلية وإيطاليا ، وكانت عاملا قوياً في استتباب النظام العام وكبح الشهوات الجنسية في مجتمعات لا تحميها التقاليد القديمة ولا السوابق المقدسة المرعية : ومن أقوال كارنداس في هذا المعنى أن في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، كما أن في مقــدور الزوجة أن تطلق زوجها ، ولكن ينبغي للرجل ألا يتزوج أصغر من مطلقته كما أن عليها هي الأخرى

(*) أو لعل ذلك كان بعد جيل من ذلك الوقت . انظر هامش ص ٢٩٠ .

ألا تتزوج برجل أصغر ممن طلقها[٦٠] وتروى قصة يونانية الطابع نصادفها كثيراً فى القصص اليونانى أن كرنداس حرم على المواطنين أن يدخلوا الجمعية مسلحين . على أنه حدث فى يوم من الأيام أن جاء هو إلى اجتماع عام يحمل سيفه سهواً منه ، ولما أن لامه أحد الناخبين على مخالفته لشريعته أجاب بقوله : « سأؤيد هذا القانون » ثم قتل نفسه[٦١] .

وإذا شئنا أن نتصور ما كان يكتنف الحياة من صعاب فى هـذه المستعمرات التى نشأت عن طريق الفتح العنيف ، فما علينا إلا أن نستعرض النزعة الشيوعية العجيبة التى كانت تسود جزائر ليپازى (أى المجيدة) الواقعة إلى الشمال من شرق صقلية . فقد أقام فيها حوالى عام ٥٨٠ ق . م جماعة من المغامرين جاءوا من نيدس Cnidus جنة القراصنة . وكان هؤلاء يهاجمون المتاجر المارة حول المضيق ، ويأتون بغنائمهم إلى أوكارهم فى الجزيرة ويقتسمونها فيما بينهم قسمات تعد مضرب المثل فى العدالة . وكانت الأرض ملكاً للأهلين مجتمعين ، يخصصون عدداً منهم لفلحها ، ويوزعون غلتها على المواطنين توزيعاً عادلا خالياً من الظلم والإجحاف . بيد أن النزعة الفردية عادت إلى الظهور على مدى الأيام ، فقسمت الأرض أقساماً امتلكها الأفراد ، وعادت تجرى فى مجراها المألوف خالية من المساواة ، مليئة بالتنافس والتطاحن

وعلى ساحل صقلية الشمالى كانت تقوم مدينة هيمارا ، وقد شاءت الأقدار أن تجعل منها بلاثية فى الغرب ، وفيها صاغ استسكورس Stecichorus « صانع الأناشيد الجماعية » خرافات بنى جنسه فى صورة أغان جماعية فى الوقت الذى أخذ فيه اليونان يملون الملاحم الطوال ؛ وحتى هلن وأخيل نفسهما لم ينجوا من هذا التجديد القصير الأجل بل اكتسيا على يديهما بهذا « الثواب الجديد » . وكأنما أراد استسيكوروس أن يسد الثغرة بين الملحمة الميتة ، والرواية القصصية المقبلة ، فألف قصصاً شعرية ؛ روى فى إحداها كيف ماتت فتاة طاهرة لأن من أحبته لم

بستجب لحبها ، وكان الأسلوب الذى روى به هذه القصة شبيهاً بأسلوب أغانى الحب البروفنسالية Provençal فى فرنسا أو قصص العصر الفكتورى فى إنجلترا . هذا إلى أنه قد مهد فى الوقت نفسه الطريق أمام ثيوقريطس Theocritus بأن كتب قصيدة فى حياة الرعاة روى فيها موت الراعى دفنيس Daphnis الذى كان حبه لكلو Chloe موضوع الروايات اليونانية فى العصر الرومانى . وقد كتب استسيكوروس نفسه رواية غرامية كانت بطلتها هلن نفسها . ولما فقد ستسيكوروس بصره اعتقد أن هذه الكارثة لم تحل به إلا لأنه نقل إلى الخلف قصة خيانة هلن ؛ وأراد أن يكفر لها عن ذنبه (لأنها أصبحت وقتئذ إلهة) فألف قصيدة أخرى أنكر فيها ما قاله فى أغنيته الأولى ، وأكد للعالم أن هلن اختطفت من بيتها قوة واقتدارا ، وأنها لم تسلم نفسها قط لباريس ؛ ولم تذهب إلى طروادة ، بل بقيت سالمة فى مصر حتى جاء منلوس لينقذها من محنتها . وقد حذر الشاعر فى شيخوخته هيمرا من سلطة فلارس Phalaris الأكرجاسى المطلقة(*) ، فلما أصم فلارس أذنيه عن سماع نصحه انتقل إلى قطانا ، حيث كان قبره الأثرى من المناظر الرائعة فى صقلية فى العصر الرومانى .

وإلى غرب هيمرا كانت سيجستا Segesta ، التى لم يبق منها إلا رواق ذو عمد دورية ناقصة تقوم الآن وسط ما يحيط بها من الأعشاب البرية . وإذا شئنا أن نتبين طراز فن العمارة الصقلية فى أحسن صوره ، كان علينا أن نخترق الجزيرة إلى الجنوب حيث كانت المدينتان العظيمتان سلينس وأكروجاس . فأما سلينس فقد شادت للآلهة الصامتة ، فى أثناء حياتها المحزنة منذ تأسيسها فى

(*) وقد صاغ هذا التحذير فى قالب خرافة فقال إن حصاناً قد ضايقه اقتحام وعل مرعاه ، فطلب إلى رجل أن يعينه على عقاب المعتدى ووعده الرجل أن يجيب طلبه إذا سمح له أن يركبه وحربته فى يده . فوافق الحصان على ذلك ، وهرب الوعل من المرعى خائفاً مذعوراً ، ولكن الحصان وجد أنه قد أصبح عبداً للرجل .

عام ٦٥١ إلى أن دمرها القرطاجنيون عام ٤٠٩ ، بسبعة هياكل دورية الطراز ، ضخمة ولكنها تعوزها الدقة وحسن الصناعة ، يغطيها الجص المزين بالرسوم وعليها نقوش بارزة فجة . وقد دمر شيطان الزلازل هذه الهياكل فى وقت غير معروف ، ولم يبق منها سوى أعمدة محطمة وتيجان ملقاة على الأرض :

وأما أكروجاس — أجرجنتم الرومانية — فقد كانت فى القرن السادس أكبر مدائن صقلية وأعظمها ثروة . وفى وسعنا أن نتخيلها ممتدة من أرصفتها الشديدة الحركة ، إلى سوقها الصاخبة ، وإلى بيوتها القائمة على جانب التل ، ثم إلى قلعتها الحصينة الفخمة التى تكاد أضرحتها لعلوها الشاهق أن ترفع المتعبدين فيها إلى السماء . وفى هذه المدينة رضى الأشراف ملاك الأراضى أن يسلموا زمام الحكم إلى دكتاتورية تمثل الطبقة الوسطى بنوع خاص ، شأنها فى هذا شأن معظم المدن اليونانية . وفى عام ٥٧٠ اغتصب فلارس زمام الحكم ، وخلد اسمه على مر الأزمان بأن شوى أعداءه فى داخل ثور من النحاس الأصفر ؛ ولقد سره بنوع خاص أن استطاع صانعو هذا الثور أن يستحدثوا فيه طريقة تجعل عويل الضحايا يخرج من طائفة من الأنابيب كأنه خوار الثور نفسه(١٢) . لكنه رغم هذا كان هو وطاغية آخر من بعده يدعى ثيرون Theron الرجلين اللذين تمتعت المدينة فى عهدهما بالنظام السياسى والاستقرار ، وبفضلهما قطعت شوطا بعيداً فى سبيل تقدمها الاقتصادى ، حتى أصبح تجار أكروجاس كما أصبح تجار سلينس ، وكرتونا ، وسيبارس أصحاب الملايين فى تلك الأيام ، وكان ذوو المال الأقل منهم شأنا فى بلاد اليونان القديمة ، يحسدونهم شرا على ثرائهم العظيم ، وينتقمون لأنفسهم منهم بازدرائهم ، ويقولون إن الأثرياء الجدد مولعون بالضخامة والمظهر ، ولكنهم يعوزهم الذوق وجمال الفن . وما من شك فى أن هيكل زيوس فى أكروجاس كان يمتاز بضخامته ، فقد وصفه پوليبيوس بأنه «لا يعلو عليه هيكل آخر فى حجمه أو تصميمه»(٦٣) ؛ وليس فى مقدورنا أن نقدر ما كان عليه من

جهال ، لأن الحروب والزلازل دمرته تدميراً ، ثم سادت أكروجاس بعد جيل من ذلك الوقت ؛ أى فى عصر بركليز ، هياكل أخزى أقل من هذا حجماً . وقد بقى أحدها وهو هيكل الوفاق Concord بكامل أجزائه تقريباً ، كما بقى من هيكل هيرا طائفة من العمد تؤثر فى النفس بروعتها : ويكفى ما بقى من المعبدين للدلالة على أن الذوق اليونانى لم يكن مقصوراً على أثينة وحدها ، وعلى أن الغرب التجارى نفسه قد أدرك أن « الرقى ليس فى الضخامة » . وفى أكروجاس ولد إمبدقليز العظيم ، ولا يبعد أن يكون قد مات فيها أيضاً لا فى فوهة بركان إتنا Etna .

وبدأت سرقوسة بالصورة التى هى عليها اليوم — قرية محتشدة على لسان ارتجيا Ortygia الجبلى الممتد فى البحر . وكانت كورنثة قد أرسلت فى القرن الثامن جماعة من المستعمرين مسلحين بأخلاق قوية وأسلحة متفوقة للاستيلاء على شبه الجزيرة الصغيرة . ولعلها كانت وقتئذ جزيرة ، فبنوا أو وسعوا الطريق الذى يصلها بأرض صقلية ، وطردوا معظم الصقليين إلى داخل الجزيرة . وازداد أبناؤهم كما يزداد أبناء الشعب القوى فى الأرض الكثيرة الموارد ، حتى أصبحت مدينتهم على مر الأيام أكبر المدن فى بلاد اليونان كلها ؛ فكان طول محيطها أربعة عشر ميلا ، وسكانها نصف مليون . وقام العامة من سكانها الذين لم يكن لهم ما لسائر الأهلين من حقوق سياسية ، ومعهم الصقليون المسترقون بثورة على الأشراف ملاك الأراضى واستولوا منهم على أزمة الحكم فى عام ٤٩٥ . ولكن الدمقراطيـــة الجديدة — إذا جاز لنا أن نصدق أرسطاطاليس(٦٤) ، عجزت عن أن تقيم مجتمعاً منظماً ، وما زالت كذلك حتى قام جيلون الجيلى Gelon of Gela فى عام ٤٨٥ واستبدل بها دكتاتورية مستعيناً على ذلك بخطة من الغدر المستنير . وكان كالكثيرين من أمثاله حاكماً قديراً لا يرعى عهداً ولا ذمة ، يسخر من جميع المبادئ الأخلاقية والقيود السياسية ، جعل من أرتيجيا حصناً منيعاً لحكومته ، وفتح نكسوس ،

وليونتيني ، ومسانا ؛ وفرض الضرائب على شرق صقلية كله ليستعين بها على جعل سرقوسة أجمل العواصم اليونانية . ويقول عنه هيرودوت متحسراً : « وبهذه الطريقة أصبح جيلون ملكاً (*) عظيماً »(٦٥) .

ثم صلح حاله وصار باپايون صقلية المعبود ، حين بعث خشيارشاى أسطوله ليهاجم أثينة ، فسير القرطاجنيون عمارة بحرية يكاد عدد سفنها أن يساوى عدد مراكب الأسطول الفارسى ؛ لتنتزع جنة الجزائر كلها من أيدى اليونان . وكان مصير الجزيرة هو نفس المصير الذى لاقته بلاد اليونان حين واجه جيلون هملكار فى هيمرا فى نفس الشهر — أو فى نفس اليوم كما تقول الرواية المتواترة — الذى واجه فيه ثمستكليز خشيارشاى فى سلاميس :

(*) ويقول لوشيان Lucian : « لقد كان جيلون السرقوسى أبخر ، ولكنه لم يعرف ذلك عن نفسه إلا بعد زمن طويل ، لأن أحداً من الناس لم يجرؤ على أن يطلع الطاغية المستبد على هذه الحقيقة حتى جرأت امرأة أجنبية كانت ذات صلة به على أن تطلعه عليها . فما كان منه إلا أن ذهب إلى زوجته وأنبها على سكوتها عن ذلك رغم ما لديها من الفرص الكثيرة التى كانت تمكنها من الإفضاء إليه بهذا السر . وكان دفاعها أنها كانت تظن أن الرجال كلهم على شاكلته لأنها لم تعرف الرجال عن قرب طوال حياتها ولم تقترب منهم قط(٦٦) » . وبذلك لم يجد لنفسه حيلة معها .

الفصل السادس

اليونان فى أفريقية

وكان من حق القرطاجنيين أن يوجسوا فى أنفسهم خيفة ، لأن اليونان شيدوا مدناً عامرة على ساحل أفريقية الشمالى نفسه وأخذوا يستولون على تجارته . فقد أرسل الدوريون أهل ثيرا منذ عام ٦٣٠ جالية كبيرة إلى قورين فى منتصف الطريق بين قرطاجنة ومصر . ووجدوا فيها على حافة الصحراء تربة خصبة ومطراً بلغ من غزارته أن قال عنه أهل البلاد إن فى السماء من فوقهم فرجة تنصب منها الأمطار . واستخدم اليونان بعض الأرض للرعى ، وأصدروا منها إلى الخارج الأصواف والجلود واستنبتوا من نبات الأنجدان تابلا كانت بلاد اليونان بأجمعها تحرص على شرائه ؛ وكانوا يبيعون غلات بلادهم إلى أفريقية ، وارتقوا بحرفهم اليدوية إلى حد جعل المزهريات القورينية من أحسن مزهريات العالم .

وانتفعت المدينة بثروتها على خير وجه وأحكمه ، وازدانت بالحدائق الغناء ، وبأعظم الهياكل والتماثيل وحلبات الألعاب : وفيها ولد ارستپوس Aristippus أول فيلسوف أبيقورى ذائع الصيت ، وإليها عاد بعد تجوال طويل ليؤسس المدرسة القورينية .

وحط اليونان رحالهم فى مصر نفسها وهى المعروفة بكراهيتها لاستيطان الأجانب بها(*) ، وأنشأوا لهم فيها آخر الأمر إمبراطورية . فقد أنشأ الميليتيون حوالى عام ٦٥٠ محطة تجارية عند نقراطيس على فرع النيل الكانوبى . وسمح

(*) هذا ما يؤيد التاريخ نقيضه فقد كانت مصر على الدوام كريمة مضيافة لنزلائها الأجانب الصالحين ينعمون بخيراتها كما ينعم بها أبناؤها . (المترجم)

لهم أبسماتيك الأول فرعون مصر بإنشائها لأنهم يصلحون لأن يكونوا جنوداً مرتزقين ، ولأن تجارتهم كانت غنيمة طيبة له يحصل منها جباتُه على ضرائب جمركية عالية(٦٧) . ووهبهم أحمس الثانى قسطاً كبيرا من الحكم الذاتى ؛ وأصبحت نقراطيس مدينة صناعية أو كادت ، تنتج الفخار ، والقرميد ، والخزف الرقيق ؛ وأهم من هذا أنها أصبحت مستودعاً تجارياً عظيما ، يأتى إليها زيت بلاد اليونان وخمرها ، وترسل قمح مصر وتيلها ، وصوفها وعاج أفريقية وعطورها وذهبها . وانتقلت مع هذه المتاجر معارف مصر ، وطقوسها الدينية ، وعمارتها ، ونحتها ، وعلومها الطبيعية إلى بلاد اليونان ، كما دخلت مصر مع غلات اليونان ألفاظهم وأساليبهم فى الحياة ، فمهدت السبيل إلى سيطرة اليونان على مصر فى العصر الإسكندرى .

وإذا تصورنا مركباً يونانيا يسير من نقراطيس إلى أثينة ؛ أتممنا بذلك طوافنا حول العالم اليونانى . ولقد كان واجباً علينا أن نطوف هذا الطواف الطويل لكى ندرك مدى الحضارة الهيلينية ونشعر باختلاف مظاهرها . ولقد قص علينا أرسطاطاليس تاريخ النظام الدستورى فى ١٥٨ دولة من دول المدن اليونانية ، ولكنه أغفل تاريخ ألف مدينة غيرها . لقد كانت كل واحدة منها تضطلع بنصيبها فى تجارة البلاد التى نطلق عليها اسم بلاد اليونان ، وصناعتها ، وتفكيرها . وفى المستعمرات لا فى أرض اليونان الأصلية ولد فنا الشعر والنثر اليونانيان ونشأت علوم الرياضة وعلوم ما وراء الطبيعة ، والخطابة والتاريخ ، اليونانية . ولولا هذه المستعمرات وعشرات المئات من اللوامس الماصة التى بثتها فى العالم القديم تمتص بها ما فيه من علم وفن وثقافة ، ولولا هذه وتلك لمـــا وُجدت الحضارة اليونانية وهى أثمن نتاج التاريخ بأجمعه ، وعن طريق هذه المستعمرات واللوامس انتقلت حضارة مصر والشرق إلى بلاد اليونان ، وانتشرت الثقافة اليونانية انتشاراً بطيئاً فى آسية وأفريقية وأوربا .

الباب الثامن

آلهة اليونان

الفصل الأول

أصل الشرك

إذا بحثنا عن العناصر الموحِّدة فى حضارة هذه المدائن المتفرقة وجدنا منها خمسة عناصر جوهرية : لغة مشتركة ذات لهجات محلية ؛ وحياة ذهنية مشتركة لا يعرف من رجالها فى الأدب والفلسفة والعلوم خارج حدود بلادهم السياسية إلا كبارهم ، وشغف مشترك بالألعاب الرياضية ينفسون به فى المباريات التى تقام بين الأفراد فى المدن نفسها أو بين الدول بعضها وبعض ، وحب للجمال تعبر عنه المدن بأشكال من الفن عامة بين الجماعات اليونانية كلها ، وطقوس وعقائد دينية موحدة بعض التوحيد .

وكان الدين عاملا فى التفرقة بين اليــونان بقدر ما كان عاملا فى وحدتهم . فقد كان من وراء عبادة آلهة الأولمپس العامة البعيدة ، وهى العبادة التى كان فيها قسط كبير من الأدب والمجاملة ، عبادة أقوى منها للآلهة وللقوى التى تدين بالطاعة لزيوس . وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية تغذى الشرك وتجعل التوحيد مستحيلا . فقد كان لكل أسرة فى أيام اليونان القديمة إلهها الخاص ، توقد له فى البيت النار التى لا تنطفئ أبداً ، وتقرب له القربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة . وكان هذا الاقتسام المقدس للطعام بين الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التى تعمل فى البيت . وكان المولد والزواج والموت تُخلع عليها هالة

من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة ، وبهذه الطريقة كان الدين عاملا فى خلق الشعر الصوفى وفى إكساب الحادثات الرئيسية فى الحياة البشرية مسحة من الوقار أعانت على استقرارها وثباتها . وكذلك كان لكل جماعة بطنا كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص بها ، فكانت مدينة أثينة تعبد الإلهة أثينا ؛ وإلوسيس تعبد دمتر ، وساموس تعبد هيرا ، وإفسوس تعبد أرتميز ، وپوسدونيا تعبد پوسيدن . وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها ، وكان الاشتراك فى عبادة إلهها رمز مواطنيها وميزتهم والواجب المفروض عليهم . وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت معها فى مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره ، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما يخبئه الغيب لها . وكان لها عليه فى نظير هذا أن يحارب فى صفها ، وكان يبدو لأهلها أحيانا أنه قد يتجلى لهم فى مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود . ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله . وكانت المدينة ، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة ، تحتفظ على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام فى بهو المدينة ، ترمز لحياة منشئها وأبطالها القوية الخالدة ؛ وكان مواطنوها يجتمعون فى مواسم معينة ليطعموا جميعاً أمام هذه النار . وكلما كان أب الأسرة هو أيضاً كاهنها ، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركونها كبير كهنة فى دين الدولة ، وكان الإله يخلع على سلطانه وأعماله كلها ثوباً من القداسة . وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو من صياد جوال إلى مواطن مستقر .

وحرر الاستقلال المحلى خيال اليونان الدينى من القيود فأخرج للعالم أساطير دينية موفورة ومجموعة كبيرة من الآلهة . فكان كل شىء وكل قوة فى الأرض أو السماء ، وكل نعمة أو نقمة ، وكل صفة — ولو كانت رذيلة — من صفات الإنسان ، تمثل إلهاً فى صورة بشرية عادة . وليس ثمة دين يقرب آلهته من

الآدميين قرب آلهة اليونان . وكان لكل حرفة ، ولكل مهنة ، ولكل فن إله خاص أو راع حارس ؛ بلغة هذه الأيام . وكان عند اليونان فضلا عن هذا شياطين ، ونساء مجنحة ، وآلهة انتقام ، وجن ، وأرباب بشعة المنظر ، وإلاهات ذوات صوت شجي يسلب العقول ، وحور عين في البحار والغاب لا يقل عديدهن عن سكان الأرض من الآدميين . وفى هذه البلاد بنوع خاص لا تبقى حاجة للسؤال القديم « هل الدين من وضع الكهنة ؟ » ، ذلك أن من غير المعقول أن أية مؤامرة يدبرها رجال الدين الأولون تستطيع أن تخرج هذه الكثرة من الآلهة . وما من شك فى أن من أكبر النعم التى ينعم بها هؤلاء الأقوام أن يكون لهم كل أولئك الآلهة ، وكل هاته القصص الفتانة الساحرة ، وكل هذه الأضرحة المقدسة والحفلات المهيبة المرحة . لقد فطر الإنسان على أن يعبد آلهة متعددة كما فطر على الزواج من نساء متعددات ، ولا يقل عمر فطرته الأولى عن فطرته الثانية ، لأنها توائم كل المواءمة ما فى العالم من تيارات متعارضة . وإن مسيحية البحر المتوسط فى هذه الأيام لا يعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها الأولياء والقديسون . ذلك أن الشرك هو الذى يوحى إلى حياة السذج بالأساطير وما فيها من خيال وسلوى ؛ ويهب النفس الذليلة المعونة والراحة واللتين لا تجرؤ على انتظارهما من كائن أعلى رهيب بعيد لا تستطيع الوصول إليه(*) .

وكان لكل إله من الآلهة أسطورة (Mythos) أى قصة ، متصلة به تشرح سبب وجوده فى حياة المدينة ، أو تفسر الطقوس التى تقام تكريماً له .

(*) لا نوافق المؤلف على قوله إن الشرك فطرة فطر الناس عليها إلا إذا كان يقصد بالفطرة صفة الإنسان الجاهل الساذج صاحب العقل غير المستنير . ودليلنا على هذا نزعة الإنسان إلى الإيمان بوحدانية الله واقترابه من هذه الوحدانية بقدر استنارة عقله . كذلك لا نرى ما يراه من أن النفس البشرية لا تجد المعونة والراحة إلا فى الأساطير وفى الشرك ، بل نعتقد أن فى وسعها أن تجدهما فى رعاية الله الرحمن الرحيم القريب من عباده المجيب لدعوة الداعى إذا دعاه .
(المترجم)

وقد أصبحت هذه الأساطير التى نشأت نشأة تلقائية مما فى المكان ومما لدى الناس من معارف ، أو كانت من وضع الشعراء الدوارين وزخرفهم ، أصبحت هذه الأساطير عقيدة اليونان الأولين ، وفلفستهم ، وآدابهم ، وتاريخهم ، جميعاً : فنها استمدوا الموضوعات التى زينوا بها مزهرياتهم ، وهى التى أوحت إلى الفنانين ما لا يحصى من الرسـوم ، والتماثيل ، والنقوش . وقد ظل الناس إلى آخر أيام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير ، بل يخلقون الآلهة أنفسها ، رغم ما أنتجته بحوثهم الفلسفية ، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس إلى التوحيد . لقد كان فى وسع رجال من أمثال هرقليس أن يعدوا أمثال هذه الأساطير مجرد مجازات وتشابيه ، وفى وسع آخرين أمثال أفلاطون أن يعدلوها ويوفقوا بينها وبين ما تقبله العقول ، وفى مقدور رجال من أمثال زنوفانيز أن ينددوا بها وينبذوها ؛ غير أن پوزنياس ، حين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون ، وجد الخرافات والأساطير التى كانت تثير الحمية فى قلوب الأهلين فى عصر هومر لا تزال حية قوية . ذلك أن عملية تشعير الأساطير ، وتشعير(*) الدين عملية طبيعية ، تحدث فى هذه الأيام كما كانت تحدث على الدوام فى العصور الخالية ؛ وثمة نسبة للوفيات ونسبة للمواليد بين الآلهة . فالألوهية كالطاقة تبقى كميتها مهما تغيرت صورتها لا تكاد تنقص أو تزيد خلال الأجيال المتعاقبة(**) .

(*) صياغتها شعراً . (المترجم)

(**) للآراء التى يعرضها المؤلف فى هذا الفصل مؤيدون ومعارضون . وقد آثرنا أن نضعها أمام القراء ونترك لهم معارضتها أو تأييدها . (المترجم)

الفصل الثانى

سجل الآلهة

فى وسعنا أن نلقى شيئاً من الترتيب والوضوح على هذا الحشد الكبير من الآلهة إذا نحن قسمناه تقسيما مصطنعا إلى سبع مجموعات : آلهة السماء ، وآلهة الأرض، وآلهة الخصب ، والآلهة الحيوانية ، وآلهة ما تحت الأرض وآلهة الأسلاف أو الأبطال ، والآلهة الأولمبية . وأما « أسماؤها جميعاً فما يشق على الإنسان ذكرها » كما يقول هزيود[1] .

(١) وكان إله الغزاة اليونان فى بادئ الأمر ، على ما نستطيع أن نتبينه من الأساطير ، هو إله السماء العظيم المختلف الصور . ويشبه اليونان فى هذا الهنود القديين . ثم تطور هذا الإله شيئاً فشيئاً حتى أصبح هو أورانوس أو السماء نفسها ، ثم أضحى « مرسل السحاب » ، مسقط المطر ، جامع الرعد ، زيوس . وإذ كانت تلك البلاد تنال فوق كفايتها من ضوء الشمس ، ولكنها ظمآى للمطر ، فإن إله الشمس هليوس لم يكن له فيها شأن كبير ، ولذلك كان من الآلهة الصغرى . وقد صلى له أجممنون ودعاه لمعونته[2] ، وكان الاسپارطيون يضحون له بالخيل لتجر عربته الملتهبة فى قبة السماء(*) ، وكان أهل رودس حين اصطبغت بلادهم بالصبغة اليونانية يعظمون هليوس ، ويعدونه كبير آلهتهم ، ويلقون فى البحر كل عام أربعة جياد وعربة ليستخدمها فى تجواله ، وأقاموا الهيكل الضخم الذائع

(*) وطلب فيتون Phaéton (المتلألئ) ابن هليوس أن يسوق عربة الشمس فى عرض السماء . ولكنه اندفع يسوقها بتهور ، وكاد يشعل النار فى العالم كله فصعقه البرق ، وسقط فى البحر . ولعل اليونان ساقوا هذه القصة ، كما ساقوا قصة إكاروس Icarus ، ليعظوا بها الشباب .

الصيت ، وكاد أنكسجرس يفقد حياته فى أثينة پركليز نفسها ، لأنه قال إن الشمس ليست إلها وإنما هى كرة من النار لا أكثر . ثم زالت عبادة الشمس شيئاً فشيئاً حتى لم يكد يبقى لها أثر فى تاريخ اليونان القديم ، وكان القمر أقل من الشمس شأنا ، والكواكب والنجوم أقل منه ومنها .

(٢) وكانت الأرض ، لا السماء ، موطن معظم الآلهة اليونانية . فكانت الأرض نفسها فى بادئ الأمر هى الإلهة جى Ge أو جيا Gaea الأم الصابرة السمحة الجزيلة العطاء ، التى حملت حين عانقها أورانوس — السماء — فنزل المطر . وكان يسكن الأرض نحو ألف إله آخر أقل من جى شأنا ، فى مائها وفى الهواء المحيط بها : منها أرواح الأشجار المقدسة ، وخاصة شجرة البلوط ، ومنها النريدات Nereids ، والنيادات Naiads ، والأوقيانوسيات فى الأنهار والبحيرات والبحار ، وكانت الآلهة تَتَفَجر من الأرض عيونا ، أو تجرى جداول عظيمة مثل الميندر أو الاسپركيوس Spercheus ؛ وكان للريح آلهة مثل بورياس Boreas ، وزفر Zephyr ونوتس Notus ، ويوروس Eurus ، وسيدها إيوس ؛ وكان من آلهة الأرض پان العظيم ، ذو القرنين ، المشقوق القدمين ، الشبق ، المغذى ، البسام ، إله الرعاة والقطعان ، والغابات والحياة البرية ، الكامن فيها ، والذى تُسمع صفارته فى كل جدول وواد ، والذى تبعث صيحته الفزع (*) فى كل قطيع لا يعنى به ، والذى يقوم على خدمته جنيات الغاب والحراج ، وتلك الجنيات المعروفة بالسليني Sileni وهى مخلوقات نصف جسمها معز ونصفه بشر . وكان فى كل مكان فى الطبيعة آلهة ، وكان الهواء غاصا بالأرواح الطيبة أو الخبيثة لا تكاد « تجد فيه شقا فارغا تستطيع أن تدفع فيه طرف ورقة نبات » كما قال شاعر غير معروف(٥) .

(٣) وإذ كانت أعجب قوى الطبيعة وأقواها هى قوة التكاثر ، فقد كان

(*) إن كلمة Panic أى الذعر مشتقة من الإله پان . (المترجم)

طبيعياً أن يعبد اليونان ، كما كان يعبد غيرهم من القدامى ، رمزى الإخصاب الرئيسين فى الرجل والمرأة إلى جانب عبادتهم خصب التربة . ولهذا كان قضيب الرجل وهو رمز الإنتاج يظهر فى طقوس دمتر ، وديونيسس ، وهرمس ، وحتى فى طقوس أرتميس الطاهرة(٦) . ويتكرر ظهور هذا الرمز فى النحت والتصوير فى أهم عصر من عصورهما تكراراً فاضحاً ، بل إن عيد ديونيشيا العظيم ، وهو الاحتفال الدينى الذى كانت تمثل فيه المسرحيات اليونانية ، كان يفتتح بموكب تحمل فيه رموز قضبان الرجال ترسل الكثير منها المستعمرات الأثينية شاهداً على صلاحها وتقواها(٧) . وما من شك فى أن هذه الحفلات كانت تثير الكثير من الفكاهات الجنسية البذيئة ، كما تدلنا على ذلك كتابات أرستفنيز ، ولكن كثرتها كانت خالية من هذه البذاءة ، ولعلها كانت تثير الشهوة الجنسية فى الرجال والنساء وتساعد على كثرة النسل(٨) .

وكانت أحط ناحيــة من نواحى مراسم الإخصاب تظهر فى العهود التى انتشرت فيها الحضارة اليونانية الصبغة والحضارة اليونانية ، والتى كان يعبد فيها پرياپوس Priapus الذى ولد نتيجة لاتصال ديونيسس وأفروديتى ، والذى كان الفنانون يزينون بصورته المزهريات وجدران المبانى فى پمپى Pompeii . وكان أظرف من هذه المراسم وأعف فى موضوع التناسل نفسه إجلال الإلهات التى ترمز إلى الأمومة . فقد كانت أركاديا ، وأرجوس ، والوسيس ، وأثينة ، وإفسوس ، وغيرها من الأماكن تجل أعظم الإجلال إلهات معظمهن لا أزواج لهن ، كن فى أغلب الظن أثراً من آثار عصر ينسب الأبناء فيه إلى الأمهات قبل أن يحل عصر الزواج(٩) ؛ ولقد كان الاعتراف بسلطان زيوس الإله الأب على سائر الآلهة رمزاً لانتصار مبدأ سيطرة الآباء على الأمهات(*) . ولعل سبق النساء على

(*) على القارئ أن يلاحظ عدم وجود إلهات أمهات فى المجتمعات ذات الصبغة الأبوية القوية كالمجتمعات اليهودية والإسلامية والمسيحية والپروتستنتية (المؤلف) . يصعب علينا أن —

الاشتغال بالزراعة ، وهو السبق الذى يرجحه الكثيرون ، قد ساعد على إيجاد أعظم إلهة من هاته الإلهات الأمهات ، وهى دمتر إلهة الحنطة أو الأرض المنزرعة . ومن أجمل الأساطير اليونانية التى تقصها فى أحسن عبارة ترنيمة دمتر وهى الترنيمة التى كانت تعزى فى وقت من الأوقات إلى هومر نفسه ، نقول إن من أجمل هذه الأساطير أسطورة تصف كيف اختطف پلوتو Pluto إله العالم السفلى پرسفونى ابنة دمتر ونزل بها إلى الجحيم ، وكيف أخذت أمها الحزينة تبحث عنها فى كل مكان حتى عثرت عليها وأقنعت پلوتو أن يسمح لابنتها بأن تعيش على ظهر الأرض تسعة أشهر فى كل عام — وذلك رمز ظريف لموات التربة السنوى وتجددها . وإذ كان أهل إلوسيس قد عطفوا على دمتر المتنكرة وهى « جالسة فى الطريق فى أشد حالات الحزن والكرب » ، فقد علمتهم هم وأهل أتكا سر الزراعة ، وأرسلت ترپتولموس Triptolemus ابن ملك إلوسيس لينشر هذا الفن بين بنى الإنسان . وهذه الأسطورة تفتق فى جوهرها وأسطورة إيزيس Isis وأوزيريس Osiris فى مصر ، وأسطورة تموز وإشتار فى بابل ، وأسطورة عشتروب وأدنيس فى سوريا ، وسيبيل وأتيس فى فريجيا . وقد بقيت طقوش الأمومة طوال عصر اليونان العظيم ، ثم عادت إلى الحياة من جديد فى صورة تقديس مريم أم الإله .

(٤) وكانت بعض الحيوانات فى تاريخ اليونان المبكر تعظّم وتتخذ أنصاف آلهة — إذا جاز هذا التعبير . وكان السبب فى أنها لم ترق إلى مرتبة الآلهة الكاملة أن الدين اليونانى كان فى العصر الذى ازدهر فيه فن النحت ديناً آدميا إلى حد لا يسمح بوجود آلهة حيوانية كثيرة بالصورة التى نجدها فى مصر والهند ؛ ولكن أثراً من آثار ما قبل هذا العصر الزاهر يبدو لنا فى كثرة الجمع بين الحيوان والإله فى بعض التماثيل . ولقد كان الثور حيواناً مقدساً لقوته وقدرته ، وكثيراً

= تفهم ما يرمى اليه المؤلف بقوله عدم وجود إلهات فى الإسلام وهو دين التوحيد الذى لا يعترف بالألوهية إلا لله وحده . (المترجم)

ما كان يوصف بأنه رفيق لزيوس وديونيسس ، أو صورة لها تنكرا فيها ، أو رمزاً لها ، وربما كان إلها قبلهما[١٠] ولعل « هيرا ذات العين البقرية » ، كانت هي أيضاً بقرة مقدسة[١١] . وكان الخنزير أيضاً مقدساً لكثرة تناسله ، وكان يجمع بينه وبين دمتر الظريفة . وكان القربان الظاهر الذى يقدم لها هى فى أحد أعيادها المعروف بعيد الثسموفوريا Thesmophorio خنزيرا ، أو لعل القربان كان يقدم إلى الخنزير نفسه[١٢] . وفى عيد الديازيا Diasia كان هذا القربان يقرب لزيوس فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة كان يقرب إلى أفعى تسكن فى باطن الأرض تسمى وقتئذ باسمه تكريما لها[١٣] . وسواء أكان تقديس الأفعى لأنها فى ظنهم لا تموت ، أم لأنها ترمز إلى القدرة على التناسل والإنتاج ، فإنا نراها تنتقل فى صورة إلهة من أفعى كريت إلى أثينة القرن الخامس ؛ فقد كانت أفعى مقدسة تقيم فى هيكل أثينة على الأكروبوليس ، وكان يقدم إليها فى كل شهر كعكة مقدسة زلفى إليها واستدراراً لعطفها . وكثيراً ما ترى الأفعى فى الفن اليونانى حول تماثيل هرمس ، وأبلو ، وأسكليبيوس[١٥] ؛ وقد صوّر فيدياس أفعى ضخمة محاطة بإكليـــل من الزهر فى درع « أثينى برثنوس » ، وتغطى الأفاعى الجزء الأكبر من تمثال أثينا الفرنيزية[١٦] . وكثيراً ما كانت الأفعى تتخذ رمزاً للإله الحارس للهياكل والمنازل أو صورة لهذا الإله[١٧] ، وربما كانت كثرة وجودها حول المقابر سبباً فى اعتقاد الناس أنها روح الموتى[١٨] . ويعتقد بعضهم أن الألعاب الدلفية قد احتفل بها فى بادئ الأمر تكريما لأفعى دلفى الميتة .

(٥) وكانت أكثر الآلهة رهبة تعيش تحت الأرض . ففى المغارات والشقوق وأمثالها من الفتحات السفلى ، كانت تعيش تلك الآلهة الأرضية التى لم يكن اليونان يعبدونها بالنهار عبادة تنطوى على الحب والإجلال ، بل كانوا يعبدونها ليلا عبادة مصحوبة بأناشيد وطقوس تنم عن التوبة والهلع . وكانت هذه القوى غير البشرية هى المعبودات الحقيقية الأولى لبلاد اليونان ، وكانت أقدم من

معبودات الهيلينيين ، بل لعلها أقدم من معبودات الميسينيين الذين نقلوها فى أغلب الظن إلى بلاد اليونان نفسها . ولو أننا استطعنا أن نتتبعها إلى أصلها الأول لكان فى وسعنا أن نصل إلى أنها كانت فى بدايتها الأرواح المنتقمة للحيوانات التى طردها بنو الإنسان إلى الغابات أو إلى ما تحت الأرض فى أثناء تقدمهم وتكاثرهم . وكان أعظم هذه الآلهة الأرضية هو زيوس الأرضى ؛ وزيوس هنا اسم نكرة لا يعنى أكثر من إله[١٩] . وكان يسمى أحيانا زيوس ميلكيوس Meilichios أى زيوس الخَيِّر ؛ ولكن الوصف هنا أيضاً وصف خادع يقصد به استرضاء هذا الإله الذى كان يصور فى صورة أفعى رهيبة . وكان هاديز Hades ربُّ ما تحت الأرض أخا لزيوس وعند أخذ اسمه . وأراد اليونان أن يسكنوا غضبه فسموه بلوتو أى واهب الوفرة ، لأنه كان فى مقدوره أن يبارك أو يبيد جذور كل ما ينبت على سطح الأرض(*) . وكان أشد من بلوتو روعة ورهبة الإلهة هكتى Hecate ، وهى روح خبيثة تخرج من العالم السفلى وتسبب البؤس والشقاء بعينها الحاسدة الشريرة لكل من تزوره من الخلائق . وكان القليلو العلم من اليونان يقربون لها الجراء ليبعدوها عنهم[٢١] .

(٦) وكان الموتى قبل عصر اليونان المجيد يعدون أرواحا قادرة على أن تفعل للناس الخير والشر ، وتسترضى بالقرابين والصلاة . ولم تكن هذه الأرواح آلهة بالمعنى الصحيح ، ولكن الأسرة اليونانية البدائية كانت تعظم موتاها تعظيما يفوق تعظيمها أى إله من الآلهة ، شأنها فى هذا شأن الأسرة الصينية[٢٢] . وكان اليونان فى عصرهم الزاهر يرهبون هذه الأشباح الغامضة أكثر مما يحبونها ، وكانوا يسترضونها بطقوس ومراسم يقصد بها إبعادها واتقاء شرها ، كما كانوا يفعلون

(*) وكان بلوتس Plutus إله الثروة صورة من بلوتو . وكانت الثروة عند اليونان الأولين تتخذ فى أكثر الأحيان صورة الحبوب مزروعة فى الأرض أو مخزونة فى جرار ، وكانت فى كلتا الحالين تحت حماية بلوتو .

فى عيد أنثستريا Anthesleria . وكانت عبادة الأبطال امتداداً لعبادة الموتى ؛ فكان فى وسع الآلهة أن تهب العظيم أو الشريف ، أو الرجل الجميل أو المرأة الجميلة ؛ الحياة الخالدة فتجعله أو تجعلها من بين الآلهة الصغرى . وكذلك كان سكان أولمبيا يقربون القرابين فى كل عام إلى هپوداميا Hippodameia ؛ وكانت كسندرا Cassandra تعبد فى لوكترا Leuctra اللكونية Laconian ، وهلن فى اسپارطه ، وأوديب فى كولونوس Colonus وكان يحدث أحياناً أن ينزل الإله ويتقمص جسم إنسان ، فيستحيل هذا الإنسان إلها ، وقد يتصل الإله اتصالا جنسياً مع امرأة من الآدميين فتلد بطلا — إلها كما فعل زيوس مع ألكمينا فولدت هرقل . وكان كثير من المدن والجماعات ، وأبناء الحرف أنفسهم ، يصلون أنسابهم ببطل من أبناء الآلهة ؛ فكان أطباء اليونان مثلا يصلون نسبهم إلى أسكلپيوس . وكان الإله فى أول الأمر من الأسلاف أو الأبطال الموتى ، كما كان المعبد فى الأصل قبرا ، ولا تزال الكنيسة حتى الآن فى معظم البلاد مكانا تحفظ فيه آثار الموتى القديسين .

ويمكن القول بوجه عام إن اليونان لم يكونوا يفرقون بين الآدميين والآلهة بقدر ما نفرق نحن بينهم ؛ فقد كان كثير من آلهتهم لا يقلون فى آدميتهم عن القديسين عندنا ، اللهم إلا فى مولدهم ، وكانوا قريبين إلى عبادهم قرب القديسين إلينا ؛ وكان بعضهم مثل ديونيسس يموتون وإن سموا بالخالدين .

٢ — الآلهة الأولمبية

كانت هذه الآلهة كلها فى المرتبة الثانية من الشهرة بين آلهة اليونان وإن لم تكن حتما فى المرتبة الثانية من التعظيم . ترى لأى سبب لا نسمع فى شعر هومر عن هذه الآلهة إلا القليل ، ولأى سبب نسمع عن الآلهة الأولمبية الشىء الكثير ؟ أكبر الظن أن مرد هذا إلى أن آلهة أولمپس قد جاءت إلى البلاد مع الآخيين

والدوريين وزلزلت عروش الآلهة الميسينية والأرضية ، وغلبتها كما غلبت من كانوا يعبدونها . وفى وسعنا أن نشاهد ماحدث للآلهة الأولى فى دودونا Dodona ودلفى حيث حل زيوس فى المدينة الأولى محل جيا وحل أبلو محلها فى الحالة الثانية . على أن الآلهة المغلوبة لم تمح من الوجود محوا تاما بل بقيت خاضعة للآلهة الجديدة تأتمر بأمرها إذا صح أن نتحدث عن شئون الآلهة بمثل هذا الحديث ، فانزوت ذليلة تحت الأرض ولكنها ظلت موضع التبجيل من عامة الشعب ؛ بينما كانت الآلهة الأولمبية المنتصرة تتقبل وهى مستوية على عروشها فى أعلى الجبل صلوات عبادها الأشراف . وهذا هو السبب فى أن هومر الذى كان يكتب للصفوة المختارة لايكاد يحدثنا بشىء عن آلهة الأرض . وهكذا أعان هومر وهزيود والمثالون الفاتحين أصحاب السلطة السياسية العليا على نشر عبادة الآلهة الأولمبية . وقد حدث فى بعض الحالات أن اتحدت الآلهة الصغرى أو امتزجت بالكبرى ، وأصبحت من حاشيتها أو أتباعها ، كما كانت الدول الصغرى تنضم من حين إلى حين إلى الدول الأكبر منها أو تخضع لحكمها . وهكذا خضعت جنيات الآجام صغارها وكبارها لديونيس ، وخضعت حور البحار لپوسيدن كما خضعت الأرواح التى تقطن الغابات لأرتميس ، واختفت الطقوس والأساطير الهمجية شيئاً فشيئاً على مر الأيام ؛ وحلت محل الأساطير المضطربة التى كانت تصور الأرض ملأى بالشياطين حكومة للآلهة على شىء من النظام كانت فى واقع أمرها مرآة ينعكس عليها ما طرأ على العالم اليونانى من استقرار سياسى آخذ فى النماء .

وكان على رأس هذا النظام الإلهى الجديد رب الأرباب زيوس العظيم ؛ ولم يكن زيوس أول من وجد من الآلهة ، فقد سبقه كما رأينا من قبل أورانوس وكرونوس ، ولكنهما هما والجبابرة Titans قد ثلت عروشهم كما ثلت عروش جيش الشيطان Lucifer (*). وقسم زيوس وإخوته العالم ووزعوه فيما بينهم بطريق

(*) لقد أصبح النزاع الذى قام بين زيوس وأعوانه من جهة وبين الجبابرة من جهة —

القرعة ؛ فكانت السماء من نصيب زيوس ، وكسب پوسيدن البحار ، وكسب هيديز باطن الأرض . وليس فى أساطير اليونان ذكر لخلق العالم ؛ فقد وجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة ولم تخلق الآلهة الإنسان من حمأ بل خلقته من تزاوج الذكور منها بالإناث ، أو بتزاوجها بأبنائها غير الخالدين ؛ والله فى دين اليونان ليس إلا والداً ، كما أن الآلهة الأولمبية ليست قادرة على كل شىء عارفة بكل شىء ؛ بل إن كل واحد منها يحدد سلطان الآخر ويعارضه أحياناً ، وكلها بما فيها زيوس نفسه يمكن أن يخدع ؛ غير أنها على بكرة أبيها تقر له بالسيادة عليها ، وتحشد فى بلاطه كما يحتشد الأتباع فى ساحة أمير إقطاعى ؛ وهو وإن استشارها فى بعض الشئون ، وعمل برأيها فى بعضها وإن خالفت رأيه[٢٣] ، كثيراً ما يزجرها ويلزمها أن تعرف قدر نفسها[٢٤] . وهو يبدأ بأن يكون إلهاً للسماء والجبال ، ومنزل المطر الذى لا غنى للناس عنه(*) ، وهو فى بعض صوره الأولى إله حرب كيهوه ، يجادل نفسه هل ينهى حصار طروادة أو « يجعل الحرب أكثر مما كانت وحشية وإراقة للدماء » ويأخذ بالرأى الثانى[٢٦] . ثم يصبح بالتدريج حاكم الآلهة والبشر ، الهادئ القوى الجالس فوق أولمپس ، الملتحى الوقور ، رأس النظام الأخلاقى ومصدره فى العالم كله ، يعاقب غير البررة من الأبناء ، ويحمى أملاك الأسرة ، ويوثق الأيمان ، يعاقب الحانثين ، ويحفظ الحدود ، والمساكن ، والمتضرعين ، والأضياف ، وهو أخيراً المصـــدر الأعلى للأحكام الذى نحت فدياس تمثاله لأولمپيا .

= أخرى فى نظر اليونان رمزاً لتغلب الحضارة والعقل على الهمجية والقوة الوحشية وقد استمد الفن منه كثيراً من موضوعاته .

(*) أكبر الظن أن لفظ زيوس ذو صلة بكلمة **dies** اللاتينية التى اشتقت منها كلمة **day** الإنجليزية ، وقد تكون مأخوذة من أصل هند — ورپى هو **id** ومعناه يلتمع . وجوپتر عند الرومان هو ريو — پاتر **Zeu - pater** أى زيوس الأب ، ومنه اشتقت كلمة **dios** . وفى هذه الأيام سميت الأماكن وقمم الجبال التى كان يأوى إليها زيوس أو كانت حرماً مقدساً له باسم القديس إلياس من قديسى الكنيسة اليونانية ومنزل المطر للبلاد ، أو أصبحت حرماً مقدساً لهذا القديس[٢٥] .

وعيبه الوحيد هو ما يدفعه إليه نزق الشباب من استسلام سريع للحب ، وإذ لم يكن هو خالق النساء فإنه يعجب بهن ويراهن كائنات عجيبة تجد الآلهة نفسُها فيهن موهبة الجمال والحنان ، وهما صفتان تسموان عن كل تقدير ؛ ويجد نفسَه عاجزاً عن مقاومة إغرائهن . ويذكر هزيود ثبتاً طويلا بمحبوبات الإله ، وبما أنجبن منه من أبناء عظام[٢٧] . وكانت حبيبته الأولى ديونى ، Dione ولكنه يغادرها فى أبيروس حين يهاجر إلى أولمپس فى تساليا ، وفيها تكون زوجته الأولى هى متيس Metis إلهة الكيل ، والعقل ، والحكمة ؛ ويترامى إليه أن أبناءها سينزلونه عن عرشه ، فيبتلعها ، ويأخذ منها صفاتها ، ويصبح هو نفسه إله الحكمة ؛ وتلد متيس أثينا فى جوفه ، وإذن فلا بد من قطع رأسه حتى تخرج إلى العالم ، ويحس هو بالوحدة والحاجة إلى المؤنس الجميل فيتزوج ثميس Themis وتلد له الساعات الاثنتى عشرة ؛ ثم يتزوج يورينوم وتلد له الإلاهات اللطف الثلاث ؛ ثم يتزوج نموسينى Mnemosyne وتلد له ربات الشعر التسع ؛ ثم ليتو وينجب منها ولديه أپلو وأرتميس ؛ ثم أخته دمتر وينجب منها پرسفونى : فإذا ما صرف شبابه فى الملاذ على هذا النحو تزوج آخر الأمر أخته هيرا وأجلسها ملكة على أولمپس فتلد له هيبى Hebe ، وأريس Ares ، وهفستوف Hephaestus ، وأيليثيا Eileithyia ، ولكن الشقاق يقع بينه وبينها ، لأنها لا تقل عنـــه سناً ؛ وهى تلقى أكثر مما يلقى من التكريم فى كثير من الدول اليونانية ؛ وهى رعاية الزواج والأمومة ، وحامية الروابط الزوجية ؛ وهى ظريفة أنيقة ، وقورة ، فاضلة ، لا يعجبها عبثه ومداعباته ؛ وهى إلى هذا كله سليطة إلى أبعد حد . ويهم بأن يضربها[٢٨] ، ولكنه يرى أن أيسر من ضربها عنـــده أن يفرج عن كربه بزيجات جديدة . وكانت نيوبى أولى زوجاته من الآدميين ، وكانت آخرهن ألكمينا وهى من نسل نيوبى فى الجيل السادس

عشر(*) ، وهو يسير على سنة اليونان فى عدم التفريق بين الذكور والإناث ، فيحب جنميد الوسيم ، ويختطفه لكى يجعله ساقيه فوق أولمبس ،

وكان من الطبيعى أن يكون من بين أبناء هذا الأب المخصب بعض النجباء الممتازين . من ذلك أن أثينا حين ولدت كاملة النمو والسلاح من رأس زيوس ، أمدت أدب العالم بإحدى استعاراته التى ما زالت تتكرر حتى ملها الناس . وكانت أجدر الآلهات بأن تكون إلهة مدينة أثينة ، تفخر بأنها عذراء وتتخذ من هذا سبباً لمواساة فتياتها العذارى ، وتبعث فى نفوس رجالها الحماسة الحربية ، وتمثل لبركليز الحكمة التى هى خليقة بها لأنها ابنة متيس وزيوس . ولما حاول الجبار بلاس Pallas أن يغازلها قتلته وأضافت اسمه إلى اسمها ليكون ذلك نذيراً لغيره من خطابها . وقد خصتها مدينة أثينة بأجمل هياكلها وأفخم أعيادها .

وكانت عبادة أبلو الوسيم أوسع انتشاراً من عبادة أخته أثينا ، وكان أبلو إله الشمس المتلألئ ، راعى الموسيقى والشعر والفن ، منشئ المدن ، مشرع القوانين ، إله الشفاء ووالد أسكلبيوس ، إله الحرب الرامى بالنبال إلى أبعد مدى ، الذى خلف جيا وفوبى Phoebe(**) . فى دلفى ، وكان أقدس من ينزل الوحى فى بلاد اليونان ، وكان إله المحاصيل النامية ، وبهذه الصفة كان يتلقى العشور فى أيام الحصاد ، وكان فى نظير هذا يبعث بدفئه وضوئه الذهبيين من ديلوس ودلفى ليخصب التربة ويغنيها . وكان فى كل مكان يقترن بالنظام والاعتدال والجمال ؛ وبينما كانت عبادة غيره من الآلهة ومراسمها تتضمن كثيراً من عناصر الخوف والخرافات الغريبة ، كانت النغمة السائدة فى عبادة أبلو وفى أعياده العظيمة فى

(*) من واجبنا أن نضيف إلى هذا ، إنصافاً للموتى ، أن معظم هذه المغامرات كانت فى أغلب الظن من اختراع الشعراء أو القبائل التى كانت تحرص على أن تصل أنسابها بأعظم الآلهة كلها .

(**) ومن فوبى اشتق اسم فيبوس أى « الملهم » .

دلفى وديلوس هى التعبير عن ابتهاج الشعب المستنير بإله الصحة والحكمة والعقل والغناء ، وكانت أخته أرتميس (ديانا) . سعيدة مثله . وكانت أرتميس إلهة الصيد العذراء ، المنهمكة فى شئون الحيوانات ، وفى ملذات الغابات ، انهماكا لا يترك لها وقتاً لحب الرجال ، وكانت إلهة الطبيعة البرية ، والمراعى والغابات والتلال ، والغصن المقدس . وكما كان أپلو المثل الأعلى للشباب اليونانى ، كذلك كانت أرتميس المثل الأعلى للفتيات اليونانيات — كانت قوية الجسم ، رياضية رشيقة عفيفة ، وهذا فقد كانت راعية النساء فى الولادة ، وكن يدعونها لتخفف عنهن آلام الوضع . وكانت تحتفظ فى إفسوس بطبيعتها الأسيوية ، فكانت إلهة الأمومة والإخصاب ؛ وبهذه الطريقة اختلطت فكرتا العذراء والأم فى عبادتها ، وقد وجدت الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس بعد الميلاد أن من الحكمة أن تضيف ما بقى من هذه الطقوس الدينية إلى مريم ، وأن تحول عيد الحصاد الذى كان يقام لأرتميس فى منتصف أغسطس إلى عيد انتقال العذراء إلى السماء[٢٩] . وبهذه الطريقة وأمثالها يحتفظ الجديد بالقديم ويتبدل كل شىء عدا الجوهر ذلك أن التاريخ كالحياة يجب أن يستمر أو يموت ؛ فقد تتبدل الأخلاق والأنظمة ولكنها تتبدل ببطء ؛ وإذا حال حائل قوى بينها وبين نمائها وتطورها نسيت الأمم نفسها وجن جنونها .

وكان من بين تلك الآلهة إله أشبه ما يكون بالآدميين ، هو الصانع الأولمبى الماهر هفستس الأعرج المعروف عند الرومان باسم فلكان Vulcan . ويبدو أن هذا الإله المهين المظلوم ، إله السماء الأول كان إلها سخيفاً خليقاً بالرثاء ، ولكنه فى آخر الأمر يستدر عطفنا أكثر مما تستدره الآلهة الماكرة التى لا ضمير لها ، والتى تسىء معاملته ، ولعله كان فى أيامه الأولى ، قبل أن يصير قريب الشبه بالأناس ، روح النار والكير . وهو فى قصص هومر الدينى ابن زيوس وهيرا ، ولكن أساطير غير أساطير هومر تؤكد لنا أن هيرا حسدت زيوس على مولده

لأثينا بلا معونة ، فولدت هى الأخرى هفستس من غير حاجة إلى ذكر . ولما رأته قبيح المنظر ضعيف الجسم ، ألقت به من فوق أولمپس ، ولكنه عرف طريق العودة إلى موطنه ، وشاد للآلهة القصور الكثيرة التى كانوا يسكنون فيها . وكان يكن لأمه كل شفقة وإجلال رغم ما لقيه على يديها من سوء المعاملة ، وقد دافع عنها دفاعا مجيداً فى نزاعها مع زيوس ، فما كان من إله أولمپس العظيم إلا أن أمسك بساقه وقذف به إلى الأرض . واستغرق هفستس فى تروله يوماً كاملا ، حتى استقر آخر الأمر على جزيرة لمنوس ، وجرح عقبه ، ويؤكد العارفون أنه أصبح من ذلك الحين شديد العرج يتألم كلما مشى (وإن كان هومر يقول إنه كان أعرج قبل هذه الحادثة) . وعاد مرة أخرى إلى أولمپس ، وصنع فى حانوته الكثير الضوضاء سنداناً ضخماً وضع فيه عشرين منفاخاً كبيراً ، وعمل دروع أخيل ، وتماثيل تتحرك من نفسها ، وعجائب أخرى كثيرة . وكان اليونان يعبدونه بوصفه إله جميع الصناعات المعدنية ، ثم أصبح عندهم إله جميع الصنائع اليدوية ، وكانوا يعتقدون أن البراكين هى مداخن حوانيته التى تحت الأرض . وكان من سوء حظه أن تزوج أفروديتى ووجد أن من أصعب الأمور أن تجتمع الفضيلة والجمال فى شخص واحد . ولما عرف هفستس بما كان بينها وبين أريس ، صنع للمحبين شركا وقع عليهما فى أثناء اجتماعهما . وهكذا انتقم الإله الأعرج لعرجه بأن عرض على زملائه الآلهة إلهى الحب والحرب مكبلين فى الأغلال ، وكان منظراً أثار ضحك الآلهة . وقال هرمس لأپلو — كما يحدثنا هومر :

« أى هرمس يابن زيوس ... هل يرضيك حقيقة أن تنام على فراش واحد بجانب الإلهة أفروديتى ، ولو كنت مكبلا بالأغلال الثقال ؟ » فأجابه الرسول(*) يقول : أيها الإله أپلو ؛ ليت هذا يكون ، وليتنى أكبل بثلاثة أمثال هذه الأغلال التى لا أجد منها خلاصا ، وأن تشاهدونى أنتم أيها الآلهة — نعم

(*) يقصد هرمس لأنه رسول الآلهة . (المترجم)

والإلهات كلها أيضاً — إن استطعت أن أنام إلى جوار أفروديتي الذهبية[٣٠] » .

حسبنا هذا عن هفستس ؛ أما إزيس (المريخ) فلم يكن يمتاز بالذكاء أو الدهاء ؛ وكانت صناعته الحرب ، وحتى سحر أفروديتي ومفاتنها لم تكن تثير فيه النشوة التي يثيرها التقبيل الذي كان شهوة وغريزة فيه . ويسميه هومر « نقمة صبت على البشر » ، ويصف لنا وهو مغتبط كيف ألقته أثينا على الأرض بضربة حجر ، ويقول إنه « وهو نائم قد غطى سبعة أفدنة[٣١] » .

هذا أريس أما هرمس (ميركري أو عطارد) فأكثر منه طرافة . فقد كان في بادئ أمره حجراً ، وعبادته مستمدة من عبادة الحجارة المقدسة ؛ ولا تزال المراحل التي مر بها ظاهرة واضحة ، فقد صار في المرحلة الثانية الحجر الطويل الذي يوضع فوق المقابر ، أو الروح (الديمون) الكامنة في هذا الحجر ؛ ثم صار بعدئذ حجر الحدود أو إلهها ، يحدد الحقول ويحرسها ، وإذ كان عمله فيها فضلا عن تحديدها وحراستها هو توفير الخصب لها ، فقد صار قضيب الرجل رمزاً من رموزه . ثم أصبح فيما بعد العمود — ذا الرأس المنحوت ، والجسم غير المنحوت ، وعضو التذكير البارز — الذي كان يوضع أمام بيت كل أسرة ذات شأن في أثينة[٣٢] . وسنرى كيف كان بتر هذه الأعمدة عشية الحملة على سرقوسة السبب المباشر لهلاك ألقبيادس وخراب أثينة . وهو إلى هذا كله إله المسافرين ، وحامي المنادين ، وعصيهم من أحب شعائره إليه . وقد أصبح بوصفه إله المسافرين إله الحظ ، والتجارة ، والدهاء ، والكسب ، ومن ثم أصبح مخترع المكاييل والموازين ، وحارسها ، كما أصبح الملاك الراعي للحانثين والمختلسين واللصوص[٣٣] . وهو نفسه بشير ونذير يحمل الرسائل والأوامر بين الآلهة الأولمبية أو بينها وبين البشر ، وهو يسير على خفين مجتمعين بسرعة الريح الغاضبة العاصفة ، وتكسبه هرولته ليناً ورشاقة ، وتهيئه لأن يتخذ الصورة التي يظهر بها في تمثال پركستليز . وهو بوصفه شاباً سريع العدو قوي الجسم ، راعي الرياضيين ونصيرهم ، ونجد صورته التي تظهر

فيها رجولته كاملة مكانا لها فى كل مكان للتدريب العضلى[٣٤] . وإذ كان هو المنذر والمبشر فقد كان إله الفصاحة ، وإذ كان الشارح السماوى فقد أصبح رأس عدد كبير من الشراح والمفسرين . وتصف إحدى الترانيم « الهومرية » كيف مد أوتاراً على صدفة سلحفاة واخترع بذلك قيثارة . ثم يحين الوقت الذى يسترضى فيه أفرديتى فيستولدها ، كما يخبرنا القصاصون ، خنثى (هرمفرديتى Hermaphrodite) ناعم الجسم يرث منهما مفاتنهما ويشتق اسمه من اسميهما .

ومن الخصائص التى امتازت بها بلاد اليونان أن كان لها فضلا عن إلهه العفة والبكورة والأمومة ، إلهة للجمال والحب ، وما من شك فى أن أفرديتى كانت فى مواطنها الأولى بالشرق الأدنى ، وفى قبرص موطنها نصف الشرقى ، كانت فى هذه المواطن أول الأمر إلهة أمًّا ؛ ولقد ظلت طوال عهدها ذات صلة وثيقة بالتوالد والإخصاب فى الممالك النباتية والحيوانية والبشرية بأجمعها ، فلما أن تقدمت الحضارة وازداد الأمن ولم تعد للناس حاجة بكثرة المواليد ، تركت حاسة الجمال حرة طليقة تجد فى النساء قيما غير قيم التناسل الكثير ، ومن ثم لا تقتصر أفرديتى على أن تكون المثل الأعلى للجمال بل تصبح إلهة اللذائذ الجنسية بجميع أنواعها . وعبدها اليونان فى صور مختلفة : فهى فى صورة أفرديتى أورانيا — السماوية — ربة الحب العذرى أو المقدس ، وفى صورة أفرديتى بندموس Pandemos — الشعبية — إلهة الحب الدنس بكافة أنواعه ، وفى صورة أفرديتى كليبيجوس Kallipyges ڤينوس ذات الردفين الجميلين . وقد أقامت المومسات فى أثينة وكورنثة هياكل لها ، واتخذنها راعية لهن ونصيرة . وكانت بعض المدن فى بلاد اليونان تحتفل بالأفرديسيا عيدها العظيم فى أول شهر إبريل ، وفيه كانت تطلق حرية الاختلاط الجنسى لكل من شاء[٣٧] . وكانت هى إلهة الحب لأهل الجنوب ذوى الشهوات الجنسية والعواطف الثائرة ، وهى المنافسة القديمة لأرتميس إلهة الحب عند أهل الشمال الباردين الصيادين ، وقد جعلتها الأساطير

— التى لا تكاد تقل سخريتها عن سخرية التاريخ — زوجة هفستوس المقعد ، ولكنها تروح عن نفسها بالاتصال بأريس ، وهرمس ، وپوسيدن ، وديونيسس وبكثيرين من الآدميين مثل أنكيسز وأدنيس(*) . وقد أهدى إليها پاريس فى مباراة بينها وبين هيرا التفاحة الذهبية جائزة الجمال ، ولكن نعلها لم تكن جميلة بحق إلا بعد أن أعاد پركستليز تصويرها ، وخلع عليها ذلك الجمال الذى جعل بلاد اليونان تغفر لها جميع خطاياها .

ومن واجبنا أن نضيف إلى كبار الآلهة الأولمبية من أبناء زيوس الشرعيين منهم وغير الشرعيين أخته هيرا إلهة البيت ، وأخاه پوسيدن المشاكس . وكان هذا الإله يماثل عند اليونان نپتون عند الرومان يرى وهو آمن على نفسه فى مملكته المائية أنه ند زيوس وقرينه ؛ وحتى الأمم التى تعيش فى داخل القارة بعيدة عن البحر كانت تعبده لأنه لم يكن الحاكم المسيطر على البحر فحسب ، بل كان المسيطر أيضاً على الأنهار والعيون ، وكان هو الذى يهدى المجارى العجيبة التى تسير تحت الأرض إلى طرقها ، والذى يحدث الزلازل بأمواج المد(٣٩) . وكان الملاحون اليونان يقيمون له الصلوات ويشيدون الهياكل على ألسنة الأرض الخطرة الممتدة فى البحار ليتقوا بها غضبه .

وبشيدون هناك آلهة أقل من هذه شأناً حتى على جبل أولمپس ، لأنه تجسيد المعانى المجردة لم يكن يقف عند حد . فمن هذه هستيا (وهى فستا عند الرومان) إلهة

(*) ليست أسطورة أدنيس إلا صورة أخرى من موضوع الإنبات الكثير الصور ، ونقصد بالإنبات موت التربة وبعثها فى كل عام . وقد شغفت بهذا الشاب الوسيم كل من أفروديتى وپرسفونى إلهتى الحب والموت . وحسد أريس أرتميس على حظوته لدى أفروديتى فتنكر فى صورة خنزير برى وقتله . وولدت من دم أدنيس شقائق النعمان ، ومن أحزان أفروديتى أنهار من الشعر ؛ وأقنع زيوس الإلهتين أن تقتسما بينهما وقت أدنيس والتفاته ، فيبقى نصف العام مع پرسفونى فى هاديز (الجحيم) ، ثم يعيد إليه فى النصف الثانى حياته الأرضية وحبه الدنيوى . وكان الفينيقيون والقبرصيون والأثينيون يحتفلون بموت أدنيس فيقيمون له عيد الأدونيا ، فكانت النساء يحملن صورة الرب ؛ (لأن هذا هو معنى لفظ أدنيس) . ويندبن موته بأعلى أصواتهن ثم يحتفلن احتفال النصر ببعثه(٣٨) .

الموقد وناره المقدسة ، ومنها إيريس Iris (قوس قزح) ورسول زيوس في بعض الأحيان ؛ ومنها هيبى Hebe إلهة الشباب ؛ وإيليثيا التى تعين النساء على الوضع ، ومنها ديكى Dike أو العدالة ، ومنها تيكى Tyche الفرصة ؛ وإيروس Eros الحب الذى جعله هزيود خالق العالم والذى سمته سافو « مذيب الأضلاع ، الحلو — المر ، الوحش الضارى العنيد »[٤٠] . وكان هيمنيوس Hymeneus ، نشيد الزواج ؛ وهپنوس Hypnos النوم ؛ وأنيروس Oneiros الأحلام ؛ وجيراس Geras الشيخوخة ؛ وليثى Lethe النسيان ؛ وثناتوس Thanatos الموت وغيرها وغيرها مما يخطئه الحصر . وكانت لهم تسع إلهات للفن تلهم الفنانين والشعراء : كليو Clio للتاريخ ، ويوترپى Euterpe للشعر الغنائى الذى يوقع على المزمار ؛ وثاليا Thalia للمسرحيات الهزلية وشعر الرعاة ؛ وملپومينى Melpomene للمآسى ؛ وترپسكورى Terpsichore للرقص المصحوب بالغناء وللغناء نفسه ، وإراتو Erato للشعر الغزلى والهزلى ؛ وپولمنيا Polymnia للترانيم ؛ وأورانيا Urania للفلك ، وكليوپى Colliope للملاحم الشعرية . وكانت لهم ثلاث إلهات للرحمة لها اثنا عشر تابعاً هى السلعات . وكان من هذه الآلهة الصغار نمسيس الذى يوزع الخير والشر على الناس ، ويرسل الدمار إلى كل من يرتكب جريمة الهبريس hybris — الزهو فى أيام الرخاء . وكان منها الإرينيات Erinnyes إلهات الغضب الرهيبة التى لا تترك ظلماً إلا انتقمت له . وكان اليونان يطلقون عليها اسم اليومنيدات Eumenides أى مريدات الخير تجملا منهم لها ودرءاً لشرها . وآخر ما نذكر من آلهتهم المويراى Moirai أى ربات الأقدار والحظوظ اللاتى كن ينظمن شئون الحياة تنظيما لا مرد لحكمهن فيه ، ويتصرفن على حد قول البعض فى حظوظ الآلهة والآدميين على السواء . وعند هذا الحد من التفكير يقف الدين اليونانى ثم ينتقل بعده إلى العلم الطبيعى وإلى القانون .

ولقد أبقينا إلى آخر هذا السجل أكثر الآلهة اليونانية إثارة للتعب ،

وأحبها إلى الشعب ، وهو إله يصعب علينا كل الصعوبة أن نحدد مكانه بين هاته الآلهة . ذلك هو ديونيسس الذى لم يقبل بين آلهة أولمپس إلا فى أخريات أيامه . ذلك أنه كان فى أول الأمر من آلهة تراقية ، قبل أن تهبه تلك البلاد إلى اليونان . وكان فى موطنه الأصلى إله الشراب المعصور من الشعير ، وكان اسمه فيها سبزيوس Sabazius ، فلما جاء بلاد اليونان أصبح إله الخمر ، ومغذى الكروم وحارسها . وكان فى بادئ الأمر إلهاً للخصب ، ثم أصبح إله السُّكْر ، وانتهى أمره بأن صار ابن الله الذى مات لينجى البشر . واختلطت عدة صور وأقاصيص بعضها ببعض لتتكون منها أسطورته ، فكان اليونان يتخيلونه فى صورة زجريوس Zagreus أى « الطفل المقرن » ، الذى ولد لزيوس من أخته پرسفونى . وكان أحب أبناء زيوس إليه ، ويجلس إلى جواره على عرشه فى السماء . ولما حسدته هيرا على منزلته وأغرت الجبابرة بقتله ، بدله زيوس بماعز ثم بثور ليخفيه عن الأنظار . ولكن الجبابرة قبضوا عليه وهو فى هذه الصورة الثانية ، وقطعوا جسمه إرباً ، سلقوها فى قدر . وفعلت به أثينا فعل ترلونى Trelawnay ، فأنقذت قلبه وحملته إلى زيوس ؛ وأعطاه زيوس إلى سميلى Semele فحملت به وولدت الإله مرة أخرى وسمى بعد مولده ديونيسس(*) .

وكان الحزن على موت ديونيسس والاحتفال والسرور ببعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونان . فقد كانت النساء اليونانيات يصعدن التلال

(*) وقد فسر ديودور الصقلى من زمن بعيد يرجع إلى عام ٥٠ ق. م هذه القصة على أنها أسطورة من أساطير الإنبات فقال إن زجريوس ، الكرم ، هو ابن دمتر ، الأرض ، بعد أن لقحها زيوس ، المطر . ويقطع ، أى يشذب ، الكرم كما يقطع الإله ليحيا حياة جديدة ، ويغلى عصير العنب ليكون نبيذاً . ويولد الكرم مولداً جديداً فى كل عام ، بعد أن يستمد غذاءه من المطر(٤١) . وقد وجد هيرودوت بين أسطورتى ديونيسس وأوزيريس من أوجه الشبه الكثيرة ما جعله يجمع بين الإلهين فى مقاله الذى يعد من أول ما كتب من المقالات فى مقارنة الأديان(٤٥)

فى فصل الربيع حين تزهر الكروم ليقابلن الإله حين يولد من جديد . وكن يقضين يومين كاملين يحتسين فيهما الخمر بلا حساب وكن يرين كما يرى السكيرون غير المتدينين فى هذه الأيام أن قليلة العقل من لا تفقد عقلها من الشراب ، وكن يسرن فى موكب عجاج تقودهن مينادات Maends أو نساء ذاهلات العقل مشغوفات بديونيسس ؛ وكن يرهفن آذانهن لسماع قصته التى يعرفنها حق المعرفة ، وما لقيه إلههن من عذاب وموت وبعث ؛ وكن فى أثناء احتسائهن الخمر ورقصهن يهتجن اهتياجا يتحللن فيه من جميع القيود : وكان محور هــذا الاحتفال وأهم ما فيه أن يمسك النساء بماعز أو ثور أو رجل فى بعض الأحيان (يرين أن الإله قد تقمصه) ويمزقنه إربا وهو على قيد الحياة ، إحياء لذكرى تمزيق ديونيسس ؛ ثم يشربن دمه ، ويأكلن لحمه يتخذنه عشاء ربانيا مقدسا ، معتقدات أن الإله سيدخل بهذه الطريقة إلى أجسامهن ويستحوذ على أرواحهن . وكن فى هذه الحماسة القدسية(*) يؤمن بأنهن سيصبحن هن والإله شيئاً واحدا ، وأنهن سيظفرن بالامتزاج معه امتزاجا صوفياً . ولهذا كن يتسمين باسمه فيطلقن على أنفسهن اسم البكوى Bacchoi ويعتقدن أنهن لن يمتن بعدئذ أبداً ، أو كن يسمين الحالة التى هن فيها الإكستسيز ecstases (النشوة) أى خروجهن من أرواحهن ليلاقين ديونيسس ويتحدن معه . وبهذا كن يشعرن بأنهن قد تحررن من أجسامهن ؛ وحصلن على قوة اختراق حجب الغيب فأصبحن قادرات على التنبؤ ، وصرن فى واقع الأمر إلهات . تلك هى الطقوس الانفعالية التى انتقلت من تراقية إلى بلاد اليونان كأنها وباء دينى شبيه بأوبئة العصور الوسطى ، ينتزع إقليما فى أثر إقليم من آلهة أولمبس الباردة الواضحة معبودات الدولة الرسمية ليُحِل محلها دينا طقوسا تشبع شهوة الاهتياج والتحرر من القيود ، والحنين إلى التحمس

(*) ولفظ الحماسة الإنجليزى euthusiasm مشتق من إنثيوس Entheos « إله فى الداخل » وكان هذا اللفظ يعنى فى أول الأمر تملك إله جسم إنسان .

والاستحواذ والتصوف والغموض . وقد حاولت دلفى أن تبعد عنها هذه الطقوس الدينية ، وحاول ذلك حكام أثينة أيضا ، ولكن دلفى عجزت عن إبعادها عجز حكام أثينة . وكل ماكان فى مقدورها ومقدورهم هو إدخال ديونيسس فى زمرة أرباب أولمپس ، وصبغه بالصبغة اليونانية والإنسانية ، والاحتفال بعيده احتفالا رسمياً ، وتبديل مرح عباده من نشوة الخمر الجنونية بين التلال إلى المواكب الفخمة والأغانى القوية والمسرحية ذات الروعة والجلال التى تمثل فى عيد ديونيزيا العظيم . وقد ضموا ديونيسس وقتاً ما إلى أپلو ، ولكن أپلو استسلم آخر الأمر لوارث ديونيسس وغالبه ألا وهو المسيح .



(شكل ١٧) أرفيوس ، ويوريديز ، وهرمس
(متحف نابلي)

الفصل الثالث

أسرار خافية

لقد كان فى دين اليونان ثلاثة عناصر وثلاث مراحل رئيسية : عنصر أرضى ومرحلة أرضية ، وعنصر أولمبى ومرحلة أولمبية ، وعنصر صوفى ومرحلة صوفية . وأكبر الظن أن أول العناصر وأولى المراحل من أصل بلاسجى — ميسينى ، وأن ثانيهما وثانيتهما من أصل أخى — دورى ، وثالثهما وثالثتهما من أصل مصرى — أسيوى . وكانوا يعبدون فى المرحلة الأولى آلهة تحت الأرض وفى الثانية آلهة سماوية وفى الثالثة آلهة بعثت بعد الموت ؛ وكانت العبادة الأولى أكثر انتشاراً بين الفقراء ، والثانية بين الأغنياء ، والثالثة بين الطبقة المتوسطة — الدنيا . وسادت العبادة الأولى قبل العصر الهومرى والثانية فى أثنائه والثالثة بعده . ولم يكد يحل عصر الاستنارة فى أيام بركليز حتى كان التخفى أقوى العناصر فى الدين اليونانى . والتخفى عند اليونان احتفال سرى يكشف فيه عن رموز مقدسة ، وتقام فيه طقوس رمزية ، لا يتعبد بها إلا المطلعون على أسرارها . وكانت هذه الطقوس فى العادة تمثل عذاب إله من الآلهة وموته وبعثه ، أو تحيى ذكرى هذا العذاب والبعث والموت بطريقة شبه مسرحية ، وتشير إلى موضوعات زراعية قديمة وإلى ضروب من السحر ، وتعِدُ أولئك المطلعين حياة أبدية خالدة .

وكانت أماكن كثيرة فى بلاد اليونان تمارس هذه الطقوس الخفية ، ولكن ما من مكان فيها كان يضارع إلوسيس من هذه الناحية : وكان ما فيها من الطقوس موروثاً من عهد ما قبل الآخيين ، ويبدو أنها كانت فى الأصل احتفالا فى الخريف بالحرث والزرع (٤٣) . فقد كان ثمة أسطورة تقول إن دمتر أرادت أن تكافئ أهل أتكا لعطفهم عليها فى تجوالها فأقامت فى إلوسيس أعظم هيكل من

هياكلها ، ثم هدم هذا الهيكل وأعيد بناؤه مراراً كثيرة خلال تاريخ اليونان . ودخل عيد دمتر فى أيام أثينة صولون وبيسستراتس وپركليز ، وازداد فيها عظمة وفخامة ، وكان طلاب الأسرار الصغرى التى تقام فى فصل الربيع بالقرب من أثينة يتطهرون أولا بأن يغمروا أنفسهم فى ماء إليسس Illisus ، فقد كان الطلاب وغيرهم من الناس يحجون سيراً على الأقدام فى وقار وجزل مدى أربعة عشر ميلا فى الطريق المقدس إلى إلوسيس ، يحملون فوق رؤوسهم صورة الإله الأرضى ياكوس Iacchus حتى إذا ما وصل الموكب إلى إلوسيس فى ضوء المشاكل ووضع صورة الإله فى الهيكل وسط مراسم التعظيم والإجلال ، قضوا ما بقى من اليوم فى الرقص والغناء المقدسين .

تلك هى الأسرار الصغرى ، أما الأسرار الكبرى فكانت تدوم أربعة أيام أخرى ، وتبدأ بإدخال من تطهروا فى الأسرار الصغرى بالاستحمام والصوم ، أما الذين مارسوا هذه الطقوس فى مثل ذلك الموعد من العام الماضى فكانوا يؤخذون إلى بهو الاندماج فى الجماعة السرية ، حيث يكون الاحتفال السرى . وهناك يفطر المبتدئون الصائمون بأن يتناولوا عشاء ربانيا مقدساً إحياء لذكرى دمتر ، ويشربوا مزيجاً مقدساً من دقيق الحنطة والماء ، ويأكلوا كعكا مقدساً . ولسنا نعلم أى طقوس خفية كانت تحدث فى ذلك المكان ، فذلك شر ظل خافياً خلال التاريخ القديم كله ، وكان محرماً على أى إنسان أن يبوح به وإلا تعرض للقتل . ولقد نجا إسكلس التقى نفسه من حكم الإعدام بأعجوبة لأنه كتب بضعة أسطر ظُن أنها قد تكشف السر . وكل ما نستطيع أن نقوله أن الاحتفال كان عبارة عن مسرحية رمزية لها أثر فى إحياء مسرحية ديونيسس ، وأكبر الظن أن موضوعها كان اختطاف پلوتو لپرسفونى ، وتجوال دمتر الحزينة وعودة الفتاة العذراء إلى الأرض ، والكشف لأتكا عن أسرار الزراعة . وكانت خلاصة الاحتفال هى زواج خفى بين كاهن يمثل زيوس وكاهنة تمثل دمتر ،

وكان هذا الزواج الرمزى يثمر ثمرته بسرعة سحرية عجيبة ، فقد كان يعقبه بعد قليل — على ما ينقله لنا المؤرخون — إعلان صريح بأن « سيدتنا قد وضعت غلاماً مقدساً » ؛ ثم تعرض على الناس سنبلة من الحب ترمز إلى الثمرة التى تمخضت عنها دمتر — نتاج الحقول ، ثم يؤخذ العابدون فى ضوء المشاعل الشاحب إلى كهوف مظلمة تحت الأرض تمثل الجحيم ، يرفعون بعدها إلى حجرة عليا تتلألأ فيها الأنوار وتمثل ، على ما يظهر ، مسكن الصالحين ؛ وفيها تعرض عليهم وسط مظاهر التعظيم والتكريم الآثار أو الصور والتماثيل المقدسة التى ظلت إلى تلك الساعة مخفية عنهم ، ويؤكد العارفون أن هؤلاء المبتدئين كانوا وهم فى نشوة هذا الإلهام المقدس يحسون بوحدتهم هم والإله ووحدة الإله والروح ، وأنهم قد انتشلوا من أوهام الفردية ، وأدركو طمأنينة الاندماج فى الألوهية(٤٤) .

وفى عصر بيسستراتس دخلت أسرار ديونيسس فى الطقوس الإلوسينية عن طريق عدوى دينية إذا صح هذا التعبير ، وذلك أن الإله ياكوس قد وحد هو وديونيسس ، وقيل إنه هو ابن پرسفونى ، وطغت خرافة ديونيسس زجريوس على أسطورة دمتر(٤٥) . ولكن الفكرة الرئيسية فى هذه الطقوس نفسها ، وجوهر هـــذه الفكرة هو أن الموتى يمكن أن تتجدد حياتهم كما أن البذرة تولد مرة ثانية ، ولم يكن يقصد بحياتهم هذه حياة الأشباح النكدة فى الجحيم ، بل يقصد بها حياة ملؤها السعادة والطمأنينة . ولما زال كل ما عدا هذه الفكرة من الدين اليونانى ، ظل هذا الأمل يعمر القلوب وامتزج فى الإسكندرية بعقيدة الخلود المصرية التى هى أصل العقيدة اليونانية ، فكان هو السلاح الذى غزت به المسيحية العالم الغربى .

وجاءت إلى بلاد اليونان فى القرن السابع طقوس دينية صوفية أخرى من مصر وتراقية ، وتساليا ، وكانت هذه الطقوس أجل خطراً فى تاريخ اليونان من طقوس إلوسيس الخفية نفسها . ونجد فى بداية هذه الطقوس فى عصر ركاب

السفينة أرجوس شخصاً غامضاً ولكنه مع ذلك جذاب فتان ، ذلك هو أرفيوس التراقى الذى يصفه ديودور بأنه لم يكن يدانيه أحد ممن نعرف أسماءهم من الرجال فى الثقافة والموسيقى والشعر(٤٦) ، ونرجح كثيراً أن أرفيوس هذا كان شخصاً حقيقياً ، وإن كان كل ما نعرفه عنه يمت بسببه إلى الأساطير . فهم يصورونه لنا فى صورة الرجل الظريف ، الشفيق ، المفكر ، العطوف ، وهو تارة موسيقى ، وتارة كاهن زاهد من كهنة ديونيسس . وكان بارعا فى العزف على القيثارة وفى الغناء عليها براعة افتتن بها سامعوه حتى كادوا أن يتخذوه إلها يعبدونه .

وكانت الوحوش إذا سمعت صوته خرجت عن طبيعتها واستأنست ، بل إن الأشجار والصخور كانت تغادر مواضعها لتستمع إلى نغمات قيثارته ؛ وتزوج أرفيوس من يريديس الحسناء ، وكاد يجن حين قضت نحبها . فما كان منه إلا أن قفز إلى الجحيم وسحر پرسفونى بقيثارته ، وسمح له أن يعيد يريديس إلى الحياة على شريطة ألا ينظر إليها حتى يصلا إلى سطح الأرض . لكنه لم يطق صبراً على هـــذا وخشى ألا تكون من ورائه ، فنظر إلى الوراء عند آخر حاجز بينـــه وبين سطح الأرض ، فرآها تختطف مرة أخرى ويقذف بها إلى العالم السفلى . وحقدت عليه نساء تراقية لأنه أبى أن يسلى نفسه معهن فمزقنه إربا فى نشوة من نشواتهن الديونيسية . وكفر زيوس عن ذنبهن بأن جعل قيثارة أرفيوس كوكبة من نجوم السماء(*). ودفن رأســـه وهو لا يزال يغنى فى لسبوس فى شق صار فيما بعد مهبط وحى . ويقولون إن البلابل فى هذا المكان كانت أرق وأحلى صوتاً منها فى أى مكان آخر(٧) .

وقيل فى العصور المتأخرة إنه خلف وراءه كثيراً من الأغانى الدينية ؛ وليس ببعيد أن يكون هذا صحيحاً ، وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن عالماً يدعى أونومكريتوس Onomacritus نشر هذه الأغانى فى عام ٥٢٠ ، كما نشرت

(*) هى المعروفة فى الفلك بكوكبة النسر الواقع . (المترجم) .

القصائد الهومرية قبل ذلك بجيل من الزمان ؛ وفى القرن السادس أو قبله كانت هذه الأغانى قد أصبحت ذات طابع مقدس ، وقيل إنها قد أوحيت إلى صاحبها كما أضحت أساساً لطقوس دينية صوفية ذات صلة بطقوس ديونيسس ، ولكنها تعلو عليها كثيراً فيما تنطوى عليه من عقائد دينية وفى طقوسها وأثرها الخلقى . فأما العقائد الدينية فقد كانت فى جوهرها توكيداً لعذاب ديونيسس زجريوس الابن المقدس وموته وبعثه ، كما كانت تؤكد أيضاً أن الناس جميعاً سوف يبعثون فى حياة مستقبلة يثابون فيها على أعمالهم أو يعاقبون عليها : وإذ كان الاعتقاد السائد أن الجبابرة الذين قتلوا ديونيسس هم الذين تناسل منهم الآدميون ، فقد كانت البشرية كلها ملوثة بشىء من الخطيئة الأولى ، وكان عقابها على هذه الخطيئة أن الروح تسجن فى الجسم كأنها فى سجن أو قبر ، ولكن فى وسع بنى الإنسان أن يعزوا أنفسهم بأن يعرفوا أن الجبابرة قد أكلوا ديونيسس ، وأن كل إنسان ينطوى لهذا السبب فى روحه على جزء من الألوهية الخالدة ، وكان عباد أرفيوس يتناولون فى عشاء ربانى جماعى لحم ثور نيئاً ، يمثل فى اعتقادهم ديونيسس ، إحياء لذكرى قتل الإله وأكل لحمه وامتصاصاً للجوهر المقدس من جديد[٤٨] .

ويقول علم اللاهوت الأرفى إن الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث يحاسبها آلهة العالم السفلى على أعمالها ، وكانت الترانيم والطقوس الأرفية ترشد المؤمنين إلى ما يجب أن يتبعوه فى هذا الحساب النهائى الشامل ، شأنها فى هذا شأن *كتاب الموتى* عند قدماء المصريين . فإذا حكم على الميت بأنه مذنب عوقب عقاباً شديداً . فمن قول إن هذا العقاب أبدى[٤٩] وهو الذى أخذت منه فكرة النار فيما بعد ؛ وهناك فكرة أخرى تقول بالتناسخ أى أن الروح تولد مرة بعد مرة لتحيا حياة أسعد من حياتها الأولى أو أشقى منها حسب طهارتها الأولى أو عدم طهارتها ، ويتكرر هذا المولد مرة بعد مرة حتى تتطهر الروح من ذنوبها تطهراً تاماً فيسمح لها بالدخول فى جزائر المنعمين[٥٠] . وهناك قول

ثالث يبعث الأمل فى قلوب الموتى وخلاصته أن العقاب الذى يلقاه الميت فى الجحيم قد ينتهى إذا كفر الإنسان عن ذنبه قبل موته أو كفر عنه أصدقاؤه بعد موته ، وبهذه الطريقة نشأت عقيدة التطهير وصكوك الغفران ؛ ويصف أفلاطون وهو مغضب غضباً لا يكاد يقل عن غضب لوثر Luther بيع هذه الصكوك فى أثينة فى القرن الرابع قبل الميلاد فيقول :

« يقرع المتنبئون المتسولون أبواب الأغنياء ويدخلون فى روعهم أنهم قد وهبوا القدرة على أن يكفروا لهم خطاياهم أو خطايا آبائهم بضروب من التضحية والرُّقى . . . ثم يخرجون من حقائبهم مجموعة ضخمة من الكتب بخط موسيوس Musaeus أو أرفيوس . . . يمارسون منها طقوسهم ، ويقنعون الأفراد ومدناً بأكملها أن التوبة من الذنوب والتكفير عنها يتمان بتقريب القرابين والقيام بضروب التسلية (الاحتفالات) التى يشغلون بها ساعات الفراغ والتى يتقدمون بها إلى الأحياء وإلى الموتى على السواء ، وهم يسمون العمل الأخير (الاحتفالات) طقوساً خفية ، ويدعون أنها تنجينا من عـذاب النار ، فإذا أغفلناها فلا يعلم أحد ماذا يصيبنا من عذاب[٥١] » .

على أن الأرفية كان فيها بالرغم من هذا اتجاهات مثالية هى التى أدت إلى الفلسفة الأخلاقية والرهبنة فى المسيحية . ذلك أن ما كان يعزى إلى آلهة أولمبس من انحلال خلقى واستهتار قد حل محله قانون صارم للسلوك ؛ وثل عرش زيوس الجبار شيئاً فشيئاً وحلت محله شخصية أرفيوس الظريفة بنفس الطريقة التى ثل بها عرش يهوه ليحل محله المسيح فيما بعد . ودخلت فى التفكير اليونانى فكرة الخطيئة والضمير والنظرة الثنائية إلى الجسم والروح ، التى تقول إن الجسم خبيث وإن الروح مقدس ، وصار إخضاع الجسم أهم أغراض الدين كما صار شرطاً لخلاص الروح . ولم يكن لطائفة الإخوان الأرفيين نظام دينى أو حياة خاصة بمعزل عن حياة الناس ، وكل ما كان يميزهم من غيرهم ثيابهم البيضاء وامتناعهم عن أكل

اللحم ، وتقشفهم إلى درجة لم تكن مما يتفق عادة مع الحياة اليونانية ، وملاك القول أنهم كانوا يمثلون في اليونان إصلاحاً كإصلاح المتطهرين من عدة وجوه .

وكان لهـذه الطائفة أثر بعيد طويل ؛ ولعل الفيثاغوريين قد أخذوا منها طعامهم ولباسهم ونظريتهم في تقمص الأرواح . ومما هو جدير بالذكر أن أقدم ما لدينا من الوثائق الأرفية قد وجدت في جنوبي إيطاليا(٥٢) . وكان أفلاطون يعتقد بنظريتها في تعارض الجسم والروح ، وبنزعتها التزمتية ، وبأملها في الخلود ، وفي وسعنا أن نرجع بعض ما في الرواقية من زهد ومن وحدة الله والكون إلى أصل أرفي ، وقد كان في حوزة رجال الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية مجموعة كبيرة من الكتابات الأرفية اتخذوها أساسا للاهوتهم وطقوسهم وتصوفهم . كذلك أثرت فكرة النار والمطهر والجنة ، وتعارض الجسم والروح ، والابن المقدس الذى قتل ثم ولد من جديد ، والعشاء الربانى وهو أكل جسم الإله ودمه وقدسيته ، أثرت هذه كلها من قرب أو من بعد في المسيحية التى كانت هى نفسها دينا ذا طقوس ومراسم خفية ، فيها الكفارة والأمل والوحدة التصوفية وتحرر الروح ، ولا تزال الأفكار والعبـادات التى تشتمل عليها الديانة الأرفية منتشرة بيننا في هذه الأيام .

الفصل الرابع

العبادات

لم تكن الطقوس الدينية اليونانية أقل تنوعا واختلافاً من الآلهة التى كانت تحتفل بها وتعظمها : فقد كان للآلهة الأرضية طقوس حزينة يُستكَن بها غضبها ويُتّقى شرها ، وكان للآلهة الأولمبية طقوس سارة كلها ترحيب بها وثناء عليها . ولم تكن هذه أو تلك تحتاج إلى كهنة يقومون بها . فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن فى الأسرة ، وكان الحاكم الأكبر يقوم مقامه فى الدولة . بيد أن الحيـاة فى بلاد اليونان لم تكن حياة دنيوية كما يصفها المؤرخون ، بل كان للدين فيها شأن كبير فى كل مكان ، وكانت كل حكومة ترعى الطقوس الدينية الرسمية وترى أنها لا بد منها للنظام الاجتماعى والاستقرار السياسى . على أنه بينما كان الكهنـة فى مصر وبلاد الشرق الأدنى يسيطرون على الدولة ، كانت الدولة فى بلاد اليونان هى التى تسيطر على الكهنة ، وكان لها الزعامة فى الشئون الدينية ، ولم يكن الكهنة سوى موظفين صغار فى الهياكل . كذلك كانت أملاك الكهنة ، عقاراً كانت أو نقوداً أو عبيداً ، يراجعها ويدير شئونها موظفون من قبل الدولة(٥٣) . ولم تكن هناك معاهد لتخريج الكهنة بل كان فى استطاعة أى إنسان أن يختار أو يعين كاهنا بلا جلبة أو مشقة إذا كان يعرف المراسم الدينية التى تتطلبها الآلهة ، وكان هذا المنصب فى كثير من الأحيان يتولاه من يؤدى له أكبر الأثمان(٥٤) . ولم تكن هناك طبقة كهان خاصة ، أو هيئة لهم جامعة ، ولم يكن بين كهنة أحد المعابد أو إحدى الدول وزملائهم فى معبد آخر أو دولة أخرى رابطة ما ؛ ولم يكن للدولة دين رسمى ، يستمسك به جميع أفرادها أو عقائد

ثابتة مقررة ؛ ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة ؛ بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية(٥٦) ، وكان في وسع أي إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد على شريطة ألا يكفر بآلهة المدينة أو يسبها ، وملاك القول أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً في بلاد اليونان .

أما مكان العبادة فيمكن أن يكون هو موقد الدار ، أو موقد البلدية القائم في قاعة المدينة العامة ، ويمكن أن يكون شقاً في الأرض يسكنه إله أرضي أو هيكلاً لإله أولمبي . وكان حرم الهيكل مكاناً مقدساً ، لا يعتدى عليه ، يجتمع فيه العابدون ، ويجد فيه اللاجئون مكاناً أميناً يحتمون فيه ولو كانوا ممن ارتكبوا أشنع الجرائم . ولم يكن الهيكل مكاناً لاجتماع المصلين بل كان بيت الإله ، ينصب فيه تمثاله ، ويوقد أمامه ضوء لا ينطفئ أبداً . وكثيراً ما كان الناس يعتقدون أن الإله هو التمثال نفسه ، ولذلك كانوا يعنون بغسله ، وكسوته ، وإحاطته بكثير من ضروب الرعاية ، وكانوا أحياناً يؤنبونه إذا أهمل أمرهم ، وكانوا يقصون على من يستمع إليهم كيف تصبب التمثال عرقا في بعض الأحايين أو كيف بكى أو أغمض عينيه(٤٧) . وكان يحفظ في سجلات الهيكل تاريخ أعياد الإله والحوادث الهامة في حياة المدينة أو الجماعة التي تعبد الإله صاحب الهيكل ، وكان هذا التاريخ أول التواريخ اليونانية والمنبع الذي استمدت منه أولى أشكال الكتابات التاريخية .

وكان الاحتفال يتألف من موكب ، وأناشيد، وقربان ؛ وأدعية ، يضاف إليها في بعض الأحيان وجبة مقدسة ؛ وقد يشمل الموكب سحراً ، ومقنعات ، وجماهير من الممثلين يعملون مجتمعين ، ومسرحية تمثيلية . وكانت أهم أجزاء الطقوس في معظم الأحيان تحددها العادات المألوفة ؛ وكانت كل حركة فيها ، وكل كلمة في الترانيم أو الصلوات، مدونة في كتاب محفوظ عند الأسرة أو الدولة مقدس لديها ، لا يكاد يتغير فيه لفظ ، أو جزء من لفظ ، أو نغمة من النغمات

خشية ألا يحب الإله هذه البدعة أو ألا يفهمها . فقد تتغير اللهجات الحية ولكن لغة الطقوس تظل على حالها ، وقد لا يستطيع المتعبدون على مر الزمان أن يفهموا الألفاظ التى ينطقون بها(٥٨) ولكن النشوة التى يبعثها فيهم قدم العهد كانت تغنيهم عن الفهم . وكثيراً ما كان الاحتفال يبقى بعد أن ينمحى من ذاكرة المحتفلين كل شىء عنه ، ولا يبقى فيها حتى سبب هذا الاحتفال أو الباعث عليه . فإذا حدث هذا اخترعت أساطير جديدة تفسر قيامه ، فتتغير الأسطورة أو العقيدة وتبقى المراسم والطقوس ، وكانت الموسيقى عنصراً أساسياً لا غنى عنه فى الاحتفال كله لأن الدين يشق على النفس من غير الموسيقى ، والموسيقى تنتج الدين كما ينتج الدين الموسيقى . ومن الهيكل وأناشيد الاحتفالات ؛ نشأ الشعر ، ونشأت القصائد التى ازدانت بها فى الأيام الأخيرة عقائد أركلوكس القوية البذيئة ، وعواطف سافو الثائرة المستهترة ، وأشعار أنكريون الرقيقة الفاجرة .

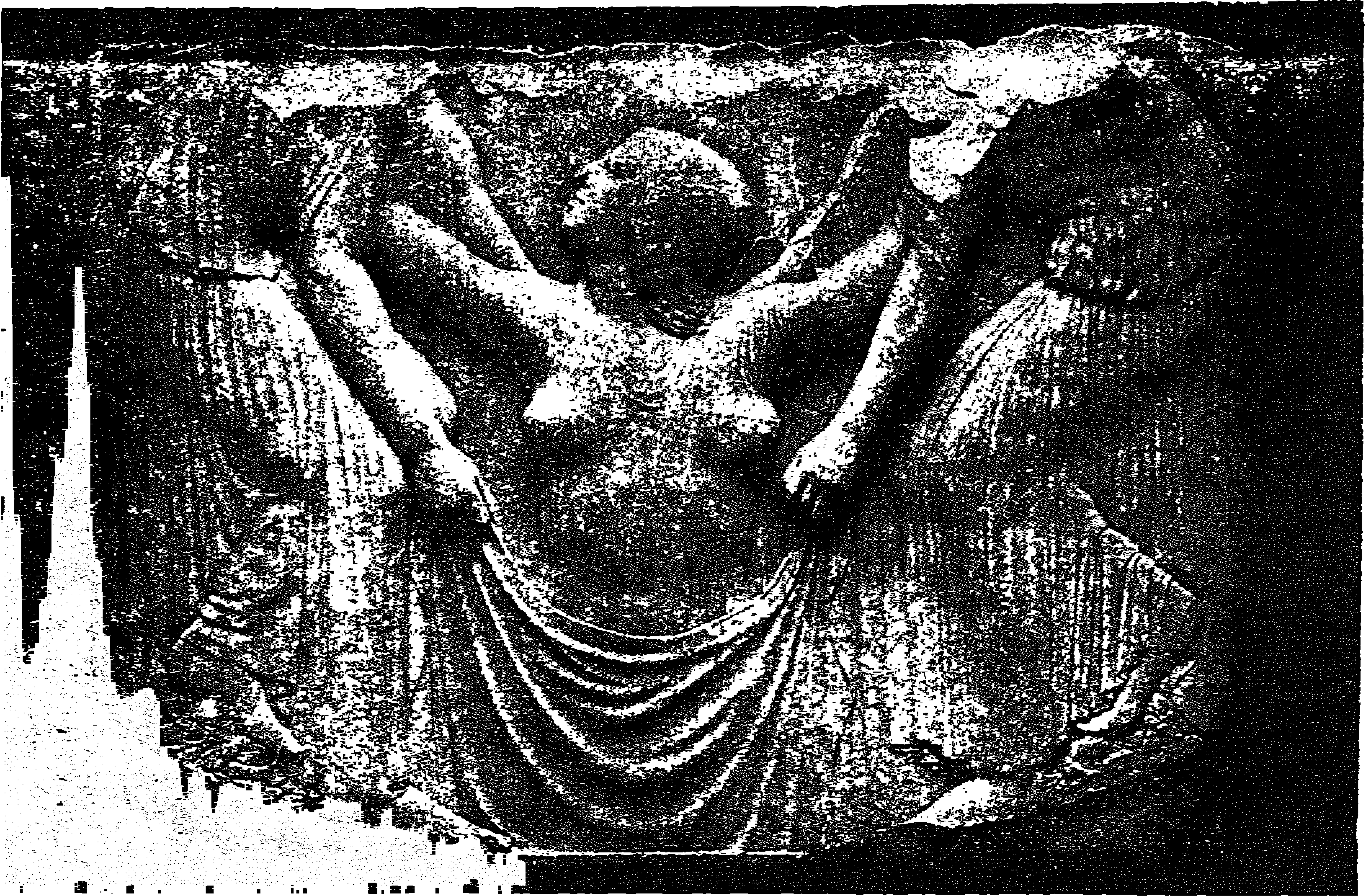
وإذا ما وصل العابدون إلى المذبح — وكان موضعه عادة أمام الهيكل عملوا على اتقاء غضب الله أو كسب معونته بالتضحيات والصلوات . وكان فى وسعهم أفراداً أن يقربوا إليه كل ما له قيمة لا يكاد يستثنى من ذلك شىء قط :ـ تماثيل ، أو نقوشاً ، أو أثاثاً ، أو أسلحة ، أو آنية ، أو مناضد ، أو ثياباً ، أو فخاراً ؛ فإذا لم يستطع الإله أن يستخدم هذه القرابين استخدمها الكهنة . أما الجيوش فقد كان فى وسعها أن تهب الإله جزءاً من غنائمها ، كما فعل جنود أكسنوفون العشرة الآلاف فى أثناء ارتدادهم(٥٩) . وكان فى مقدور الجماعات أن تهبه ثمار الحقول أو الكروم أو الأشجار ؛ أو حيواناً يشتهى الإله طعمه وهو الكثير الحدوث ؛ وعند مسيس الحاجة كان يضحى بالآدميين أنفسهم ، فقد ضحى أجممنون مثلا بإفجينيا كى تهب الريح ؛ وذبح أخيل اثنى عشر من شباب طروادة على كومة حريق پتركلوس(٦٠) . وكان الضحايا الآدميون يقذف بهم من فوق صخور قبرص ولوكاس استرضاء لأپلو ، وآخرون يهدون إلى ديونيسس فى

طشيوز وتندوس ؛ ويقال إن ثمستكليز ضحى ببعض أسرى الفرس يوم سلاميس[٦١] ؛ وكان الأسپارطيون يحتفلون بعيد أرتميس أورثيا Artemis Orthia بجلد بعض الشبان عند مذبحها جلداً كان يدوم فى بعض الأحيان حتى يقضى على المجلودين[٦٢] . وظل زيوس فى أركاديا يتقبل الضحايا البشرية حتى القرن الثانى بعد الميلاد[٦٣] . وكان إذا انتشر الوباء فى مساليا جيء بمواطن فقير وأطعم من بيت المال ، وألبس الثياب الكهنوتية ، وزين بالأغصان المقدسة ، وألقى من فوق صخرة ومن حوله يدعون أن يكفر بعقابه هذا عن سيئات مواطنيه[٦٤] . وكان من عادة أهل أثينة إذا داهمهم القحط ، أو الطاعون ، أو غيرهما من الأزمات أن يقدموا للإله ، إما حقيقة وإما تمثيلا ، ضحية بشرية واحدة أو أكثر من واحدة تطهيراً للمدينة ؛ وكان يحدث مثل هذا فى كل عام فى عيد الثارجليا(*) Thargelia[٦٥] . وقد خففت هذه التضحيات البشرية على مر الزمن بأن قصر الضحايا على المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا فوق هذا يخدرون بالخمور ، ثم استعيض عنهم آخر الأمر بالحيوانات . ولما أن رأى بلپيداس Belopidas القائد البثوتى فى الليلة السابقة لمعركة لوكترا (٣٧١ ق . م) حلماً ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمناً للنصر ، نصحه بعض مشيريه أن يلبى الطلب ، وعارضه البعض الآخر وقالوا له : « إن هذا العمل الهمجى المجرد من كل معانى التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أيا كانت ؛ وإن الجبابرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض ، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلق عامة ، وإن من السخف أن يتصور الإنسان أرباباً وقوى عليا يسرها التقتيل والتضحية بالآدميين[٦٨] » .

(*) وكان هؤلاء الضحايا يسمون فارمكوى Pharmakoi فى أثينة وكان معنى هذا اللفظ فى أول الأمر « السحرة » . ومعنى فارمكون Pharmakon رقية سحرية ، ثم أصبح معناها عقارا شافيا[٦٦] . والعلماء مختلفون هل كان الفارمكوى يقتلون فى الواقع أو لا يقتلون ، غير أننا لا نكاد نشك فى أن القتل فى أول الأمر كان يحدث فعلا[٦٧] .

وإذن فقد كانت التضحية بالحيوان خطوة كبرى فى تطور الحضارة . وكانت الحيوانات التى سبقت غيرها فى هذا التطور فى بلاد اليونان هى الثيران والضأن والخنازير ؛ فكانت الجيوش المتحاربة تقدم قبل المعركة من الضحايا ما يتناسب مع رغبتها فى النصر ؛ وكان مكان انعقاد أية جمعية يطهر قبل انعقادها بالتضحية بخنزير . غير أن تقوى الناس لم تكن تقوى على طبيعتهم إذا حزبهم أمر خطير ، ولم يكن يصل من الضحية إلى الإله إلا عظامها وقليـــل من لحمها ملفوف بالدهن ، أما ما بقى منها فكان يترك للكهنة وللعابدين . وكان اليونان يبررون عملهم هذا بقولهم إن پروميثيوس Prometheus فى عصر الجبابرة قد لف ما يصلح للأكل من جسم الضحية فى جلدها ، ولف عظامها بالدهن وطلب إلى زيوس أن يختار ما يفضله منهما ، وإن زيوس اختار الدهن « بكلتا يديه » . نعم إن زيوس قد استشاط غضباً حين رأى أنه قد خدع ؛ ولكنه كان قد أتم الاختيار وكان عليه أن يرضى به ويصبر عليه إلى أبد الدهر(٦٩) . ولم تكن الضحية تقدم كلها لحمها وشحمها إلا للآلهة الأرضية ، وكان الحيوان كله فى هذه الحال يحرق فى محرقة عامة حتى يصير رمادا ؛ ذلك أن آلهة الأرض السفلى كان يخشى بأسها أكثر مما يخشى بأس الآلهة الأولمبية . ولم تكن وجبة عامة تعقب التضحية للإله الأرضى ، لأن هذا قد يغرى الإله بالخروج والاشتراك فى الوليمة . أما بعد التضحية للآلهة الأولمبية فقد كان العباد يأتون على الضحية كلها ، ولم يكونوا يفعلون هذا خوفا من الإله وتكفيراً عن ذنوبهم ، بل كانوا يفعلونه لأن من دواعى سرورهم أن يشتركوا فى الطعام مع الإله ، ويرجون أن تكون الصيغ السحرية التى ينطقون بها وقت الطعام قد نفثت فى الضحية حياة الإله وقوته ، وأن هاتين الحياة والقوة ستنتقلان بطريقة خفية إلى الآكلين معه .

وكذلك كان الخمر يصب فوق الضحية ، ويصب بعدئذ فى كؤوس العابدين ، فكأنهم بهذا كانوا يشربون مع الآلهة(٧٠) . وكانت فكرة الاشتراك المقدس



(شكل ١٨) « مولد أفرديتى » من عرش لدفيزى
(متحف رومة)

فى الوجهة الدينية هى الرابطة التى تربط هيئات الإخوان thiosol التى كان كثير من أصحاب الحرف والهيئات الاجتماعية يؤلفونها فى أثينة(٧١) :

وقد ظلت التضحية بالحيوانات منتشرة فى جميع أنحاء بلاد اليونان حتى قضت عليها المسيحية (٧٢) ، واستبدلت بها عن حكمة التضحية الروحية والرمزية المعروفة بالقداس . وأصبحت الصلاة أيضاً إلى حد ما بديلا من التضحية حتى فى العصور الوثنية . وكان استبدال تسبيحات الحمد بالقرابين الدموية إصلاحا يشهد بالحذق لفاعليه ، فبهذه الوسيلة الهينة الرحيمة كان فى استطاعة الإنسان وهو المحوط بالمصادفات والمآسى فى كل خطواته أن يتآسى ويتقوى باستعانته بما فى العالم من قوى خفية .

الفصل الخامس

الخرافات

وكان بين قطبي الدين اليوناني العلوى والسفلى ، الأولمبي والأرضى ، بحر يزخر بالسحر والخرافات ، والأباطيل ؛ وكان من وراء العباقرة الذين سنشيد بذكرهم فيما يلى من صحائف هذا الكتاب ، كما كان من ورائهم ، جمهرة الشعب من الفقراء والسذج الذين لم يكن الدين فى نظرهم إلا شراكا من الخوف لا سلما للآمال ؛ ولم يكن اليونانى العادى يكتفى بتصديق القصص التى تروى المعجزات كصعود منسبوس من بين الموتى ليحارب فى مرثون ، أو تحويل الماء إلى خمر على يد ديونيسس[٧٣] ، ذلك أن أمثال هاتين القصتين تظهر عند جميع الشعوب ، وهى جزء من الشعر المباح المغتفر الذى ينير به الخيال دياجير الحياة العادية . بل إن فى وسع الإنسان أن يذهب إلى أبعد من هـذا فيتغاضى عن حرص أثينة على أن تأوى فيها عظام ثسيوس ، وحرص اسپارطة على أن تسترد من تيجيا Tegeo عظام أرستيز Orestes[٧٤] ، فقد يكون ما يعزوه الحكام لهذه الآثار من قدرة على فعل المعجزات جزءا من فن الحكم وأساليبه . أما الذى كان ينيخ بكلكله على اليونانى الصالح فهو الأرواح المحتشدة من حوله التى يعتقد أنها متأهبة على الدوام لأن تعرف مخبآته ، وأن تتدخل فى شئونه وتلحق به الأذى ، وأن فى مقدورها أن تفعل به هذا كله . وكانت هـذه الشياطين لا تنفك تعمل لأن تتقمصه ، وكان عليه أن يحذرها ويتقى أذاها على الدوام ، وأن يقيم الاحتفالات السحرية ليطردها بها .

وأوشكت هذه الخرافات أن تكون علماً من العلوم الطبيعية ، وكانت إلى حد ما سوابق لنظرية الجراثيم التى نعرفها اليوم . فقد كان معنى الأمراض جميعها عند اليونانى أن المريض قد حل فيه روح غريب ، وأن من يلمس الشخص

المريض يعدى بقذارته أو « يلبسه ذلك الروح الغريب نفسه » : وليست المكروبات والبكتريا إلا صوراً جديدة شائعة لما كان اليونان يسمونه كريس Keres أو الجن الصغيرة(٧٥) . ومن ثم كان الميت « نجسا » لأن الجنى قد استحوذ عليه كل الاستحواذ ؛ وكان اليونانى إذا خرج من بيت فيه ميت رش نفسه بالماء من إناء يوضع لهذا الغرض عند باب البيت ، وذلك لكى يطرد من جسمه الروح الذى غلب الميت على أمره(٧٦) . وقد امتدت هذه الفكرة عند اليونان إلى ميادين كثيرة لم يمتد إليها علمنا الحديث رغم ما ينتابنا من رهبة البكتريا وجزعنا منها . وكان الجماع من أسباب النجاسة ، كولادة الطفل أو القتل (ولو كان غير متعمد) ، وكان الطفل المولود نفسه نجساً . ولم يكن الجنون إلا حلول روح غريب فى جسم المصاب به ، وكان يقال إن المجنون قد « خرج عن نفسه » ، وكان لا بد فى هذه الحالات من القيام باحتفال يطهر فيه الشخص النجس . وكانت المنازل ، والهياكل ، والمدن بأجمعها فى بعض الأحيان ؛ تطهر بالمـاء أو الدخان كما نطهرها نحن الآن(٧٧) ، وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كل هيكل ، حتى يطهر به نفسه كل قادم للتعبد ، أو لعل هذا الوعاء كان رمزاً يوحى إلى الناس بضرورة التطهر . وكان الكاهن نفسه خبيراً بأصول التطهير ، وكان فى مقدوره أن يطرد الأرواح الشريرة من الأجسام بالضرب على إناء من البرنز ؛ أو بقراءة العزائم ، أو بالسحر أو الصلاة ؛ وحتى قاتل النفس عمداً كان يمكن تطهيره إذا أجريت له الطقوس والمراسم الملائمة . ولم تكن التوبة ضرورة محتومة فى مثل هذه الأحوال ، بل كل ما كان يحتاجه المتطهر هو أن يتخلص من الشيطان الشرير الذى تقمصه ؛ وذلك لأن الدين لم يكن أمر أخلاق بقدر ما كان فناً لمعالجة أمور الأرواح . غير أن كثرة المحرمات ومراسم التطهير قد أكسبت اليونانى المتدين مزاجاً عقلياً يشبه شبهاً عجيباً الشعور بالخطيئة عند طائفة المتطهرين المتزمتين (البيوريتان) من الإنجليز . وإن القول بأن اليونان

كانوا مجردين من فكرتى الضمير والخطيئة لا يكاد يبقى له أثر عند من يقرأ كتب بندار وإسكلس ، وقد نشأت من اعتقاد اليونان بأنهم يعيشون فى جو من الأرواح مئات من الخرافات لخصها ثيوفراستوس Theophrastus خليفة أرسو ، فى جزء من كتابه **الأخلاق** فقال :

يبدو أن الإيمان بالخرافات ضرب من الجبن وخور العزيمة أمام القوة الإلهية . . . إن الرجل الخرف لا يخرج من داره أول النهار إلا بعد أن يغسل يديه ويرش نفسه بالماء من العيون التسع ، ويضع فى فمه قطعة من ورقة شجرة فى معبد ، فإذا ما اعترضت طريقه قطة لم يواصل السير حتى يمر به إنسان آخر ، أو يقذف بثلاثة أحجار فى الشارع . واذا أبصر أفعى فى بيته وكانت من النوع الأحمر استنجد بديونيسس ، أما إذا كانت أفعى مقدسة فإنه يقيم لها ضريحاً من فوره فى البقعة التى أبصرها فيها ؛ وإذا مر بأحد الحجارة الملساء المقامة فى مفترق الطرق صب عليه الزيت من قنينته ولم يواصل السير فى طريقه إلا بعد أن ركع له ويتعبد ، وإذا قرض فأر جعبة طعامه ، توجه إلى الساحر وسأله ماذا يفعل ، فإذا أشار عليه بأن « يرسل الجعبة إلى الإسكاف ليرقعها » ، عمل بهذه النصيحة ، وتخلص من النذير المشئوم بطقوس تمنع عنه الشر المرتقب . وإذا وقعت عينه على رجل مصاب بالجنون أو بالصرع ، ارتجف وبصق على صدره(٨٠) .

وكان اليونان السذج يؤمنون ، ويعلمون أطفالهم أن يؤمنوا ، بأنواع لا حصر لها من العفاريت . وكانت مدن بأكملها تروع بين الفينة والفينة بما تنذر به أحداث غريبة كمولد حيوانات مشوهة أو أناس مشوهين(٨١) . وكان الاعتقاد بوجود أيام مشئومة منتشراً إلى درجة تجعل من يؤمنون بهذه العقيدة لا يقدمون فى هذه الأيام على زواج ولا يعقدون فيها جمعية . ولا تجتمع فيها محكمة ، ولا يبدءون فيها مشروعاً خطيراً . وكانت عطسة ، أو عثرة قدم ، تكفى فى بعض الأحيان لحمل العاطس أو العاثر على العدول عن سفر أو عمل هام ، وكان خسوف جزئى يكفى

لوقف زحف الجيوش أو ردها على أعقابها ، وقد يؤدى إلى ختام الحرب بكارثة مدلهمة . يضاف إلى هذا الاعتقاد بأن بعض الناس قد وهبوا قدرة عجيبة على إنزال النقمة بمن يشاءون ، فالأب إذا أغضب قد يصب على من أغضبه ، والسائل إذا أهمل قد يصب على من أهمله ، لعنة لا تقوم لها بعدها قائمة . وكان بعض الناس مهرة فى فنون السحر ، فكان فى وسعهم أن يمزجوا شراباً للعشق أو دواء مقوياً للباه ، وكان فى وسعهم أن يضعفوا ببعض العقاقير السرية قدرة الرجل على الجماع أو يعقموا المرأة فلا تحمل أبداً[٨٢] . وقد رأى أفلاطون أن شرائعه لا تكمل إلا إذا تضمنت تشريعاً يعاقب من يؤذى الناس أو يقتلهم بسحره[٨٣] . فليست الساحرات إذن من اختراع العصور الوسطى ، فها هى ذى ميديا فى روايات يوربديز ، وسميثا Simactha فى روايات ثيوكريتس وهما ساحرتان . وقصارى القول أن الخرافات من أقوى الظواهر الاجتماعية ، وأنها بقيت فى خلال أحقاب المدنية لا تكاد تتغير فى قواعدها وأصولها ولا فى صورها وأشكالها .

الفصل السادس

المتنبئون والمتنبآت

لقد خيل إلى أهل ذلك الوقت الذين كانوا يعيشون فى عالم ملىء بالقوى العليا غير الطبيعية أن حوادث الحياة رهينة بإرادة الشياطين والآلهة ، ولم يكن أمام اليونان الذين يريدون معرفة هذه الإرادة إلا أن يلجئوا إلى العرافين والمتنبئين يستشيرونهم فى أمرهم ، وكان هؤلاء ينبئون بالمستقبل بالنظر فى النجوم : وتأويل الأحلام ، وبحث أحشاء الحيوان ، وزجر الطيور ، وكان العرافون المحترفون يؤجرون أنفسهم للأسر والجيوش والدول[٨٤] ، من ذلك أن نسياس Nicias استخدم قبل أن يسير حملته على صقلية طائفة كبيرة من مقربى القرابين وزاجرى الطيور وقارئى الغيب[٨٥] : ولسنا نقول إن القواد لم يبلغوا كلهم من التقى ما بلغه هذا القائد مالك العبيد ؛ ولكنهم كلهم تقريباً لم يكونوا يقلون عنه إيماناً بالخرافات . وكان يظهر فى البلاد فى أوقات مختلفة رجال ونساء يدعون أنهم ممن يوحى إليهم أو ممن كشف الغطاء عن أبصارهم ، وكان فى أيونيا بنوع خاص نساء يسمين سبيلات Sibyls (أى إرادة الله) يذعن نبوءات يصدقها ملايين اليونان[٨٦] ، ويقال إن واحدة من أولئك السبيلات تدعى هرفيلا Herophila طافت ببلاد اليونان مبتدئة من إريثرا Erythra ثم استقرت فى كومى بإيطاليا حيث أصبحت أشهر سبيلات زمانها ، وعاشت كما تقول الرواية المتواترة ألف عام ، وكان فى أثينة ، كما كان فى رومة ، عدد كبير من المتنبئين والمتنبآت ، وكانت الحكومة تحتفظ فى بهو البلدية الأكبر برجال يحذقون تأويل أقوالهم[٨٧] .

وكان فى كثير من الهياكل المنتشرة فى جميع أنحاء اليونان متنبئون عموميون ، ولكن أشهرهم وأجلهم قدراً فى الأيام القديمة متنبئ زيوس فى دودونا Dodone

كما كان أشهرهم فى العصور التاريخية متنبئ أبلو فى دلفى . وكان اليونان و « البرابرة » يستشيرون هذا المتنبئ ، وحتى رومة نفسها كانت ترسل الرسل ليعرفوا إرادة الإله أو يوحوا إليه بهذه الإرادة . وكانوا يظنون أن النساء أكثر استعداداً لتلقى الوحى من الرجال ، ولذلك كانت ثلاث كاهنات لا تقل سن كل منهن عن نصف قرن يدربن على تعرف إرادة أبلو وهن فى غيبوبة ، وكان غاز عجيب يخرج من فتحة فى الأرض تحت الهيكل ويعزوه الناس إلى تحلل الأفعى التى قتلها أبلو فى ذلك المكان . وكانت الكاهنة التى ستتلقى الوحى تجلس على نضد عال ذى ثلاث قوائم موضوع فوق الشق ، وتستنشق الرائحة الكريهة المقدسة ، وتمضغ أوراقاً من تاج من أوراق الشجر المخدر ، فتغيب عن وعيها ويتقاص جسمها ، ثم ينزل عليها الوحى وهى فى هذا الحال ، فتنطق بألفاظ متقطعة يترجمها الكهنة للشعب المستمع وكثيراً ما كان الجواب النهائى يحتمل تأويلات مختلفة بل متناقضة ، وبذلك تكون المتنبئة صادقة على الدوام مهما وقع من الحوادث(٨٨) . ولعل الكهنة هم والمتنبئة كانوا جميعاً ألعوبة فى أيدى غيرهم ، وكانوا فى بعض الأحيان يقبلون الرشا لينطقوا بما يحب الراشون أن ينطقوهم به(٨٩) ، وكان صوت المتنبئة يتفق فى أكثر الحالات مع صاحب النفوذ الأكبر فى بلاد اليونان(٩٠) . أما إذا لم تكن هناك سلطة خارجية ترغم الكهنة على أن ينطقوا بما ترغب فيه ، فإنهم كانوا يلقون على اليونان دروساً قيمة فى الاعتدال والحكمة السياسية ؛ فقد أعانوا على استقرار القانون وتثبيت دعائمه ، وكان لهم أثر كبير فى تحرير الرقيق ، وقد اشتروا عدداً كبيراً من الأرقاء لكى يحرروهم من الرق ؛ وإن كنا لا ننكر أنهم تغاضوا عن التضحيات البشرية بعد أن أخذ ضمير اليونان ينفر منها ، ولم يرفعوا صوتهم بالاحتجاج على ما كان يحدث فوق جبل أولمبس من فساد خلقى . ذلك بأنهم لم يكونوا متقدمين على التفكير اليونانى ، ولكنهم مع ذلك لم يقفوا فى سبيل هذا

التفكير ويعطلوه بالتعصب لمبادئ وآراء خاصة . وكانوا يخلعون على السياسة اليونانية التى تمليها على الحكام الضرورات الملحة ستاراً من رضاء القوى الإلهية ، وخلقوا شيئاً من الضمير الدولى والوحدة الأخلاقية بين مدن اليونان المبعثرة .

وبفضل هذا الأثر الموحِّد نشأ أقدم حلف بين الدويلات اليونانية ، وكانت جامعة المندوبين اليونان — الجامعة الأمفكتيونية Amphictyonic — فى أول أمرها حلفاً دينياً مؤلفاً من « المقيمين حول » هيكل دمتر القريب من ممر ترموپيلى . وكانت أهم الدول التى تتألف منها هذه الجامعة تساليا ، ومجنيزيا ، وفثيوتس Phithotis ، ودوريس ، وفوسيس ، وبؤوتية ، وعوبية ، وآخية . وكان مندوبوها يجتمعون مرة كل ستة أشهر ، فى الربيع فى دلفى ، وفى الخريف فى ترموپيلى ، وقد تعهدوا بألا يخرب بعضهم مدن بعض ، وألا يسمحوا بأن يقطع الماء عن أية واحدة منها ، وألا ينهبوا كنوز أپلو فى دلفى أو يسمحوا بنهبها ، وأن يقاتلوا أية أمة لا تحترم هذه المواثيق . تلك مبادئ لعصبة أمم حال دون قيامها تغلب الثراء والسلطان بين الدول ، وما طبع عليه الأفراد والجماعات من تنافس وتحاسد ، فقد كونت تساليا جبهة من الدول الخاضعة لسلطانها ، وفرضت على هذه العصبة سيطرتها الدائمة[٩٢] . ونشأت عصب أخرى غيرها ، فكانت أثينة مثلا عضواً فى عصبة كلوريا Calauria ؛ وكانت كل واحدة من هذه العصب المتنافسة تعمل لنشر السلام بين أعضائها . ولكنها أضحت على مر الزمن أداة لتدبير الدسائس وإثارة الحروب على غيرها من العصب .



(شكل ١٩) » عرش لدفيز « للقاعدة اليمنى
(متحف رومة)



(شكل ٢٠) « عرش لدفيزى » القاعدة اليسرى
(متحف رومة)

الفصل السابع

الأعيـــاد

إن لم يكن فى مقدور الدين اليونانى أن يقضى على الحروب ، فإنه قد أفلح فى تخفيف متاعب الحياة الاقتصادية الرتيبة بما كان يقيمه من الأعياد الكثيرة التى قال فيها أرستوفانيز : « ألا ما أكثر ما يقـــدم إلى الآلهة من ضحايا ؛ وما أكثر ما يقام لها من هياكل وتماثيل . . . ومواكب مقدسة ! إنا لنشهد فى كل ساعة من ساعات العام أعياداً دينية وضحايا عليها أكاليل من الزهر ، تقرب للآلهة »(٩٣) . وكانت نفقات هـــذه الأعياد يقوم بها الأغنياء ، أما الدولة فكانت تقدم الأموال المقدسة theorika ، ومنها تؤدى للشعب رسوم الدخول لمشاهدة الألعاب أو المسرحيات التى كانت تمتاز بها هذه الأيام المقدسة .

وكان التقويم الأثينى تقويما دينياً فى جوهره ، وكانت شهور كثيرة تسمى بأسماء ما يقام فيها من أعياد دينية ، ففى الشهر الأول شهر هكتمبيون Hecatombaion (يوليه — أغسطس) يقام عيـــد الكرونيا Cronia (المقابل لعيد الساتورناليا الرومانى) ، وفيه يجتمع السادة والعبيد فى وليمة بهجة طربة . وكان يقام فى هذا الشهر نفسه كل أربعة أعوام عيد الجامعة الأثينية ، وتعقد فيه مباريات ، وتقوم فيه ألعاب مختلفة الأنواع ، تدوم أربعة أيام ، يسير الأهاون جميعاً بعدها فى موكب عام وقور ، يحملون إلى كاهنة أثينة الثوب الفخم الموشى الذى كان يوضع فوق تمثال إلهة المدينة ؛ والعالم كله يعرف أن هذا هو الموضوع الذى اختاره فدياس لزين به طنف البارثنون . وفى الشهر الثانى المتاجيتنيون Metageitnion كان يقام المتاجيتنيا وهو عيد صغير يقام تكريما لأبلو . وفى الشهر الثالث شهر بؤدروميون Boedromion كان سكان أثينة يخرجون إلى إلوسيس لإقامة الطقوس

الكبرى الخفية . وفى الشهر الرابع شهر البيانپسيون Pyanepsiön كان يحتفــل بأعياد البيانپسيا والأسكوفوريا Oscophoria والثسموفوريا Thesmophoria . وكانت نساء أثينة فى هذا الشهر يعظمن دمتر ثسموروس (المشرعة) بإقامة طقوس أرضية عجيبة يعرضن فيها رموزا لقضيب الرجل ويتبادلن فحش القول ، ويمثلن الذهاب إلى الجحيم والعودة منها ، ويبدو أن هذه الحفلات كانت رمزا للإخصاب فى الأرض وفى الآدميين(٩٤) . وكان شهر ميمكتريون Maimakterion هو الشهر الوحيد الخالى من الأعياد .

وفى شهر پوسيديون Poseideon كانت أثينة تقيم عيد الإتالوا Italoa عيد بواكير الفاكهة ، وفى شهر جمليون Gamelion تحتفل بعيد اللينيا Lenaea تكريما لديونيسس . وفى شهر أنثسترن Anthesterion كانت تقام ثلاثة احتفالات هامة ، الطقوس الخفية الصغرى أو التمهيدية ، والديازيا أو التضحية لزيوس ملكيوس ، والأنثستريا أو عيد الزهور ، وهو أهم الأعياد الثلاثة . وفى هذا العيد الربيعى الذى يقام تكريما لديونيسس ويدوم ثلاثة أيام كاملة كانت الخمر تجرى كالأنهار ، ولم تكن ترى إلا سكارى على درجات متفاوتة من السكر(٩٥) ؛ وكان الناس يتنافسون أيهم يفوق غيره فى كثرة الشراب ، والشوارع تعج بالحياة والمرح . وكانت زوجة كبير الأركونين تركب عربة بجوار تمثال ديونيسس وتتزوج به فى الهيكل رمزاً إلى اتحاد الإله بأثينا . وكان يسرى فى هذه الطقوس المرحة قليل من الرهبة والعمل على استرضاء الموتى وكف أذاهم ؛ وكان الأحياء يتناولون فى وقار وهدوء وجبة من الطعام إحياء لذكرى آبائهم ، ويتركون لهم آنية ملأى بالطعام والشراب ، فإذا انقضى العيد أخذ الناس يطردون أرواح الموتى من الدور بصيغة يتلونها ويقولون فيها : « أخرجى من الباب أيتها الأرواح ! لقد انتهى عيد أنثستريا » — وقد أصبحت هذه الألفاظ مثلا يقال عند ما يراد التخلص

من المتسولين الكثيرى الإلحاح(*) .

وفى الشهر التاسع شهر إلافيبوليون Elaphebolion يقع عيد ديونيزيا الكبير الذى أوجده بيسستراتس فى عام ٥٣٤ . وفى ذلك العام جعل ثسپيس المسرحية فى أثينة جزءاً من هذا الاحتفال . وكان ذلك فى أواخر شهر مايو والربيع مقبل والبحر هادئ صالح للملاحة ، فأقبل التجار والزائرون حتى ازدحمت بهم المدينة وتضاعف عدد من يشاهدون الحفلات والمسرحيات . وأوقفت جميع الأعمال ، وأغلقت دور القضاء ، وأطلق سراح المسجونين ليستطيعوا الاشتراك فى الحفلات . وخرج الأثينيون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم فى أزهى الملابس ليشتركوا فى الركب الذى جاء بتمثال ديونيسس من إليوثيزا لوضعه فى مقره . فركب الأغنياء العربات ، وسار الفقراء راجلين ، ومن ورائهم قافلة طويلة من الحيوانات لتهدى إلى الآلهة . واشتركت فى هذا الموكب فرق من المغنين أقبلت من مدن أتكا تتبارى فى الغناء والرقص . وفى الشهر العاشر شهر منيكيون Munychion كانت أثينة تحتفل بعيد المنيكيا ، وكانت تحتفل كل خمسة سنين بعيد البرورونيا Brauronia تكريماً لأرتميس . وفى شهر ثراجليون يقع الثراجليا أى عيد حصاد الحب . وفى الشهر الثانى عشر شهر سكروفريون Skirophorion كان يحتفل بأعياد اسكروفوريا ، وأرتوفوريا Arretophoria ، وديپوليا Dipolia وبوفنيا Bouphonia . ولم تكن هذه الأعياد كلها أعياداً سنوية ، ولكنها ، حتى ما لم يكن يحتفل به منها إلا كل أربع سنين ، كانت تخفف كثيراً من كدح الحياة اليومية .

وكان لغير أثينة أيام مقدسة شبيهة بهذه الأيام ؛ وكان كل موسم من مواسم الزرع أو الحصاد فى الريف يستقبل بمظاهرة البهجة والمرح . وكان أعظم من هذه الأعياد كلها أعياد الجامعة الهيلينية ، والحفلات العامة الجامعة Panegyreis ،

(*) لا يزال الناس فى أنحاء كثيرة من أوربا يعتقدون أن الأرواح تعود إلى الأرض كل عام ، وأن عليهم أن يولوا لها وليمة فى « عيد جميع الأرواح(٩٦) » .

ومن هذه الأعياد عيد الجامعة الأيونية Panionia فى ميكالى Mycale وعيد أپلو فى ديلوس ؛ والعيد اليثى Phthian فى دلنى ، وعيد البرزخ Isthmiu فى كورنثة ، والعيد النميثى Nemean فى أرجوس ، والعيد الأولمپى فى إليس . وكانت تقام فى هذه الأعياد مباريات رياضية بين الدول المختلفة ، ولكنها كانت فى أساسها أياما مقدسة . فقد كان من حسن حظ بلاد اليونان أن كان دينها من العناصر البشرية — وأن كان فيها فى آخر أيامها من العناصر الإنسانية الرحيمة — ما يكفى لاقترانه بالفن ، والشعر ، والموسيقى ، والألعاب ، واقترانه آخر الأمر بالأخلاق اقتراناً جعله مصدر السرور والإبداع .

الفصل الثامن

الدين والأخلاق

يبدو لأول وهلة أن الدين اليونانى لم يكن ذا أثر كبير فى الأخلاق ، فقد كان فى أصله طائفة من قواعد السحر لا من قواعد الأخلاق القويمة ، وبقى إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخر أيام اليونان . وكان لصحة المراسم والطقوس فى هذا الدين شأن أكبر مما للسلوك القويم ، ولم تكن الآلهة نفسها ، الأولمبية منها والأرضية ، مثلا طيباً فى الأمانة والعفاف ودماثة الأخلاق . وحتى الشعائر الإلوسينية الخفية ، كانت تجعل التطهير بالمراسم والطقوس لا طهارة النفس وكرم الأخلاق هو العامل الأكبر فى النجاة من العذاب وإن كنا لا ننكر أنها كانت تبعث فى النفوس آمالا كباراً . وفى ذلك يقول ديوچين الساخر : « سيكون اللص پتيكيون Pataikion بعد موته أسعد حالا من أجسلوس Agesilaus أو أپامينانداس لأن پتيكيون قد كرس فى إلوسيس» (٩٧) .

لكن الدين اليونانى ، رغم هذا ، كان عوناً خفياً للشعب وللدولة فى أكثر الشئون الأخلاقية حيوية . من ذلك أن مراسم التطهير وإن كانت كلها مظاهر خارجية كانت ترمز إلى الأخلاق القويمة . كذلك كانت الآلهة تعين على الفضيلة وإن كانت هذه المعونة عامة غير دقيقة ، وغامضة ، وغير مطردة . ذلك أنها كانت تغضب على الشرير وتنتقم من المتكبر ، وتحمى الغريب ، وتستجيب لمن يتوسل إليها ، وتحمى بجبروتها قدسية الأيمان . فهم يقولون لنا إن ديكى Dike كانت تعاقب على كل ظلم ، وإن يومنيدس Eumenides الرهيب كان يقتفى

أثر القاتل ، كما يفعل أرستيز ، حتى يجن أو يموت . وكان الدين يخلع القدسية والكرامة على أهم أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها — كالمولد ، والزواج ، والأسرة ، والعشيرة ، والدولة — ، وينتشلها من فوضى الشهوات العاجلة . وكانت عبادة الموتى وتكريمهم يربطان الأجيال المتعاقبة برباط من الواجبات المستقرة المتصلة . وبفضلهما لا تقتصر الأسرة على أن تكون زوجا وزوجة معهما أطفال ، أو مجموعة أبوية من الآباء والأطفال والأحفاد ، بل تصبح فضلا عن هـــذا اتحاداً مقدساً وتتابعاً مستمراً للدم والنار ، ترجع أصولها إلى الماضي السحيق وتمتد أغصانها إلى المستقبل البعيد ، وتربط الموتى والأحياء ومن لم يخرجوا بعد إلى هـــذا العالم برباط مقدس أقوى من رباط الدولة مهما قويت . وكان إنجاب الأطفال واجباً مقدساً حوتى يفرضه الدين على الأحياء ، ثم لا يكتفى بهذا بل يشجع على النسل بأن يدخل فى روع من لا أبناء له أنه قد لا يجد من يوارى جسمه التراب أو يعنى بقبره بعد وفاته . وقد ظل اليونان يتناسلون بكثرة خيارهم وشرارهم على السواء طالما كان للدين أثر فى حياتهم ، وكان من نتيجة هذه الكثرة مضافاً إليها الانتخاب الطبيعى الصارم أن احتفظ اليونان بقوتهم ومميزاتهم . وكان الدين والوطنية تربطهما مئات من الطقوس الرهيبة المؤثرة ، فكان أكثر الآلهة والإلهات احتراماً فى الاحتفالات العامة بطل المدينة المؤله أو بطلتها المؤلهة ؛ وكان كل قانون وكل اجتماع للجمعية أو لدور القضاء ، وكل عمل خطير يقدم عليه الجيش أو الحكومة ، وكل مدرسة وجامعة ، وكل هيئة اقتصادية أو سياسية ، كانت هذه كلها تحيط بها الاحتفالات والتضرعات الدينية . وبهذه الوسائل كلها كان الدين اليونانى يستخدم لحماية المجتمع والشعب من أنانية الفرد الغريزية . وقوت الفنون والآداب والفلسفة هذا الأثر الدينى فى بادئ الأمر ، ثم عملت بعدئذ

على إضعافه ؛ فقد أخذ پندار ، وإسكلس ، وسفكليز ينفثون حماستهم الأخلاقية أو فطنتهم فى العقائد الأولمپية ؛ ورفع فدياس من مقام الآلهة بما خلعه عليها من جمال وجلال ؛ وجمع فيثاغورس وأفلاطون بين الفلسفة والدين ، وأيدا عقيدة الخلود ليجعلا منها باعثاً قوياً على حسن الخلق . لكن پروتجراس كان يشك فى الآلهة ، وسقراط يتجاهلها ولا يأبه بها ، ودمقريطس يجحدها ، ويورپديز يسخر منها ، وانتهى الأمر بأن دكت الفلسفة اليونانية ، عن غير قصد منها ، قواعد الدين الذى صاغ الحياة الأخلاقية فى بلاد اليونان فى القالب الذى وجدت فيه .

الباب التاسع

الثقافة المشتركة لبلاد اليونان

فى عهدها المبكر

الفصل الأول

فردية الدولة

بلغت الثقافة الأوربية قمة مجدها فى بلدين : اليونان القديمة وإيطاليا فى عهد النهضة . ولم تكن تعتمد فى كلا العهدين على نظام سياسى أكبر من دويلات المدن : ويغلب على الظن أن الأحوال الجغرافية قد أعانت بلاد اليونان على أن تصل إلى هذه النتيجة . ذلك أن الجبال ومجارى المياه تعترض السائر فيها أينما ذهب ؛ وكانت القناطر فيها قليلة والطرق وعرة وغير معبدة . نعم إن البحر كان طريقا عاما مفتح الأبواب ، ولكنه كان يربط المدينة بأخواتها من المدن التجارية لا بما يجاورها من المدن . على أن الأحوال الجغرافية لا تفسر وحدها قيام دول المدن ، فقد كان هناك من أسباب الانفصال بين طيبة وبلاتية القائمتين على نفس السهل البوؤتى بقدر ما كان بين طيبة واسپارطة ؛ وكان بين سبياريس وكروتونا القائمتين على نفس الساحل الإيطالى من دواعى الانفصال أكثر مما كان بين سيباريس وسرقوسة . إن علينا أن نضم إلى العوامل الجغرافية عوامل أخرى كثيرة ، فاختلاف المصالح الاقتصادية والسياسية باعد بين المدن وجعلها يحارب بعضها بعضا

للحصول على الأسواق أو الحبوب ، أو تكون أحلافاً متنافسة للسيطرة على المسالك البحرية . ومن العوامل الأخرى التى ساعدت على هذا الانفصال اختلاف أصول السكان . نعم إن اليونان كانوا يرون أنهم كلهم من عنصر واحد ، ولكنهم كانوا شديدى الإحساس باختلاف القبائل التى ينتمون إليها — الإيولية ، والأيونية ، والآخية ، والدورية — ومن أجل ذلك كانت أثينة واسپارطة تحقد كلتاهما على الأخرى حقدا لا يقل عن حقد العناصر المختلفة فى هذه الأيام . وقوى اختلافُ الأديان الانقسامات السياسية ، كما زادت هذه الانقسامات ما بين الأديان من اختلاف ، فقد نشأ من الطقوس الدينية التى اختصت بها بعض الأماكن أو بعض القبائل أعياد خاصة ، وتقاويم خاصة ، وعادات ، وشرائع ، ومحاكم تختلف باختلاف المدن ، بل إن هذه الطقوس قد أقامت فى بعض الأحيان حدوداً بين المدن ؛ وذلك لأن أحجار التخوم كانت فاصلا بين ممالك الإله ، كما كانت فاصلا بين المجتمعات البشرية لأن من الواجب المحتوم أن يكون دين الإقليم هو دين حاكمه cūjus regio, ejus religio . وكانت هذه العوامل مجتمعة هى وعوامل أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هى التى أوجدت دول المدن اليونانية .

ولم يكن هذا طرازاً جديداً من النظم الإدارية ، فلقد رأينا أنه كانت فى بلاد سومر ، وبابل ، وفينيقية ، وكريت ، دول مدن قبل هومر وپركليز بمئات السنين أو آلافها ، وكانت دولة المدينة من وجهة النظر التاريخية هى بعينها مجتمع القرية فى مرحلة من الامتزاج أو التطور أعلى من مرحلته القروية — وكان لها سوقها المشتركة ، ومكان اجتماعها ، ومجلس قضائها للفصل فى منازعات الأهلين الذين يحرثون ما يجاورها من أرض زراعية ؛ وكان أهلها من أصل واحد يعبدون إلها واحداً .

أما من الناحية السياسية فقد كانت دولة المدينة عند اليونان خير مايستطيعون

الوصول إليه من وسائل التوفيق بين العنصرين المتناقضين اللذين يتألف منهما المجتمع الإنسانى ، واللذين يتناوبان الغلبة عليه ، ونقصد بهما عنصر النظام ، وعنصر الحرية ، فالمجتمع الصغير لا يأمن على نفسه من الاعتداء ، والمجتمع الكبير يصبح مجتمعاً استبداديا . وكانت أكبر أمنية للفلاسفة أن تتكون بلاد اليونان من دول — مدن مستقلة ذات سيادة تتعاون كلها داخل نظام فيثاغورى مؤتلف منسجم . وكانت فكرة أرسطو عن الدولة أنها جماعة من الأحرار يخضعون لحكومة واحدة ، ويستطيعون الالتقاء فى جمعية واحدة ، وكان يرى أن الدولة إذا زاد عدد مواطنيها على عشرة آلاف تعجز عن إدارة شئونها . ومن أجل هذا كان لفظ واحد — پوليس Polis — يطلق على المدينة والدولة فى بلاد اليونان . .

وما من أحد يجهل أن هذا التفتت السياسى قد جر على بلاد اليونان كثيرا من المآسى بسبب ما قام بين أهلها وهم إخوة من نزاع . فقد خضعت أيونيا لسيطرة الفرس لأنها عجزت عن أن تتحد للدفاع عن نفسها ؛ وضاعت فى آخر الأمر تلك الحرية التى كان اليونان يعتزون بها ويقدسونها لأن بلاد اليونان لم تستطع الثبات متحدة فى وجه أعدائها رغم ما أقامته من أحلاف وعصب . ولكننا نعود فنقول إنه لولا دول — المدن لما كانت بلاد اليونان ؛ ولولا شعور اليونان بالفردية المدنية ، واعتزازهم الشديد باستقلالهم ، ولولا ما كان بين أنظمتهم وعاداتهم وفنونهم ، وآلهتهم من تباين ، لما كان ما بينهم من تسابق وتنافس حافزا لهم على أن يحبوا حياة إنسانية كاملة فيها من الحماسة والإبداع ما لا نظير له فى أى مجتمع آخر . وهل فى وقتنا الحاضر نفسه رغم ما فيه من حيوية وتنوع ، وما يمتاز به من آلات ضخمة وقوى جبارة ، مجتمع فى حجم المجتمعات اليونانية أو فى عدد سكانها يستطيع أن يهب المدينة من النعم قدر ما وهبتها حرية اليونان المضطربة . التى كانت هى والفوضى سواء ؟

الفصل الثانى

الكتابة والقراءة

على أنه كان فى حياة هذه الدول ، ذات النزعة الانفصالية القوية ، عدة عوامل مشتركة . منها أننا نجد فى شبه جزيرة اليونان كلها منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد لغة واحدة تنتمى إلى مجموعة اللغات « الهند — أوربية » التى تشمل الفارسية والسنسكريتية ، والسلافونية ، واللاتينية ، والألمانية ، والإنجليزية . وإنا لنجد لآلاف الكلمات التى تعبر عن العلاقات الأولية فى حياة الناس ، أو عن الأدوات التى كانوا يستخدمونها ، أصولا مشتركة فى هذه اللغات جميعها ، وهى لا تدل فقط على قدم مسميات هذه الكلمات وانتشارها فى البلاد التى تنطق بهذه اللغات ، بل تدل كذلك على ما بين الشعوب التى كانت تستخدم المسميات فى فجر التاريخ من قرابة أو رابطة(*) . نعم إن اللغة اليونانية قد تشعبت لهجات مختلفة — الإيولية ، والدورية ، والأيونية ، والأتكية ؛ ولكن الناطقين بهذه اللهجات المختلفة كان يفهم بعضهم بعضا ؛ ثم خضعت كلها فى القرنين الخامس والرابع إلى لهجة مشتركة koine dialektos انبعث معظمها من أثينة ، وكانت تنطق بها الطبقات المتعلمة كلها تقريبا فى العالم اليونانى بأجمعه . وكانت اللغة اليونانية الأتكية لغة جزلة ، قوية مرنة ، حلوة النغم ، فيها من الشذوذ مثل ما فى أى لغة حية ، ولكنها تقبل فى يسر كل التراكيب التى تجعلها صالحة للتعبير عن أغراضها ، وفيها التدرج والاختلاف الدقيق فى المعانى ، وفيها المدركات الفلسفية الدقيقة ،

(*) قارن فى هذه اللغات المختلفة الألفاظ الآتية damas (منزل) فى السنسكريتية ، و domos فى اليونانية و domus فى اللاتينية ، و tim - ber الإنجليزية ؛ و davaras ، thyra ، fores ؛ و venas ، (f)oinos ، vinum ، urine ؛ و naus ، navis ، nave و akshas ، axon ، axis ، axis ؛ iugam ، zygon ، iugum yoke الخ .

وفيها جميع أنواع التعبيرات الأدبية السامية الرفيعة من شعر هومر الطنان الرنان إلى نثر أفلاطون الهادئ الواضح السلس(*) .

وتعزو الرواية اليونانية المتواترة إدخال الكتابة فى بلاد اليونان إلى الفينيقيين فى خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وليس لدينا ما ينقض هذه الرواية ، بل إن بين الكتابات اليونانية التى ترجع إلى القرنين الثامن والسابع وبين الحروف المنقوشة على حجر مؤاب فى القرن التاسع تشابها كبيراً(٣) . من ذلك أن النقوش اليونانية كتبت على الطريقة السامية من اليمين إلى اليسار ؛ وفى القرن السادس كانت (كالنقش الذى وجد فى جورتينا Gortyna) تنقش من اليمين إلى اليسار فى أحد السطور ثم من اليسار إلى اليمين فى السطر الذى يليه وهكذا دواليك ، ثم أصبحت بعد هذا تنقش من اليسار إلى اليمين على الدوام ، واستلزم هذا قلب وضع الحروف فصار حرفا ꓭ ، ꓱ يكتبان هكذا B ، E . كذلك سميت الحروف بأسمائها السامية مع تعديلات طفيفة(**) ، ولكن اليونان أدخلوا على هذه الأسماء تغيرات أساسية ، أهمها أنهم أضافوا إليها حروفاً للحركة لا نجدها عند الساميين ، فاستخدموا بعض الحروف السامية الساكنة ، وحروف التنفس لتمثيل الحركات التى تدل عليها a ، e ، i ، o ، u وأضاف الأيونيون فيما بعد حروف المد إيتا eta (e الممدودة ، أوميجا o-mega (تمثل o الممدودة أو o المزدوجة). وأخذت تنشر أبجديات يونانية مختلفة ينازع بعضها بعضاً ، فكان هذا النزاع

(*) لسنا نعرف كيف كان نطق الألفاظ اليونانية القديمة . وقلما كان اليونان فى عصرهم الزاهر يعنون بالنبرات التى تضايقنا كثيرا فى هذه الأيام ، ولكنها قد دخلت فى النصوص القديمة على يد أرسفنيز البيزنطى فى القرن الثالث قبل الميلاد . ولهذا يجب أن نغفل هذه النبرات حين نقرأ الشعر اليونانى

(**) قارن مثلا الحرف اليونانى ألفا والفينيقى ألف (الثور) ؛ وبيتا اليونانية وبث (عيهلة) الفينيقية ، وغما اليونانية وجمل (جمل) الفينيقية ؛ ودلتا ودالت (باب ؛ إ — پسلون ، وهى he (نافذة) ، وزيتا وزين (حربة) وهيتا وخث (سياج وأيوتا ويد (يد) وهكذا .

جزءاً من الحروب القائمة بين دول — المدن ، وتغلبت الحروف الهجائية الأيونية فى بلاد اليونان ثم انتقلت منها إلى أوربا الشرقية وبقيت فيها إلى اليوم ، أما رومة فقد اتخذت الحروف الخلقيدية Chalcidian من كومى وهى التى أصبحت الحروف اللاتينية والحروف الإنجليزية . وكانت الأبجدية الخلقيدية ينقصها حرفا ال e وال o الممدودان ، ولكنها فعلت ما لم تفعله الأبجدية الأيونية فاستبقت vau الفينيقية حرفاً ساكناً (وهى ال v التى يقرب نطقها من نطق حرف w) ؛ ومن أجل هذا كان الأثينيون يسمون النبيذ oinos والخلقيديون يسمونه voinos والرومان يسمونه vinum والإنجليز يسمونه wine . كذلك استبقى الخلقيديون حرف koppa أو q وانتقل منهم إلى رومة ثم إلى اللغة الإنجليزية ، أما أيونيا فقد أهملته واكتفت بحرف k وكتبت أيونيا حرف l بهذه الصورة A ، أما كلسيز فقد كتبته l ؛ وعدلت رومة هذه الصورة الثانية فجعلتها معتدلة وانتقلت منها على هذا النحو إلى أوربا . وكتب الأيونيون حرف R كما نكتب نحن حرف p أما إيطاليا اليونانية فقد أضافت إلى p ذيلا فأصبحت R[٤] .

والراجح أن أولى الأغراض التى استخدمت فيها الكتابة فى بلاد اليونان كانت هى الأغراض التجارية أو الدينية ، ويبدو أن الرقى والتعاويذ التى كان يتلوها القساوسة هى مبدأ الشعر ، وأن ما يكتب فى أوراق شحن السفن كان بداية النثر . ثم انقسمت الكتابة نوعين مختلفين أحدهما دقيق منتظم للنقوش وما إليها ، والثانى هو الكتابة الدارجة التى تستخدم فى الأغراض اليومية العادية . ولم يكن فى كلا النوعين نبرات ، ولم يكن يترك بين الكلمات فراغ ، ولم تكن فيهما علامات ترقيم[٥] ؛ فإذا أريد الانتقال من موضوع إلى موضوع دلوا على ذلك بشرطة فاصلة أفقية يسمونها برجرافوس paragraphon أى علامة « تكتب إلى ناحية » ، وكانت المواد التى تكتب عليها متنوعة

فكانت فى بادئ الأمر ، إذا جاز لنا أن نأخذ بقول پلنى ، أوراق الأشجار أو لحاءها[٦] ؛ فإذا أرادوا النقش استخدموا الحجارة أو البرنز أو الرصاص ؛ وكانوا يستخدمون للكتابة العادية ألواح الطين كما كان يفعل أهل ما بين النهرين(*) ؛ ثم استخدموا ألواحاً من الخشب تغطيها طبقة من الشمع ، وكانت هذه شائعة بين التلاميذ قبل أيامهم[٧] ؛ فإذا أرادوا أن يكتبوا شيئاً يبقى أمداً طويلا استخدموا أوراقاً من البردى كان الفينيقيون يأتون بها من مصر ؛ وفى العهد الذى انتشرت فيه حضارة اليونان فى خارج بلادهم ، وفى العهد الرومانى ، استخدم الرق المصنوع من جلود المعز والضأن أو أغشيتها الرقيقة ، وكانوا يكتبون على ألواح الشمع بقلم معدنى ، وعلى ورق البردى والرق بقلم من الغاب يغمس فى الحبر ، وكانت الكتابة على الشمع تمحى بنهاية القلم المعدنى السميكة ، أما الحبر فكان يمحى بقطعة من الإسفنج ؛ ولذلك أرسل الشاعر ماريتال إلى صديق له قطعة من الإسفنج مع قصائده لكى يمحوها « بضربة واحدة[٨] » . وإن كثيراً من النقاد فى هذه الأيام ليحزنهم أن هذا الأدب الجم لم يبق له الآن وجود .

وليس ثمة ميدان وصلتنا منه الألفاظ القديمة بالكثرة التى وصلتنا من ميدان الكتابة . فكلمة ورق بالإنجليزية paper مأخوذة من اسم نبات البردى papyrus ، وقد أعادت دورة الفلك الطراز القديم لصنع هـذه المادة من النبات المضغوط . وكان السطر من الكتابة يسمى باليونانية stichos أى صفا ، وكان اللاتين يسمونه versus أى عودة إلى الوراء ، ومنها اشتقت كلمة verse الإنجليزية . وكانوا يكتبون ما يريدون فى صورة أعمدة على قطعة من ورق البردى أو الرق طولها من عشرين قدماً إلى ثلاثين تلف حول عصا . وكانوا يسمون هذا الملف(**) ببلوس biblos ، وقد أخذوا هذا الاسم من المدينة الفينيقية المعروفة بهذا الاسم والتى

(*) وكانت كلمة Graphein التى نترجمها الآن بكلمة الكتابة تعنى أولا الحفر.

(**) وكان اللاتين يسمون الملف volumen — أى الملفوف .

كانت تمد بلاد اليونان بالورق المصنوع من نبات البردى . أما الملف الصغير فكان يسمى ببليون biblion . وكان الكتاب المقدس (bible) يسمى فى أول الأمر biblia أى الملفات . فإذا كان الملف جزءاً من كتاب أكبر منه سمى tomos أى مقطعاً . وكان الجزء الأول من الملف يسمى پروتوكولون protocollon : أى الشريحة الأولى الملتفة بالعصا . وكان طرفا العصا يصقلان بحجر الخفاف ويلونان أحياناً ؛ وكان الملف يوضع أحيانا فى غشاء يسميه اليونان diphthera ويسميه اللاتين(*) vellum ، إذا استطاع مؤلفه أداء ما يلزم ذلك من النفقات ، أو كان ما كتب فيه ذا بال . وإذ كان من غير الميسور تداول الملف الكبير أو استخدامه فى المراجعة فقد كانت المؤلفات الأدبية تقسم عادة إلى عدة مؤلفات ؛ وكانت كلمة biblos تطلق على كل ملف أو جزء من كتاب كبير . وقلما كان المؤلف نفسه هو الذى يقسم كتابه هذا التقسيم . فقد كان الناشرون المتأخرون هم الذين قسموا تواريخ هيرودوت إلى تسعة كتب ، وكتاب توكيديدس فى حرب البلوبونيز إلى ثمانية ، وجمهورية أفلاطون إلى عشرة ، والإلياذة والأوذيسة إلى أربعة وعشرين جزءا . وإذ كان نبات البردى غالى الثمن ، وكانت كل نسخة من الكتاب تكتب باليد ، فقد كان عدد الكتب قليلا عند اليونان والرومان الأقدمين(**) . وكان التعلم فى تلك الأيام الخالية أيسر منه فى هذه الأيام ، وإن يكن كسب الذكاء فى الزمن القديم لا يقل صعوبة عن كسبه اليوم . ولم تكن معرفة القراءة ميزة عامة عند الأقدمين ، ولذلك كان معظم العلم يؤخذ بالتلقين من جيل إلى جيل أو من صانع إلى صانع ،

(*) واسمها باللاتينية frontes ومنها جاءت forntispiece الإنجليزية ، ومعناها الصورة التى فى أول الكتاب .

(**) لقد استطاع العرب رغم هذه الظروف نفسها أن يكتبوا آلاف الكتب التى امتلأت بها المكتبات فى العواصم الإسلامية المختلفة ، وهى التى لم يفرغ العالم العربى والأوربى حتى الآن من طبعها ، وإن كان علينا ألا نغفل فى هذه المفاضلة فرق الزمن واتساع رقعة العالم الإسلامى . (المعرب)

وكان معظم الأدب يتلوه بصوت جهورى قراء مدربون على أشخاص يتعلمونه بالسماع(*) . ولم يكن فى بلاد اليونان قبل القرن السابع جمهور كبير من القارئين ، ولم تكن فى البلاد دور كتب قبل أن يجمع پوليكراتس Polycrates وپيستراتس مكتبتيهما فى القرن السادس(٩) . فلما كان القرن الخامس بدأنا نسمع عن وجود مكتبة خاصة ليورپديز وأخرى للأركون يوكليدز Eucleides ؛ ثم سمعنا فى القرن الرابع عن مكتبة أرسطاطاليس . ولم نسمع عن وجود مكتبة عامة قبل مكتبة الإسكندرية ، كما لم نسمع بوجود مكتبة فى أثينة قبل أيام هدريان(١٠) . ولعل عظمة اليونان فى أيام پركليز كان مرجعها إلى أن اليونان لم يكونوا يقرؤون كتبا كثيرة أو يقرؤون أى كتاب طويل .

(*) لا يزال الهدف المقصود من « الأسلوب » فى الكتابة ومن علامات الترقيم هو تيسير التنفس للقارئ وحسن وقع الصوت على الأذن ، وإن كنا قد أصبحنا نتلقى ثقافتنا وغذاءنا العقلى بعد انتشار الطباعة عن طريق العين ، وإن كانت الكتابة قلما تقرأ جهرة . وأكبر الظن أن الأجيال القادمة ستعود إلى ما كان عليه الأقدمون فتتلقى غذاءها العقلى مرة أخرى عن طريق الأذن .

الفصل الثالث

الأدب

لقد كان الأدب من أسباب فرقة بلاد اليونان كما كان من أسباب وحدتها ، شأنه من هذا شأن الدين سواء بسواء . ذلك أن الشعراء كانوا يغنون بلهجاتهم المحلية ، وكثيراً ما كانوا يصفون مناظر أقاليمهم ، ولكن هلاس كلها كانت تستمع إلى أكثر الأصوات فصاحة ، وكانت من حين إلى حين تستحثهم على أن يطرقوا موضوعات أعم وأوسع من تلك الموضوعات المحلية الضيقة . ولقد عدا الدهر كما عدت الأهواء الضيقة على هذا الشعر المبكر فأبادتْ أكثره حتى لم يعد فى وسعنا أن نحس بما فيه من ثراء ، وبما كان يطرقه من موضوعات ، وبما يعزى إليه من جزالة اللفظ وجمال الشكل ؛ ولكننا حين نطوف بجزائر اليونان ومدنهم فى القرن السادس قبل الميلاد لا يسعنا إلا أن نعجب بوفرة ما تطالعنا به هذه الجزائر والمدن من الأدب اليونانى قبل عصر پركليز ، وبجودة هذا الأدب . وإن الشعر الغنائى فى ذلك القرن لتنعكس فيه صورة مجتمع أرستقراطى كانت فيه المشاعر والأفكار والأخلاق حرة ما دامت تراعى واجبات الأدب وحسن التربية . وقد أخذ هذا الأسلوب من الشعر الحضرى المصـــقول يختفى شيئاً فشيئاً فى عهد الدمقراطية . وكان مختلف المبنى متعدد الأوزان ، ولكنه قلما كان يقيد نفسه بقيود القافية . ذلك أن معنى الشعر عند اليونان أن يحس الإنسان ويتخيل ويعبر عن إحساسه وخياله فى لغة موزونة(*) .

وبينا كان أصحاب الشعر الغنائى يتغنون بالحب وبالحرب ، كان الشعراء الجوالون ينشدون فى مجالس العظماء الملاحم فى وصف ما قام به اليونان من

(*) كان الشعر المغنى مقصوراً فى الغالب على أقوال المتنبئين وعلى النبوءات الدينية .

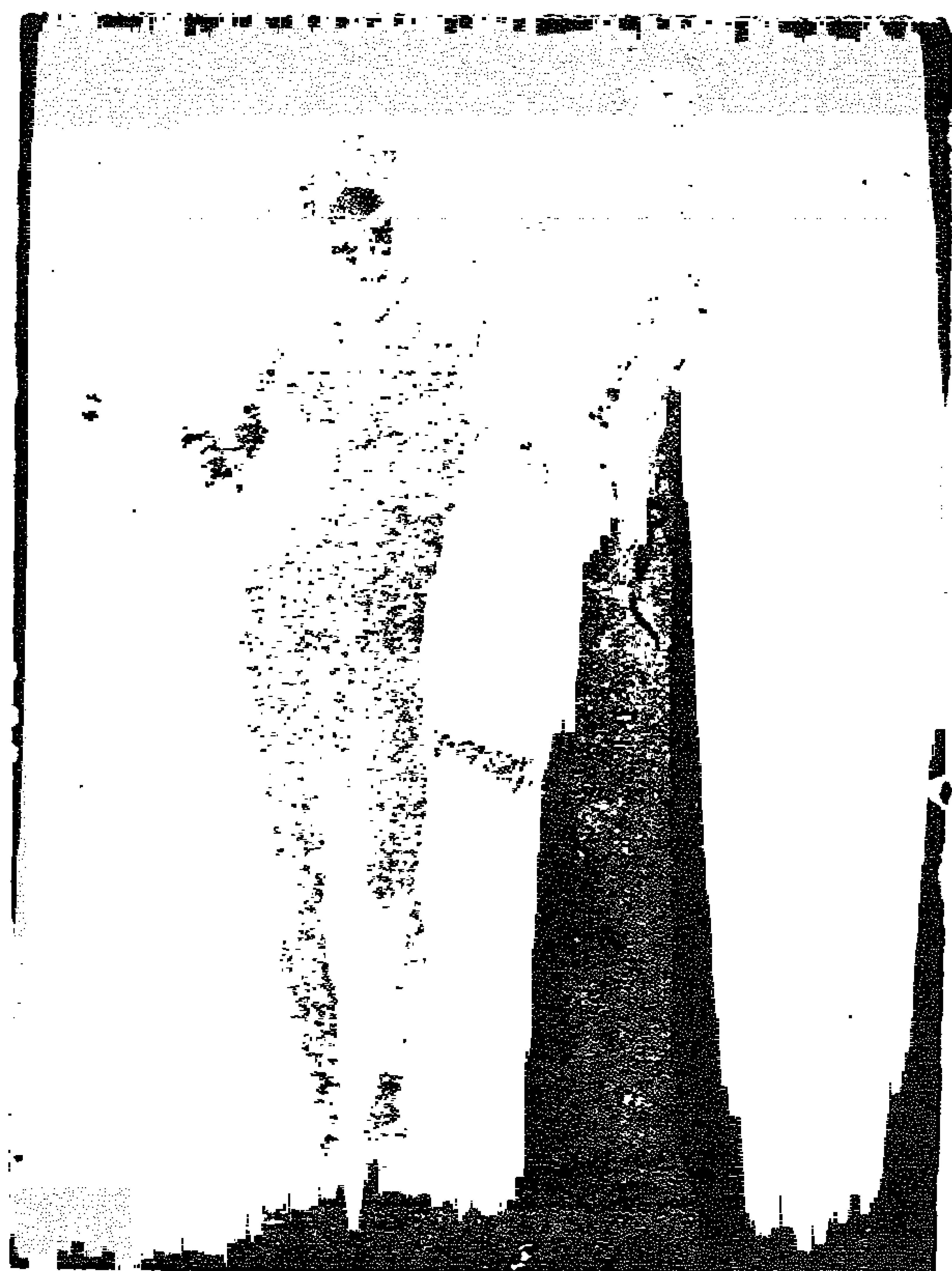
جلائل الأعمال . ولقد أنشأت جماعات المغنين على توالى الأجيال طائفة من القصائد الغنائية تدور كلها حول حصار طيبة وطروادة وعودة المحاربين إلى أوطانهم . وكانت الأغانى شائعة مشتركة بين هؤلاء الشعراء ، وكان كل واحد منهم يؤلف قصته من قطع متفرقة أقدم منها عهداً ، ولم يكن منهم من يدعى أنه هو الذى ألف سلسلة متتابعة من هذه القصص . وقد وجدت فى طشيوز جماعة من أولئك الشعراء أطلقوا على أنفسهم الهومريدى Homeridae ، وادعوا أنهم من نسل شاعر يدعى هومر ، وهو فى زعمهم مؤلف الملاحم التى كانوا ينشدونها فى شرق بلاد اليونان بأجمعه[١١] . وقد يكون هذا الشاعر الضرير لا وجود له فى الحقيقة بل كان أباً خيالياً لقبيلة أو طائفة من الناس ، شأنه فى هذا شأن هلن ، ودورس وأيون[١٢]. ولم يكن اليونان فى القرن السادس يعزون إلى هومر الإلياذة والأوذيسة فحسب ، بل كانوا يعزون إليه كذلك كل الملاحم المعروفة وقتئذ ، والقصائد الهومرية أقدم الملاحم المعروفة فى التاريخ ، لكن جودتها فى حد ذاتها وما فيها من إشارات كثيرة إلى شعراء سابقين ، لتوحيان إلينا بأن هذه الملاحم الباقية هى الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة بدأت بالقصائد البسيطة القصيرة ثم تطورت حتى وصلت إلى هذه الأغانى الطويلة « المخيطة » بعضها فى بعض . وألفت فى أثينة فى القرن السادس قبل الميلاد لجنة حكومية — قد تكون فى عهد صولون[١٣] ، وقد تكون وهو الأرجح فى عهد پيسستراتس — ، فانتقت الإلياذة والأوذيسة من بين الملاحم الأدبية الباقية من القرن الذى قبله ، أو لعلها جمعتهما بعد مقابلة النسخ الموجودة منها وقتئذ بعضها على بعض ، ثم عزتهما إلى هومر ، ثم نشرتهما — أو لعلها صاغتهما — فى صورة فى جوهرها صورتهما الحاضرة[١٤] .

ومن المعجزات الأدبية أن تصل قصيدتان مستمدتان من أصول متعددة مختلفة إلى هذه الدرجة الفنية العالية . ولسنا ننكر أن الإلياذة تقصر دون الغاية

فى مبناها وفى لغتها ، وأن الصور الإيولية والأيونية تختلط فيها اختلاطاً لا يقدر عليه إلا رجل من أهل أزمير يتكلم عدة لغات ، وأن أوزان شعرها مأخوذة من هذه اللهجة تارة ومن تلك اللهجة تارة أخرى ، وأن حبكتها قد أفسدها كثرة ما فيها من تناقض ، وتغيير فى الخطة ، وتوكيد أهمية حادثة ما فى بعض المواضع ثم الاستخفاف بشأنها فى البعض الآخر ، وتعارض فى أخلاق أشخاصها ، وأن أبطالها يقتلون هم أنفسهم مرتين أو ثلاث مرات قبل نهاية القصة ، وأن موضوعها الأصلى — وهو غضب أخيل ونتائجه — يقطعه ويطغى عليه عشرات القصص والحوادث المأخوذة على ما يظهر من قصائد أخرى أدمجت فى الملحمة فى أجزاء مختلفة منها ؛ لسنا ننكر شيئاً من هذا ولكن القصة فى مناحيها الكبرى قصيدة واحدة ، ولغتها جزلة قوية حية ، والقصيدة فى جملتها « أعظم ما افترت عنه شفاه بنى الإنسان(١٥) » ولم يكن مستطاعاً أن تبدأ هذه الملحمة إلا فى شباب اليونان الناضر النشيط ، أو أن تختتم إلا فى إبان نضوجهم الفنى . وأشخاص الملحمة يكادون أن يكونوا كلهم من المحاربين أو من نساء المحاربين ، وحتى الفلاسفة منهم أمثال نسطور يقاتلون بشجاعة يحسدون عليها . وكل شخصية من هذه الشخصيات كانت موضع تفكير وعطف من مصورها . ولعل أجمل ما فى الأدب اليونانى كله هو نزاهته التى تجعلنا نعطف على هكتور تارة وعلى أخيل تارة أخرى . فأخيل فى خيمته شخص قد تجرد من صفات البطولة ، غير محبب إلى النفوس ، يشكو إلى أمه أن حظه لا يتفق مع مقامه نصف الإلهى ، وأن أجممنون قد سرق منه بريسيز البائسة وهى أعز ما يمتلك ، ثم يترك اليونان يحصدهم الموت زمراً وهو غاضب فى سفينته أو خيمته يأكل وينام ، ويرسل بتركلوس ليلقى منيته دون أن يجد منه عوناً ، ثم يملأ الجو عويلا ونحيباً لا يليق بالرجال . وحين يذهب إلى المعركة آخر الأمر ، لا يذهب إليها مدفوعاً بوطنيته بل لأن حزنه على فقد صديقه قد سلبه عقله ، وينسيه غضبه جميع الصفات

الإنسانية فينحدر إلى الدرك الأسفل من القسوة الوحشية فى معاملة ليكاءون Lycaon وهكتور ؛ فهو فى حقيقته ذو عقل ناقص غير ناضج ، غير مستقر ولا متزن ، ولا سلطان له على نفسه ، تنغص عليه حياته نبوءات الموت . انظر إلى ما يقوله لليكاءون بعد أن سقط على الأرض وأخذ يسترحمه : « لا ، يا صديقى ، مت كما مات غيرك ! ماذا يجديك بكاؤك الذى لا يرجى منه خير ؟ لقد مات پتركلوس وهو خير منك . انظر إلىّ ألستُ وسيما طويل القامة أنجبنى أب كريم ، وكانت أمى التى ولدتنى إلهة ؟ ولكن الموت رغم هذا يحوم حولى وتوشك المنية أن تنشب مخالبها فىَّ . فنى فجر يوم من الأيام أو ظهره أو مسائه تختطفنى من بين الأحياء يد لا أعرفها »(١٦) . ثم يطعن ليكاءون فى عنقه دون أن يهم هذا بمقاومته ، ويقذف بجسمه فى النهر ثم يلقى خطبة من تلك الخطب الرنانة التى تزدان بها مذابح الإلياذة ، ويضع بها أساس البلاغة الخطابية عند اليونان . وقد ظل نصف بلاد اليونان يعبد أخيل ويتخذه إلها(١٧) ، أما نحن فنقبله على أنه طفل ونعفو عن ذنوبه بهذا الوصف ، ومهما يكن ما يقال فيه فإنه من أروع الصور التى أبدعها خيال الشعراء .

وليس الذى يحملنا على أن نواصل قراءة الإلياذة ، حين لا نضطر إلى دراستها أو ترجمتها ، مقصوراً على تلك الخصائص المتباينة التى يخطئها الحصر ، وليس هو أيضاً مقصورا على تسلسل القصة وصخبها وعجيجها ، بل هو جلال شعرها وتدفقه . ولسنا ننكر أن هومر يكرر أقواله ويشير إليها ، وأن من خطته أن يعيد بعض الصفات وبعض الأبيات كما يفعل المغنون ، فتراه يكرر قوله الحبيب إلى نفسه : « حين بدت بنت الصباح ، الفجر ذات الأصابع الوردية »(١٨) . فإذا كانت هذه عيوبا فإنها تختفى وسط جمال اللغة ووفرة ما تحتويه من الاستعارات والتشبيهات التى تصف جمال الحقول الهادئة فتبعث بذلك فى نفوسنا الطمأنينة والهدوء وسط ما يحيط بنا من عجيج الحرب وصخبها . انظر إلى هذه العبارة التى



(شكل ٢١) الديادمنوس ، نسخة رومانية ، عن بركستليز
(متحف أثينة)



(شكل ٢٢) « أبلو قاتل العظايا » نسخة رومانية عن بركستليز
(متحف اللوفر بباريس)

تصف تجمع الجيوش اليونانية : « واحتشد اليونان ذوو الشعر الطويل فوق السهل كما تحتشد أسراب الذباب فى مذاود الرعاة زمن الربيع حين يملأ اللبن الحديد الدلاء » ، أو إلى العبارة الآتية :

« كما تشق النار العظيمة طريقها فى الأودية العميقة بين الجبال الجرداء ، فتحترق أمامها الأشجار الضخمة السميكة ، ويتمايل اللهب يمنة ويسرة حين تهب عليه الرياح من هذه الناحية أو تلك – هكذا كان ينتقل أخيل وهو غاضب ثائر من جانب إلى جانب فى ميدان القتال ، ويدرك ضحاياه أينما كانوا فلا يفلتون منه ، ويخضب الأرض بدمائهم »[٢٠] .

وتختلف الأوديسة عن هذا كله أشدالاختلاف حتى ليظن الإنسان لأول وهلة أن مؤلفها غير مؤلف الإلياذة ؛ وقد قال بهذا بعض علماء الإسكندرية أنفسهم ، ولم يكم أفواه المتجادلين إلا أرستاركوس Aristarchus وما له من سلطان قوى بين الناقدين[٢١] . وتتفق الأوذيسة مع الإلياذة فى بعض العبارات القاسية « أثينة ذات العين الشبيهة بين البومة » « اليونان الطوال الشعر » « قاتم كلون النبيذ » « الفجر ذات الأصابع الوردية » – وهى ألفاظ يبدو أنها لم تستعمل إلا بعد جمع الإلياذة أو تأليفها[٢٢] . ففى الملحمة الثانية يتكرر ذكر الحديد على حين أن الأولى تتحدث عن البرنز ، كذلك نسمع فيها عن الكتابة ، وعن الملكية الخاصة للأرض ، وعن العبيد المحررين وتحرير العبيد ، وهذه كلها لا يذكر منها شىء فى الإلياذة ، بل إن الآلهة وأعمالهم ليختلفون فى إحداهما عنهم فى الأخرى[٢٣] . ووزن القصيدتين واحد وهو الوزن السداسى الأوتاد المكون كل وتد فيه من ثلاثة مقاطع وهو المتبع فى جميع الملاحم اليونانية ؛ ولكن أسلوب الملحمة وروحها ومادتها تختلف كلها عن نظائرها فى الإلياذة اختلافا لا يتيسر معه لشاعر واحد أن ينشئ الملحمتين إلا إذا بلغ الذروة فى التعقيد ، وكان صاحب السلطان الأعلى على جميع الأمزجة والحالات النفسية المتباينة . وما من شك فى أن كاتب القصيدة

الثانية أكثر تضلعا فى الأدب والفلسفة ، وأقل عنفا ونزعة حربية من كاتب الأولى ؛ وهو أكثر منه تفكيراً وإدراكا لذاتيته ، وأملك منه لوقته وأكثر منه حضارة ؛ وقد بلغ من رقته أن ظن بنتلى Bentley أن الأوذيسة إنما كتبت لفائدة النساء خاصة(٢٤) .

ترى هل الأوذيسة من قول شاعر واحد أو عدة شعراء ؟ ن الجواب عن هذا السؤال أصعب فى حالة الأوذيسة منه فى حالة الإلياذة . إن فيها هى الأخرى شواهد على الإضافة والتلفيق ، ولكن هذه الإضافات كانت من عمل كتاب أعظم حذقا من كتاب الملحمة القديمة ؛ فحبكتها ، وإن كانت كثيرة اللف والدوران ، متناسقة تناسقا عجيباً ، خالية من التناقض ، لا يستحى أن يكتبها كاتب قصصى حديث ، يلمح الإنسان من بدايتها خاتمتها ، وكل حادثة من حوادثها تقرب القارئ من هذه الخاتمة ، وهى تربط كتبها الأربعة فتؤلف منها وحدة كاملة . وأكبر الظن أن الملحمة قد بنيت على قصائد كانت معروفة من قبلها شأنها فى هذا شأن الإلياذة ، ولكن عملية التوحيد فيها أتم وأقوى منها فى الإلياذة . وفى وسعنا أن نحكم بشىء كثير من التردد والإحجام أن الأوذيسة أحدث من الإلياذة بقرن من الزمان ، وأن الجزء الأكبر منها من وضع رجل واحد .

أما شخصياتها فأقل قوة وأقل وضوحا من شخصيات الإلياذة ، فبنلپى شبح غير واضح ، ولا تبرز واضحة من خلف نسجها إلا فى آخر الملحمة ، حين تطوف بعقلها لحظة من لحظات الشك ، أو لعلها من لحظات الندم ، بعد عودة سيدها . أما هلن بطلة الإلياذة فأشد منها وضوحا ، وهى امرأة فذة منقطعة النظير ؛ فهذه المرأة التى من أجلها أقلعت ألف سفينة ولاقى الموت فى سبيلها عشرة آلاف من الرجال لاتزال « إلهة بين النساء » ، ناضجة الجمال فى سن الكهولة ، أرقى أخلاقا وأهدأ طباعا مما كانت من قبل ، ولكنها لم تفقد شيئاً من كبريائها وزهوها ، وتتقبل فى لطف ورقة كل مظاهر الترحاب والتبجيل التى تحيط بربات التاج ،

وتعدها حقا لها تنعم بها دون سائر النساء[٢٥] . وإن تصوير نبسكا ليعد مقالة بديعة تنطق بمقــدرة الذكور على فهم الإناث ؛ والحق أننا لم نكن نتوقع أن يرسم يونانى هذه الشخصية الرقيقة الروائية . ولم يصور تلمكس تصويراً قوياً واضحاً ، فهو مصاب بداء التردد كأن به مسا من هملت . أما صورة أوديسيس فهى أكمل صور الشعر اليونانى وأكثرها تعقيدا . وقصارى القول أن الأوذيسة رواية بديعة ساحرة فى قالب شعرى ، مليئة بالعواطف الرقيقة والمغامرات المفاجئة ، تستمتع بها النفس المسالمة التى فى سن الكهولة أكثر مما تستمتع بالإلياذة الفخمة التى يراق فيها الكثير من الدماء .

وقد أضحت هاتان القصيدتان — وهما كل ما بقى من سلسلة طويلة من الملاحم — أثمن العناصر فى تراث اليونان الأدبى كله . وبفضلهما صارت دراسة « هومر » العنصر الأساسى فى نظام التعليم اليونانى ، ومستودع الأساطير اليونانية ، ومنبع ألف من المسرحيات ، وأساس التدريب الخلقى ؛ وأعجب من هذا كله أنهما صارتا الكتاب المقدس الذى يستمد منه اليونان دينهم الصحيح .

وفى ذلك يقول هيرودوت — وأكبر الظن أن فى قوله بعض المبالغة — إن هومر وهزيود هما اللذان خلعا على الآلهة الأولمبية صورة الأناسى ، واللذان أدخلا النظام فى مملكة السماء الكهنوتية[٢٦] . وإنا لنجد فى آلهة هومر كثيراً من أسباب العظمة والفخامة ، ونحن نحبها لما نتبين فيها من نقائص ، ولكن العلماء قد تبينوا من زمن طويل فى الشعراء الذين صوروها تشككا ومرحا لا يليق وصفه فى كتاب يعد بحق كتاب اليونان القومى المقدس . فتلك الآلهة تتنازع كما يتنازع الأقارب ، وتفسق كما تفسق البراغيث ، وتشترك مع بنى الإنسان فيما خيل إلى الإسكندر أنه وصمة البشرية — ونعنى بذلك حاجتها إلى الحب وإلى الندم ؛ ويجوز عليها كل ما يجوز على الآدميين إلا الجوع والموت . وليس فيها

كلها من يضارع أوديسيس فى ذكائه ، أو هكتور فى بطولته ، أو أندرمكا فى رقتها وحنانها ، أو نسطوز فى مهابته . ولم يكن فى وسع إنسان أن يهزل بالآلهة هذا الهزل إلا شاعر فى القرن السادس قبل الميلاد ملم كل الإلمام بتشكك الأيونيين(٢٧) . ومن مضحكات التاريخ أن هاتين الملحمتين اللتين تخصان الآلهة الأولمبية بدور الهازلين ، وتجعلان هذا الدور أهم أدوارها ، إن من مضحكات التاريخ أن هاتين الملحمتين كانتا موضع الإجلال فى بلاد اليونان كلها ، وكانتا تعداد دعامة الخلق القويم والعقيدة المحترمة . ولكن هذا التناقض انضح للناس آخر الأمر ، وقضى ما فيهما من هزل على ما توحيان به من عقيدة ، وثارت أخلاق الناس بعد تطورها على أخلاق الآلهة وحلت محلها .

الفصل الرابع

الألعـــاب

إذا كان الدين قد عجز عن توحيد بلاد اليونان ، فإن الألعاب الرياضية الموسمية قد أفلحت فى توحيدها . ذلك أن الناس لم يكونوا يذهبون إلى أولمبيا ، ودلفى ، وكورنثة ، ونميا ليعظموا الآلهة — لأن الآلهة يمكن تعظيمها فى أى مكان — بقدر ما كانوا يذهبون ليشاهدوا مباريات البطولة بين الرياضيين المختارين ، والاجتماع العام لطوائف اليونان المختلفين . ومن الشواهد الدالة على أثر هذه المراكز فى تاريخ اليونان أن الإسكندر — وهو الذى كان فى وسعه أن يشاهد بلاد اليونان من خارجها — كان يعد أولمبيا عاصمة العالم اليونانى .

فى هذه الأماكن نجد دين اليونان الحقيقى تسيطر عليـــه قواعد الألعاب الرياضية وتعاليمها ، وهذا الدين هو عبادة الصحة والجمال ، والقوة . وفى ذلك يقول سمنيدس : « إن أحسن ما يستطيع الإنسان أن يتمتع به هو الصحة الجيدة ، ويأتى بعد الصحة جمال الشكل وحسن الطبع ، ثم تلى ذلك الثروة ينالها الإنسان من غير غش أو خداع ، ويأتى فى المرتبة الرابعة أن يكون الإنسان فى نضرة الشباب بين الأصدقاء والخلان »(٢٧) . وتقول الأوذيسة(٢٨) « ليس ثمة مجد يستطيع الإنسان أن يناله طوال حياته أعظم مما يناله بيديه وقدميه » . ولعله كان من أوجب الواجبات على شعب أرستقراطى يعيش بين جماعات من الرقيق أكثر منه عدداً ، ويُطلب إليه المرة بعد المرة أن يرد عن حماه المغيرين من أمم أكثر منه . نقول لعله كان من أوجب الواجبات على هذا الشعب أن يحافظ على قوته الجسمية ، ذلك أن الحرب فى الزمن القديم كانت تعتمد على القوة والمهارة ، ولقد كانت القوة والمهارة الغرض الأول من المباريات التى طبقت

شهرتها الآفاق فى جميع هيلاس . وإن من الخطأ أن نفكر فى الرجل اليونانى العادى على أنه طالب علم مولع بإسكلس أو أفلاطون ؛ ذلك أن هذا اليونانى العادى كان كالبريطانى أو الأمريكى العادى مولعا بالألعاب ، وكان أبطالها المحبون هم آلهته على هذه الأرض .

وكانت الألعاب اليونانية أنواعا مختلفة — منها ألعاب خاصة ، وألعاب محلية ، وألعاب بلدية ، وألعاب يونانية جامعة . وإن الآثار القديمة حتى المحطم منها لتكشف عن ثبت طويل ممتع من الألعاب الرياضية . ففى متحف أثينة حجر على أحد وجهيه نقش يصور مباراة فى المصارعة ، وعلى الوجه الآخر مباراة لعبة الهكى Hockey(١٩) . أما السباحة ، وركوب الخيل العارية الظهر ، ورمى القذائف واتقاؤها أثناء الركوب ، فكانت كلها من مستلزمات اليونانى المهذب أكثر منها ألعاباً ومباريات . كذلك أصبح الصيد من ضروب الرياضة بعد أن لم يعد من وسائل العيش الضرورية . ولم تكن ألعاب الكرة أقل تنوعا أو انتشاراً مما هى فى هذه الأيام . وكانت كلمتا شاب ولاعب كرة مترادفتين فى اسپارطة . وكانت تبنى فى ساحات التمرين حجرات خاصة بألعاب الكرة يسمونها اسفيرستيريا sphairisteria ، وكان معلموها يسمون اسفيرستاى Sphairistai . ونشاهد على نقش آخر رجالا ترتد إليهم الكرة من أرض الحجرة أو جدارها ، ثم يردونها هم براحة اليد(٢٠) ، ولسنا نعرف هل كان اللاعبون يفعلون ذلك بالتناوب كما نفعل نحن بكرة اليد فى هذه الأيام . وكان من بين ألعاب الكرة لعبة تشبه لعبة اللاكرس Lacrosse الكندية وهى ضرب من لعبة الهكى تلعب بالمضارب ويصفها پولكس Pollex ، وهو كاتب من كتاب القرن الثانى بعد الميلاد ، بعبارات كأنها من عبارات هذه الأيام فيقول :

« يجتمع بعض الشبان ويقسمون أنفسهم جماعتين متساويتين فى العدد ويتركون فى أرض منبسطة — أعدوها من قبل وقاسوها — كرة مصنوعة من

الجلد ، تقرب من حجم التفاحة ؛ ثم يهجمون عليها ، كأنها جائزة وضعت بينهم ، من نقط الابتــداء المحددة لهم ، وفى يمين كل منهم مضرب rhabdon ... ينتهى بانحناء مستو وسطه نسيج من خيوط مأخوذة من أمعاء الحيوان ... مجدولة كالشبكة . وتحاول كلتا الطائفتين أن تدفع الكرة من جزء الساحة المخصص لها إلى طرف الجزء المقابل لها(٣١) » .

ويصف هذا المؤلف نفسه لعبة أخرى تحاول فيها فرقة من اللاعبين أن تقذف بالكرة من فوق رؤوس الفرقة المضادة لها أو من بين لاعبيها ، وتستمر فى هذا « حتى يرد أحد الطرفين الطرف الآخر إلى ما وراء خط مرماه » . ويصف أنتفانيز فى جذاذة ناقصة من القرن الرابع قبل الميلاد أحد مهرة اللاعبين الممتازين فيقول : « ولما أخذ الكرة سره أن يعطيها إلى أحد اللاعبين ، ثم تفادى لاعباً آخر ؛ ثم استولى عليها من لاعب وضربها واستحث لاعباً آخر بأصواته العالية . وها هى ذى خارج الملعب ، ثم رمية طويلة ، ثم تمر به من فوق رأسه ، ورمية قصيرة ... »(٣٢) .

ومن هذه الألعاب الخاصة نشأت ألعاب محلية ، وأخرى فى مناسبات معينة كما كان يحدث عقب وفاة بطل من الأبطال مثل بتركلوس أو نجاح مشروع عظيم كزحف رجال أكسانوفون العشرة الآلاف إلى البحر . ثم نشأت بعدئذ ألعاب البلديات التى يمثل فيها المتبارون أماكن أو طوائف مختلفة فى داخل إحدى دول المدن . أما ألعاب الجامعة الأثينية التى كانت تقام كل أربع سنين فهى أقرب ما تكون إلى الألعاب الدولية وإن لم ينطبق عليها هذا الوصف كل الانطباق . وقد أنشأها بيسستراتس فى عام ٥٦٦ ، وكانت كثرة المشتركين فيها من أتكا ، ولكن غير الأتكيين كان يرحب باشتراكهم فيها . وكانت تشمل ، فضلا عن الألعاب الرياضية المألوفة ، سباق العربات ، وسباق المشاعل ، وسباق التجذيف ؛ ومباريات موسيقية فى الغناء والعزف على القيثارة والمزمار والناى ، والرقص ؛

وإلقاء أكثر ما يكون من شعر هومر . وكان يمثل كل قسم من أقسام أتكا العشرة أربعة وعشرون رجلا يختارون من بين أصح السكان أجساماً وأقواهم بنية وأجملهم منظراً ، وكانوا يعطون جائزة للأربعة والعشرين الذين يكون لهم فى النظارة أعظم الأثر ، وتسمى جائزة « الرجولة الباهرة »[٢٨] .

وإذ كانت الرياضة ضرورية للحرب ، ولكنها تنعدم إذا لم تعقد لها مباريات ، فقد أنشأت المدن اليونانية الألعاب اليونانية الجامعة لتكون أكبر حافز لليونان أجمعين على إتقان هذه الألعاب . وكانت أولى هذه المباريات الجامعة هى التى تقام بانتظام مرة كل أربع سنين فى أولمبيا ؛ وقد أقيمت للمرة الأولى فى عام ٧٧٦ . م وهو أول تاريخ محدد فى حياة اليونان بأجمعها . وكانت هذه الألعاب فى أول أمرها مقصورة على الإيليين Eleans ، وقبل أن يمضى قرن على بدايتها كان يشترك فيها لاعبون من جميع بلاد اليونان ؛ ولم يحل عام ٤٧٦ حتى كان ثبت الظافرين فيها يشمل لاعبين من جميع البقاع الممتدة من سينوب إلى مرسيلية ، وأصبح عيد زيوس على مر الزمن يوماً مقدساً دولياً ، وكان الشهر الذى يقع فيه هذا العيد شهراً حراما يتهادن فيه المحاربون فى جميع بلاد اليونان ، ويفرض فيه الإيليون غرامات على كل دولة يونانية يلحق فى أرضها أذى بأى قادم إلى هذه الألعاب . وقد أدى فليب المقدونى هذه الغرامة عن يد وهو صاغر لأن بعض جنوده سرقوا مال أثينى وهو فى طريقه إلى أولمبيا .

وفى وسعنا أن نتصور الحجاج واللاعبين يبدءون رحلتهم من المدن النائية قبل بدء المباريات بشهر كامل ، فإذا ما حان الموعد المحدد اجتمعوا كلهم فى صعيد واحد ؛ وكانت أيام المباريات سوقاً عامة وعيداً فى وقت واحد ، وكانت الخيام تنصب فى السهل لتقى الزائرين حر شمس يوليه اللافح ، وإلى جانبها المظلات يستظل بها البائعون ويعرضون تحتها بضاعتهم على اختلاف ألوانها ؛ من خمر وفاكهة وخيل وتماثيل ؛ وترى اللاعبين على الحبال والمشعوذين يعرضون

ألاعيبهم على الجماهير . فنهم من يقذف بالكرة فى الهواء ومنهم من يلعب ألعاباً تشهد بالخفة والمهارة ، ومنهم من يأكل النار أو يبتلع السيوف . ذلك أن ضروب التسلية ، كأنواع الخرافات ، قديمة العهد يخلع عليها هذا القدم ثوباً من التقديس والإجلال . وكان أشهر الخطباء أمثال جورجياس ، وأشهر السوفسطائيين أمثال هيپياس ، وربما كان أشهر الكتاب أمثال هيرودوت ، كان هؤلاء جميعاً يلقون خطبهم أو يتلون أقوالهم من أروقة هيكل زيوس . وكانت هذه الأيام أعياداً مقدسة للرجال خاصة لأن النساء المتزوجات لم يكن يسمح لهن بالحضور فى هذه الساحة ، بل كانت ألعاب خاصة تقوم فى عيد هيرا . وقد لخص منندر منظر هذه الألعاب فى خمس كلمات جامعة « زحام ، وسوق ، ولاعبون ، وتسلية ، ولصوص »[٣٤] .

ولم يكن يسمح لغير اليونان الأحرار بالاشتراك فى مباريات الألعاب الأولمبية ؛ وكان المتبارون (Athletes المشتقة من Athlos بمعنى مباراة) يختارون بعد اختبارات محلية وبلدية يستبعد بها غير اللائقين ، ثم يدربون بعدئذ عشرة شهور كاملة تدريباً صارماً على أيدى مدربين محترفين يسمون پيدترباى paidotribai (ومعناها اللغوى مدلكو الشبان) ورياضيين يدعون gymnastai (أى العراة) .

فإذا جاءوا إلى أولمپيا اختبرهم موظفون مخصوصون وأقسموا أن يراعوا جميع قوانين الألعاب . ولم يكن يحدث فى الألعاب غش أو خروج على السنن الصحيحة إلا القليل النادر ؛ منها ما قيل من أن يوپوليس Euopolis قد رشا الملاكمين حتى ينهزموا له[٣٥] ؛ ولكن ما كان يفرض على هؤلاء المخادعين من عقاب ، وما كان يلحقهم من مهانة ، كان كبيراً إلى حد يحول بينهم وبين الإقدام على مثل هذا العمل ؛ فإذا ما تم استعداد اللاعبين أخذوا إلى ميدان الألعاب ؛ فإذا دخلوه نادى مناد أسماءهم وأسماء المدن التى بعثت بهم . وكان المتبارون جميعاً ؛ أيا كانت سنهم ومنزلتهم ، يجردون من الثياب إلا من منطقة تحيط بالحقوين

فى بعض الأحيان(٣٦) . ولم يبق من هذا الملعب نفسه إلا الألواح الحجرية التى كانت توضع بين أصابع أرجل المتسابقين فى بداية السباق . وكان النظارة البالغ عددهم ٤٥٫٠٠٠ يحتفظون بأماكنهم فى الملعب طول النهار يقاسون الأمرّين من الحشرات والحر والظمأ ؛ ولم يكن يسمح لهم بلبس قبعاتهم ، وكان الماء الذى يسقون منه رديئاً غير صالح للشرب ، كما كان الذباب والبعوض يملأ جو المكان كما يملأ أمثاله فى هذه الأيام . وكانت القرابين تقرب مراراً وتكراراً إلى زيوس طارد الذباب(٣٧) .

وكانت أهم المباريات فى هذه الألعاب هى التى يطلقون عليها اسم المباريات الخمس (pentathlon)(*) . وأراد اليونان أن يكون اللاعبون متمكنين من هذه الألعاب جميعاً ، فكانوا يحتمون على من يتقدم للمباراة فى واحدة منها أن ينازل غيره فيها جميعاً ، ولا يعد اللاعب منتصراً إلا إذا فاز فى ثلاث لعبات من خمس . وكانت أولاها هى القفز الواسع ، فكان اللاعب يمسك بيديه ثقلين شبيهين بكتل الحديد المستديرة ويقفز بهما من وضع معين ، ويؤكد لنا الكتاب الأقدمون أن بعض القافزين كانوا يقفزون إلى مسافة خمسين قدما(٣٨) . ولكنا غير ملزمين بأن نصدق كل ما نقرأ . واللعبة الثانية هى قذف القرص وهو لوحة مستديرة من المعدن أو الحجر تزن نحو اثنى عشر رطلا ، ويقال إن أكبر القذفات كانت تصل مسافة مائة قدم(٣٩) . وكانت اللعبة الثالثة هى قذف الحربة أو الرمح بالاستعانة بشَرعة من الجلد متصلة بوسط السهم . وكانت المباراة الرابعة هى الجرى مسافة قصيرة بأقصى سرعة فى الملعب نفسه ، وكانت هذه المسافة تبلغ نحو مائتى ميل فى الغالب . وكانت المباراة الخامسة هى المصارعة ، وهى من المباريات المحببة كثيراً إلى اليونان ، ومنها اشتق لفظ Palaistra نفسه ، وما أكثر ما يروى من القصص عن الأبطال المصارعين .

(*) وتشمل هذه المباريات المصارعة ، وقذف القرص ، وقذف الرمح ، والقفز ، والجرى

وكانت الملاكمة من الألعاب القديمة ، ونكاد نوقن أنها مأخوذة عن كريت المينوية وبلاد اليونان الميسينية . وكان المتبارون ينازل بعضهم بعضا بكرات للكم معلقة بمحاذاة الرأس ومحشوة ببذور التين أو الدقيق أو الرمل ، وفى عصر اليونان الزاهر (أى فى القرنين الخامس والرابع) كان الملاكمون يلبسون « قفازات لينة » من جلد الثيران ، معالجة بالدهن ، وتكاد تصل إلى المرافق ، وكانت الضربات مقصورة على الرأس ولكنهم لم تكن لديهم قواعد تحرم ضرب اللاعب إذا وقع على الأرض . ولم تكن هناك أشواط أو فترات للراحة ، بل كان الملاكمان يواصلان اللعب حتى يستسلم أحدهما أو يعجز عن الملاكمة . ولم يكونوا يقسّمون حسب أوزانهم ، ومن كان فى مقدور أى إنسان مهما يكن وزنه أن يشترك فى المباريات . ومن ثم كان ثقل الجسم ذا نفع كبير لصاحبه ، وانحطت الملاكمة لهذا السبب فى بلاد اليونان وتحولت من مباراة فى المهارة إلى منازلة بالقوة العضلية .

وازدادت وحشية اللاعبين على مر الزمن فجمعوا المصارعة والملاكمة فى مبارات جديدة سموها لعبة القوى مجتمعة (pankration) . وكان يسمح فى هذه اللعبة بكل شيء عدا العض وفقأ العين ، وحتى الركل فى البطن كان مسموحاً به أيضاً(٣٩) . وقد وصلت إلينا أسماء ثلاثة من أبطال هذه المباراة هزموا من نازلوهم لأنهم كسروا أصابعهم(٤٠) ، وكال أحدهم لغريمه ضربات وحشية بأصابعه الممدودة وأظافره الطويلة القوية التى اخترق بها جلده وانتزع بها أمعاءه من بطنه(٤١) . لكن ميلو الكروتونى كان ملاكماً أظرف من هؤلاء وأحب إلى النفوس ، ويروى عنه أنه نمى قوة جسمه بحمل عجل صغير فى كل يوم من حياته حتى كبر هـذا العجل وأصبح ثوراً كامل النمو . وكان الناس يحبونه لحيله ودهائه ، فقد كان يمسك فى يده رمانة ويقبض عليها بقوة لا يستطيع معها أى إنسان أن ينتزعها منه ، ومع ذلك كانت الرمانة تبقى سليمة لا ينالها أذى ؛ وكان يقف على قرص من الحديد مدهون بالزيت ويقاوم كل ما يبذل من الجهد لزحزحته عن مكانه ؛

ويربط حبلا حول جبهته ثم يقطع الحبل بوقف نَفَسه ودفع الدم إلى رأسه . وقضت عليه مواهبه هذه آخر الأمر ؛ « ذلك أنه التقى مصادفة بشجرة ذابلة » كما يقول پوزنياس « دقت فيها أوتاد لتفصل خشبها بعضه عن بعض ، فخيل إليه أن يفصل هذا الخشب بيديه ، ولكن الأوتاد انخلعت من الشجرة وانطبق خشبها عليه ، وافترسته الذئاب(٤٣) .

وكانت الألعاب تشمل فضلا عن السباق السريع القصير المدى مسابقات أخرى فى العدو ، منها مسابقة طولها أربعون ياردة ، وأخرى طولها أربعة وعشرون شوطاً (*) أو ميلان وثلثا ميل ، ومنها سباق مسلح يحمل كل عداء فيه ترساً ، وليس لدينا ما نستدل منه على الأرقام القياسية فى هـــذه المسابقات . وكان الشوط يختلف باختلاف المدن ، ولم يكن لدى اليونان آلات يقيسون بها أجزاء الزمن الصغيرة .. وتحدثنا الأقاصيص عن عداء يونانى كان يسبق الأرنب ، وعن آخر سابق جواداً من كرونيا إلى طيبة (حوالى عشرين ميلا) وسبقه ، وعن فيدپديس Pheidippides الذى جرى من أثينة إلى اسپارطة — ١٥٠ ميلا — فى يومين(٤٤) ، ونقل إلى أثينة بشرى النصر فى مرثون التى تبعد عنها أربعة وعشرين ميلا ، ثم مات متأثراً بما عاناه من التعب . ولكن بلاد اليونان لم تكن فيها « مسابقات مرثونية » .

وقد أنشأت أولمپيا فى السهل الواقع فى أسفل الملعب مضماراً لسباق الخيل خاصة . وكان للنساء والرجال على السواء أن يتقدموا بخيولهم إلى هذا السباق ، وكانت الجائزة فى ذلك الوقت تعطى لصاحب الجواد — كما هى الحال فى وقتنا هذا — لا لراكبه ، وإن كان الجواد فى بعض الأحيان يجازى بأن يقام له تمثال(٤٥) ، وكانت آخر المباريات هى مباراة المركبات ، وكان يجر كل مركبة

(*) الشوط مقياس يونانى طوله عادة ٦٠٠ قدم يونانية أو ٥٨٢ قدما إنجليزية ، ولكنه كان يختلف باختلاف المدن . (المترجم)

جوادان أو أربعة جياد تسير جنباً إلى جنب. وكثيراً ما كان يشترك في المباراة الواحدة عشر مركبات في كل منها أربعة جياد ، وكان على كل مركبة أن تدور حول الأنصاب المقامة في الحلبة ثلاثاً وعشرين دورة في آخر السباق ، ولذلك فإن حوادث خطيرة كانت تحدث وقتئذ ، وكانت هذه الحوادث أهم ما يثير المشاعر في الألعاب. وقد حدث في سباق منها بدأ بأربعين مركبة أن لم تتمه إلا مركبة واحدة. وفي وسعنا أن نتصور اهتياج النظارة وجدلهم حول من يناصرون ، وأسفهم وهم منفعلون حينما يطوف الظافرون آخر طواف لهم حول الأنصاب.

فإذا انتهت هذه المباريات المجهدة بعد خمسة أيام كاملة ، نالوا جوائزهم ، ولف كل منهم عصابة من الصوف حول رأسه ، ثم وضع المحكمون على هذه العصابة إكليلا من أوراق الزيتون البرى وأغصانه ، ونادى مناد أسماء الظافرين وأسماء مدنهم. وكان هذا الإكليل النباتى هو الجائزة الوحيدة التى تعطى فى الألعاب الأولمبية. ولكنه مع ذلك كان الشرف الذى يبذل المتبارون بلاد اليونان أقصى جهودهم ليظفروا به. وقد بلغ من أهمية هذه الألعاب وحرص اليونان عليها أن الغزو الفارسى نفسه لم يحل بينهم وبين إقامتها ، فبينا كانت حفنة من اليونان تقف فى وجه خشيار شاى فى ترموپيلى كانت آلاف مؤلفة منهم تشهد كعادتها ثيچنيس Theagenese الثاسوسى ، فى اليوم الذى دارت فيه المعركة ، يظفر بإكليل ألعاب القوى المجتمعة. وصاح جندى فارسى فى وجه قائده يقول : « رباه ! أى صنف من البشر أولئك الأقوام الذين أتيت بنا لنقاتلهم ؟ — إنهم رجال لا يقاتل بعضهم بعضا من أجل المال بل من أجل الشرف !(٩٦) ». وما من شك فى أن هذا الجندى الفارسى أو اليونانى الذى اخترع القصة ، قد جاوز الحد فى الثناء على اليونان بقوله هذا ، وليس ذلك لأنه كان من واجبهم أن يكونوا فى ذلك اليوم فى ترموپيلى بدل أن يكونوا فى أولمپيا فحسب ، بل لهذا السبب ولغيره من الأسباب ، ذلك أن الظافرين كانوا يحصلون على جوائز أخرى كبيرة من طريق غير مباشر

وإن كانت الجائزة المباشرة التى ينالونها فى الألعاب نفسها كانت قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع . لقد كانت مدن كثيرة تمنح الظافرين جوائز مالية كبيرة بعد أن يعودوا من الألعاب الأولمبية ، وكان بعضها يعينهم قواداً لجيوشه ، وكانت الجماهير تقدسهم تقديساً يحسدهم عليه الفلاسفة ويشكون منه(٤٧) . وكان بعض الظافرين أو أنصارهم يستأجرون شعراء مثل سمنيدس أو پندار لينشئوا القصائد فى مدحهم وتكريمهم ، وكانت هذه الأشعار تغنيها جماعات من الغلمان فى الموكب الذى يخرج لاستقبالهم ؛ وكانت الأموال تدفع للمثالين ليخلدوا ذكراهم بالتماثيل البرنزية أو الحجرية ، وكانوا فى بعض الأحيان يطعمون بلا ثمن فى ردهة المدينة . وفى وسعنا أن نقدر ما يتكلفه هذا الطعام إذا عرفنا — من مصدر مشكوك فى دقته — أن ميلو أكل عجلة بنت أربع سنوات ، وأن ثيجنيس أكل ثوراً ، فى يوم واحد(٤٨) .

وكان القرن السادس هو العهد الذى بلغت فيه الألعاب الرياضية أعظم روعتها وتغلغل حبها فى قلوب الشعب إلى أبعد حد . ففى عام ٥٨٢ أنشأ الحلف الاثنا عشرى الألعاب الفيثية فى دلفى تكريماً لأپلو . وفى تلك السنة نفسها أنشئت ألعاب البرزخ فى كورنثة تكريماً لپوسيدن ، وبعد ست سنوات من ذلك الوقت أنشئت الألعاب النيمية تكريماً لزيوس النيمى ، وأضحت هذه المواسم كلها أعياداً يحتفل بها اليونان على بكرة أبيهم : وقد نشأت منها ومن الألعاب الاولمبية دورة (Periodos) ، وكان أعظم ما يطمع فيه اليونانى الرياضى أن ينال أكاليل فيها جميعاً . وقد أضيفت مباريات فى الموسيقى والشعر إلى المباريات الجسمية فى الألعاب الفيثية ، والحق أن هذه المباريات الموسيقية كانت تقام فى دلفى قبل إنشاء الألعاب الرياضية فيها بزمن طويل . وكان موضوع المباريات فى بادئ الأمر أنشودة يخلد بها انتصار أپلو على الأفعى الدلفية ؛ ثم أضيفت إليها فى عام ٥٨٢ مباريات فى الغناء وفى العزف على القيثارة والنفخ فى الناى . وكانت مباريات

موسيقية مثلها تقام فى كورنثة ، ونيميا ، وديلوس ، وغيرها من المدن ؛ وذلك لأن اليونان كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون بهذه المباريات العامة أن ينموا مقدرة العازفين وذوق الجماهير فى وقت واحد. وكانوا يسيرون على هذا المبدإ نفسه فى كل فن من الفنون تقريباً — كصناعة الخزف ، والشعر ، والنحت ، والتصوير ، والغناء الجماعى ، والخطابة ، والتمثيل(٤٦) . وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق أصبح للألعاب أكبر الأثر فى الفنون ، والآداب ، بل كان لها أيضاً أعمق الأثر فى كتابة التاريخ نفسه ؛ وذلك لأن أهم طريقة لحساب السنين فى كتب التاريخ المتأخرة كانت هى التأريخ بالفترات الأولمبية ، وكانت كل فترة تميز باسم الظافر فى سباق الجرى شوطاً واحداً . وكان الكمال الجسمى الذى بلغه الرياضيون البارعون فى الألعاب جميعها فى القرن السادس قبل الميلاد هو الذى أوحى إلى اليونان بالمثل الأعلى فى نحت التماثيل ، وهو المثل الذى بلغ غايته على يدى ميرون Meiron وپليكليتوس . وقد أتاحت ألعاب العراة فى مضامير الألعاب وفى أثناء الأعياد للمثال فرصاً لدراسة جسم الإنسان فى جميع أشكاله وأوضاعه ، فأضحت الأمة هى نفسها نماذج لفنانيها على غير علم منها ، وتعاونت الألعاب الرياضية اليونانية مع الدين اليونانى على إيجاد الفن اليونانى .

الفصل الخامس

الفنون

لقد وصلنا الآن إلى أكمل نتاج الحضارة اليونانية ، ولكننا مع الأسف الشديد لا نجد من بقايا هذا النتاج العظيم إلا النزر اليسير . ذلك أن التدمير الذى عاناه الأدب اليونانى من جراء عدوان الزمان وتحكم ذوى العقول الضيقة الجاهلة ، وتغير الأنماط والأهواء العقلية ، لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى ما وقع على الفن اليونانى من تدمير . ولقد بقى لدينا من عصر الفنون الزاهر قطعة برنزية واحدة هى راكب العربة فى دلنى ، وتمثال واحد من الرخام هو تمثال هرمس من صنع المثال پركستيليز ، أما الهياكل فلم يصل إلينا منها هيكل واحد — ولا هيكل الثسيوم نفسه — بالشكل أو باللون الذى كان عليه فى بلاد اليونان القديمة . كذلك لم يكد يبقى لدينا شىء من النقوش اليونانية على المنسوجات ، أو الخشب ، أو العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، ذلك أن هذه المواد كانت أضعف أو أثمن من أن تنجو من أيدى الناهبين أو عبث الأيام . لذى كان علينا أن نعيد تصوير هذه الفنون مستعينين على ذلك بما بقى لدينا من آثارها المحطمة القليلة .

وكانت الأسباب التى أدت إلى نشأة الفن اليونانى هى الرغبة فى تصوير الأجسام وتزيينها ، والنزعة البشرية فى الديانة اليونانية ، والروح الرياضية ، والمُثُل العليا للرياضيين . ولما ارتقى اليونانى البدائى عن المرحلة التى اعتاد أن يضحى فيها بالآدميين لكى يصحبوا الموتى ويقوموا على خدمتهم ، استبدل بهم التماثيل المنحوتة أو الصور كما فعل غيره من البدائيين . ووضع بعد ذلك صوراً لآبائه فى بيته ، أو وضع فى المعابد صوراً وتماثيل شبيهة به أو بمن يحب ؛ اعتقاداً منه أن هذه الصور والتماثيل ستتمكن بقوة سحرية من بسط حماية الإله ورعايته على

من مثله . لقد كان الدين المينوى ، والدين الميسينى ، وكانت طقوس اليونان الأرضية نفسها ، عبارات غامضة مبهمة غير شخصية ، وكان فيها أحياناً من الرهبة والسخف ما ينأى بها عن جمال التصوير ؛ ولكن الخصائص البشرية الصريحة التى كان يتصف بها آلهة أولمبس ، وحاجتهم إلى مواطن وهياكل تقيم فيها على سطح الأرض ، كل هـذه قد فتحت أمام اليونان آفاقا واسعة للنحت والعمارة ولعشرات العشرات من الفنون المتصلة بهما . ولسنا نجد دينا غير هذا الدين — مع جواز استثناء الديانة المسيحية الكاثوليكية — شجع الآداب والفنون ، وأثر فيهما ، كما شجعهما وأثر فيهما الدين اليونانى . ولا نكاد نجد فيما لدينا من آثار اليونان الأقدمين كتابا ، أو مسرحية ، أو تمثالا ، أو بناء ، أو مزهرية لا يمت إلى الدين بصلة فى موضوعه ، أو غرضه ، أو الإلهام به .

ولكن الإلهام وحده لم يكن ليرفع من شأن الفن اليونانى إلى الدرجة التى ارتفع إليها ، فقد كان هذا يحتاج إلى البراعة الفنية العالية التى تنشأ من الصلات الثقافية ، وإلى تطور الصناعات اليدوية وانتقالها من طور إلى طور . والحق أن الفن لم يكن عند الرجل اليونانى إلا نوعا من الصناعة اليدوية ، وارتقى الفنان من الصانع الماهر ارتقاء طبيعياً تدريجياً حتى لم يكن اليونان يميزون أحدهما من الآخر تمييزاً دقيقاً . لقد كان الفنانون فى حاجة إلى العلم بجسم الإنسان لأن نموه الصحى السليم هو الذى يكسبه تناسباً وتناسقاً وجمالا ؛ وكانوا فى حاجة إلى حب للجمال عاطفى قوى جنسى يهون معه كل صعب إذا ما أدى إلى تخليد لحظة من لحظاته الحية ، وصورها فى صورة تبقى على مر الزمان . وكانت نساء اسپارطة يضعن فى حجرات نومهن صوراً لأپلو ، ونارسس ، وهياسنثس ، أو أى إله آخر وسيم حتى يلدن بذلك أطفالا جمالا[٥٠] . وأقام سپسلوس Cypselus مباراة فى الجمال بين النساء من زمن بعيد يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد ، ويقول أثينيوس إن هذه المباراة الدورية استمرت إلى العهد المسيحى[٥١] . ومن أقوال ثيوفراستوس

Theophrastus فى هذا المعنى « إن مباريات تقام » فى بعض الأماكن « بين النساء فى الخفر ، وحسن التدبير ... كما تقام مباريات فى الجمال ، كالمباريات التى تقام ... فى تندوس ولسبوس »(٥٢) .

١ – المزهريات

من الأقاصيص الظريفة الشائعة فى بلاد اليونان أن أول قدح للشراب قد شكل فوق ثدى هلن(٥٣) ، فإذا كان هذا صحيحا فإن القالب الذى صنع على هذا الطراز قد ضاع عقب الغزو الدورى ، لأن ما وصل إلينا من الآنية الفخارية من العهود اليونانية القديمة لا يذكرنا قط بهن ؛ وما من شك فى أن هذا الغزو قد أثر أسوأ الأثر فى تطور هذا الفن ، وأفقر الصناع ، وشتت المدارس ، وقضى إلى حين على انتقال أصوله ؛ ذلك بأن المزهريات اليونانية تبدأ من بعد هذا العزو بسيطة بدائية فجة ؛ كأن كريت لم تسم بصناعة الفخار فتجعلها فناً جميلا .

ويغلب على الظن أن مزاج الفاتحين الدوريين الذى كانت تغلب عليه الخشونة هو الذى أخرج مما بقى من قواعد الفن المينوى الميسينى ذلك الطراز الهندسى الذى كانت له السيطرة على أقدم الفخار اليونانى بعد العصر الهومرى . لقد محى من هذا الفخار ما كانت تزدان به الآنية الكريتية من رسوم الأزهار والمناظر الطبيعية ، والنباتات ؛ وكانت النزعة الصارمة التى أقامت مجد الهياكل الدورية هى التى قضت على صناعة الفخار اليونانية . وليس فى الجرار الضخمة التى يمتاز بها هذا العصر ما يمت بصلة إلى الجمال ، فقد كان الغرض من صنعها حفظ الخمر أو الزيت أو الحبوب ، ولم يكن يقصد بها أن تكون متعة للفنان الخبير بصناعة الخزف . ويكاد نقشها كله أن يكون وحدات من مثلثات أو دوائر ، أو سلاسل ، أو خطوط متقاطعة ، ومعينات ، وصلبان ، أو خطوط أفقية متوازية بسيطة تتكرر مرة بعد مرة . وحتى الرسوم الآدمية التى تتخلل هذه الأشكال

كانت رسوماً هندسية ، فجذع التمثال العلوى كان مثلث الشكل ، وفخذاه وساقاه كانت مخروطية . وانتشر هذا الطراز الهين من الزينة فى جميع بلاد اليونان ، وكان هو الذى حدد صورة المزهريات الدپيلونية Dipylon(*) فى أثينة . ولكن الآنية الضخمة (التى كانت تصنع فى العادة لتوضع فيها جثث الموتى) كانت ترسم عليها بين خطوط الأشكال الهندسية صور جانبية لوجوه النائحين ، وعربات ، وحيوانات غاية فى السماجة . فلما آذن القرن الثامن بالانتهاء رسمت على الفخار اليونانى صور حية أكثر من الصور السابقة ، واستعمل لونان لأرضية الصور ، واستبدلت الدوائر بالخطوط المستقيمة ، وظهر على الصلصال سعف النخل ، والأزورد ، والجياد القافزة ، والآساد المصيدة ، وحلت الزخارف الشرقية محل الطراز الهندسى الساذج .

وأعقب ذلك العصر عصر ملىء بالتجارب غمرت فيه ميليتس السوق بمزهرياتها الحمراء ، وساموس بمصنوعاتها المرمرية ، ولسبوس بآنيتها السوداء ، ورودس بآنيتها الحمراء ، وكلزمينى Clezomenae بآنيتها الرمادية اللون ، وأصدرت فيه نقراطس الخزف الدقيق الملون والزجاج نصف الشفاف . واشتهرت إريثرا Erythra برقة مزهرياتها ، وكلسيس Chalcis بريقها وحسن صقلها ، وسكيون Sicyon وكورنثه بقوارير الرائحة الدقيقة الصنع ، والأباريق ذات الرسوم المتقنة الأنيقة الشبيهة بمزهريات شيجى Chigi فى رومة . وقامت بين صناع الخزف فى المدن المختلفة منافسة قوية ، وكانت هذه المدينة أو تلك تجد مشترين لخزفها فى كل ثغر من ثغور البحر المتوسط ، وفى الروسيا ، وإيطاليا ، وبلاد غالة . وخيل إلى مدينة كورنثة فى القرن السابع أنها فازت على منافساتها فى هذه الحرب الخزفية ، فقد كانت مصنوعاتها فى كل مكان وفى يد كل إنسان ، وكان صناع الفخار فيها قد كشفوا طرقاً جديدة للحفر والتلوين ، وابتكروا كثيراً من الأشكال الجديدة ؛

(*) سميت كذلك لأن الجزء الأكبر منها عثر عليه قرب باب المدينة المزدوج .

لكن سادة حي الخزافين في خارج أثينة برزوا إلى الأمام حوالى عام ٥٥٠ ق . م وألقوا عن كاهلهم عبء النفوذ الشرقي ، واستولوا بمصنوعاتهم ذات الرسوم السوداء على أسواق البحر الأسود ، وقبرص ، ومصر ، وإترووريا ، وأسپانيا . وأخذ النابغون من صناع الخزف من ذلك الحين يهاجرون إلى أثينة إن لم يكونوا قد ولدوا فيها ؛ ونشأت فيها مدرسة عظيمة وتقاليد ثابتة لأن الأبناء أخذوا يرثون فن الآباء ، وأصبحت صناعة الخزف الجميل إحدى الصناعات الكبرى في المدينة ، ثم أمست إحدى الصناعات التي تحتكرها أتكا وتقر لها غيرها من الأقاليم بهذا الاحتكار .

وتحمل المزهريات نفسها من حين إلى حين صورا لحوانيت الخزافين ، ويرى فيها الصانع يعمل مع صبيانه أو يراقبهم وهم يقومون بالعمليات المختلفة : يخلطون الألوان والطين ، ويشكلون العجينة ؛ ويلونون الأرضية ، ويحفرون الصور ، ويحرقون الآنية ، ويحسون بالسعادة التي يحس بها من يرون صور الجمال تظهر على أيديهم . ونحن نعرف أكثر من مائة من هؤلاء الخزافين أهل أتكا ، ولكن الدهر قد عدا على آياتهم الفنية فحطمها ولم يبق لنا إلا أسماء مبدعيها . ونحن نقرأ الآن على كأس الشراب قول الصانع مفتخراً بصنعه Nikosthenes me poiesen « صنعني نكسثنيز »[٥٣] وكان أجزسياس Execias أعظم من نكسثنيز هذا وأجل قدراً . وفي متحف الفاتيكان قارورة فخمة ذات مقبضين من صنعه ، وكان واحداً من طائفة كبيرة من الفنانين يشجعهم أنصار الفن في عهد پيسستراتس وأبنائه وينعمون بعهد السلم الذي ساد البلاد وقتئذ . ومن أيدي كلتياس Clitias وإرجتموس Erogotimus خرجت مزهرية فرنسوا الذائعة الصيت التي عثر عليها في إترووريا عام ١٨٦٠ فرنسي يحمل هذا الاسم ، وهي الآن ضمن كنوز متحف الآثار بفلورنس — وهي إناء كبير عليه صفوف من الأشكال والمناظر مستمدة من الأساطير اليونانية يعلو بعضها بعضاً[٥٤] . وكان هذان



(شكل ٢٣) قاذف القرص ، نسخة رومانية عن ميرون
(متحف رومة)

الصانعان أشهر صناع طراز الرسوم السوداء فى أتكا فى القرن السادس . ولا حاجة بنا إلى المبالغة فى جودة صنع الإناء ، فهو لا يضارع فى فكرته ولا فى إخراجها خير الأوانى الباقية من عهد أسرة تانج أو سونج الصينيتين ؛ غير أن الفنان الصينى كان له غرض يختلف عن غرض الفنان الشرقى ، فلم يكن همه الأول هو الألوان بل الخطوط ، ولا النقش بل الشكل . ولذلك كانت الرسوم التى على الآنية اليونانية رسوماً صورها العرف ، وثبت طرازها فجعلها ضخمة ضخامة غير عادية فى الكتفين دقيقة فى الساقين . وإذا كان هذا الطراز قد ظل سائداً طوال عهد اليونان الزاهر فمن واجبنا أن نفترض أن الخزاف اليونانى لم يكن يفكر قط فى الدقة الواقعية ، فكأنه فى فنه هذا يقرض الشعر لا يكتب النثر ، ويخاطب الخيال لا العين ، ولهذا السبب عينه لم يتوسع فيما يستخدمه من المواد أو الألوان . فقد استخدم صلصال السرمكوس Ceramicus الأحمر اللطيف ، وهدأ لونه باللون الأصفر ، وصغر الرسوم بعناية ، وملأ ما بين الخطوط باللون الأسود الزجاجى البراق ، فاستحال الطين على يديه آنية موفورة العدد تقترن فيها المنفعة بالجمال ، منها أباريق ماء وقوارير ذات مقبضين ، ودنان خمر وأقداح ، وآنية خلط ، وقنينات عطر . وكان هو الذى فكر فى التجارب ، وابتكر الموضوعات ، وابتدع الأعمال الفنية التى أخذها عنه صانعو البرنز ، والمثالون ، والرسامون . وهو الذى قام بالتجارب الأولى فى رسم المناظر فنياً كما تبدو بحجمها الطبيعى للعين ، وفى فن المنظور ، وتوزيع الظلال ، وعمل النماذج(٥٥) . وقد مهد السبيل لنحت التماثيل بأن صنع من الطين المحروق صوراً لما لا يحصى من الموضوعات والأشكال ، وحرر فنه من الرسوم الهندسية الدورية ومن المغالاة الشرقية ، وجعل صور الآدميين مصدر حياته ومحورها الذى تدور عليه .

ومل الخزاف الأثينى قبيل الربع الأخير من القرن السادس الرسوم السوداء على الأرضية الحمراء ، فعكس الوضع وابتدع طراز الرسوم الحمراء الذى

ظلت له السيادة فى إقليم البحر المتوسط مائتى عام . وكانت الصور لاتزال جامدة ذات زوايا ، والأجسام مصورة من جانبها ، والعين فى مواجهة الناظر تماما ، ولكنه كان يستمتع فى نطاق هذه الحدود بحرية جديدة ومجال أوسع فى التفكير والتنفيذ ، وكان يخدش الخطوط الخارجية للصورة خدشاً خفيفاً بسن رفيع ، ويرسم تفاصيلها بعدئذ بالقلم ، ويملأ خلفيتها باللون الأسود ، ثم يضيف إليها لمساتها الصغرى بمادة زجاجية ملونة . وفى هذا المجال أيضاً خلد بعض كبار الفنانين أسماءهم ؛ من ذلك أن قارورة ذات أذنين قد كتب عليها : « رسم صورها يوثيميدس Euthymides بن پلياس Pallias رسماً لم يستطعه يفرنيوس Euphronius[٦٥] » . وكان هذا تحدياً ليفرنيوس ودعوة له أن يصنع مثلها « لكن يفرنيوس هذا ظل يوصف بأنه أعظم الخزافين فى عصره . ويظن بعضهم أنه هو صاحب الخابية التى صور فيها هرقل يصارع أنتيوس : وتعزى إلى معاصره سسياس Sosias زهرية من أشهر المزهريات اليونانية صور عليها أخيل يضمد جرحاً فى ذراع پترکلوس . وقد أبرز فى هذه الصورة جميع دقائقها ، وأفاض عليها الكثير من حبه وعطفه ، ولم تستطع القرون الطوال أن تنال من منظر الألم الصامت وهو يبدو على ملامح الفتى المحارب . ونحن مدينون إلى أولئك الرجال وغيرهم ممن لا تعرف أسماءهم الآن بكثير من الروائع الفنية أمثال الكأس التى نرى فى داخلها صورة إلهة الفجر تندب ولدها المتوفى ، وإبريق الماء المحفوظ فى متحف الآن بنيويورك والذى رسم عليه جندى يونانى ، قد يكون أخيل يطعن بالحربة امرأة من المحاربات جميلة ذات ثديين . وكان إناء من أمثال هذه الأوانى هو الذى وقف أمامه چون كيتس John Keats فى يوم من الأيام صامتاً مذهولا حتى أطلقت خياله « تلك النشوة الجامحة » و « الدفعة الهائجة » فأنطقتا لسانه بقصيدة أعظم شأناً من أية قارورة يونانية .

٢ - النحت

كان من أثر استيطان اليونان غربي آسية وفتح مصر للتجارة اليونانية حوالى عام ٦٦٠ ق . م أن دخلت أشكال الشرق الأدنى ومصر وأساليبهما إلى أيونيا وبلاد اليونان الأوربية . ذلك أن مثالين كريتيين هما ديبوئينوس Dippoenus واسكيلوس Scyllus استدعيا حوالى عام ٥٨٠ إلى سكيون وأرجوس ليقوما فيهما بمهمة فنية . ولما أن غادراهما لم يتركا فيهما تماثيل فحسب بل تركا فيهما تلاميذ أيضاً . ونشأت من ذلك الحين مدرسة للنحت قوية في بلاد البلوبونيز . وكان لهذا الفن أهداف كثيرة ؛ فكان أولا يخلد الموتى بالأعمدة البسيطة ، ثم بروؤس تماثيل قائمة على قواعد ، ثم بتماثيل كاملة أو لوحات جنازية منقوشة . وكانت التماثيل تصنع للفائزين في الألعاب الرياضية ؛ فكانوا أولا ينحتون نماذج لتماثيل هؤلاء الفائزين ، ثم صاروا ينحتون تماثيل لأشخاص هؤلاء الفائزين . وكان خيال اليونان الحي الخصيب من أسباب تشجيع هذا الفن ، فقد جعلهم يصـــنعون للآلهة تماثيل يخطئها الحصر .

وكان الخشب هو المادة التي تصنع منها أكثر التحف حتى القرن السادس قبل الميلاد ، وشاهد ذلك ما نسمعه كثيراً عن صندوق سپسيلوس طاغية كورنثة ؛ ويقول پوزنياس إنه صنع من خشب الأرز المطعم بالعاج والذهب ، وزين بالنقوش المعقدة المحفورة .. ولما زاد الثراء كانت التماثيل الخشبية تغطى كلها أو بعضها بالمواد الثمينة . وبهذه الطريقة صنع فيدياس تماثيله الذهبية والعاجية لأثينة پارثنوس ولزيوس الأولمبي . وظل البرنز ينافس الحجر في صنع التماثيل إلى آخر عصر اليونان الزاهر .

وقد صهر العدد الأكبر من هذه التماثيل البرنزية ولم يبق منها إلا القليل ، ولكن في وسعنا أن نستدل من تمثال سائق العربة الخاضع الذليل المحفوظ في

متحف دلفى (حوالى ٤٩٠ ق . م) على ما بلغته صناعة التماثيل المجوفة من الإتقان الذى يقرب من الكمال مذ أدخلها ريكوس Rhoecus وثيودورس الساموسيان فى بلاد اليونان . وقد صبت مجموعة التماثيل الأثينية للطاغيتين (هرموديوس Harmodius وأرستوجيتون Aristogeiton) ، وهى المجموعة الذائعة الصيت ، من البرنز على يد أنتنور Antenor فى أثينة بعد قليل من طرد هبياس . وكان مثالو أثينة يستخدمون أنواعاً كثيرة من الحجارة اللينة قبل أن يعمد مثالو اليونان إلى تشكيل الحجارة الصلبة المختلفة الأنواع باستخدام المطرقة والأزميل ، فلما أن عرفوا كيف يستخدمون هاتين الأداتين كادوا يأتون على كل ما فى نكسوس وپاروس من رخام . وكثيراً ما كانت التماثيل فى العهد القديم (١١٠٠ — ٤٩٠) تطلى بالألوان ، ولكنهم وجدوا فى آخر سنى ذلك العهد أن ترك الرخام المصقول من غير طلاء اصطناعى أوقع فى النفس وأدنى إلى تمثيل بشرة النساء الرقيقة .

وكان يونان أيونيا أول من عرفوا فوائد جعل الثياب عنصراً من عناصر صناعة النحت . ذلك أن الفنانين فى مصر والشرق الأدنى كانوا يجعلون الأثواب جامدة ملتصقة بالجسم ، ولم تكن تزيد على مئزر حجرى كبير يخفى الجسم الحى ، ولكن المثالين اليونان فى القرن السادس أدخلوا الثنايا فى الأقمشة ، واستخدموا الثياب للكشف عن مصدر الجمال الأول وطرازه وهو الجسم البشرى الصحيح السليم . غير أن أثر المصريين والأسيويين فى الفن اليونانى ظل له من القوة ما جعل التماثيل فى كثير من آثار النحت اليونانية العتيقة ثقيلة جامدة خالية من الرشاقة ، وجعل الساقين مشدودتين حتى فى حالة الراحة ، والذراعين مسترخيتين متدليتين على الجانبين ، والعينين لوزيتى الشكل ماثلتين أحياناً كعيون معظم الشرقيين ، والوجه ذا شكل ثابت لا يتغير فى جميع التماثيل خالياً من الحركة والعاطفة . وكانت التماثيل اليونانية فى ذلك العهد تتبع القاعدة التى جرى عليها المصريون فى صنع تماثيلهم ، وهى أن يصنعوها على الدوام متجهة بوجوهها نحو

الناظر إليها ، ومتناسبة الجانبين أدق التناسب ، حتى لو أنك رسمت خطا عموديا فى وسطها لمر هذا الخط فى منتصف الأنف ، والفم ، والسرة ، وأعضاء التناسل لا يحيد عن ذلك قيد شعرة إلى اليمين واليسار ، ولا يتأثر موضعه بحركة الجسم أو سكونه . ولعل العرف هو سبب هذا الجمود المقبض الممل ، فقد كان قانون الألعاب اليونانية يحرم على الفائز فيها أن يصنع له تمثال أو يرسم له صورة إلا إذا كان قد فاز فى جميع المباريات ذات الألعاب الخمس ، ويقولون إن الفائز فيها جميعاً هو وحده الذى يستمتع بالنمو الجثمانى المتناسق الخليق بأن يكون أنموذجا للجسم البشرى السليم(٥٧) .

وهذا السبب مضافا إليه فى أغلب الظن أن العرف الدينى قبل القرن الخامس كان هو المسيطر على تمثيل الآلهة فى اليونان ، كما كان مسيطراً عليه مصر ، هو الذى جعل المثال اليونانى يقتصر على عدد قليل من الأوضاع والأنماط ، ويصرف كل جهوده ومواهبه فى إتقانها .

وكان أهمّ ما صرف فيه جهوده وأتقن دراسته نمطان من التصوير هما تصوير الشباب العارى إلا من قليل الذى لا يستحق الذكر من الملابس ، ذى اليدين المقبوضتين والوجه الهادئ الصارم ؛ وتصوير العذراء المصففة الشعر ذات الوقفة والثياب المتواضعة ، تمسك ثوبها بإحدى يديها ، وتقرب القربان للآلهة باليد الأخرى . وقد ظل المؤرخون إلى عهد قريب يسمون التماثيل الأولى « أبلو » ؛ ولكنها كانت فى أغلب الظن تماثيل للرياضيين أو تماثيل جنازية ، وأشهر هذا النوع هو أبلو تينيه Tenea ، وأكبرها حجماً تمثال أبلو سونيوم Sunium ، وأدلها على التفاخر عرش أبلو فى أمكلى Amyclae قرب اسپارطة ، ومن أجملها كلها تمثال أبلو استرانج فورد Strangford المحفوظ فى المتحف البريطانى ، وأجمل منه أبلو شوازول جوفييه Choiseul Gouffier ، وهو صورة رومانية مأخوذة عن التمثال الأصلى الذى صنع فى القرن الخامس(٥٨) . وتماثيل العذارى أوقع فى عين الذكور

على الأقل من تماثيل الرجال : فأجسامهن رشيقة هيفاء ، ووجوههن تعلوها ابتسامة ظريفة أشبه بابتسامة صورة مونا لِز Mona Lisa ، وثيابهن قد بدأت تتحرر من الجمود العرفى . وبعض التماثيل المحفوظة فى متحف أثينة خليق بأن يعد من روائع الفن فى أى قطر آخر من أقطار العالم(٥٩) . ومنها تمثال نستطيع أن نسميه عذراء طشيوز(*) ، وهو يعد آية فنية فى بلاد اليونان نفسها ، وإن ما فى هذه التماثيل من مسة أيونية شهوانية لينفى عنها بعض ما بها من جمود مصرى وصرامة دورية كالتى نشاهدها فى تماثيل « أپلو » . وقد ابتدع أركرموس Archermus الطشيوزى طراز آخر من التماثيل ، أو لعله أعاد إلى الوجود طرازاً منسياً منها ، فى تمثال النصر المقام فى ديلوس . ومن هذا الطراز نشأ فيما بعد طراز تماثيل النصر الجميلة التى صنعها پئنيوس Poeonius فى أولمپيا ، وتماثيل النصر المجنحة المقامة فى سمثريس Samothrace ، وصور الملائكة المجنحة فى الفن المسيحى (٦٠) . وقد نحت مثالون مجهولون بالقرب من ميليتس طائفة من تماثيل النساء المكسوة الجالسة لتوضع فى هيكل البرنشيدى Branchidae ، وهى تماثيل قوية ، لكنها فجّة ، مهيبة لكنها ثقيلة ، عميقة لكنها ميتة(**) .

وقد بلغت صناعة الحفر درجة من القدم يسرت لإحدى القصص الظريفة أن تصف منشأها . وتقول هذه القصة إن فتاة من كورنثة رسمت على جدار الخطوط الخارجية ظل رأس حبيبها الذى يلقيه ضوء مصباح على جدار . ثم جاء أبوها بوتاديس Butades وهو فخرانى فملأ ما بين هذه الخطوط بالصلصال ، وضغطه حتى جمد ، ثم رفعه ، وحرقه ؛ ويؤكد لنا پلنى أن هذه هى الطريقة التى نشأ بها النقش القليل البروز(٦١) . وأصبح هذا الفن أكثر أهمية من صناعة التماثيل فى

(*) هو التمثال رقم ٦٨٢ فى المتحف الأهلى بأثينة .

(**) وهو الآن فى المتحف البريطانى ، وتوجد نماذج منه فى المتحف الفنى بنيويورك . والبرنشيدى هم كهنة الهيكل الذين يتوارثون مناصبهم فيه .

تزيين الهياكل والقبور ، وقد صنع أرسطاطاليس نقشاً جنازياً لأرستيون فى عام ٥٢٠ ق . م وهو تحفة من التحف الثمينة الكثيرة المحفوظة فى متحف أثينة .

وإذ كانت هذه النقوش البارزة تلون على الدوام تقريباً ، فقد كانت فنون النحت والنقش والتصوير وثيقة الاتصال بعضها ببعض ، وكانت كلها تستخدم فى العمارة ، وكان معظم الفنانين مهرة فى هذه الفنون جميعها ، وكانت بروز الهياكل وأطنافها ، وما بين هذه الأطناف ، وما وراء القواصر — كانت هذه كلها تطلى عادة بالألوان ، على حين أن البناء الرئيسي كان يترك عادة بلون الحجارة الطبيعي . أما الرسم الملون بوصفه فناً مستقلا فليس لدينا من آثاره فى البلاد اليونانية إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ؛ ولكننا نعرف من بعض أقوال الشعراء أن التصوير على الخشب بالألوان الممزوجة فى الشمع السائح كان من الفنون التى مارسها اليونان من عهد أنكريون[٦٢] . وكان هذا الفن آخر ما ازدهر من الفنون فى بلاد اليونان وآخر ما اندثر منها .

وجملة القول أن القرن السادس لم يبلغ فيه أى فن من فنون اليونان ، إذا استثنينا فن العمارة ، ما بلغته الفلسفة اليونانية وما بلغه الشعر اليونانى فى هذا القرن نفسه من جرأة فى التفكير وكمال التصوير . ولعل مناصرة الفنون كانت بطيئة النشأة بين أرستقراطية كانت لا تزال ريفية فقيرة ، أو بين طبقة رجال الأعمال التى كانت لا تزال ناشئة لم يخلق فيها الثراء حاسة الذوق . ومع هذا فقد كان عهد الطغاة فترة تحفز وتحسين فى كل فن من الفنون اليونانية — وبخاصة فى عهد پيسستراتس وهپياس فى أثينة : وفى أواخر هذا العهد بدأ الجمود القديم الذى كان يلازم فن النحت يزول شيئاً فشيئاً ، وقضى على القاعدة القديمة قاعدة نحت التماثيل مواجهة لناظرها ، وأخذت الساقان تتحركان ، والذراعان تبتعدان عن الجانبين ، واليدان تنفتحان ، والوجه ينم عن الإحساس والأخلاق ، والجسم ينثنى ويتخذ أوضاعا مختلفة تكشف عن دراسات جديدة فى التشريح والحركة . وكان هذا

الانقلاب العظيم فى فن النحت ، وما بعثه فى الحجارة من حياة حادثاً خطيراً فى تاريخ اليونان ؛ كما كان التحرر من المواجهة فى التماثيل من أجلّ أعمال اليونان الفنية . ومن ذلك الحين نبذ الفن اليونانى تأثير المصريين والشرقيين ، وأصبح فناً يونانياً خالصاً .

٣ ـ العمارة

استعاد فن البناء على مهل ما خسره بسبب الغزو الدورى ، ورفع اسم الدوريين إلى أكثر مما يستحق . وانتقلت أسس العمارة الميسينية إلى بلاد اليونان خلال العصور المظلمة القديمة الممتدة من عهد أجممنون إلى ترپندر ، فاحتفظت روائع الفن اليونانى بطراز البناء المستطيل القائم الزوايا ، وباستخدام العمد فى داخل البناء وخارجه ، وبجسم العمود المستدير وتاجه المربع البسيط ، وبالأروقة المعمدة ، والوجهات ذات الحزوز . غير أن العمارة الميسينية كانت عمارة مدنية غير دينية ، منصرفة كلها إلى تشييد القصور والدور ، أما العمارة اليونانية فى عصر اليونان الزاهر فتكاد تكون كلها دينية ، فقد استحال القصر الملكى معبداً مدنياً بعد أن اضمحلت الملكية ، وعمل الدين والدمقراطية على توجيه عواطف اليونان إلى تعظيم المدينة فى شخص إلهها .

وشيدت أقدم الهياكل اليونانية من الخشب أو اللبن ، وهما أنسب المادتين إلى العصر المظلم الفقير ؛ ولما أن صار الحجر المادة الأصلية فى تشييد الهياكل ، بقيت المظاهر المعمارية كما كانت فى عهد البناء بالخشب ؛ وظل جسم المعبد الأصلى المستطيل ، والعمد المستديرة ، « والعارضية الرئيسية » المركبة على العمد ، والحزوز الثلاثية فى طرف العارضة ، والسقف ذو « الجملون » بقيت هذه كلها شاهدة على الأصل الخشبى الذى استمدت منه شكلها الأول . بل إن الشكل اللولبى الأيونى كان كما يبدو من صورته رسوماً لنباتات وأزهار على كتلة من الخشب[٦٣] ، وكثر استعمال الحجارة بازدياد ثراء اليونان وكثرة أسفارهم ، وكان الانتقال أسرع

ما يكون بعد أن فتحت مصر أبوابها للتجارة اليونانية حوالى عام ٦٠٠ ق . م ، وكان حجر الجير المادة الشائعة الاستعمال فى أنماط البناء الجديدة قبل القرن السادس ، ثم بدأ استعمال الرخام حوالى عام ٥٨٠ ، وكان يستخدم أول الأمر فى الأجزاء التى يزين بها الهيكل ، ثم استخدم بعدئذ فى تشييد واجهته ، واستخدم آخر الأمر فى بناء الهيكل كله من قاعدته إلى سقفه .

وفى بلاد اليونان نشأت « مراتب » العمارة الدورية ، والأيونية ، ثم الكورنثية فى القرن الرابع قبل الميلاد . وإذ كان داخل الهيكل مخصصاً للإله والكهنة القائمين على خدمته ، وكانت العبادات كلها تؤدى فى خارجه ، فقد استخدمت « المراتب » الثلاث كلها فى تجميل الهيكل من خارجه وجعله ذا روعة ومهابة . وكان ذلك التجميل يبدأ من الأرض نفسها ، وهى عادة مكان مرتفع ، فيبنى الأساس من طبقتين أو ثلاث طبقات من الحجارة كل منها أقل مساحة من التى تحتها ، وفوق الطبقة العليا مباشرة يقوم العمود الدورى دون أن تكون له قاعدة خاصة — ويزدان بحزوز ضحلة ، محدودة الجوانب ، ثم يتسع العمود اتساعاً ظاهراً فى وسطه ويتكون منه ما يسميه اليونان « امتداداً » له . ثم تقل سعة العمود الدورى بعض الشىء كلما قرب من قمته ، فيكون أشبه بالشجرة ومناقضاً للطراز المينوى — الميسينى (وجسم العمود الذى لا تنقص سعته — وأسوأ منه الذى يضيق كلما اتجه إلى أسفل — يبدو ثقيلا فى أعلاه غير جميل فى منظره ، على حين أن القاعدة المتسعة ، تزيد شعور الإنسان باستقرار العمود ، وهو الشعور الذى يجب أن تبعثه فى النفس جميع العمائر . على أن العمود الدورى قد يكون مفرطاً فى الثقل ، مفرطاً فى سمكه بالنسبة إلى ارتفاعه ، مغرقاً فى الصلابة والقوة إغراقاً يدل على البلاهة) ، وفى أعلى العمود الدورى يقوم تاجه البسيط القوى ويتكون من « عنق » أو رباط مستدير ، وبروز دائرى محدب كأنه

وسادة يرتكز عليها التاج ، وفى أعلاه التاج المربع نفسه وقد اتسع ليقوى العمود على تحمل العارضة .

وبينما كان هذا الطراز من البناء ينمو ويتطور على أيدى الدوريين ، ويتكيف فى أغلب الظن بأبهاء العمد التى فى الدير البحرى وبنى حسن المتقدمة على العصر الدورى ، كان اليونان الأيونيون يبدلون هذا الشكل الأساسى نفسه بتأثير الطرز الأسيوية ، ونشأ من هذا التطور طراز أيونى يقوم فيه عمود رفيع على قاعدة له خاصة ، ويبدأ من أسفله كما ينتهى فى أعلاه بطوق ضيق ، وكان فى العادة أكثر ارتفاعاً وأصغر قطراً من جسم العمود الدورى ، وكان ما فيه من نقص فى سمكه من أسفل إلى أعلى قليلا لا تكاد العين تدركه . أما الحزوز فكانت غائرة ، نصف دائرية تفصلها بعضها عن بعض أطراف منبسطة ، وكان رأس تاج العمود الأيونى يتكون من وسادة محدبة ضيقة ، ويعلوها تاج أضيق منها ، وبينهما تبرز تلفيفة لولبية مزدوجة تكاد تخفيهما عن العين كأنها ملف مطبوق نحو الداخل . وذلك عنصر مأخوذ عن الأشكال الحثية ، والأشورية ، وغيرهما من الأشكال الشرقية(٦٤) . وهذه الخواص إذا أضيفت إليها النقوش البديعة المحكمة التى فى الأروقه لا يستبين منها الرائى طرازاً فى العمارة فحسب بل يستبين منها كذلك خواص صنف من الناس . فهى تمثل فى الحجارة ما يمتاز به الأيونيون من وضوح ، ودماثة ، وقوة عاطفة ، ورشاقة ، وولع بالتفاصيل الدقيقة ؛ كما أن الطراز الدورى يعبر عن تحفظ الدوريين ، وكبريائهم ، وضخامتهم وقوتهم ، وبساطتهم الصارمة ؛ ولقد كانت تماثيل الجماعات اليونانية المتنافسة ، وآدبها ، وموسيقاها ، وأخلاقها ، وثيابها ، تختلف لتنسجم مع أنماط عمارتها ؛ فالعمارة الدورية رياضة ، والعمارة الأيونية شعر ، وكلتاهما تنشد الخلود فى الحجارة ؛ والأولى « نوردية » أما الثانية فشرقية ، وهما معاً تكونان الذكورة والأنوثة فى صورة متناسقة منسجمة فى جوهرها .

وتمتاز العمارة اليونانية بأنها قد تطور فيها العمود حتى صار من عناصر الجمال كما صار دعامة يستند إليها البناء ، وكان العمل الأساسى للعمد هو حمل طنف السقف وإراحة جدران المعبد الداخلى من قوة دفع السقف ذى « الجمالون » إلى الخارج . وفوق العمد يقوم الرواق أى الطابق العلوى من البناء . وفيه أيضاً ، كما فى الأجزاء الساندة ، كان فن العمارة اليونانى يحرص على إظهار الفوارق بين العناصر اليونانية كما يحرص على إظهار الصلات الواضحة بينها . فقد كانت العارضة — أي الحجر الكبير الذى يصل تيجان الأعمدة بعضها ببعض — فى الطراز الدورى بسيطة أو كانت تحمل فوقها طنفاً بسيطاً ملوناً ، أما فى الطراز الأيونى فكانت تتكون من ثلاث طبقات تبرز كل منها تحت ما فوقها ، وكان فى أعلاها حلية من الرخام مقسمة فلقا بينها نقوش كبيرة مختلفة الأنواع . وإذ كانت الكتل المائلة التى يتكون منها إطار السقف فى الطراز الدورى تنحدر إلى أسفل ، وكان ما يمسكها هو الكتل الأفقية التى عند الطنف ، فإن أطراف الكتل الثلاث مجتمعة كان يتكون منها — فى الخشب أولا ثم فى الحجر المقلد للخشب بعدئذ — سطح مقسم ثلاثة أقسام ، وقد ترك بين كل قسم والذى يليه فراغ تتكون منه نافذة مفتوحة إذا كان السقف من الخشب أو من قطع القرميد المحروق ؛ فإذا ما استعملت فيه قطع مسطحة من الرخام فإن هذه « النوافذ » كانت تغطى بألواح من الرخام منقوشة نقشاً قليل البروز ، وفى الطراز الأيونى كانت هناك حلقة أو طنف من النقوش البارزة حول الجدران الخارجية العليا لجسم المعبد ، وكثيراً ما كان النوعان من النقوش — نقوش « النوافذ » ونقوش الطنف — يستخدمان فى البناء الواحد فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كما نشاهد فى بناء البارثنون . وقد وجد المثال فى القواصر — وهى المثلثات المكونة من السقف ذى « الجمالون » من الأمام ومن الخلف — أحسن الفرص لإظهار فنه . وكان فى وسعه أن ينقش فيها الصور نقشاً كبير البروز ، وتكبر بحيث يستطيع

أن يراها من يقف فى أسفل البناء ؛ وكانت الأركان المتجمعة — أو الطول عند المعماريين — وسيلة تختبر بها مهارة الفنان العظيمة . وكان فى الاستطاعة أن يجعل السقف نفسه تحفة فنية تجماله قطع القرميد الزاهية الألوان والمثقفات التى تستخدم لتصريف مياه الأمطار ، وتتخذ فى الوقت نفسه قواعد للتماثيل العليا ترتفع من زوايا القواصر . وقصارى القول أنه كان فى الهيكل اليونانى ، وبين العمد ، وعلى الجدران ، وفى داخل البناء نفسه ، ما يزيد على الحاجة من التماثيل والنقوش . وكانت للرسام أيضاً يد فى زينتها : فقد كان الهيكل يطلى كله أو بعضه بما فيه من تماثيل وبروز ونقوش . ولعلنا فى هذه الأيام نغالى فى الإكبار من شأن اليونان بعد أن محت الأيام الطلاء عن معابدهم وآلهتهم وخلفت أكاسيد الحديد على الرخام ألواناً طبيعية لا يحصى عديدها تظهر بريق الحجارة تحت سماء اليونان الصافية . ومن حقنا أن نتوقع أن يصبح الفن الحديث نفسه وبالطريقة عينها جميلا فى يوم من الأيام .

وازدهر الطرازان المتنافسان ازدهاراً عظيما فى القرن السادس وبلغا ذروة الكمال فى القرن الخامس . وقد قسما بلاد اليونان من الناحية الجغرافية قسمة ضيزى . فكان للفن الأيونى السيادة فى بلاد آسية اليونانية وفى بحر إيجة ، وكان للفن الدورى السيادة فى أرض اليونان نفسها وفى غربها . وكان أعظم ما أبدعه الفن الأيونى فى القرن السادس هو معبد أرتميس فى إفسوس ، ومعبد هيرا فى ساموس ، وتماثيل البرنشيدى بالقرب من ميليتس . ولكن جميع العمائر الأيونية التى أنشئت قبل مرثون قد عـدا عليها الزمان فلم يبق منها إلا أنقاضها . وأجمل المبانى الباقية من القرن السادس معابد پستوم Paestum وصقلية القديمة وكلها من الطراز الدورى ؛ وقد بقى من الهيكل العظيم الذى شيد فى دلفى بين عامى ٥٤٨ ، ٥١٢ تصميم قاعدته نعرفه من رسوم المهندس اسپنثاروس Spintharus الكورنثى ، أما الهيكل نفسه فقد دمره زلزال وقع فى عام ٣٧٣ ، ثم أعيد بناؤه بالنظام

عينه ؛ وكان لا يزال قائماً بهذه الصورة حينما طاف پوزنياس ببلاد اليونان ، وتكاد العمارة الأثينية فى هذه الفترة أن تكون كلها دورية الطراز . وبه بدأ پيسستراتس حوالى عام ٥٣٠ معبد زيوس الأولمبى الضخم فى السهل القائم عند أسفل الأكربوليس . وهاجر مئات من الفنانين الأيونيين إلى أتكا بعد أن فتح الفرس أيونيا فى عام ٥٤٦ ، وأدخلوا فى أثينة طراز العمارة الأيونية أوعملوا على إنمائه . وقبل أن ينصرم هذا القرن كان المهندسون الأثينيون يستخدمون الطرازين وكانوا قد وضعوا جميع الأسس الفنية لعصر پركليز .

٤ — الموسيقى والرقص

كان معنى لفظ Mousike عند اليونان أول الأمر هو الولاء لأية إلهة من إلاهات الفن Muse ؛ وكان مجمع أفلاطون العلمى يسمى Museion أى متحف Museun ، ومعناه مكان مخصص لربات الفن Muses ، وأوجه النشاط الثقافى الكثيرة التى تناصرها : وكان متحف الإسكندرية جامعة تجرى فيها ضروب النشاط الأدبى والعلمى ولم تكن مكاناً تجمع فيه التحف . وكانت الموسيقى بمعناها الضيق الحديث منتشرة بين اليونان بقدر انتشارها بيننا فى هـــذه الأيام إن لم تكن أكثر انتشاراً . وكان الأحرار جميعاً فى أركاديا يواصلون دراسة الموسيقى إلى أن يبلغوا الثلاثين من عمرهم ، وكان كل واحد منهم يعرف استعمال آلة من الآلات ، وكان العجز عن الغناء يجلل العاجز العار[٦٥] . وقد سمى الشعر الغنائى بهذا الاسم فى بلاد اليونان لأنه كان يقرض ليتغنى به على القيثارة اليونانية والصنج والناى ؛ وكان الشاعر عادة يقول الشعر ويلحنه ويغنى أشعاره ؛ ولهذا كان قرض الشعر الغنائى فى بلاد اليونان أصعب كثيراً من قرض الشعر لقراءته قراءة صامتة فى عزلة كما يحدث فى هذه الأيام . وقلما كان هناك أدب يونانى قبل القرن السادس الميلادى غير متصل بالموسيقى ، فقد كان التعليم والأدب

والدين ، والحرب ، وثيقة الاتصال بالموسيقى ؛ وكان للنغمات الحربية شأن عظيم فى التدريب العسكرى ، وكان كل ما يحفظ أو جله يلقن شعراً وقبل أن يحل القرن الثامن قبل الميلاد كانت الموسيقى اليونانية قد أصبحت من الفنون القديمة وأصبح لها مئات الأنواع والأشكال .

أما آلاتها فكانت بسيطة ، وكانت الأسس التى تقوم عليها هى بعينها الأسس التى تقوم عليها فى هذه الأيام : القرع ، والنفخ ، والأوتار . فأما القرع فلم تكن آلاته واسعة الانتشار . وقد ظل الناى شائع الاستعمال فى أثينة حتى سخر ألقبيادس من خدى معلمه المنتفخين وأبى أن يستخدم هذه الآلة السمجة ، وتزعم حركة مقاومتها بين شباب اليونان . (وهذا إلى أن البؤوتيين ، كما يزعم الأثينيون كانوا أبرع منهم فى استخدام الناى ، ولهذا كانوا يعدون هذا الفن من الفنون المرذولة)(٦٦) . وكان الناى البسيط قصبة من الغاب ، أو الخشب المثقوب ، ذات مبسم منفصل عنها ، ومثقوبة بثقوب للأصابع يتراوح عددها بين اثنين وسبعة ، يمكن أن توضع فيها غمازات تعدل درجة الصوت . وكان بعض الموسيقيين يستخدمون الناى المزدوج — ويتكون من ناى « ذكر » أو غليظ النغمة فى اليد اليمنى وناى « أنثى » أو رفيع النغمة فى اليسرى ، يرتبط كلاهما بالفم برباط حول الخدين ، وينفخ فيهما معاً فى توافق بسيط . ثم أوصل اليونان الناى بكيس قابل للتمدد فأوجدوا بذلك موسيقى القرب ، وجمعوا عدداً منها وكونوا منه ما يعرف بأنبوبة پان ؛ ثم أطالوا طرف الناى وسدوا ثقوب الأصابع فكان البوق(٦٧) . ويقول پوزنياس إن موسيقى الناى كانت فى العادة مقبضة ، وكانت تستخدم على الدوام فى ترانيم الدفن والمراثى ؛ ولكننا لا نظن أن الأولترداى Auletredai أو الفتيات اليونانيات المسامرات النافخات فى الناى كن مبعث الكآبة والانقباض . أما الآلات الوترية فكان العزف عليها مقصوراً على شد الأوتار بالإصبع أو المنقر ، ولم يكن العازف ينحنى

فى أثناء العزف . وكان ثمة أنواع مختلفة من القيثارات صغيرة وكبيرة ولكنها كانت فى جوهرها شيئاً واحداً ، فكانت كلها تتكون من أربعة أوتار أو خمسة مصنوعة من أمعاء الضأن ومشدودة على قنطرة فوق جسم رنان من المعدن أو صدفة سلحفاة . وكانت القيثارة صنجاً (كنجاً) صغيراً يستخدم أثناء غناء الشعر القصصى ، وكانت القيثارة اليونانية الصغيرة تستخدم مع الشعر الغنائى والأغانى بوجه عام .

ويروى اليونان قصصاً عجيبة عن كيفية اختراع الآلهة هرمس ، وأپلو ، وأثينا ، لهذه الآلات ، وكيف تحدى أپلو بقيثارته أبواق مارسياس (وهو كاهن الإلهة الفريچية سيبيل) ونايه وغلبه — بطريقة غير شريفة فى ظن مارسياس — بأن أضاف صوته إلى صوت الآلة ، وختم المباراة بأن أمر بسلخ جلد مارسياس حيا ؛ وعلى هذا النحو تمثل الأساطير غلبة القيثارة على الناى . وثمة قصص أظرف من هذه القصة تحدث عن الموسيقيين الأقدمين الذين أوجدوا فن الموسيقى أو عملوا على تقدمه : عن أولمپس تلميذ مارسياس الذى اخترع السلم ذا المسافات القصيرة(*) حوالى عام ٧٣٠ ق . م ، وعن لينوس Linus معلم هرقل الذى اخترع العلامات الموسيقية اليونانية وأوجد بعض « الدرجات[٧٠] » ، وتحدثنا عن أرفيوس التراقى كاهن ديونيسس ، وعن تلميذه موسيوس Mausaeus الذى قال إن « الغناء من أحلى الأشياء للآدميين[٧١] » . وتوحى هذه القصص بأن الموسيقى اليونانية استمدت أشكالها فى أغلب الظن من ليديا ، وفريچيا[٧٢] ، وتراقية (**) .

(*) وهو سلم يحتوى على أرباع نغمات هى : مى مىَ فالا سى سىَ دومى ، والشرطة التى فوق العلامة تدل على أنها ربع نغمة .

(**) لقد كان لموسيقى هيلاس سلالم مختلفة أكثر عدداً وأشد تعقيداً من موسيقانا . ذلك أن سلمنا الموسيقى لا يحتوى على أصغر من نصف نغمة ، ويكون اثنا عشر نصفاً من أنصاف النغمات الحلقة السلمية عندنا ؛ أما اليونان فقد كان لديهم أربع نغمات ، وكان لهم —

وكانت الموسيقى من مستلزمات الحياة اليونانية لا تكاد تخلو منها ناحية من نواحيها ، فكانت لديهم ابتهالات لديونيسس ، وتهاليل لأپلو ، وترانيم لكل إله من آلهتهم . وكانت لديهم مدائح للأغنياء ، وأغانى نصر لأبطال الرياضة ، وأناشيد تغنى على الطعام والشراب ، وللحب ، والزواج ، والحزن ، والدفن . وكان للرعاة ، والحاصدين ، وعاصرى الخمور ، والغزالين والنساجين ، هم أيضاً أغانيهم ، وأكبر الظن أن الرجل فى السوق أو فى النادى ، وأن السيدة فى بيتها والمرأة فى الطرقات ، كل هؤلاء كانوا يغنون أغانى لم يكن حظها

— خمسة وأربعون سلماً ، فى كل منها ثمانى عشرة نغمة(٧٣) . وكان يتألف من هذه السلالم ثلاث مجموعات : مجموعة السلالم المتصلة النغمات وأساسها الأربعة الأصوات : مى ، رى دو ، سى ؛ والسلالم القائمة على مى دو ، والسلم النارضى ، والسلالم ذات المسافات القصيرة وأساسها مى دو دو مى . وقد نشأت السلالم الكنسية فى العصور الوسطى من السلالم اليونانية بتبسيطها ، ومن هذه السلالم الكنسية نشأت السلالم الموسيقية الحالية .

وقد وجدت فى داخل السلم المتصل النغمات ذى الأربعة الأصوات سبع درجات ، وذلك بتعديل الأوتار لتغيير موضع أنصاف النغمات فى الحلقة السلمية ، وأهم هذه الدرجات هى الدرجات الدورية : مى رى دو سى لا صول فا ، وهى النغمات الحربية الرصينة وإن كانت من طبقة صغرى ، والليدية (دو سى لا صول فا رى دو) الرقيقة الحزينة وإن كانت من طبقة صغرى كذلك ، والفريجية (رى دو سى لا صول فا رى) وهى من طبقة صغرى وصخابة انفعالية قوية(٧٤) ؛ ومن الطريف الممتع أن يقرأ الإنسان ما دار من الجدل العنيف حول ما يعزوه اليونان — وخاصة فلاسفتهم — لأنصاف النغمات من أثر نافع أو ضار فى الموسيقى والأخلاق والطب . فهم يقولون لنا إن الموسيقى الدورية تبعث فى الرجال الشجاعة والمهابة ، وإن الليديه تجعلهم عاطفيين ضعافاً ، والفريجية سريعى التهيج معاندين . أما أفلاطون فيرى أن معظم الموسيقى تبعث على الترف المخنث والفساد الخلقى الطليق ، ويجب أن يخرج جميع الموسيقى الآلية من دولته المثالية(٧٥) . غير أن ثيوفراستوس لا يعدم كلمة طيبة يقولها عن جميع أنواع الموسيقى حتى الموسيقى الفريجية ؛ فهو يقول مثلا إن الأمراض المستعصية تزول آلامها بعزف نغمة فريجية بالقرب من الجزء العليل .

ولم تكن العلامات الموسيقية اليونانية دوائر وذيولا تكتب على مجموعة من السطور ، بل كانت هى الحروف الهجائية اليونانية مقلوبة أو مستعرضة أو مزيدة عليها نقط أو شرط تجعل منها أربعاً وستين علامة توضع فوق ألفاظ الأغنية . ولقد وصلت إلينا قطع صغيرة من هذه العلامات نتعزى بها عن الكثير الذى فقدناه منها ؛ وهى تنبئ عن أنغام أقرب إلى الموسيقى الشرقية منها إلى الأوربية ، تطبقها آذان الهنود ، أو الصينيين ، أو اليابانيين أكثر ما تطبقها آذان الغربيين البليدة التى لم تتعود أرباع النغمات .

من العلم كحظ أغانى سمنيدس ؛ وما من شك فى أن الأغانى الخليعة والأغانى الراقية قد جاءت كلتاهما إلينا من أقدم العصور .

وكانت أرقى أنواع الموسيقى فى اعتقاد اليونان وفى حياتهم العملية الغناء الجماعى ؛ وقد أكسبوا هذا النوع من الغناء عمق الفلسفة ، وتعقيد التركيب ، وهما الصفتان اللتان أخذتا تجدان لهما مكاناً فى السمفونية والمقطوعات الموسيقية ، وكان فى كل احتفال — سواء أكان احتفالا بحصاد ، أم بنصر ، أم بزواج ، أم بيوم مقدس ، مكان لجوقة غنائية ؛ وكانت المدن والجماعات المختلفة تقيم من حين إلى حين مباريات فى الغناء الجماعى تعد له العدة فى معظم الأحيان قبل موعده بزمن طويل ، فيعين مؤلف لكتابة الألفاظ والموسيقى ، ويطلب إلى رجل مثر أن يتكفل بالنفقات ، ويستأجر المغنون المحترفون ، ويعنى كل العناية بتدريب الجوقة . وكان المغنون كلهم يغنون نغمة واحدة ، كما نشاهد الآن فى موسيقى الكنيسة اليونانية ، ولم يكن هناك « صوت منفرد » فى الفرقة سوى ما حدث فى القرون المتأخرة من ارتفاع صوت المصاحب خُمساً فوق الصوت ، أو انخفاض عنه بهذا القدر ، أو من معارضته . ويبدو أن هذا هو أقرب ما وصل إليه اليونان فى التوافق والألحان التوافقية البسيطة(٧٨) .

أما الرقص فى أرقى صوره فقد مزج بالغناء الجماعى حتى صارا فناً واحداً ، كما أن كثيراً من أنواع الموسيقى الحديثة ومصطلحاتها كانت فيما مضى متصلة بالرقص(*) ، ولم يكن الرقص يقل فى قدمه وانتشاره عن الموسيقى عند اليونان . ولما عجز لوسيان عن تتبع نشأته على سطح الأرض حاول أن يجدها فى حركة النجوم المنتظمة(٨٠) . ولا يكتفى هومر بأن يحدثنا عن المرقص الذى صنعه ديدلوس

(*) من ذلك أن الكلمة الإنجليزية toot المقابلة للوتد فى الشعر مأخوذة فى الأصل من الرقص المصاحب للموسيقى(٧٩) ؛ وكان اليونان يفهمون من لفظ أركسترا طوراً الرقص على هيئة مسرح فى العادة .

لأدرياني Adrians ، بل يحدثنا أيضاً عن راقص ماهر بين Daedalus المحاربين اليونان أمام طروادة يدعى مريونيس Mereiones ، كان يرقص وهو يحارب فكانت الحراب لهذا السبب تعجز عن إصابته(٨١) . ويصف أفلاطون الرقص (orchesia) بأنه « الرغبـــة الفطرية فى شرح الألفاظ بحركات الجسم كله » — وهو ما تفسره به بعض اللغات الحديثة . وخير من هذا ما وصفه به أرسطاطاليس إذ قال إن الرقص « تقليد الأعمال ، والأخلاق ، والعواطف ، بطريق أوضاع الجسم والحركات الإيقاعية(٨٢) » . وكان سقراط نفسه يرقص ، وهو يمدح هذا الفن لأنه يهب الصحة لكل جزء من أجزاء الجسم(٨٣) ، وهو يقصد الرقص اليونانى بطبيعة الحال .

ذلك أن هذا الرقص كان يختلف عن الرقص عندنا ، فهو ، وإن كان فى بعض أشكاله يثير الغريزة الجنسية ، قلما كان يجعل الرجال يلتصقون بالنساء ، بل كان رياضة فنية ، لا عناقاً فى أثناء المشى ، وكان كالرقص الشرقى تستخدم فيه الذراعان واليدان ، كما تستخدم الساقان والقدمان . وكانت أنماطه لا تقل اختلافاً عن أنماط الشعر والغناء ، وقد ذكر الثقات الأقدمون مائتين من هذه الأنماط ، من بينها رقصات دينية كالتى كان يقوم بها عباد ديونيسس ، ورقصات رياضية كرقصات الاسپارطيين فى احتفال الشباب العرايا ، ورقصات حربية كالرقص البيرى يتعلمه الأطفال فيما يتعلمون من التدريب العسكرى ؛ ومنها الهيبرشما Hyporchema الفخمة أى الترنيم أو اللعب الذى يقوم به اثنان من المغنين أحدهما يغنى ثم يرقص وثانيهما يرقص ثم يغنى ؛ ثم يتناوب الاثنان بعد هذا الرقص والغناء ؛ ومنها الرقصات الشعبية التى ترقص عند كل حادثة هامة من حوادث الحياة وكل فصل أو عيد من فصول السنة أو أعيادها . وكانت لديهم مباريات فى الرقص ، كما كانت لديهم مباريات فى كل شىء سواه ، تشمل فى العادة أغانى جماعية .

وكانت هذه الفنون كلها — الشعر الغنائى ، والأغانى ، والموسيقى الآلية ،

الرقص — وثيقة الصلة بعضها ببعض عند اليونان الأولين ، وكانت تؤلف فى كثير من مظاهرها فناً واحداً ، ثم دخل فيها التفرع والتخصص المهنى على توالى الزمن ، وبدأ ذلك فى القرن السابع ، فترك الشعراء الجوالون الأغانى واستبدلوا بها التلاوة ، وفضلوا الشعر القصصى عن الموسيقى [٨٦] . وكان أرشلوقوس Archilochus يغنى أشعاره دون أن يستعين بآلات موسيقية [٨٧] ؛ وبدأ ذلك التدهور الطويل الأمد الذى نزل بالشعر آخر الأمر فجعله أشبه بملك صامت حبيس سقط من السماء . ثم تفرع الرقص ذو الغناء الجماعى فكان منه غناء من غير رقص ، ورقص من غير غناء ، لأن « الحركات العنيفة تسبب قصر النفس ، ولذلك أثر سيئ فى الغناء » كما يقول لوسيان [٨٨] . وظهر بهذه الطريقة عينها موسيقيون لا يغنون ، نالوا إعجاب مستمعيهم بمحافظتهم الدقيقة على أرباع النغمات [٨٩] . وقد غالى بعض مشهورى الموسيقين وقتئذ ، كما يغالى أمثالهم الآن ، فى أجورهم . من ذلك أن أميبوس Amoebeus المغنى والعازف على القيثارة كان يتقاضى وزنة (تالنتا) أى نحو ٦٠٠٠ ريال أمريكى عن كل حفلة [٩٠] . وما من شك فى أن الموسيقى العادى لم يكن ينال من الأجر إلا ما يسد به رمقه ، وذلك لأن الموسيقىّ ، كغيره من الفنانين ، ينتمى إلى مهنة كان لها شرف القضاء على أهلها جوعاً فى كل جيل من الأجيال .

وأما الذين نالوا أوسع الشهرة فهم أمثال تربندر ، وأريون ، وألكمان ، واستسيكورس ، الذين برعوا فى جميع أنواع الموسيقى ، والذين مزجوا الغناء الجماعى ، والموسيقى الآلية ، والرقص ، فجعلوا منها فناً واحداً معقداً متوافقاً ، لعله كان أجمل وأجلب للسرور من التمثيلات الغنائية والفرق الموسيقية فى هذه الأيام . وكان أريون أشهر أولئك الأساتذة كلهم . ويروى عنه اليونان أنه كان يقوم برحلة من تاراس Taras إلى كورنثة ، فسرق منه الملاحون نقوده ، ثم خيروه بين القتل طعناً أو غرقاً . فما كان منه إلا أن غنى أغنية أخيرة

ثم ألقى بنفسه فى البحر ، فحمله دُلْفين على ظهره (ولعل الذى حملهّ هو عوده) وأوصله إلى البر . وهو الذى جعل من أناشيد المغنين السكارى ، الذين كانوا يرتجلون الأغانى الخمرية الديونيسية ، أغانى جماعية مدربة غير مخمورة ، تتألف من خمسين صوتا ، تغنى على أحد جانبى المسرح وترد عليها فرقة أخرى على الجانب الآخر. وكان موضوع الأغنية فى العادة ما لاقاه ديونيسس من العذاب والموت ، وكان المغنون يتنكرون فى العادة فى زى جن الحراج الغريبة الشبه بشكل المعز تكريماً لخدم الإله كما تصورهم القصص المتواترة . ومن هذه الأغانى والحفلات نشأت المآسى اليونانية باسمها ومعناها .

٥ — نشأة التمثيل

امتاز القرن السادس بما ازدهر فيه من أسباب العظمة المتعددة التى انتشرت فى كثير من البلاد . وكان تاج مميزاته كلها أن وضع فيه أساس التمثيل . لقد كان هذا القرن من فترات الإبداع الخلاقة فى التاريخ . ومبلغ علمنا أن الناس قبله لم ينتقلوا من المسرحية الصامتة التى تعتمد على الإشارة ، أو من الطقوس الدينية ، إلى المسرحية الناطقة الدنيوية .

ويقول أرسطاطاليس إن الملهاة قد « تطورت من أولئك الذين كانوا يقودون موكب عضو التذكير » . ذلك أن جماعة من الناس يحملون عضو تذكير مقدس وينشدون أناشيد لديونيسس أو لغيره من آلهة الزرع ، كان يطلق عليهم فى اللغة اليونانية اسم كوموس أو الطرب . وكان رمز الصلات الجنسية من مستلزمات هذا الموكب لأنه كان ينتهى بزواج رمزى يهدف إلى تشجيع الإنبات بوسائل سحرية(٩٢) . ومن ثم كان الزواج والتناسل المرتقب هو الخاتمة الطبيعية للملهاة اليونانية القديمة ، كما هو خاتمة معظم الملاهى والروايا القصصية الحديثة . وقد ظلت الملاهى اليونانية إلى آخر أيام مننذر Menander بذيئة فاحشة لأن نشأتها

كانت الصلات الجنسية الصريحة ، ولأنها كانت فى بدايتها احتفالا مرحا بقوى التناسل ، فكان القائمون بها يتحللون من كثير من القيود الأخلاقية فى المسائل الجنسية ، وكانت قواعد الآداب وقوانينها يقف العمل بها فى يوم الاحتفال ، فتباح حرية الكلام بأفحش الألفاظ Parrhasia[٩٣] . وكان كثير من المحتفلين يتزيون بزى جنيات الحراج الديونيسية ، ويضعون فى ثيابهم ذيل ماعز وعضو تذكير اصطناعى طويل من الجلد الأحمر . ثم أصبح هذا هو اللباس التقليدى على المسارح التى تمثل الملاهى ؛ وكان فى عهد أرستفنير عادة دينية لا يمكن التحلل منها . والحق أن عضو التذكير ظل رمزاً ملازماً للمهرج فى الملهاة حتى القرن الخامس فى أوربا الغربية ، وحتى آخر أيام الإمبراطورية البيزنطية فى أوربا الشرقية[٩٤] . وكان يصحب عضو التذكير فى الملهاة القديمة ذلك الرقص الفاحش الخليع المعروف برقص الكرداكس[٩٥] Kordax .

ومن أغرب الأشياء أن تحَوُّل مرح الإنبات الريفى إلى الملهاة التمثيلية قد حدث أولا فى صقلية . ذلك أن رجلا يدعى سوزريون Susarion من أهل مجارا هبليا Megara Hyblaea القريبة من سرقوسة هو الذى حول موكب الطرب إلى مسرحيات قصيرة مليئة بالهجاء الفاحش واللهو[٩٦] . ثم انتقل هذا الفن الجديد من صقلية إلى البلوپونيز ومنها إلى أتكا . وكان الممثلون المتنقلون ، أو الهواة المحليون ، يمثلون الملاهى فى القرى . ومر قرن كامل قبل أن يعنى ولاة الأمور — على حد قول أرسطاطاليس[٩٧] — بالملهاة عناية جدية فيبيحوا تمثيلها فى الأعياد الرسمية (٤٦٥ ق . م) .

ونشأت المأساة — Tragoidia أو أغنية الماعز — بالطريقة عينها من محاكاة المحتفلين رقصاً وغناء بعيد ديونيسس ، المتشبهين بجنيات الغابات ، والمرتدين جلود المعز[٩٨] . وقد ظلت هذه المحاكاة جزءاً أساسياً من المسرحيات الديونيسية إلى أيام يوريپديز ، فكان ينتظر من كل مؤلف للمأساة من ثلاثة فصول أن يراعى

العادة القديمة فيضيف إليها فصلا رابعاً هو عبارة عن مسرحية قصيرة تعرض فيها جنيات الغاب تكريماً لديونيسس . وفى هذا يقول أرسطاطاليس[٩٩] : « وإذ كانت المأساة قد تطورت عن مسرحية جن الغابات فإنها لم ترتفع من الحبكات القصيرة ، والعبارات المضحكة ، إلى مكانتها الرفيعة الكاملة إلا فى زمن متأخر جداً » . وما من شك فى أن عوامل أخرى كان لها شأن فى نشأة المأساة ، وأن هذه العوامل قد قويت وظهر أثرها فى ذلك الوقت ؛ ولعلها قد استمدت شيئاً من عبادة الموتى واسترضائهم[١٠٠] ، ولكن أهم ما استمدت منه منذ نشأتها هو الحفلات الدينية الرمزية كتمثيل مولد زيوس فى كريت أو أرجوس أو ساموس ، وكزواجه الرمزى بهيرا ؛ أو حفلات دمتر وپرسفونى فى إليوسيس وغيرها ؛ وأهم من هذا كله ما كان يحدث فى البلوپونيز وأتكا من حزن ومرح لموت ديونيسس وبعثه ، وكان يطلق على هذه المحاكاة اسم Dromena — أى أشياء تعمل ، ولفظ دراما Drama ذو صلة بهذا الاسم ومعناه — أو ما يجب أن يكون معناه — « العمل » . وقد ظلت فرق الغناء فى سكيون حتى أيام الطاغية كليسثنيز تحيي ذكرى « عذاب أدراستوس Adrastus » ملكها القديم . وفى إيكاريا Icaria التى شب فيها ثسبيس كان يضحى بعنز لديونيسس ؛ ولعل « أغنية العنز » الذى اشتق منها اسم المأساة اليونانى كانت أغنية تغنى حين تقطيع هذا الرمز أو هذا التجسيد للإله الثمل[١٠١] . وقصارى القول أن المسرحية اليونانية كالمسرحية الإنجليزية استمدت أصلها من الطقوس الدينية .

ويرى من هذا أن المسرحية الأثينية ، مأساة كانت أو ملهاة ، كانت تمثل على أنها جزء من حفلات ديونيسس بإشراف الكهنة فى دار للتمثيل تسمى باسمه ، وعلى يد ممثلين يسمون « الفنانين الديونيسيين » . وكان يؤتى بتمثال ديونيسس إلى مكان التمثيل ، ويوضع أمام المسرح لكى يستمتع بمشاهدة التمثيل ؛ وقبل البدء به يضحى بحيوان للإله . وكان لدار التمثيل ما للمعبد من قداسة . فإذا

ارتكبت فيها جريمـــة عوقب مقترفها لأنه ارتكب خطيئة دينية أكثر مما ارتكب جريمة مدنية . وكما أن الملهاة كان لها مقام الشرف على مسرح مدينة ديونيسيا ، كذلك كان للملهاة المكانة الأولى فى الاحتفال بعيد لينيا ، ولكن هذا الاحتفال نفسه كان احتفالا ديونيسيا فى صبغته . ولعل موضوع التمثيل كان فى بادئ الأمر كالعشاء الربانى عنـــد المسيحيين ، أى عذاب الإله وموته ؛ ثم أذن للشعراء على توالى الأيام أن يستبدلوا بعذاب الإله عذاب بطل من أبطال الأساطير اليونانية . وربما كانت المأساة فى صورتها الأولى مراسم سحرية تهدف إلى الوقاية من المآسى التى تمثلها أو إلى تطهير المستمعين من الشرور تطهيراً أكثر مما يفهم من هـــذا اللفظ عند أرسطاطاليس ؛ وذلك بتمثيل هـــذه الشرور كأنها قد نشأت وانتهت على المسرح[١٠٢] ، ولقد كانت هذه النشأة الدينية للمأساة اليونانية من الأسباب التى وضعتها فى مستوى أرقى من مســـتوى المأساة الإنجليزية فى عصر الملكة إلزبث .

وأضحت فرقة المغنين والراقصين ، التى جعلها أريون فرقة من المقلدين والمحاكين ، أساس الحركات التمثيلية ، وظلت جزءاً أساسياً من المأساة اليونانية حتى آخر مسرحيات يوربيديز . وكان الممثلون الأولون يسمون بالراقصين لأنهم جعلوا مسرحياتهم رقصاً جماعياً قبل كل شىء ؛ وكانوا فى واقع الأمر معلمى رقص[١٠٣] . ولم يكن هذا التمثيل الرقصى والغنائى الجماعى ليحتاج لأكثر من شىء واحد ليصبح مسرحية بالمعنى الصحيح ، ذلك هو وجود ممثل يقابل هـــذه الجماعة ، ويقوم أمامها بأعمال ، أو يتحدث إليها بأحاديث . وقد خطرت هذه الفكرة لواحد من معلمى الرقص ومدربى المغنين هو ثسبيس Thesbis الإيكارياوى — من أيكاريا Icaria وهى بلدة قريبة من مجارا البلوپونيز حيث كانت تمثل فى كل عام طقوس دمتر ، وپرسفونى ، وديونيسس زجريوس . وقد انفصل ثسپيس هذا من فرقة الراقصين والمغنين ، مدفوعاً إلى هذا من غير شك بتأثير

الأنانية التى تحرك العالم وتعمل على تقدمه ، ووضع لنفسه عبارات يقولها بمفرده ، وأوجد فكرة المقابلة والنزاع مع سائر الفرقة ، وقدم للتاريخ المسرحية بمعناها الدقيق ، وقام بأدوار مختلفة من هـــذا القبيل أصابه التوفيق فيها تارة والإخفاق تارة أخرى ؛ ولما أن مَثَّلت فرقته فى أثينة غضب صولون أشد الغضب على ما أظنه خداعاً للجمهور ، وندد بهـــذه البدعة الفنية ، وسماها فساداً خلقياً (١٠٤) — وتلك تهمة طالما اتهم بها التمثيل فى كل جيل . وكان بيسستراتس أوسع من صولون خيالا ، وشجع المباريات التمثيلية فى عيد ديونيسس ؛ وقد فاز تسبيس فى إحدى هـــذه المباريات . وتطورت المسرحية فى شكلها الجديد تطوراً سريعاً استطاع معه كوريلوس Choerilus بعد جيل واحد أن يمثل مائة وستين مسرحية . ولما أن عاد إسكيلوس ، وعادت أثينة ، ظافرين من معركة سلاميس بعد خمسين سنة من حياة تسبيس ، كان المسرح قد تهيأ لاستقبال العصر المجيد فى تاريخ المسرحية اليونانية .

الفصل السادس

نظرة إلى الماضي

إذا عدنا بتفكيرنا إلى الحضارة المتعددة النواحي التي صورنا بعض قممها في الصفحات الماضية ، بدأنا ندرك ما كان اليونان يدافعون عنه في مرثون . ذلك أن بحر إيجة يبدو كتول من النخل اليوناني العامل ، المتنازع ، اليقظ ، المبتدع ، يستقر معانداً في كل ثغر ، وينتقل باقتصاده من الحرث والزرع إلى الصناعة ثم إلى التجارة ، ويبتدع كل ذي روعة من الأدب والفلسفة والفن . ومما يثير الدهشة والإعجاب أن تنضج هذه الثقافة الجديدة بهذه السرعة وتنتشر هـــذا الانتشار الواسع ، وأن تضع في القرن السادس جميع الأسس التي قامت عليها أعمال القرن الخامس المجيدة . ولقد كانت هذه الحضارة من بعض نواحيها أجمل وأرق من حضارة عصر بركليز — فقد كانت أرقى منها في شعر الملاحم والشعر الغنائي ، ينعشها ويزينها ما كان للنساء من حرية أوسع ونشاط ذهني أعمق مما كان لهن في عصر بركليز . ولقد كان هذا العصر المتقدم أحسن حكماً من بعض الوجوه من العصر المتأخر الذي كان أكثر منه دمقراطية ، بل إن أسس الدمقراطية نفسها قد وضعت في ذلك القرن ؛ ذلك أنه قبل أن ينتهي كان حكم الطغاة قد علم اليونان من النظام ما يكفي لجعل الحرية اليونانية مستطاعة الوجود .

وكان تحقيق الحكم الذاتي حدثاً جديداً في العالم ، لأن الحياة من غير الملوك لم تكن قد جرؤ عليها مجتمع كبير في العالم قبل ذلك الوقت . ونشأ من هذا المعنى الجليل ، معنى الاستقلال الفردي والجماعي ، حافز قوي لجميع مغامرات اليونان . وكانت حريتهم هي التي ألهمتهم ما أبدعوه في الفنون والآداب ،

والعلوم والفلسفة ، من روائع لا يكاد يصدقها العقل . ولسنا ننكر أن جزءاً كبيراً من عامة الشعب كان يؤمن بالخرافات ، والأوهام ، والمعتقدات الخفية الغامضة ، والأساطير ، ويعشقها كما يؤمن بها الناس ويعشقونها على الدوام . ولكن الحياة اليونانية قد أصبحت على الرغم من هذا حياة دنيوية إلى حد لم يسبق له مثيل فى التاريخ ؛ وانفصلت السياسة ، والشرائع ، والآداب ، والبحوث ، واحدة بعد واحدة من السلطة الدينية ، وتحررت من سلطانها ، وبدأت الفلسفة تفسر العالم والإنسان ، جسمه وروحه ، تفسيراً مستنداً إلى أسس طبيعية ؛ ووضع العلم ، الذى لم يكد يكون له من قبل(*) وجود . وقوانينه الأولى الجريئة ، فوضعت قواعد الهندسة الإقليدية ، وأضحى وضوح التفكير وتنظيمه ، وصدقه ، المثل الأعلى الذى تنشده أقلية من الرجال هى التى أخرجت العالم من ظلمات الجهل إلى نور العلم . وبذلت جهود جسمية وروحية جبارة للمحافظة على هذه المثل وما تبعثه من آمال ، وإنقاذها من أيدى الاستبداد الأجنبى المميت ، ومن الضياع فى دياجير الغموض والتصوف القديم ، فكسبت للحضارة الأوربية ما تستمتع به من ميزة الحرية التى كلفتها الشىء الكثير .

(*) لعل المؤلف قد نسى ما قاله من قبل عن علوم الأمم القديمة كالمصريين والبابليين ، أو لعل فى قوله « لم يكد » إشارة إلى هذه العلوم . (المترجم)

الباب العاشر

الكفاح فى سبيل الحرية

الفصل الأول

مرثون

يقول هيرودوت : « فى أثناء حكم دارا وخشيارشاى وأرتخشر لاقت بلاد اليونان من الأهوال مالم تلقه فى العشرين جيلا السابقة على هذا لعهد[1] » وكان لابد أن يلقى أهلها جزاء نمائهم وتقدمهم . ذلك أن انتشارهم فى كل مكان لابد أن يؤدى عاجلا أو آجلا إلى قيام النزاع بينهم وبين إحدى الدول العظمى . وإذ كان اليونان يتخذون البحر مطية لهم ، فقد أنشأوا فيه طريقاً تجارياً يمتد من شاطئ أسبانيا الشرقى غرباً إلى أقصى ثغور البحر الأسود شرقاً . وأخذ الطريق المائى الأوربى — الذى يخترق بلاد اليونان وإيطاليا وصقلية — ينافس الطريق الشرقى البرى والبحرى — الذى يخترق الهند وفارس وفينيقية — ويفوقه فى الأهمية على مر الأيام ، ونشأ من هذه المنافسة نزاع شديد لم يخمد أواره قط كان لا بد أن يؤدى إلى ما أدى إليه كل نزاع سابق فى تاريخ البشر ، ألا وهو الحرب السافرة التى لم تكن معارك لادى Lade ، ومرثون ، وبلاتية ، وهيميرا Hymera ، ومكالى Mycale ، ويوريمدون Eurymedon ، وغرانيقوس وإسوس ، وأربيلا ، وكانى ، وزاما إلا حادثات منها صغيرة ، وانتصر الأوربيون على الشرقيين فى هذا الصراع لأسباب عدة ، منها أن النقل البحرى أقل نفقة من النقل البرى ،

ومنها أن من القوانين التي تكاد تتحكم في التاريخ أن الشمال الخشن ذا النزعة الحربية ، ينتصر دائماً على الجنوب اللين السهل مبدع الفنون .

في عام ٥١٢ قبل الميلاد عبر دارا الأول ملك الفرس مضيق البسفور وغزا سكوذيا ، ثم زحف غرباً وفتح تراقية ومقدونية ، ولم يعد إلى عواصم ملكه إلا بعد أن وسع رقعة إمبراطوريته حتى شملت فارس ، وبلاد الأفغان ، وشمالي الهند ، والتركستان ، وأرض الجزيرة ، وشمالي بلاد العرب ، ومصر ، وقبرص ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وشرقي بحر إيجه وتراقية ، ومقدونية . وكانت نتيجة هذه الفتوح أن أعظم الإمبراطوريات التي شهدها العالم حتى ذلك الوقت قد وسعت رقعتها أكثر مما يجب عليها أن توسعها ، حتى ضمت إليها فاتحيها في المستقبل وأيقظتهم من سباتهم ، ولم يبق من الأمم الكبرى في خارج هذا النظام الشامل من نظم الحكم والتجارة إلا أمة واحدة هي أمة اليونان ، التي لم يكد دارا يسمع شيئاً عنها خارج أيونيا قبل عام ٥١٠ ق . م ؛ وقد سأل مرة عن « الأثينيين — من هم[٢] ؟ » . وحدث في عام ٥٠٦ أن قامت ثورة في أثينة انتهت بخلع الطاغية هيباس ؛ ففر إلى المرزبان الفارسي في سرديس وتوسل إليه أن يعينه على استرداد سلطانه ، وعرض عليه إذا استرده أن يتولى حكم أتكا من قبل الفرس .

وكان ذلك إغراء قوياً زاده قوة تحرش موقت . ذلك أن المدن اليونانية التي ظلت خاضعة لسلطان الفرس نحو خمسين عاماً ثارت فجاءة على ولاتها من قبل الفرس ، وطردتهم منها وأعلنت استقلالها . وذهب أرستجراس الميليتي إلى اسپارطة يستمد منها العون ، ولكنه لم يفلح في بغيته ، فجاء إلى أثينة ، وهي المدينة الأصلية التي نشأ منها كثير من المدن الأيونية ، وما زال يلح عليها حتى أقنعها بأن ترسل عمارة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة لمساعدة الثوار . وكان الأيونيون في هذه الأثناء يعملون بعنف وبغير نظام هما من خصائص اليونان

فى كل زمان ومكان ، فكانت كل مدينة ثائرة تجيش جيوشها ولكنها تستبقها تحت قيادة مستقلة . وزحف الجيش الميليتى ، ولدى قيادته من الشجاعة أكثر مما لديه من الحكمة ، حتى وصل إلى سرديس ، وأحرق المدينة العظيمة ودكها دكا . ونظم الحلف الأيونى أسطولا متحداً ، ولكن سفن ساموس عقدت صلحاً سرياً منفرداً مع المرزبان الفارسى ، فلما أن التقت العمارة البحرية الفارسية بالعمارة الأيونيه عند لادى فى عام ٤٩٤ ، ودارت بينهما معركة من أشد المعارك البحرية فى التاريخ ، انسحبت سفن ساموس الخمسين دون أن تشترك فى القتال ، وحذت حذوها كثير من أقسام الأسطول الأيونى[٣] . وهزم الأيونيون هزيمة منكرة ، ولم تفق الحضارة الأيونية بعدئذ إفاقة كاملة من هذه الكارثة المادية والروحية ، وحاصر الفرس ميليتس ، واستولوا عليها ، وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، حتى صارت منذ ذلك اليوم بلدة قليلة الشأن . وبسطوا سلطانهم مرة أخرى على أيونيا ، وغضب دارا لتدخل أثينة فى شئون ملكه ، فصمم على فتح بلاد اليونان ، وألفت أثينة الصغيرة نفسها ، جزاء لها على مساعدتها الكريمة لبناتها من المدن الأيونية ، وجهاً لوجه أمام إمبراطورية أكبر مائة مرة من أتكا .

وفى عام ٤٩١ خاض أسطول فارسى قوامه ستمائة سفينة بقيادة داتيس Datis عباب بحر إيجة من جزيرة ساموس ، ووقف فى طريقه ليخضع جزائر سكلديس ، ووصل إلى ساحل عوبية يحمل مائتى ألف محارب . واستسلمت عوبية بعد مقاومة قصيرة عبر الفرس بعدها الخليج الذى يفصلها عن أتكا ، وعسكر هؤلاء الجنود عند مرثون لأن هپياس قد نصحهم بأن فى وسعهم أن يستخدموا فى هذا السهل فرسانهم ، وهم من هذه الناحية يفوقون اليونان كثيراً[٤] .

واضطربت بلاد اليونان أشد الاضطراب لهذه الأنباء ، ذلك أن الجيوش الفارسية لم تكن قد غلبت قط قبل هذا الغزو ، ولم تكن أمة من الأمم قد

استطاعت أن تصد زحف جيوش الإمبراطورية . فهل فى مقدور أمة ضعيفة ، مشتتة ، لم تألف من قبل الاتحاد لغرض عام ، أن تقف فى وجه تيار الغزو الجارف ؟ وترددت دول اليونان الشمالية فى الوقوف فى وجه هذه الجيوش الجرارة ، واستعدت اسپارطة استعداداً يشوبه كثير من التردد ، وأجازت للخرافات أن تؤخر التعبئة العامة ؛ أما بلاتية الصغيرة فلم تتوان عن العمل السريع وبعثت بقسم كبير من أهلها يستحثون السير إلى مرثون . وحرر ملتيادس العبيد فى أثينة وضمهم إلى الجيش مع الأحرار ، وزحف بهم إلى ميدان القتال من فوق الجبال . ولما التقى الأعداء كان عدد الجيش اليونانى حوالى مائة ألف مقاتل ، أما جيوش الفرس فكانت عدتها فى أغلب الظن حوالى مائة ألف[٥] . ولم يكن الفرس تعوزهم الشجاعة ، ولكنهم كانوا يألفون أن يحاربوا فرادى ، ولم يكونوا مدربين على أساليب اليونان فى الدفاع والهجوم الجماعيين بصفوفهم المتراصة . وجمع اليونان بين النظام والشجاعة . وقد نجوا من الهزيمة الماحقة بالمثل الذى ضربه لهم أرستيديس Aristides إذ نزل عن القيادة لملتيادس ، وإن كانوا قد ارتكبوا ذلك الخطأ الشنيع الدال على الحمق وهو توزيع القيادة العليا بين عشرة قواد يتولاها كل واحد يوماً[٦] . واستطاعت القوة اليونانية الصغيرة بفضل حنكة هذا الجندى القوى الخشن الطباع أن توقع بالجحافل الفارسية الجرارة هزيمة منكرة . ولم تكن هذه المعركة من معارك التاريخ الفاصلة فحسب ، بل كانت فوق ذلك من أعظم الانتصارات التى لا يصدقها العقل . وإذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال اليونان عنها ، فإن الفرس قد خسروا فى مرثون ٦٫٤٠٠ من رجالهم ، ولم يخسر اليونان إلا ١٩٢ . ووصل الاسپارطيون إلى الميدان بعد انتهاء المعركة ، وندموا على تباطؤهم ، وأثنوا على الفائزين .

الفصل الثانى

أرستيديز وثمستكليز

إن سيرة ملتيادس وأرستيديز بعد معركة مرثون لتوضح ما فى أخلاق اليونان وما فى تاريخهم من مزيج عجيب يجمع بين النبل والقسوة ، والمثالية والانحطاط . ولنتحدث أولا عن ملتيادس فنقول إنه قد غره ثناء بلاد اليونان كلها عليه فطلب إلى الأثينيين أن يعدوا أسطولا من سبعين سفينة يتولى قيادته هو وحده لا ينازعه فى ذلك منازع . ولما أن أعدت السفن سار بها إلى پاروس وطلب إلى أهلها مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) وإلا أفناهم عن آخرهم . ولكن الأثينيين استدعوه وفرضوا عليه غرامة قدرها خمسون وزنة ، ولما مات بعد استدعائه بقليل أدى الغرامة ابنه سيمون Cimon الذى صار فيما بعد منافس پركليز(٨) .

وعاش الرجل الذى تخلى لملتيادس عن مكانه فى مرثون ونجا من المزالق التى توجد عادة فى طريق الظافرين . ذلك أن أرستيديز كان فى حياته وأخلاقه اسپارطياً يعيش فى أثينة ؛ وقد استحق بخلقه الهادئ الرزين ، وبساطته ، وتواضعه ، وأمانته التى لا تنال منها الأحداث ، استحق بهذه الصفات لقب العادل . ولما أن تليت على المسرح العبارة الآتية أثناء تمثيل إحدى مسرحيات إيسكلوس :

« فهو لا يتظاهر بالعدالة ولكن العدالة طبيعية فيه ، وهى هدفه فى أعماله ؛ ومن عقله تتفجر ينابيع الحكمة والفطنة » .

لما أن تليت هذه العبارة التفت المستمعون كلهم ناحية أرستيديز ، لأنهم رأوا فيه الأنموذج الحى لهذه الصفات(٩) . ولما أن استولى اليونان على معسكر الفرس فى مرثون ، ووجدوا فى خيامهم ثروة طائلة ، عهدوا إلى أرستيديز المحافظة

عليها « فلم يأخذ منها شيئاً لنفسه ، ولم يسمح لأحد بأن يغتال منها شيئاً[١٠] »
ولما أن طلب إلى حلفاء أثينة بعد الحرب أن يسهموا فى أداء جزية سنوية إلى خزانة الحلف فى ديلوس ليستعان بها فى الدفاع عن بلاد اليونان عامة ، اختير أرستيديز ليقرر ما تؤديه كل مدينة ، ولم يعترض أحد على قراراته . لكن إعجاب الناس به كان رغم هذا كله أكثر من حبهم إياه . وكان صديقاً حميماً لكليسثنيز الذى وسع نطاق الدمقراطية إلى حد بعيد ، ولكنه كان يرى أنها ذهبت إلى أبعد حد مأمون ، وأنه إذا ما زيدت سلطة الجمعية إلى أكثر مما كان لها ، أدى ذلك إلى فساد الإدارة وإلى اضطراب النظام ؛ وكان يندد بالفساد أينما وجده ، وخلق بذلك لنفسه كثيراً من الأعداء : واتخذ الحزب الدمقراطى الذى يرأسه ثمستكليز نظام نفى عدم المخلصين للحكومة ، وكان قد تقرر حديثاً ، للتخلص من أرستيديز ؛ وفى عام ٤٨٢ نفى الرجل الوحيد فى تاريخ أثينة كله الذى جمع بين الشهرة والأمانة ، وكان نفيه فى أوج مجده . والعالم كله يعرف القصة التى تقول — وقد تكون هى الأخرى خرافة لا ظل لها من الحقيقة — إن أرستيديز نقش اسمه على اللوحة التى يكتب عليها اسم من يراد نفيه (الأستراكون) حين طلب إليه ذلك رجل أمى لا يعرفه ولكنه لم يعد يطيق سماع لقب العادل يطلق عليه ، فحقد عليه لهذا السبب كما يحقد أوساط الناس عادة على العظماء . ولما أن عرف أرستيديز أن الجمعية قررت نفيه قال إنه يرجو ألا يأتى اليوم الذى تذكره[١١] فيه أثينة(*) .

ولا يسع المؤرخ إلا أن يعترف أن المتصرفين فى الشئون العامة فى أثينة كانوا يتصفون بما يتصف به رجال الحكم أحياناً من موت الضمير . لقد كان ثمستكليز

(*) ولعله كان يقول مع الشاعر العربى :

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم ... وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

(المترجم)

شعلة من الذكاء والمقدرة لا يقل فى ذلك عن ألقبيادس الذى عاش فى عصر متأخر عنه . ويقول فيه توكيديدس(١٢) وهو المعروف دائماً باعتداله : « إنه خليق بأن نعجب به إعجاباً خارقاً للعادة منقطع النظير » . وقد أنقذ أثينة كما أنقذها ملتيادس ، ولكنه لم يستطع إنقاذ نفسه ؛ وكان فى مقدوره أن يقهر إمبراطورية عظيمة ، ولكنه لم يكن فى وسعه أن يقهر ما فى نفسه من شهوة السلطان ، « وكان يتلقى بمضض وعدم عناية » ، كما يقول أفلوطرخس ، ما يسدى إليه من النصح لتقويم المعوج من أخلاقه وسلوكه ، ولا يقبل أن يعلمه أحد شيئاً من الرقة والمجاملة للناس ؛ لكنه حتى بعد أن تقدمت به السن كان يعنى بكل ما يقال له إذا كان يهدف إلى إصلاح عقله ؛ أو يزيد من قدرته على تصريف شئون الدولة ، وهو واثق من قدرته الطبيعية فى هذه الأمور(١٣) » . وكان من سوء حظ أثينة أن ثمستكليز وأرستيديز قد أحبا معاً فتاة واحدة هى استسلوس الكيوسية Stesilaus of Coes ، وأن ما ولده هذا الحب من حقد كل منهما على الآخر لم يزل بعد أن زال الجمال الذى أشعل النار فى قلبيهما(١٤) . بيد أن ثمستكليز كان هو الذى أعد العدة للنصر فى سلاميس وأحرز هذا النصر بما أوتى من همة وفراسة . وكانت موقعة سلاميس أهم الوقائع الحاسمة فى تاريخ اليونان كله . ذلك أنه قد أعد منذ عام ٤٩٣ مشروع إنشاء مرفأ جديد لأثينة فى پيريه ، وشرع فى إنشائه بالفعل ؛ وفى عام ٤٨٢ أقنع الأثينيين بأن ينزلوا عن نصيبهم فى مال كان سيوزع عليهم من محصول مناجم الفضة فى لوريوم Leurium ، وأن يخصصوا المال لإنشاء مائة سفينة حربية من ذوات الثلاثة الصفوف من المجاذيف . ولو لم ينشئ الأثينيون هذه السفن لما استطاعوا مقاومة خشيارشاى ؛

الفصل الثالث

خشيارشاى أو أخشويرش(*)

توفى دارا الأول فى عام ٤٨٥ وخلفه خشيارشاى الأول . وكان الوالد والولد رجلين يمتازان بالمقدرة العالية والثقافة الرفيعة ، ولهذا يخطئ من يظن أن الحرب اليونانية الفارسية كانت نزاعاً بين الحضارة والهمجية . وحسبنا دليلا على هذا تلك الحادثة التى وقعت حين أرسل دارا رسله إلى أثينة واسپارطة قبل أن يغزو بلاد اليونان ، يطلب إليهما أن ترسلا إليه التراب والماء رمزاً لخضوعهما لسلطانه ، فما كان من المدينتين كلتيهما إلا أن قتلتا الرسل . وتوالت نذر الشؤم على اسپارطة فخشيت عاقبة فعلتها . وندمت على خرقها التقاليد الدولية المرعية ، وطلبت إلى أهلها أن يتقدم منهم اثنان يذهبان إلى فارس وأن يقبلا أى عقاب يفرضه عليهما الملك العظيم ليكفرا به عن غدر مواطنيهما . وتطوع اسپرثياس Sperthias ، وبوليس Bulis من أبناء الأسر الغنية القديمة فى المدينة ، للقيام بهذه المهمة ، وسارا إلى خيمة خشيارشاى وعرضا عليه أن يقتلهما ليكفرا عن مقتل رسله ، ويقول هيردوت إن خشيارشاى « أجابهما جواب الشهم الكريم وقال إنه لا يفعل ما فعله اللسدمونيون ، حين قتلوا رسله واعتدوا بعملهم هذا على القوانين التى يشترك الناس كلهم فى التقيد بها . وإذا كان قد لامهم على فعلهم هذا فإنه لا يفعل مثل ما فعلوه ولا يرتكب من الإثم ما ارتكبوه » .

وأخذ خشيارشاى يستعد لهجومه الثانى على اليونان استعداداً كاملا بطيئاً . فقضى أربع سنين يحشد الجند ويجمع العتاد والزاد من جميع الولايات الخاضعة لسلطانه ، ولما أن بدأ الزحف أخيراً فى عام ٤٨١ كان جيشه فى أغلب الظن

(*) أو زركسير كما يسميه اليونان .

أكبر جيش فى التاريخ كله قبل هذا القرن الذى نعيش فيه . ويقدره هيرودوت تقديراً بعيداً عن الاعتـــدال فيقول إنه كان مؤلفاً من ٢٫٦٤١٫٠٠٠ مقاتل ، ومثلهم من المهندسين والأرقاء ، والتجار ، ورجال التموين والعاهرات . ويقول ـ ولعله هو نفسه لم يكن مؤمنا بقوله — إن جيش خشيارشاى كان إذا ورد الماء ليشرب جفت أنهار برمتها[١٦] . وكان هذا الجيش بطبيعة الحال خليطاً من أمم مختلفة الأجناس والمشارب ، وكان تأليفه على هذا النحو شديد الخطورة عليه . كان فيه فرس ، وميديون ، وبابليون ، وأفغـــان ، وهنود ، وبكتريون ، وسيجديون ، وساكيون ، وأشوريون ، وأرمن ، وكلشيون ، وسكوذيون ، وپيونيون ، وميسيون ، وپفلجونيون ، وفريجيون ، وتراقيون ، وتساليون ، ولكريون ، وبؤوتيون ، وإيوليون ، وأيونيون ، وليديون ، وكاريون ، وكليكيون ، وقيصريون ، وفينيقيون ، وسوريون ، وعرب ، ومصريون ، وأحباش ، وليبيون وأجناس أخرى كثيرة . وكان منهم المشاة ، والفرسان ، وراكبو العربات ، والفيلة ، ومعهم أسطول من سفن النقل والسفن الحربية يبلغ عددها حسب رواية هيرودوت ألفا ومائتي سفينة وسبع سفن . ولما قبض الفرس فى معسكرهم على جواسيس يونان ، وأمر القائد بقتلهم ، نقض خشيارشاى أمره وعفا عن الجواسيس ، وأمر أن يحرسوا أثناء مرورهم بين قواته ، ثم أطلق سراحهم معتقداً أنهم إذا نقلوا إلى أثينة واسپارطة مدى استعداده ، فإن ما بقى من بلاد اليونان سوف يستسلم له[١٧]

ووصل هذا الجيش العظيم إلى الهلسپنت (الدردنيل) فى عام ٤٨٠ وكان مهندسوه المصريون والفينيقيون قد أقاموا عليه جسراً يعد من أعظم أعمال القدماء الهندسية ، وأكثرها إثارة للإعجاب ، وإذا جاز لنا مرة أخرى أن نصدق هيرودوت قلنا إن ٦٧٤ سفينة من ذوات الصفوف الثلاثة من المجاذيف ، أو من ذوات الخمسين مجدافاً ، قد صفت صفين فى عرض المضيق ، ووجهت كل سفينة عكس التيار ، وثبتت فى مكانها بهلب ثقيل . ثم مد الصناع حبالا من الكتان

أو نبات البردى فوق كل صف من السفن من أحد الشاطئين إلى الشاطئ الذى يقابله ، وربطوا هذه الحبال من كل سفينة من السفن ، وشدوها إلى روافع على البر . وقطعت أشجار ونشرت ألواحاً وضعت فوق الحبال وبعكس اتجاهها وربطت بهذه الحبال كما ربط بعضها ببعض . وغطيت الألواح بالحسك ، ثم غطى الحسك بالتراب ، ثم عبد هذا كله حتى يكون شبيهاً بالطريق الممهد ، وأقيم حاجز على كلا الجانبين يبلغ من الارتفاع حداً يمنع الحيوانات من أن يدخلها الخوف إذا أبصرت البحر(١٨) . ولكن كثيراً من الحيوانات والآدميين كان لا بد من ضربها بالسياط قبل أن تجرؤ على اجتيازه . واحتملها الجسر أحسن احتمال ، ولم تمض إلا سبع ليال وسبعة أيام حتى كان الجيش كله قد مر عليه بسلام . ورأى أحد الأهلين هذا المنظر العجيب فأيقن أن خشيارشاى هو زيوس بعينه ، وسأل كيف يكلف رب الآلهة والبشر نفسه عناء فتح بلاد اليونان الصغيرة ، وهو الذى يستطيع أن يدمر هذه الأمة المتعاظمة بصاعقة واحدة(١٩) .

وزحف الجيش سرا مجتازا تراقية ثم نزل إلى مقدونية وتساليا بينا كان الأسطول الفارسى يلازم الساحل يتجنب عواطف بحر إيجة بالسير جنوبا مجتازا قناة حفرها رجال مسخرون ، ثم قطع من برزخ جبل أثوس مسافة يبلغ طولها ميلا وربع ميل . ومن القصص المتواترة أنه كلما أكل الجيش وجبتين حل الخراب التام بالمدينة التى تطعمه ، وأنفقت ثاسوس أربعمائة وزنة من الفضة (أى نحو ثلاثين مليون ريال أمريكى) لإطعام جيش خشيارشاى يوماً واحداً(٢٠) . واستسلمت مدن اليونان الشمالية الممتدة إلى حدود أتكا إما خوفا من الغزاة وإما طمعاً فى الرشا الضخمة التى كانوا يوزعونها على الأعداء ، وانضمت جيوشها إلى جحافل خشيارشاى ، ولم تستعد للقتال من مدن الشمال إلا بلاتيا وثسبيا .

الفصل الرابع

سلاميس

كيف نستطيع أن نتصور فى هذه الأيام ما استولى على اليونان لجنوب من هول وفزع حينما اقترب منهم هذا السيل الجارف المتبابل الألسنة الذى لا يبقى ولا يذر ؟ لقد بدا لهم أن مقاومته حمق وجنون ، لأن الدول التى ظلت موالية للقضية اليونانية لم يكن فى وسعها أن تحشد معشار قوة خشيارشاى ؛ وعملت أثينة واسپارطة للمرة الأولى معا وتعاونتا معاونة صادقة ، وأرسلتا الوفود مسرعة إلى كل مدينة فى الپلوپونيز تتلمس العتاد والرجال ، وأجابتها معظم الدول إلى ما طلبت ؛ ولكن أرجوس رفضت الرجاء ورضيت بما أصابها من مذلة . وجهزت أثينة أسطولا اتجه إلى الشمال للقاء العمارة الفارسية الضخمة ، وأرسلت اسپارطة قوة صغيرة بقيادة الملك ليونداس لتعطل تقدم خشيارشاى عند ترموپيلى . والتقى الأسطولان عند أرتمزيوم Artisium بالقرب من ساحل عوبية الشمالى . ولما رأى قواد الأسطول اليونانى ضخامة الأسطول الفارسى فكروا فى الانسحاب ، ولكن العوبيين خشوا أن ينزل الفرس فى بلادهم ، فأرسلوا إلى تمستكليز قائد القسم الأثينى رشوة قدرها ثلاثون وزنة (نحو ١٨٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) على شريطة أن يقنع قواد اليونان بقتال الأعداء . ونجح تمستكليز فى إقناعهم بعد أن اقتسم المال معهم[٢١] . ثم هداه ما يمتاز به من دهاء إلى وسيلة أخرى ظن فيها فائدة ، فأرسل بعض البحارة لينقشوا على الصخور رسائل إلى اليونان المنضمين إلى الأسطول الفارسى يرجونهم فيها أن يفروا من هذا الأسطول ، فإن كبر عليهم هذا فلا أقل من أن يمتنعوا عن قتال أهلهم وبلادهم . وكان يأمل أن يتأثر الأيونيون بهذه الرسائل إذا رأوها ، وألا يجرؤ خشيارشاى إذا قرأها وأدرك معناها على استخدام

الهيلينيين فى المعركة . ودار القتال بين الأسطولين المتعاديين طوال النهار . فلما جن الليل وقف القتال قبل أن يعقد لواء النصر لأحد الفريقين ، وارتد اليونان إلى أرتمزيوم والفرس إلى أفيتى Aphetae . وإذا ما ذكرنا اختلاف القوتين فى عدد السفن رأينا أن اليونان كانوا على حق حين حسبوا نتيجة المعركة نصرا لهم على أعدائهم . ولما جاءتهم الأنباء بكارثة ترموپيلى أبحر الجزء الباقى من الأسطول اليونانى نحو الجنوب إلى سلاميس ليصد الغزاة عن أثينة .

وكان فى هذه الأثناء قد غلب على أمره عند « الأبواب الحارة » رغم ما أبداه من المقاومة الشديدة التى تعد أروع مقاومة فى التاريخ كله . ولم ينتصر عليه أعداؤه بفضل شجاعتهم ، بل انتصروا عليه بخيانة اليونان أنفسهم . ذلك أن بعض اليونان من أهل تراكيس Trachis لم يكتفوا بأن يدلوا خشيارشاى على طريق ملتو طويل فوق الجبال ، بل فعلوا ما هو أدهى من ذلك وأمر ، إذ قادوا الجيش الفارسى من هذا الطريق ليهاجموا الاسپارطيين من الخلف . وقتل فى المعركة التى نشبت وقتئذ ليونداس والثلثمائة الكبار الذين كانوا معه إلا رجلين ؛ ونقول الكبار لأنه لم يختر معه إلا من كان لهم أبناء حتى لا يكون موتهم سببا فى انقراض أية أسرة اسپارطية . أما الرجلان اللذان لم يقتلا فقد سقط أحدهما فى معركة پلاتية ، وشنق الثانى نفسه اعتقادا منه أن نجاته تجلله العار(٢٢) . ويؤكد المؤرخون اليونان أن الفرس خسروا فى المعركة عشرين ألفا ، وأن خسارة اليونان لم تزد على ثلثمائة(٢٣) . وكتب على قبر أولئك الأبطال تلك القبرية الذائعة الصيت : « اذهب أيها الغريب ونبئ اللسدمونيين أنا نحيا هنا إطاعة لشرائعهم(٢٤) » .

ولما عرف الأثينيون أنه لم يبق أمام الفرس ما يصدهم عن أثينة أعلنوا فى المدينة أن من واجب كل أثينى أن يعمل على نجاة أسرته بخير وسيلة يراها . فمنهم من فر إلى إيجينا ، ومنهم من فر إلى سلاميس ، ومنهم من خرج إلى تروزين Troezen ،

وانضم بعض الرجال إلى بحارة الأسطول العائد من أرتمزيوم . ويصور لنا أفلوطرخس[٢٥] صورة رائعة مؤثرة للحيوانات المستأنسة فى المدينة وهى تسير خلف أصحابها إلى شاطئ البحر ، حتى إذا ما امتلأت السفن بالرجال ولم يبق فيها مكان للحيوانات ملأت الجو بأصواتها . وكان من بينها كلب يملكه أكسانثپوس Xanthippus والد پركليز ، قفز إلى البحر وأخذ يسبح إلى جانب السفينة حتى إذا ما وصل إلى سلاميس مات من فرط الإعياء[٢٦] . وفى وسعنا أن ندرك ما كان يسود تلك الأيام من اهتياج وانفعال ، حتى نذكر أن رجلا من الأثينيين وقف فى الجمعية الوطنية يشير بالاستسلام ، فما كان من مواطنيه إلا أن قتلوه فى التو والساعة ، وأن جماعة من النساء ذهبن إلى بيته ورجمن زوجته وأطفاله بالحجارة حتى هلكوا[٢٧] . ولما أقبل خشيارشاى على المدينة ألفاها خاوية على عروشها أو تكاد ، فأعمل فيها السلب والنهب وأشعل فيها النار .

وبعد قليل دخل الأسطول الفارسى المؤلف من اثنتى عشرة سفينة خليج سلاميس ، واستعدت للقائه ثلثمائة سفينة يونانية من ذات الصفوف الثلاثة من المجذفين ، وكانت لا تزال ألويتها معقودة لقواد مختلفين ، وكانت كثرة هؤلاء القواد تعارض فى المخاطرة بالاشتباك مع الأسطول الفارسى فى معركة فاصلة . وأراد ثمستكليز أن يضطر اليونان إلى القتال اضطراراً ، فلجأ إلى حيلة لو أنها انتهت بفوز الفرس لكان جزاؤه الموت لا محالة . ذلك أنه أرسل إلى خشيارشاى عبداً يثق به يقول له إن اليونان يعتزمون الفرار فى أثناء الليل ، وإن الفرس لا يستطيعون منع هذا الفرار إلا إذا أحاطوا بالأسطول اليونانى ؛ وعمل خشيارشاى بالنصيحة . ووجد اليونان فى صباح اليوم الثانى أن المسالك كلها قد سدت فى وجوههم ، فلم يروا بدأ من القتال . وجلس خشيارشاى فى أبهة وجلال عند سفح جبل إجليوس Aegaleus على شاطئ أتكا المقابل لخليج سلاميس يرقب سير القتال ، ويدون أسماء من يبدون من رجاله شجاعة ممتازة . وانتهت

الواقعة بفوز اليونان بفضل براعتهم فى أساليب الكر والفر ، وفى ركوب البحار ، وبسبب ما أحدثه فى صفوفهم من الخلل واضطراب اختلاف اللغات والعقول ، وكثرة ما لديهم من السفن التى عاقتهم عن سرعة الحركة . ويقول ديودور إن الغزاة خسروا مائتى سفينة مقابل أربعين خسرها المدافعون ؛ ولكننا لا نعرف ما يقوله الفرس أنفسهم عن النتيجة . ولم يقتل من اليونان إلا عدد قليل حتى من رجال السفن التى خسروها ؛ فقد كانوا كلهم بارعين فى السباحة ، ولذلك خاضوا الماء حتى وصلوا إلى البر حينما غرقت سفائنهم[٢٨] . وفرت المراكب الباقية من الأسطول الفارسى إلى مضيق الهلسپنت (الدردنيل) ، وأرسل الداهية ثمستكليز عبده مرة أخرى إلى خشيارشاى ليقول له إنه قد أقنع اليونان بعدم اقتفاء أثر الأسطول الفارسى . وترك خشيارشاى ثلثمائة ألف من رجاله بقيادة مردنيوس ، وعاد مع بقية الجيش ذليلا كسير القلب إلى سرديس ، فوصلها بعد أن مات فى الطريق جزء كبير من قوته بالأوبئة والزحار .

وفى العام الذى انتصر فيه اليونان فى سلاميس ، نشب القتال بين يونان صقلية والقرطاجنين فى هيميرا Himera — وقد يكون ذلك فى نفس اليوم الذى دارت فيه رحى القتال فى سلاميس (٢٣ سبتمبر سنة ٤٨٠ ق . م) إذا صدقنا ما يقوله اليونان أنفسهم . ولسنا نعرف هل كان فينيقيو أفريقية يعملون بالاتفاق مع من كانوا يؤيدون منهم خشيارشاى ومن أمدوا سفنه بكثير من الرجال ؛ وربما كان من المصادفات المحضة أن يجد اليونان أنفسهم يهاجمهم أعداؤهم من الشرق ومن الغرب فى وقت واحد[٢٩] . وتقول الرواية المتواترة إن هملكار قائد العمارة القرطاجنية وصل إلى پنورموس Panormus على رأس ثلاثة آلاف سفينة وثلثمائة جندى ، ومنها سارة لمحاصرة هيميرا ، وهناك قابله جيلون Gelon السرقوسى ومعه خمسة وخمسون ألف مقاتل . ووقف هملكار بعيداً عن مكان المعركة كعادة قواد الفينيقيين ، وأخذ يحرق القرابين للآلهة ورحى الحرب دائرة ،

ولما تبين أنه مهزوم لا محالة ، ألقى بنفسه فى النار . وأقيم له قبر فى تلك البقعة نفسها ، وفيها قتل حفيده هملكون Himilcon بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ثلاثة آلاف يونانى انتقاماً منهم لجده[٣٠] .

وبعد عام واحد (أغسطس سنة ٤٧٩) تم تحرير بلاد اليونان على أثر معركتين إحداهما بحرية والأخرى برية حدثتا فى وقت واحد تقريباً . ذلك أن جيش مردنيوس — وكان يعيش مطمئناً من خيرات البلاد — كان قد ضرب خيامه قرب پلاتيه فى سهول بؤتيه . وهناك اشتبكت معه قوة يونانية قوامها ١١٠٫٠٠٠ رجل بقيادة پونياس ملك اسپارطة ، بعد أن ظلت أسبوعين فى انتظار فأل طيب يبشر بالنصر . ودارت بينهما معركة كانت أعظم المعارك البرية فى هذه الحرب . ولم يكن الجنود الأجانب فى جيش الفرس متحمسين للقتال ، وما كادوا يرون الفرقة الفارسة التى تلقت الضربة الأولى من ضربات المهاجمين تتزلزل أقدامها ، حتى ولوا الأدبار ، وانتصر اليونان على الفرس انتصاراً مؤزراً لم يخسروا فيه (حسب أقوال مؤرخيهم) سوى ١٥٩ رجلا ، بينما كان عـــدد القتلى من الجيش الفارسى ٢٦٠٫٠٠٠(*) . وفى اليوم نفسه — كما يؤكد اليونان — التقت عمارة بحرية يونانية بقسم من الأسطول الفارسى أمام شاطئ ميكالى وسط الجزائر الأيونية كلها وملتقى مسالكها ، ونشبت بين الأسطولين معركة تحطم فيها الأسطول الفارسى ، وتحررت المدن الأيونية من نير الفرس ، واستعاد اليونان سيطرتهم على الهلسپنت والبسفور ، كما استعادوا هذه السيطرة من طروادة قبل ذلك الوقت بسبعمائة عام .

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذه الأرقام التى يذكرها هيرودوت إنما أملتها عليه فورة من فورات الخيال الوطنى . وحاول أفلوطرخس أن يكون نزيهاً فى إيراده الحوادث فرفع خسارة اليونان على ١٣٦٠ ، ونزل ديودور الصقلى — وهو الرجل الكريم على الدوام فيما يذكر من الأرقام — بخسارة الفرس إلى ١٠٠٫٠٠٠[٣٢] . ولكن أفلوطرخس وديودور نفسهما كانا من اليونان .

لقد كانت الحرب اليونانية الفارسية أهم حوادث الصراع فى تاريخ أوربا ، ولولاها لما قامت لأوربا قائمة . فهى التى أتاحت للحضارة الأوربية الفرصة التى أمكنتها من أن تثبت قواعد حياتها الاقتصادية لا تبهظ كاهلها جزية أو ضرائب أجنبية ، وأن تنمى نظمها السياسية ، محررة من سيطرة ملوك الشرق . وبفضلها شقت بلاد اليونان لنفسها الطريق لأولى التجارب العظيمة فى الحرية ، وحفظت العقل اليونانى ثلثمائة عام كاملة من تصوف الشرق الموهن ومذاهب الباطنية ، وضمنت للمغامرات اليونانية حرية البحار . ونهض الأسطول الأثينى أو جزؤه الذى بقى بعد معركة سلاميس ففتح جميع مرافئ البحر المتوسط للتجارة اليونانية ؛ وهذا التوسع التجارى الذى أصبح بهذه الطريقة ميسراً مأموناً ، أمد أثينة بالثروة التى أمكنتها من أن تتفرغ لنشاطها الثقافى من عهد پركليز . يضاف إلى هذا أن انتصار هيلاس الصغيرة على جيوش الفرس الجرارة قد بعث العزة فى نفس أهلها وسما بروحهم المعنوية ، فأحسوا بأن الداعى يدعوهم للقيام بجلائل الأعمال اعترافاً منهم بالنعمة التى أنعم عليهم بها . وهكذا دخلت اليونان بعد مئات السنين من الاستعداد والتضحية فى عصرها الذهبى المجيد .

(انتهى الجزء الأول)